المجلس هدى الإسلامي

تاريخ اليمن الفكري

في العصر العباسي

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ اليمن الفكري

في العصر العبّاسي

١٣٢ - ٦٥٦ هـ

٧٥٠ - ١٢٥٩ م

السِّفْر الأوَّل

تأليف

أحمد بن محمّد الشامي

منشورات العصر الحديث

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

طبع وتوزيع :
دار النفائس بيروت - ص.ب : ١٤/٥١٥٢ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقيا : دانفايسكو

الكِتَاب وَمؤَلّفه

بقَلَم

معَالي الأستاذ إبرَاهيم بن عَلي الوَزير

هذا الكتاب ومؤلفه

عرفت أستاذنا السياسي المناضل الأديب الكبير والشاعر الأصيل والباحث المتعمق أحمد محمد الشامي في « أيام يقظة فكر حي » إذا صح هذا التعبير . في تلك الأيام الخوالي كان الفكر الاسلامي المتجدد ، بتجدد الحياة نفسها وسيرها العام ، قد بعثته اصداء تاريخ طويل من تراث الحركة الاسلامية القرآنية الهادرة خلال القرون والأجيال . وكانت تلك الأجيال قد دخلت ، بعد قوة وعزة وسمو وكرامة ، مرحلة تخلف ووهن ومذلة وهوان ، بحكم قانون « الصلاحية العامة » القائم على سنن لا تتخلف نتائجها الصارمة . لقد رشحتها الظروف العامة للخمود والسكون وعدم الفاعلية فدخلت بذلك مرحلة عصور الانحطاط والتخلف . . ! !

ولكن قوى فيها ومنها ظلت تقاوم ذلك ، إذ هي بطبيعتها مستعصية على الاندثار والزوال . وكانت صيحة الحياة المعاصرة الماضية وفق سنن الله قد جاءت ممهدة لها ، مؤثرة في يقظتها نحو إنطلاق فاعل مؤثر . وكان هدير تلك الصيحة المعاصرة يملأ الواقع المعاش على مستوى الأرض كلها ، ويبعث أسبابا جديدة تتصدى لما أصاب الفكر من أسباب تقهقر وسكون ، ويحيلها الى يقظة وحركة وايجابية . . .

وكان هذا الفكر ، بكل تلك المعاني في اليمن آنذاك ، هو الموجه لطلائع الشباب المسلم ، فقد استيقظت اليمن على ذاتها الحق من خلال تراثها الاسلامي الحي ، وفتحت عينيها على ضوء نهار عصر جديد ومعطيات متنوعة ومتجددة .

أما فكر التخلف والانغلاق فكان قد ترعرع في عتمة العزلة والاستغلال

والطاغوت ، منفصلا بذلك عن ماض مجيد وعن ظروف حاضر زاخر بالحيوية والتقدم المستمر .

ولقد حاول ممثلو هذا الفكر المتخلف المنغلق أن يعيقوا الفكر المستنير بمبادىء الاسلام ، وهي المبادىء التي تصنع حياة العدل والعزة والكرامة وحرية المشيئة ، وتعد الأسباب لتقدم الأمة ورقيها وإمتلاكها لوسائل القوة ، دفاعا عن الحق وعن أسمى وأسعد وأرقى حياة ممكنة للانسان على الأرض ، وتمكينا لقوى الخير من أن تعم ظلالها الوارفة العالمين .

كانت الغاية الجليلة للوحي ـ وهي الغاية التي رسمها الله في ضمير الانسان وفطرته منذ هبوطه الى الأرض الى يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ هي « العدل » .
« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » ـ العدل .

ورسم لهم المَعْلَم الرئيسي لسيادة العدل :
« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .
وتلك هي بيانات الاستجابة الحقة لله . . .
وتلك الغاية هي الموجهة لذلك الفكر الحي المجدد للحياة والحارس لكرامة الانسان وسعادته وهناءته .

وكانت بيانات رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضيحاته تحدد لهم معالم الطريق ، وكذلك تطبيقاته وتطبيقات المؤمنين بذلك الفكر الهادي الى صراط مستقيم .

يقول رسول رب العالمين :
« لو كنت مؤمرا أحدا من دون مشورة المسلمين لأمرت بن أم عبد » .

ويقول الصديق :
« أطيعوني ما أطعت الله ، فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

ويقول الفاروق :
« إذا وجدتم في أعوجاجا فقوموني » .
فيجيبه ضمير الأمة بلسان أحد حاملي أمانة فكر الحقيقة . . . فكر الاسلام :
« لو وجدنا فيك أعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » .

ويضيىء وجه عمر بفرحة الوعي بالعدل والامتلاء بموازينه الرائعة ، ويجيب :
« الحمد لله الذي وجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » .

ويقول تلميذ رسول الله الأول وأخوه وصفيه ومن هو منه بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعده ، يخاطب الأمة :

« ليس لي أمر دونكم » .

وقول ذي النورين عثمان يخاطب مجلس الشورى العام في المسجد الجامع :

« إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في قيود فضعوهما » .

وقول عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين :

« لقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي مني ، وعلى غير مشورة من المسلمين . . . وإني أخلع بيعة من بايعني ، فاختاروا لأنفسكم » .

فقال الناس بصوت اجماعي ، والمسجد غاص بهم :

« بل أياك نختار . بل أياك نختار . . . » .

لقد أدركوا بحاسة الشعوب التي هي على بقية من الخير ولم يغب عنها الشعور بما هو حق وما هو باطل ثورة الحق التي تعود بالأمة الى نهجها المشرق وصراطها المستقيم .

وفي سير التاريخ يأتي صوت الهداة الثائرين من أجل حرية مشيئة الانسان ومن أجل كرامته ، وذلك بتحقيق العدل السياسي والاجتماعي . هكذا يجلجل صوت أبي الشهداء الحسين نورا يبدد ظلمات العسف والقهر والذل والطاغوت .

وفي الدرب المشرق بالبطولات وعمق المعاني الانسانية وآفاق الفكر ومجالات القدوة والأسوة تتألق أسماء زينب وزيد والنفس الزكية وابراهيم الامام وعمرو بن عبيد وأبي حنيفة ومالك ومحمد بن ادريس الشافعي وسعيد بن جبير ويحيى بن عبد الله والحسين الفخي وأحمد بن حنبل والقاسم الرسي والهادي يحيى بن الحسين .

وتضيىء سماء الفكر والتأليف والتدريس في اليمن أسماء معمر وعبد الرزاق الصنعاني والبلوي ومسلم اللحجي ، ومحمد بن ابراهيم الوزير ويحيى بن حمزة والمقبل والشوكاني والأمير ، والعديد من الأسماء التي أضاءت سماء الفكر بمواكب النجوم المتتابعة على الدوام والاستمرار .

ومعهم في العصر الحديث وفي مطالع نهضة أمتنا ومستهل يقظتها في هذا الجزء الهام من الدار الاسلامية يمن الاسلام تتألق أسماء علمائنا المجاهدين :

علي بن عبد الله الوزير راعي حركة الاصلاح والثورة في يمننا المجاهد .

وعبد الله بن أحمد الوزير إمام ثورة ربيع الثاني عام ١٣٦٧ هـ ، ورمز قيادتها ومجدها .

وحسين الكبسي مثال التضحية ونكران الذات .
وعبد الله بن علي الوزير مفجر الثورة وفدائيها الصامد .
وأحمد الوريث المفكر المجدد وداعية الاصلاح .
والشيخ عبد الله علي الحكيمي المثل الوقور للجهاد والصبر والصمود .
والشيخ حسن الدعيس الفيلسوف الأنسان . . .
وسواهم من الأسماء المشرقة في تاريخ جهاد شعبنا وحياته الفكرية المتألقة بالحق والخير والدعوة الدائمة والمستمرة الى الاصلاح وتقدم الحياة .

وتتناغم مع ذلك الخط أسماء أحمد المطاع ، ومحمد المسمري ، وأحمد الحورش ، ومحيي الدين العنسي ، وزيد الموشكي ، ومحمد محمود الزبيري ، ويحيى زبارة ، ومؤلف هذا الكتاب أحمد الشامي ، والعديد العديد من الأسماء المتألقة بالجهاد والكفاح . . . يتجاوبون مع تراثهم الاسلامي الماجد ومع صوت الحقيقة ، ومع عمالقة الفكر والجهاد في مطلع النهضة الفكرية المعاصرة ، من أمثال مصلح الشرق وموقظه جمال الدين الأفغاني ، والأستاذ الامام محمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وعبد القادر الجزائري ، وابن باديس ، والامامين حسن البنا وأبو الأعلى المودودي ، ومحمد عبد الكريم الخطابي والفضيل الورتلاني الجزائري . . .

تراث الاسلام وتعاليمه المشعة وسير الزمان والتاريخ . . . كل ذلك صنع النهضة المعاصرة التي صاغ منها أحمد الشامي فكره وخطواته الجهادية ، بشكل عام ، منذ بواكير عمره . كان نماؤه العلمي والفكري ينهل من شلالها المتدفق بالحياة . وهذا ما جعله هو والقدوة من رجالات عصره ورفاق مسيرته في طليعة من طلائع ثورة الفكر في ربيع الثاني عام ١٣٦٧ هـ .

في تلك الفترة ، وفي ليلة صافية الأديم مشرقة النجوم ، كنت مع أخي الأكبر أحمد بن علي الوزير في زيارة للفضيل الورتلاني . وفي تلك الأمسية عرفت أحمد الشامي الذي صحبنا عند عودتنا الى المنزل من تلك الزيارة التي لا تنسى . ولم ألقه بعد ذلك إلا بعد أربع سنوات في معتقل قاهرة حجة . وما كنت أدري أن ذلك اللقاء العابر في ذلك الهزيع من الليل سيتبعه لقاء دائم عامر بالمودة والوفاء والتقدير ، وأنه سيكون واحدا من أساتذتي الذين لهم الأثر الأول في تكويني الفكري والثقافي .

استقبلني في المعتقل استقبال الأخ لأخيه والأب لوحيده . وفي حفلة تكريم في المعتقل حياني بقصيدة معبرة عن صدق عواطفه وكريم تقديره للشهداء الذين سفكت دماؤهم وهدمت مساكنهم ونهبت أموالهم وروعت أسرهم وأطفالهم في سبيل الله ، تحقيقا للشورى في الأمر ، والعدل في الامرة والمال والحياة ، والخير في الأرض رسالة أمة الاسلام .

وفي تلك الظروف العصيبة لم يكن أحد يجرؤ حتى على مجرد الكلام معنا ، فكيف بالعناية بنا والاهتمام بدراستنا . كانت العزلة التامة مضروبة ومفروضة على أهلنا وأطفالنا . وفي المعتقل نفسه كانت عناية أحمد الشامي بنا مغامرة طالما حذروه منها . لقد كان الفكر أقوى من سطوة الجبارين حتى أن أحد صرعى الفكر المظلم المنغلق والخيانة المصرة ـ وكان يدعي الاستنارة ، شأنه شأن المنافقين في كل زمان ومكان ، يظهرون غير ما يبطنون ـ كتب الى الامام بأنك عانيت كل حياتك من شخصين هما علي بن عبد الله الوزير وعبد الله بن أحمد الوزير ، وأن أحمد الشامي يهيىء الآن من يخلفهم . بذلك تم عزل أولئك الفتيان الذين عكفوا على دراسة فكر يضيىء لهم الحياة في حبس انفرادي . . .

إذا قلت إن رحلة أحمد الشامي الحياتية هي رحلة فكر لم أبعد عن الصواب . وفي تلك الرحلة التي خاض لججها الصاخبة وحلق في آفاقها الهادرة بشلالات التاريخ ، أمدنا أحمد الشامي بكتب وبحوث ودراسات تساعدنا على أن نواكبه في رحلته الفكرية ، وهي رحلة في تراث الأمة وفي أعماق التاريخ الذي يضيىء درب المستقبل للأمة بالعزة والكرامة في مواجهة الفكرة المظلمة التي تصنع الشر والآثام والمآسي والأحزان وتعيق الانسان عن بلوغ الأفق المضاء بالعدل والحرية والمساواة . والشامي في حياته الفكرية يسير في خط واضح قد تحجبه غيمة صيف لا تلبث أن تنقشع فيعود الى سمائه الفكرية صفاؤها الأصيل . وهذا الصفاء هو الذي يعبر عن حقيقته لا ما يمليه ظرف هنا أو هناك ، أو تعتريه نقطة ضعف بشري ثم لا يلبث القوي الأصيل فيه أن يتغلب على الوهن النفسي الطارىء عليه .

هكذا فقد مضى أحمد الشامي في معظم كتاباته مدافعا عن الحقيقة ومنبها على خط الزيف ، كاشفا له بقوة منطق وبرهان وحجة ، إلا ما ندر من ذلك كأن يكون في حال اضطرار أو تقية مبررة من وجهة نظره . ومن دراساته للتاريخ والفكر نشعر بتأكيده الدائم على « الحس التاريخي » الذي يكشف الحق ويميزه من الباطل ، والأصيل من الزيف والزور ، ويقوي في الأمة المناعة ضد الانحراف والسقوط في مهاوى الذل والطغيان ، وينبه الملكات الفكرية بكل طاقاتها تنبيها قويا الى خطورة الانحراف عن الحق بما أطلق عليه : « ورثة النظرية » . وقصد بذلك الوارثين لها انتفاعا بها واقتساما لتراثها وآثارها ومكانتها في النفوس والقلوب ، لا عملا بها وتقيدا بمعالمها وتحقيقا لرسالتها والتزاما بنهجها بصفتها حقا عاما . إن النظرية العظيمة بعد أن يرحل عن الحياة أولئك الذين قاموا بها وجسدوا مثلها وأسسوا صرحها الشامخ يظن ورثتها أنها صارت ملكا لهم يتوزعونها توزع المتاع وينتفعون بها زورا وبهتانا ، علما بأنهم أبعد الناس عنها جملة وتفصيلا .

وقد ضرب الأمثلة التاريخية على ذلك في كثير من بحوثه ودراساته بأسلوب علمي

رصين . وعلى كل حال فقد أطلق القرآن الكريم على أمثال هؤلاء صفة « الخلف » : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة » ، فلم تعد لهم صلة بالله الذي يجعلهم على صلة بالحق وما يدعو اليه . وتستأنف الآية ذكر الأسباب : « واتبعوا الشهوات » فهي إذن الأهواء وما يشتهون لا ما يعقلون ويعلمون ويفقهون وما يلزمهم به الفكر ، وهذه الأهواء هي ما تلزمهم به شهواتهم المتأرجحة مع مصالحهم الأنانية الضيقة . ثم تذكر الآية النتيجة : « فسوف يلقون غيا » سورة مريم آية ٥٩ ، فهم إذن لا يلقون إلا نهايات مظلمة لابتعادهم عن خط فكر أضاء لهم الطريق ، وهداهم الى سواء السبيل .

وهنا ، وعلى نقيض « ورثة النظرية » ، في جانبها السلبي لا الايجابي ، يظهر طهر وبركة وفضل أولئك الذين كانوا للنظرية مثلا حيا إنتماء وتطبيقا : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » ، « ذرية بعضها من بعض » لأنها عاملة بما تعلم كما قال أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام وهو يدعو ربه لذريته وورثة منهجه : « فمن تبعني فانه مني » ، فهي بالعمل إذن ، مباركة في العالمين ، ومختارة على علم بعيدا عن عمل غير صالح يصرفهم وينسيهم طهر الانتماء ونعمة الفضل الالهي المقترن بالعمل الصالح النقي من الرجس المطهر بنقاء العمل الايماني الملتزم بسبيل الله الذي ترسم معْلَمه المضيء أبدا ريشةُ الوحي :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » سورة التوبة آية ٢٤ ، وقوله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ! ! ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلّا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » سورة الأعراف آية ١٦٩ ، وقوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » سورة الأنبياء آيات ١٠٥ و ١٠٦ و١٠٧ ، وقوله تعالى : « ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » سورة الأعراف آية ٤٣ ، وإذا فهو العمل سواءً للذرية أم الاتباع لا مجرد الوراثة .

إن أحمد الشامي ينبه الأمة باستمرار الى خطورة الانحراف بتأكيده على بناء « حس تاريخي » لدى كل قوى الأمة ذات التأثير والفعالية ، وعلى الرؤية بوضوح تام لجرائم « ورثة النظرية » أو « الخلف » بتعبير الوحي الخالد المعجز . وكذلك يوضح الأسس العاصمة حتى لا يفرط ذو مرة أو يطغى . إنه بدراساته وبأبحاثه وتنقيبه الدائم الذي لا يعرف الكلل في كنوز التراث ومعطياته التطبيقية يبرز الفكر المضيء البناء . بذلك يدعو الأمة كل الأمة الى أن تكون سدا فكريا مشرقا وسامقا لا تقتحم ذراه العالية

وسدوده المحكمة المكينة ثعالب الطغاة وأفاعي الجبارين وحشرات لصوص الحكم المتغلبين .

كذلك يدعو بقوة الى تطهير مجتمعاتنا من كل ما أفرزته الأفكار السقيمة من تسلط وأهواء لقيطة تسمى بالقوانين والأنظمة ، وتطهيرها أيضا من كل تزييف متعمد للحقائق ، وقتل متعمد لمضامين الكلمات ، هدفه إغراق الجيل النامي في ضباب كثيف لا تتألق في جوانبه القاتمة ومضة نور ، وغايته أن يزوّر الناس حياتهم وتموت ضمائرهم وهم يشهدون . . .

وأنا أدعو القارىء الى القيام بهذه الرحلة الفكرية مع أحمد الشامي ، لا في هذا الكتاب فقط ، وإنما كذلك في غالب ما أنتجه وما نأمله منه في مستقبل الأيام . وكما أن لأحمد الشامي صوابه وقممه فان له أيضا أخطاءه وأهواءه وعثراته وزلاته . وتلك هي سمة الانسان الذي يصارع فيما يصارع أهواءه فينتصر هنا وينهزم هناك . والمهم في هذا الكر والفر هو محصلة الصراع في مجمله العام . . .

وتلك هي من الموازين القسط .

ومهما تقلبت الظروف بأحمد الشامي ، ومهما هبت عليه الرياح المختلفة ، فقد ظل في أدوار حياته التي لا تعرف السكون تربطه بالفكر والحرية روح عنيدة مقاومة تكشف عن حقيقته وتمزق كل ستر يحاول أن يخفيها أو يحجبها . إن روحه الشفافة تظهر مهما دجت الغيوم وعتم الليل ، ومهما ضغطت عليه الظروف فترنح تحت جذبها . إن روحه الأصيلة وفكره المستنير يقاومان بصلابة وعناد وصمود واصرار ، بل إنهما يقاومان ذاته نفسها قبل أن يقاوما محيطه وما يستجد على ظروفه وأهوائه . ويظهر ذلك في مواقفه التي إذا استفزت مبادئها الأصيلة المعبرة عن أعماق حقيقته ثار حتى على مصالحه نفسها . ومن يعرف أحمد الشامي ويخبره يعلم الروح الأصيلة فيه ، تلك الروح التي ترهقه من أمره عسرا .

لأحمد الشامي أعمال فكرية ستظل باقية ما بقي كفاح وتوق الى المثل العليا ، ولكن قمة شوامخه الفكرية ـ وأزعم ذلك ـ هو كتابه هذا الذي جلّى فيه حقائق كثيرة كانت غائبة عن ميدان الثقافة وتاريخ الفكر . وقد كان له من جلده وصبره على الدراسة والبحث والتنقيب وسهر الليالي الطوال ما يذكرنا بعظماء المؤلفين من أسلاف الأمة . وقد أمده ذلك الدأب الطويل الذي لا يعرف الكلل أو الملل بطاقة عظيمة متجددة أعانته على البحث والاستيعاب والاستقصاء واستخراج كنوز التراث .

وعندما أطلعت على جزء من هذا الكتاب مخطوطا لم أستطع أن تفارقه يدي الى أن

أكملت مطالعته ، فقد كان كثير مما فيه جديدا عليّ كل الجدة برغم قراءاتنا على أستاذنا الشامي العديد من الكتب ، وخاصة في تاريخ الأدب الذي هو الاطار الواسع للفكر . وأعتقد أن هذا البحث الكبير سيكون بمثابة فتح جديد لمفكري عالمنا الاسلامي والانساني ، ولمؤرخي تراث الانسانية ، من حيث الكشف عن العطاء الفكري لليمن في ذلك الوقت المبكر ، وكيف كانت تلك الرقعة من الأرض مركزا عالميا للفكر يشع في جميع الاتجاهات . كنا نعتقد أن عواصم الفكر والعلم هي « بغداد » و« دمشق » و« القاهرة » و« غرناطة » و« القيروان » و« الكوفة » و« البصرة » وحسب . لم نكن نضيف اليها « صنعاء » و« صعدة » ، وفيما بعد « زبيد » و« جبلة » و« عدن » و« تريم » ومراكز العلم في اليمن ، ولكن أحمد الشامي جلّى حقيقة جديدة هي أهمية اليمن مركزا لاشعاع فكري لا يقل أهمية عن عواصم العلم والفكر ، آنذاك ، في العالم كله . . .

وفي هذه الرحلة الفكرية نسمع أصداء المفكرين العظام الذين أعتنى بتراثهم دراسة وتحقيقا واستخلاصا للنتائج المضيئة على طريق المستقبل غير المنفصل عن جذوره الضاربة في تاريخ ماجد محفز للهمم ومطلق للطاقات :

همام بن منبه ومعمر واللحجي وعبد الرزاق الصنعاني ، والثائرين العظام الامام يحيى بن عبد الله وداعيته الكبير مجتهد الاسلام الامام محمد بن ادريس الشافعي .

ومازالت أغنية العزم وأنشودة التصميم يرددها الزمن في جريانه الخالد منذ أن شدا بها الامام الشافعي ، وهو في طريقه الى إحدى عواصم العلم في العالم آنذاك « صنعاء » :

لابد من صنعا وإن طال السفر . . .

وفي مسيرة العدل والثورة والفكر والحياة والعلم في نسق واحد كانت صنعاء أحد المنطلقات الهامة لبناء اصلاح على مستوى الأرض كلها آنذاك .

تلك أسماء لامعة يعرفها كل من له المام بالتاريخ . ولكنني قرأت وسمعت لأول مرة عن « بشر البلوي » هذا المفكر العظيم الذي يذكرك بالخالدين في تاريخ الانسانية مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو والجاحظ والبلخي والمعري .

وتكشف هذه الرحلة الفكرية عن أسماء لامعة في مجال الشعر ممن أغفلتهم كتب التراجم مثل :

أحمد بن يزيد القشيبي الكبير الأول ، والقشيبي الثاني ، وأحمد بن عيسى الرداعي واصف جزيرة العرب شعرا في قصيدته الخالدة عن « الحج » ، وبكر بن مرداس الصنعاني وسواهم . . .

وفي هذه الرحلة الفكرية صحح كثيرا من المفاهيم التاريخية التي وقع فيها كثير من المستشرقين وبعض المؤرخين الذين أعماهم الحكم المسبق المتأثر بنوازع طائفية ضيقة أو عنصرية مفتعلة عن رؤية الحقيقة كما هي دون زيادة أو نقصان . ويؤدي هذا التسرع غير المتعمق الى ابتسار أحكام غير موضوعية ، ولا سيما عندما تحدث عن لسان اليمن الهمداني وكتبه ونشوان الحميري ونهجهما . لقد أثبت بالحقائق القاطعة ومن أقوالهما الصريحة التزامهما في نطاق المدارس الاسلامية الاجتهادية « المنهج الزيدي » ، بعيدا عن التأثر بواقع المنتسبين اسما أو نسبا الى مؤسس نظرية العدل والتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الزيدية من « ورثة النظرية » المنتفعين بها لا العاملين بها الملتزمين بتعاليمها ، أولئك الذين تبتلى بهم النظريات العظيمة فيعيثون باسمها دون حقيقتها فسادا في الأرض وتقطيعا للأرحام كما وصفهم الله « فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » .

أما ما كتبه عن « المطرفية » والصراع الفكري خلال تلك القرون فهو فريد في بابه والأول من نوعه . والفصل الرائع الذي له عميق الصلة بآفاق الفكر الانساني ، لا في الماضي فحسب بل وفي مستقبل الفكر عامة ، سيفتح النقاش والحوار بين الدارسين والمفكرين على مصرعيه . . .

وحتى لا أشغل القارىء بايماءات عن البحث الرائع الواسع ، فالى الكتاب بمفكريه وشعرائه ودوله وعلومه وآدابه وشعره وفنه وحركة التأليف وما يضطرب في سيره التاريخي من فكر وفلسفة وآثار وفرق ومذاهب من « زيدية » و« مطرفية » و« اسماعيلية » و« معتزلة » و« سنية » و« أشعرية » و« سلفية » وفقهاء ومجتهدين وساسة وثائرين وأئمة عادلين وآخرين جائرين قاسطين ، وثورات وانتفاضات ، وما حملته القرون الخمسة الى نهر التاريخ الخالد الجريان . وإن في ذلك لثراء للعقل ودروسا وعبرا وعظات تلقي أضواء على طريق مستقبل الفكر والحياة لتكون أخصب وأجمل وأجل وأنقى وأتقى وأعدل . وحسب الكتاب ومؤلفه ذلك .

سلاو/ بريطانيا في ٢٠ رمضان ١٤٠٧هـ .

٢٧ أيار ١٩٨٧ م .

ابراهيم بن علي الوزير

المقدمة

تاريخ آداب العرب ونصيب اليمن منه . .

لمّا فشلت حركة « الدستور » الاصلاحية في اليمن سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ م . . وساقتْني الأقدار مع قافلة العلماء والأدباء والوجهاء إلى معتقلات « حجة » ، وكنت يومئذٍ في شرخ الشباب وميعته ، وعنفوان الشغف بالأدب وتحصيل المعرفة ، وشدة الحرص على استيعاب ما يمكن الاطّلاع عليه من علوم في شتى فنون الثقافة ؛ شأن غيري من شبان ذلك الجيل في سائر الأقطار العربيّة ؛ ومعارك الصّراع الفكري والأدبي والسياسي ناشبة على أشُدِّها هنا وهناك ، ومعظم البلدان العربيّة في المشرق والمغرب لا تزال راضخةً خاضعةً للنفوذ الانكليزي أو الفرنسي أو الايطالي .

وهناك ـ في معتقل حجّة ـ تفرّغت لما لا يستطيع شابٌ معتقل يعشق المعرفة الاّ أن يتفرّغ له ؛ التأمّل ، والتفكير ، والبحث عن الحقيقة ، وهي نِعمٌ لا تستطيع قوّة مادية مهما طغى بطشُها واستعرم ، أن تحرّمها على الانسان ولو زُجّ به بين السدود والقيود ! فتجرّدت أوّلا ؛ وقبل أن يؤذَن بدخول الكتب إلى « السجن » ـ للتأمّل والسؤال والاستفسار ، بل ومحاولة هضم ما سبق استيعابه واستثمار معارفه ، وكان « السّجن » يضمّ الخيرة من رجالات اليمن علماً وأدباً ، وبينهم فطاحل الحفّاظ ، والفقهاء والقرّاء والشعراء والأدباء وزهرة شبّان صنعاء وذمار

وإب وتعز من طلبة العلم ؛ وكان كلّ ينفق بسخاء مما آتاه الله ، ونعمر أوقاتنا بالمذاكرات والمناقشات والمناظرات في شتى فنون المعارف الانسانية ؛ وكنت ألتقط بل وأدوّن كلّ مفيد جديد عليّ ، وأختزن بفكري الطُّرَفَ التاريخية والأدبية ، ولا سيما ما يتعلّق منها باليمن وتاريخها الاجتماعي والسياسي والثقافي .

ولما تحسنت أحوال « المعتقل » بعد مضيّ عامين ، وسُمِحَ بدخول الكتب إلينا ، زَوّدنا بها ذوونا وأصدقاؤنا أنواعاً وفنونا من مخطوطٍ ومطبوع ، وقديم عتيق ، وجديد طريف ، ومن علوم المحدثين والأوائل في التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف والمعاني والبيان ، إلى كتب التاريخ والتراجم ، والجغرافيا والبلدان ، والفلسفة والشعر والنقد ، وعكفتُ مع الزملاء على القراءة والتدريس ، والنقد والتدوين ، وقرض الشعر وتحبير المقالات ، واستماع وإلقاء المحاضرات ، وعقد المناظرات وتلخيص المطوّلات ، والتأليف والتحقيق والنسخ ، وقرأتُ خلال الأعوام الخمسة التي أمضيتها في معتقل « حجة » إلى جانب أشهر التفاسير وأمّهات كتب الحديث ، ومطوّلات كتب الأدب المشهورة معظم كتب مشاهير علماء اليمن ومؤرخيها كالهمداني ، والجنَدي والخزرجي وعمارة ونشوان ويحيى بن الحسين والرّبعي ، والشوكاني ، والمقبلي ، والوزير ، وأبي الرجال وزبارة والجرافي ، والعشرات من دواوين الشعر وكتب النقد والقصص وتراجم الرجال . وكان معظم تلك القراءات جماعية في مجالس يحضرها الزملاء من أساتذة وتلاميذ وتحوّل السجنُ إلى جامعة علمٍ وأدب .

وكنت أثناء تلك الدراسة ألاحظ ان الذين أرّخوا لآداب العرب أو كتبوا عنها من المحدثين أمثال « الرافعي » و « الزيّات » و « أحمد أمين » و « زكي مبارك » و « طه حسين » و « جرجي زيدان » لا يتكلمون عن علماء وأدباء وشعراء اليمن ولا يتعرّضون لذكرهم إلاّ نادرا ولا سيما اذا تجاوزوا العصر الجاهلي وفترة صدر الاسلام وأوائل العهد الأموي ، وهبطوا إلى العصر العباسي فنازلا . . وما إن نصل معهم إلى ما يسمّونه « العصر العثماني » حتى لا نكاد نعرف عن اليمن إلاّ أنها « مقبرة الأتراك » ! وليس ذلك فحسب بل ونستمع إلى عميد الأدب في جامعة فؤاد « القاهرة » يحاضر طلابه ويتساءل : « وهل لليمن شعر أو أدب عربي في الجاهلية أو صدر الاسلام » ؟ ثم يقرّر ان اليمن لم يكن لها أدب عربي في الجاهلية لأن لغتها لم تكن العربية ، وأن حظها من الأدب العربي شعراً ونثراً حتى في القرنين الأول والثاني للهجرة لم يكن ذا بال إذ كانوا لا يزالون يجهلون اللغة

العربية ولا يجيدون النطق بها ؛ وكل ما نُسب إليها فهو مفتعل موضوع اختراعه الرواة !! [أنظر كتاب في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين] . وقد جعلنا من كل ذلك مثار أحاديث ونقاش وبحث ؛ وكنت أرجع أسباب ذلك الاهمال أو التجنّي من أولئك الأدباء إلى الجهل باليمن وعلومها وآدابها وآثارها وتاريخها الاسلامي ، ولا سيما من قبل أبناء القرن العشرين ـ أي القرن الرابع عشر الهجري ـ بعد أن أحكم الاستعمار الصليبي والأوروبي قبضته على العالم الاسلامي ، ومزّق البلاد العربية ، وحارب لغة قرآنها وعلومها بشتى الوسائل ، ووضع المناهج الدراسية والعلمية والثقافية لمدارسها ومعاهدها وجامعاتها من المحيط الأطلسي إلى شواطىء عدن والخليج ، وإلى ما وراء النهرين !

وحرصت على تسجيل ما أطّلع عليه ـ ولا سيما في المخطوطات ـ وكتب التاريخ والتراجم والطبقات وسير الأئمة والملوك فجمعت من النصوص الكثير نَثرا وشعرا مع تراجم لكثيرٍ من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء وأسماء مؤلفاتهم إلى تعريفات بما حدث منّ صراعات بين الدول والامارات التي حكمت اليمن من أيام الرسول ﷺ إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ووقوعي في محنة الاعتقال سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ م مما كان يستحق العناية من قِبَل مؤرخي آداب العرب لو علموه ووقفوا عليه .

ولمّا أطلق سراحي والتحقتُ بالمفوضية اليمنية بالقاهرة وعيّنتُ عضوا في وفد اليمن بالجامعة العربيّة ، سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ م حاولتُ التعريف بآداب اليمن ، وكدت أتفرّغ لهذا الغرض ، وتعرفت بالكثير من أدباء العرب ، وألقيت عدة محاضرات ، وزرت الدكتور طه حسين وكان يرأس اللجنة الثقافية التابعة للجامعة العربية وذكرت له أخطاءه التي تبنّاها في كتابه عن « الشعر الجاهلي » مع الشواهد والبراهين فتلقى كل ذلك بصدرٍ رحب ، واعترف بأنّه قد جانف الصوّاب ، وأنّه لم يعد يعتقد حرفاً مما سبق أن قاله في ذلك الكتاب . . ثم أقترح عليّ الدكتور شفيق غربال أن ألقي محاضرات عن الأدب اليمني على طلبة معهد الدراسات الذي كان يرأسه واستجبتُ لاقتراحه وأعددت نفسي ، ورجعت إلى ما كنتُ جمعته من دراسات ومعلومات في « حجة » ، وبعد إطلاق سراحي ، لكنّ أمراً صدر بانتقالي من القاهرة وزيراً مفوضاً لليمن في لندن سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١ م ، ثم طرأتْ ظروف قاهرة ألهتني عن تلك الأضابير ، ولما خفتُ عليها الضّياع جمعت ما يمكن نشره منها سنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥ م وأصدرتها في كتاب

سميته « قصة الأدب في اليمن » وقلت في المقدمة التي كنت قد أعددتها بالقاهرة في رجب سنة ١٣٨٠هـ الموافق شهر يناير سنة ١٩٦١ م ما يلي :

« لعلّ الأدب اليمني هو الأدب الوحيد ـ بين آداب اللغة العربية ـ الذي لم يعْنَ به الأدباء . . لا أقول العناية التامة بل حتى ولا القليل منها . . لا من قِبل أدباء اليمن ، ولا من قبل أدباء العربية ومؤرّخي آدابها في الأقطار الأخرى » .

إلى أن قلت :

« أما أسباب ذلك فجمّة ، وإذا كان في وسع أيّ باحث يودّ أن يعرف شيئاً عن أدب اليمن أن يلاحظ أن اليمانيين لم يعنوا بنشر تراثهم وكتبهم ودواوين شعرائهم ، وآثار أدبائهم ، ولم ينفقوا ما يجب في سبيل بثّها ليسهل على الأدباء في الأقطار العربية الشقيقة قراءتها ودراستها ، والاطّلاع عليها ، فيحتفون بها ويقدّرونها حقّ قدرها . . فانه يستطيع في نفس الوقت أن يلاحظ أيضاً ان معظم أساتذة الأدب العربي في العصر الحديث لم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث ، ولا جشموها صعوبة الدرس ولا حاولوا حتى ولا بيسير جهد ، أن يكشفوا النقاب عن ذلك الكنز الدفين . . ومن جهة أخرى لا بدّ للباحث ان يلاحظ ـ ثالثا ـ إذا نقّب وتعب ، أن مخطوطات جمّة من تراث الفكر اليمني النفيس تحفل بها دار الكتب المصرية وغيرها من المكاتب الشهيرة في العالم ، وأن بعض فضلاء اليمن ، وعدداً من المستشرقين قد عنوا بطبع عددٍ قليل من تلك الآثار الفكرية ، وان كلّ ذلك كان يستحق أن يُشار إليه ، وأن يُقْتَبس منه ، بل ويصلح ان يكون مصدراً غنيّاً ، ومرجعاً مفيداً ، لبحث ودرس وتاريخ » .

ثم قلت معتذراً لذلك القصور أو التقصير :

« ولكي التمس العذر لأدباء اليمن ، ولأساتذة تاريخ آداب العرب . . واجنّبهم تبعات نصف قرس أخرس . . لا بدّ أن أشير إلى الظروف القاسية التي كانت تكتنف اليمن وتحيط بها . . وأقصد ما كان في اليمن ، وما كان يحدق بها من جهل وتأخر ، وأخطار ومخاوف ، وأسباب ومسببات عزلتها عن العالم ، وبعّدتْ بينها وبين الأقطار العربية التي كانت حينئذٍ تخضع لحكم المستعمر بما يحمل معه من قوة باطشة ، وثقافة موسومة بطابع استعماري ، كان لا بد أن يؤثر على ثقافة وأساليب زمرة من الباحثين والمؤلّفين والمؤرخين للأمة العربية وآدابها في أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن . . أولئك الذين فصّلوا الأدب العربي ووزّعوه وقسّموه الى أطوار ؛ متخذين من المستشرقين وأدباء الغرب أئمة . . .

لمناهجهم في النقد والبحث والتأليف ، مستعيرين مقاييس ومعايير أجنبيّة ان عثروا على قوالب لها في آدابنا حينا فقد جانبهم التوفيق أحيانا » .

ذلك ما كتبته قبل حوالي ربع قرن ، وقدمت به لكتابي « قصة الأدب في اليمن » . . ثم تحطّمت أسوار العزلة ، وانجابت ظلماتها عن تاريخ اليمن وآدابها ، وألّف بعض أدباء اليمن وغيرهم من أدباء العرب كتبا عن التاريخ والأدب في اليمن شمالا وجنوبا ؛ أمثال الأساتذة حسين الويسي وعبد الله الشماحي وحسين الهمداني وعبد الله البردوني وزيد الوزير وأحمد شرف الدين وسعيد جرادة وعبد الله الثور وعبد الله الحبشي وهلال ناجي والدكاترة عبد العزيز المقالح وعز الدين اسماعيل ومحمد عبده غانم وشوقي ضيف ومصطفى سالم ، وحسين العمري وأحمد فخري والسادة محمد الشاطري ومحمد الشلي باعلوي ، ومحمد العقيلي ، وغيرهم ، وصدرت عدة دواوين شعرية لقدامى ومحدثين وحقق محمد الاكوع بعض كتب الهمداني ، والديبع ، وعمارة ، والخزرجي ونشرت عدة دراسات عن التاريخ والثقافة والشعر القديم والمعاصر والغناء والفن في اليمن ، وأعيد طبع كتب الامام الشوكاني والسيد محمد زبارة والقاضي عبد الله الجرافي إلى غير ذلك .

وأخرج للناس الدكتور جواد علي سنة ١٩٧٠ م موسوعته الكبرى [في عشرة اسفار] « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » وفيه ما يغطّي تاريخ اليمن قبل الاسلام سياسياً واجتماعيا وثقافيا وبإحاطة شاملة واستكناة لكل ما عُرِفَ قديما من فنون المعرفة ، مع دراسة وتمحيص ونقدٍ جاد ، وذوق سليم يزيِّف الأخطاء والمبالغات والخرافات التي وقع فيها القدماء وتأثر بتعصباتها العرقية والسياسية بعض المتأخرين .

ومع كل ذلك فكلّما قرأت كتاباً يعنى بتاريخ آداب العرب بعد الاسلام سمعتُ صوتاً صارخاً من أعماقي يقول : وأين آداب اليمن ؟

والواقع ان الفصول التي حبّرتها واودعتها كتابي « قصة الأدب في اليمن » قد أعطت صورة واضحة للأدب العربي المجهول في « العربية السعيدة » . وقد لقي الترحيب من قبل الكثير من أساتذة الأدب العربي ومن عناوين بعض فصوله يدرك القرّاء ما كان عليّ أن أبيّنه مما كان لا يزال مجهولا أو مغموراً لا يدريه معظم جمهور أدباء العرب ، من غير اليمنيين قبل صدوره ونشر المؤلفات للكتّاب الفضلاء الذين ذكرت بعض أسمائهم ؛

ومن تلك الفصول ما يلي : ١ ـ حضارة اليمن ، ٢ ـ مع علماء التاريخ ، ٣ ـ اللّغة [وفي هذا الفصل فندتُ أوهام الدكتور طه حسين] ، ٤ ـ الشعر والشعراء ، ٥ ـ عصبيّة العرق ومعركة القحطانية والعدنانية ، ٦ ـ موجز تاريخي ، ٧ ـ أدب المهاجرين ، ٨ ـ خصائص الشعر اليمني ، ٩ ـ المسند ، ١٠ ـ الكتابة وأصل الخط العربي ، ١١ ـ الأدب الشعبي الخ وترجمت لبعض الشعراء المغمورين ، وأوضحت المعالم الأدبية في العصر الحديث [عند تأليف الكتاب] ثم أوردت بعض الشواهد والنصوص ، وقلت في خاتمة الكتاب ما يلي : « ليس هذا الكتاب الاّ فاتحة كتب أخرى ننوي بعون الله مواصلة الجهد في ابداعها ونشرها عن تاريخ اليمن وأدبها وأدبائها ، وشعرها وشعرائها ، وعلومها وطوائفها وثوراتها ، ودعاة الاصلاح فيها خدمة للغة والدين والتاريخ ، وقياماً بالواجب نحو شعب عريق كان ولا يزال ـ مصدراً للخيرات ، ومسرحاً للبطولات ، ومنبعا للعلم والشعر والأدب ، وأملي عظيم انه سيشق طريقه إلى حيث قصدت ؛ فيجد مكانه بين مراجع وأصول الأدب العربي ، ويسدّ ذلك الفراغ الذي طالما أحسّ به الأساتذة كلّما حاولوا أن يذكروا لتلامذتهم شيئاً عن أدب اليمن ، ويتلاشى ذلك التوق الذي طالما أقلق طلاّب العلم ، وعشاق الأدب كلّما تطلعّوا إلى معرفة شيء عن اليمن » .

وظل الصّوتُ يصرخ في أعماقي ؛ وأزمعت على توسيع وتنقيح بعض الفصول واضافة فصول جديدة إليه ، وإعادة ترتيبه وتبويبه ، وتغيير اسمه إلى « تاريخ آداب اليمن في الجاهلية والاسلام » . وقدّرت أنه سيكون في ثلاثة أسفار .

ثم ضربت بي أمواج الزمن هنا وهناك ، وكتبت عدة مقالات ناقداً ومؤرخاً . وأصدرت عدّة دواوين شعرية ، وبضعة كتب منها « من الأدب اليمني » و « مع الشعر المعاصر في اليمن » ، وشرعت في تأليف « معجم شعراء اليمن في الجاهلية والاسلام » ، وما إن ألقيت عصا الترحال ، واستقر بي المقام في « بروملي » من ضواحي « لندن » ، حتى تلقّيت دعوة من جامعة « كمبردج » تطلب مني المساهمة في تأليف كتاب الجامعة عن « تاريخ الأدب العربي » ؛ لأنهم ـ وبعد أن فرغوا من تأليف الجزء الأول الذي يختص بالعصر الجاهلي وصدر الاسلام ، عندما كانت اليمن كسائر اصقاع الجزيرة وأخبارها واشعارها معلومة معروفة ، ولها ذِكْرٌ في كتب القدماء ! ما إن وقفوا على مشارف العصر العباسي حتى فوجئوا بالتعّتيم على آداب اليمن واخبارها ، ووجدوا تباينا واختلافا ، ولم يجدوا ما يغني في كتب المؤرخين للأدب العربي عن اليمن ، ولا عثروا علي شيء ذي بال عن الحركة

الثقافية فيها أثناء الحقبة الطويلة من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٦٥٦ هـ يوازي ، أو يُساير ما قرأوه عن مصر والشام والعراق ، وأقطار المغرب العربي ؛ واقترحتِ الدعوةُ أن أسدّ هذا الفراغ ، فصادفتْ هوى في النفس ، وأوجزتُ لهم ما أعلمه حسب المنهج الذي رسموه وفي حدود السطور بل والكلمات التي سمحوا لي باستعمالها مما جعلني أضرب عن ذكر النصوص والشواهد وأشير الى مراجعها فقط ، واكملتُ البحث موجزاً في بضعة وأربعين صفحة وكأنما هو « متن » لسفْرٍ كبير . . !

وفي شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٤ هـ / يناير ١٩٨٤ م تكرم رئيس النادي الأدبي الثقافي بجدّة الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين بدعوتي لألقاء محاضرة عن الأدب اليمني ، فرأيت أن يكون موضوعها البحث الذي كتبته لجامعة كمبردج والذي سينشر في كتابها باللّغة الانكليزية عن الأدب العربي ؛ ثم رأيت بعد أن ألقيت المحاضرة أن أضيف إليها الشواهد والنصوص وبعض التراجم للأعلام وأخرجه للناس في كتاب ، وكان الأستاذ الفاضل شكري فيصل قد اعترض ليلة القائي للمحاضرة في دار « المدينة » بجدّة على تسميتي لها بتاريخ آداب اليمن بل وانتقد تركيزي على اسم « اليمن » في كتاباتي عن « شعرائها » ، وان في ذلك رائحة اقليميّة ، وتقوقعاً قبليّا ؛ وانّ أدب اليمن أدب عربي ولا يمتاز شعراؤها بشيء خاص عن شعراء سائر العرب ، وان اهتمامي بالتركيز على اليمن لا ينسجم وما ندعو إليه جميعاً من « وحدة عربية » الخ . ! ولم أردْ لَيلَتَها أن أثير الأسباب التي دفعتني إلى التركيز على اسم اليمن ، وأذكر ما لحق بالأدب اليمني من حيف وإهمال من قِبل المؤرخين لآداب العرب في مطلع هذا القرن وأنهم لم يعتنوا به كما اعتنوا بآثار شعراء وأدباء سائر الأقطار العربية ، لأن الدكتور عمر الطيب الساسى الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة « كلية الآداب » كان قد ناب عني وتولّى الردّ على الأديب الاستاذ شكري فيصل وذكر أن أدب اليمن لم يكن هو المظلوم وحده بل وآداب سائر الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً ما عدا الشام ومصر والعراق ؛ وان الكثير من آداب الحجاز ونجد وأمارات الخليج لا يزال مهملاً مغموراً مثل الأدب اليمني . . واكتفيتُ بأن سألت الأستاذ شكري الذي قال انه يقرأ سلسلة مقالاتي عن شعراء اليمن في جريدة « الشرق الأوسط » : ما إذا كان يعرف أو قرأ عن أحد الشعراء الذين أترجم لهم ممّن إسمه « إبراهيم » وهم حوالي خمسون شاعراً قبل أن يطلع على هذه التراجم ؟ فأجاب بالنفي ؛ فقلت حسبي هذا ! ولكنّي لطفت الحوار بقولي انه في الامكان أن يكون اسم المحاضرة « تاريخ

الأدب العربي في اليمن خلال العصر العباسي » فانشرح خاطر الاستاذ لهذا التخلّص الشكلي الذي لم يغير جوهر الموضوع ولكنه أرضى أديبا كبيراً وصديقاً حميماً . !

مع اني كنت أستطيع القول ان مجرّد ذكر اليمن يكفي ليعلم الناس اني لن أتحدّث إلا عن أدب عربي ؛ فاليمن أرضاً وناساً ، ومشاعر وتقاليد خالصة العروبة بل هي مهد العروبة الأول ، ودينها هو الاسلام ولغتها لغة القرآن المجيد . لكني كنت أعرف أن مثل الأديب العالم فيصل شكري يعرف ذلك .

وكنت أستطيع أن أقول : ان الحيف أو التجاهل ، أو الاهمال الذي حلَّ باليمن وآدابها يحتّم عليّ التركيز على الاهتمام بها ، لأن آداب الأقطار العربيّة الأخرى قد اهتم بها أبناؤها وغير أبنائها ؛ ولن آتي بجديد لو تعرضت لذكرها . . أما عن اليمن فما سيقرؤه في هذا الكتاب سيرى فيه جديداً لم يقرأه من قبل في كتاب أرّخ لآداب العرب ولا سيما قبل صدور كتابي « قصة الأدب في اليمن » بما فيهم الصديق العالم الأديب .

لقد كانت اليمن عبر العصور مركزاً من مراكز الثقافة حتى في أحلك الفترات وأشدها ظلاماً فيما يسمونه عصور العجمة والانحطاط اللغوي و كان أبناؤها هم أهل السّبق في مضمار خدمة القرآن وعلومه اللغوية والبيانية ؛ ولقد كانوا من الناحية الأدبية والتصويرية أوّل من فسّر القرآن بالقصص ـ ؛ وكعب الأحبار ـ وهو تابعي أسلم في زمن الخليفة أبي بكر الصديق كان من أحبار اليهود اليمنيين وهو مرجع معظم ما يعرف بالتفسير القصصي المعتمد على « الاسرائيليات » ، وشاركه وهب بن منبه الصنعاني الذي أدرك بعض الصحابة وكان من شيوخه ابن عباس وقيل انه كان يسميه « علاّمة الدنيا » ؛ وبالرغم من الأضرار التي ألحقَتْها بعلم التفسير تلك الطريقة التي سلكها كعب الأحبار ومن تابعه وقد نقدها وفندها العارفون وحذروا من أساطيرها فانها تدلّ على أسبقيّة اليمنيين ، واهتمامهم بالقرآن وخدمته وتدوين تفسيره ، وقد تلاشت تلك الطريقة ، وما إن بدأ العصر العبّاسي حتى ظهر بين المفسّرين أمثال الامام المحدّث معمر بن راشد ، والامام المحدّث عبد الرزّاق الصنعاني ، والعلامة الحافظ عبد الله بن الحسين بن القاسم ، وغيرهم ممن أضربوا صفحاً عن « الاسرائيليات » ولم يعبئوا بخرافاتها ، واعتمدوا على المفاهيم اللّغوية والبيانية ، وأحاديث الرسول ﷺ ، وأقوال السلف من خيار الصّحابة والتابعين .

وكـما كان اليمنيون هم أهل السّبق في مجال « تفسير القرآن » فقد كان لهم كذلك فضيلة السبق ـ أو المشاركة فيها ـ بالنسبة لجمع الحديث النبوي ؛ وقد قال بعض المحققـين ان همّام بن منبّه صاحب أبي هريرة كان أوّل من صنّف ودوّن الحديث ثم تبعه معمر ، واللحجي ، وعبد الرزاق بمصنفه المشهور .

ولا يخفى ان اليمن منذ أواخر القرن الثاني الهجري كانت وظلت لفترةٍ طويلة مسرحاً لتجالد وصراع المذاهب الكلامية ، وشتى الملل والنحل وعجّت بالغُلاة البـاطنيـة ، والاسـماعيليـة ، والشيعـة ، والهـادوية والمعتزلة الى « أشعريين » و « سنيين » ، وقد تعايشت فيها المذاهب المعروفة في الاسلام كالحنفية والحنابلة والشافعية والزيدية ، ونبغ فيها الفحول من الأئمة المجتهدين ؛ وتراث اليمن في الفلسفة وعلم أصول الدين والفقه في العصر العباسي تراث غنيّ ، أَثْرَى المكتبة العربية والاسلامية بالكثير المفيد من المؤلفات . وقل مثل ذلك في علم الفرائض والنحو والصرف والبلاغة والتاريخ والفلك و التصوف وكتب التراجم والمعاجم والطبقات ، وألّف علماؤها في الطب ، ومزج بعض مُنظّري المذهب الاسماعيلي بين العقيـدة الفـاطميـة ونـظريـة الفيض اليونانية ، والّفوا في علم « النفس » وطبائعها ، وكذلك فعل بعض المفكرين من علماء « الزيدية » الذين ينهجون في « أصولهم » منهج « المعتزلة » ، والذين ما زالت معارفهم بالبحث والدراسة تنمو وتتطوّر حتى بلغت أوج السموّ والصفاء على يد الامام يحيى بن حمزة (٦٦٩ ـ ٧٤٩ هـ) الذي قيل ان عدد كراريس مصنفاته بعدد أيام حياته ووصفه الدكتور أحمـد محمود صبحي أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة الأسكندرية فقال : انه « موسـوعـة علمية ندر ان يكون له نظير لا بين الزيدية فحسب بل بين فرق المسلمين جميعاً » وقال : « لقد قدّم يحيى بن حمزة منهجاً للتحليل أكثر ثراء مما قدم سقراط » . [الزيدية ـ ص : ٤٠٥ ـ ٤٠٦] .

وإذا كانت المدينة المنورة ـ أولا ـ ثم البصرة والكوفة وبعدهما بغداد هي المراكز الثقـافية الأولى للعلوم الاسلامية ، والحركة الفكريّة والأدبيّة منذ أواخر العهد الأموي وطيلة القرنين الثاني والثالث الهجريينّ وتكوّنت خلال ذلك وحتىّ أواخر القـرن الـرابـع ومـطلع القـرن الخامس مراكز أخرى في فارس والشام ومصر والأندلس وأقطار المغرب العربي . . فلا أعلم مركزاً ثقافياً في إقليم من أقاليم الجـزيـرة العربيّة استطاع منافسة تلك المراكز الثقافية الأولى وشارك في العطاء

الفكـري دينياً وأدبياً ولغوياً بل وسياسياً مثل « زبيد » و « عدن » و « صنعاء » و « صعدة » في اليمن .

وذلك ما لم يعتن به المؤرخون للأدب العربي في مطلع هذا القرن المنصرم وهو ما سأحاول استدراكه والتنويه به في هذا الكتاب والله من وراء القصد وأسأله تعالى العون والتوفيق .

جمادى الأولى سنة ١٤٠٦ هـ
يناير/ ١٩٨٦ م

أحمد محمد الشامي

المجلس الزيدي الإسلامي

تاريخ الأدب العربي في اليمن

يُقسِّمُ بعض علماء الأدب تاريخه العربي إلى خمسة عصور :

١ ـ الجاهلي ، ٢ ـ صدر الاسلام ، ٣ ـ العصر العباسي ،
٤ ـ عصر الانحطاط اللّغوي ، وتلاشي العنصر العربي سياسياً .
و ٥ ـ عصر النهضة .

والبعضُ يقسّمه إلى أربع فترات ، وهناك من يجعله ثلاثة عصور :

١ ـ القديم ـ ويُدْمِجُ فترة صدر الاسلام بالعصر الجاهلي . ٢ ـ الوسيط ـ من بداية العصر العبّاسي حتى اضمحلال الخلافة العثمانية . و٣ ـ الحديث ـ من بعد ذلك فصاعدا . . أو فَنازلا . . !

وهذه التقسيمات إذا كانت تتلائم مع من يؤرّخ للأدب العربي ـ عموماً ـ فإنها لا تتوائم ولا تنسجم مع من يريد أن يؤرّخ للأدب اليمني تاريخاً خاصاً مستقلا ؛ لأن ظروف اليمن وأحداثها السياسية والاجتماعية ـ خلال ما يسمّونه ـ أدبياً بالعصر العبّاسي ـ أو الوسيط ـ تغاير الظروف ، والأحداث التي كانت تسود البلدان العربية والاسلامية الأخرى .

ولذلك جَعَلْتُ فترات تاريخ الأدب اليمني ـ في كتابي ؛ « قصة الأدب في اليمن ـ عشر فترات ؛ بناءاً على أهم حوادثها التاريخيّة [انظر قصة الأدب ص : ١٤٩ - ١٦٣] .

ورغم تغـيُّر بعض المفـاهيم والمقـاييس ـ أو تطورّهـا بما جدّ لَدَيّ من معلومات خلال عشرين عاماً ـ فلا أزال مُقتنعاً بأن ذلك التقسيم كان منطقياً مع تعـديلات طفيفـة في تداخل الفترات الزمنيّة ، أوفى أسمائها ـ حسب الحوادث التاريخية الكبرى ـ ولكنها ظلّتْ عشر فترات ؛ وترتيبها كما يلي :

١ ـ فترة الجاهلية ؛ وتنتهي بظهور الاسلام .

٢ ـ فترة صدر الاسـلام ؛ وتنتهي بانقـراض الـدولـة الأمـويّة سنـة : ١٣٢هـ / ٧٥٠ م .

٣ ـ فترة الفتن والثورات ؛ من بداية العصر العبّاسي إلى سنة : ٢٨٠هـ / ٨٩٤ م .

٤ ـ فترة الأمامة الهادوية ؛ ـ ٢٨٠ ـ ٤٣٩ هـ /٨٩٤ - ١٠٤٨ م .

٥ ـ فترة الصُّلَيْحيِّين ؛ ـ ٤٣٩ ـ ٥٦٩ هـ /١٠٤٨ ـ ١١٧٤ م .

٦ ـ فترة الأيُّوبيّين وبني رسول ؛ [أو فترة التدخلات الخارجية] : ٥٦٩هـ ٨٥٨ هـ /١١٧٤ ـ ١٤٥٥ م.

٧ ـ فترة العهـد العثـماني ؛ من بداية عهـد « الـطاهريين » ؛ ٨٥٨ إلى ١٠٠٦ هـ / ١٤٥٥ ـ ١٥٩٨ م.

٨ ـ فترة العهد القاسمي ؛ ١٠٠٦ ـ ١٢٥١ هـ /١٥٩٨ ـ ١٨٣٦ م .

٩ ـ فترة الـنـضـال والاسـتـقـلال الامـامـي [في الـشـمال] ؛ ١٢٥١ ـ ١٣٨٢ هـ / ١٨٣٦ ـ ١٩٦٢ م ، والاستعـمار والحـماية البريطانية [في الجنوب] ١٢٥٣ ـ ١٣٨٧ هـ /١٨٣٩ ـ ١٩٦٧ م .

١٠ ـ فترة العهد الجمهوري ؛ من سنة ١٣٨٢ هـ /١٩٦٢ م فصاعدا . .

وحـين أزمعتُ أن أكتب ضمن هذا السِّفرَ الذي يؤرّخ للأدب العربي عموماً ـ فصلاً موجزاً يؤرخ للأدب اليمني أثناء ما يسمى بالعصر العبّاسي رأيت أن لا أحيد عن منهجي وأن ألتزم بتقسيماتي الزمنية ؛ فأوجز تاريخ ثلاث فترات من العشر المـذكـورة آنفـاً [ـ ٣ ـ و ـ ٤ ـ و ـ ٥ ـ] ، وسبعة وثمانين عاماً من الفترة السادسة .

والعصر العبـاسي أزهى عصور تاريخ الأدب العربي ؛ وقرونُه الخمسة كانت بالنسبة إلى اليمن حِـقْبة أحداثٍ مُرعبة ، وصراعات دامية ، ولم ينعم النّاس أثناءها بالاستقرار والأمان الاّ في فترات متقطّعة ؛ إذ قد ظلّت ميدانا تتجالد فيه المذاهب ، والطوائف والأحزاب المتضاربة . . . ولم تكن طيلة

هذا العصر خاضعة لسلطة « العباسيّين » ، أو تدين لهم بالولاء ؛ بل قد حكَمَتها شتّى القوى ، وتغلّبت على « مخاليفها » عدّة دويلات ؛ بعضها يدين للعبّاسيّين بالولاء - ولو إسْميًا ؛ والبعض يتبع « الفاطميّين » أو « الأيّوبيّين » بالقاهرة ، وبعضها كانت تعلن الاستقلال الوطني .

ولعلّ من الواجب أن أشير إلى ما حدث قبل انقراض الحكم الأمويّ بأحد عشر عاما حينما ثار الامام زيد بن عليّ سنة ١٢١ هـ / ٧٣٩ م ؛ إذ قد كان خروجه المسّمار الأخير في نعش السّلطة الأموية ؛ كما كان للامام زيد ومبادئه الأثر العميق في أدب وثقافة وسلوك اليمنيين خلال العصر الذي سنتحدّث عنه ، وأن أذكر أيضاً خروج « طالب الحق » عبد الله ابن يحيى الأعور ، وقائد جيشه أبي حمزة الشاري سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥ م لما كان لذلك من أثر ثقافي أيضاً ؛ وتفاصيل تلك الأحداث في كتب الأدب والتاريخ المشهورة وسنأتي على ما له صلة أدبياً وثقافياً إن شاء الله .

حُكّام اليمن في العصر العباسي :

ظلت اليمن تحت الحكم « العباسي » عن طريق « عُمالهم » حوالي سبعين عاما ؛ ١٣٢ - ٢٠٣ هـ / ٧٥٠ - ٨١٩ م وعَدَدُ العمّال الذين تعاقبوا عليها أربعون ؛ ومن أشهرهم : معن بن زائدة الشيباني - ١٤٠ هـ /٧٥٨ م - لِما قام به من قتل وتدمير .

ومحمد بن خالد البرمكي - ١٨٣ هـ / ٨٠٠ م - وكان حَسَنَ السيرة ، وهو الذي أجرى نهر البرمكي إلى « صنعاء » .

وحمّاد البربري الذي بعثه الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٤ هـ / ٨٠١ م وقال له « أسْمِعْني أصوات أهل اليمن » ؛ فأهلك الحرث والنسل ، وحكم اليمن بيد من حديد ، ومع ذلك يقول المؤرخون : « ان اليمن عُمِرَتْ في عهده ، وأمِنَتِ السُّبُل ، وأخصبت الأرض » ! وفي أيّامه ثار الهيصم بن عبد المجيد فَظَفِرَ بِهِ ، وحمله إلى بغداد مكبْلا كما فعل بالامام محمد بن أدريس الشافعي « غاية الاماني ج - ١ - ١٣٠ - ١٤٢ - ١٤٣ - » وآخرهم : محمد بن عبد الله بن زياد الذي بعثه المأمون إلى قبيلة « الأشاعر » إثر تمرّدها سنة ٢٠٢ هـ /٨١٨ م وهو الذي اختط مدينة « زبيد » وأسَّس دولة « بني زياد » ، « غاية » ج ١ - ١٥٠ - .

وكـان قد وصل إلى اليمن ابراهيم بن موسى سنة ١٩٩ هـ / ٨١٥ م ـ داعية للامـام محمـد بن ابـراهيم واشتبـك في حروب طاحنـة مع عمّال « العباسيين » وبعض القبائل اليمنية ؛ وقيل في ذلك أشعار كثيرة . « غاية » ج ـ١ ـ١٤٩ ـ الاكليل ج ـ١ ـ ص : ١٣٧ ـ ١٣٨ ـ ١٤٣ .

وفي عام ٢٦٨ هـ /٨٨٢ م قدم اليمن من العـراق علي بن الفضـل ، والحسن بن فرج داعِيتَـينْ للأمام المستور الفاطمي ، وأنشأ إمارتَيْن ؛ وبثّا الـدعـوة الاسـماعيلية ، ودخـلا في حروب طاحنـةٍ مع بقية الـدويلات والمشيخات « الصليحون : ٣٢ » .

ولـمَّا سادت الفـوضى ؛ استـدعت قبـائـل « صعـدة » الهـادي يحيى بن الحسين ابن القاسم الرسيّ ، وبايعوه إماما سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٤ م وهو مؤسّس دولة الامامة في اليمن . « غاية » ج ـ ١ ـ ١٦٦ . و « أئمة اليمن » ج ـ ١ ـ ص : ٥ ـ ٥٢ ـ .

وأثناء وبعد ذلك تكوّنت عدّة امارات تتصارع ، ولا يقوم بعضها إلاّ على أشلاء البعض الآخر ؛ ومن الملاحظ أن معظم رؤساء وزعماء هذه الامارات كانوا من الأدباء والخطباء والشعراء . وأهمّ هذه الدول خلال هذا العصر عشر وهي :

١ ـ بنوزياد ؛ ٢٠٣ ـ ٤٠٩ هـ /٨١٩ ـ ١٠١٩ م وقاعدتهم : « زبيد »
٢ ـ بنويُعْفِر ؛ ٢٢٥ ـ ٣٩٣ هـ ٨٤٠ ـ ١٠٠٣ م وقاعدتهم : « شبام »
٣ ـ بنونجاح ؛ ٤٠٣ ـ ٥٥٥ هـ /١٠١٣ ـ ١١٦١ م وقاعدتهم : « زبيد »
٤ ـ الصُّلَيْحيون ؛ ٤٣٩ ـ ٥٣٢ هـ ١٠٤٨ ـ ١١٣٨ م وقاعدتهم : « صنعاء » و « جبلة »
٥ ـ بنوزُرَيْع ؛ ٤٧٠ ـ ٥٦٩ هـ /١٠٧٨ ـ ١١٧٤ م وقاعدتهم : « عدن »
٦ ـ بنوحاتم ؛ ٤٩٤ ـ ٥٦٩ هـ / ١١٠١ ـ ١١٧٤ م وقاعدتهم : « صنعاء »
٧ ـ دولة بني مهدي ؛ ٥٥٣ ـ ٥٦٩ هـ / ١١٥٩ ـ ١١٧٤ م وقاعدتهم : « زبيد »
٨ ـ دولة بني أيُوب ؛ ٥٦٩ ـ ٦٢٦ هـ / ١١٧٤ ـ ١٢٢٩ م وقاعدتهم : « تعز »
٩ ـ دولة بني رسول ؛ ٦٢٦ ـ ٨٥٨ هـ / ١٢٢٩ ـ ١٤٥٤ م وقاعدتهم : « تعز »
١٠ ـ دولة أئمة اليمن ؛ ٢٨٠ ـ ١٣٨٢ هـ / ٨٩٤ ـ ١٩٦٢ م وقاعدتهم : « صعدة » و « صنعاء و « شهارة » و « ضوران »

وقد عارضت دولة الائمة جميع الامارات والدول المذكورة حتى تكوّنت الجمهورية اليمنية ، وهناك امارات أخرى ، ومن أراد الاستقصاء فليراجع تاريخ اليمن للشماحي ص - ٣٢١ - ٣٢٢ . ففيه التعريف المفيد بكل تلك الدول والامارات وطوائفها وأخبار نشأتها وتلاشيها وأسماء حكّامها ، ولأننا لا نهتم الاّ بالجانب الفكري والأدبي فسنحيل من يهمّه التفاصيل التاريخية والسياسية إلى كتب التاريخ .

الفترة الأولى : فتن وثورات

١٣٢ - ٢٨٠ هـ / ٧٥٠ - ٨٩٤ م

سمّينا هذه الفترة في تقسيمنا العام لتاريخ الأدب العربي في اليمن . « فترة الفتن والثورات » وتبدأ ببداية العصر العباسي سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م وتنتهي بظهور دعوة الامام الهادي يحيى بن الحسين سنة ٢٨٠ هـ /٨٩٤ م أيّ أنها شغلت حوالي قرن ونصف قرن من الزمن المفعم بالثورات والمؤامرات ، والصراعات الدامية بين الطوائف الدينية ، والنعرات العرقية ، والعصبيات القبلية ، والتحزبات السياسية .

ولقد كانت اليمن في هذه الفترة ورغم تلك الفتن والصراعات مركزاً ثقافيا ومعقلا من معاقل العلم ، وأنجبت زمرة من العلماء الكبار والحفاظ والقرّاء والمحدثين ، وكانت مزاراً لطلاب المعرفة ، وتفسير القرآن ، ورواية أحاديث الرسول ﷺ ، وقصدها للتفقه في كل ذلك أمثال محمد بن ادريس الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وبرز فيها أفذاذ من المفسّرين والمحدثين والفقهاء واللغويين ، والكتاب والشعراء . وآثارهم منثورة في كتب التاريخ والتراجم والسِّير والانساب ؛ كسيرة الهادي والناصر والعياني ، والأكليل ، وصفة الجزيرة ، وشرح الدامغة ، وطبقات ابن سمرة ، وطبقات الزيدية ، والمستطاب ، وتاريخ صنعاء ومطلع البدور والسلوك للجندي وغيرها .

ومن اعلامهم في التفسير والحديث والفقه القاضي اسحق الدبري ومعمر بن راشد ، وعبد الرزاق الصنعاني وأبو قرّة موسى بن طارق اللحجي ومطرف بن مازن قاضي صنعاء ، وخلفه هشام بن يوسف ، وإبن الشرود .

ومن خطبائهم وكتابهم وشعرائهم : ابن ابى رجاء وابراهيم ابن محمد بن يعفر ، وبشر البلوي ، وأبو العلكم المرّاني وعبد الملك الذماري وأبو السمط الفيروزي والشهابي والقُشيبي ، وابن ابان والرداعي وغيرهم .

المؤلفون والكتّاب :

سبق علماء اليمن غيرهم من العرب في فنّ التأليف ؛ فأوّل من دوّن التاريخ هو عبيد بن شرية [ت ٦٧ هـ / ٦٨٧ م] وتلاه وهب بن منبّه [ت ١١٤ هـ / ٧٣٣ م] وقال البعض ان أخاه همام بن منبّه كان أوّل من دوّن الحديث وتوفى سنة ١٣١ هـ / ٧٤٩ م ؛ وأما علماء الحديث فيقولون : ان أول من صنّف فيه « إبن جريج » بمكة ، ثم معمر بن راشد الأزدي في اليمن ، وسأحاول في هذا البحث البكر الذي يُضنيه التفتيش عن المصادر المشتّتة ، وملاحقة النصوص والأسماء المبثوثة في كتب التاريخ والمعاجم أن أنوّه ببعض اعلام هذه الفترة من مؤلفين وعلماء وفقهاء وشعراء وكتّاب .

١ ـ مِعْمَر بن راشد الأزدي :

قدم « صنعاء » من « البصرة » ، فأخذ عن علمائها وأخذوا عنه ، وأقام بها فترة ولما أراد العودة كره أهلُ صنعاء مفارقته إذ قد احبّوه فقال أحدهم : « قيّدوه » يريد : زوّجوه ! ففعلوا ؛ وعاش بصنعاء حتى مات سنة ١٥٣ هـ / ٣٣٠ م . وله تفسير للقرآن نقله الطبري فى تفسيره ، ومنه مخطوطة في مكتبة أنقرة : « مصادر الحبشي / ١٤ ـ » وله الجامع في السنن ، وأخباره في تاريخ صنعاء ص : ٣١٦ ـ و « طبقات فقهاء اليمن » ص : ٦٦ ويقول « بروكلمان » انه ثاني من صنّف في الحديث : تاريخ الأدب العربي ج ـ ٣ ـ ١٥٢ ـ .

٢ ـ عبد الرزّاق بن همام الصنعاني :

تتلمذ لمِعْمر بن راشد وغيره من التّابعين في الحجاز والشام وت : ٢١١ هـ / ٨٢٧ م ـ وقال بن خلّكان في الوفيات نقلا عن السمعاني : « ما رحل الناس إلى أحدٍ بعد رسول الله ﷺ مثلما رحلوا إلى « عبد الرزّاق » ج ـ ٣ ـ ص ٢١٦ ـ وفيات وترجمته في « طبقات الحنابلة » ـ ١ ـ : ٢٠٩ و « طبقات بن سمرة » : ٦٧ ، وكتابه « المصنَّف » في علم الحديث طبع في ـ ١١ ـ مجلد سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م .

بشر البلوي ، (١١٠ ـ ١٩٢ هـ)

مدخل :

الكاتب المترسّل ، والأديب العالم ، بشر بن أبي الكبار البلوي ؛ علم شامخ ، ومنارٌ مفرد ، بين اعلام الكتابة والبيان ، والنثر الفنّي ، في هذه الحقبة المبكّرة من تاريخ آداب العرب ، والتي نتحدث عنها في اليمن ؛ وليس على مستوى الواقع اليمني فقط ، بل وبالنسبة إلى سائر الأقطار العربية والاسلامية ، وشوامخ اعلام البيان وأكابر الكتاب الأوائل ؛ كعبد الحميد الكاتب ، وإبن المقفّع والجاحظ وأضرابهم .

وآثاره التي سمحت كوارث الزمن بوصولها إلينا ـ وهي قطرة من مطرة ، وغيضٌ من فيض ـ تضرب المثل الصّالح للأساليب البيانية ، التي كان من الممكن أن تتأثّر به أساليبُ تلاميذ المدرسة الاسلامية ومنهجها القرآني ـ لو لم يتآمر على الاسلام وقرآنه وتلاميذهما في قرون الاسلام الثلاثة الأولى ـ أعداؤهم من حاخامات عُزَيز ، وعبيد الصَّليب ، والشعوبيين ، بل وممّن أُشْرِبَتِ الوثنيّة الجاهلية قلوبهم ، وصدّق إبليس فيهم ظنّه ؟ فما إن مات الرسول الكريم عليه الصّلاة والتسليم ، حتى انقلبوا على أعقابهم ، ونبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهم ، واتّبعوا ما تتلو الشياطين ، كأنهم لا يعلمون .

تلك الأساليب البيانية التي كانت الجزيرة العربية ، والأصقاع التي تحيط بها ـ تصغى إلى نبراتها وتعابيرها القرآنية في خطب ، ومواعظ ، ورسائل بعض الصحابة والتابعين لهم باحسان . . ثم بدأت تتسكّع « مستغربة » ؛ إلّا في ألسنة وأقلام قلّةٍ كأنّ الله ـ سبحانه ـ قد أراد بهم أن يحفظ لأجيال الأمة الاسلامية المثل الصالح الذي يمكن أن يُحتذى حين يعودون إلى الأسلوب القرآني وينتهجونه أخلاقاً وثقافة ، وسياسة وفنّا في أيّ مكان ، وفي أيّ زمان .

هذا الجهبذ ـ بشر البلوي ـ أحد كبار كتّاب القرن الثاني الهجري ـ إن لم يكن أكبرهم ـ قد التهمت الأحداث والأهواء والتعصّبات تصانيفه وآثاره البيانية والأدبية ؛ وأقول تصانيفه وآثاره لأن ما وصل إلينا من رسائله ، وقد حبّر إحداها إلى صديقه بشار ابن رضابة حوالي عام ١٤١ هـ أو قبل ذلك ، وكتب بعضها إلى الوزير يحيى بن خالد البرمكي بعد سنة ١٨٢ هـ ، ولا أستطيع أن أتصوّر أن مثل « بشر البلوي » مزاجاً وطبعاً ، وموهبة وطموحاً ؛ وهو الكاتب والعالم والأديب ، أن لا يُنْتج طيلة ستين عاماً إلا أحد عشر رسالة ؛ ينصح صديقاً ، أو يسخر من ثقيل ، أو يحذّر من بخيل ، أو يتودّد إلى أمير ، أو يدافع عن حقّ ، أو ينكر باطلا ، أو يذكر بتعاليم شريعة الاسلام ، أو يشكو تصاريف الزمان ، ولا سيما وقد تربّع في أعلى المراتب ، وتسنّم أرفع المناصب ، وكاتَبَهُ أرباب الدولة في « بغداد » ، وتهادي الناس بلاغته ، واستشاره في حلّه وترحاله أمثال الامام محمد بن ادريس الشافعي ؛ ولا ريب يخامرني ، ولا أستطيع إلّا أن أجزم ، بأنّه قد عقد المجالس ، وحاضر وناظر ، وجالس ودارس أفذاذ العلماء في عصره الذين كان يرحل إليهم ويقصدهم إلى اليمن العلماء الأحبار كالامام الشافعي ويحيى بن معين وابن راهوّيْه ، وعلي بنّ المديني ، والامام أحمد ابن حنبل ، وأخذ عنهم وأخذوا عنه ، وانه قد صنّف وحرّر الرسائل في شتى المواضيع خلال عمره الخصب الذي ينوف على الثمانين . !

فأين كل ذلك ؟ وماذا كان نصيبنا منه ؟

لقد تفردّ العلّامة « الهمداني » بتسجيل النزر اليسير من آثار هذا العلم الشامخ ، وتعرض لذلك وهو يتحدّث عن صنعاء ، و كتّابها فقال : « ولم يزل فيها من كتبة الديوان بلغاء ، غير مولّدي الكلام ، ولا مستخفي المعاني ، ومبعدي الاستعارات » ؛ وبعد ان ذكر أسماء بعض من تولّوا الكتابة في « ديوان الانشاء » بصنعاء وقرّر : إنهم كانوا أفضل من جميع كتّاب الأقطار العربية والاسلامية فصاحةً وبلاغةً وإتقانا ؛ قال : « ولا يكون لفقيهٍ من أهل الامصار شرطٌ إلّا ولهم أبلغ منه ، وأعذب لفظا ، وأوقع معنى ، وأقرب اختصارا » ؛ ثم قال : « وكان بشر بن أبي كبار البلوي من أبلغ الناس ، وكانت بلاغته تُتَهادَى في البلاد ؛ وكان له فيها مأخذٌ لم يسبقه إليه أحد ، ولم يلحقه فيه ، وتُعْجب بلاغته ونفاستها ، وأنه فيها أوحد ،

وأنّه لا يشابه بلاغته البلغاء ، وأنه منفردٌ بحسن اختلاس القرآن » [صفة الجزيرة ص : ٨٧ ـ ٨٨] .

ثم أورد له أحد عشر رسالة ، وهي من النسق البديع ، وطرازها مفرد ، يميّز نفس منشيها ، ويجعله فيها « أوحد » كما قال الهمداني ، ومنها ما هو إلى أشخاص معروفين ؛ فيهم الامراء والوزراء والوُلاَة ، والبعض إلى مجهولين لم يذكرا الهمداني أسماءهم .

حياة البلوي من رسائله :

لم يحدثنا « الهمداني » ـ وهو الوحيد بين القدماء ـ الذي ذكر « بشر البلوي » ـ بشيء عن حياته ومولده ونشأته ، ووفاته ولم يزوّدنا بأية معلومات عن حياته الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية ، واتجاهاته المذهبية ، واكتفى بعد الثناء عليه بما هو له أهل ، أن أوْرَدَ له أحد عشر رسالة ـ كما قلنا ـ ولذلك فسأحاول أن استنبط من هذه الرسائل ما يساعدنا على معرفة شيء عن شخصية « بشر البلوي » ويعطينا صورة ـ ولو غير جلواء ـ لأعظم كتّاب العربية في القرن الثاني الهجري . وقد ساعدنا الهمداني بانتقائه لتلك الرسائل التي تمثل أدوار حياة « بشر » ولو لم ينصّ على ذلك ؛ إذ أن منها ما كتبه وهو في عنفوان شبابه ، ومطلع حياته الفكرية ، والدينية والأدبية ، ومنها ما حرّره وهو في وجاهة كهولته وجلالها ، ومنها ما حبّره أو أملاه على كاتبه وهو يهدج إلى قمة الثمانين . نعرف ذلك من ذكره للأسماء الموجّهة إليهم تلك الرسائل ولبعض التواريخ التي صادف وجودهم أثناءها في اليمن ، وقد نتجاوز ذلك إلى ما نعرفه عن الأسماء التي ذكرها « بِشْرٌ » نفسه في بعض رسائله ؛ وهذه طريقة سنضطر إلى انتهاجها مع الكثير من اعلام الثقافة في تاريخ اليمن الفكري حين يبخل المؤرخون ، أو تشحّ معلوماتهم ، فلا نجد فيها ترجمة وافية تذكر ميلاد أو تحدّد وفاة من نريد أن نتحدث عن آثاره .

ولذلك ـ بل ولأنّ الرسائل من النسق العالي الفذّ تصويراً وتعبيراً ـ فسأوردها جلّها أو كلّها ؛ ولكنّي سأخالف الهمداني في ترتيبها ؛ وأنسّقها

تاريخياً وزمنيا حسب معرفتي التاريخية بحياة من كُتِبَتْ إليهم ، أو بأسماء المشهورين الذين تعرّض لذكرهم « بشر » نفسه في تلك الرسائل ؛ فنعرف ـ استنباطاً ـ تاريخ مولده وعام وفاته ، ونميّز ـ استنتاجا ـ أدوار حياته ومراحلها التي عاشها وعانته وعاناها .

ولادته ونشأته

من رسالته إلى بشّار بن رضابة

من رسائل « البلوي » التي أوردها الهمداني رسالة جعلها الخامسة وقال انه بعثها إلى بشار بن رضابة وهذا نصّها :

« أما بعد ؛ فاني رأيتك في أوّل زمانك تغدو على العلماء وتروح عنهم ، وتحدّث عن الله ، وعن ملائكته ورُسُله ، وقد أصبحت تحدّث عن « معن » وعن عمّاله ، وعن أبي « مسلم » وعن أصحابه « فبئس للظالمين بدلا » فمن خلّفت على أهلك ، ؟ أو على من تتّكل في هول سفرك ، ؟ أو بمن تثق في حالة غربتك . ؟ أبا للّه أم عليه ؟ وكيف !؟

ولست أخشى عليك إلّا من قِبَله ، لأنه قد أعذر إليك وأنذر ، فعصيت أمره ، وأطعت اعداءه ، وخرجت مغاضباً تَظُنّ ان لا يقدر عليك ؛ فاتق على نفسك الزلل ، وانزلْ عن دابّتك في كل جبل ، « فاذا استَوَيْتَ أنتَ ومَنْ مَعَكَ » على ظهورهاَ ، فلا تقل « سُبْحان الذي سخَّر لَنَا هَذا » لأن الله تبارك وتعالى قد كره أن يُحمَدَ على ما نهى عنه ، ولكن قل : « ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضِعْفاً في النار » والسلام » [٩٠ ـ ٩١] .

ونحن لا نعلم شيئا عن « بشار » هذا ، ولم يكلّف الهمداني نفسه التعريف به ، أو ذِكْر بعض أحواله كما يعمل أحيانا ؛ ولكن لهجة الرسالة وسياقها ، وقوارع التحذير ، وزواجر النصح ، وما تعرب عنه عباراتها العنيفة ، تخوّل الظنّ انّه كان صديقا للبلوي ، وربما كان من زملائه في حلقات الدرس ، والغدوّ والرواح على العلماء وعنهم ؛ والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتشير إلى أن هذا الصَّديق الزميل قد تغيّر وتبدّل ؛ وأصبح لا يغدو على العلماء باحثاً دارساً مستنيرا ، ولا يروح عنهم محدثاً عن الله ورسله ؛ بل استعاض عن ذلك ، التردّد على أبواب الولاة وعمالهم وأصحابهم يشيد بأخبارهم ، وينوّه بأمجادهم ؛ وان هذا

التحـول قد آلم « البلوي » وآذاه ، فكتب هذه الـرسـالـة ناصحـاً ومنذرا ومحذّرا ، لصديق حميم وزميل قديم .

ولا يهمّنا التنويه ببراعة الرسالة وبلاغتها ، وإحكام سبكها ، ونصاعة بيانها ، ولا بحدّة تعابيرها ، وعنف لهجتها ، ولطف « اختلاس » الآيات القـرآنية ؛ وابـداع اقتبـاسهـا ، فذلـك طابـع كل رسـائله التي أوردهـا « الهمداني » وما يفتقر إلى دراسة مستقلة من قبل « البلاغيين » وأساتذة علم « المعاني والبيان » .

غير أن ثمّة ما لن تفوتني الاشارة إليه ؛ إذ قد لا يتأمّله ، ولا يُلفتُ النظرَ إليه ، إلّا من عاش ومـارس ما يماثـل الحياة التي عاشهـا ومارسها « بشرٍ البلوي » وفي اليمن نفسها ؛ وأظن أنّي قد حظيت بذلك قبل خمسين عاماً من كتـابـة هذه السـطور ؛ قبل وجود وسائل التنقل الحديثة من سيارات وطيّارات ؛ وعنـدمـا كان النـاس لا وسـائل نقل يستعملونها في رحلاتهم وأسفارهم غير الدوابّ من جمال وخيل وبغال وحمير ؛ ولأن سبل المواصلات وطرقاتها كانت صعبة وعرة ، غير معبّدة ، مملوءة بالحفر والأحجار والأشواك وشتى المعـوّقـات ؛ ولا سيما في الجبـال والعقبـات ؛ فقـد كان من عادة المسافرين اليمنيين ـ وإلى عهد شاهدته ومارسته بنفسي ـ أن ينزلوا عن ظهور دوابهم ـ بكل أنواعها ـ عند كل جبل أو « نقيل » يرتقونه ، وفي أية عقبة كأداء يجتـازونها ؛ لا تخفيفـاً على الحمـير والبغال ورفقاً بها وحسب ، بل وحفـاظـاً على أنفسهم من مخاطـر السقوط والتردّي في المنزلقات والمهاوي السحيقـة . وهـو ما كان أيضا قبل ألف وثلاثمائة عام ، أيام « البلوي » ولذلك قال في رسالته : « فاتق على نفسك الزّلَلْ ، وانزل عن دابّتك في كل جَبَلْ » .

غير أن براعـة « البلوي » الفنية قد استعـارت صورة ركوب المسافرين العـاديّين على دوابهم ، ونـزولهم عن ظهـورهـا حين تتسلّق بهم العقبات الكأداء ، ومزالق مهاوي الجبال ، ونقلها إلى تصوير ركوب صديقه « بشّار » وأضرابه مطامعهم وأهوائهم في أسفار مطامحهم إلى ما يؤمّلونه ويرجونه من جوائـز وهدايا الولاة والوزراء ؛ ومخاطرة البعض منهم ؛ فيتجشم الكَذِب ويتعمده ، ويزاول الأفك والنفاق .

ولأن من عادة المسافرين اليمنيين المتوارثة عبر الأجيال ، انهم حين يجتازون الوعر والصعب من تلك المزالق ، ويصلون إلى السهد المهد والسهل من الطرقات ، كانوا يقولون عندما يعاودون ويستأنفون الركوب على دوابهم آمنين : « سُبْحانَ الذي سَخّر لنا هذا ؛ وما كنا له مُقْرنين » ؛ فقد وقف « البلوي » موقفاً بيانياً رائعاً ، مفرّقاً بين الحالتين ؛ حالة ركوب المسافر على دابته تاجراً أو مجاهداً أو طالباً لرزق ، أو مهاجراً في سبيل علم ؛ وحالة الراكب مجازاً لأطماعه الدنيوية وقد أسرجها بمدائحه واطراءاته متسلّقا جبال الأكاذيب ، وعقبات النفاق ، توسلا إلى « متاع الغرور » !

فهو يُحذّر ويُنذر هذا المسافر أن يقول ما يقوله المسافرون العاديون ؛ لأن سفره لا يرضى الله عنه ، ودوابّه من عمل الشيطان ، وعليه ان أراد أن يقول شيئا أن يردّد قول الطّاغين حين يصْلون جهنّم : « ربّنا من قدّم لنا هذا فزدّه عذاباً ضِعفاً في النار » .

وهو موقف بياني رهيب ، وصورة بلاغية مرعبة .

ثم ماذا ؟ لقد قلنا اننا لا نريد التنويه بالرسالة وبراعتها ؛ وانما استفتحنا بها ما نستشهد به من رسائل « البلوي » رغم انها الخامسة في ترتيب « الهمداني » لأنها خليقة بأن تكون الأولى في الترتيب الزمني ومنها نستطيع أن نستنبط تاريخ ولادته ؛ فكيف يتأتّى لنا هذا الاستنباط دونما تعسفّ أو تكلّف ، ولم يشر إليه « الهمداني » ولا ورد صريحاً في منطوق الرسالة ؟

انها تحدثنا ـ مستنكرة ـ أن « بشارا » قد انحرف ؛ وأنه بعد ان كان « في أوّل زمانه » « يروح ويغدو على العلماء » « يتحدّث عن الله ورسله » ، أصبح مشغولا بالتحدث عن « معن بن زائدة الشيباني وعمّاله » ، وعن « أبى مسلم الخراساني وأصحابه » ؛ ونحن نعلم ان هذين القائدين معن بن زائدة ، وأبا مسلم ، كانا من أكبر قادة جيوش الدولة العباسية الجديدة ، وان شهرتهما بعد أن تم القضاء على الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ كانت قد ذهبت في آفاق العالم الاسلامي ؛ كما نعلم أيضاً أن أبا مسلم الخراساني سرعان ما لقي مصرعَه علي يد الخليفة المنصور العباسي حوالي عام ١٣٧ هـ ؛ ولا يُعقَل أن يرمي « بشرٌ » صديقه « بشاراً » بتهمة الاتصال به وانه يتحدث عنه ، ويشيد بفضائله ، وقد أصبح رمزاً من رموز اعداء الدولة العباسية ؛ بل وبات في عداد الهالكين !

فهل نستطيع ان نستنبط من هذا أن « بشاراً » قد انحرف عن نهج العلماء ودعاة الاصلاح ـ في نظر « البلوي » ـ وبدأ يراسل القائدين الكبيرين العربي الكريم الفارس معن بن زائدة والفارسي الداهية الفارس أبا مسلم في مطلع العهد العباسي ؟

وهل يخوّل لنا ذلك ان ندّعي بأن « بشار بن رضابة » وغيره من اليمنيين الذين كانوا وحتى عام ١٣٢ هـ وما بعدها يدينون بالولاء للخلافة الاسلامية ويرتبطون ، ويخضعون إدارياً وسياسياً لعواصمها في الحجاز أو في الشام أو في العراق كسائر الأقطار العربية والاسلامية في القرنين الهجريين الأول والثاني وقبل أن يتمزق العالم الاسلامي بالحروب والفتن ، ودعوات الخوارج والشيعة والشعوبيين ، في الجزيرة العربية وفارس وافريقيا وخراسان ، وما وراء النهر ، ونهوض الدولة الأموية بالاندلس ، واستقلال بعض الدعاة هنا وهناك ؟

هل نستطيع أن نزعم هذا ؛ وان نقول : إن بشاراً واضرابه قد حاولوا « مبكرين » الاتصال بأكابر زعماء الدولة العباسية الجديدة على اختلاف نزعاتهم واهوائهم ، وما يبيّتونه ، أو يخطّطون له ، أو يضعونه من أطرٍ ونُظُمٍ يريدون للدولة الجديدة أن لا تحيد عنها ، وان لا تتجاوز حدود تشريعاتها . وإن خالفت وجانفت حدود ما أنزل الله ، وأن كل ذلك قد أزعج وأثار استنكار « بشر البلوي » تلميذ مدرسة القرآن ، وأثار غضبه على صديقه وزميله في حلقات الذكر والعلم والدعوة إلى « العدل والاحسان » و « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » و « شوروية الأمر » بين المسلمين ، ومحاربة تيّارات التمزّق عنصرية كانت أو طائفية ، عربية كانت أو أعجمية ، قرشية كانت أو شعوبية ؛ فاندفع مستنكرا على صاحبه ـ وهو العالم ـ أن يميل مع من مالوا أو يميلون إلى « معن بن زائدة الشيباني » وعمّاله وهم يمثلون تعصب « العنصر العربي » ؛ أو إلى « ابى مسلم الخراساني » وأصحابه وهم واجهة « العنصر العجمي » ؛ وكل ذلك وما شاكله باطل في نظر « بشر البلوي » وكل مسلم يعي قول الله تعالى :

﴿يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ؛ انّ اكرمَكُم عند الله أتقاكم﴾ .

أن هذا الاستنباط ـ أو الافتراض ـ لا يبعد عن الصواب ومنه نعرف أن « بشراً » و « بشاراً » كانا قد بلغا مبلغ الرجال حين قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ وبه نستطيع القول : إن مولد بشر لم يكن بعد عام ١١٠ هـ ان لم يكن قبلها .

وحتى لو كنا أكثر حصافة وأشد تمسّكاً بالنصوص التاريخية ولم نفترض أن « بشار بن رضابة » قد حاول الاتصال بقادة الدولة العباسية قبل القضاء على « ابى مسلم الخراساني » ؛ وانه قد فعل ذلك بعد وصول « معن بن زائدة » واليا على اليمن من قبل الخليفة العباسي « المنصور » ؛ فبالرغم من ان ذلك سيخلق إشكالا ، وهو كيف يتعرض « البلوي » لذكر أبى مسلم مع انه قد هلك ؟ لكن النتيجة ستظل هي هي ، وسنستنبط نفس الاستنباط .

فكلّ كتب التاريخ تحدثنا ان الخليفة أبا جعفر المنصور قد بعث معن بن زائدة الشيباني والياً على اليمن سنة ١٤٠ هـ أو بعدها بعام ، وأنه لبث فيها ست سنوات كان فيها ـ رغم كرمه وإسرافه ـ شديد الوطأة جباراً غشوماً تتجاوز احكامه الحدود الشرعية بل والانسانية ؛ وإذا عاقب على الجرائر قسى ولم تأخذه رأفة ؛ وقد قتل من أهل « المعافِر » ألفين ، لأن رجلا منهم قتل ابن عمّ له ؛ ولم يكتف بذلك بل أخرب الديار وغوّر المياه وألزمهم بلبس السواد ، وعدم حمل السلاح ؛ كما ان وقيعته بأهل « حضرموت » مما سارت بفظائعها الامثال شعراً ونثراً ؛ فقد قتل منهم في يوم واحد خمسة عشر ألفا ، وكتب بذلك مباهياً ومفاخراً إلى الخليفة ابى جعفر المنصور ؟

وعندما بلغ الخليفة ـ وهو المشهور ببخله حتى لُقّب بأبى الدوانيق ـ إسراف « معن » في الانفاق كأسرافه في سفك الدماء سخط عليه ؛ ولكن « مَعْناً » ارسل وفداً يسترضيه وكان مما قاله رئيس الوفد : « ان معناً قد انفق المال في طاعة أمير المؤمنين ، وانه قد بطش بالعصاة حتى استوى ما كان منهم معوجاً وأصبح أهل اليمن خولا لأمير المؤمنين » فقبل المنصور العذر ورضى عنه ؛ وذلك ما تحدثنا به كلّ كتب التاريخ !

فاذا كان بشر البلوي قد كتب رسالته إلى صديقه بعد وصول معن إلى اليمن ، وفعل بها ما فعل سنة ١٤٠ هـ أو بعدها بعام أو عامين ؛ فان

لهجتها وبراعتها تدل على انها صادرة من رجل تقيّ صلب العقيدة يذكّر زميله بأوّل زمانهما وهما يروحان ويغدوان على العلماء ؛ ولا بد ان يكون من هذا شأنه في عقده الثالث ، وأنه قد انفق أكثر من عشرين عاماً عاكفا على كتاب الله وسنة رسوله وأخبار العرب وأشعارها ومعارف عصره الذي يعيشه حتى نال هذه البراعة اللغوية ، وذلك التفنّن البياني في اختلاس وحسن اقتباس آيات الكتاب العزيز .

وإذن ؛ فلن نبعد عن الصواب إذا قررنا ان ولادة بشر البلوي كانت في أواخر العهد الأموي ، و ـ قد سمع في طفولته أحداث الصراع العباسي الأموي ، والعلوي الأموي ؛ والزبيري الأموي أيضاً وقد ظلّت أخبار مآسي ذلك الصراع عالقة في ذهنه ، وأشار إليها مراراً في رسائله ؛ وانه قد نشأ نشأة دينية علمية كوّنت منه رجلا نال ما يستحقه في مجتمعه من تقدير ، وخوّلته معارفه ومكانته العلمية والادبية بعد ذلك من الاتصال بكبراء الدولة ومكاتبة أهل الحلّ والعقد من رجالها في بغداد ومن وزراء وكتّاب المنصور والمهدي والهادي والرشيد .

وعلى أحصف التقادير يكون بشر قد ولد حوالي عام ١١٠ هـ أو قبلها بقليل كما أسلفنا .

وعندما نعثر على ما لا يزال موؤداً من رسائله ومصنفاته سوف نتأكد مما استخرجناه واستنبطناه ، وقد نجد فيها ما يشير إلى علاقاته الفكرية والثقافية بمن نجا من علماء المسلمين وفقهائهم الذين خرجوا مع « الامام زيد بن علي » على « هشام ابن عبد الملك » ؛ بعد استشهاد « الامام » وتفرّق أصحابه في الآفاق ، ورسائله التي بين أيدينا تدل على انه من أقطاب الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والعدل والتوحيد والوعد والوعيد وهو ما نادى به زيد وأصحابه .

أطوار حياة البلوي :

لا نكاد نعلم شيئاً عن حياة بشر البلوي وأطوارها حلا وترحالا ، ونعمي وبؤسي ، وكما ان « الهمداني » لم يذكر له سنة ولادة ولا معالم حياة ؛ فانه أيضاً لم يخبرنا متى وأين أدركته الوفاة ؛ وسنضطر إلى استخراج واستنباط كل

ذلك من طريقة الاستقراء والاستنتاج ، ومن المعلومات التاريخية التي قدم بها الهمداني رسائل بشر إلينا . أو حدّثنا بها المؤرخون عن الأشخاص الذين كتب إليهم رسائله ، والتي منها نستطيع ان نعرف انّه بعد ان كتب إلى صديقه « بشّار » ما كتب ، لم يستمر بُعده عن المسرح السياسي طويلا ؛ فقد رأى - أو ربما أجبرته الظروف - أن ينخرط في سلك العمل للدولة ، وانه لأدبه وموهبته الكتابية ، قد عينّ في « ديوان الانشاء » بصنعاء ، نعرف ذلك بل نستنبطه من رسالة يقول الهمداني انه كتبها إلى يزيد بن منصور عامل ابى جعفر المنصور على اليمن الذي قدم إلى صنعاء في أول سنة أربع وخمسين ومائة - ١٥٤ هـ خلفاً للفرات بن سالم ، وهذا نصّها :

« أما بعد فانه قدم عليّ كتابٌ من الأمير حفظه الله مع رسوله نعمان الهمداني ، يأمرني أن أبعث إليه بفَرض الفرات بن سالم - يريد بالفرض شيئاً كان فرضه على أهل اليمن - وأنا أخبر الأمير أكرمه الله أنه كان قَدِمَ علينا قبل كتابه كتاب الله تعالى مع رسوله محمد ﷺ يأمرنا فيه أن نفرّق ما جمع الفرات ، وان نهدم ما بنى ، وأن نوالي من عادى ، وان نعادي من والى ؛ ونظرتُ في الرسالتين ، وقست بين الرسولين ، بغير تحيّز عرض ، ولا لشبهةٍ بحمد الله دخلَتْ ، فرأيت أن لا أنقض ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ لما قدم به النعمان لعنه الله وغضب عليه ؛ وعلمت أنه من يزغ منّا عن أمر الله يذقْهُ من عذاب السعير ، فليَقْض الأمير حفظه الله فيّ ما كان قاضيا ، ثم ليعجّل ذلك ولا ينظرني ، فوالله اَن العافية لفي عقابه ، وان العقاب لفي عافيته ، وان الموتَ لخير من الحياة معه ، إذا كان هذا الجد منه ، والحق عنده ، والسلام » [صفة : ص : ٨٩] .

وتأتي الرسالة في ترتيب الهمداني الثانية ومنها نستطيع أن نستنبط أموراً جديرة بالاهتمام في حياة « البلوي » والأطوار التي مرّ بها .

أولا : تأكيد ما سبق ان قلناه من أن نفوره عن خدمة الدولة ، وابتعاده عن المسرح السياسي ، والحياة العملية ، لم يدم طويلا بعد رسالته إلى صديقه بشار ابن رضابة ، والتي تمثل دوراً من أدوار حياته نفهم انه كان أثناءه يكره القرب من « الدولة العباسية » وعمالها وولاتها ، وانه كان يرى ان من واجبات العالم التقيّ أن يظل بعيداً عن مخالطة الظالمين ؛ معارضاً لهم ،

منكراً أعمالهم ، وهو ما كان عليه حين كتب رسالته إلى بشار ، والتي حرّرها على أبعد الاحتمالات عام ١٤٣ هـ لأن رسالته هذه والتي كتبها سنة ١٥٤ هـ أيّ بعد عشر سنوات إلى الوالي يزيد بن منصور تدلّ على انه كان قد انخرط في سلك خدمة الدولة منذ زمن ؛ اذ لم يبعث الخليفة « المنصور » عامله يزيد إلى اليمن خلفاً للفرات بن سالم الاّ وقد أصبح بشر يتولىّ منصبا إداريا كبيراً ، رقته إليه كفاءته تدريجياً ؛ وهو ما يبرّر موقف الوالي الجديد منه ويجعله يطلب إليه أن يبعث بفرض سلفه الفرات بن سالم على أهل اليمن ، ورفض بشر لطلب الأمير الجديد يوحي بذلك بل ويؤكّده .

ثانياً : نعرف من الرسالة ان « بشراً » وان كان قد انخرط في سلك العمل للدولة ؛ وتولّى منصباً إدارياً كبيراً الاّ انه لا يزال مستقيماً ؛ متمسكاً بما يحتّمه عليه دينه وورعه ، وبما تقتضيه الشريعة الاسلامية من عدل واحسان ؛ ولا يُستبعد أيضاً انه كان قد اختلف مع الوالي القديم الفرات بن سالم بسبب هذا الفرض الذي فرضه على أهل اليمن ؛ وان هذا الاختلاف كان أحد أسباب عزله أو نقله إلى منصب آخر .

ثالثاً : ورغم منطق الرسالة القويّ الصارم ؛ فان لهجتها لا توحي بموقف عدائي من الوالي الجديد يزيد بن منصور ؛ ولا يُشتمّ منها رائحة تمرّد أو عصيان ، أو رغبة في الخروج عن الخدمة ؛ فهو يدعوه بالأمير ، ويدعو الله له بالحفظ والكرامة ، وان كان قد صبّ اللعنة على رسوله اليماني ، نعمان الهمداني والذي ربما كان من كتّاب الأمير الفرات بن سالم وكان من مشجّعيه على اشتراع فرضه الظالم ـ فهو يخاطب الخلف بأسلوب بياني ساحر ساخر ، مقنع مؤثر ، لا يستطيع من يصغي إليه الاّ ان يقتنع به مسلماً ، ما لم يكن جباراً عنيداً ، أو مكابراً بليدا ؛ و « البلوي » بكل ذلك يصوّر موقفه في مرحلة من مراحل أدوار حياته ؛ وقد أصبح يعتقد ان العالم المتمسك بمبادىء الدين لا يستنكف من خدمة الدولة ، اذا كان يرى في ذلك مصلحة عامة ، ولا تتعارض خدمته مع الحكم بما أنزل الله ، بل انه يستطيع ان يجعل منها وسيلة لتنفيذ ما يدين به ويعتقده ، وهو ما أتصوّره من رسالة بشر إلى يزيد بن منصور . حتى وهو يقول له غير هيّاب ولا وجل : « فليقض الأمير حفظه الله فيّ ما كان قاضيا ثم ليعجّل ولا ينظرني » الخ إذ انّه ما لبث ان ختم الرسالة بقوله : « اذا كان هذا ـ أيّ رغبته في إحياء فرض

سلفه الفرات بن سالم ـ هو الجدّ منه والحق عنده » وكأنّه بأسلوب ساحر ناعم يريد أن يتصوّر أن الوالي الجديد لن يُقرّ بعقله السليم ظلم سلفه ، وانه غير جاد فيما قدم به عليه وباسمه الكاتب اليماني نعمان الهمداني » .

لماذ تحوّل من المنابذة إلى المشاركة ؟

ثم ماذا ؟ ثم لا ندري ماذا كان بين « بشر » وبين الوالي الجديد يزيد بن منصور الذي يقول الهمداني انه قدم إلى صنعاء سنة ١٥٤ هـ وأقام بها باقي خلافة المنصور وسنة من خلافة المهدي ، ولكن يظهر أن أمره قد أمِر ، وانه ظل على صلة بالولاة المتتابعين على اليمن ؛ بل أنه وثّق علاقته بالعاصمة بغداد نفسها حتى أصبح أحد مستشاريها في الشئون اليمنية كما سنعرف من مراسلاته مع كبير وزراء « الرشيد » يحيى بن خالد البرمكي . ولكن هل لنا أن نعرف لماذا غيّر بشر رأيه وانخرط في سلك خدمة الدولة بعد نفوره عنها ؟ وما هي أسباب هذا التغيّر الجذري في حياته وأفكاره ؟ وهل تنكّر بعض التنكّر لمبادئه ؟

وإذا افترضنا حسن الظن بخرّيج المدرسة القرآنية ، وتلميذ التابعين باحسان لخير القرون فلا بد أن نفترض أيضاً ـ وبحذر غير مسرف ـ أن بعض الولاة الذين قدموا إلى اليمن بعد أن غادرها معن بن زائدة الشيباني وابنه ، أي بعد سنة ١٤٨ هـ وبشر يزحف إلى الأربعين قد كانوا من الولاة الصالحين الذين عادةً وطبعاً وسياسةً يقرّبون العلماء الاخيار ويدنونهم ، ويبعدون الطّماعين والأشرار ويقصونهم ؛ وكثيراً ما يحدُثُ ذلك كما يحدّثنا التاريخ ، وقد احتفظ بذكريات حسنة عن بعضهم ، أمثال علي بن الربيع بن عبد المدان وعبد الله بن مالك ، ومحمد بن برمك والغطريف بن عطاء ، وعبد الله ابن يوسف الخزاعي الذين كانوا محمودي السيرة ؛ فلا يبعد أن « بشراً » قد اتصل بأحد أولئك الولاة العادلين ، أو بمن هو قريب الصلة بهم من أصحابهم ، وأسند إليه عملا في ديوان الانشاء وسرعان ما أهّلته كفاءته واستقامته إلى التنقّل من منصب إلى ما هو أرفع ، واشتهر أمره ، وذاع صيته ، واعجب وزراء البلاط العباسي ـ وقد كانوا من فرسان البيان ـ بما يطّلعون عليه من تقارير ورسائل ديوانية يحرّرها ببراعته وبلاغته ؛ كما لا يبعد أيضاً أن صداقة قد نشأت بينه وبين البعض من رجال وموظفي البلاط العباسي ، فراسلهم وتوثقت صلته بهم كما تدل على ذلك بعض

رسائله التي اختارها الهمداني .

ونظن ان ذلك قد كان قبل وصل يزيد بن منصور إلى صنعاء عام ١٥٤ هـ لما استنبطناه من المراسلة التي دارت بينهما حول فرض الفرات بن سالم . ولا شك ان هناك أسباب أخرى دعت بشرا أو دفعته إلى ترك المنابذة والنفور من المساهمة في خدمة « الدولة العباسية » لا نعلمها ولو عثرنا على الموؤد من آثاره لعرفناها .

ومع كل الاحتمالات ؛ وسواء عثرنا على المزيد من أثار بشر أم لم نظفر بشيء جديد ، فلا غرابة أن يتغير فلم يكن الأول ولن يكون الأخير ؛ وقد عوّدنا البَشر قديما وحديثاً على تغيّر مواقفهم وتحوّلها ، « والانسان قد يتغيّر » كما قال الشاعر القديم .

دور التشبّث بالسلطة والصراع مع الولاة

والدور الثالث من أدوار حياة « بشر البلوي » ـ حسب ما توحي به رسائله في صفة جزيرة العرب ـ يمثّل دور الاندفاع في حبّ السلطة ، والحرص على الوظيفة ، والتمسك بالمنصب الرسمي في ديوان الدولة ، اندفاعاً قد يخدش من جلال وجمال وهيبة الصورة التي حاولتُ أن أضع « بشراً » في اطارها ؛ لما فيها من الحاح في الطلب ، وصراحة في الاستجداء ، ولا شك أن منصبه الذي أصبح كبيراً . ودرّ عليه مالا كثيراً ، قد وسّع عليه رزقه ، ويسرّ له الدار والحشم والخدم وكثرة الأهل والولد والأصحاب والأقارب ؛ وانه قد استمرأ حلاوة الأمر والنهي ، وتصريف شئون الناس ، والتحكم في أرزاقهم ؛ وربما ـ وهو التقيّ المستقيم فطرةً ونشأةً وثقافة ، قد راق له أن ينفّذ فيما يأتي وما يدع من الشئون الرسمية ، حدود ما أنزل اللّه ، ولعلّ نفسه قد حدثته أنه مأجور على ذلك ؛ وليس فقط بما أُعطِيَ من وجاهة وتكريم في دنياه ؛ بل وبما ينتظره من ثواب في أخراه .

ونعتقد أن بعض الولاة قد حاول مؤاذاته في منصبه ورزقه ، وانه قد عانى من جرّاء تلك المؤاذاة الكربَ الشديد ؛ ولأن جلّ آثاره من مصنفات ورسائل مما لا يزال موؤداً ؛ وأصبح مفقوداً ، ولابد أن فيها الكثير من أخبار علاقته بالولاة العباسيين الذي توافدوا على اليمن بعد يزيد بن منصور الحميري ؛

ومنهم من رضي عنه وحاباه ، ومنهم من نابذه وناواه ، غير اننا لا نستطيع أن نتحدث عنه لأننا لا نعلم شيئا . وسنكتفي بايراد بضعة رسائل تصوّر هذا الدور الثالث من حياته ؛ احداها يقول الهمداني انه بعثها إلى عليّ بن سليمان وكان قدومه إلى اليمن والياً عن الخليفة المهدي سنة اثنتين وستين ومائة ١٦٢ هـ وأقام بها سنة ونصفا وهذا نصّها :

« أما بعدُ ، فانه مهما اختلط عليّ من عقلي ، واشتبه عليّ من رأيي ، وشككت فيه من أمري ، فلست أشكّ في أن الله تبارك وتعالى إذْ أراد أن يقدر عليّ رزقي ، ويبتليني بالشدّة على عيالي . أطلعك على ذات طمعي ، ودلّك على وجه طلبي ، وجعلك جليساً لأهل حاجتي ، ثم ابتلاني بطلبها إليك ، فاذا ذكرتها أسفرتَ وأبشَرْتَ ، ووعدت من نفسك وعداً حسناً ؛ ففرقتُ نفقتي لأسفارك ، ووسعتُ على عيالي لأبشارك ، وتسلّفت من إخوتي لوعدك ، فاذا أتيتكَ منتجزا ، عبست وبَسَرتَ ، ثم أدبرت واستكبرت ، وقد تصرّمت النفقة ، وانقطع الرجاء ، وأيستُ من الطمع ؛ « كما يئس الكفّارُ من أصْحابِ القُبُورِ » ، وأعظمُ ذلك عندي كربا ، وأشدّه جهدا ، انّ غيرك يعرض عَليّ الحاجةَ التي طلبتها إليك ، فأكره أن تكون الاّ بسببك ، وأن تجري الاّ على يديك ، ولعمري ما كان ذلك الاّ لسابق العلم في شقوتي بك ، فأسأل الله الذي جعل جاهك من بليّتي ، وحسن منزلتك من مصابي ، وطول حياتك فتنةً لعيالي ، أن ينقلك إلى جنّته « قبل أن يرتدّ إليكَ طرفُكَ » والسلام . [صفة ؛ ص : ٩٤ ـ ٩٥] .

ومع أننا لا ندري ما حدث له خلال الأعوام الثمانية بعد ذهاب يزيد بن منصور وقدوم علي بن سليمان هذا إلى صنعاء ، الاّ أننا نستنبط من الرسالة انه كان يعاني كرباً شديداً ، وانه قد أوذي في رزقه وحورب في معيشته ؛ ولكنه لم يسفر بالعداوة ، ولا جاهره بالقلى ، ولا توعّد ولا هدّد ، بل بطّن استياءه بدثار التملّق ، ولطّفَ طلَبَه واستجداءه بشيء من اظهار الاعتماد عليه ، وعدم الركون إلى غيره ؛ وانه قد ابتلي بذلك ، ولا يستطيع له ردّاً ولا دفعاً ، لأن الله سبحانه قد أراده له وابتلاه به ؛ ! وهل يُعقَل أن يكون غير علي بن سليمان « قد عرض عليه الحاجة التي طلبها » فيرفضها ويكره أن تكون الاّ عن طريقه ، وان لا تجري إلا على يديه ؟ انه تملّق لطيف مقبول يثير الشفقة والحنان . ثم ما هذه الدعوة على من كان جاهه من

بليته ، وحسن منزلته من مُصابه ، وحياته « فتنة لعياله » ؟ ألم يجد دعوة تليق بمن سبّب له هذا الشقاء إلاّ أن يسأل الله أن ينقله إلى جنته ؟ ألا نشعر انه رغم استيائه وشكواه يريد أن يتودّد إلى قلب الوالي علي بن سليمان ؟

والرسالة الثانية ممّا يمثلُه في دوره الثالث : مرحلة التشبث بالسلطة والصراع مع الولاة يقول الهمداني أنه أجاب بها على الامام محمد ابن ادريس الشافعي في شأن والي الخليفة « الرشيد » على اليمن عبد الله بن مصعب الزّبيري .

« أما بعد . فانك تسألني عن عبد الله ؛ كأنك هممت به ، أو سرّك القدوم عليه ، فلا تفعل ـ يرحمك الله ـ ؛ فان الطمع بما عنده لا يخطر على القلب الاّ من سوء التوكّل على الله عزّ وجل ، وإن رجاء ما في يده لا يكون الاّ بعد اليأس من رَوح الله ، لأنه يرى الاقتار الذي نهى الله عنه ، هو الاسراف الذي يعذّب الله عليه ، وأن الصدقة منسوخة ، وان الضيافة مرفوعة ، وان إيثار المرء على نفسه عند الخصاصة إحدى الكبائر الموجبة الهلكة ، وكأنه لم يسمع بالمعروف إلاّ في الجاهلية الأولى الذين قطع الله دابرهم ، ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم ، وكأن الرّجفة لم تصب أهل مدين عنده إلاّ لسخاء كان فيهم ، ولم يُهلك الريح العقيم عاداً إلاّ لتوسّع ذُكِرَ منهم ، وهو يخاف العقاب على الانفاق ، ويرجو الثواب على الاقتار ، ويعد نفسه الفقر ، ويأمرها بالبخل ، خيفة أن تنزل به بعض قوارع الظالمين ، ويصيبه ما أصاب القوم المجرمين ، فأقم ـ يرحمك الله ـ على مكانك ، واصطبر على عُسرتك ، وتربّص به الدوائر ، عسى الله أن يبد لنا وإيّاك « خيراً مِنهُ زكاةً وأقربُ رُحماً » والسلام . [ص : ٩٠]

وفي هذه الرسالة من البيان الجزل الفخم ، الشديد الأسْر ، المحكم السّرد ، ما يعجب ويطرب ، وتأمل غزارة مادة « البلوي » وتبحر معجمه اللغويّ ، والبياني ، وقدرته على تناول المعنى الذي يقصده وابرازه بشتى التعابير الفنيّة ، وصياغته بدقّة وإتقان لا تكلّف فيه ، ولا تقعّر ، ولا تصنّع ، ولقد أراد أن يصف للامام الشافعي لؤم وبخل الوالي « الزبيري » ؛ والذي لا شك انه قد اختلف معه واذاه فأورد ما يريده في صور مختلفة متعدّدة ، ولكنها كلّها رائعة ، فيها من السخرية ما يذهل ؛ وما

من صورةٍ إلا ترمز إلى آية ، أو تذكّر بعبرة ، أو تشير إلى حادثة كونية ؛ وعبـد الله بن مصعب هذا ينتمي نسبـه إلى الصحـابي الجليل الـزبـير ابن العوام ؛ وكان الرشيد قد ولاّه قضاء اليمن قال الشافعي : « فسألني أن أخرج معه لما علمه من فقري وحاجتي » (١) ! ويلاحظ من لهجة الرسالة أن عرى الـودّ كانت قد توثقت أواصرها بين بشر البلوي والامام الشافعي ؛ ولا شك انها نمت وتـطوّرت على أسس مبـدأيّة يدين بها خريجّـو المدرسة القرآنية في ذلك العصر ؛ وربما انهما كانا وثلّة من رفقائهم وتلاميذهم يتحدثون بما لا ترضى عنـه السلطة ؛ مما دفع القاضي مطرف بن مازن أن يكتب إلى هارون الرشيد : « إذا أردت اليمن ان لا يفسد عليك ولا يخرج من يديك فأخرج عنه محمد بن ادريس الشافعي » ! فأمر حماداً البربري ان يحمله إلى بغداد على قتب بعير موثقاً بالحديد ؛ ومرّةً أخرى نقول ؛ ولن نملّ تَرْدَادَ هذا القول : إننا لو عثرنا على المزيد من مصنفات ورسائل بشر البلوي لعرفنا الكثـير عن تاريخ اليمن في القـرن الثاني الهجري وعن التيارات الفكرية والسياسية التي أثّرت في مذاهب ونِحَلٍ ودويلات ، وثورات وفتن ، القرون التالية التي لن تمرّ بنا مرور الكرام وستحَدثنا ونروي عنها الكثير المثير .

نهاية عبد الله بن مصعب

وحين نفث بشر بقوله للشافعي : « وتربّص به الدوائر » كان كأنه يشاهد ما في بطن الغيب ؛ اذ سرعان ما أحاطت بالزبيري جرائره ؛ واحدقت به دائرة السوء لمّا وشى إلى الرشيد ان يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي رضى الله عنه قد أزمع الخروج و أنه يُدبّر إنقلاباً عليه ؛ وقد انكر ذلك يحيى ؛ وأنشد شعراً نسبه إلى « الزبيري » يقول فيه عن العباسيين .

وتـنـقضي دولـة أحـكـام قادتهـا فيـنـا كأحـكـام قوم عابـدي وثـن !

وجحـد « الـزبـيري » ان يكـون الشعر له ؛ فقال « الرشيد » ليحيى حلّفـهُ . . فأقسم اليمين المشهورة والتي تعرف حتى اليوم « بالزُّبيرية » في مجلس الرشيد ، وقد تخاذلت أعصابه وانهار أثْرها ، ومات خلال ثلاثة أيام ،

(١) طبقات ابن سمره ص : ١٣٤ - ١٤٢ .

والامامان بشر وابن ادريس مازالا على قيد الحياة في قصة عجيبة ذكرها المؤرخون وأوردها الأصفهاني في مقاتل الطالبين[1]» !

الخصال التي لا تجتمع في مسلم

على أن هناك رسالة أخرى فذّة في بابها ، لا تبدعها إلا يراعة عبقريّ موهوب . وقد جعلها الهمداني الأخيرة ، ولم يحدّد اسم من أرسلت اليه بل اكتفى بقوله : « ومن بشر الى آخر » وهذا نصّها :

« أما بعد ، فاني رأيتكَ في أمر دينك متصنّعاً مخذولا ، وفي أمر دنياك فاجراً مثبوراً ، وتلك خصال لا تجتمع في مسلم إلّا بسوء سريرة ، أو مقارفة كبيرة ، أو إضمار عظيمة ، يعمّ بها أولياء الله ، ويخصّ بها ولد رسول اللّه ، ومن آيات ذلك انها تشمئز قلوب أهل الحَرَمين اذا ذكرت ، وتقشعرّ جلود أهل المصَرين إذا مدحتَ ، وأنهم لا يزدادون لك الّا بغضا ، ولا في الشهادة عليك الّا قطعاً ؛ لمعرفتهم بك قديماً وحديثاً ، وعلمهم بحالك صغيراً وكبيراً » ، « وان في نفسك لوَهَنا ، وان في صدرك لكبرا ، وإن في قلبك لقساوة ، وان في معيشتك لإسرافا ، وما أحسبه صحّ في يدك من زينة الله التي أخرج لعباده ، وأرزاقه الطيبة التي بسطها على خلقه ، ما تبلغ به لذة ، ولا تقضي به ذمة ، لأن ذلك لم يصل اليك الّا ببغي المسلمين ، وبطالة المستهزئين ، وافك المفترين ، فلا احسبك إذا كنت بهذا وأشباهه تبرأ بشيء من كسبك ، عن شيء من دَيْنِك الى أحد من غرمائك الّا صرتَ ممّن يبرأ من ذلك إلى أهل الأرض ، غريباً لأهل السماء ، ولا تصل بشيء من جمعك أحداً من ذوي قرابتك إلّا كانت مسألة الله أيّاك عن قطيعتهم أهونُ عليك من محاسبته إيّاك بما يصل اليهم ، ولا تنفق « نفقة صغيرةً ولا كبيرةً » ؛ الّا وقّعت لك في سجّين ، ولا ترفع منزلةً الا هبطت بك أسفل سافلين » . ثم يغرق في السخرية والتقريع قائلاً :

« ولو نفرتَ في الأرض حيران على وجهك ، أو سرت إلى الجبال هارباً من خطيئتك ، أو ترمّمت العظام مع الكلاب ، أو وَلَغْتَ فضول الماء مع السباع ، لكان ذلك بقدر جرمك خفضاً ودِعَةً في جنائك ، وبقدر عملك

---

(١) وانظر الجزء العاشر من تاريخ الطبري

رغـدا من معيشتك ، ولو ابيضّت عيناك من الحزن ، وعضضت على يديك فأبنتهما من الغبن ، وتقطّع قلبك من الهم ، أو ذهبت نفسك حسرات ، لما كان ذلك أرشَ ما جرحت به من دينك ، ولا نذر ما لويتَ به من أمانتك ، ولا قيمـة ما فاتك من ربك ، فاذا بلغت من نفسك المسكينة ما بلغت ، ورضيَتْ عنك نفسك الضعيفة ما صنعْتَ ، فلا « تجعَلْ مَعَ اللّهِ آلهاً آخرَ فتَقْعُدَ مَذمُوماً مخذُولاً » والسلام . [ص : ٩٥ ـ ٩٦] .

خصال عبد الله بن مصعب الزبيري

ولا ندري لماذا أهمل الهمداني ذكر من أرسل إليه « بشرٌ » هذه الرسالة الـرهيبة وهي تدلّ على انه كان شخصية بارزة مشهورة معروفة في العراق والحجـاز واليمن ؛ ولعل « الهمداني » قد ذكر اسمه ولكن مختصر « صفة الجزيرة » أو أحد النسّاخ قد حذفه لهوى في نفسه ؛ ونحن بقليل من التأمل والاستقراء نستطيع أن نجزم بأنه قد كتبها إلى نفس الشخص الذي حذّر الامام الشافعي منه ؛ والذي لا نشك في ان خصومة علمية وأدبية وسياسة قد نشبت بينهما وهو القاضي عبد الله بن مصعب الزبيري ؛ لأن الصفات التي كالها له وهو يؤنّبه ويسخر منه وييئسه من رحمة الله لا تنطبق الاّ عليه من بين كل من خاصمهم أو ناواهم أو أنّبهم من عمّال العباسيينّ في اليمن . ! بل ان بشرا كاد أن يشير إليه صراحة عندما قال : ان الخصال التي جمعت فيه لا تتوفّر في مسلم « الاّ بسوء سريرة ، أو مقارفة كبيرة أو إضمار عظيمة يعم بها أولياء الله ، ويخصّ بها ولَدَ رسول الله » وولد رسول الله ﷺ في عرف السلف وائمـة المسلمـين وعـامتهم تعني السبـطين الحسن والحسين رضى ا لله عنهما ومن تناسل منهم وحرمت عليهم الزكاة . وقد عرف عن عبد الله بن مصعب ذلك وقصته مع يحيى بن عبد الله بن الحسن واليمين الزبيرية مشهورة .

انني أعتقد ان بشراً قد كتب هذه الرسالة إلى « الزبيري » لأن ما حدثتنا به كتب التـاريخ عن ذلـك الـداهية الحوّل القلب الواشي الحاقد الطمّاع البخيل ـ وبعض هذه الخصـال كانت أصيلة فيه بالوراثة ـ تنسجم ولا تتنافر مع الصـور البيانية التي أبـرزتها براعة « بشر » في رسالته ، وتوائم خصال السوء ، وطباع الشر ، التي أبدع وصفها فيه .

ونحن نعلم أن « ابن مصعب هذا » كان يكتم البغضاء لكل وجهاء وأعيان عصره سواء كانوا « أمويّين » أو « هاشميين » بحكم « زبيريّته » متأثراً بعقدة عمه « عبد الله » الذي لم ير بأساً من أن لا يجهر بالصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة « الجمعة » لكي لا ترتفع رؤوس قوم . !

ونحن نعرف ان « الزبيري هذا » قد ساند ثورة الامام محمد بن عبد الله « النفس الزكية » ضد أبى جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ لا حباً ولا اخلاصاً إذ انه سرعان ما انقلب عليه وخانه ، ولا نسفّه رأي من يقول انه كان متآمراً مع ابى جعفر المنصور في تشجيع « النفس الزكية » على الخروج والثورة بقصد القضاء عليه وعلى اتباعه ؛ ولذلك اغتفر له المنصور ومن بعده من الخلفاء العباسيين أعماله واقواله .

ونحن نعلم أيضاً أن « عبد الله هذا » قد وشى بالعشرات من علماء وكتاب ونوابغ عصره إلى الخلفاء من بني العباس وكان هو الذي دس إلى الرشيد زاعماً ان الكاتب أنس بن أبي شيخ من الملحدين والزنادقة ، وأفتى بقتله فأمر الخليفة باعدامه .

ويحدثنا المنصفون من المؤرخين بأنه لم يكن حسن السيرة في أهل المدينة المنورة لما ولّاه الرشيد عليها . وأما موقفه من أهل اليمن فقد عرفناه من كتاب « بشر » إلى « الشافعي » ، وقد أوردنا وشايته إلى الرشيد بيحيى بن عبد الله العلوي ، وموقفه المخزي معه وجرأته على ان يقسم اليمين المرعبة التي ظلت مخلّدةً باسمه حتى يوم الناس هذا لانه قد أقدم على القسم بها وهو يعلم انه فاجر وكان من أمره ما كان .

وإذن ؛ فمثل هذه الشخصية يحق لبشر ان يكتب إليها مثل هذه الرسالة .

وإذن ؛ يحقّ لبشر البلوي الكاتب المبدع والمصوّر الفنّان ان يزعم انه :

١ ـ متصنّع في دينه .
٢ ـ فاجر مثبور في أمر دنياه .
٣ ـ يكن سريرةً سيئة لأولياء الله .
٤ ـ يخصّ ولَد رسول بالكراهية والحقد .

٥ ـ يضمر مقارفة الكبائر العظيمة ضد أولياء الله وآل رسول الله .
٦ ـ تشمئز قلوب أهل الحرمين إذا ذكر لأنهم يتذكرون سيرته في المدينة .
٧ ـ وأما أهل المصرَين ـ الكوفة والبصرة ـ فقد عرفوه وعرفوا أسرته قديماً وحديثاً ، وعلموا بحاله صغيراً وكبيراً حين كان والده والياً على العراق .

إلى آخر الصفات التي تنطبق على شخصيّة عبد الله بن مصعب الزبيري .

ومن هذه خصاله وصفاته وسيرته لا ترجى نجاته ولو نفر على وجهه في الأرض حيران ندماً ، أو سار في الجبال هرباً من خطيئته ، تائباً يترمم العظام مع الكلاب ، ويستف فضول الماء مع السباع ؛ لأنه مهما فعل ، من المستهزئين ، لا يمكن ان تخلص توبته لله ولا يمكن أن تصدق نيته . هكذا قال بشر البلوى(١) .

المرحلة الرابعة والأخيرة :

ومما بين أيدينا من رسائل « البلوي » نستطيع ان نستنتج أنه بعد ان جاوز السبعين قد اجتاز مرحلة مضطربة من مراحل حياته ، أرتبكت فيها ظروفه المعيشية والوظيفية ، وتلوّنت سعادة ونكداً ، وخيراً وشراً ، حسب علاقاته بالولاة العبّاسيين وجوالِزَتهم ، ومُنافسة أو مُؤازرة من عاصره من فقهاء وعلماء اليمن ، ومن كان يفد اليها طلباً للرزق والجاه ، أو للعلم والفقه والرواية ؛

---

(١) مما يستحق الذكر اني سمعت في احدى المجالس بصنعاء أحد طلبة العلم من تلاميذ المؤرخ القاضي محمد بن علي الأكوع يقول : ان المجهول الذي كتب إليه بشر البلوي رسالته هذه هو الداعية العلوي ابراهيم بن موسى الجزّار ؛ وبعد نقاش ؛ تبيّن له استحالة ذلك لعدّة أسباب منها التاريخي وهو ان ابراهيم الجزار دعا للامام محمد بن ابراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا في اليمن سنة ٢٠٠هـ أيام خلافة المأمون وكان بشر البلوي قد توفي حوالي عام ١٩٢هـ في أواخر عهد الخليفة الرشيد وقد جاوز الثمانين ان لم يكن قبل ذلك ؛ ومنها ان بشراً نفسه قد عرّض في الرسالة بأن الخصال التي ابتُلي بها مَن كتب اليه الرسالة ممن « يخصّ ولد رسول الله » بالكراهية والبغض وسوء السريرة ، ولا ينطبق ذلك على ابراهيم الجزّار لأنه ينتسب إلى جعفر الصادق بن محمد بن الحسين بن علي وان كان سفاحاً أو كان عمله غير صالح ؛ وثالثاً لو ان الهمداني قد علم ذلك لما أهمله ؛ بل ولما اندفع مختصر « الصّفة » إلى شطبه لأنه سينسجم مع هواه ؛ وكثيرا ما يدفع الهوى المؤرخين العنصريين إلى الوهم ، بل وإلى الاختلاق أو الغمط . (المؤلف) .

وقد كان بعض اولئك الولاة به حفيّاً ، وله مكرّما ، ولاقى من البعض النكر والويل ؛ كما ان بعض الفقهاء والعلماء قد ناصبوه الخصومة وكادوا له عند الولاة وكتّابهم وحجابهم ؛ ولعل ذلك ما دعاه ودفعه إلى الاتصال المباشر برجال البلاط في مركز الخلافة « بغداد » ، ومراسلة أهل الحل والعقد من أعوان الخليفة « الرشيد » ووزرائه وكتّابه ؛ بل ومن هو ألصق به من الوزراء والكتاب كالحجّاب والحشم والخدم ، وهو ما أزعج بعض العمّال والولاة في « صنعاء » ، وأثار حنقهم عليه ، غير مقدّرين ظروفه الاقتصادية ، ودواعي طعمه في اكتساب ما يؤود به نفسه وعياله، وحرصه على المحافظة على ما قد حازه وتأثّل به من منصب وجاه . ولعلّ أشد الولاة قسوة عليه وايذاءاً له هو القاضي عبد الله بن مصعب الزبيري كما أسلفنا وكما عرفنا من رسائله اليه وأقواله فيه ، كما أن القاضي المحدث هشام بن يوسف الأبناوي كان من ألدّ من ناوأه وألّب عليه عُمّال وولاة الرشيد وغيره من الخلفاء وهو ما صرّح به بشرٌ في احدى رسائله :

وبتلك الصلة المباشرة بمن في بغداد أشتهر أمره ونال حظاً وافراً ولا سيما عند الوزير الخطير يحيى بن خالد البرمكي أكبر مستشاري هارون الرشيد وأصبح في فترة ما لعلّها لم تطُلْ : أحد مستشاري عاصمة الخلافة والمرجوع إلى رأيه فيما يتعلّق بشئون اليمن وولاتها .

ويصور هذه المرحلة الرابعة والأخيرة الوثيقة الصلة ظروفاً وارتباكا ورتابة ؛ وخيراً وشراً ، بالمرحلة الثالثة ـ بضعة رسائل أوردها الهمداني موجّهة إلى يحيى بن خالد البرمكي ، والوالي العباسي ابراهيم بن عبد الله الحجبي والي الرشيد على صنعاء سنة ١٨٢هـ وبين تاريخ احداها وما كتبه إلى علي بن سليمان القادم إلى اليمن سنة ١٦٢هـ عشرون عاماً وقد كتبها بعد ان جاوز السبعين من عمره وهذا نصّها كما في صفة الجزيرة .

يقول الهمداني : « وكتب بشر إلى ابراهيم بن عبيد الله الحَجَبي وإلى صنعاء لهارون الرشيد ـ وكان قدم صنعاء سنة اثنتين وثمانين ومائة ؛ فأقام بها سنة وشهرا ثم صرف ـ في بغي هشام الابناوي عليه وكان قد عزم على أن يولّي بشراً بعض نواحي اليمن فكسر غلّته هشام بن يوسف » .

« أما بعد ، فأن رأي الأمير ـ أمتع الله به ـ أن لا يُعلم هشاما ما يريد من صلتي ، فانّه لم يردني وإلى قط بخير ، ولم يفتح لي بابَ صلةٍ ، فتكون منه خالصة لا يريد بها إلّا وجهَ الله وحده ، ولا يرجو بها الّا ثوابه ، الّا عرض هشام من دونها ، فثقّلها وكرّهها ، وأدار القياس فيها ، وضرب لها الأمثال ، والقى الحيلة فيهـا إلى الكـاتب والحـاجب ، « وقـاسمَهُـما اني لكـما لمن النَّاصحين » ، ومدحني بما لا يُسْمَع به من أخلاقي ، وانتقصني فيما لا يُطمَع تغـيّره مني ؛ ليكـون ما أظهر من المدحة مصدّقا لما أسرّ من العَيبة ، ! ثم زخرف ذلك بالموعظة ، وزيّنه بالنصيحة ، وقاربه بالمودّة ، وأغراه من ناحية الشفقة ، وشهد عليه « أربعَ شهاداتٍ بالله إنّه لمن الصَّادقين ، والخامِسَةُ أنّ لَعْنَةَ الله عَليهِ إن كانَ من الكاذبين » .

« فإذا الحـاجب يزلقني ببصره ، وإذا الكـاتب يسلقني بلسـانه ، وإذا الخـادم يُعـرض عنّي بجـانبه ، وإذا الوالي ينظرني « نَظَرَ المَغْشِيّ عليه من الموت » ؛ فصارت وجوه النفع مردودة ، وأبواب الطمع مسدودة . وأصبح الخير الذي كنت أرجوه « هشيماً تذره الرياح » ، والصلة التي كنتُ أشرفت عليهـا « صعيداً زَلَقـاً » ، وأصبح « ماؤها غوراً » فما استطيع « له طلباً » فأسأل الله الذي جعل « لكلّ نبيّ ، عدوّاً من المجرمين » أن يكفيني شره ، ويصرف عنّي كيده ، فانه يراني « هو وقبيلُهُ من حيثُ لا » أراهم . والسلام [ص : ٤ : ٨٨ ـ ٨٩] .

خصومته مع الفقيه المتآمر

وقد افتتح الهمداني ما اختاره من رسائل البلوي بهذه الرسالة التي تمتاز بحشد صور بغيضة ، لمواقف شرّيرة إقتبسها ـ أو على حدّ التعبير الهمداني ـ اختلسهـا ، من الآيات القـرآنية ، وتصـويرهـا الفنّي لمواقف الشياطـين والأشرار ! وكلّها تعبّر عن شدّة حنقه ، وتفاقم غيظه ، على قاضى صنعاء في زمنه هشام بن يوسف الأبناوي . وتندّد بتآمره عليه ، ووقوفه ضد مصـالحه ، وقد كان ـ كما رأينا ـ في هذه الرسالة القصيرة شاعراً وفناناً ، وابتدع لعدوّه « القاضى » صوراً بيانيّة تكاد تُرى وتسمع متحرّكة متكلّمة ، تمثّل « ابليس الرجيم » موسوساً ماكراً ، وهو بفقهه وعلمه ، ومظهره الملائكي المزيّف ، يَعْـرض لكـاتب الـوالي وحاجبه ، يثقّل ويكرّه ، ويحسّن ويقبّح ، ويجمّل

ويشوّه ، ويدير القياسات ، ويضرب الأمثال ، ويقسم الأيمان المغلظة بقصد المكيدة والايقاع .

وقد بلغ غاية الابداع الفني ، وارتقى قمّة التصوير البياني ، حين قال : إن « القاضي » بمكره ودهائه ، يمدحه بما « لا يُسمع به من أخلاقه » كأنّه كان يقول : ان بشراً سليم القلب ، طيّب السريرة ، خفيف الظلّ ، ذو كرم ونسب وحسب » ثم ينتقصه « فيما لا يُطمع تغيّره منه » ؛ كأنه كان يقول بعد ذلك المدح : ولكن بشراً المسكين أحمق ، سريع الغضب ، ذرب اللسان والقلم ، لعّاناً طعّانا ، لا يعرف السياسة وما تقتضيه أحوالها ، ولا يفهم طبائع الناس ، ولا يصلح لشيء من أمور الدنيا ؛ وذلك ما لا يستطيع أحدٌ من رجال الديوان أن يبرّأ البلوي منه وهو ما تنمّ عنه ، وتدلّ عليه بعض رسائله ؛ و « القاضي » هشام إنما يقصد باظهار المدحة « بما لم يُسمع عن « البلوي » أن يصدّق كاتب الوالي وحاجبه ما أسرّه من العيبة والمكيدة والتنقيص له فيثبتانه في رأي الوالي عنه ؛ وهذا الأسلوب الماكر من أفظع وسائل الدهاة ، وشياطين الانس عندما يريدون النجاح في تنفيذ مكايدهم ضدّ خصومهم في كل زمان ومكان .

وما أدق وأدهى ، وما أبرع وأنكى من لجوء « القاضي » بعد التثقيل والتكريه ، وضرب الأمثال ، والمدح بما لم يُسمع ، والانتقاص فيما لا يُطمع ان يتغيّر من طبائعه ، إلى « الزخرفة بالموعظة » ، والتزيين بالنصيحة ، والتمويه والمقاربة بالمودة ، والاغراء من ناحية الشفقة ؛ !

ثم ماذا ؟ ثم لا يبالي « القاضي » ان يفتري ويشهد « أربع شهادات بالله إنه لمَنَ الصادقين ، والخامسة أنّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين »! وهو دَركٌ سحيق لا يتقحّمه الّا الضالّون ومَن المتقحّم هُنَا ؟ انه قاضي صنعاء هشام بن يوسف الابناوي العالم المحدّث الذي يقصده للأخذ عنه من العراق والشام والحجاز ، أمثال « الشافعي ، وابن حنبل ، وابن راهوَيْه ، ويحيى بن معين » أليست الصورة فذّة مرعبة ؟

ولا غرابة حينئذٍ أن يسلقه الكاتب بلسانه ، أو يعرض عنه الحاجب بجانبه ؛ بل وان ينظر إليه الوالي « نظرَ المغشيّ عَليْهِ من الموتِ » .

ولا غرابة أيضاً ؛ إذ أُردَّتْ وجوهُ النفع ، وسُدّت أبواب الطّمع وأصبحت آمالـه هشيما تذروه الـرياح ، وأحـلام الصلة التي كان قد أشرف عليهـا « صعيداً زلقا » وبات وباتت كلّ توسلاته وأمانيه « مآؤها غوراً » لا يستطيع لها طلباً ؛ !

ولا جرم ؛ فإنّه لن يجد بعد كلّ ذلك من مفزع ولا وزر ، الاّ أن يسأل العلي القدير الربّ الرحيم ، أن يكفيه شر هذا « القاضي » ، وأن يطلب منه تعالى وهو الذي جعل « لكلّ نبيّ عدواً من المجرمين أن يدفع عنه كيده الذي لا يستطيع له دفعاً ، ولا يطيق بجهده له منعا ؛ اذ ان هذا الشيطان الرجيم الذي عرض لآدم وحواء وقاسمهما أنّه لهما لمنَ النّاصحين ؛ لا يزال متربصـاً به يقعدُ له كلّ مقعد ، ويراه هو وقبيلُه من حيث لا يراهم »!

انّها رسالة فذّة حشدت رغم قصرها من الصّور البيانية والفنية ، ما يفعم فصلا ممتعاً لمسرحية مثيرة عن ذلك الكاتب المبين .

ونحن نعلم أن هشام بن يوسف الأبناوي كان من كبار الفقهاء والمحدثين في القـرن الثاني الهجري ، وانه كان كاتباً بارعاً وخطيباً مصقعاً ، وانه قد زامل الامام عبد الرزاق الصنعاني في حلقة الدرس والأخذ عن الشيخ المحدّث الكبير معمر بن راشد ، وأن المحدّثين قد رووا عن عبد الرزّاق انه قال عنه : « إذا حدثكم القـاضي فلا عليكم ان لا تكتبـوا عن غيره » وقـال المحقّق الذهبي في ترجمته له : « قاضي صنعاء وعالمها ومفتيها الحجّة المتقن » ، ومع هذه الشهادات التي كان الغرض منها في عرف أصحاب الحديث اثبات أن « هشـاما » ثَقة اذا روى الحديث أو رُوِي عنه ، وهم عادةً لا يبالون بغير صدق المحدّث وصحة الاسناد ، وبالمعايير التي اصطلحوا على اعتبارها ، ولا يهتمون بعد ذلك بالنقائص والتهم التي تُنسب أو تلصق بمن قد وثقوه مادامت لا تخلّ بمصـطلحـات معاييرهم ؛ إذ أنّ هشاماً قد روي عنه ، والصقت به نقـائص لا تليق بالعلماء الأتقياء ؛ وقيل ان استـاذه معمـر بن راشد قال عنه وهو يتنبأ عن مستقبل بعض تلاميذه : « وأما هشام فخليق ان يغلب عليه السلطان » ؛ بينما قال عن زميله عبد الرزّاق : « ان عاش فخليق ان تضرب إليه أكبـاد الأبـل » ، وسـواء صحّت هذه الرواية عن « معْمَر » أو لم تصح ؛ فان واقع حال العالمين كان كما تنبّأ لهما شيخهما وهما

تلميذان في حلقة درسه ؛ وما أصدق فراسة الاستاذ الألمعي مثل « ابن راشد » في مآل تلاميذه النجباء أمثال « عبد الرزّاق بن همام » و « هشام بن يوسف » ؛ فأما عبد الرزاق فقد قال المؤرخون : « ما رحل الناس إلى أحد بعد رسول الله ﷺ مثلما رحلوا إلى عبد الرزّاق الصنعاني » وتوفى عام : ٢١١هـ ، وقال عنه الذهبي : « شيخ الاسلام ، ومحدّث الوقت ومن احتجّ به كلّ أرباب الصحاح » . وعندما قيل لامام النقّاد المحدثين يحيى بن معين : « ان عبد الرزّاق شيعي ، ويكره معاويه » قال : « لو ارتدّ عبد الرزّاق ما تركنا حديثه »! واما هشام الأبناوي الذي تولّى القضاء بصنعاء لفترة طويلة ، واختلط بالولاة وانغمس في السياسة فالى جانب ما تنبأ استاذه عنه ؛ قد عرف بالطائفية ، والتكتل العرقي والقبلي ، والتعصب لآبناء جنسه من « الفرس » ، ومقارفة ما لا يليق في سبيل عنصريّته ، أشار إلى ذلك الهمداني في كتابَيْهِ الاكليل وصفة الجزيرة ، مستشهدا بعدة أمثلة وقضايا ؛ وقد قال بعض تلاميذه عنه حسب رواية الذهبي : « ان السّلطان غيّره وان لم يغيّر حديثه » ؛ وما ورد عنه في رسالة البلوي يطغى على كل ذلك ، ويبرزه داهية يُسْتَعاذ بالله من شره وكيده ، ولم يعش طويلا بعد البلوي اذ قد تُوفي سنة ١٩٧هـ على أرجح الأقوال .

مع الوالي ابراهيم الحجَبي ويحيى البرمكي

وقد أورد الهمداني أيضاً رسالتين قال ان بشر كتبهما إلى ابراهيم الحجبي غير الرسالة السابقة ؛ وفي احداهما عتب مرير ، وتذكير بتأييده له ، وفي الأخرى لومٌ وسخرية واستهزاء ؛ كما أورد له رسالة طويلة بعث بها إلى الوزير يحيى بن خالد البرمكي ، وفيها من الثناء على الوالي الحجبي ما يرفعه إلى قمة المثل الصالح للوالي العادل القوي الأمين الحسن السيرة ؛ ولم يذكر الهمداني تواريخ هذه الرسائل ولكنا نعلم ان « الحجبي » وصل إلى صنعاء عام ١٨٢هـ وبشر قد جاوز السبعين ومن هذه الرسائل نعرف ان الوالي كان بادىء ذي بدء حفياً بالبلوي مقرباً له ، مراعياً لادبه ومكانته ، تم تدريجيّاً تغيّر عليه وأبعده ، وربما كان ذلك نتيجة لسلاطة لسانه ، وكثرة انتقاداته ، وتطاوله لمراسلة « مراكز القوى » في عاصمة الخلافة « بغداد » إلى جانب كيد ومكر ووشايات « القاضي الأبناوي » وغيره من منافسي البلوي وحساده مما

أدى إلى فساد العلاقة بينهما ، وأن يصبح الوالي الذي كال له المدح بالأمس سيء السيرة لا يرجى خيرة ؛ ولعلّنا اذا قرأنا رسائله المشار إليها مرتبة زمنياً سنعرف من لهجتها ، وما تنمّ به وتوحيه دلالات تعابيرها ، وروح الرضى والسخط النابضة في كلماتها والكامنة بين سطورها تطوّر العلاقة ما بينهما طيلة بقاء « الحجبي » والياً على اليمن ، وهي حقبة قصيرة لا تزيد على عام وثلاثين يوماً .

« ولنبدأ برسالته إلى « البرمكي » أثر وصول «الحجبي » إلى صنعاء ؛ وكأن الوزير كان قد كتب إليه يسأله عن « الوالي الجديد » وأحوال المسلمين في اقليم اليمن .

يقول الهمداني : « وكتب إلى يحيى بن خالد بن برمك يستمتع بالحَجَبي » : « أما بعدُ : حفظ الله أبا عليّ ، وحفظ لك ما استحفظك من دينك وأمانتك ، وخواتيم عملك ؛ أمّا ما تحبّ أن ينتهي علمه إليك من قدوم الحجبي علينا ، وما عمل به فينا ، وعلى ما أصبح المسلمون معه قِبَلنا ، فكل ذلك بحمد الله تعالى ونعمه على أفضل سرورك ، وأعظم رجائك ، ومنتهى أملك ، من سكون الدهماء ، وأمان السبل ، وحسن الحال ، وتتابع الأمطار ، وقد أصبح الناس بحمد الله « رحماء بينهم » لا يُسمع الاّ « سلاماً سلاما » ؛ وذلك أن الحجبي لما قدم علينا ، فزع إلى خيار الناس وأهل الصلاح منهم فقرّبهم وأدناهم ، وغلظ على أهل الفجور والرِّيبة وأبعدهم وأقصاهم ، وبعث لحملة القرآن فلمّا اجتمعوا إليه من أطراف البلاد ، تخيّر الفقهاء وذوى الرأي منهم ، فجعلهم بطانته ، وأهل مشاورته ، وبعث أكثرهم عمالا على كثير من نواحي عمله ، وعهد إليهم ما عهد إليه أمير المؤمنين ، في أخذ الصدقات والزكاة على وجوهها ، وقسْمَ السُّهمان الخمسة موفرّة بين أهلها ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين لم يأمره ولا من قَبلَه من ولاة اليمن وغيرها الاّ بالعدل والاحسان ، وأن أمير المؤمنين يبرأ إلى الله من ظلم كل ظالم ، وجور كلّ جائر ، وأنّه قد خلع ما يتثقّل به من رقبته ، وجعله في دِين « الحجبيّ وأمانته ، فلم يبقَ عند ذلك فرقة من فرق المسلمين ، ولا جماعة من الصالحين ، ولا أحد من الفقراء والمساكين ، الا دعا لأمير المؤمنين بطول البقاء ، ثم دعوا لك يا أبا علي بأفضل الدعاء ،

ونشروا عنك أحسن الثناء ، لما ساقه الله إليهم بسببك ، وجعله بيُمن مؤازرتك ، وأجراه على لسانك ويدك ، ولما أخذ الحجبي فيهم من ورائك ؛ فانّا قد عرفناه بالرفق الذي ليس معه ضعف ، وبالشدّة التي ليس معها عنف ، وبالجدّ الذي لا يخالطه هزل ، ثم هو مع ذلك قليل الغفلة ، شديد التّهمة ، لا يتّكل على كتّابه ، ولا يفوّض أمره إلى أمنائه ، ولا يطمئنّ إلى جلسائه ، حتى يتفقّد الأشياء بنفسه ، فيورد ما حضر منها على عينه ، ويُصدر ما غاب عنه منها على علمه ، لا يمنعه من مطالبة الصّغير مزاولة الكبير ، قد أحكم السياسة ، ورسخ في التدبير ، فأشد الناس خوفاً لغضبه أرجاهم جميعاً لمثوبته ، وأقلهم أماناً لعقوبته أطولهم لزوماً لمجالسته ، قد شغل كلّاً بنفسه ، فأقبل كلّ على شأنه ، فليس أحد يجاوز حدّه ، ولا يعدو قدره ، ولا يتكلم إلّا فيما يعنيه ، ولسنا نراه بحمد الله يزداد في كلّ يوم الّا شدّه ، ولا تزداد الأمور معه إلا إحكاما ، فليس لمعتاب إليه سبيل ، ولا لمنتقص معه مطمع ، والسلام » [ص : ٩٢ - ٩٣] .

مواصفات « الحاكم المسلم »

وهذه الرسالة التي « استمتعتْ » بالحجَبي - حسب التبعير الهمداني - تتميّز بأنّها غير مرصّعة بالاختلاسات القرآنية ، وان كانت معنى وفكراً ؛ تنطق عن ثقافة اسلامية ، وعقليّة مؤمنة ، رضعت من افاويق القرآن ، ونشأت في ظلاله .

وقد أعرب بها عن أرائه السياسية والادارية ، والصفات التي يجب ان تتوفّر في « الحاكم المسلم » ، وعن ما يمكن أن يرتضيه المسلمون أفراداً في جماعات ، وأمةً في دولة ، ويطمحون إليه ، ويريدون تحقيقه لمجتمعاتهم وبلدانهم ، من سعادة وعدل وأمن واستقرار .

وهي تشير ضمنيّاً الى أن « اليمن » كانت في حالة اضطراب وفوضى قبل « الحجبي » ، وبعد أن تعيّن عليها والياً ؛ فقد أصبحت في حالة تسرّ عاصمة « الخلافة الاسلامية » ، وتحقق المفروض من عظيم رجائها ، وغاية أملها :

من سكون الدهماء وكانوا في حالة ثورة .
وأمان السبل وكأنها كانت مقطوعة مخيفة .
وتحسن الحال ولا شك انها كانت قد ساءت .

وأصبح المواطنون الذين كانوا أشدّاء على أنفسهم ؛ يتفانون صراعاً ، ومنابذة واقتتالا رحماء بينهم يتنادون سلاما سلاما .

وحتى السماء سحّتُ بعد أن شحّت ، واخضرّتْ بعدما ان ازورّت ، لأن بنيها قد استقاموا على الطريقة فأسقاهم رَبهم ماءاً غدقا ، وارسلها عليهم غيثاً مدرارا .

ولماذا ؟

لأن « الوالي » قد عدل ، وغيرّ وبدّل .
فقرب خيار الناس وأدناهم ، وكانوا مبعدين .
ونفى الأشرار وأقصاهم ، وكانوا الأدنين المقرّبين .
وغلظ على أهل الريبة والفجور .
وكان بأهل الصلاح رؤوفاً رحيماً .

وليس ذلك فحسب واكرم به عملاً ، وأنعم به نهجا ؛
بل وبحث عن حملة القرآن الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بجور الولاة وغفولهم ، وظلم العمال وسوء معاملتهم ، ففروا بقرآنهم ودينهم وتشتتوا في أطراف البلاد ، فبعث لهم الوفود ، واجتمع بهم ، وانتقى منهم النجباء ، وتخيّر الفقهاء وذوي الرأي ، وجعلهم بطانته ، وأهل مشاورته ، وعين منهم عمالاً على نواحي عمله ، ووكل إليهم تصريف الأموال كما أمر الله أن تصرف ؛ وان يقيموا بين الناس شريعة العدل والاحسان .

ولا شك ان « بشْراً » كان يعلم ان « الوالي الحجبي » ، يعرف ان الوزير « البرمكي » قد كتَب إليه يستفسره عمّا آلت إليه اليمن بعد قدوم الحجبي ، وما عمل به ، وكيف أصبح حال المسلمين معه ، كما كان ينوي عرض الرسالة عليه قبل ارسالها إلى « بغداد » ولذلك فقد اجتهد أن يسجّل فيها ما يراه ويعتقده من مبادىء أساسية للادارة والسياسة، وان يرسم له منهجاً اذا اتبعه قضى على الفساد والخوف والفوضى ، وضمن للبلاد الأمن والرخاء والاستقرار . وكأنه انما يوجهه ويهديه إلى أقوم نهج ، وليس ذلك فحسب ؛ بل لعلّه قد أراد أن يشرح أسباب الفوضى والاضطرابات وسوء الحال التي

تضرب أطنابها على اليمن وأن ينبّه مركز الخلافة الى الدّاء ويدلها على الدواء ولكن ؛ بالحكمة والموعظة والاشارة اللطيفة فقال : « إن أمير المؤمنين لم يأمر « الحجبي » ولا من قبله من ولاة اليمن وغيرها الاّ بالعدل والاحسان ، وأنه يبرأ إلى الله من ظلم وجور كل ظالمٍ وجائر » إلى آخر ما قال . وانه قد قال ذلك لا ليدخل على قلب الخليفة ونفس الوزير البرمكي السرور فحسب ؛ بل وليوجّههم إلى ما ينبغي أن يكون عليه الوالي والوزير والخليفة ان أرادوا ان تطمئن وترضى عنهم وتدعو لهمُ ولدولتهم بطول البقاء فرق المسلمين وجموع المواطنين وغالبية الأمة من الضعفاء والفلاحين والفقراء والمساكين .

ثم ها هو يضع بدقّة ووضوح مقاييس الحاكم الصالح سواء كان والياً لاقليم ، أو وزيراً في بلاط ، أو خليفة على عرش ، فيفترض فيه أن يكون فوق ما سبق الكلام عنه :

رفيقاً من دون ضعف ،
شديداً بلا عنف ،
لا يخلط الجدّ بالهزل ،
قليل الغفلة ، شديد الهّمة ،
لا يتكل على كتابه دون مراقبة ،
ولا يفوض أمره إلى أمنائه بلا متابعة ،
ينفذ الأشياء بنفسه ، ويورد ما حضر على عينه ، ويصدر ما غاب عن علمه ، والصغير الصغير مثل الكبيرِ الكبير ،
مثقال الذرة ، كوقر الجمل ؛ خيراً وشراً ،
وقنطار الذهب مثل عقال البعير عطاءاً أو منعاً ،
يخاف غضبه من يرجو مثوبته ،
ولا يأمن عقوبته رفيقُه وجليسُه .

وبذلك ؛ لا يستطيع أحد ان يجاوز حدّه أو يعدو قدره ، ويُقبل كلّ على شأنه ، ولا يخوض الاّ فيما يعنيه ، ومن ينهج هذا النهج يكون قد احكم السياسة ، ورسخ في التدبير ، وحصّن نفسه وسيرته فلا يجد من يحاول انتقاصه مطمعاً لغمز أو لمز ، ولا من يهوى التنديد به سبيلاً إلى عيب .

انّ مثل هذه الرسالة لا يكتبها مثل العالم الربّاني ، والكاتب القرآني ، بشر

البلوي لغـرض « الاستمتـاع » والاطـراء ، والايناس وحسن الثناء ، والتشجيع على عمل الخير والاغـراء به ، بل وقد أراد بها أيضاً أن يحدّد الشروط التي يجب أن تتوفر في الحاكم المسلم ، وأن يرشح الصفات والخصال بدقة و حصافة ليراعيها المسؤلون من أهل الحل والعقد في دولة العدل والاحسان ، في كل من يتولّى أمراً من أمور المسلمين ، وفي كل زمان ومكان .

ما عدا مّما بدا ؟

كيف استحال المثل الصالح للحاكم المسلم العادل ، إلى والٍ جائر يركن إلى الأشرار والمنافقين ، ويصعّر خده للأخيار والصادقين ، وينفر من الناصحين ، ويصغى للمداهنين ، ويُقصي المخلصين ، ويقرب المفسدين ؟ وهل حدث ذلك فعلا ؟

أم أن « البلوي » كان في هذه المرحلة قد انغمس في حب المال والسّلطة والجاه ، واشتط في تعلقه وتقرّبه من الوالي وأفرط ، ودفعته دالة اخلاصه له ، ووقوفه بجانبه ، وتحبير الثناء الحسن عليه إلى أكبر وزراء ومستشاري الخليفة في بغداد ، إلى الاكثار من إلقاء النصائح على مسامع الوالي « الحجبي » ، والتحكم في ما يأتي أو يدع من شئون الامارة ، والتصرّف وكأنه المشرف المراقب ، والوصيّ المهيمن ـ وبتوجيه من الوزير البرمكي ـ ! وذلك بالطبع مما يغيظ الولاة ويؤذيهم ، ولا يستطيعون عليه صبرا ؛ فَسَئِم « الحجبي » من كثرة مخالطة « البلوي » وتدخّلاته وفضوله ، وملّ نصائحه وتوجيهاته ؛ وغنم « الجوالزة » والمتربصون والمنافسون الفرصة ، فزخرفوا القول ضدّه كما فعل القاضى هشام الابناوي فاذا الحال بين الصديقين فاسدا ؛ وإذا بالوليّ الحميم هو الخصم اللئيم . !

وإن المؤرخ الناقد المنصف لا يسعه إلا أن يعجب من سرعة هذا التحوّل العاصف المريب ؛ وكيف يحدث في حقبةٍ قصيرة لا تزيد على عام ! وقد تذهب به الظنون مذاهب شتى ، وقد يسوء بعضها بالشيخ « البلوي » فيتساءل : ولماذا جعل هذا الشيخ من نفسه وموقفه الشخصي من الوالي ، قُرباً أو بعداً . المقياس والمعيار لصلاح الوالي ـ أي والي ـ أو فساده ؟ كيف يكون اذا قرّبه ، وأدناه ، وأثابه ، وأعطاه ، هو البر العادل ، وإذا أقصاه ،

وحرمه ، وأعرض عنه ، هو الظالم الفاجر ؟ أليس هذا هو الجور نفسه ؟ وهل يمكن أن نفترض ان البلوي نفسه ، وبعد أن جاوز السبعين هو الذي استحال وتغيّر ؟ وانّه لعوامل شتّى ، وظروف كئيبة ، قد أصبح من أولئك القوم ، الذين يعشقون السلطة ، ويحبون المال حباً جما ؛ و « يُلْمِزون » الوالي « بالصّدقات » . . فان أُعْطُوا مِنها رضُوا ، وإن لم يُعطَوا منها إذا هُم يسخطون » ؟؟

لست أدري ؛ والبلوي أجلّ وأكرم من ذلك ؛ لكن الدقة والانصاف يحتمان عليّ أن أطرح مثل هذا التساؤل .

ومهما كان الأمر ؛ فان الهمداني قد أورد له رسالة تصوّر ما آلت إليه الحال مع « الوالي الحجبي » ، وهي تشوّه صورة الكاتب القرآني في « بشر البلوي » وتبرزه لَحوحاً في طلب المال هلوعاً أكثر مما تهدم تمثال الحاكم العادل الذي صاغه في صورة « الحجبي » ؛ قال الهمداني :

ومنه إلى الحَجَبي :

« أما بعد ، فان الله ـ وله الحمد ـ قد كان عرّضني وجوهاً كثيرة ، وخيّرني في مكاسب حلال ، وكنت ـ بتوفيق الله واحسانه ـ قد اخترتُ منها ناحية الأمير ـ حفظه الله تعالى ـ ورضيت به من كل مطلب ، واقتصرت على رجائه من كل مكسب ، فأثابه الله عزّ وجلّ فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة عجّلها ، وكان الله عزيزاً حكيماً ، وقد عرف الأمير ـ حفظه الله تعالى ـ طول مَودّتي له ، وقديم حرمتي ، وأني ممّن « أنفقَ من قَبل الفَتح وقاتل ، ثم انيّ لم أتعرّب ـ بحمد الله ـ بعد الهجرة ، ولم أنافقْ بعد النّصرة ، ولم أكن « كحاطب » حين ألقي بالمودّة ، ولا « كتَميم » يوم نادوا « من وراء الحُجُرات » ، بل أقمت على مكانتي ، واصطبرتُ على عسرتي ، حتى جاء الفتح من عند الله ، وطلع الأمير ـ حفظه الله ـ فلمّا ظهر وتمكّن ، ورجونا الغنى معه حين أُيسر وأثخن ، والعزّ « تماماً على الذي أحسن » ، قرّب الأحزاب ، وأدنى « المخلّفين من الأعراب » ، وآثر بالفيء من لم يوجف عليه « بخيل ولاركاب » ، وأصبحت أياديه عند « المؤلَّفة قلوبهم » ، ومن كان يلمزه « في الصدقات » منهم وصنائعُهُ عند « المعذّرين » « من الأعراب » ، والذين جاؤا من بعدهم ، ظاهرة « في الآفاق وفي أنفسهم » ، وأصبح نقباء « العَقَبة » وفقراء « الهجرة » ، ومساكين « الصُّفَة » ، تفيض

أعينهم « من الدمع حزناً ألّا يجدوا ما ينفقُون » ، والسابقون الأولون منا ومن أهل النصرة « مُرجونَ لأمر الله » ، فان رأي الأمير ـ حفظه الله تعالى ـ ان يعطف علينا من قبل أن « يزيغَ قلوبُ فريق » منّا فعَلٍ ، « فانّ الانسان خُلق هلُوعاً إذا مسّهُ الشرّ جزوعاً ، وإذا مسّهُ الخيرُ منوعاً » ، ولست أدري ماذا اعتذر به اليوم إلى الناس في أمري عن الأمير ، وهم يعلمون أني قد رأيت فيه ثُلُثَي أملي ، ولم أبلغ في نفسي رُبْع رجائي ؟ أم ماذا ينتظر الأمير ـ حفظه الله ـ فيّ ، بعد أن « آتاهُ اللّه الملك » وعلّمه الحكمة ، ومكّنه من « خزائن الأرض » ، وجعله في الدنيا وجيهاً ، وفي الاسلام مكينا ، وعند الخليفة ـ أبقاه الله تعالى ـ مطاعاً أميناً ؟ فمن يقرّ الأمير بعد هذه النعمة ؟ أو من يُعذره مع هذه الكرامة ؟ ومن يرضى منه بأقلّ من جبرانه « الاّ من سَفِهَ نفسه » والسلام . [ص : ٩١ ـ ٩٢] .

ولم يظهر البلوي فيما وصل إلينا من رسائله ضعيفاً متخاذلاً سخيفا متهالكا كما ظهر في هذه الرسالة ؛ وبالرغم من كثرة اقتباساتها واختلاساتها القرآنية ، ووفرة الصور التاريخية والدينية المذكّرة بفتح مكة ، والمهاجرين والأنصار ، وقصة « حاطب بن أبي بلتعه » ، وموقف « بني تميم » من النبي ﷺ ، واشاراته إلى غزوة « الأحزاب » ، وإلى المخلّفين من الاعراب ، و « المؤلفة قلوبهم » و « المعذّرين » و « اللامزين » و « نقباء العقبة » وأصحاب « الصفة » من المؤمنين ؛ فقد فشل فشلاً ذريعاً فيما نظن انه قصده وهدف إليه ؛ من اتهام « الحجبي » بالنكوص والردّة والانتكاس من حالة الاستقامة والصلاح ، إلى درك الفساد والطّلاح ، ومن شريعة الخير والعدل والاحسان ، إلى طريق الشر والجور والعدوان ، وبدلاً من ذلك أبرز الوالي وكأنه يمثل النبيّ ﷺ في كل تلك المواقف وأوقع نفسه ـ وهو يحاول أن يبرّأها ويسمو بها ـ في موقف « حاطب بن أبي بلتعه من كفار قريش ، والمنادين من « وراء الحجرات » و « أكثرهم لا يعقلون » ، و « المعذرين » و « المتخلّفين » و « اللامزين » « في الصدقات » ؛ وليس ذلك فحسب ؛ بل وأنزل « الحجبي » منازل « الأنبياء » ، ممن « آتاه الله » الملك والحكمة وعلمه « من تأويل الأحاديث كداود وسليمان ، أو مكنه « من خزائن الأرض » كيوسف ، أو جعله « وجيها » في الدنيا كالمسيح عليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام ؛ ولم يبق لنفسه الاّ منزلة المتسوّل الشحّات الذي

يطلب العطف والصدقة قبل ان « يزيغ قلبه » ؛ بل انه قد اخطأ حين زعم في مطلع الرسالة أن الله ـ تعالى علـوّاً كبيراً ـ قد عرض عليه وجوها كثيرة وخيره في مكاسب حلال جمّة ؛ ثم وفّقه وأحسن إليه ـ عز وجل ـ إلى ان يختار ناحية « الأمير الحجبي » والرضى به من كل مطلب والاقتصار عليه من كل مكسب ، وافـرط في تملقـه وسخفه فزعم أن موقفه هذا كان سبب الفتح القريب ، والمغانم الكثيرة التي عجل الله بها للأمير! .

رسالة « خلع العذار »

على أن ثمـة رسـالـة قصيرة من رسائل الصراع واللوم والعتاب ما بين البلوي والوالي « الحجبي » ، وهي تؤكد ان من أسباب الشقاق وفساد ذات البين ، وما استحال إليه أمر ودّهما ، تطاولُ « البلوي » إلى مراسلة أصحاب الحـل والعقـد في بلاط الخليفة هارون الرشيد ، ومحاولته الاتصال المباشر بمراكز القوى في « بغداد » من وراء ظهر « الحجبي » يقول الهمداني :

« وله إلى الحجبي ـ وكان نهاه عن التعرّض للوزراء وأهل العراق » :

أما بعد : فانك كتبت إليّ تنهاني عن السلطان وعن قربه ، ولست أعتذر إليك في ذلك ، ان دعاني السلطان سارعت ، وإن أبطأ عني تعرضت ، فان كان الله تبارك وتعالى أحلّ لك خدمة أمير المؤمنين ، ومنادمة « الفضل » ، ومسامرة « جعفر » ، وأباح لك أن تأخذ من أموالهم « القناطير المقنطرة من الذهب والفضة » ، وحرّم عليّ مكاتبة الشّرط ، ومراسلة البُرد ، والتخدّم للخصيان ، والتعـرض للدّايات ، وحَـظَر علـيّ من أمـوالهم ما أسـدّ به الفورة ، وأواري به العورة ، فأنا الهالك وأنت النّاجي ، وإن لم يكن الأمر على ذلك ، وكان « لكلّ امرىء » منا « ما اكتسب من الاثم » فأنت « الذي تولّى كِبَرهُ منهم » « وضرب لنا مثلاً ونسيَ خلْقه » ، والسلام » [ص : ٩٣ ـ ٩٤] .

ونحن في هذه الرسالة التي كتبها بشر بعد عام ١٨٢هـ وقد جاوز السبعين لا نزال نصغي إلى الكـاتب البليغ البـارع الفصيح اللمّاح المبـدع تصويراً وتعبيراً الذي عرفناه وهو يكتب رسالته ولما يتجاوز الثلاثين حوالي عام ١٤٢هـ إلى صديقه بشار بن رضابة .

أمّـا روحـاً وسلوكاً ومبدءاً ، وأسلوب حياة ، فشتان بين من كان يرى

التحدّث عن الولاة وعمالهم ، بله موازرتهم ومخالطتهم ومراسلتهم ، وزراً وإثماً وشناراً لا يليق بالعلماء ومن يحدّث عن الله وملائكته ورسله .

وها هو لا يبالي أن يعترف بتقربه من السلطان ان دعاه ؛ بل وتعرضه لرضاه ان أبطأ عنه أو أقصاه ، ولا يرى في ذلك بأساً ولا منقصة ولا يخشى مغبة اثم ، ولا يتقى زللاً على نفسه ، أو خللاً في دينه ، بل يباهي به ، ولا يعتذر إلى من ينهاه عنه ؛ أيكون بشر البلوي الذي ينقم على بشار بن رضابة سنة ١٤٢هـ تحدّثه عن معن بن زائدة وأبى مسلم الخراساني وهُما هُما زعامة وقيادة وشرفاً وكرما . . هو نفسه الذي يتعرّض للدايات ، ويتخدّم للخصيان ويكاتب الشرط ويستجديهم من أجل « سدّ الفورة » و« موارة العَورة » ثم لا يبالي أن يكون « الهالك » ،وأن ينزّل نفسه منزلة « العصبة » « الذين جاؤوا بالأفك » مطمئنا بنصيبه « من الاثم » راضيا مادام « الحجبي » قد نال « بخدمة أمير المؤمنين » هارون الرشيد ، ومنادمة « الفضل » ومسامرة « جعفر » ابني يحيى بن خالد البرمكي « القناطير المقنطرة من الذهب والفضة » ، و« تولّى كبره » و« له عذاب عظيم » .

انها « قسمة ضيزى » ! وأين أين الشاب الورع الكاتب القرآني من هذا الشيخ الفاني المتهالك على المال والسلطان ؟
وان كان لا يزال هُوَ هُو بلاغةً وفنّاً وبراعة .

لقد تغيّر وتحوّل في مرحلته الثالثة إلى إنسان آخر ومن أجل المال وتشبثه بالسلطة « خلع العذار » ، وكاتب « الشرط » وتعرّض للدايات وتخدّم للخصيان !

ومن آخر ما كتبه إلى الوزير البرمكي في تلك الحقبة رسالة قصيرة تؤكّد أنه ظل يواصل مكاتبته إلى وزراء الرشيد ولا سيما صديقه يحيى ابن خالد ولا شك ان ذلك قبل نكبة « البرامكة » عام ١٨٧هـ ولعله بعد ذلك قد استخذى لشيخوخته ، وهطع لمرحلته الرابعة منيبا إلى القرآن ، بعيداً عن الامارة والسلطان راضياً بالقليل لا يتطلّع إلى جاه ولا مال وهذا نصّ الرسالة :
أما بعد ، فاني كتبت إليك كتبا لم أر لشيء منها جوابا ، ولستُ ـ امتع الله بك ـ أتكبّر عن مواترة الكتب إليك ، ولا استنكف على تركك الكتاب

إليّ : لان مثلك لا يكتب إلى ضعيف مثلي الّا بعون الله وتأييده ، ولا يُلَقّى الحكمة كتابه الا بتوفيق الله عز وجل واحسانه ، ولعلك - امتع الله بك - لم يوافق نزول ذلك من ربك ، فانه تبارك وتعالى يقّدر ما يشاء ، انه بعباده « خبير بصير » والسلام [ص : ٩٤] .

ولعل نكبة « البرامكة » فاجأته بأخبارها بعد أن بعث بهذا العتاب الأخوي ؛ ولعلّه كان بعيداً عن مسرح الأحداث ولا يدري ولا يتصوّر ما تخبئه الأقدار ، ويحوكه المتربصّون في بغداد ليحيى بن خالد وأولاده وآله ؛ ولعله قد ارتاع واعتبر ، وخلد إلى السكينة حتى وافته المنيّة في أواخر أيام الرشيد عام ١٩٢هـ أو قبل ذلك .

ثقيل دم

ومن روائعه قوله يهجو ثقيلاً :

« أما بعد ، فان من الناس من تحمّل حاجته أهون من فحش طلبه ،
ومنهم ؛ مَن حِمل عداوته أخف من ثقل صداقته ،
ومنهم ؛ من إفراط لائمته أحسن من قدر مدحته ،
وإن الله خلق « فلانا » ليغم الدنيا ، ويقذّر به أهلها ،
فهو على قذره فيها ، من حجج الله على أهلها ،
فأسأل الذي فتن الأرض بحياته ، وغم أهلها بطول بقائه .
أن يديل بطنها من ظهرها . والسلام » [صفة : ٨٩ - ٩٠] .

ولعل هذه الرسالة مما كتبه إلى الامام الشافعي ويقصد بها القاضى عبد الله بن مصعب الزبيري .

وأخيراً :

لو أردنا ان نستنتج من رسائل البلوي خصاله الخلقية ، ومزاجه الذي يتحكم في أعصابه ، وتنفعل به قواه العقلية ، ويؤثر في علاقاته بمجتمعه ، ويلوّن ظروفه سخطا ورضى ، لعرفنا - ولا سيما وقد أحسن الهمداني الاختيار وأورد المختلف المتنوّع من رسائله ؛ مما كتبه شابا وكهلاً وشيخا ، وفي حالة فقر وغنى ، وسعادة وشقاء ، ويأس ورجاء ، وزاهداً ورعا ، ومتهافتا يكاد أن ينقض طمعا - انه كان حديد المزاج ، شجاع الرأي ،

سريع البادرة ، إذا رضي أطنب في الثناء وشكر ، وإذ غضب لم يتورّع ولم يرحم ، وكان ذكياً المعيا ذا حافظة واعية ، وموهبة بيانية خصبة ، وخيال واسع ، وانه قد زوّد تلك المواهب الفطرية ، بالدرس والتحصيل وتنوع الثقافة والحفظ ، وبثروة لغوّية قاموسها زاخر محيط . وكان إلى ذلك ، ذلق اللسان ، مترسّلا ساخراً ، لماحاً ؛

يحسّ الخيال إذا ما سرى ويلمس ما في ضمير الخفاء

يسامق كبار كتاب الأدب العربي عبر العصور ، وإذا سخر لم يجر في ميدانه أحد ، ويجعل من خصمه أضحوكة .

وليس من موضوع هذا الحديث تحليل موهبته البيانية ، ودراسة فنّه البلاغي ، وأساليبه الكتابية وخصائصها البديعية ، وقد أوردنا من رسائلة ما يمكن ان نقول أنه أكبر كتاب الأدب العربي في القرن الثاني للهجرة وانه قد اخترع فناً في الكتابة عرف به ، وزعم الهمداني ان أحداً لم يسبقه إليه ولا لحقه فيه أحد بعده .

ولا بد من الاعتراف أخيرا ؛ أني قد أجهدت نفسي استقراءاً واستنفاراً واستعراضاً لكل ما خلد في حافظتي مما درسته أو سمعته عن « البلوي » وعلماء وفقهاء وامراء عصره ؛ وأن هذه الترجمة رغم طولها لم تستطع إبراز صورة ذلك الكاتب في الاطار اللائق ؟ ولن أكون مبالغاً اذا زعمت انه أكبر كتاب العرب في القرن الثاني الهجري .

الشعر والشعراء

لقد كانت هذه الفترة كما ذكرنا فترة فتن وحروب واجتاحتها الصراعات الدّامية منذ قدم اليمن بعهد المنصور عامله معن بن زائدة واشتبك في قتال عنيف مع اليمنيين ، وغوّر المياه ، وذهب الآلاف من الضّحايا ، ثم هبَّت ثورة القيل الهيصم بن عبد الرحمن سنة ١٧٤هـ وبعد أن قُضيَ عليها خرج العلوي ابراهيم بن موسى ابن جعفر المعروف بالجزّار وجرت بينه وبين بعض القبائل اليمنية من جهة ، ومن أخرى بينه وبين « ابن ماهان » والى اليمن من قبل المأمون معارك شديدة ولما ثارت قبائل تهامة سنة ٢٠٣هـ / ٨١٩ م جرّد المأمون عليهم حملة تحت قيادة محمد بن زياد الذي اختط « زبيد » وأسّس دولة استمرت زمناً . . وثار يُعفِر الحوالي سنة ٢١٨هـ / ٨٣٤ م على قوّاد العباسيين ، ودارت بينه وبينهم معارك هائلة وهو مؤسس دولة آل يُعفِر . . وأثناء تلك الفتن والحروب برزت كوكبة من الشعراء أمثال أبو السمط الفيروزي ، وبكر بن مرداس ، ويعلي ابن عمر بن زيد وابن السلماني ، ومحمد بن ابان الخنفري وأحمد بن يزيد القشيبي الكبير والصغير وعبد الخالق بن أبي الطلح الشهابي ، وعبد الله بن عبّاد الأكيلي ، وموطل الصنعاني ، وأحمد بن عيسى الرادعي ، وغيرهم .

وطابع الشعر ـ في هذه الفترة ـ هو طابعه في العراق ونجد والحجاز والشام ؛ قوةً ولغةً وأسلوبا ؛ إلاّ أن شعراء اليمن كانوا لا يزالون أكثر تأثراً بأساليب ومواضيع الشعر الجاهلي ، وتغلب على أشعارهم الحماسة ،

والمفاخرات بالقبيلة والعرق ومكارم الأخلاق ووصف معالم الطبيعة ، وتتميّز بكثرة التحدّث عن المآسي والفتن التي كانت تجتاح اليمن .

وسنتحدث عن بعض الفحول من مشاهيرهم ونورد أمثلة من أشعارهم .

١ ـ عمرو بن زيد الغالبي

ت : ١٤١هـ / ٧٥٩ م

سيّد بني غالب بن سعد بن سعد ، وشاعرها وفارسها في زمنه « عمرو ابن زيد الغالبي » الذي ولد ونشأ في « العهد الأمويّ » وأدرك أوائل « العهد العباسي » وناجز وصارع « معن بن زائدة الشيباني » عامل العباسيين حتى قتل سنة ١٤١هـ / ٧٥٩ م وشعره من الطراز الأول عمقاً وتصويراً ، وجودة وبيانا في شدة أسرٍ ، وصفاء ديباجه .

ويستطيع المؤرخ والناقد أن يستنتج من مواقف « عمرو ابن زيد الغالبي » وأشعاره أن القبائل اليمنيّة كانت لا تزال مسيّرة بقوانين ودوافع وتيّارات وتقاليد العصبيّة الجاهلية التي جاء الاسلام لمحاربتها ومحوها . . إذ أنّنا بينما كنا نستمع إليه يلوم ويوبّخ ابن عمه « عمرو بن يزيد السَّعدي » على إثارته للفتن والحروب بين قومه ويحذره مغبّة البغي ، ومصارع الظلم . . إذ به يتزعّم تلك الفتن بعد قتل ابن عمه المذكور إصغاءاً لدواعي الثار وعصبيّة الجاهلية .

فمن شعره الذي كان ينهى به ابن عمه **عمرو** بن يزيد عن البغي قوله :

يا عمــرو مهــلاً فإن البغى متلفةً	تردي الــرئيس وتُفْني كلْ ما جمعــا
لا تقــطعَنْ بالمُـدىَ منْـا اواصرنـا	مهـلاً هُديت فخـير النصح ما نفعا
لسنـا نحب نَرَى فينـا مُوَلْـولَـةً	تبـكـي وتهـتف إذ ما إلفهْـا نُزعـا
اني أرى الحر ب قد أبدت نواجذها	فينــا ، وأصبح منهـا ضؤهـا لمعـا

***

ويروي الهمداني أن « عمرو بن زيد » حين رأى « بن يزيد » غير ملتفت إلى نصح الناصحين قال له لقد أصابك يا**عمرو** قول جابر بن عَمْرو لابن

أخيه سالم ابن سالم البهراني :

وكنتَ كالعَيْر غدا يبتغي ... قرناً ؛ فلم يرجع بأذنينْ
مهلاً من البغى وأشياعه ... فالبغيُ داء بين دائينْ
من يركب البغى يرى شخصه ... عند التقاء الجمع شخصينْ
من يقصد البغى يُعدُ خائباً ... لاقط حَب بين فخينْ
أخاف إن جئتَ الذي قلتُه ... يأتِك منه الغدرُ بالحَينْ
فاترك طريق الغدر ، واجمع لما ... يصلح يوماً بين صِنويْن
لا تركب العوراء من قومنا ... فَتَجْن عاراً بين الشّينْ
أنظر « كُلَيباً » بعد دار العُلا ... أصبحَ رهناً بين طِمْرَيْن

***

ثم ما يكاد يبلغه مصرعه ، حتى تأخذه حمّية الثار ، وتتغيّر لهجَته وتتلاشى حكمته ، ويتزعّم حرب « الربيعة » ويقول :

سَلي تُخْبري يا هند هل عفتُ مشربي ... وهل عافه قومي بجَنْب الأخاشب ؟
عشيّةَ سرنا حاشدين وقد بدتْ ... من الشمس عينٌ ، أو توارتْ بحاجَب
صبحناهم بالموت في عقر دارهم ... وقد لاح ضوء الفجر من كلّ جانب
فدسنا « بني عوفٍ » بزَوْرٍ وكلكلٍ ... وملنا عليهم ميلةً بالمناكب

***

تشرده :

وقد جنى شاعرنا ثمرة عصبيّته وتهوّر انتقامه ، فبعد أن أنهكته وقومه الحرب ؛ ظعن في « بني غالب » إلى « الحجاز » وجاور عدّة قبل ، وأحسّ بمرارة الغربة فأنشأ عدّة قصائد ، فيها لوعة وحزن ، وضراعة وندم ، ومن ذلك قوله يخاطب « ابن خالته » جرير بن حجر ويسأله مساعدته على العودة ، ويصف ما يعانيه من سوء معاملةِ قوم جاورهم . . ويظهر أنهم لم يكرموا وفادته :

فأصبحتُ قد ودّعتُ قومي ومعشري ... وحالفتُ همّاً ما أزال أصاولُهْ
رهينة ذلٍ بين « برْجٍ » و « مكّةٍ » ... كذلك من قامتْ عليه قبائلُهْ
أقارع كيداً من « سليم » و « عامر » ... وحقدهمُ تغلي عليّ مراجلُهْ

عدوّ يغضّ الطرف عنّي تمقّتاً ... ويُخبر عمّا في الفؤاد تغافلُهْ !
فأدفعه عني برفقٍ وحيلةٍ ... وقد أخذت في القلب منّي دلائلُهْ
فمَنْ مبلغٌ « خولان » عنّي بأنني ... رهين العدى تجري عليّ عواملُهْ
يبيّت لي في كلّ يوم مكيدةً ، ... ويطحن جسمي حاركاه وكاهلُهْ
ويبلغ مني قوله ما يسوءني ، ... ويعلم أن قد ساءني فأجاملُهْ

***

ويقول في قصيدة أخرى :

يا خَوْلُ ، هل تجمعنّا الدار بعد نوى ؟ ... أم هل يعود زمانٌ واصل الرحم
أمسي « جرير » يحيل الحَيْلَ من عُسرٍ ... ما إن يراقب فينا حرمة الذممِ
أمستْ منازلنا بالجوف شاسعةً ... ونحن اخوتكم في نبعة الكرمِ
لا قرّب الله قرباكم فليس لكم ... عطف جميل ، ومحمود من الشيَم !
ونحن في حيّ « قيس » يرمون لنا ... سوء الحديث ، ونخشى زلّة القدمِ
ظعائن من ذُرَى « خولان » زيّنها ... طيبُ العفاف .. شربّن الذلّ بالرغَمِ
قطعتم حرمةً من حقهنّ فما ... ترعون قُربى ، ولا نصرا لمظلِمِ

***

وقد رق له « إبن خالته » وساعده على العودة .. ولكنّ ذلك لم يرض محمد بن ابان لما كان قد وقع بينهما وقومهما من حروب فقال يعاتب « جريراً » :

نراك « جرير » الخير تُدْني عدوّنا ... وأسيافنا زالت بهنّ مفاصلُهْ
وتخبأه من خلفنا يشحذ المدى ... ليوم عصيبٍ لا يزال يزاوله

***

ورغم ذلك فما إن قُتِلَ حتى أخذ بثاره محمد بن ابان هذا .

لقد عاصر شاعرنا عمروِ بن زيد بشار بن برد ، والسيّد الحميري ، وهو في نظري يسامقهم شاعريةً وبيانا . وانظر « قصة الأدب » : ٢٣٩ ـ ٢٤٥ والاكليل ج ١ ـ : ٢١٢ ـ ٢١٥ ـ ٢١٧ ـ ٣٥٩ ـ ٤٠٧ ـ ٤١١ .

٢ ـ محمد بن أبان الخنفري

ت ١٧٥هـ /٧٩٢ م

الشاعر الرئيس الفارس النجد محمد بن أبان من أحفاد القَيل حُجر ابن زرعة وهو صاحب « سجل حمير » الذي استمد منه الهمداني الكثير من معارفه ، وشعره وأخباره مبثوثة في كتب الهمداني وقد قال عنه : « لم يكن في عصره مثله فصاحةً وكرماً وهمة » ، وانه الذي حارب معن بن زائدة الشيباني وأخذ بثار الشاعر الفارس عمرو بن زيد الغالبي .

وتوفي سنة ١٧٥هـ /٧٩٢ م عن مائة وخمسة وعشرين عاماً فتكون ولادته في زمن معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٠هـ /٦٧١ م وقد ترجمه القفطي في كتابه « المحمّدون من الشعراء » ص ١٣٦ .

ومن جيّد شعره قوله :

وقد علمت عليا قضاعة انني ... جريّ لدى الكرّات لا أتورّعُ
أخوض برمحي غمر كل كتيبةٍ ... إذا الخيل من وقع القنا تتسكّعُ
فكم من كميّ قد تناولت نفسه ، ... وآخر يدعو بالهوان ويضرع
إذا سرت يوماً في رعيل كتيبةٍ ... أصارع أقراني مخافة أصرع ؛
ويغدو عليّ بالملام عواذلي ... فأعرض عمّا قد يقُلْن ، وأسمع
وأركب نفسي عزّةً وحميّةً ... وأقصد انجاد الكماة فأقمع
واعلم ان المجد في بذل مهجتي ... فأبذلها للطالبين وأسرع
وأعذل نفسي أن أضيّع منصبي ... وليس كريم الوالدين يضيّع

***

ويقول من قصيدة طويلة :

وإنّا لمن ريحانةً العرب أصلنا ... وطينتنا من تلك أزكى وأطيب
ونحن ورثنا ملك « هود » وعلمه ، ... وأورثناه بعد « قحطان » « يعربُ »
وجدّي الذي وافى الركايا جياده ، ... وحامى عن العزّ الذي أسّ « يشجب »
ونحن نصبنا يوم غيمان عارضاً ... فباد بن « ذي شمر » وقد كاد يغلب
ورحنا على أهل « القبال » بجمعنا ... فضجت لهم جمعاً « مراد » و « أرحب »

***

وأشعاره كثيرة ، ونفسه طويل ، وقد أثبتُ بعض مطولاته في « قصة الأدب في اليمن » ومن طويلاته الحائية التي يقول فيها :

خليليّ مرّا مصعدَين فسلما | على منزلٍ بين السدير وفاضح
ألّما به ثم أشفعا لي واعتبا | على طفلة غرّاء ليست بناكح
بها هام قلبي ، واستثارت صبابتي | وشابت بها قبل المشيب مسائحي
وقولا لها : ان الفراق مظنة | بصرم خليلٍ ، أو بمدخل كاشح
واني لمّا أنس منها كمثل ما | تناستْهُ مني بالنوى والتنازح
كأني بها من بين ستر وكلّةٍ | كبدر بدا من سانحِ نحو سانح
فأدنوا اليها والركاب مناخة | فأكرم بها من جاثم ومصافح

***

وانظر المزيد من أخباره وأشعاره في الجزء الأول من الاكليل ص : ٣٠٨ ـ الى ص : ٣١١ ـ وص : ٣٨٢ وفي الجزء الثاني ص : ١١٨ ـ ١١٩ وص : ١٢٤ ـ ١٢٥ إلى ١٢٩ ـ ١٣٥ وص : ١٤٩ ـ ١٦٩ ـ وقصة الأدب : ٢٤٣ ـ ٢٤٤ و : ٢٥٩ ـ ٢٦١ .

٣ ـ أحمد بن يزيد القُشَيبي « الكبير »

من شعراء « صعدة » وفرسانها في القرن الثاني الهجري أحمد بن يزيد بن عمرو العوسجي القُشَيْبي كان رفيقاً للزعيم الشاعر محمد بن ابان وتزوج باخته « فارهة » ودخل معه في حروب « سعد والربيعة » وبعد أن قام الصلح بين الحيّين خاف دوائر « سعد بن سعد » فظعن الى « نجد » في أهلِ بيته ومن خفّ معه من « عوسجة » ولم يطمئن به الحال ولا المقام ما بين « جَنب » و « نَهْد » و « الريّاض » و « الطائف » وقامت بينه وبين « عَنْز » معارك ذكرها الهمداني في الاكليل وقال أنّه هاجر بعد تلك المعارك إلى « جرَش » فتوطّنها .

وله في مغامراته ، وتنقلاته وملاحاته مع من كان ينزل بينهم ، وفي حنينه إلى وطنه القديم أشعار وأخبار تكوّن قصّة شعريةً رائعة ، وهي مفرّقة في كتب الهمداني وقد دوّنت بعضها في كتابي « قصة الأدب في اليمن » .

ومن شعره في الحرب التي حدثت بينه وبين « عنز » قصيدة طويلة يقول فيها :

لقـد لفلَفت « عنزٌ » علينا وأجلبت ودبّت إلينـا في كتـائبها تسري ،
وسـاقت علينا من « معـدٍّ » قبائلاً تبختر في الماذيّ ذي الحلَق الخُضرِ ،
فقالت « معدٌ » : ارحلوا من سيوفنا ، فخلّوا بلاد الأكـرمـين ذوي الفخر
فسارت إلينا من « زُبَيْد » عصابةٌ ، وقـامـوا لنـا بالجـدّ منهم وبـالنصرِ
فجـالتْ جيـاد الخيـل منّـا ومنهمُ ، بكـلّ فتى عَبْـل الـذراعين كالصقرِ

***

وهي طويلة بعث بها إلى « صهره » محمد بن ابان يبشره بالنصر ومنها :

فمن مبلغ عنيّ الشريف بن « زرعةٍ » وسـادة قومي ؛ من سراة بني عمـر
بأنـا رُمـيـنـا عن قسيّ عداوة ، فأيّـدنـا الـله المهيمنُ بالنصر . .
ومـا النصرّ إلاّ الصبر مفتاح بابه ؛ ومختـطمٌ من حدّث النفس بالفـرّ !

***

وقد أجابه محمد بن ابان بطويلة رائعة أثبتنا بعضها في « قصة الأدب في اليمن » ومطلعها :

أتهجر سعدى ، فالتجنيّ من الغدر وقـد كنت مفتـونـا ببهنـانةٍ بكر ؟!

وفي آخرها يقول بعد أن وصف شبابه وشيخوخته ، وما قد ذاقه من حلو الحياة ومرها ، وخيرها وشرها :

فان تكُ قومـي قد توافَـوا ؛ فإنّـني سأتبـع قومي ؛ والمنـايا بنا تجري ،
سألْقَى الذي لاقوا ، وأشرِب وردهم ، وقـد كنت قدمـاً قد أشدّ بهم أزري ،
سأبـكي عليهم ما حييتُ بعــبْرةٍ ، إلى أن أوارىَ ، أو أضمّن في قبري ؛
تتـابـع إخـواني وزال عمـودهم فمدّتُ كما مادَ النّزيف من الخمر ،
كذا الـدهـر لا يُبْقي على حدثـانـهِ أخـا عدم يومـاً ، ولاذا غنيً مثـري

***

ومن قصيدة شاعرنا « القُشَيبي » الكبير ، وردّ « ابن ابانْ » وما دار بينهما من مراسلات شعرية نفهم أنّ روابط المودّة والزمالة بين الشاعرين الفارسين لم تكن نتيجـة للصّهر والخئولة فقط . . بل ولما يحمله كلٌّ منهما للآخر من تقدير ومعزّة ؛ ومن شعر أحمد بن يزيد حين فارق محمد بن ابان قوله :

ألم ترني ودّعت أيمنَ صاحبٍ وأكرم خلق الله نفساً وعنصرا ،
نماه من « الزلفاء » عرق سماحةٍ فبرّج في أعلى العلى ، وتبخترا
أبوه « بن ميمون » وجدّاه « زرعة » و « حجر بن زرع » خير من وطىء الثرا
وأصبحتُ من طودٍ بروض « تنادح » نصاول من أجوادها من تنزّرا
نساقي بها « عنزاً » سماماً ؛ وربّما شربنا بأيديهم سماماً ممقّرا !

***

وقد أطلقْتُ عليه لقب « الكبير » تميزاً له عن الشاعر أحمد بن يزيد القشيبي الآتي ذكره ، ولم يذكر الهمداني سنة وفاته ، ويظهر أنّه لم يعد إلى اليمن بعد هجرته إلى « جرش » وانظر الاكليل : ج : ٢ ـ ص : ١٦٥ ـ ١٦٧ ـ ١٦٩ ـ ١٧٢ ـ وقصة الأدب ص : ٢٥٧ ـ ٢٥٩ ـ ٢٦١ ـ ٢٦٣ .

٤ ـ أحمد بن يزيد القُشيبي « الثاني »

ما إن يختفي الشعراء الفرسان الذين ذكرنا منهم عمرو بن زيد الغالبي وأحمد بن يزيد القشيبي الكبير ، ومحمد بن ابان حتى يظهر على مسرح الأحداث والشعر والفجائع اليمنية الشاعر الفحل ، والفارس النّجد أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن القشيبي الذي خلف بن ابان في الرياسة والشعر وكان أبرز شعراء اليمن في مطلع القرن الثالث وجاهةً وفروسيةً ، وقد قال الهمداني في « أكليله » انّه ومحمد بن ابان وعلقمة بن ذي جدن وآل المفرّغ أشعر شعراء بني « الهميسع » .

ولقد سمّيته « الثاني » تمييزاً له عن سميه السالف الذكر الذي لقبته بالكبير لا مرتبة بيانيّة ، ولا قدراً شعرياً بل تاريخياً .

وأحمد بن يزيد بن عبد الرحمن هذا قد مثّل في زمنه أيضاً دور الفارس اليمني المتعصّب الاّ انه كان قد انفعل بأحداث شمال الجزيرة ، والعراق والشام ، والخصومة الدينيّة والسياسية والفكرية بين البيتين القرشيّين « أمية » و « هاشم » ، فذهب كما قال الهمداني « مذهب الكميت والسيد الحميري في التشيّع » ، وامتزجت نعراته العرقية والقبلية بعقيدة حب أهل البيت ، وقاسى صراعاً نفسياً مريراً عندما فتك بقومه وأهله الداعية

« العلوي » ابراهيم بن موسى « الجزّار » وهو الذي ألب عليه أهل اليمن ، وقلب عليه البلد سنة ٢٠١ /٨١٧ م بعد مجزرة « ريدة » التي ذكرناها في كتابنا « قصة الأدب في اليمن » .

وقد ضاع الكثير من أشعار القشيبي هذا حفيد عبد الرحمن ، وابادته تعصبات ذوي النعرات العرقية ، والتشنجات المذهبية عبر العصور فحُجِب عنا شعر بديع ، وذهب الشاعر وشعره ضحية مواقفه المتضاربة حين لم يمنعه « تشيعه » من أن يؤلّب على قاتل قومه ، وهو علويّ الدعوة والنسب ؛ ولم يطق في نفس الوقت وفي تأليبه وثورته على ذلك الداعية النزق السيف ، أن يكتم هواه الشيعي فانفجر في أصوات شجية فحيحُ حقدها وغضبها ينصهر في تمتمات ودٍ جريح . !

ومما قاله في ذلك :

وللّه عينـا من رأى مثـل عُصبـةٍ ... أبـيروا عَلَىَ خُلقٍ ولـيس لهم ذنب
سوى انهم جاؤوا بسمـع وطـاعـةٍ ... على أنهم حيـث انتهت بهم صَحْب
فأركـبتهم حَدّ السيـوفَ تَبـذّخـاً ... فأفنتهمُ منـك القَسَاسيّـة الشهب
بلا ترةٍ كانـت لديهـم طلبْـتَهـا ... فأعجبني ما جئت وازداد بي العُجْب
تشـافى بك الأعداء منهم فأصبحت ... مَغَـادر كم فيهم يسيرُ بها الـراكبُ
وأنت رفيع البيت من « آل هاشم » ... وصلبكَ خير الناس إن ذكر الصلبُ
فهـلا بعفـو منـك كنتَ انتقـذتهم ... فكان لك العفو المغمد والذنب ؟
فليسَ بعيـداً منـك ما فيـك يُرتجى ... لأنـك ذو الأفضـال والسيد الندبْ

***

وإنه لعتابٌ صادرٌ عن مرارةٍ تذيب الضلوع ، كيف لا ينسى الشاعر أو يتناسى وهو في عنفوان غضبه أن هذا السفّاح ، رفيع البيت ومن ذريّة خير البشر ، بل أنه لا يتحاشى من أن يصف قاتل ذويه وأهله بأنه ذو الأفضال والسيد الندبُ ، وانّ منه كانت ترتجى السماحة والعفو ، ثم يَوَدُّ أن يغالط نفسه فيذهب ملتمساً له الأعذار ليخفف من صدمته وخيبة أمله فيقول :

سمعت بهم قول الأعادي فأصبحوا ... وكـلهـمُ في شخب أوداجـه يحبـوُ

وتتجسم المأساة وتكبر وتستنزف عبراته الدّامية ، ويتذكر بطولتهم وهم الصيد الغطارف ، ويذكّر « ابراهيم » بمواقف قومه وتشيعهم ومؤازرتهم للرسول وآل بيته :

فيا أسفا من بعد صيدٍ غطارفٍ جسام المعالي ليس زندهم يكْبُو
بكل غداةٍ تُسْتَفَاض جيادهم من الماء قرناً بعد قرنٍ لهُ سكبُ
ويمْجُجْنَ من علك الشكيم بها دَما فذو شُكْلةٍ منه ؛ ومُعتبط عَضبُ
ولو انهم خافوا التي نلْتَ مِنهمُ لضَاقتْ بك الأرض العريضةُ والرحب !
ولكنهم قالوا شريفٌ وسيدٌ وذو ثقةٍ محض أبوّتُهُ طبُ
فمهلاً لك الخيرات لا تبْر عظمها فشعبُكُمُ من يوم كان لنا شَعْبُ
ونحن لكم كفٌّ على كلِّ مُلحدٍ ونضرب من يُخفي الحقيقة أو يصبُو
ونحنَ لكم حصنٌ حصينٌ وشِيَعةٌ فأصغيت اذناً للوشاة وقد دَبوًا

***

ثم يلتفتُ التفاتة رهيبة إلى تلك الأفعى التي دبت ماكرة تنفث سمومها ، إلى يعلي بن عمرو بن يزيد الذي وشى بقومه إلى ابراهيم بن موسى وحرضه على قتلهم :

فمن مبلغٍ يعلي بن عمرو رسالةً تخبّ بها نوق مخيسة صُهب
بأن دمانا طوقتها رقابكم وان لنا نجماً يلوح ولا يخبو
هنيئاً بما طوقت من دم ثائرٍ جسور على الغارات ما سيفه ينبو
ولولا ابن موسى ما ظفرت بطائلٍ ولا نيل منهم وَيكَ هضم ولا عصب
ولكن ابراهيم ملنا لعدله وقد نيربت منه الخيانة والكذب

***

إلى آخرها وله قصيدة عينية رائعة في نفس الموضوع أثبتناها في « القصة ويقول الهمداني ان شاعرنا هو الذي خلف « إبن ابان » في الرياسة وانه كان مكيناً عند « يعفر بن عبد الرحيم الحوالي » [٢٥٩هـ /٨٧٣ م] وله فيه شعر يعاتبه على ما صنع بعبّاد ابن محمد من تنكيل وسجن وانظر الاكليل ج -٢ - ١٣٧ - ١٤٠ - ١٤٢ - ١٧٨ - ٢٥٥ وقصة الأدب : ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٧ الخ .

٥ ـ عبد الخالق بن أبي الطلح الشهابي

ت حوالي ٢٨٠هـ

شاعر مكثر مطبوع يقول الهمداني انه وعبد الله بن عبّاد كانا أشعر أهل عصرهما وان طويلته في « العمريين » ومفاخر قحطان مئون ، وكان شديد التعصب لعرقه وقبيلته ، وذا صوت جهير في إثارة النّعرات العنصرية . وله مدائح في السلطان محمد بن يعفر وقد أورد له الهمداني في الاكليل عدّة قصائد ولكنه لم يحدّد سنة ولادته ولا أخبرنا بعام وفاته ؛ ولكنا نستطيع ان نقول ان ولادته كانت قبل سنة ٢١٠هـ وذلك لأنه حين مدح السلطان محمد بن يعفر كان قد جاوز « الخمسين » وقد أثبت ذلك بقوله :

عدَّ خمسين ثم عاد بديَاً ... يشفع الدمع بالدموع الغزار
وابن خمسين جاهل ان تصابى ... بعد خمسين أو بكى في الديار

***

ونحن نعلم ان بداية حكم محمد بن يعفر كانت سنة ٢٥٩هـ ونظنّ ان الشاعر قد عاش إلى ما بعد سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٩ م وانه لم يمت الا وقد أشرف على السبعين . وهمزيته الطويلة التي حرض بها على « الأبناء » مستنجداً بأبن يعفر مطلعها :

إبائكم فحتَام الآباء ... وفيما الهجر ؟ أو فيمَ الجفاءُ ؟

***

ومن غزلها :

لقد طال المطال فما لِدَيْني ... لديكمْ حين أطلبهُ قضاء
فتاةٌ من بني جشم بن بكر ... بدون بهائها وُصف البهاءَ
غذاها اللين فهي مهاةُ خدر ... قطوف الخطو ، أبهضها الغذاء
أناةٌ طفلةُ الأطراف بكر ... خدلجةُ مفاصلها ، رُوآهُ
برودٌ في الهواجر حين تحمى ، ... سخونٌ حين يقتبل الشتاءُ
تصدُ وتارة تدنو اقتراباً ... فلا منعٌ يَتمُّ ولا عطاءُ

***

ومنها يناشد أبناء اليمن أنْ :

ترّحل « فارساً » وبني « عدّي » فانّ قلوبنا منهم ملآءُ
من الأحقاد تحسبنا سكارى وطوراً قد تقول بنا انتشاءُ

***

وهي طويلة أثبتنا معظمها مع طويلته الرائية في محمد بن يُعفر المقتول عام ٢٧٠هـ في كتابنا قصة الأدب في اليمن ومطلعها :

ما بكآ امرءٍ بدمنة دار بعدما لاح شيبه في العذار ؟!
لا ؛ وذاكم إلا سفاهة حلم وادكاراً ولات حين ادكار . .

إلى آخرها في حوالي مائة وثلاثين بيتاً لم يدع باباً من أبواب الفخر بحمير وأقيالها وأمجادها ومشاهير أبطالها الاّ وطرقه ، وقد تعرّض لمأساة زعيم « التراخم » وسيّدها عيسى أبو العباس ، مع الأمير محمد بن يعفر الذي يمدحه بهذه الطويلة وكان قد نكلّ بعيسى « الترخمي » وقومه ، فاضطر إلى أن يلتجىء إلى « آل زياد » في « زبيد » ، ونحن نعلم تعصّب الشاعر عبد الخالق وعنصريّته الشديدة ، والتي يخرج بها عن كل حدّ ويتجاوز كلّ صلة عقلية أو انسانية أو دينية ، ولكنْ أنْ يذكر تلك المأساة بتشفٍ وسخريّة قد لا يبررها إلاّ تهافت حقدٍ دفين إذ قد قال :

رام « عيسىَ » ما لا يُرام فأمسى ثاويـاً « بالحصيب » نائي المزار ،
في بلادٍ يسومه الخسفُ فيها من عبيد العصى شرار الشرارِ
ولقد كان في رفاهة عيش ساكنَ الليل ، مطمئنّ النّهارِ
يعمل الفكر في ابتناء المعالي ، ويطيل القيام بالأسحارِ
غير حانٍ على التخالج والشكّ ، ولا نائم عن الأوتار !
فأبى جهله عليه ، ورأيٌ لم يزعهُ حلمٌ عن الانتشار
وجرت في عروقه بنت حولٍ خندريس تبوح بالأسرار
فسما طرفه إليك على تلك . . وأين الوليد من ذي الخمار ؟
كَفَر « الترخمي » ؛ والكفرُ شَينٌ تجتويه طبائع الأحرار !
رام إذ رام صخرةً تفلق الصخر وترمى أمامها بالشرار !

***

ولعمري أن من يعرف مأساة أبي العباس ، وانّ محمد « اليُعْفري » قد بطش به ، وحكم فيه هواه ظالما ، ليُدْرك ان هذا الشعر وإن كان قويّ السبك رائعا ، ليدلّ على وخامة ضمير قائله ، فلقد مال الأمير الحوالي ميلة عنيفة على « التراخم » وقتل أشرافها ، وعفر وجوهها ، وشرّد أهلَها ، لأنّ رجلا منهم قتل أحد عبيده « طريف بن ثابت » ؛ وفي رسالة كتبها القيل عيسى أبو العباس إلى ذلك الأمير الغشوم محمد بن يعفر الحوالي ممدوح « بن أبي الطلح » يعاتبه على ما ارتكب معهم وهو شارد في زبيد قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم : كتابُ من اعترفَ بذنبه ، واستلاذ بربّه ، وعلم أن لا ملجأ منه إلاّ إليه ، فجعله إلى النّجاة ذريعَهْ ، ودون بادرتك دريئه ، وعلى انّه قد فارق ما جمع ، ولم يكن فيه عن أمر الله مُمْتَنَعْ ، وأصبح ما كان فيه بالأمس كسراب بقيعَـهْ ، يسكـع إليه في دهنـاء نائية المدى ، وما ذاك بملكي ؛ ولكن ما قدّر نفذ ، وما حتم فلا مرتجع له ، وقد بان الحقّ لمتبعه ، والباطل لمرتكبه ، وقد كانت هناتٌ ، كُذِبَ فيها وصدق ، وزيد فيها ونقّص ، فاستمعتَ فيها لأقاويل ، وآثرت فيها الأباطيل ، ولم تقف عن الزلل ، ولم تتجاوز الخطأ ، ولم تقل لعاثرٍ لعا ، حتى قتلت الحر بالعبد ، واستحللت العظيم بالنزر ، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل ؛ رويدك . . قد بلغت حيث أبلغت ، وحملت مثلما حملت ، ولكل أجل كتاب ، وإذا أتـرع الاناء فاض ، ومن ير يوما ير به ؛ كلٌّ حاصدٌ مما زرع ، وجان مما اغترس ، والسلام » .

هذا الخطاب الرائع الذي يفيض عبرة وحكمة ، ويثير كوامن الرحمة ، لم يهيّج في نفس ذلـك الأمير « اليعفري » الاّ شعوراً مشوّها ، وعزّة آثمه ، فامتشقّ يراع امارته وأجاب على هذا الكبير الذي هان ، والعزيز الذي ذل ، المعترف بذنبه الصادق في عتابه بقوله : « وذكرت انّي لك ظالم ؛ فان يك ذلك كذلك فقد قال الله عز وجل ، في كتابه المنزل ، على نبيّه المرسل ، ﴿**وكذلك نولّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون**﴾ والسلام .

وإنّـه لدركٌ مظلم يندر من يتقحّمه بغروره وهواه من طغاة البشر دون مبالاة ولا حياء . . ولا يخشى أن يكون ظالما وانه ليعلم من نفسه ذلك . . ثم لا يستحي ان يقول : ان ما يقترفه سنّة من سنن الله لا يستطيع لها تحويلا . . ؟

ومات أبو العباس في زبيد بعد أن جاور مع قومه فيها أكثر من عشرين عاما كما قال أبو محمد الهمداني في الاكليل ؛ ولكن ؛ وقد كادت الدنيا أن تكون دار جزاء فان مصير اليعفري الظالم كان أليما اذ قد قتل على يد ابنه الشاعر الماجن الآثم ابراهيم الحوالي .

وانظر الاكليل ج ـ ١ ـ ٢٠٥ ـ ٤٥٥ ـ ٤٨٢ ـ ٥٢٥ وقصة الأدب في اليمن ـ ٢٩٥ ـ و٣٠٥ ـ ٣٠٨ .

٦ ـ عبد الله بن محمد بن عباد

من فحول شعراء اليمن في القرن الثالث الهجري شاعر أكيل عبد الله ابن محمد بن عبّاد ، وكان أبوه رئيس قومه في صعدة فلما قتل ؛ وعبد الله لا يزال طفلا كفله عمه « المسلم » وحين مات أخفاه أهله عند بني عبد المدان بنجران حتى أدرك ، وحاول أخذ الثأر لأبيه ، ولما تعصّب السلطان يُعفر بن عبد الرحيم الحوالي مع بني سعد خرج عبد الله مستنجداً بالواثق العباسي سنة ٢٢٩هـ /٨٤٤ م فأنجده ودخل صنعاء سنة ٢٣٠هـ /٨٤٥ م وقد عاد إلى بغداد أيام المتوكل سنة ٢٣٢هـ /٨٤٧ م مستنجداً أيضاً فبعث معه نجدة بقيادة جعفر بن دينار ومن مختار شعره قوله :

ألـيس من البلوى التي نبتلي بها ... بقا المرؤ حياً ، واخترام الأماثلِ
فليت المنايا إذ قضمن خيارنا ... ضربن على أشرارنا بالحبائلِ

***

وله :

فلو كان لي رأسان قدمتُ واحداً ... لسمر القنا والمرهفات البواترِ
ولكنه رأسٌ إذا زال لم يعد ... لموضعه أخرى الليالي الغوابرِ

***

وله :

خليلي من جرم بن ريّان أو هندِ ... ألا حيياً هنداً ، دنا البين من هند
وقولا لهند قبل أن يشحط النوى ... بنا وبهند ، هل من البين من بدِّ

***

وهي طويلة ، وله أخرى مطلعها :

تأوّبني هدوءاً طيف هندٍ على عشواء من خوفٍ وبعد

***

أثبتها في « قصة الأدب » وابن عبّاد هذا من المكثرين ، وأصحاب الطّوال وهو في معظم شعره يتغنّى بالقيم الانسانية ، ومكارم الأخلاق ، وما قاساه من كيد الخصوم ، وظلم ذوي القربى ، وفي الجزء الأول من الاكليل الكثير من أخباره وأشعاره أنظر ص ٣٢١ إلى ٣٢٧ ثم ٣٣٣ ـ ٤٢٣ وقصة الأدب ص ٣٠٨ ـ ٣١١ .

٧ ـ بكر بن مرداس الصنعاني

من وجهاء هذه الفترة وفحول شعرائها الشاعر الغزل الظريف الذي ابتدع طريقة في التشبيب والغَزَل نالتْ اعجاب أكبر شعَراء عصره الحسن بن هاني المعروف بأبي نواس ؛ بل انه قدّمه على نفسه ، وكان عليَّ أن أقدّم ذكره على بعض من سبق ذكرهم لو كنت ألاحظ الدقة التاريخية بالنسبة إلى ولادة أو وفاة من نترجم له أو نؤرّخ لأدبه ونشيد ببعض آثاره الأدبية والثقافية .

وأخبار وأشعار « ابن مرداس » نَزْرة يسيرة ولا يزال معظمها مجهولاً ، أو موؤداً ضمن أضابير « المخطوطات » ، ورغم انه قد اشتهر وذهب صيته في الآفاق فلم يذكره « المرزباني » في معجمه ، ولا ابن المعتز في طبقاته ، وقد عاش في النصف الأخير من القرن الثاني وربما أشرف على مطلع القرن الثالث الهجري ؛ وقد ذكره الهمداني في صفة جزيرة العرب وهو يتحدّث عن « صنعاء » فقال :

« ومن الشعراء ؛ مثل علقمة ذي جدن ، ووضّاح اليمن ، وبكر ابن مرداس وكان ظريفاً آدم حسن الهيئة والنظارة ، وكانت له ثياب بعدد أيام مخرجه من منزله في السنة ، وكان من تمام مروءته ألاّ يخرج من منزله حتى يعقد شسعي نعله ، فلم يره أحد منقطع الشسْع في طريق ، وكان شِعره سائراً فخبّرني ابن مرزا الأبناوي عن بعض من حدّثه من أهل صنعاء عن أبيه قال : وافيت الحجّ فرأيتُ في الطواف فتى ظريفاً خفيف الروح يعصب

به جماعة حتى قضى طوافه وصلاته فقلت من هذا ؟ فقيل : أبو نواس الحسن بن هاني [ت ١٩٧هـ / ٨١٣م] فسلّمت عليه وفاوضته وأخبرته بنفاق أشعاره وأخباره بصنعاء وسألته شيئاً منه فقال : تطلبني مثل هذا وعندكم بكر بن مرداس ؟ قال : فقلت له : وانّه عندك بهذه المنزلة ؟ فقال : أما هو القائل :

يا إخوتي ان الطبيب الذي ترجون أن يبرئني مُسقمي ،
وما ألا نصحاً ولكنّه . . . عن علم ما بي من سقام عمى ،
فسائلوهُ عن عقاقيره وسائلوه ما الذي احتمى ؟
فانما الطب لمن داؤه من مرةٍ ، أو بلغمٍ ، أو دمٍ ،
والحُب لا يُشفي بأيّارَجٍ ولا بترياقٍ ، ولاً محجم ،
إلا بشمّ الحبّ ، أو ضمه ومجّ ريق من فم في فمِ
فيا شفاء النفس من دائها داوي سقامي ، وارحمي ترحمي
فلو بعينيك إذا جنّني ليلٌ ، واغفت أعينُ النوّمِ
طوفي على بابكم باكياً لحر شجو في الحشا مضرمِ
لخلت اني طائف محرمٌ في ساحة البيت إلى زمزمِ
واسْتَيْقَنتْ نفسكِ أنَّ الهوى أشْد ما يعلق بالمسلمِ
فاعتقي عبدكِ مما به واكرمي وجهك أن تَظْلمي

***

وقال بكر أيضاً على لسان أعرابيّين وفدا على يزيد بن الوليد :

فقدنا لحانا ما أقلّ غناءها وأضيع فيها الدهن يا بن مطيع
دهنّا ونشفناهما لأميرنا كخافيتي نسر هوى لوقوع
فما ساقتا خيراً سوى الطول منهما وانهما غمّ لكل ضجيع !
فياليتنا كنّا سناطين منهما . . . نؤمّل كالاعراب كل ربيع
فنسلب مالا لا نروّعُ بعده مخافة عريٍ أو مخافة جوع

***

صفة الجزيرة ص : ٨٤ ـ ٨٥ ـ ٨٦

٨ ـ أحمد بن عيسى الرادعي

هو صاحب الأرجوزة الطويلة ؛ أرجوزة الحج التي ختم الهمداني بها كتابه « صفة جزيرة العرب » ، وهي تدل على أنّ الرادعي كانه جهبذاً ومؤرخاً وجغـرافياً وذا مَلكَةٍ بيانية ، وتقع في ستمائة وخمسة وثلاثين بيتاً ؛ وفي مائة وسبعة وعشرين مقطعاً كل مقطع خمسة أبيات وبين كل مقطع وآخر ، تفسير لما ورد فيه من غريب ، أو اسم مكان ، وشرح للمعنى ان كان يفتقر إلى ذلك وقد استشهد الهمداني ببعض أبياتها في كتابه الاكليل ، وقال وهو يقدم لها في خاتمة « صفة الجزيرة » ما يلي :

« ولا نعلم أحـداً وصفَ من جزيرة العرب مسافة أربعة وعشرين يوماً بشعـر طبعي ، ونشر بصفـة الأبل والفلوات ، سوى أحمد بن عيسى الرادعي رحمه الله من خولان العالية ، وكان يسكن برادع من أرض اليمن ، ومنها وصف البلاد إلى مكة على مَحَّجة صنعاء في أرض نجد العليا ، وقد سمعت لِرجل من البصريين شيئاً في صفة طريق البصرة غير مرتَضَى ، بل ضعيفاً ، وكان أبو يوسف ابن أبي فضالة الأبناوي جدّ أبي يوسف الذي كان في زمن محمـد بن يُعفِـر قد قال في محّجـة صنعاء شعراً أرجوزة ضعيفة فاهتجِرَت وأذيلت حتى درستْ ، وفقـد من ينشدها غير الأبيات التي لا قوّة بها ولا طبع ؛ وكان كثير من أهل صنعاء لا سيما الأبناء قد غيّروا في قصيدة الرادعي أشياء نفاسةً وحسداً فلم يكن بصنعاء لها نسخة على الاستواء ، فلم أزل ألتمس صحتها حتى سمعْتها من أحمد بن محمد بن عبيد من بني ليف من الفرس ، وكان لا يدخل في عصبيّة ، ولا يلتّ أحداً حقه ، وكان آل ليف فرقتـين ، فرقـة تسكن برادع ، وفـرقة بصنعاء ، فقال لي : روانيها أحمد بن عيسى برادع عشرة أبيات ، عشرة أبيات ؛ حتى حفظتها وأنا حدث فلم تزل عنيّ ، وهي على ما سمعتُ بجميع لغاته الاّ ما كان منها معيباً من جهة الاضطرار ، ولا فائدة فيه فقد ثقفّته ، وفسرّت منها ما لم يسقط الى العامة لغته ، وهذه الأرجوزة فَرْدَة في فنّها الاّ أن يقفوها قاف مجيد وشاعر مفلق ، وقد كان له سواها شعر لا بأس به » .

وقد حرصت على سرد هذا التقديم كاملاً ، لأنّنا نستنتج منه فوائد شتى :

أولا : أن الأرجوزة فردة في فنها ؛ شمولا وبياناً وقوّة سبك وان كان قد

سبق « الرادعى » رجل من البصرة وأبو يوسف الأبناوي لكن شعرهما كان ضعيفاً لا قوة به ولا طبع فاندرس ما قالاه .

وثانياً ؛ ان بعض المتعصّبين كانوا قد غيروا أرجوزة الرادعي ، وهذا يؤكد ان الكثير من النصوص القديمة قد عبث بها رواتها وان من اللازم التثبّت في تحقيقها ، وتزييف ما يدلّ على عصبية ، ونعرف أيضاً شدة حرص الهمداني على التماس الصحة فيما كان يتلقّاه من معارف ويرويه من أشعار .

وثالثاً ؛ نستفيد ان الأرجوزة مع أشعار البصري والأبناوي قد كانت من مصادر الهمداني في تأليفه لكتابه « صفة جزيرة العرب » .

ورابعاً : نفهم مقدار حرص القدماء على معرفة أسماء البلدان وتسجيل الأحساب والأنساب وتعليمها للأحداث وحملهم على استظهارها ولولا ذلك لما تمكّن الهمداني من روايتها عمّن سمعها عن الرادعي .

وخامساً ؛ انه كان يوجد ـ ورغم تفاقم النّعرات العنصرية والطائفية ـ في القرنين الثاني والثالث إلى حدّ التجرّي على تشويه وتغيير النصوص وتحريفها ، من لا يندفع في متاهات العصبيّة ، من الفضلاء الذين لا يغمطون حق أحد ، أمثال راوي الأرجوزة ـ وهو من الأبناء ـ لأبي محمد الهمداني .

وسادساً ؛ نعرف من الرواية ان الشاعر أحمد الرادعي قد عاش في أواخر القرن الثاني والنّصف الأول من القرن الثالث الهجري وحتى سنة ٢٧٠هـ ، لأنّه أسمع أرجوزته لأحمد بن محمد وهو حدَث السنّ ؛ ونحن نعلم انّ الهمداني لم يمت قبل سنة ٣٤٤هـ وانه قد عثر على النسخة الصحيحة من الأرجوزة في أواخر القرن الثالث الهجري من أحمد هذا الذي أصبح شيخاً وراوية .

وسابعاً ؛ ان للرادعي آثار شعرية أخرى غير هذه الأرجوزة ولا ندري ما قصد الهمداني بقوله « وهي على ما سمعت بجميع لغاته الاّ ما كان منها معيباً » ؟ وهل نفهم انه قد ثقّف وأصلح بعض ألفاظ الأرجوزة ؟ وهل ما ورد في الأرجوزة من تفسيرات لغوية أو إيضاحات جغرافية من صنع الرادعي أم الهمداني ؟ وقد أراد بقوله ؛ « وفسرتُ منها ما لم يسقط إلى العامة لغته » ،

انّه قد شرح ما يعدّه غريباً لدى العامة ، وإن كان معروفاً لدى الخاصة أي العلماء والأدباء ؛ ولعلّ الراوي عندما قال « عشرة أبيات عشرة أبيات » ! قد جعل كلّ شطر من الأرجوزة بيتاً فيكون مجموع أبياتها ألف شطرٍ ومائتين وسبعين شطراً . وقد افتتحها بقوله :

أوّل ما أَبْـدَأ من مقـالي ... بالحـمـد للمنـعـم ذي الجـلال
والمـنّ والآلاء والأفـضـال ... والمـلْك والجـد الـرفيـع العـالي

***

ولما وصل إلى ذكر « صنعاء » في المقطع الرابع عشر قال :

صنـعـاء أعـنـى جنّـة الجـنـانِ ... بحـيث شيـدَ القصرُ من غمـدان
أرض الـتقـى والـبر والاحـسـانِ ... بها مقـيـلي ، وبهـا إخـواني

***

واستطرد بعد ذلك يقول :

صنـعـاء ذات الـدوّر والآطـام ... والـقِـدَمِ الأقـدم ذي الـقـدّام
والعـزّ عن ذي السـطوة الغَشّـام ... أسَّـتْ بعـلـم لابْـن نوحٍ سام
بعـلم ربٍّ ملكٍ علاّم ... إذْ رادَهـا سأمٍ بلا توّهـام
ورادهـا من قبـل ألـفـيْ عام ... ما بين سفـحي « نُقُمِ » النقّـام
وبـين « عَيبـان » المعـينّ السـامي ... فأسّـهـا في سـالـف الأيـام

***

ثم خصّها بأربعة مقاطع مادحاً مشيداً بمفاخرها وخصائصها حتى قال في المقـطع التـاسع عشر يؤكد « المقولة المتداولة » ان صنعاء محروسة تقهر الطغاة من غزاتها .

ان رابهـا من حدث الـزمـان ... ريـبُ عدوٍّ حَرب الأضـغـانِ
قام فحـامـى دونها حيّـانِ ... « قحطان » ، والأَحرار من «ساسانِ»
قبـيـلتـا صدقٍ إذا ما الجـاني ... أشـعـل نار الحـرب بالأعـلان
كانـوا كأسـد الغـاب من خفّان ... ظلْتُ بها غير المـضـلّ الـواني
قريـر عين بصـلاح شاني ... في فتـيـةٍ مثـل الـقـنـا المـرّان ؛

ولما أشرف على « صعدة » في المقطع الخامس بعد الثلاثين قال :

خوارجاً من جنح ليلٍ داجي مخيّسات القلّص النواجي
مهريّة أعيانها سواجي حزائقاً بالرّفق الحجّاج
نواسلاً يرقلْنَ في دمّاج ناجيتها في بعض ما أناجي :
ناق .. صِلي التهجير بالأدلاج مالكِ عن صعدة من معاج
ما لم تجودي بدم الأوداج حتّى تزوري البيت ذا الرتاج !

***

وقال في المقطع السادس والثلاثين :

« صَعْد » سقيت الغيث من مكان طاب المقيل لكم إخواني ،
في رُطَب صُلْع ، و في رمّان ، والقتّ في أسواقها المجّان !
بما بَنى بيتَ « أكَيْلٍ » باني و « يُرسم » فرعان من خولان ،

***

وقد ظل بتعابيره الجزلة ، وألفاظه المنتقاة ، يقف بنا عند كل مكان وثنيةٍ وجبلٍ وماء ، واصفاً بدقّة القافلة ورجالها وجمالها وحداتها مناجياً ربه متبتلاً خاشعاً أو متذكراً أهله وأحبابه في شجوٍ وشوق ، وما إن أكمل وصف أعمال الحجّ ومناسكه ومواقفه وأماكنه ومشاعره قائلاً :

دعا فأشجاني لنفرٍ داعي وقد رميتُ بحصىً تَباع
الجمرات غير ما مضياع ، ألتمس السنّة باتباع
ثم نميت الكورَ ذا الانساع على أمونٍ حرة ملاع
ثمّ أتيت البيتَ للوداع فقلت يا قابل سعي السّاعي
اني دنا عن بيتك انتجاعي، فاغفر ذنوبي ؛ يا مجيب الداعي

***

حتى يلتفت في المقطع رقم ـ ٩٦ ـ متحدثاً عن بيوت « قريش » ويقول :

وقلتُ للحادي القراقري أذكر قريشاً أسرة النبيّ
أهل الندى والمعقل الأبيّ والحلم ان طاش ذوو النديّ
واختص منهم ولَد الوصيّ بني الامام المرتضى عليّ

ليث الـوغـى والحكـم المـرضيّ	ذاك على رغـم الـعِـدى ولـيـي
والى لواء الحـمـد ، والـنـجـيّ	والحـوض حوض المصـطفى الرويّ
من هاشم في البيت ذي الـدعـائم	والفـرع من فروعهـا الـسـلاجم
الـسـادة الجحـاجـح الـقـماقم	الأولـين الـسـبَّـق الأقـادمِ
حتف المـعـادي وغـنى المسـالم ،	هم سبقـوا الأقـوام بالمكـارم . .
أئـمـة الـنـاس لدى المـواسـم	على منى الـراضي ورغم الـراغم
أكـارم غرّ ، بني أكـارم	فمـن إذن يُدعـى كحـيّ هاشـم

***

ويذكـر بني العبـاس ، وأسرة الصـدّيق ، ورهط الفاروق وغيرهـم من بيوتات قريش وصحابة الرسول ﷺ .

ولا شك ان الناقد لا بد أن يلمس عاطفة الشاعر الفياضة بمحبة أهل البيت ومودتهم التي لا يشوبها غلوّ ولا افراط ، وكان قد سبق ان قال في مطلع أرجوزته :

ادعـوك يا ذا الـسؤود المـمجّـد	وذا الـعـلا في عزِّه المـؤيّـد
من لم يزل قدمـاً ولـمّا ينـفـدِ ،	ولم يلد ولـداً ، ومَـن لم يولـدِ
صلّ على الهـادي النبي المهتـدى ،	على الـنـبـيّ المصـطفى محمـد
وابـعـثـه يا ذا المنّ يوم المشـهـدِ	مقـامَـه المـحـمـود غير الأنكـد
وأعـطِه من عزّك المـؤيّـدِ	حظاً ممضـاً لقـلوب الحـسّـدِ
واخـلفـه في عترتـه وآلـه ؛	ربّ ، ومَـن والهَـمُ فوالِـهْ
وزدْه إجـلالاً إلى اجـلالِـه ،	وابسط عليـه الـرزق من حلالـه
وأعـطه منـك الثـري في ماله ،	ربّ ؛ ومـن عاداهـم فقـالِـهْ
بفـعـلـه يارب أو مقـالِـه	وخـذه في الـعـميـاء من ضلالِـه
واحـتـل به ياربّ في احـتيـالـه	وحـلْ بهِ ياربّ عن محُالِـه

***

ثم يعود ادراجه مع قافلته يعلو بها البطاح ، ويقطع الفيافي ، ولا يعرّج طويلا على المدن والقرى حتى يصل وطنه « رداع » .

حقاً انها فردَة في فنّها كما قال « الهمداني » وانظر صفة جزيرة العرب من ص : ٤٠١ - حتى ص - ٤٥٨ - والاكليل ج - ١ - ص : ٣٨٩ والثاني ص : ٩٥ .

٩ - ابراهيم بن محمد بن يُعفِر الحِوالي

كوّن « الحواليون » أو « اليُعْفِريون » امارة قاعدتها شبام كوكبان ما بين عامي ٢٢٥ و٣٩٣هـ وجدّ آمراء وسلاطين آل يُعْفِر هو عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالي ؛ كان نائباً بصنعاء لوالي الخليفة العباسي المعتصم على نجدٍ واليمن ، ولما توفّي سنة ٢٤٧هـ قام بالأمر بعده ابنه « يُعْفِر بن عبد الرحيم ، وهو المؤسس بالفعل للدولة اليعفرية ، أمّا آخرهم - أوثا منهم ، فهو أسعد بن عبد الله بن قحطان الذي تلاشت به امارتهم سنة ٣٩٣هـ وقد كان عصرهم كما قال العلاّمة عبد الله الشماحي « عصر الغرائب والأحداث الجسام في اليمن » ، « وقد كان قدوم الهادي يحيى بن الحسين إلى اليمن في أيام ابراهيم بن محمد ٢٨٠هـ ثم عاد إلى الرسّ ، ثم استدعاه الشيعة وفي مقدمتهم أبو العتاهية سلطان بني حشيش فعاد إلى صعدة عام ٢٨٤هـ » ؛ كما انه « في عهد ابراهيم قدم إلى اليمن الداعيتان الاسماعيليان علي بن الفضل الخنفري الحميري ، وأبو القاسم المنصور حسن بن حوشب من الكوفة » « اليمن : الانسان والحضارة ص : ٩٥ - ٩٦ » .

هذا ما ذكره المؤرّخ « الشماحي » أمّا ما ذكره « الخزرجي » في كتابه « العسجد المسبوك » فانه يقول ان الأمير محمد بن يعفر لما ذهب الى الحج سنة ٢٦٢هـ استخلف على امارته ابنه ابراهيم بن محمد ولم يزل على ولايته حتى بعد رجوع أبيه إلى سنة ٢٧٠هـ ثم أمره جدّه يعفر بن عبد الرحيم - وكان قد انعزل الولاية - بقتل ولديه محمد بن يعفر وأحمد بن يعفر فقتلهما بعد المغرب بصومعة شبام ، ويقول ان ابراهيم قد اعتزل الامارة وولّى ابنه عبد الرحيم ثم عزله سنة ٢٧٣ واستقرّ بشبام وولّى على صنعاء وأعمالها « عُمّالاً » ، ولكن الأبناء والشهابيين وغيرهم من سكان صنعاء قاتلوا عُمّاله وأخرجوهم منها ونهبوا دار ابراهيم واحرقوها ولم يلبث ان قتل بشبام سنة ٢٧٩هـ [ص ٣٣ - ٣٤ - مصورة وزارة الاعلام] .

ونحن لا نؤرخ للدولة اليعفرية وانما تعرضنا لذكر ذلك تمهيداً لما قاله المؤرخ الهمداني في الجزء الثاني من الاكليل ص ـ ١٨٣ ـ وهو يتحدّث عن أنساب الحواليين قال : « وأولد محمد بن يعفر : ابراهيم أبا يعفر ، قاتل أبيه وعمّـه ، وكان داعِراً ، إذا سكر ، أديباً عالماً خطيباً بليغاً ؛ اذا صحى ، وحمَلَه الأدمان على الشراب أن قتل أباه وعمّه ، وكان أبوه محمد قد خلع إليه الامارة وتديّن وقرّب العلماء ، وسمع كتب عبد الرزّاق وغيره من الحديث ، وكان قبل ذلك نجدا ، وأبو يعفر [ابراهيم] القائل :

حكّـم الـسـيـفَ إذا ما لم تجِدْ ... حكـماً يعـدل ، فالسيف الحكَمْ
لم أر الـنّـاس لِذي رِفـقٍ بهم ، ... إنّـما المهـيـوب فيهم من غَشَمْ !

***

وهـذا الشعـر يصـوّر طبيعتـه الـوحشية وفلسفتـه التي تدين بالعنف والبطش ، وتمجّد القوّة لا كوسيلةٍ لاقرار الحق كما قال المتنبي :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى ... مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

***

ولكنه يدين بها وبالقسوة وسفك الدماء طبعاً وخلقا وفلسفة وأسلوب حكم !

والعجيب ان والده محمد بن يعفر كان شهما نجداً كما يقول الهمداني ، ويبدو انه قد حاول جهده تهذيب وتثقيف وتعليم ابنه ابراهيم حتى أصبح أديبا شاعراً خطيباً ، وعندما ذهب الوالد إلى مكة لآداء فريضة الحجّ أناب عنه ابنه على امارته بصنعاء ولما عاد تنازل عن الامارة لأبنه ومال إلى الزهد والقراءة كما قال الهمداني ، ولا ندري هل مال إلى ذلك طواعية ورغبة أم أجبره ابنه ؛ إذ أنّه لم يمض الّا وقت قصير حتى وثب عليه الأمير المعربد الخطيب فقتله وقتل عمه أحمد ، وقد علّق ناشر الاكليل القاضي العلامة محمد الأكوع في الهامش بقوله :

« وفي تاريخ الجنـدي عن ابن الجـوزي زيادة قتل جدّته أم أبيه وابن عمّه ، وفي الخزرجي ان يعفر بن عبد الرحمن جد ابراهيم هو الذي أوعز

لابـراهيم بقتل ولديه محمد وأحمد بعد المغرب في صومعة جامع شبام وأنا استبعد هذا ولا أساس له من الصحة ولو كان كذلك لذكره المؤلف [صاحب الاكليل] ، وأنا أشارك المؤرّخ الأكوع هذا الرأي ؛ ويظهر ان هذا القاتل الأهـوج ابـراهيم كان ذا مزاج شرس ، وفطرة شرّيرة ويؤكد ذلك ما رواه الهمداني في السفر العاشر من الاكليل وهو يتحدّث عن الدُعام بن ابراهيم .

وقد كذّب الواقعُ فلسفةَ الشاعر الأمير الجبار . . انّ الناس لا يدينون بالـطاعـة لذي الـرفق والصفح ، حين ثار أبناء اليمن في صنعاء عليه ، واحرقوا بيته ، وأخيراً جابه مصرعه المؤسف .

وإبن ابراهيم هذا السّلطان أسعد بن ابراهيم . . . هو أشهر سلاطين آل يُعفر ، والذي سُجنَ وشُرِّدَ الهمداني في عصره وكان مشهوراً بالدهاء والمكر وفيه قال الهمداني قصيدة « الجار » .

وقد قال الهمداني في الاكليل ان للسلطان أسعد تواقيع لا يجارى فيها ومن ذلك ما كتبه إلى أحد عماله :

« صدر الكتـاب اعـذاراً إليك ، وانـذاراً لك ، واستـظهـاراً بالحجـة عليك ، فان تنتقل عن قبيح سبيلك كانت الاقالة لك ، وان كان التقصير مستـولياً عليك اعتـذرت قبل لحوق الفضيحة بك ، وان اصررت وامتنع الجهـل عن الـدخول في هذين المعنيين ، ونجم مثلها كنت المأخوذ بها ، والأحق بالعقوبة عليها ، لتذوق وبال ما جنيت ، وتصير إلى عاقبة ما فيه تورطت وتراخيت ، فاختر لرأيك ، واعمل لنفسك فالاعذار حجة عليك ، والانذار لك » .

وتوفي أسعد سنة ٣٣٢هـ .

أدب المهاجرين

ما مدى دعوى كُلّ أمةٍ في أدب أبنائها النازحين عنها ، المتخذين لهم أوطاناً أخرى يستبدلون بها أهلاً بأهل ، وجيراناً بجيران ؟ وما هو نصيبها منه ؟ وهل من حق مؤرخ الأدب أو ناقده أن يُلحق أدب هؤلاء المهاجرين بأدب أوطانهم الأصيلة ، ومنابتهم الأولى ، دائماً وأبداً ما ظلوا يشعرون أنهم مهاجرون وما ظل الهوى والحنين يربطان أحاسيسهم بذكراها حتى ولو تعاقبت على ذلك أجيال وأجيال ؟ وهل هناك حدود زمنية ، أو تقاليد اجتماعية أو سمات خُلقية ، يجب أن يَحْسِب المؤرّخ أو الناقد حسابها أن أفضى به الحديث إلى أدب « المهاجر » وشِعْر المهاجرين فيجعلها له مِسْبَراً أو مقياساً .

والشعب اليمني : شعب مهاجر دائماً ، وأبناؤه في كلّ أوان تتعلق قلوبهم وأهوائهم بالسفر والترحال ، لا يؤبون من سفر إلا إلى سفر ، ولا تكاد الأرض بما رَحُبَتْ تتّسع لمآربهم ، وأطماعهم ، وخيالاتهم ، فلو وجدوا منفذاً من أقطارها لسلكوه ، ولا يَهُمنا أن نعَلّل أسباب ذلك ففي عصر العزة والمجد قالوا أنهم تركوا أوطانهم غزاةً فاتحين ، وفي عهود الانحلال قالوا أنهم غادروها عُفَاةُ منتجعين ، وفي الفترات الأخيرة فارقوها ، طلباً لرزق ، أو مجانفةَ لِضَيْم أو هروباً من ظلم ، أو حُباً في عِلم .

وقد تَمتْ هذه الهجرات في فترات من التاريخ زرافات ووحدانا وكانت الهجرات الجماعيّة عجيبة حافلة ، وخصوصاً تلك التي أشاد بها التاريخ

القديم بعد سد مأرب ـ لأول مرة ـ واندثار حضارة اليمن ، وبعد أن أرسل الله عليهم سيلِ العرمِ وبدّلهم بعزهم ذلّاً ، وبسعادتهم شقاءاً ، وبأمنهم واطمئنانهم خوفاً وشتاتاً فتفرقوا أيدي سبا ، ومزقوا تمزيقاً .

وهـذه الهجرات الجماعية عجيبة حافلة بالغرائب من أمور الحياة . . . فأولئك الذين ارتادوا العراق فكانوا سادة البلاد وملوكها وهم اللّخميون ، وأبناء عمهم الذين نزلوا بالشام ما أسرع ما كوَّنوا مملكة أخرى هي مملكة الغساسنة ، ومن حلوا بيثرب ، وهم الأوس والخزرج كانوا هم الذين أووا النبي ﷺ وعزّزوه ونصروه .

وآخـرون تفـرّقوا في أصقاع الجزيرة ، وأثاروا لأرض وعمروها معروفة أنسابهم في كتب الأنساب ويسمونهم « القحطانيين » وشعراؤهم يتغنّون بهذا النسب ويلهجون بذكراها على مرّ السنين .

وقد قيل في هذه « الهجرات » الجماعية وفي وصف مراحلها ، ومشقاتها ، وحـوادثها أشعار كثيرة رائعة وقد حصر الأماكن التي هاجر إليها اليمانيون القدامى شاعر يمني من آل أسعد تبّع أثبتها صاحب صفة الجزيرة كما نجد في كتب التـاريخ والأدب لأفراد الشعراء الذين قُدر لهم أن يفارقوا وطنهم اليمن الشعر الباكي حنيناً وذكرى .

والمؤرخون القدامى كانوا يقسّمون العرب إلى شعبين عظيمين ، قحطان وهم اليمانيون ، و « عدنان » وهم أبناء نجد والحجاز ، ثم يترجمون للشعراء والعلماء والأدباء ، على أساس تقسيمهم هذا سواء من بقي داخل اليمن أو من قذفته الظروف إلى مَهْجَرٍ مَا ، وسواء أكان حديث عهدٍ بالهجرة أم أنه من سلالة قوم قد تطاول علـى آبائهم الأمد منذ هجروا ديارهم واستوطنوا هذه المـرابـع الأخـرى ، ولم يكن أولئك العلماء والمؤرخون يُبالون بالزمن وحدوده فمن كان يُنسبُ إلى قحطان فهو يماني الهوى ، يماني النسب يماني الشعر ، وعلى هذا الأساس قالوا أبو عمرو بن العلا « لقدْ ذَهبت اليمن بكل الشعـر ، بامرىء القيس في الجاهلية ، وحسان في الاسلام وأبو نواس في المحدثين » ، ومعلوم أن امرىء القيس قد نشأ في بني أسد وإن كان القائل « دَمّون إنّا معشرٌ يمانون » وأن حَسان من يمانية « يثرب » وإن فاخر بجده « الشيخ يعرب » ، وأما أبو نواس فانه ـ فيما نعرف ـ لا تجري في عروقه قطرة

دم قحطانية إلا أنه قد اختار أن يكون لهم مولى وتابعاً ولذلك عُدّ من اليمانية وكان لهم لساناً .

وفي كُلّ دواوين الأدب القديمة وموسوعاتها الكبرى ، ومجاميع شعرها ، وكتب انسابها ، يَسلك مؤلفوها نفس النهج ، ويتبعون ذات السبيل ، فلو أننا جاريناهم ، ومضينا على نهجهم لكان جُلّ شعرائنا المشهورين في تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده من جاهليين ، ومخضرمين ومحدثين ، ومولدين من شعراء اليمن وفي مقدمتهم أبو تمام ، والبحتري والمتنبي ، والمعري . وتكون اليمن قد ذهبت بالشعر إلى الأبد .

لكننا لم نجعل ذلك لنا مقياساً في هذا البحث ، وتحاشيناه قدر الاستطاعة ولم نقصده بحال من الأحوال ، وإلا فما كان لنا أن ندّعي أن أدب اليمن أدب مجهول ونشكو ونتظلم ، ونجهد أنفسنا بحثاً ، ودرساً وتنقيباً .

ورغم المسوّغات التي يركن إليها بعض الباحثين حين يكتبون عن شاعر ، أو عالم ، أو فيلسوف ، فيجعلون للعرق القديم وعنصر الوراثة أثراً في انتاج وخيال وأدب من يحللون آثاره ممن قد يضرب به أصلٌ قديم إلى شعب غير الشعب الذي نشأ فيه وعاش ودان بحبه وعقائده وتقاليده شأن كثير ممن كتب عن ابن الرومي ، وأبو نواس ، . ومهيار الديلمي ، وشوقي في المتأخرين ، فاننا لن نبيح لأنفسنا أن ندّعي أن للجنس اليمني ، أو العرق القحطاني أي خصائص تشذ عن الخصائص العربية العامة التي تتباين بين الأفراد قوة وضعفاً ، أو تباينها . بل نحن نعتقد أن القُدامى سامحهم الله قد أغرقوا في ذلك التقسيم وشطوا وتأثروا بعوامل سياسية ، وقد سبق أن أوضحنا ما كان لمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد في إثارة ذلك الشر المستطير من أثر فرّقَ كلمة الأمة العربية الاسلامية وجنى عليها ما لا تزال تعاني منه حتى اليوم ؛ ونعتقد أن « قحطان » و « عدنان » اخوان ينتميان إلى أصل واحد ، وأن اسماعيل وأباه ابراهيم عليهما السلام ، ومن قبلهم ممن في جنوب الجزيرة أو شمالها أو شرقها أو غربها كانوا كلهم عرباً ، وأبناءً لعرب ، وآباءاً لمن قطن شبه الجزيرة في جميع أصقاعها ومنذ العصور السحيقة . وليس هذا بدعاً من القول نعتسِفُه بل إن كثيرين قد ذهبوا إليه . والآية الكريمة ﴿**مِلّة أبيكم ابراهيم**﴾ والحديث « كل العرب لاسماعيل » وقصة

عبد المطلب و « سيف بن ذي يزن » في وفد التهنئة على ذلك برهان ودليل .

ولو أن أخبار شعراء اليمن وأدبائها قد وصلت إلى من أرخ للأدب العربي وكتب عنه ممن كان في بغداد أو دمشق أو غيرهما قديماً وحديثاً لما صحّ لنا أن نقسِّم الأدب العربي إلى آداب أقطار شتى ولكانت لغةُ العروبة قد ضمتهم جميعاً في إطارٍ واحد غير أن ما لحق بأبناء الجزيرة العربية والأقطار التي تنطق لغتها من شتاتٍ وتفرق قد جعل الأخ يجهل آثار أخيه ولا يعلم عنه شيئاً ، وقديماً حين وصل الشاعر « عمارة اليمني » إلى مصر سأله أدباؤها أن يحدثهم عن شعراء اليمن وعن أخبارها فكتب لهم مختصره المشهور في تاريخ اليمن ونبذة عن شعرائها المشهورين في عصره . . ثم جاء الدكتور طه حسين خريج جامعة القاهرة والأزهر الشريف ، وجامعات باريس ، فادّعى انه لم يكن للأمة اليمنية لا شعر ولا أدب ، لا في الجاهلية ، ولا في صدر الاسلام وذلك يجانف الصواب كما سترى .

وإذن ؛ فهدفنا هو التحدّث عن « آداب اليمن » البحتة الخالصة ، من آثار من عاشوا في اليمن ومّما لم يتسنّ لأدباء العرب في الأقطار الأخرى الاطلاع عليه ، أو من الآثار الأدبية لمن لم يهاجروا من اليمن الّا بعد أن لمعت أسماؤهم أدبيّاً في سمائها ـ فهم ولا شك يمانون طبعاً وأدباً ـ حتى ولو ادّعى المتعصبون من النسّابين لهم نسباً آخر .

موقف الهمداني ومقلديه
من آداب المهاجرين

لما قال الهمداني في قصيدته « الدامغة » مفاخراً

ومـنّـا كل ذي ذرب خطيـبٍ ومـنـا الـشـاعـرون المفلقـونـا

***

سرد في شرح البيت إلى جانب خطباء اليمن المشهورين في الجاهلية وصدر الاسلام كالأسود العنسي وأبو حمزة الشاري الكثير من خطباء الأنصار ، وخالد القسري واضرابهم ممن لم يولدوا في اليمن وربما لم يعرفوها ولا ينتمون إليها إلاّ بصلة نسب عتيقة قديمة ، وأورد أيضاً ضمن شعراء اليمن أناساً ولدوا ونشأوا في العراق أو الشام أو الحجاز وليسوا بيمنيين ولادة ونشأة وثقافة واستيطاناً ؛ فإلى جانب امرؤ القيس بن حجر ، وعمرو ابن معدي كرب ، وفروة بن مسيك ، ومالك بن حريم ، وابن برّاقة وأمثالهم جعل من شعراء اليمن حاتم الطائي ، وقيس بن الخطيم ، وأبو زبيد الطائي ، وحسان ابن ثابت وأولاده ، وحكيم بن عيّاش ، وعبد الله ابن رواحة الأنصاري وسائر شعراء الأنصار إلى أعشى همدان ، وجميل ابن معمر العذري ، وعروة ابن حزام وعديّ بن الرقاع ، والطرماح إلى عشرات ممن لا شك في أنهم يمتون بعرق نسب إلى يعرب وقحطان وهاجر أباؤهم الأوّلون بعد خراب السدّ وتفرّقوا أيدي سبا بل وختم كلامه قائلا :

« ثم شعراء الدولة فما لأحد من الشعراء منهم نصيب مثل أبي نواس ، ومسلم بن الوليد وابني أبي عيينه وأبي الهول الحميري ، وأبي تمام ، والبحتري ، وأصرم ابن حميد ، وطاهر بن الحسين ، ودعبل بن علي ، وأبي الشيص ومن بينهم من اليمانية فهؤلاء من أراد بقوله الشاعرون المفلقون على غير نسق المراتب ولكن على ما حضر » كتاب قصيدة الدامغة ص : ٥٤٩ - ٥٥٠ - إلى ص : ٥٥٦ .

المزايدات التاريخية :

ذلك ما قاله أبو محمد الحسن الهمداني والتزمه في كتبه فهو يحتسب كل من ينتسب عرقاً إلى أصل « قحطاني » وقال شعراً من شعراء اليمن ، حتى ولو كان وكان أبوه وجده قد ولدوا ونشأوا وعاشوا مئات السنين في العراق أو الشام أو فارس ولم يعرفوا اليمن ولا اتخذوها داراً كالمناذرة والعساسنة والأوس والخزرج بل وحشر بينهم أبا نواس وأبا تمام والبحتري ولا أريد أن أؤكد ان هذا النهج والتزيد ظاهر البطلان . إذ لو كان الأمر كذلك لتناهبت أمم الأرض أدباء وعلماء وشعراء الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكان الأدب الأندلسي قديماً ، بل و « الأسباني » حالياً أدباً يمنياً ، ولم يكن لفارس أدب ولا شعر الاّ ما كان قبل الاسلام حتى ولو كان باللغة الفارسية لأن بين « آياتها » وعلمائها وشعرائها من لا يعرف العربية وهم ينتسبون إلى « قحطان » أو « عدنان » بل وإلى عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضى الله عنهما .

وإذا كان لأبي محمد الهمداني عذرٌ يسوغه عصره ومصطلحات زمنه في القرنين الثالث والرابع الهجريين والروابط الدينيّة واللغوية لا تزال قوية متينة أو على الأقل أكثر قوة ، وأشد متانة منها في عصرنا بين البلدان العربية والاسلامية جنوباً وشمالاً ، وشرقاً وغرباً ، وفي الأصقاع الطويلة العريضة ، والمساحات الشاسعة التي تحتلّ الفراغ ما بين السند والأندلس ، وكان يومئذٍ شاعر أي قطرٍ من أقطارها هو شاعر الجميع ، وعالم أيّ بلدٍ منها هو عالم جميع أبنائها ، والعالم والأديب والشاعر والمؤرخ والسائح منهم يستطيع أن يتنقل بحرية ودون « جواز سفر » بين تلك الأصقاع ، والكِتاب العربيِ الصادر من أي قطر ، وفي أي فن من الفنون شعراً أو نثراً هو كتاب كلّ العرب وكل

المسلمين ، ولا رقابة على تنقّله هنا وهناك ، ولا ميزان للحسن والقبح ، غير النقد المنطقي من قِبل العارفين على اختلاف المشارب والأمزجة والنوازع والأغراض ؛ وكان النّاس يتعارفون ويتآلفون جماعات وأحزاباً ، ويختلفون ويتقارعون ويتجادلون متأثرين بما كانوا يسمونه « العدنانية » و « القحطانية » أو « النزارية » و « القيسية » و « اليمانية » وإذا حلّوا في بلد ما من أرض الله سمّوا أحياءهم بأسماء الأحياء التي نزحوا منها . . أقول اذا كان كل ذلك من المسوّغات لمثل الهمداني أن يقسّم الشعر والأدب ذلك التقسيم فلا مسوّغ ولا مبرّر له اليوم في العصر الذي نحياه والظروف التي نعيشها . . ونستغرب أن يقرّه ، أو أن لا ينبّه إلى غرض الهمداني بهذا التعميم محقّق الكتاب القاضي العلامة محمد الأكوع بل وان يقول معلقاً « وممن جاء بعد المؤلف أبو الطيّب المتنبي أحمد بن الحسين الجعفي ، وأبو العلاء أحمد بن عبد الله التنوخي وغيرهما ، وطاهر بن الحسين هو القائد المشهور والرئيس الكبير الذي قضى على محمد الأمين ابن الرشيد وقد كان شاعراً وأميراً ومنشئاً وعهده لابنه عبد الله بن طاهر « الخزاعي » ! مما يتفاخر به البلغاء ، كما ان الهمداني لم يذكر الشعراء داخل اليمن » ! لأن مثل هذا الكلام يوحي بأن الشاعر والأديب الذي ولد وعاش والده وجدّه وأباؤهم مئات السنين في « مصر » أو « تونس » أو « فارس » أو « الشام » اذا ما كان جدّه الأعلا ينتسبُ إلى « خزاعة » أو « جعف » أو « تنوخ » أو « طيّ » فهو يمنيّ الشعر والأدب ، أو أن الشاعر أو الأديب الذي هاجر جدّه قبل قرون من « الحبشة » أو « الهند » أو « الشام » إلى « زبيد » أو « إريان » أو « صنعاء » أو « صعدة » أو « عدن » أو « ذمار » أو أي مدينة يمنيّة ، واستوطنها ابناؤه وأحفاده وامتزجوا بالأرض وناسها تزاوجاً وتقاليد ومعارف وعاشوا فيها مئات السنين لا يعدّ شعر أحدهم أو أدبه أو فنّه من آداب وشعر وفنون اليمن !

ولم يكن « الهمداني » بين القدامى ـ وله مسوّغاته التي أشرنا إلى بعضها ـ ولا « القاضي الأكوع » من المتأخرين ـ ولا مسوّغات له ـ هما الوحيدان اللذان سلكا هذه الطريقة وتشبّثا بمثل هذا التزيّد اللاّعلمي ؛ فان هناك من فاقهما ، ومن أغرق في دعاويه العريضة فجعلوا جلّ شعراء العرب الذين تناسلوا من أبناء اليمنيين الذين كانوا ضمن جنود الفتح الاسلامي في مصر

والمغرب والأندلس بل وفي السند وفارس وتركيا من شعراء اليمن وحتى ولو بلغات غير عربية وهو ما لا يقرّه علم ولا منطق .

وهـذا التفـاخر والتزيّد الباطل هو الذي شجّع الكتاب الناشىء محمد حسـين الـفـرح على أن يختلق لليمـن ملوكـاً و« أمـراء مؤمـنـين » و« إمبراطوريّات » و« امارات » في سائر أصقاع العالم الاسلامي ، ويطبع معظم حركات الخوارج والثوار في عهد بني أمية والعصر العباسي . وبالطابع الاقليمي اليمني ؛ ملقباً عبد الرحمن بن الأشعث العراقي المولد والنشأة والأدب بأمير المؤمنين اليمني ، ووارث تاج تبّع ، ومنكراً لوجود الصحابي الجليل الشهيد حجر بن عدي ، وللشـاعر الكبير أبي بصير أعشى قيس الصنّاجة « ميمون بن قيس » ، وجاعلا كل البطولات الاسلامية التي قام بها أحفاد المهاجرين من المناذرة والغساسنة ، والأوس والخزرج ، والكوفيين والبصريينّ ، من حسـاب تاريخ اليمن الأدبي والسياسي والاجتـماعي مستسهلا وجود الأخبار المفصلة في كتب ابن الأثير وابن جرير والأغاني واضرابهـا عن أولئـك الـرجـال وانتسـابهم إلى « كنـدة » أو « جعف » أو « خزاعـة » أو « بحتر » في حدود نظرةٍ اقليمية ضيقة ، وذلك ما نحذّر الكـاتب وأمثاله من طلبة العلم وعشاق المعرفة منه مؤكّدين لهم ان تراث اليمن الأصيل في غنى عن مثل ذلك التزيّد الذي لا يثبت علمياً ولا تاريخياً .

كما أني ـ والشيء بالشيء يذكر ـ لا بد أن أشير إلى أولئك الكتّاب من أبناء الدول العربية غير الجمهورية العربية اليمنية والذين يتخذون موقفاً معاكساً من هؤلاء المفـاخـرين « المتـزيّدين » فينفسون على اليمن أن ينتسب إليها شعراء وعلماء وأدباء ولدوا بعد آبائهم ونشأوا وتعلموا وتثقفوا فيها واستوطنوا « صعـدة » و« تعـز » و« صنعاء » وذلك لأن بلادهم ليست الآن ضمن الحدود المعروفة سياسياً التابعة للجمهورية العربية اليمنية وقد اعترض عليّ أحدهم ـ وهو من آل الحازمي ـ حين حشرت الشاعر الكبير الذي كان شاعر الامـام أحمـد بن الحسين في « صنعاء » ثم شاعر الملك المظفر الرسولي في « تعـز » خلال القـرن السابع الهجري بين شعراء اليمن ، وهو من أبناء المخلاف السليماني ، وهؤلاء الذين يقفون هذا الموقف الذي لا يقرّه العلم ولا التاريخ أيضاً انما وقعوا فيما وقعوا فيه إما تعنّتا ، أو أنهم لا يفرّقون بين

الانتساب الجغرافي السياسي والانتساب الجغرافي الطبيعي ، وعليهم أن يرجعوا إمّا إلى كتب البلدان ومعاجمها المشهورة المعروفة ، أو أن يفقهوا ما يعلمه طلاب المدارس الابتدائية من الفرق بين جغرافية البلد ـ أي بلد ـ الطبيعية وجغرافيتها السياسية ! هذا من جهة ومن أخرى فنحن كعرب نودّ أن تكون كل الدول العربية دولةً واحدة ، وإذا قلنا هذا يمني فمعنى ذلك انه عربي اللغة والمشاعر والسياسة لا فرق بينه وبين المصري والعراقي والسعودي والمغربي جنساً ولغة وأدباً .

ونحن قبل ذلك ، وبعد ذلك مسلمون ؛ نود أن تجتمع كلمة المسلمين أينما كانوا ، تحت راية القرآن ، وشعار « لا اله إلاّ الله محمد رسول الله » ، وفي ظل دولة واحدة ؛ آدابها لا تفرق بين أي مسلم ومسلم في أي صقع من أصقاع العالم .

من شعراء المهاجر

نعم ؛ لقد ألزمت نفسي ، أن لا أتحدّث في كتابي هذا إلاّ عن اليمني النشأة والمولد والثقافة ، أو من لم يهاجر من اليمن إلاّ وقد عرف بالعلم والأدب ، أو ذلك الذي حل في أرضها أو هاجر إليها طفلا وتهذب وتخرّج من معاهدها واستوعب آدابها وتقاليدها فأصبح يمنيّ اللسان والجنان والثقافة والوجدان .

ولأن هناك من الأدباء والشعراء من وردت أسماؤهم وآثارهم وأخبارهم في المؤلفات والموسوعات العربية المشهورة لغير اليمنيين كطبقات الشعراء لابن المعتز ، ومعجم الشعراء للمرزباني ، والمحمدون من الشعراء للقفطي ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والشعر والشعراء لابن قتيبة وغيرها من كتب التراجم والأدب والمختارات الشعرية وبعضهم ممن نشأ وعاش في اليمن ، والبعض ينتمون إليها نسباً وعرقاً . فمن كان منهم يمنيّ الدار والنشأة فسأذكرهم وأترجم للأفذاذ منهم سواء ظلوا في اليمن ودفنوا في ترابها أو ساحوا وهاجروا في « أرض الله الواسعة » ، واستبدلوا أهلا بأهل وجيراناً بجيران ، ومن كانت صلتهم نسبة قديمة من قبل الاسلام فلن أتعرض لهم ؛ وثمة آخرون لقبهم العلماء والمؤرخون « باليمني » و« الحميري » أو

نحو ذلك مما يشعر أنهم من اليمن ، ولم أكن على علم أو معرفة تثبت أو تنفي أو تبينّ ان ذلك اللقب أو النبز جاء ونشأ عن ولاء أو دعوى عرق أو صلة نسب عتيق ، ولا أستطيع الجزم بأنهم لم يولدوا ، أو كانت نشأتهم الأولى في اليمن ثم هاجروا كباراً واشتهروا في البلدان التي استوطنوها ؛ فهؤلاء سأضطر إلى ذكرهم وأترجم للبعض منهم ؛ وأذكر شكّي وتردّدي ، لكي لا أحيد عن النهج الذي التزمته وفي نفس الوقت لا أفرّط في محاولة الشمول والاحاطة بما أتمكّن من الاحاطة به من آداب اليمن في العصر العباسي وسأستعين بذكر خمسة من مشاهيرهم :

١ ـ محمد بن مناذر العدني

ت ١٩٨هـ / ٨١٤م

ما كان لي أن أذكره بين شعراء اليمن وان أعنى بترجمته ، وأخباره معروفة مشهورة مسجّلة في كتب الأدب القديمة والحديثة ؛ ولم يحك أحدٌ أنه قد تعلّم ونشأ في إحدى مدن اليمن أو أنّه مدح أو راسل أحد رجالاتها في عصره الذي نؤرخ لآدابه .

ولولا أن « ابن المعتز » في « طبقات الشعراء » قال في ترجمته له : « كان محمد بن مُناذر من أهل عدن ، وكان وقع إلى البصرة لكثرة العلماء والأدباء بها فمازال يلزم أهل الفقه وأصحاب الحديث والأدب حتى بلغ من ذلك أقصى مبلغ » فدلّ على أنّه قد هاجر من « عدن » إلى البصرة في سبيل طلب العلم والأدب ونظنه ما فكر في ذلك إلا وقد بلغ مبلغ المتأدّبين النجباء الذين لا يشبعون من الاستزادة في كسب المعارف . . . لما حشرتُه بين أدباء وشعراء اليمن .

وبعد « ابن المعتز » جاء أبو الفرج الاصفهاني فتحدّث عنه وروى الكثير من أخباره في « الأغاني » وقال : « كان بن مُناذر من أهل « عدن » وانما صار إلى البصرة في طلب الأدب لتوافر العلماء فيها فأقام مدة ثم شغل بعبد المجيد ابن عبد الوهاب الثقفي فتطاول أمره إلى أن خرج عنها وكان مقيماً بمكة فلما مات عبد المجيد نسك ؛ وقوم يقولون انه كان دهرياً » .

وروى الاصبهاني أيضاً عن الأخفش عن محمد بنِ يزيد النحوي قال : « كان ابن مُنـاذر مولى صبير بن يربوع ، وكان إماماً في علم اللغة وكلام العرب وكان في أوّل أمره ناسكاً ملازماً للمسجد كثير النوافل جميل الأمر إلى ان فتن بعبد المجيد ابن عبد الوهاب الثقفي فتهتك بعد ستره ، وفتك بعد نسكه ، ثم ترامى به الأمر بعد موت عبد المجيد إلى أن شتم الأعراض ، وأظهر البذاء وقذف المحصنات ووجبت عليه حدود ، فهرب إلى مكة وبقي بها حتى مات » قال : « وأدرك المهدي ومدحه ومات في أيام المأمون » .

وأما « ابن المعتز » فقال مشيراً إلى افتنانه بعبد المجيد الثقفي : « وكان على ستر وصلاح وحلم ووقار إلى أن اشتهر بعبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي ثم خرج إلى مكة بعد موت عبد المجيد وأقام بها » ، وبعد أن ذكر بعض أخباره الظريفة قال : « ومرثيته في عبد المجيد قد سارت في الدنيا ، وذكرت في المراثي الطوال الجياد ، وهي فحلة محكمة فصيحة جداً ، وقد عارض بها أبا زُبيد الطائي ويقال انه قال لأبي عبيدة : احكم بين القصيدتين واتق الله ، ولا تقل ذاك متقادم الزمان ، وهذا محدث متأخر ، ولكن أنظر إلى الشعر واحكم لأفصحها وأجودهما ؟ » وأول القصيدة :

كل حيّ لاقى الحمام فمودي ما لحيّ مؤمل من خلودِ ،
لا تهاب المنون شيئاً ولا تبقي على والدٍ ولا مولودِ

***

ومنها :

ولو أن المنون أخلدن حيّاً	لعلاءٍ ؛ أخلَدْن عبد المجيدِ
ان عبد المجيد يوم تولّى	هد ركننا ما كان بالمهدودِ
ما درى نعشه ولا حاملوه	ما على النعش من عفافٍ وجودِ
غيّبوا في الصعيد حزماً وعزماً	ولَزَازَ الخصْم الألدّ العنيد
ويح ايدٍ حثت عليه وأيد	غيّبته ؛ ما غَيّبت في الصعيد
هدّ ركني عبد المجيد ، وقد	كنت بركن منه - أبوء - شديد
فبعبد المجيد تامور نفسي	عثرت بي ؛ بعد انتعاش جدودي
فاذا ما ذكرته عرضت لي	غصّة في اللّها وحبل الوريد
وكأني أدعوه وهو قريبٌ	حين أدعوه من مكان بعيد !

فلئـن كان لا يجيـب فقـد كان سمـعـيـاً هشـاً إذا هو نودي
يا فتـى كان للمقـامـات زينـاً لا أراه في المـحـفـل المشهـود
ختنُـك الـودَّ لم أمت جزعـاً بعـد فانّـي عليـك حـقّ جليـد
غير اني أبـكـيـك ما حنّـت الـنّـيـب ، وحُثت عيرانـةٌ بقيـود
لو فدى الحـيّ ميـتـاً لفـدت نفـسَـك نفسي وطـارفي وتـليـدي
فبـكـرهي كنت المعجّـل قبـلي ، وبـرغـمـي دلّـيت في ملحـود ،
كنـت لي عصـمـة ، وكـنـت سماء بك تحيـا أرضي ، ويخضرُّ عودي

***

والقصيدة طويلة جداً ، وهي من عيون الشعر العربي وقد أورد له « ابن المعتز » عدّة قطع وقـال: وابن مُنـاذر من حذّاق المحـدثـين ومـذكوريهم وفحـرلهم » ، وأمـا أبـو الفرج فقد ساق الكثير من أخباره وهزله ومجونه ، ويخـامـرني الشـك في بعض الحكايات التي تروى عنه وعن تعلّقه بالفتى عبد المجيد الذي وصفه في مراثيه بصفات تدل على انه كان عالي الهمّة ، عفيفاً جواداً لزازاً للخصم الألدّ العنيد . وكان بينه وبين الشاعر أبي نواس مودّة وله معه أخبار .

وقد أجمع الرواة انه كان إماماً في اللغة والحديث ، وقصّته مع الشاعر أبي العتـاهية تدل على انه كان ناقدا وذا ذوق رفيع فقد اجتمع به ، فقال أبو العتاهية كيف أنت في الشعر ؟ قال : أقول في الليلة إذا سنح القول واتسعت القوافي عشرة أبيات إلى خمسة عشر . فقال له أبو العتاهية : لكني لو شئت أن أقول في الليلة ألف بيت لقلت ؛ فقال ابن مُناذر : أجل والله إذا أردت أن أقول مثل قولك : ألا يا عتبة السّاعة أموت الساعة السّاعة قلت ؛ ولكني لا أعـوّد نفسي مثل هذا الكلام الساقط ، ولا أسمح لها به ، فخجل أبو العتاهية وقام يجرّ رجله .

وقـول « إبن مُناذر » : لا أعوّد نفسي ولا أسمح لها بمثل هذا الكلام الساقط ؛ يعطينا درساً في علم البلاغة وفن ممارستها ، ومزاولة أساليبها فمن يترفّع عن تسجيل لغو الخواطر والأفكار ، ويزجر نفسه عن الانصياع لما ينزو منها ، ولا يتحرّى التأنق البياني ، وانتقاء الألفاظ المناسبة ، ويسمح ليراعه

ولسانه بتحبير وترديد ما لا يليق منها . . يألف ذلك ويتعود عليه ، ومن يزجر نفسه ، ويترفع عن الرذل الساقط من الكلام تنمو ملكته البيانية وتمرن وتتعود على الجزل الجيّد الرفيع شعراً ونثراً .

كما انّ طلب « ابن مُناذر » من « أبي عُبيدة » ان يحكم بين مرثاته ومرثاة « أبي زبيد الطائي » على أساس النظر إلى الشعر وليس الى تقادم أو تأخّر الزمن ، يدلّ على براعته النقدية ، وسمو ذوقه البياني ، وأنّه ممن يجعل الجودة في التصوير والتعبير شرطاً أساسيّاً في الحكم على البيان ، والمقارنة النقدية بين أثرين ؛ ويؤكد ذلك ما رواه أبو الفرج عن الأصمعي قال : حضرنا مأدبة ومعنا خلف الأحمر وحضرها « ابن مُناذر » فقال لخلف الأحمر : ان يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلّدة فقس شعري إلى شعرهم واحكم فيها بالحق ، ويدلّ على وضوح الرؤية النقدية عند « ابن مُناذر » على هذا الأساس ما روي أيضاً في الأغاني عن حمّاد الأرقط قال : « لقيني « ابن مُناذر » بمكة ، فأنشدني قصيدته : « كلّ حيّ لاقي الحمام فمودى » ثم قال : اقرىء أبا عبيدة السلام وقل له : يقول لك « ابن مناذر : اتق الله واحكم بين شعري وشعر عديّ بن زيد ولا تقل ذاك جاهلي وهذا اسلامي ، وهذا محدث وذلك قديم ، فتحكم بين العصرين ، ولكن احكم بين الشعرين ودع العصبيّة » . . ! وهذه نظرة سليمة وهي تفنّد اللغط القائم الآن في معركة « الجديد والقديم » .

ومن جيّد الشعر قوله :

قد تُقْطَع الرحم القريب ، وتكفر النعمى ، ولا كتقارب القلْبَيْنِ
يدنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى فاذا هما نفس ترى نفسَيْنِ

***

وقال يرثي سفيان بن عيينه :

ان الذي غودر بالمنحنى هدّ من الاسلام أركانا
يجني من الحكمة نوّارها ما تشتهي الأنفس ألوانا
راحو بسفيان على نعشه والعلم مكسوّين أكفانا
يا واحد الأمة في علمه لقيت من ذى العرش غفرانا
لا يبعدنك الله من هالك ورثتنا علماً وأحزانا

عمره ووفاته

لم يذكر ابن المعتز ، ولا أبو الفرج عام ولادة « ابن مُناذر » لكنّنا نستطيع أن نستنتج من قصيدته التي مدح بها الخليفة هارون الرشيد والتي منها هذه الأبيات :

هل عندكم رخصةٌ عن « الحسن البصري » تروى، أو «ابن سيرينا» ؟
انّ سفاهاً بذي الجلالة والشيبة الاّ يزال مفتوناً !
لبست ثوب الصبا وبارقة وقد مضت من سنيّ « ستونا »
لما رأينا « هارون » صار لنا الليل نهاراً بضوء « هارونا » !
فلو سألنا بحسن وجهك يا هارون صوب الغمام .. سُقّينا

***

انه ولد في العقد الأول من القرن الثاني أواخر العهد الأموي لأن الرشيد تولّى الخلافة سنة ١٧٠هـ /٧٨٧ م والشاعر قد قال في قصيدته أنه قد بلغ الستين ؛ « وقد مضت من سنيّ ستّونا » . . وأما وفاته فنحن نعلم انه قد أدرك « المأمون » وقد صرح بذلك أبو الفرج في الأغاني في رواية عن النوفلي قال : رأيت ابن مُناذر في الحج سنة ثمان وتسعين ومائة ـ ١٩٨ ـ وهو قد كف بصره تقوده جويرية حرّة وهو واقف يشتري ماء قربة فرأيته وسخ الثوب والبدن فلما صرنا الى البصرة أتتنا وفاته في تلك الأيام .

فهو إذن قد توفي عام : ١٩٨هـ /٨١٤ م في عقده العاشر ، وبعض ما ورد من حكايات عن دهريته وزندقته ينفيها ما رواه أيضاً أبو الفرج في الأغاني قال « حدثنا خلّاد الأرقط قال تذاكرنا ابن مُناذر في حلقة يونس فقدح فيه أكثر أهل الحلقة حتى نسبوه إلى الزندقة فلما صرت في السقيفة التي في مقدّم المسجد سمعت قراءة قريبة من حائط القبلة فدنوت فاذا ابن مُناذر قائم يصلّي فرجعت إلى الحلقة فقلت لأهلها : قلتم في الرجل ما قلتم وها هو ذا قائم حيث لا يراه إلاّ الله عز وجل » . أنظر : طبقات ابن المعتز والأغاني ج : ١٧ والشعر والشعراء .

٢ ـ محمد بن عبد الله العرزمي

من شعـراء أوائـل القـرن الثاني الهجري وقد ذكره المرزباني في معجم الشعراء فقال :

أبـو بكـر العـرزمي من اليمن من حضرمـوت كوفي أدرك أوّل الـدولة العباسية وجل شعره آداب وأمثال وهو القائل :

أرى عاجـزاً يدعى جليـداً لغشمـه ... ولـو كلّف التقـوى لكلّت مضـاربُهْ
وعفّـاً يسمّى عاجـزاً لعفـافـه . . ... ولـولا التقى ما أعجـزتـه مذاهبُـهُ
وليس بعجـز المـرء إخطاؤه الغِنى ... ولا باحتيـال أدرك المـال كاسبـه

***

وله :

ان يحسـدوني فاني غير لائـمـهـم ... قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسدوا
فدام لي ولهـم ما بي ومـا بهمُ ... ومـات أكـثـرنـا غيـظاً بما يجدُ

***

وفي طبقات الشعراء لابن المعتز أورد الثلاثة الأبيات البائية ضمن قصيدة نسبها إلى الشاعر صالح بن عبد القدوس . ولم يترجم له القفطي في كتابه « المحمّدون من الشعراء » ؛ وقول المرزباني « كوفي » لا ندري هل قصد انه « كوفي » المولد أم انه هاجر من حضرموت إلى الكوفة .
معجم الشعراء ص : ٣٥١ .

٣ ـ محمد بن زياد بن عبد الله الحارثي

من شعراء العصر العباسي الأوّل محمد بن زياد الحارثي وهو من أولئك الذين لا ندري هل كانت نشأتهم الأدبية في اليمن أم هم من أبناء المهاجرين أيام الفتوحات الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ثم استوطنوا العراق ؛ وقد ترجم له القفطي في كتابه « المحمدون من الشعراء » فقال : « شاعر مشهور ، خلّد إسمه في المجاميع » فمن قوله :

تخالهـمُ للحـلم صمّاً عن الخـنـى ... وخـرسا عن الفحشاء عند التهاجر
ومـرضى إذا لوقـوا حيـاءً وعفـةً ... وعنـد الحفـاظِ كالليـوث الخـوادر

لهم ذل انصاف ، ولين تواصل ، بذلّهم ذلّت رقاب المعاشرِ
كأن بهم وصماً يخافون عاره وما وصمهم إلّا اتقاء المعايرِ

***

وقد أورد القفطي في ترجمته حكاية ظريفة تشير إلى منزلة الشعراء المحترفين عند الخلفاء ، وانّهم كانوا يجلّون من ينيطون بهم شئون الدولة عن أن يقيموا أنفسهم مقام الشعراء ؛ قال القفطي :

« قال سعيد بن هريم عن يحيى بن خالد كان الرشيد يرسل إلى أصحابه فيسامرونه ويحدّثونه ، وكان فيهم محمد بن زياد بن عبد الله الحارثي ، وكان ذا لسان وبيان وكان الرشيد يحبّه لذلك مع ما كان يرعى له من حقّ الخؤولة ، قال : فأتاني يوما فخلا بي وقال : اني قد قلت شعراً في أمير المؤمنين ولقد عزمت على انشاده ليلة إذا دخلت اليه ، فأحبّ أن يرى قدري عنده . قلت لا تفعل ، فان قدرك عند أمير المؤمنين أعظم من حِيَاكِ الشعر . فخرج من عندي فأتى يزيد بن مزيد ـ وكان بين يزيد ابن مزيد وبين يحيى تباعد ـ فخبّره ما جرى بيني وبينه ، واني نهيته عن الشعر ، فقال : بل أرى أن تفعل ؛ وقال : ما ليحيى والشعر هذا من بغضه للعرب ؟ فحضّه على أن يدخل على الرشيد وينشده الشعر . فدعا به الرشيد يوماً مع من كان يدعو وأنا حاضر ، فقال : يا أمير المؤمنين اني قلت شعرا فيك ، فان رأيت أن تأمرني بانشاده فعلتُ ، فقال له الرشيد : ما لك عندنا أكبر من الشعر ! فلا حاجة لك ، فأبى الاّ مسألته الأذن له في ذلك . فلمّا ألحّ ، قال له : هاته ! ثم أنصت له فقام مقام الشاعر ، وكان إذا مرّ الشيء الحسن والمعنى الجيّد قال له : أحسنت كما يقول للشعراء ، حتى فرغ ؛ فلما نهض أقبل الرشيد على يحيى بن خالد وقال : قد كنت أثق بهذا الرجل ، وأرعى له خؤولته ، وأحدث نفسي أن أولّيه اليمن ، ثم أقول اليمن لها قدر ولكن أولّيه اليمامة فانها بلد عربي وهي شبيهة باليمن وامتحنه باليمامة فان وجدت عنده ما أحبّ رفعته إلى اليمن ؛ فلما أقام نفسه مقام الشعراء سقط من عيني فاعطه ثلاثين ألف درهم لشعره » .

وهذه قصة طريفة . ولن نفهم سرّ سقوط محمد بن زياد من عيني الخليفة هارون الرشيد إلاّ إذا تذكّرنا ان « مقام الشاعر » عندما كان ينشد الشعر في

مجالس الخلفاء والأمراء أو في المحافل كان « مقاماً » خاصاً وكان الشعراء يتميزون عن غيرهم بسيماء معروفة ولهم هيئة في الانشاد استمرت من أيام الجاهلية حتى أواخر العهد العباسي .

وقد وصف حالات تلك « الهيئة » وغرابتها الجاحظ والمرتضى والأصفهاني وغيرهم وعقد الأستاذ مصطفى صادق الرافعي لذلك فصلا في كتابه « تاريخ آداب العرب » ج - ٣ - ص : ٣٤ - ٣٨ .

ومن هذه الحكاية الظريفة نستنتج أيضاً أهميّة « اليمن » عند الرشيد ، وكبر قدرها في نفسه حتي أنّ « اليمامة » وكانت ولايتها في العهد العباسي تشمل كل نجد ليست إلّا كامتحان للوالي يرتفع بعدها إذا أحسن إلى ولاية اليمن .

وقد ذكر محقّق كتاب « المحمدون » ان للشاعر الحارثي ترجمة في « الوافي » : ٣ - ٦٩ - وقال وسنة وفاته غير مذكورة غير انه كان معاصرا للخليفة الرشيد ؛ فهو إذاً من شعراء أواخر القرن الثاني الهجري . المحمدون من الشعراء : ص : ٣٣٠- ٣٣١ .

٤ - محمد بن يسير الحميري

وهذا شاعر عاصر أبا نواس وله معه أخبار وقد قال البعض انه مولى لبني سدوس ؛ وقيل هو مولى بني هاشم وزعم آخرون انه من جذام وسمّاه المرزباني في معجمه محمد بن يسير الرياشي ص : ٣٥٣ وفي الوافي : ٢ : ٢٥١ انه محمد بن بشير ولم يذكر سنة وفاته ، وأما في كتاب الورقة فقد سماه « محمد ابن يسير الحميري » وشأنه شأن الحارثي والعرزمي واضرابهما ممن لا نستطيع أن نحكم هل نشأوا أدبياً في اليمن ولم يهاجروا منها إلّا وهم شعراء . . أم أنهم أمثال آل مفرغ وأعشى همدان والسيد الحميري ؟ .

وقد ترجم له « القفطي في « المحمدون » فقال :

« وهو حكيم الشعر ، فصيح المعاني ، قد سير أمثالاً في شعره ، وكان أزرق أبرش ، وكان يلقّب زريقا وله مع أبي نواس أخبار [ت ١٩٨هـ /٨١٣م] .

فمن قوله :

ماذا يكلفك الرّوحات والدّلجا ... البرّ طوراً ، وطوراً تركب اللّججا
كم من فتىً قصرت في الرزق خطوته ... ألفيته بسهام الرزق قد فلجا !
ان الأمور إذا انسدّت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كلما ارتتجا
لا تيأسنّ وان طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته ... ومدائم القرع للأبواب ان يلجا
أبصر لرجلك قبل الخطو موضعها ... فمن علا زلقا عن غرّةٍ زلجا
ولا يغرنك صفو أنت شاربه ... فربما صار بالتكدير ممتزجا !

***

ومن جيّد شعره قوله :

ويل لمن لم يرحم اللّهُ ... ومن تكون النار مثواهُ
من طلب الدنيا ولذّاتها ... وعاش فالموت قصاراهُ
كأنه قد قيل في مجلس ... قد كنت آتيه وأغشاهُ
صار البشيري إلى ربه ... يرحمنا اللّه وإيّاهُ !

***

وله :

لأن ازجّي عند العري بالخلَق ... واجتزي من كثير الزّاد بالعلق
خير واكرم لي من أن أرى مننا ... معقودة للئام الناس في عنقي
إني وإن قصرت عن همتي جدتي ... وكان مالي لا يقوى على خلقي
لتارك كل أمر كان يُلزمُني ... عاراً ويشر عني في المنهل الرنقِ

***

وهو القائل :

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلاً ... وأصبحت في يوم عليك شهيدُ
فان تك بالأمس اقترفت اساءة ... فثن باحسان وأنت حميدُ
ولا تُرجِ فعل الصالحات إلى غدٍ ... لعل غداً يأتي وأنت فقيدُ

« المحمدون من الشعراء » ص : ١٦١ ـ ١٦٢ .

٥ ـ محمد بن وُهيب الحميري

وهناك شاعر حميريّ آخر اشتهر في العراق ومدح المأمون والمعتصم ولا ندري أيضاً هل « حميريّته » التي تربطه باليمن « حميريّة » نشأة وحياةٍ وتأدّب أم هي فقط « حميريّة » نسب قديم وعرقٍ عتيق وهو الشاعر المطبوع المكثر « محمد بن وهيب الحميري »؟

ومن سائر شعره قوله :

نراع لذكر الموت ساعة ذكره وتعترض الدنيا فنلهو ونلعبُ
يقينٌ كأن الشك أغلب أمره عليه ، وعرفان إلى الجهل يُنسَبُ
وقد ذمّت الدنيا إليّ نعيمها وخاطبني إعجامها وهو معرب
ولكنّني منها خلقت لغيرها ، وما كنت منه فهو شيء محبّب

***

والبيت الأخير يروى هكذا :

ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها وما كنت منه فهو شيءُ محبب !

***

وله :

ألا رُبّما كان التصبّر ذلةً وأدنى إلى الحال التي هي أسمج
أيا ربّما ضاق الفضاء بأهله وأمكن من بين الأسنة مخرج

***

وله في الخليفة المأمون المتوفي عام ٢١٨هـ /٨٣٣ م

وبدا الصباح كأن غرّته وجه الخليفة حين يمتدحُ
نثرت بك الدنيا محاسنها وتزينت بصفاتك المِدَحُ

***

وكان يقول : أنا ابن قولي :

ما لمن تمّت محاسنه أن يعادي طرف من رمقا
لك أن تبدي لنا حسناً ولنا أن نعمل الحدقا !

معجم الشعراء ص : ٣٥٨

وقد ترجمه ابن المعتز في طبقاته وحكى عنه حكاية مجون ظريفة . ص : ٣١٠ ـ ٣١٣ . طبقات الشعراء .

تعليق وتعقيب :

لقد كانت أحداث هذه الفترة المدلهمة رهيبة بكوارثها وفجائعها . . فمِنَ فظائع معن بن زائدة في حضرموت والتي قال فيها الراجز :

يا معـن من شيبـان أنـت أنـتَ علمت أهـل حضرمـوت المـوتَ

***

ووصفها مروان بن أبي حفصة فقال :

وطئـتَ خدود الحضرميـين وطـأةً لها هد ركـن منهـم فتضعضعـا
فأقعـوا على الأذنـاب إقعـاء معشر يرون لزوم السـلم أبـقى وأودعـا
فلو مدّت الأيـدي إلى الحرب كلهاً لكفّوا ، وما مدوا إلى الحرب اصبعا

***

ولقد خاب ظن « ابن ابي حفصة » فهبّ المغامر المنتقم محمد بن عمرو الحـارثي وتجشّم السفر إلى « سجستان » سنة ١٥١هـ /٧٦٩ م ليثأر لأبيه عمرو بن عبد الله ، ووثب بخنجره المسموم على معن ابن زائدة فبعج بطنه ونجا هارباً إلى حضرموت وهو ينشد :

خرجـت له والـقـلب منيّ كأنّـه تجيش حواشيـه بنـار تضرّم
حللت له وتـري ، ولم اك خائبـا وكـان فؤادي جمرة تتـجـحّـم

***

وكان الأمر كما قال ابن أبي حفصة أيضاً :

فلو أن ام « الحضرمـي » تلفّـعـت بثـوبـين في جنـح من اللّيل دامسِ
لغـالتـك إن شاءت كما غالك ابنها وقـد يقتـل المغرور أضعف لامسِ

***

فإلى « مجزرة » إبراهيم بن موسى التي أوحت إلى الشاعر « القشيبي » بما سبق من القصيد . ثم ثورة القَيل « الهيصم » ونهايته الحزينة حين سيق مع رفاقه إلى الخليفة هارون الرشيد وذبحوا بين يديه كما تذبح النعاج ! إلى اندلاع الحروب القبلية التي سبق ذكر بعض أشعارها وكأنّ كل ذلك ، وما نشب من صراع دام بين « الزياديين » وآل « يعفر » و« الدعام » و« الضحاك » وغيرهم من السلاطين لم يؤد ما كتبته الأقدار من مآسي لليمن فرأى « الاسماعيليون » أو « القرامطة » كما يسميّهم « اليمنيون » أن يتخذوا منها وكراً ومأرزاً ، ومنطلقاً لمطامحهم وانتدبوا الداعيتين « الحسن بن فرج » و« علي بن الفضل » إليها سنة ٢٦٨هـ /٨٨٢ م ؛ ودارت رحى حرب طحون مهّدت لخروج الهادي يحيى بن الحسين إلى اليمن بدعوة من أهلها وكان ما سننتقل إليه في الفترة التالية .

ورغم ذلك فقد اشتهر فيها من الفقهاء والعلماء أفذاذ مجتهدون أمثال القاضي اسحاق الدبري والامام عبد الرزّاق الصنعاني والأديب بشر ابن ابي الكبار البلوي ممن هاجر إلى حلقاتهم ، وتتلمذ عليهم أكابر علماء المسلمين وحسبك أنّ منهم الامام محمد بن ادريس الشافعي والامام أحمد بن حنبل .

كما نبغ فيها من الشعراء أمثال محمد بن ابان وأحمد القُشيبي وابن ابي الطلح ، وبكر بن مرداس وهم يضاهئون ويزاحمون السيد الحميري وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبا نواس .

الحقبة الثانية .. الامامة الهادوية

٢٨٠ ـ ٤٣٩هـ/ ٨٩٤ ـ ١٠٤٨ م

الحقبة الثانية من فترات تاريخ الأدب العربي في اليمن ـ أثناء ما يسمونه العصر العباسي ـ هى المرحلة الرابعة من مراحل تاريخ آداب اليمن العام ؛ والتي سميناها حقبة الامامة الهادوية ، وقد مهّدت لها ـ كما ألمحنا ـ الفترة المدلهمة التي سبقتها بأحداثها الرهيبة ومآسيها الدامية ، وظهور الدعوة الاسماعيلية .

وتبدأ بمبايعة قبائل « صعدة » للامام الهادي يحيى بن الحسين سنة ٢٨٠هـ /٨٩٤ م الذي سرعان ما استولى على « صنعاء » و« يريم » ونشبت بينه وبين عمّال « العباسيين » وبعض « السلطنات اليمنية » ، وبين دعاة الاسماعيلية « الباطنية » معارك ضارية وحروب متعدّدة .

وقد استمرت هذه الحقبة طيلة حياة الهادي وخلفائه من بعده حوالي مائة وستين عاماً إذ لم تنته ـ في تقديراتنا الأدبيّة ـ إلاّ بقيام الملك علي محمد الصليحي سنة ٤٣٩هـ /١٠٤٨ م .

وقد كانت فترة صراع لا بالسيوف والرماح فحسب ، بل وبين الملل والنحل ، والمذاهب العقلية والكلامية : من « اسماعيلية » و« معتزلة » إلى « سنيّة » و« أشعريّة » ، وآراء الفقهاء من أتباع الامام الشافعي والامام زيد بن على أو غيرهما ، بل وبرزت قرون « الدوامغ » والتعصّبات الطائفية

والعنصريّة يتناطح بها شعراء « القحطانية » و« العدنانية » !

وعلماء تلك المذاهب والفرق وأدباؤها وشعراؤها كثيرون ؛ وأخبارهم وآثارهم تزخر بها الكتب اليمنيّة ولا سيما كتب « الهمداني » - ابن تلك الفترة ؛ - و« نشوان الحميري » ، و« عمارة اليمني » و« طبقات الزيدية » الصغرى ليحيى بن الحسين ، والكبرى للقاسم بن ابراهيم ، و« مطلع البدور » لأحمد بن صالح أبي الرجال ، و« سيرة الهادي » لمعاصره « العلوي » و« أئمة اليمن » للسيد محمد زبارة و« الصليحيون » للدكتور حسين الهمداني .

أعلام المؤلفين والكتّاب :

أعلام هذه الفترة ؛ من قادة وأئمة ومؤرّخين وأدباء وفقهاء وشعراء كثيرون كما قلنا ، وسنحاول ذكر الأفذاذ منهم ونؤرخ لبعض آثارهم ومؤلفاتهم .

١ - الامام الهادي

في سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٤ م ذهب وفدٌ من اليمنيين يضم مشايخ وعلماء ووجهاء إلى « الرسّ » قرب « المدينة المنورة » حيث يقيم السيد الشريف يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم الرسي بعيداً عن أنظار « العباسيين » ، وطلبوا منه الخروج معهم إلى اليمن ، وبايعوه إماماً يُصلح ذات بينهم ويقيم أحكام الشريعة الاسلامية ، ويوحّد اليمن ، وينقذها من براثن الفتن .

وقد استجاب لدعوتهم ، ودخل اليمن معهم ، وبعد أن مكث في « صعدة » برهة تمكن خلالها من الاصلاح بين قبائلها ، سار يقود جحفلا جرّارا نحو « صنعاء » . . . ولكنه ما إن وصل إلى « الشرَفَة » من بلاد « نهم » و« بني حشيش » حتى عرف أن بعض أمراء دولته يقترفون بعض المعاصي ، وأن أفراداً من الجند قد عبثوا بالمواطنين ، واغتصبوا شيئاً من ثمارهم ، وعندما أراد تأديبهم تعصّب لهم مشايخهم ؛ فما كان منه إلاّ أن جمع القوم وأعلن « استقالته » وردّ عليهم بيعتهم ، ولما أرادوا صدّه عمّا عزم عليه والاعتذار إليه مما صنعوا أصرّ قائلا : « لن أكون مثل المصباح يحرق نفسَه ويضيء غيره . . . واللّه ما هي إلاّ سيرة محمد أو النار » ! وقفل راجعاً إلى

جبل « الرس » جوار قبر جدّه الرسول الأعظم محمد ﷺ يتعبد ويقرأ ويكتب .

واشتدّ أوار الفتن في اليمن اضطراماً ، ولم يجد زعماء اليمن أو العقلاء منهم محيداً عن التفكير في « الهادي » . . وأيقنوا أن لا خلاص لهم مما يكابدونه من تمزق وشتات وبلاء إلّا بعودته إلى اليمن من جديد ، وانتدبوا وفداً آخر من كبار مشايخهم ، وأفاضل وجهائهم إليه أوائل سنة ٢٨٤هـ /٨٩٨ م يستنهضونه ويبايعونه في « المنشط والمكره » ، وبعد أن استوثق منهم وصل إلى اليمن إماماً للمرة الثانية . . . وقال في كتاب دعوته :

« أيها الناس أدعوكم إلى ما أمرني الله أن أدعوكم إليه ؛ أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فما جاءنا به الكتاب اتبعناه ، وما نهانا عنه اجتنبناه ، وإلى أن نأمر نحن وأنتم بالمعروف ، ونفعله ، وننهى نحن وأنتم عن المنكر جاهدين ونتركه ، أيها الناس اني اشترط لكم على نفسي ؛

الحكم بكتاب الله وسنة نبيّه ؛
والأثرة لكم على نفسي فيما جعله اللّه بيني وبينكم ؛
أوثركم ولا أتفضل عليكم ، وأقدمكم عند العطاء قبلي ؛
وأتقدم أمامكم عند لقاء عدوّي وعدوكم بنفسي .

وأشترط لنفسي عليكم اثنتين :
النصيحة لله سبحانه ولي في السرّ والعلن .
والطاعة لأمري في كلّ حالاتكم ما أطعت الله فيكم ؛ فان خالفت طاعة الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم ، وإن ملت أو عدلت عن كتاب الله فلا حجة لي عليكم « هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

كانت هذه هي بداية « الامامة الهادوية في اليمن » وهذا هو نهج « الهادي » الذي أراد تطبيقه على نفسه ولكل قائم بعده .

وقد جعلت تاريخ البداية ـ أدبياً ـ سنة ٢٨٠هـ عندما قدم لأوّل مرّة ولو انه قد استقال وغاب حتى بداية ٢٨٤هـ لأن صدى خروجه الأول وحنقه

وعـودتـه إلى عزلتـه في « الرس » ، قد كان له أثره النفسي والفكري لدن اليمنيين ، مما أعطى « خروجه الثاني » مهابةً واجلالا وهَيْمَنَةً روحيّة ، تلزم المواطنين الطاعة له في السرّاء والضراء والمنشط والمكره والشدّة والرخاء .

صفات الهادي ومذهبه :

ولقد كان الامام كما قال العلاّمة الأديب المؤرخ عبد الله الشماحي :

« لقد كان الهادي يحيى بن الحسين مثلا لصفات القائد ، والقدوة الحسنة لأتباعه ، مترفّعاً عن الأهواء وسفاسف الأمور ، و عن المتع ، شجاعاً في المعارك والأهوال ، وفي « تطبيق » ما يؤمن به ويدعو إليه ، معتدلا حتى مع أعدائه ، لا يمنعه ترفّعه بنسبه عن تزويج بناته بالقضاة الطبريّين الفارسيين وانه لمؤسّس دولة ، ومؤسّس مذهب » .

وقال أيضاً :

« إن المذهب الهادوي أو الزيدي كما يشاع أقوى المذاهب الاسلامية فيما أرى ، وأكملها بقـوانـين المعاملات والعلاقات والحياة ، وأوضحها تمشياً ولصوقاً بالروح الاسلامية التي أعطت الحياة متطلّبات نموها وانسجامها » .

« انه مذهب واقعٍ وحقائق لا خيالات وأوهام ، ولا تصوّرات شاطحة وأحـلام ، ولا مذهبَ ألغـاز ومعميّات ، ولا مذهب كرامـات وأولياء ، ومعجـزات وعصمة أئمة ، ولا مذهب واسطة بين العبد وربه ـ إلاّ عمل العبد وايمانه ، إنه مذهب عبادات إلى جانب معاملات بلغت قوانينها من الـدقّة الفقهية والتشريعية ما لم تبلغه أدق القوانين المعاصرة شمولا وقبولا للتطوّر وتقبل كل جديد صالح ، انه مذهب دين ودنيا ، وإيمان وعمل ، وجـدّ ونشـاط ، وعـدل وإيثار ، وجهاد واجتهاد ، فيه الانسان مخيّر ، لا مكلف لما فيه الـطاعـة لله والمصلحـة لعبـاده ، مذهب يدعو إلى التحرّر الفكـري ، وإلى التعمق في العلوم النـافعـة ، ويحـرّم التقليد في العقـائد والقـواعد العلمية الدينية ، ويوجب الاجتهاد على ضوء القرآن والسنة في العبـادات والمعـامـلات ، ويدعـو إلى القوّة والتضحية ، ويفرض الطاعة والنـظام والتعاون كما يفرض الخروج على أئمة الجور ، والثورة على الظلم الاجتـماعي والـطغيان الفردي ، ولا يرضى لأتباعه بالمذلّة والكسل ، ولا

بالخضوع والاستسلام لغير الله وما شرعه ، مذهب يحترم السلف في حدود انهم من البشر عرضة للنقد بما فيهم الصحابة وأبناء فاطمة » إلخ .

الامامة الهادوّية ونقد الشماحي :

ان ما قاله العلامة الشماحي عن الهادي ومذهبه يوجز بلباقة ، ويلخص باحاطة ما ورد في سيرة الهادي ورسائله ومؤلفاته ، وهو قول خبير منصف ، وفقيه منقّب مطلع على خفايا مذهبه ، وذي معرفةٍ واسعة بشتى المذاهب الاسلامية وشتى الملل والنحل ، إلى جودة في التعابير البيانية . . . ولكني لن أكون منصفاً للشماحي المؤرخ الفقيه الناقد ما لم أورد تلخيصه للامامة الهادوية وشروطها ونقده لها ، وابراز رأيه الحر الشجاع الذي لا يبالي بمعارضة الرأي الآخر ، ولا يضجر بمخالفته ، ولا يضيق بنقاش . يقول الشماحي عن مذهب الهادي :

« والرياسة العليا المعبّر عنها بالامامة ليست ملكاً يرثها الأطفال ، والأجنّة ، والمترف ومن ينشا في الحلية . وهو في الصراع والخصام غير قوي ولا مبين ، ولا يتناولها الأبناء من الآباء والأقارب ميراثاً هيناً ليناً ، ولا بوصاية من سلف لخلف ، وانما هي رئاسة يتناولها الكفؤ القوي العادل الشجاع المقدام السخي العالم المجتهد السياسي المفكر أكثر رأيه الاصابة (الفاطمي) يتناولها من الشريعة فور موت امام فاطمي مثله ، أو خلو زمنه من امام مثله وما على هذا الخلف الجامع للشروط إلاّ أن يعلن نفسه رئيساً وإماما ، وما على الأمة بعد اعلانه نفسه إماماً إلاّ وجوب طاعته ومناصرته ما استمر عادلا قديراً على أداء مهمته ولو كان هناك غيره أفضل منه ، فان انحرف قوّمَتْه الأمة ، فان أبى من الاستقامة وجب على الأمة عزله » .

ثم يقول ناقداً :

« هذا هو المذهب الزيدي وعلى الأصح الهادوي ؛ فالامام زيد لا يقول بحصر الامامة ، وانه لمذهب نحن والمعتزلة والمتحررون المسلمون من قيود المذاهب السياسية نقدّر هذا المذهب لأنه هو الاسلام في جوهره وقوته وروحه الانسانية الأممية ، إلا في حصر الامامة العظمى والرئاسة العليا ؛ فلا نحن ولا المفكرون ، ولا تعاليم الاسلام الصحيحة تقبل هذا الاحتكار الذي

بقيوده تعثر المذهب الهادوي ، وتقوقع في مجموعة محصورة ، وفي منطقة ضيقة ، وكم كنا نوّد لو أن مثل الهادي يحيى بن الحسين والمنصور القاسم بن محمد خرجوا من هذا الدايرة الضيّقة ، التي جنت عليهم وعلى أسرتهم قبل الجناية على اليمن » .

وقال :

« وانّه ـ أي الهادي ـ لمؤسّس دولة ، ومؤسس مذهب ربط بينهما بقاعدة الامامة الضيقة فأخطأ ، وعلى الدولة والمذهب جنى ، إن قيد الدولة والمذهب من الانطلاق الذي كانا مهيئين له لو تخلصا من هذا القيد ؛ فالدولة ذات عناصر قوية أضعفها عنصرية الرئاسة ، والمذهب ذو أنظمة اجتماعية واقعية جذّابة نفر منه ربطه بالامامة المتحجّرة الضيقة » .

« وقد كان الامام زيد بن علي أبعد نظراً من الهادي فقد أبى أن يأخذ بنظرية حصر الخلافة على أبناء جدته فاطمة الزهراء ثم يربط بهذه الامامة مذهبه ويبني عليه دعوته ودولته » .

وقال :

« فقد شهد القرن الثالث ضعف النفوذ العباسي باليمن وقيام حكومة بني يعفر اليمنية المستقلة ورسوخ التشيع في معظم اليمن رسوخاً اجتذب إلى اليمن في نهاية القرن الثالث الامام الهادي يحيى بن الحسين ، وأبو القاسم المنصور حسن بن حوشب والتبّع علي بن الفضل ؛ وقد كان على الهادي أن يضع في حسابه ان اليمن قد تخلّص من الحكم العباسي ، وقد قامت فيه دول وامارات مستقلّة لها وجودها وقاداتها ومفكروها ، واتباعهم كلّهم ذاقوا حلاوة الاستقلال والحكم بعد طول الحرمان من تلك الحلاوة ، وكانوا إلى قبل قدوم الهادي وابن حوشب وابن الفضل لا يرون في التشيع خطراً ؛ فتركوه يؤدّي نشاطه ويجتذب إليه الرعيل والقبيل اثر الرعيل والقبيل اثر القبيل » .

« فكان على الهادي في هذه الظروف وقد رسخ التشيع أن يبدأ دوراً جديداً يشعر فيه اليمنيون والفاطميون بالأخاء الذي يضمن مصالحهم واستقلالهم جميعاً ، ويجعل من كلّ منهم أهلا للرئاسة العظمى والحكم ، لا أن يأتي بدعوة يربط بها نفسه وخلفه تجعل من الفاطميين سادة حكاماً ومن غيرهم تابعين محكومين » .

« ولقد لاحظ قادات الدعوة الاسماعيلية هذه الناحية في دعوتهم فلم يأتوا في نظامها الأمامي بما يسلب دائماً اتباع الدعوة حقّ الوصول إلى قمة الحكم والسلطة بل اكتفوا بعددٍ من الأئمة الفاطميّين منحوهم بعد موتهم هالات من التقديس والعصمة ، مضافة إلى ألغاز ومعميات حولهم وحول الامام المستور المنتظر ، وحول أصول المذهب الاسماعيلي ؛ وهذه الألغاز والمعميات هي كالامامة في المذهب الهادوي كلاهما كان سبب تعثر الدعوتين وانحصارهما » .

« وان ما يثير الاستغراب عدم إدراك « الهادويين » لما تحمله دعوة حصر الامامة في « الفاطميّين » من مشاكل عليهم وعلى الدعوة وعلى المجتمع ؛ وما كان كل « الهادويين » بالجامدين والمتحجّرين الذين لا يتجاوز نظرهم أهدابهم ، وتفكيرهم آنافهم ؛ فلقد نبغ من هذا البيت الفاطمي الرسيّ شخصيات لهم ثقلهم العلمي ؛ ومن حقّ التاريخ أن يعترف بعباقرتهم بما كانوا عليه من كمال واستقامة ورجولة وأثر علمي ؛ إن منهم من برز في الناحية العسكرية والسياسية ، ومنهم من له القدح المعلّى في القيادة والتأسيس والناحية الاجتماعية ، ومنهم من جلّى في البحوث العلمية والفكرية والتشريعية » .

ثم قال أخيرا :

« ان هذا التحجّر الضيّق هو الذي طعن المذهب الهادوي أو الزيدي في دماغه ، فأضعف جهازه العصبيّ من بث التعاليم القيّمة لمذهبه ، وهذا التحجّر هو الذي جعل مفكري اليمن وقد اجتاحته دعوة التشيّع يعدلون عن المذهب الهادوي إلى المذاهب الشيعية الأخرى كالاسماعيلية برغم غموض تعاليمها ، وانغلاق أصولها ، إلّا انها دعوة لا تحمل في طياتها عقيدة تقضي على استعداد الانسان للنمو والارتقاء إلى الكمال الذي يجعل من صاحبه رئيساً لأمته ومنقذاً لمجتمعه وإماماً ومتبوعاً » .

« ان هذا التحجّر في الزعامة هو الذي جعل من « اليعفريين » و« آل الدعام » الأرحبيين ، و« آل الضحاك » الحاشديين و« آل أبي الفتوح » الخولانيين ، وأمثالهم من أهل الاجتهاد جعل منهم أضداداً للدعوة « الزيدية » كما جعل هذا التحجّر كل القوى اليمنية ضد المذهب الزيدي

كآل حاتم ، وآل الغشم ، والخطاب ، وآل زريع ، والصليحيين واليامين والهمدانيين وغيرهم ممن مالوا عن الزيدية إلى الاسماعيلية » .

« ان هذا التحجر هو الذي وقف حجر عثرة في طريق انتشار المذهب الهادوي وتحقيقه الوحدة اليمنية ، وامتداد نفوذه في اليمن نفسها وفي خارج اليمن والجزيرة العربية وإلى حيث كان مقدراً له أن يبلغه بقيادة الروح الاسلامية الصافية الناصعة في المذهب الزيدي لو تخلّى الهادي وأمثاله من عظماء الرسيين عن فكرة الامامة الضيقة المنفّرة » . واختتم القاضي الشماحي كلامه بقوله :

« نرجو من اخواننا « الفاطميين » أن يشاركونا في نظريتنا ؛ فنهب جميعاً إلى إذابة التحجّر في الامامة ، ونقف معاً على مستوى الأخوّة العربية والاسلامية ونمد بإيمان سواعدنا المتظافرة لتدعيم الجمهورية العربية اليمنية لنتقدم نحن وهم والجمهورية في ظل المبادىء الاسلامية الصحيحة عسى أن نحقّق ما لم تحققه أوائلنا الذين منهم الهادي وعلي محمد الصليحي » .

اليمن الانسان والحضارة من ص ١٠٠ حتى ص ١٠٨ .

نظرية الحكم في الاسلام :

لقد حرصت على اقتباس جل ما قاله العلامة المؤرخ عبد الله الشماحي في تمجيده ونقده لمذهبه ومذهب آبائه وأجداده الذين كانوا من أقطاب فقهائه ومنظريه وذلك لأنّه شهادة خبير ، ونقد بصير ، وهو أول نقد علمي وتاريخي وسياسي لنظرية « الهادي » في « الامامة » ، أو « الرئاسة العليا » صادر عن فقيه زيدي له اجتهاداته التشريعية والفقهية الهادوية ، مارس التدريس والتقنين والافتاء والقضاء في اليمن زهاء خمسة وأربعين عاماً . ثم أنه لم يرسل النقد عن خصومةٍ أو تعصباً لمذهب معاكسٍ ؛ بل لما يراه في ذلك من التهذيب والتأييد ، ولمذهبه الذي يعيشه سياسةً وسلوكاً وتفكيراً .

وأنا لا أريد مناقشة العلامة الشماحي ولا الدفاع عن الهادي ، ولا أخالفه في أن تطبيق النظرية التي انتقدها قد جرّت الويلات على اليمن وعلى المذهب نفسه . . اذا قلت ان المتأخرين من فقهاء « المذهب الهادوي » هم الذين طوّروا أقوال إمامهم وخرّجوها مخارج ما أظن الهادي نفسه قصدها ؛ وهم

الذين ضيقوا أفق النظرية وأساؤا تطبيقها مع انها أصلاً لا تخرج عن مفهوم الامام زيد بن علي للشروط المفروض توفّرها في الامام أو الرئيس .

ولعلّ العلامة الشماحي يوافقني أن « الهادي » في حصره أحقيّة الولاية في أولاد الحسن والحسين رضى الله عنهما لم يشذ عمّا أجمع عليه أئمة المذاهب الاسلامية المشهورة من اشتراط « القرشية » ، وان الأمر والخلافة في « قريش » وهو ما احتج به الصدّيقان أبوبكر وعمر رضى الله عنهما على « الأنصار » يوم « السقيفة » ، وأجمع عليه الصحابة وجمهور المسلمين بعدهم ؛ والحسن والحسين والطيبون من ذريتهما من صفوة وخيار « قريش » .

ولا أريد بهذا مناقشة العلامة الشماحي لأنه يعلمه ، ولا أخالفه الرأي ولا أجادله فيما أشار إليه من الصراع بين تلك القوى العشائرية وأولاد « الهادي » وخلفائه ، وان التحجّر في « النظرية » كان من أسباب ذلك ، وكل من يعرف تاريخ اليمن لا يمكن ان يجحده ، وسماحة المذهب الزيدي معروفة ، وتحجّر بعض الفقهاء الهادويين في مسألة الامامة لا شك انها قد أضرت بالمذهب كما قال ؛ غير اني أرى ان الأمر أدق وأعمق مما ذكر ، وان هناك أسباباً أخرى ، وان ذلك التحجّر أو الحصر الطائفي من قبل « الهادي » أو غيره ، وفي « القرشية » ، أو « الفاطمية » ، لم يكن هو السبب الرئيسي المباشر لكلّ ما حدث من مآسي في اليمن أو غيرها من البلدان الاسلامية .

وقد شاهدنا واقع التاريخ الاسلامي عبر العصور ومنذ نهاية عهد « الخلفاء الراشدين » ولاحظنا تحجّر الحكم ، وانحصاره وتوارث السلطة في أسرة كل زعيم أو خليفة أو ملك أو سلطان يتربع على كرسيّ الحكم ويمسك بزمام السلطة حتى بدون « نظرية مذهبية » أو تقنين تشريعي أو ديني يحتم على أتباعهم حصر السلطة في أسرة ذلك الذي وصل إلى السدّة أصلا بكفائته وعلمه واجتهاده ، أو باختيار وتنصيب الناس له !

شاهدنا ذلك واقعياً وعملياً في « الأمويّين » و« العباسيّين » إلى « الفاطميّين » وملوك الطوائف و« بني حمدان » إلى « المماليك »

و « السلاجقة » و « آل عثمان » بالنسبة للعالم الاسلامي في جميع الأقطار وفي اليمن وحدها حكمت اليمن خلال ألف عام أكثر من عشرين أسرة كل أسرة لا تقوم إلا على أنقاض سلفها ويتوارث الحكم والسلطة فيها الأقوى والأغنى حتى تنقرض ومنهم « بنو زياد » و « اليعفريون » و « بنو نجاح » و « الصليحيون » و « الأيّوبيون » و « آل رسول » و « الهادويون » وهذا بالنسبة للعصر الذي نتحدث عنه أدبياً إلى عشرات من الأسر حتى قيام الجمهورية سنة ١٩٦٢ م/١٣٨٢هـ .

وإذن فالطبائع البشرية من حبّ السلطة ، والأثرة ، ظلّت تتحكم على بني البشر في كل زمان ومكان حتى انتبه « الانسان » وأدرك ما يعاني من أهوال ومآسي من جرّاء فقدان نظرية تنظيم الحكم ؛ فأوجد مجتمعه نظاماً ، أو عرفاً يحدّد السلطة ، ويشرح مؤهلاتها وسُبل الوصول إليها ، وحقوقها وواجباتها ، مما هو معلوم معروف في بعض بلدان عالمنا الذي نعيش فيه ، وهو ما لم يوجد ـ مع الأسف ـ إلا نظرياً ـ أو خلال فترات متقطّعة ـ في تاريخ اليمن واذن فهذا في نظري هو السبب الرئيسي لذلك الصراع وتلك المآسي وعدم الاستقرار ، والصراعات الدامية على السلطة والحكم .

نعم ان نظرية الحكم في الاسلام قائمة على أساس « الشورى » والمبايعة الطوعيّة ، فالله سبحانه قد أمر رسوله ﷺ بقوله : ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾ ووصف المؤمنين بقوله : ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ ، كما انه جل شأنه قد حدّد مواصفات الحاكم المسلم ، أو من يجب على المسلمين أن يولّوه وأن يتولوه فقال : ﴿**إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنو ؛ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ؛ ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون**﴾ (٥٥ ـ ٥٦ المائدة) . وقال تعالى : ﴿**الذين ان مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾ (٤١ الحج) . وقال تعالى : ﴿**ان خير من استأجرت القويّ الأمين**﴾ (٢٦ القصص) .

والايمان بالله واقامة شعائره وتنفيذ أحكامه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القوة والامانة هي العمود الفقري لصفات ومؤهلات القيادة والرئاسة في الاسلام ولا ينفع بدونها لا علم ولا حسب .

الامامة الزيدية
بين النظرية والتطبيق

لقد كانت الامامة الزيدية ومواصفات إمامها نظرياً كما قال العلامة « الشماحي » ، ولقد نجح فقهاء الزيدية بما فيهم الهادوية في استنباط قواعدها من آيات الكتاب العزيز . وروح السنة النبوية والتصوّرات العقلية وفي تفسير نظريتها واثباتها عقلاً ومنطقاً وشرعاً ؛ ولكنهم فشلوا في تثبيتها تطبيقاً كدستور دائم لدولة ، ولو على الأقل في المجتمع اليمني الذي جاء وقتٌ وهم يسيطرون سيطرة تامة على كل أصقاعه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً .

وحتى بالنسبة للفترة المبكرة ـ وهي الفترة التي نتحدث عنها أدبياً ـ فلقد استوعب تلك النظرية « الامام الهادي » الذي قعد على كرسيّ الامامة بانتخاب وجدارة وطبّق النظرية تطبيقاً محكماً ، ولكنه ما ان لحق بالرفيق الأعلى وقام ابنه « المرتضى » حتى أدرك ـ لأنه كان تقيّاً صالحاً ـ عجزه عن تطبيق النظرية لفساد الناس فلم يرض أن يكون كالمصباح يحرق نفسه ليضيء لغيره فاستقال وانعزل ، وحاول أخوه الناصر أحمد تطبيقها بعزمه ومصابرته ، وما أن توفى حتى اختلف أولاده أحفاد الهادي وعارضوا الخيّر منهم وكان ما كان حتى قال المؤرخ يحيى ابن الحسين في أنباء الزمن : « ان خراب صعدة القديمة كان على أيدي أحفاد الهادي » ولما نهض الامام القاسم العياني سنة ٣٨٨هـ /٩٩٨ م يريد مُخلِصاً ان يطبق النظرية السليمة كان بينه وبين « الورثة » وأحفاد الهادي ما حال بينه وبين إرادته ، ولما مات وقام بعده أبنه المهدي حسين فتصارع الأمراء « الفاطميون » فيما بينهم حتى التهم الجميع الملك « الصليحي » .

وحين قام الامام أحمد بن سليمان سنة ٥٣٢هـ /١١٣٧ م ورأى من واجابه إحياء « النظرية » وتطبيقها قاسى من « الأشراف » الأقارب أكثر مما قاسى من الخصوم الأباعد .

ولما تسلّم الامامة بتكليف من أهل عصره سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧ م عبد الله بن حمزة وهو من هو علماً وكفاءة ، لم يتمكّن من تطبيق النظرية . .

ومع ما عاناه من صراع مع الأيّوبيّين وال حاتم ، فقد كان ما قاساه من « ابن الامام » أحمد بن سليمان أشد وأنكى ، وحاول يحيى بن المحّسن بعد عبد الله بن حمزة أن ينهض لتطبيق النظرية لكن « الأمراء » وورثة النظرية من أولاد عبد الله بن حمزة تشبّثوا بارثهم فأكدى ، ولما قام الامام أحمد بن الحسين بأمر « الامامة الهادوية » عارضه الأمراء الحمزيّون وخذلوه وناصروا الملك المظفر حتى خرّ الامام صريعاً على يد الأمير أحمد بن عبد الله بن حمزة سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٩ م وهي نهاية الفترة التي نؤرخ لآدابها ، وما حدث بعد ذلك معروف .

والسؤال الذي قد يطرحه البعض هو : « ما سبب فشل أئمة الزيدية في تطبيق نظريتهم الاسلامية تطبيقاً مستمراً متوارثا » ؟ أو لماذا نجحوا في صياغة النظرية وفشلوا في تطبيقها » ؟

والجواب على هذا السؤال لا يكمن فيما ذكره العلاّمة « الشماحي » من حصر النظرية عنصرياً ، وتحجّرها طائفياً إذ قد رأينا ان كل الأسر التي حكمت اليمن وغيرها قد تحتكر السلطة ويتوارثها أفرادها زمناً دون استناد إلى نظرية مذهبية أو تشريع قانوني ورأيناها تفشل وتنجح ويوجد بين حكّامها الصالح والطالح شأنهم شأن أئمة اليمن بل لقد كان يوجد بين هؤلاء من المستقيمين أكثر مما يوجد بين غيرهم .

صحيح أن التحجّر العنصري أو الطائفي الذي انتقده « الشماحي » لا يستساغ عقلا في نظري ولا أرتضيه لنفسي مذهباً ، والمطلوب أوّلاً هو توفّر الصفات القرآنية ، والانسانية من تقوى وقدرة وخير وصلاح وأمانة وعلم واستقامة وسلوك حسن ؛ ولا يمكن ان يكون للعرق أو الجنس أو النسب أو الحسب علاقة أو تأثير ولا سيما ومقياس الكرامة عند الله هي « التقوى » وقد كلّم الله أحد أنبيائه عليهم السلام بقوله : ﴿**إنه ليس من أهلك انّه عملٌ غير صالح**﴾ ! وبقوله تعالى : ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ ومع ذلك فان التحجّر « الهادوي » العنصري لا يختلف عن القول بأن الخلافة في « قريش » ولا يصحّ ان يكون سببا يكمن فيه الجواب على السؤال الذي قد يطرحه البعض .

والجواب في نظري : ان فشلهم في تطبيق النظرية الزيدية ، أو الهادوية في الحكم تطبيقاً مستمراً متوارثاً يعود إلى عدّة أسباب أهمها : أن النظرية نفسها قد منحت الحرية لكلّ من يعتقد ان شروطها « الأربعة عشرة » المشروعة لمبايعة « الامام » متوفّرة فيه . . . أن يُشهر سيفَه ، ويدعو الناس لمبايعته ؛ ولم توجدْ نظاماً ممثّلا في هيئات ومؤسّسات تقنّن النظرية وتوضّحها ، وتحميها من الانحرافات حتى يقتنع كلّ أفراد المجتمع اليمني بها رجالاً ونساءً وجهّالاً وعلماء ، ويعرفون من النّظام تحديد كيفيّة انتقال السلطة بسلام من السَّلف إلى الخلف ؛ فيعيش الناس مطمئنين إلى حاضرهم ومستقبلهم ، لأنهم يعرفون من سيكون صاحب السّلطة إذا مات أو غاب حاكمهم الأول الذي بايعوه بموجب النظرية وشروطها ، وقد أصبح الاقتناع بذلك النظام أمراً مسلّما به وكأنه من الأعراف الوطنيّة التي لا يفكر أحد في الشذوذ عنها أو الخروج عليها ؛ وبالتالي لا يرتبك أحد من الناس ولا يحاول التمرد وإثارة ما يقلق المجتمع حتى ولو كان من ذوي الجاه والطموحات اذا خلَف حاكمٌ حاكما .

وهذا ما هو موجود حالياً في معظم الدول الحضارية وذات الاستقرار في الشرق والغرب .

ان مجرّد وجود وعيّ عام لنظام الحكم ، وطريقة انتقاله وشرعيّة تحوّله ، من السَّلف إلى الخلف يحتم على سائر أبناء المجتمع الطاعة والولاء حتى ولو وجد من لا يقتنع شخصياً بمن سيكون على رأس السلطة ، أو من تكون له آراء فردّية ، أو اجتهادات خاصة ؛ وذلك ـ في نظري ـ هو ما جعل المهاجرون والأنصار يبايعون أبا بكر الصديق ثم عمر الفاروق ، ثم عثمان بن عفّان دونما هرج ولا مرج ؛ فلما ضعف ذلك الوعي العام ـ وسمِّهِ ما شئت ـ وكان قد اضمحل في بعض النفوس لأسباب اسهب في ذكرها المؤرخون والمنظّرون واجه الامام علي ما واجه من صعاب ومشاكل ، واختلط الحابل بالنابل مع انّ الذين بايعوه هم المهاجرون والأنصار الذين بايعوا الثلاثة قبله رضى الله عنهم جميعا . . ومما زاد الطين بلة ان وجد من بين المهاجرين والأنصار من خضع لآرائه الفردية واجتهاداته الخاصة لأن ذلك « الوعي العام » الذي كان لا يزال قوياً اثر وفاة الرسول ﷺ . قد وهن ثم كانت « الفتنة » وتتابعت ارزاؤها وحدث ما يعرفه الجميع .

صحيح ان مواصفات الحاكم في « النظرية الهادوية » قد شُرِحَت في الكتب ، ومؤلفات الفقهاء ورسخت في أذهان من يسمونهم « أهلَ الحل والعقد » ؛ ولكنها لم ترسخ في ذهن وطبيعة وسلوك « المجتمع » حتى تصبح أشبه بالتقاليد المعتبرة المقبولة والمسلّم بها طبعاً وفطرة وسلوكا . ! وبذلك لا يستطيع أحد الشذوذ عنها ، أو مخالفتها ، أو التمرّد عليها ، ولو كان له اجتهاداته الخاصة ، أو كان من النفوذ والتمكّن بمكان ذي بال .

وفوق ذلك سمحت « النظرية » ـ كما ذكرنا ـ لكلّ من يدرك في نفسه توفّر « الشروط » ، ويجد فيها القدرة على النهوض ـ وما أكثرهم في كل مجتمع ـ بأن يشهر سيفه . ويدعو الناس إلى مبايعته وطاعته ؛ بل وقد اعتبرت « النظريّة » ذلك هو أسلوب الترشيح القانوني ولا يكون الامام إماماً شرعيا بدونه ولعل ذلك في نظري من أهم أسباب فشل تطبيق « النظرية الهادوية للحكم » عبر عصور تاريخ اليمن الاسلامي .

ولا يعني هذا ان « النظرية الهادوية » لم تطبّق مطلقا ! وإنّما أعني انها لم تستمر وتتوارث بسلام ؛ لأن اليمن قد عرفت حكاماً صالحين راشدين من جميع الفئات ولكن في فترات متقطّعة لا تتجاوز أصابع اليد عداً وحصراً ؛ وكانت فتراتهم مشرقة مشرّقة لا لأنهم مُنعوا عن العبث والظلم أو خافوا غضب المجتمع ؛ بل برّوا بالناس وعدلوا لأنهم خلقاً وثقافةً ودينا لا يريدون الظلم ولا العبث ولا يطيقونها طبعاً وسلوكاً .

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفةٍ فلعلّةٍ لا يظلم

***

والعلة هنا إما ان تكون ممثلة في سلطة أخرى ، أو الخشية من الله سبحانه وتعالى ومن حسابه يوم الميعاد .

وقد ظلت مسؤولية السلطة والحكم في « اليمن » تُناط وتُسند إلى من يعتقد أو يظن أهل الحل والعقد صلاحه واستقامته ويجعلونه إيّاه الحارس والمهيمن والرقيب على نفسه ، ثقة منهم بأنه سيستشعر دائماً الخوف من الله ، فلا يحكم بغير ما أنزله في كتابه . ولا يتبع الهوى ، وفي نظري ان ذلك ليس كافيا : فللاسلام نظريته الشاملة الكاملة المستندة إلى كتاب الله وسنة

رسوله ، وانشاء النظم ، والهيئات الوطنية ، والمؤسسات المدنية على قواعد تستنبط من الكتاب والسنة وآراء العلماء وأهل الاجتهاد أمرٌ يلائم ما يدعو إليه ديننا الحنيف ودول الغرب والشرق انما تعلّمت ما أهملناه . وحفظت ما ضيعناه .

تلك في نظري هي أهم أسباب فشل التطبيق الواقعي المستمر المتوارث بسلام واقتناع لنظرية الهادي في الحكم ؛ وليس ما قاله استاذنا العلامة المؤرخ القاضى عبد الله الشماحي .

ولو تأمل « القاضى » ؛ لرأى أني بهذا لا أخالفه في المبدأ بل أصوّب وأعلّل أسباب الفشل في تطبيق النظرية التي نقدّرها جميعا ، ولعلّي قد أوضحت ما أراد هو أصلا إيضاحه والتعبير عنه ، ولم يتمكن من البوح به .

وجهة نظر

ولعلّ من واجبي لا كمؤرخ بل كناصح يتحرى الصوابِ ان افصح عن وجهة نظر اقتنعت بها منذ أمد بعيد ، وأشرت إليها مراراً في بعض كتبي وأشعاري ، وفحواها انّه لا خير لمن حرّمت عليهم الزكاة من أهل البيت في « الولاية العامة » ، بلْه الاستئثار بها واحتكارها .

ولم اتوصّل إلى قناعتي بأن الاجدى لهم ، والأخلق بهم الابتعاد عنها ، والزّهد فيها ، بكل صورها وأشكالها واسمائها ـ ولا سيما إذا كان لن يصل إليها من يطمع فيها إلا شاهراً سيفه ـ إلا بعد دراسة لأسباب ومسبّبات المآسي والكوارث التي حلّت بهم وباليمنيين خلال أحد عشر قرناً ـ وليس فقط لما ذكره العلامة القاضى عبد الله الشماحي ـ ولو لم يكن من تلك المآسي الا الصراع المرير الذي نشب عدّة مرات وقديماً وحديثاً بين « ورثة النظرية » والذي رأينا فيه وشاهدنا كيف يقتل الأخ أخاه وكان من نتائجه التناحر بين أولاد العم وذوي القربى وأبناء الأسرة الواحدة . . من آل « الهادي » أو « العياني » أو « السليمانيين » أو « الحمزات » ، إلى آل « شرف الدين » و « القاسم » وأخيراً آل « الوزير » و « حميد الدين » لاكتفينا بذلك عبرةً وعظة .

ولا يعني هذا ؛ التنكّر لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو الخروج على الظلمة وأهل الجور ، اذ ليس من شروط القيام بذلك أن يكون المسلم رئيساً أو ملكاً أو إماماً ! والذين يقولون بالاحتكار أو الاستئثار ، ويتشبثون بما يروونه من « نص جليّ » أو « نص خفيّ » حجّتنا عليهم موقف الامام علي عليه السلام من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ومبايعته وطاعته ونصحه واخلاصه لهم ؛ وهل كان حين فعل ذلك يعلم النصّ جلياً أو خفياً أم يجهله ؟ وعندما أراد الناس مبايعته بعد قتل عثمان رضى الله عنه فقال :

« دعوني والتمسوا غيري ، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم مني أميراً » هل خالف بقوله ـ وحاشاه ـ نصّاً نبوياً جلياً كان أو خفيّاً ؟

موقف الحسن بن علي

ذلك هو موقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخمسة أهل الكساء ؛ وأكثر منه وضوحاً ، وأقرب إلى العظة والاعتبار موقف « السبط » الامام الحسن بن عليّ رضى الله عنهما حين آثر حقن دماء المسلمين وتنازل عن الخلافة وسلم الأمر راضياً مختاراً لمعاوية بن أبي سفيان مشترطاً العفو العام ، وأن يعود الأمر بعده شورى بين المسلمين ، ورفض الاصغاء إلى صليل أربعين ألف سيف بايعه أصحابها على الموت ! وقال كلمته الشهيرة : « ما أحببتُ منذ علمت ما ينفعني ويضرّني أن ألي أمة محمد ﷺ على أن يهراق في ذلك محجم دم » ، وعندما خاطبه أحد أنصاره محتجاً بقوله : « السلام عليك يا مذل رقاب المؤمنين » ! قال : « لا تقل ذلك يا أبا عامر ؛ فاني لم أذل المؤمنين ، ولكن كرهت أن أقتلهم في طلب الملك » .

ولأمر تعليمي الآهي لا نستكنه سرّه الأزلي ، وان كنا لا نجهل نعمته على المسلمين الحديث الصحيح الذي أخرجه الامام البخاري عن أبي بكرة قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر والحسن إلى جنبه ، وهو ينظر إلى الناس مرّة وإليه مرّة ، ويقول : « أيها الناس إن ابني هذا سيّد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين » .

حظ « المودّة في القربى »

وقديماً قلت أنصح قومي بصرف النظر عن طلب « الولاية العامة » :

بني « الزهراء » خلّوها احتساباً ، وعَدوًّا عن مطامعها وغيبوا ،
وحظكم « المودةُ » وهو حظٌ ... إذا ما صنتمو « القربى » رغيبُ

***

وقلتُ من أخرى :

آل بيت النبيّ أنتم عيون العدل بين الورى فصونوا عيونَهُ
لا تضيعوا عهد « المودّة في القربى » ؛ فلا « أجر » غيره تأملونَه
حظكم في الدنيا « المودّة » لا « الملك » فخلّوا متاعه وشئونَه
ودعوا « الأمر » للألبّاء مِمَّن يصطفيه الانام ، أو يرتضونه
واستقيموا على الطريقة ؛ بالاحسان والعدل ، جهرةً تأمرونه

***

آثار الهادي :

لا شك أن أهم أعلام هذه الفترة هو الامام الهادي ؛ فإلى أنّه مؤسس دولة ومذهب قد كان خطيباً مصقعاً ، وكاتباً مترسّلاً ، وله وصايا وحكم وأشعار كثيرة معظمها في الدعوة إلى الجهاد ، والشكوى من تخاذل الهمم ، وتكالب الاطماع ، ووصف المعارك التي خاضها ، والزهد ، ومراثي من فقدهم أو استشهدوا من أصحابه . وقد ألف في شتى فنون المعرفة ومصنفاته ورسائله تنوف على السبعين وهي معتمد فقهاء الزيدية في اليمن .

وله سيرة ألفها معاصره علي بن محمد العباسي وطبعت في بيروت بتحقيق الدكتور سهيل زكار سنة ١٩٧٢ م/١٣٩١هـ كما ان « رسائل العدل والتوحيد » التي تحتوي على بعض رسائله في الردّ على المجبرة والقدرية و« معرفة الله » وأخرى إسمها الردّ والاحتجاج وكتاب الجملة ، والرد على « أهل الزيغ » قد قام بنشرها الأستاذ محمد عمارة سنة ١٩٧١ م/١٣٩٠هـ .

وقد ذكر أسماء مؤلفاته السيد محمد بن محمد زبارة في كتابه « أئمة اليمن » ج ـ ١ ـ من ص ـ ٥ ـ حتى ص : ـ ٥٢ ـ وانظر أيضا « حكام اليمن المؤلفون » للحبشي ص : ٢١ ـ ٤٥ ـ وفيه مطالع ثلاثة وثلاثين قطعة شعرية نقلها عن سيرته ، وراجع « مصادر التراث اليمني » للدكتور العمري ص : ١٣٣ ـ ١٤٠ وبروكلمان ج ـ ٣ ـ : ٣٢٧ ـ ٣٣٠ ـ وقد تحدّث عن الهادي وآرائه وكتبه الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه « الزيدية » ص : ١٥٠ ـ ٢١١ .

ومن شعره يرثي الشريف علي بن أبي جعفر العبّاسي :

قبرٌ بخيوان حوى ماجداً منتخب الآباء عباسي
قبر عليّ بن أبي جعفر من هاشم كالجبل الراسي
من يطعن الطعنة خوّارة كأنها طعنة جسّاس

***

ومن حكمه ونصائحه :

« أصل الخشية لله العلم ، وفرعها الورع ، وفرع الورع الدين ، ونظام الدين محاسبة المرء نفسه ، وآفة الورع تجويز المرء لنفسه الصغيرة من فعْله » .

ومنها :

من أراد أن ينظر ما له عند الله فلينظر ما له عنده ! ومن كفى الناس مؤنة نفسه كفاه الله مؤنة غيره ، ومن نظر إلى نفسه بغير ما هو فيه فقد أمكن الناس من الطعن عليه .

وقال في كتاب :

« الورع والمكالبة لا يجتمعان أبدا كما لا يجتمع في اناء واحد النار والماء » . « ومن اشتدت رغبته في الدنيا طلب لنفسه التأويلات الكاذبات ، ومن طلب لنفسه التأويلات الكاذبات تقحمّ في المهلكات وكان عند الله من أهل الخطيئات » .

ومن جيد شعره قوله :

نفى النومَ عن عينيّ همٌّ مضاجعٌ ... وخطبٌ جليلٌ فهو للنوم مانعُ
وأرقني ، أن لا صديقٌ ولا أخٌ ... يشاركني فيما تُجنْ الأضالِعُ
أفكرّ في الدنيا وتافه شأنها ... كما طال فكري والعيون هواجعُ
سَبَتْهم بحسن الذّوق من شهواتها ... فكلٌ لها إلفٌ محبٌ مطاوعُ
يوفر ما قدَ نال من فضلاتها ... ويذخر للوراث ما هو جامعُ
ويبخل عن تقديم خير لنفسه ... ويجزع عن إخراجه ويمانعُ
ويمنعه التسويف عن باب رشده ... ويعجل فيما ضره ويسارعُ
ويدخره حتى يكون كأنه ... إلى ما له بعد المنيْة راجعُ
أليسَ عظيماً ان يُسالَم مبطلٌ ... ظلومٌ لأهل الحق ؟ فالحق خاضعُ
قتيلٌ ، قليلٌ أهله ، ومُضَيَّعٌ ... فساحته قفرٌ ، قواءٌ بلاقعُ
وعطّله أنصاره وحماته ... فقد درستْ اعلامه والشرائعُ
وآل رسول الله قد شغلتْهم ... عيونٌ ، وأموالٌ لهم ، وزرائعُ
وحقدٌ ، وإحياء الضغائن بينهم ... ولم يجمعوا فيه ، وقل المطاوع

***

أرى الطالبين الأسود تخاذلوا ... فمنهم مدانٍ للعدى ، ومُصانع
ولم يطلبوا إرث النبوة بالقنا ... ولم يمنعوه والرماح شوارعُ
أرى حقهم مستودعاً عند غيرهم ... « ولا بد يوماً أن ترد الودائع »
هلموا إلى ما يورث الفخر والسَّنا ... فما عزّ قومٌ أمرهم متنازعُ
فلو عضدتني عصبةٌ طالبيةٌ ... لها شيم محمودة ودسائعُ
وصبر على البلوى إذا نزلت بها ... جحاجح في أسيافها السم ناقع
إذاً ملكوا الدنيا وذل عدوهم ... ولم يُرَ في روضاتهم وهو راتع
ولكنهم أمسوا وأضحوا كآيس ... مدانٍ فيعطي تافه وهو قانع
فذرية المختار في عقواتهم ... وفي الأرض قد ضاقت عليها المواضع
تفرقت الأهواء منهم وطامنوا ... فلا الحفظ محمود ، ولا السلم نافع
شديد عظيم أن تسيروا أذلة ... وأنتم ليوث حين تُخشى الزعازع
وأعداؤكم في غبطة وغضارة ... وعيش على حافاته الملك ذائع
هل الملك ؛ إلا العز والنهي والقنا ... وأفضلكم من هذبته الطبايع ؟
ومن لم يزل يحمي وينقم ثاره ... ومن هو في الحالات يقظان هاجع

يقلب بطن الأمر فيه لظهره ... ويمضي إذا ما أمكنته المقاطع
ونحن بقايا المرهفات وسؤرها ... إذا كان يوم ثائر النقع ساطع
يموت الفتى منا بكل مهندٍ ... وأسمر مسنون الشبا وهو دارع
فتلك منايانا وإنا لمعشرٌ ... من الناس في الدنيا النجوم الطوالع
نهضت ولم أعجل وقلت مواعظاً ... ذخائر علم إن وعاهن سامع
فكم قائل في نفسه وضميره ... أيا واعظا في ذا ؛ كلامك ضائع
فكيف غناء الكف عند اجتهادها ... إذا لم تعنها بالفعال الأصابع
بنيتُ لكم بيتاً من المجد سمكه ... دُوَيْن الثريا فخره متتابع
نعشتُ كتاب الله بعد هلاكه ... فليس بغير الحق يزمع زامع
ولا يمت أحكام الكتاب بأسرها ... كما لائم الذودَ المشتَّ المشايع
فطال بفعلي كل آل محمد ... وكل عزيز منهم متواضع
وما أحد يسعى لينعش عزكم ... سواي ، وهذا عند ذي اللب واقع
ولا راتقٌ ما قد فتقتُ على العدى ... ولا واضع في الحق ما أنا رافع
تظنون أن المال عندي مراكمٌ ... واني به عنكم ضنين ممانع
إذا خذلتني اخوتي وعشيرتي ... فما أنا بعد الجهد والحزم صانع ؟
بني العم إني في بلاد ضريرة ... قليل وداها ، شرها متتابع
وليس بها مال يقوم لبعضها ... وساكنها عريان ، غرثان ، جائع
سلوا الناس عنها تعرفوا ما جهلتم ... من أخبارها ؛ خير الرجال المطالع
واني لأحمي أن أبيت بغبطة ... بطيناً وجاري مقتر وهو جائع
فلا تسرعوا في الظن فيّ بأنني ... ذخرت كنوزا ، فالظنون تسارع
فلست إذا أعطيتُ أبقى بقيةً ... ولست إلى ما لا يحل أطالع

***

وفي حوزتي مخطوطة في ثلاثمائة وخمسة وسبعين صفحة من القطع الكبير وتضم بضعة وسبعين رسالة من رسائل الامام الهادي تناقش مواضيع هامة في علم الكلام وأصول الدين ، والعدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، واثبات النبّوة والامامة ، وعن الكفر والنفاق ، والايمان والمنزلة بين المنزلتين ، والرد على المجبرة والقدرية والمشبّهة ، ومسائل فقهية ، وأخرى في العلم والقدرة والارادة والمشيئة ، وتفاسير لكثير من آيات الكتاب العزيز وأسماء الله الحسنى ، وعهوده إلى عماله ، وجواباته على علماء عصره ، وكتابه إلى أهل

الذمة ، وأهل نجران ، ورسالته إلى الدعّام بن ابراهيم ووصيته وغير ذلك .

والمجموعة بخط واضح فرغ كاتبها محمد بن علي بن عبد الرحمن من زبرها في شهر صفر عام ١٠٥٠هـ خمسين وألف .

وأنوي تحقيقها ونشرها إن شاء الله .

٢ ـ مؤلّف سيرة الهادي
علي بن محمد بن عبيد الله العباسي

للامام الهادي يحيى بن الحسين سيرة خاصة ضمّت الكثير من أخباره وأشعاره ورسائله وآرائه وقد قام بنشرها وتحقيقها مدرّس التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق الدكتور سهيل زكار وصدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٢هـ /١٩٧٢ .

ويقول الدكتور زكار في مقدمته : « ولقد واجهني أثناء عملي في هذا الكتاب عدّة أمور منها ما تعلّق بمادة نصه ، ومنها ما تعلّق بمؤلفه وزمنه ومنهجه ؛ فلقد جاء على الورقة الأولى من نسخة علي أميري ان الكتاب برواية محمد بن سليمان الكوفي ، وعلي بن محمد بن عبيد الله العباسي العلوي ولقد فتشت فيما تيسرّ لي من مصادر عن تراجم لهذين الرجلين فلم أوفّق إلى شيء ، ورغم هذا فان بإمكان المرء أن يصل من ثنايا سيرة الهادي هذه على معلومات كافية تتعلّق بهما » .

واستنتج المحقّق الكريم بأن « الكوفي » « كان من أصحاب الهادي » و « توجه إلى اليمن قبل سفره إليها » ، وأنه كان « يشغل ما يمكن ان يعتبر منصب وزيره » و « أنه ولّاه بعض أعمال الولايات والجبايات » ثم قال :

« وهذا يعني أن معلومات محمد بن سليمان الكوفي وأخباره عن شخصيّة الهادي والأحداث التي تمت في عصره هي مادة على درجة عالية من الأهمية ذلك لأنها تحمل الطابع الوثائقي » ثم قال الدكتور :

« ولكن على الرغم من كل هذا ورغم ما جاء على صفحة الكتاب الأولى

فان الكوفي لم يكن أحد مصنّفي الكتاب وذلك ان دراسة النص تقول بأن علي بن محمد بن عبيد الله العباسي العلوي هو صاحب السيرة وراويتها » .

ثم تساءل هل الكتاب هو كما رواه علي بن محمد دونما تعديل أو اضافات ؟ ورغم قوله : « والاجابة على السؤال الآن صعبة » فالقارىء يستنتج ان الدكتور من فحصه لمحتويات الكتاب يرى : « ان بعض التنسيق والترتيب قد أصاب القسم الرئيسي من السيرة » وكذلك « أضيف فيما بعد إليه ما يتعلق ببعض أخبار أولاد الهادي بعده » ثم قال أخيراً :

إن نص السيرة « في الواقع من أهم النصوص التاريخية وأعظمها معلومات فيما يخصّ قسماً كبيراً من الجزيرة العربيّة يمتدّ من نجران ويكاد يشمل اليمن كلها ويحوي هذا الكتاب أخباراً فريدة تهم التاريخ الاسلامي كلّه عن أوضاع القبائل العربية وتحركاتها وتحركات القرامطة في أوائل القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد » وقد بذل الدكتور جهداً مشكوراً في ضبط نصوص السيرة وتحقيقها بخبرة الناقد الخبير ووعي العالم الضليع .

وما استنتجه الدكتور زكار وتوصل إليه ـ ورغم بعده عن اليمن وعدم اطلاعه على بعض المخطوطات والكتب اليمنيّة التي يمكن أن يجد فيها تراجم لراويتيْ سيرة الهادي : محمد بن سليمان الكوفي ، وعلي بن محمد العباسي ـ هو ما يُجمع عليه كلّ المؤرخين اليمنيين فقد توفّق ، ولم يبعد عن الصواب ؛ وسنضيف إليه ما لم يصل إلى علم الدكتو ر عن مؤلف السيرة ورواة أخبارها :

محمد بن سليمان الكوفي :

فأما الكوفي فقد ترجمه بايجاز العلامة المؤرخ يحيى بن الحسين ابن القاسم المتوفي سنة ١٠٩٩هـ في طبقاته فقال :

« القاضي العلاّمة محمد بن سليمان الكوفي ممن عاصر الامام الهادي عليه السلام وناصره وهو من علماء الهدويّة ، وهو جامع كتاب المنتخب مما أملاه الهادي ذكره في شرح الفتح أو كتاب الاجارة وهو صاحب كتاب الفنون وكتاب البراهين في معجزات النبي ﷺ » .

ويقول الحبشي ص ٤٠٣ « مصادر الفكر » ان كتاب « المناقب »

لمحمد ابن سليمان الكوفي توجد منه نسخة في « الامبروزيانا ٢٠٦ G ؛ وان نسخة من « البراهين » توجد في جامع صنعاء ـ ٥٣ ـ مجاميع وأخرى بالامبروزيانا .

كما أن العلامة المؤرّخ أحمد بن صالح بن أبي الرجال المتوفي سنة ١٠٩٢هـ قد ترجمه في « مطلع البدور » فقال : « علامة العلماء وسيدهم الفاضل المحدّث الجامع للكمالات الربانية محمد بن سليمان الكوفي رحمه الله ، هو العلامة حافظ الاسلام صاحب الهادي إلى الحق عليه السلام ، ونسبه في أسد بن خزيمة ، وتولّى القضاء للهادي ولولده الناصر » ثم قال : « ومحمد هو صاحب المنتخب الذي سأل عنه الهادي ، وصاحب كتاب الفنون ، وله كتب صنّفها في الدين منها كتاب البراهين في معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي آياته ، وكتاب المناقب في فضائل أمير المؤمنين وشواهد إمامته » [ص ٣٦٢ من مخطوطة زبارة لكتاب : « مطلع البدور » ؛ المجلد الرابع] . . ثم قال : « وفيها ـ أي في مؤلفات محمد بن سليمان ـ الشهادة بفضل علمه في الفقه وأصول الملة ، ونقلةِ أخبارها ، وبعلمه بطرق الاستدلالات على الحق فيما اختلف فيه الناس من أمور الدين وفضل همته ، ورفعة طبقته في العلماء » . ونقل كلام الشيخ أبو الغمر وثناءه عليه وعلى كتبه وروايته عن أبي عبد الله محمد بن زكريا بن دينار البصري لكتاب صفين والحكَمَيْن ، وكتاب النهروان وقال : « وهي من أصول العلوم الخبرية الجيّدة التي يُفْتَقَرُ إليها ؛ وذلك كلّه مع اختياره الهجرة من العراق إلى الهادي عليه السلام واختياره له لولاية قضاء المسلمين ، في بلدته وبحضرته واختيار ولديه لذلك كذلك ومع ما في أخباره مما يدل على انه من تلامذة الشيخ الفاضل العبد الصالح محمد بن منصور المرادي صاحب القاسم عليه السلام » ثم قال ابن أبي الرجال : « قلتُ وكان محمد ابن سليمان خرج مع علي بن زيد الزيدي رحمه الله بالكوفة بعد يحيى بن عمر فوجّه إليه العبّاسي الشاه بن ميكائيل في عسكر ضخم وذلك قبل خروج علوي البصرة » وأورد القصة كما رواها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه « مقاتل الطالبيين » عن « ابن سليمان » أيضاً أنظر ص ٦٧٥ طبعة دار المعرفة تحقيق السيد صقر ومطلع البدور ص ٣٦٣ [مخطوطة زبارة] .

ونحن نعلم ان علي بن زيد خرج بالكوفة أيام المعتمد العباسي عام

٢٥٥هـ ويعني هذا ان قاضينا محمد بن سليمان كان قد بلغ الحلم وجاوز الخامسة عشرة على أحصف تقدير ، فتكون ولادته تقريباً حوالي عام ٢٣٩هـ أي انه أسنّ من الامام الهادي ، وأنّه ما خرج معه في سنة ٢٨٣هـ الاّ وقد نيّف على الأربعين ؛ وإذا كان ـ كما يقول بن أبي الرجال ـ قد تولّى أيضاً القضاء للامامين المرتضى والناصر ابني الهادي ؛ والناصر توفي سنة ٣٢٢هـ فنرجع ان القاضي بن سليمان توفي في أيّامه وهو في سن الثمانين أو قد تجاوزها ، وأمضى سنيّ عمره الطويل ما بين العراق والحجاز واليمن في كفاح وصراع وجهاد مرير . ونستنتج من كلّ ذلك انه كان من أصحاب الهادي ومن نقلة أخباره ومصادر سيرته التي بين أيدينا ، وانه وان كان ليس من مؤلفي سيرته وكُتّابها فهو أحد ، بل وأهمّ رواتها ، ومن الأقطاب الذين اعتمد عليهم الهادي وأولاده كما استنتج الأستاذ الدكتور سهيل زكار وإن لم يبلغ درجة الوزارة كما ظن المحقق الجليل .

ترجمة علي بن محمد العبّاسي العلوي
٢٦٩ ـ ٢٩٧هـ / ٨٨٣ ـ ٩١٠م

ذلك هو محمد بن سليمان الكوفي أما الشاعر الفارس العلوي الذي يجمع كلّ المؤرخين والمحدّثين اليمنيين انّه مؤلف سيرة الامام الهادي أو جامع أخبارها والذي يقول الدكتور زكار انّه لم يوفّق إلى الاطلاع على شيءٍ من أخباره فيما تسيرّ له من مصادر ومراجع عندما قام بنشر وتحقيق سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين فلا يخلو كتاب من كتب تاريخ اليمن وتراجم وطبقات رجالها ولا سيما مؤلفات الزيدية من ذِكْره وأخباره وأشعاره والقول بأنه مؤلف أو جامع سيرة الهادي ، والعباسي نسبة إلى العباس بن علي بن أبي طالب وقد ترجمه المؤرخ السيد يحيى بن الحسين في الطبقات ورقة ـ ٢٣ ـ فقال : الشريف العلامة علي بن محمد بن عبيد الله المذكور آنفاً قال في روضة الحجوري : وهذا علي بن محمد بن عبيد الله هو المصنف لسيرة الهادي وله القصيدة التي أشدنا بذكرها في ترجمة أبيه ذكرها في آخر كتاب أبيه إلى الهادي لما تمالأ بنو الحارث على حرب أبيه وأسره » [أنظرها في السيرة ص ٣٣١] ثم أورد له أبياتاً من قصيدة سينية مطلعها :

لاح المشيب بمفرقي وبرأسي   وبعارضيّ فعاد كالقرطاس
يا بن الحسين تحالفت « حارٍ » على   أن يقتلونا يا بني العبّاس

***

[أنظرها كاملة في ص ـ ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥٠ ـ في السيرة]

قال يحيى بن الحسين : « وهي طويلة وكان عقيبها وصول الهادي إلى نجران وحربهم كما قدمنا في ترجمة أبيه محمد بن عبيد الله ومات علي بن محمد رحمه الله تعالى ولعل قبره في « خيوان » قال الزريقي وهو مشهور مزور وفيه يقول الهادي شعراً :

قبر بخيوان حوى ماجداً   منتخب الآباء عباسي
قبر عليّ بن أبي جعفر   من هاشم كالجبل الراسي
من يطعن الطعنة خوّارةً   كأنها طعنة جسّاس

***

قال : « وكان له وقعات مع الهادي مشهورة » هكذا دون أن يذكر عام ولادته أو السنة التي توفي فيها . لكنه قد ذكر في ترجمة والده ما يلي : « الشريف العلامة محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن عبيد الله بنِ الحسنِ ابنِ عبد الله بن أبي الفضل العباسِ بن علي بن أبي طالب كان رجلاً فاضلاً عالماً مجتهداً شجاعاً كريماً وكان والياً على بلاد نجران من قبل الهادي ، وكان يقع بينه وبينهم حروب كثيرة وفي أكثرها يصل إليه الهادي بنفسه ويتولّى حربهم قال السيد الوزير وهو والد علي بين محمد مصنّف سيرة الهادي الآتي ذكره قال : ونقلت من غير رواية علي بن محمد ما معناه وفي سنة ـ ٢٩٤ ـ أربع وتسعين ومائتين ظهرت القرامطة في نجران وظهر الفساد فكتب محمد ابن عبيد الله إلى الهادي يعلمه بذلك » ثم أورد أبياتاً من قصيدته الرائية المثبتة في «السيرة» صفحات ٣٣١ ـ ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ـ ٣٣٤ ـ وهي من جيّد شعر علي بن محمد وأوّلها :

دار لميّة ما بها آثارُ   فالرَّبْع منها موحشٌ مقفارُ
قد غيّرتها بعد ساكنها الصَّبا   وتقادم الأزمان والأمطارُ

***

ثم أورد أخبار مأساته الدامية ، وقتله وأصحابه وبعض أولاده وأحفاده كما هو مذكور في السيرة ص ٣٧٠ إلى ص ٣٨٣ .

وأمّا المؤرّخ القاضي أحمد بن صالح أبو الرجال فقد نقل في كتابه « مطلع البدور » عن السيد العلامة محمد بن عبد الله بن الوزير المتوفي سنة ٨٩٧هـ قوله : « هو مصنّف سيرة الهادي عليه السلام قال بعض المؤرخين ان الهادي استخلفه على القضاء بنجران واستخلفه الناصر للحق على « عرق » وهي مدينة الدعام وبيته وبها مملكته ومملكة أولاده قريبة من جوف أرحب وتسمّى اليوم بسوق دعام ؛ وعليّ هذا هو أخو القاسم وأبوهما أحد ثقات الهادي قتل بنجران في قصة مشْجِيَةٍ شبيهة بيوم الطفّ ؛ وثأر به الهادي فأوقع ببني الحارث ومن ظاهَرَهم » .

وكلام إبن الوزير هذا قد أربك القاضي « أبا الرجال » فقال معلقاً : « والسيد علي بن أبي جعفر المدفون بخيوان والذي أصيب وحمل وقد ارتثَّ وقال فيه الهادي عليه السلام : « قبر بخيوان حوى ماجداً » الأبيات لعلّه غير هذا ؛ لأن هذا ـ أي مؤلف « سيرة الهادي » ـ ذكر في ترجمته انه تولى للناصر للحق عليه السلام » .

وهذا التشكيك من ابن ابي الرجال قد أربك أيضاً من جاء بعده من المؤرخين والباحثين ، بل وأظنّه قد حمل العلامة السيد محمد بن محمد زبارة على تحاشي ذكر الأبيات : « قبر بخيوان » الخ ضمن ما اختاره من أشعار الهادي في كتابه « أئمة اليمن » حتى لا يقع في تناقض ؛ ولم يجشّم نفسه البحث والنقد واحتمال وقوع الخطأ على السيد محمد بن عبد الله الوزير ، وان « العباسي » الذي ولاّه الناصر بن الهادي هو غير هذا علي بن أبي جعفر محمد بن عبيد الله الذي ألف سيرة الهادي وكان أبوه والياً للهادي على نجران .

ولم ينتبه البحّاثة السيد عبد الله محمد الحبشي إلى التناقض فقال في « مصادر الفكر » ص ٤٠٣ أن مؤلف سيرة الهادي علي بن محمد بن عبيد الله « تولّى في عهد الامام الهادي قضاء نجران وفي عهد ابنه الناصر عينّ على الجوف من أرحب » .

وجاء الدكتور حسين العمري فلم يقف موقفاً سلبيّاً كالسيد محمد زيارة ، ولا تشكّك كالقاضي أبي الرجال بل تابع البحّاثة الحبشي ، وقال : « وفي ذي الحجـة من سنـة خمس وثمانين ومائتين هاجر عليٌّ هذا إلى الهادي والتحق بخدمته فتولّى له القضاء على نجران حتى توفّى الهادي سنة ٢٩٨هـ وفي عهد ابنه الناصر (٣٠١ ـ ٣٢٥) ولي الجوف وأرحب وهذا يعني انه كان لا يزال حياً في مطلع القرن الرابع » ص ٢٧ ـ مصادر التراث اليمني .

من هو علي بن أبي جعفر العباسي ؟

وأسباب كل هذه التناقضات والارتباك والتشكّك والتهرّب من البحث قد نشأت عن الرواية التي نقلها المؤرخ ابن أبي الرجال دونما ذكر مصدر مكتوب عن العلامة محمد بن عبد الله الوزير المتوفي سنة ٨٩٧هـ انّ علي بن محمد بن عبيد الله مؤلف سيرة الهـادي قد تولىّ القضاء في جوف أرحب للامام النـاصر بن الهادي ممّا جعل أبا الرجال نفسه يقول « لعلّه غير علي بن أبي جعفر الذي رثاه الهادي بأبيات « قبر بخيوان » .

والذي تطمئن إليه نفسي بعد التأمل والبحث هو عكس « تعليل » ابن أبي الـرجـال ؛ أيّ انـه اذا كان علويّ عباسيٌّ قد تولّى القضاء للناصر في « أرحب » فهو غير علي بن أبي جعفر مؤلف سيرة الهادي لأن الذي اشتهر أيام الهادي بهذا اللقب والكنية « أبي جعفر » هو محمد بن عبيد الله والد علي الشاعر الفارس مؤلف السيرة المشهورة ، وأنه بعد استشهاد أبيه وذويه في نجـران قد صاحب الهـادي في حملتـه التي ثأر بها من بني الحـارث ومَن ظاهـرهم ، وانه قد ساهم في حربهم وجُرح جرحاً بليغاً وما إن وصل إلى « خيوان » وهو في طريق عودته وقفوله مع الهادي إلى « صعدة » محمولاً مرتّثاً حتى أدركه الأجل ؛ ولا شك ان الامام الهادي الذي كان قد أصبح مريضاً قد حزن عليه أشـد الحـزن وانكـاه ، وبكى فيه الشبـاب والاخـلاص والفروسية ، وقال الأبيات « قبرٌ بخيوان » وهي فردة بين الشعر الحماسي في تاريخ الأدب اليمني .

ومما يؤيّد ذلك ان كاتب السيرة يحافظ على تكنية والده بأبي جعفر وكثيراً ما يقـول « خرج أبـو جعفـر » ، « قال أبـو جعفـر » ، « كتب أبو جعفر » [ص ـ ٢٧٥ ـ و ٢٨٦ ـ مثلا] ، بل وقال عن نفسه حين ردّ على قصيدة ابن

طريف الوادعي : « لمن الدّار عفَتْ آياتها » : « فأجاب على ذلك علي بن أبي جعفر العلوي » ص : ـ ٢٨٨ ـ السيرة .

كما أنه لم يذكر انّه قد تولىّ القضاء في نجران في السيرة التي بدأها كيوميّات يسجّل فيها ما يسمعه عن أخبار الهادي أو ما شاهده وحضره منها ، ويحرص على أن يذكر أدقّ التفاصيل للمهام التي كلفه القيام بها الامام الهادي أو والـده أبوجعفر محمد بن عبيد الله العلوي والي نجران من قبل الامام . ولأن من رتّب تلك « اليوميات » وألف منها سيرة للهادي وأضاف إليها أخباراً عن أولاده وأولادهم قد قال في الصفحة الأولى منها :

« وعلي بن محمد هذا من نجباء الناشئين في أيام الهادي » « ذوي المقامات الشهيرة بين يديه ، وأحد الشهداء مع الهادي » « بنجران ، فنُقل من المعركة حيّاً إلى « خيوان » وتوفي بها وقبره » « مشهور مزور وفيه يقول الهادي إلى الحق » .

« قبر بخيوان حوى ماجداً » الأبيات . ثم قال : وقد اشتملت السيرة على كثير من مواقفـه ، وأبـوه أبو جعفر محمد بن عبيد الله الشهيد أيضاً بنجران كما ستأتي قصته إن شاء الله مستوفاة في السيرة » .
[ص ـ ١٥ ـ ١٦ ـ السيرة] .

ولأن بإمكان المرء أن يحصل من ثنايا « سيرة الهادي » على معلومات كافية تتعلّق بمؤلّفهـا أو راوية أخبـارها ـ كما قال الدكتور زكار فقد حاولت تقصيّ تلك المعلومـات فجمعت منهـا ما لو أضيف إلى ما سبق أن نقلتـه عن « الطبقات » و « مطلع البدور » لكوّن صورة واضحة لذلك الشاعر الفارس المجاهد الهادوي واضع أصول سيرة الهادي :

١ ـ ولادته ونشأته

فبالرغم من أن أحداً لم يذكر عام ولادته ولا حدّد مكانها ، فنحن حين نقرأ قوله : ص ـ ٣٥ ـ ٣٦ « حتى إذا كان في ذي القعدة من سنة ٢٨٣هـ وردت كتب من الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين عليه السلام على نفر من أهـل المدينة من بني أبي طالب وغيرهم يدعوهم فيها إلى طاعة الله تعالى والمجـاهدة لأعدائه » ، « وكان ممن كتب إليهم والدي محمد بن عبيد الله

العلوي من ولد العباس بن علي بن أبي طالب ، وإلى رجل يقال له يحيى بن الحسين بن يحيى من ولد عمر بن علي بن أبي طالب ولم أعرف من كتب إليه غير هذين الرجلين وكنت في ذلك الوقت غلاماً لم تجب لله سبحانه عليّ حجة » لا بد أن نستنتج ـ حين نقرأ هذا ـ أنه قد ولد بالمدينة المنورة ونشأ بها ، وأنه كان حين وصلت كتب الهادي إلى نفر من أهلها من بينهم والده يطلب منهم الخروج معه سنة ٢٨٣هـ كان لمّا يبلغ الحلم ولا جاوز سن الرشد وإن كان قد أدرك ما يدركه الفتى النابه الذكيّ من شئون الناس ؛ وإذا افترضنا انّه كان في حوالي الرابعة عشرة سنستنتج مطمئنين انه ولد سنة ٢٦٩هـ وانه لذلك لم يستصحبه معه والده حين عزم على الخروج إلى الهادي إلى الحق بل « اعلمه بخروجه وأمره بلحوقه بعد » عندما يشتد ساعده ويبلغ الحلم وتجب عليه حجّة الله .

٢ ـ التحاقه بالهادي

وعندما نقرأ قوله ص ـ ١١٥ ـ : « كانت هجرتي إلى الهادي إلى الحق في ذي الحجّة من سنة ٢٨٥هـ ، فوصلت إلى صعدة فوجدت أبي محمد ابن عبيد الله بها واليا للهادي إلى الحق » الخ نعلم انه قد لبث في المدينة بعد أبيه عاماً وبضعة شهور وانه كان قد بلغ السادسة عشرة أو يزحف إليها وانه كان قد أحس بإيمان عميق بوجوب الحجّة عليه ولذلك فما ان قابل أباه حتى أسرع إلى سؤاله عن كيفية « البيعة » التي يبايع الناس الهادي عليها فيحفظها ويسجّلها لأنه يريد أن يكون أحد الدعاة المجاهدين .

٣ ـ نبوغ مبكر ، ومزاج علمي

ولا بد أن يستنبط مَنْ يقرأ قوله في ص ـ ١٢٤ : « فلما وصلتُ البلد سألتُ إبي محمد بن عبيد الله عن جميع ما قدمنا ذكره في كتابنا هذا من أخبار يحيى ابن الحسين وسألت غيره ممن ذكرنا اسمه » . . انّ هذا الشاب ذو نبوغ مبكّر ، وهمة عالية ومتطلّع إلى المعرفة ، وانه كان قد بدأ يهتم بالأحداث ويتسقّط أخبار الهادي وأصحابه الذين منهم أبوه واخوانه وأولاد عمه ومن هاجر معهم من أبناء العِراقَيْن وطبرستان وليس ذلك فحسب بل وأنّه كان يتحرى فيما ينقله أو يسمعه أو يسجّله من أخبار ، وانه كان ذا مزاج علميّ وحس أدبيّ وله طموحات ومشاريع في حقول الأدب والسياسة والتأليف

ويؤكد هذا قوله وهو يتحدّث عن « كرامات الهادي » ص : ١٣٢ .

« وبعد فلو كتبنا كلما ينكره المنكرون عن علامات إمامة يحيى بن الحسين لكان في ذلك كتاب مفرد دلالة على إمامته ، ولعلنا أن نأخذ في ذلك ونصنّفه ونؤلفه إن شاء الله ونحتج فيه بما لا يدفع ، وبالله نستعين » .

٤ ـ أول ظهوره على المسرح

كان أوّل ظهور مؤلّفنا الفارس على مسرح الأحداث القيادية والعسكرية وهو في عنفوان شبابه ؛ بل لما يتجاوز العشرين من سنيّ عمره القصير العريض نعلم ذلك حين نقرأ قوله في ص : ٢٠٢ : « فلما استهلّ المحرّم من سنة ثماني وثمانين ومائتين ، [٢٨٨هـ] وجّه [أي الامام الهادي] إلى أبي جعفر محمد بن عبيد الله رسلا وأمره بأشخاص عسكر من بني الحارث وهمدان من ساكني نجران فوجّه إليه ابنه علي بن محمد في عسكر كثيف من خيل ورجال ، فلما وصلوا إليه إلى صعدة جمع من خولان عسكراً عظيما وخرج يريد خيوان وخلّف أحمد ابن محمد من ولد العباس بن علي بصعدة وخرج حتى نزل بالعمشية وكان على مقدّمته علي بن محمد العلوي » .

فها هو الشاعر الشاب الفارس الحريص على تسجيل الأحداث في يوميّات تكاد تحيط بكل ما يراه ويسمعه من معارك وخصومات وشعر وفقه وأدب . . ها هو يقود « عسكراً كثيفاً من خيل ورجال » من نجران إلى صعدة ، ثم يرافق الهادي في جيش عظيم هو نفسه أمير « مقدّمته » زاحفين من العمشية فخيوان إلى أثافت . . . ثم ريدة متجهين إلى « صنعاء » ؛ وفي حَدَقان عندما عبّأ الهادي عسكره ميمنةً وميسرةً وقلبا ؛ إستعدادا لمواجهة الجيش الجرّار الخارج لمناجزته من صنعاء بقيادة أبي العتاهية وبعد تأمّل وطول نظر اختار ابن عمه العباسي الشاب الفارس ليكون « حامل اللواء » في ذلك اليوم المشهود .

ويسجل صاحبنا ذلك باعتزاز فيقول : « ثم أمر [أي الهادي] الطبريين ان يكونوا بين يدي المعسكر [أي في المقدمة] وكان مع علي بن محمد في ذلك اليوم اللواء ، وذلك ان الهادي أعطاه اياه بالحائرة فكان معه يحمله بين يديه حتى دخل شبام » [ص ـ ٢٠٦ ـ سيرة] .

ويكرّر ذكر حمله للواء في نفس الصفحة عندما تقابل الهادي وأبو العتاهية في ساحة المعترك بقوله : « فلما نظر أبو العتاهية إلى الهادي عليه السلام قد فصل عن عسكره خرج معه نفر من أصحابه حتى صار بين العسكرين ، ثم أمر أبو العتاهية أصحابه بالوقوف فوقفوا ، ثم أمر الهادي أصحابه بالوقوف فوقفوا الاّ علي بن محمد فانه كان بالقرب منه وكان معه اللواء » .

وبهذا نعلم ان الهادي كان قد أعجب بأبن عمه الشاب العبّاسي وقدّر كفاءته وذكاءه واخلاصه ، فجعله قائد مقدمة جيشه وحامل لوائه و« ملازمه » الخاص الذي لا يفارقه ؛ ولا شك ان شاعرنا الفارس كان جدّ فخور بأن يكون حامل راية الهادي إلى الحقّ ، وانه قد تخيّل صورة من صور الماضي وتمثل في نفسه جدّه علياً عليه السلام وهو يحمل الراية بين يدي الرسول ﷺ عندما كان في عنفوان الشباب .

وبذلك ـ وبما في السيرة من مواقف كان الهادي يكلّف هذا الفارس الشاق من المهام ـ نستطيع أن نتصور مدى حزن الهادي وأساه عليه وفجيعته فيه ، ودوافع ذلك الشعر الذي وقف به على قبره يرثيه :

قبر بخيوان حوى ماجداً منتخب الآباء عباسي

***

٥ ـ نهاية والده

وسنعلم من السيرة ان فارسنا الشاعر مؤلفّ السيرة علي بن أبي جعفر قد عاد من صنعاء إلى أبيه في نجران سنة ٢٨٩هـ وانه ظل يتنقل في اصقاع اليمن ويرافق الهادي وأباه في حروبها وينوب عنهما في تحبير بعض الرسائل ويذيّلها بقصائد الحماسة والشكوى والتحريض حتى سنة ٢٩٦هـ حين اشتدت فتنة القرامطة وكانت الكارثة ، وتطوّرت في أسلوب درامي إلى المذبحة التي ذهب ضحيتها ليس والده فقط بل ومعظم أسرته وأهله وأصدقائه وفرسان نحلته ، وهي موقعة رهيبة قال المؤرخ ابن أبي الرجال : « انها تشبه كارثة الطف » ؛ ومن يقرأ تفاصيل المذبحة وظروفها في السيرة سواء فيما سجّله علي بن محمد هذا أو في الاضافات التي لا شك أن أصحاب الهادي قد ألحقوها بها بعد استشهاده يقدّر مصداق قول ابن أبي الرجال ؛

ويكفي ان نعرف ان عرامة الحقد والانتقام قد جاوزت المدى الانساني والديني وبلغت بالشاعر القرمطي « ابن موسى القطني » ان ارتجز وهو يحتز رأس « أبي جعفر محمد بن عبيد الله العلوي » بهذا الشعر الرهيب :

شيخ بشيخٍ ، وصبيّ بصبي   شفيت نفسي [وبلغت مأربي]
ولا أبالي بعدَ ذا ما حلّ بي   من سَخَطِ الله ، ومن لعن النبي !

وكان أخوه مع جماعة من بني الحارث قد أمر الهادي بقطع رؤوسهم في بعض أيامه [السيرة ص ٣٧٨] .

٦ ـ هل ندم الهادي ؟

حين كتب شاعرنا القائد إلى الهادي سينيته الطويلة التي يقول فيها :

لاح المشيب بمفرقي وبراسي   وبعارضيّ فعاد كالقرطاس
يابن الحسين تحالفتْ « حَارٍ » على   أن يقتلونا يا بني العبّاس
قالوا « المسودّ » قد أتى في نصرنا   وأعانه طرّاً جميع الناس
زعموا بأنك قد خُذِلتَ بصعدة   وشغلت بالعبد الذليل الخاسي
يابن الحسين ؛ تقاسموا أموالنا ،   وخيولنا ؛ فافرج بصولة قاسي
عجّل بنصرك يابن اكرم هاشمٍ ،   وافكك عشيرك من يد الحبّاس
إنّا ببئر .. لا خلاص لمن بها   منها فينجو سالماً بالرأس
فيها الأراقم والأفاعي كلّها   يسقيننا سمّ الحتوف بكأس !
إنّا بأرض لا يرى فيها لنا   إلّا عدوّا مرصداً لمِراس
يابن الحسين تركتنا غرضاً بها   نرمي ، ونبل القوم غير خساس
لا خير في « حار » ولا أحلافها   « يام » فانهم من النسناس
لا يشكرون صنائعاً أوليتهم ،   بل يكفرون ، وكلّهم متناسي

***

حين نفث لسانه بهذا الشعر وارسله إلى قائده وامامه الهادي ، مستغيثاً مستنجداً ، لم يكن فقط يتخاوص من ثقب الخطوب ليطلع على ما يتربص به وبوالده وسائر أحفاد « العبّاس بن علي » من كوارث ، ولا يرصد ويراقب ويتحدّث عن موقف والده وذويه وأصحابه القلّة بين حشود القبائل الثائرة

بحرضهم « القرامطة » على الهادي ومذهبه « الزيدي » المعتدل الذي يجاهر بالعدل والتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحكم بما أنزل الله . . لم يكن كذلك فحسب بل وكان يسجّل ما لا يستطيع ان يسجله بالنثر في مذكراته ويومياته ، أو بالأحرى ما قد لا يستطيع كقائد جيش له ما لمثله من طموحات سياسية وأشجان مذهبية عن « المسوّد » الذي لا نشك في انّه بقصد به نصير « الخلفاء العباسيين » في بغداد ، وابن عبّاد الذي قد تجشم الأهوال وذهب إليه مستنجداً ومن ورائه في صنعاء من مشايخ وحلفاء ، وقد كانت اليمن في تلك الفترة ممزقة شمالا وجنوباً كما المحنا سابقا .

وليس ذلك فقط بل وكان يلمّح بعتب مرير ويذكّر الهادي بأنه قد تركهم هدفاً للأعداء وغرضاً لسهامهم في أرض ليس لهم بها من نصير وكأنه قد القاهم في بئر سحيقة لا يرجى منها الخلاص وهي مملؤوة بالافاعي السامة والحيّات القاتلة تتناوشهم بأنيابها من هنا وهناك ، وكان قد كتب إليه ضمن خطاب لوالده محمد بن عبيد الله قبل ذلك بعام أي سنة ٢٩٤هـ قصيدة طويلة يقول فيها ذاكراً « القرامطة » :

ظهر الفساد بأرضنا وبلادنا قامت بذاك « قرامط » أشرار
كفروا بربّ الناس يابن محمد والكفر شيمتهم ؛ فهم كفّارُ
فانهض نُصِرْت عليهم ، فأبدهم ان « القرامط » عاضدتها « حارُ »

***

ولا أظنني بحاجة إلى القول بأن « حار » تصغير « حارث » وانه يعني « بني الحارث » واحلافهم ذلك الوقت من « يام » وغيرها .

كما انه قد أشار بصراحة إلى ان والده كان يشعر بخطورة موقفه وكان يتوقّع ما قد يحل به ويخشى حدوثه ويريد أن يتحاشاه وان « الهادي » هو الذي حال بينه وبين تجنّب ذلك المصير ، أو على الأصح انّ إخلاصه لله ولمبدأه هو الذي منعه من ان يصغي لصوت التوقّع ، ويحاول النجاة ، مع انه كان يستطيع ذلك لو كان من عبّاد الحياة ؛ سجل ذلك ولده شاعرنا المؤرخ عندما أشار إلى ان والده قد طلب من الهادي أن يعفيه من ولاية « نجران » وانه قد طلب منه لما حاجّه بأن يأذن له بنقل أولاده وذويه إلى مكان أمين ؛ يقول علي ابن محمد في أحداث عام ٢٩٦هـ :

« ثم عزم الهادي إلى الحق على الخروج إلى « صعدة » وقد كان أبو جعفر محمد بن عبيد الله أتاه قبل ان يُقتل « ابن بسطام » فسأله أن يعفيه من البلد فان أهلها أهل سوء ، وانهم لا يزدادون الا شرارة ولعنة ، فقال الهادي إلى الحق : لا نحبّ أن نحمل عليك أمراً تكرهه ، فاستخر الله تعالى في أمرك ، وأنا أرجو أن لا تخالف ما أمرناك به إن شاء الله تعالى ، فلما سمع ذلك من كلامه قال : جعلت فداك اني والله ما سألتك لخذلان مني لك ، ولا لترك النصر لك والقيام معك ، ولقد وهبت نفسي لله ولك يوم بايعتك وأخذت على نفسي ان لا أرجع عن أمر تأمرني به ولو كانت فيه هلكتي وعلى ذلك بايعتك ، غير ان معي حرمة وصبيان قد أثقلوا ظهري ، وتبل بهم ليلي ونهاري فان رأيت ان تصيّرهم عندك بصعدة ، أو تجعلهم بالحصن عند همدان حيث آمن عليهم ، وأقيم أنا مع بني الحارث أساقيهم كأس المنية حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين فافعل الّا أن ترى رأياً غير ذلك فاتبعه ، فأجابه إلى أن يصير عياله بالحصن ، ويكون هو وابنه علي بن محمد [المؤلف] يختلفان بين الهجر والحصن ، فلما كان من قتل ابي بسطام ما كان ارسل الهادي إلى الحق إلى محمد بن عبيد الله فأعلمه أن مصير عياله إلى « الحصن » مما يوهن أمره ويطمع عدوه فيه وأمره ان يتركهم في الدار التي كانوا فيها » [ص ٣٦١ - ٣٦٢ - السيرة] .

ترى هل ندم الهادي بعد الفجيعة التي حلت بعامله وحرمه وصبيانه ؟ وهل كان ذلك من دوافع حملته الأخيرة على « نجران » وهو يعاني ما يعاني من هموم ومشاكل وأمراض ؟ يقول المؤرخون ان حملته على نجران ليثأر لأبي جعفر كانت آخر حروبه ، ولا شك ان « علي بن أبي جعفر » مؤلف سيرة الهادي ، وحامل رايته في كثير من المشاهد قد كان مع من تبقى من اخوته وأولاد عمه ضمن هذه الحملة بل ربّما حامل رايتها وانه . . قد قاتل قتالا شديداً حتى خرّ جريحاً وحمل مرتثاً إلى « خيوان » حيث فارق الحياة ووقف الهادي يبكيه حزيناً ويقول :

قبر بخيوان حوى ماجداً ... منتخب الآباء عباسي
قبر علي بن أبي جعفر . . ... من هاشم كالجبل الراسي
من يطعن الطعنة خوارةً ... كأنها طعنة « جسّاس »

٧ ـ مرثاته لأبيه :

يذكر علي بن محمد في يوميّاته التي نسّقت بعد موته وأضيف اليها ما أضيف من قبل أصحاب الهادي ، وجعلوا منها كتابا سموه « سيرة الهادي » : انه بعد أن تلقّى نبأ مصرع والده وذويه « انصرف إلى الحصن وهو يقول شعراً » :

منع الحزن مقلتي أن تناما وذرى الدمع من جفوني سجاما
يوم ناديت حيِّ الاحلاف للنصر على « مذحج » ، وناديت « ياما »
ودعونا لنصرنا « الوادعيين » فلم ينصروا الأمين الهماما
لا يجيبون صارخاً قام يدعو يا لهمدان انصروا الاسلاما
فدعونا « ثقيف » كي ينصرونا فأجابوا ، ولم يكونوا لئاما
نصرونا على العدوّ وقاموا دوننا يدفعون عنّا الطغاما
فخرجنا بهم إلى « حار كعب » بخيول إلى العدوّ ترامى
فأتانا الخبير بخبر ان قد قتل « الهاشمي » وذاق الحماما
قتلت « حارث بن كعب » شريفاً خير من وحّد الاله وصاما
قتلوه ؛ فأفحشوا القتل فيه حين أضحى لديهم مستضاما

***

لهف نفسي عليه ؛ ما حنّتَ النيّبْ وما داعتِ الحَمام الحَماما
لهف نفسي عليه ؛ لهف لهيفٍ ، لهف حيران لا يلذّ مناما
لهف نفسي عليه ؛ مَن لي من بعد ؟ ومن للنساء أو لليتامى ؟
كان حرزاً للمسلمين وكهفاً ورجاءً ، ومعقلاً ، ونظاما
فتولّى ذاك النظام فأضحى ركن عز الاسلام ميتاً رماما
قتل الله « مذحجاً » شرّ قتلٍ بأبي جعفر وأصلوا غراما
فجزى الله والدي غرف الخلدَ وأعطاه جنّةً وسلاما
فلقد كان وافي العهد لله وبالحق والهدى قوّاما
نصر الدين واستقام على الحق وأوفى بالبيعتين الأماما

***

« فلما وصل إلى الحصن أقبلت همدان إليه يعزّونه في أبيه واعتذروا إليه فيما كان من تخلفهم عن نصرته والحمد لله ، وصلواته على سيدنا محمد وعلى

آله وسلم تسليماً كثيراً » [ص - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - السيرة] .

والذي نطمئن إليه ونكاد أن نجزم به عن يقين ان هذه الكلمات وهذه المرثاة في صفحات « يوميات » السيد علي بن محمد العباسي هي آخر ما كتبه عن « سيرة الهادي » بروايته ورواية والده وأصدقائه ومشايخه أمثال محمد ابن سليمان الكوفي ، وسعيد بن سوره ، ومحمد بن علي الطبري ومحمد ابن سعيد وابن ميمون والبعداني وان ما بعد هذه الصفحة ٣٨٤ في المطبوعة أو في غيرها من المخطوطات الموجودة في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء أو في مكاتب علماء اليمن . . . انما هي اضافات من قبل أصحاب الهادي .

٨ - لم يعش بعد الهادي

هذا هو علي بن أبي جعفر العباس مؤلف سيرة الهادي التي هي بحق كما قال الدكتور سهيل زكار « من أهم النصوص التاريخيّة وأعظمها معلومات » والتي هي من أهم مصادر الأدب والتاريخ ووثائقه عن الفترة التي نتحدث عنها ، وتساوي أهميّةً ونصوصاً آثار لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني مؤلف « الاكليل » و « صفة جزيرة العرب » ولا ندري هل التقيا في صعدة ؟ ولا أستبعد ذلك وإذا كان الهمداني قد ولد سنة ٢٨٠هـ فان العبّاسي لم يتوفى إلّا في سنة ٢٩٧هـ وقد بلغ الهمداني السابعة عشرة ؛ وقد كان والد الهمداني مثلما كان شيخه أبو النصر الحنبصي من « الزيدية » ولذلك هاجروا جميعاً إلى « صعدة » وعاشوا في كنف « الناصر » أيام صراعه مع « اليعفريين » وآل الضحّاك وبني زياد في زبيد وعدن ، وغيرهم ثم كان ما كان بعد وفاة الناصر وقيام ورثة السلطان والسيادة من كل الفئات والتجاء المفكّرين من أصحاب العلم والأدب والمبادىء إلى « ابن الضحّاك » حيث ألف الهمداني « إكليله » ، وأحمد بن موسى الطبري « مجالسه » .

نعم لقد توفّي العباسي وهو يشهد آخر معارك الهادي مع القرامطة في « نجران » . . والعباسي الذي تولّى القضاء للناصر قد يكون أحمد بن محمد الذي ولّاه الهادي على « صعدة » عندما زحف بجيشه على صنعاء وقال كاتب سيرته انه من ولد العباس وذلك ما ينسجم مع طبيعة الأحداث ونصوص السيرة .

ولـو أن شاعرنا الفارس الشاب قد عاش إلى زمن المرتضى بن الهادي وشاهد « اعتزاله » و « تنازله » لسجّل ذلك وقال فيه شعراً .

ولو أنه عاصر الناصر بن الهادي لشهد حروبه مع القرامطة ، وسجل انتصاراته معتزاً فخوراً وقال في ذلك شعراً .

ولو انه عاش إلى أن رأى « صعدة » معقل الهادي تخرب على أيدي أحفاده لسجّل ذلك بل ولتدخّل للحيلولة دون وقوع ما وقع من كوارث وأحداث وقال في ذلك شعراً حزينا . . أو لجمع ما تبقّى من حطام أهله وأولاد اخوانه وحـرم والده وصبيانه وقفل راجعاً إلى المدينة المنورة ليجاور مسجد ومثوى الرسول الكريم عليه أزكى الصلاة وأسنى التسليم .

هذا ولعـلّي قد أطلت الوقوف مع الامام الهادي وكاتب أصول سيرته وربما أكون في نظر البعض قد تعرضت لذكر ما لا علاقة له بموضوع كتابنا هذا ! وقـد يتـأوّل هؤلاء هذا التعـرض تأويلا مذهبيّاً لا ينسجم مع ما يسمونه « المنهـج » العلمي الحـديث ، وعـذري ان الهادي هو قمّة هذه الفترة ، وأعـظم وأكـبر أعلامها ، وقد نسبناها إليه ، ولا تزال آثاره وأخباره وآراؤه وفتاويه وأحكامه وأشعاره تعبّ تيّاراتها ، وتؤثر في حياة اليمنيين وعلى مختلف النواحي الفكرية والعقائدية والأدبية والفقهية والسياسية وسيتلاشى التأويل الوهمي عندما أقف وقفات لا أظنها ستكون قصيرة مع غير الهادي من عمالقة الفكر والأدب العربي في اليمن دونما أي تحيّز أو هوى مذهبي .

٣ ـ المرتضى بن الهادي
٢٧٨ ـ ٣١٠هـ / ٨٩٢ ـ ٩٢٣ م

هو الامام المرتضى محمد بن الهادي يحيى بن الحسين .
بويع له بالامامة بعد وفاة والده ؛ وكان عالماً خطيباً شاعراً زاهداً ، كما كان فارساً مغواراً وقاد ضد القرامطة عدة معارك ومؤلفاته تنوف على العشرين ومنها تفسير القرآن في سبعة مجلّدات . [أئمة اليمن ج ـ ١ : ٥٢] .

وقد آثر المرتضى التخلّي عن الحكم سنة ٢٩٩هـ /٩١٢م وضرب مثلا فريداً ووقف موقفـاً لا نظير له بين مواقف حكـام العـرب والمسلمـين عبر

العصـور ؛ فانّه لما رأى فساد المجتمع تذكر كلمة الهادي والده لما استقال وقال : والله لن أكون كالسراج يحرق نفسه ليضيء غيره .

ففي يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة نفس العام الذي بويع له فيه بالامامة جمع وجوه العشائر بصعدة ، وعاب عليهم أشياء كرهها منهم وعزم على الاعتزال عن الأمر وقال في خطبة خطبها عند ذلك :

« انكم معـاشر المسلمين أقبلتم اليّ عند وفاة الهادي رضى الله عنه ، وأردتموني على قبول بيعتكم ، فامتنعت مما سألتموني ، ودافعت ولم أوئسكم من اجابتكم إلى ما طلبتم منّي خوفاً من استيلاء القرمطيّ على بلادكم ، وتعرضه للضعفاء والأيتام والأرامل منكم ، فأجريت أموركم على ما كان « الهادي » يجريها ، ولم أتلبّس بشيء من غرض دنياكم ، ولم أتناول قليلا ولا كثيراً من أموالكم ، فلمّا أخزى الله « القرمطي » وكفى الله المؤمنين القتال ، وكـان الله قوياً عزيزا ، تدبـرت أمـري وأمـركم ونظرت فيما أتعرضه من أخـلاقكم فوجـدت أمـوركم تجري على غير سننها ، وألفيتكم تميلون إلى الباطل وتنفرون عن الحق ، وتستخفّون بأهل الصلاح والخير والدين والورع منكم ، لا تتنـاهون عن منكرٍ تفعلونه ، ولا تستحيون من قبيح تأتونه ، وذنب عظيم ترتكبـونه ، ولا تتعظون بوعظ الواعظين ، ولا تقبلون نصح الناصحين » ثم قال : « فلما لم أجد فيكم من يعين الصادق المحقّ ، ويأمر بالمعـروف ويرغب في الجهـاد ، ويختار رضاء الله على رضاء المخلوقين الا القليل اخـترت الباقي الدائم على الفاني الزائل ، وأيقنت ان السلامة في الزهد والاشتغال بعبادة رب العالمين والاعتزال عن جميع المخلوقين ، وكنت في ذلك كما قال الله تعالى : ﴿فتولّ عنهم فما أنت بملوم﴾ إلى آخرها [أئمة اليمن ج ـ ١ ـ ٧٥] وشعره أشبه بشعر العلماء والفقهاء ولا يرتفع إلى مرتبة شعر أبيه . وانظر حكام اليمن : ٤٦ ـ ٥٣ ومصادر العمري : ١٤١ .

وكانت وفاته بصعدة أيام أخيه الناصر سنة ٣١٠هـ في شهر المحرم عن اثنتين وثلاثين عاماً .

وقد أثبت له مؤلف سيرة الهادي خمسة وعشرين قطعةً شعرية من القصائد التي قالها في سجنه بعد موقعة « أتوه » منها قوله :

لا تكثروا ان قلبي ليس يفزعه … ثقلُ الحديد ، وحق الغرّ أجدادي
ما زرتكم بقنا الخطّي من عنت … في يوم « أتوه » لو أوفوا بميعادي
لكن « همدان » خلونا ، وما حفظوا … لنا ذمام رسول الله في النادي
ولو تناصفتِ الأبطال في جدد … ما كان عمرك رهط العبد أندادي !
أو كان حولي « خولان » لما رضيت … يوماً بتركي ؛ وفدّوني بأولاد ،

***

وكتب إلى أبيه الامام الهادي قصيدة منها :

أمير المؤمنين تعزَّ عني … ولا تحفل ببعدي واغترابي
وهبني كنت في القتلى صريعاً … بأطراف الأسنةِ والحراب
وقم لله مجتهداً مجدّاً … ومثلك لا يُعلم بالصواب
قليلٌ في المهيمن أخذ مثلي … وقلّ لأمره ضرب الرقاب
فلا تر أنني أصبحت يوماً … كَميداً ؛ لا ولا رخو النضاب
رضيت بمحنتي في الله ربي ، … لكي أنجو بتلك من العقاب
فلا تخضع لأهل الفسق وانصبْ … رماحَ الخط ، واجعلها جوابي

***

وقال أيضاً من أخرى :

ألم تر أنني في الحبس ثاوٍ … كئيباً في الحديد قرير عَينْ
لمعرفتي بفرض الله ربي … ومخرجنا لأحدى الحسنَيين
فان يك ما امتحنت به قبيحاً … فعيبوا مثل ذاك على الحسين
وفي « أحدٍ » على جدّي فعيبوا … هزيمته وقتل العسكرين
و « حمزة » عنفوه بذاك قبلي … شهيد السفح بعد البيعتينَ
ولو ثبت المهند في يميني … لدى الهيجاء والرمح الردَيني
لراح على أبي اسحاق ناع ، … ونيحَ عليه بين الرّبوتينَ

***

وله من أخرى يصف أسره وصبره :

ولكنني باسلت في حومة الوغى … لطاعة ربي ، ثم قصَّر بي مهري
ولو ثبت الميدان بيني وبينهم … لغادرهم رمحي وأوداجهم تجري

وقـد عرفـوني قبلهـا ، ولـو انهم ... مئين من الفرسان تربو على العشر
وكيف يراني النكس أرضى بتركهم ؟ ... وما كنت في حالٍ أوليّهم ظهري !
ونـحـن أنـاس لم يزل في قديمنـا ... بنـاة المعـالي حائـزين على القـدر
ومـا الصـبرّ مما فات كفّى اكتسابـه ... ولكن مني الصبر يعجب من صبري
وكم فادح يُشجى القـروم نزولـه ... على يسـيرٌ ؛ لا يضيق به صدري

وقد ترجمه العلامة المؤرخ حميد بن أحمد المحلي في الجزء الثاني من كتابه « الحدائق الوردية » فقال :

« نشأ على طريقة الدعوة واليقين ، متحلّياً بآداب الأئمة الهادين ، قد أدرك قصبات السبق في ميدان الفضل ، وحلّق في جو الشرف والنبل ، وله العلوم الحسنة والتصانيف المستحسنة ، وهي ظاهرة مشهورة في أصول الدين ، وفروع الفقه ، وعلوم القرآن » إلى أن قال :

« وأخذ أسيراً في بعض الحروب فأقام مدّة في ناحية « بيت بوس » وله أشعار كثيرة كتبها إلى والده فمن ذلك قوله :

كدّر الـورد علينـا والـصـدر ... فعـل من بدّل دينـا وغـدَر
أيهـا الأمـة ؛ عودوا للهـدى ، ... واتـبـعـوا الحـقّ بنـورٍ وبصر
حكّمـوا القـرآن فيـما بيننـا ، ... واتـركـوا عنكم أحـاديث السمر
ان قول الـله أشـفـى لكـم ... فبـه تنـجـون من حرّ سقـر
ان للسـيـف علينـا حرمـةً ... وبـه نسـطو على من قد خَتَر
عدمـتـنيَ البيض مع سمـر القنـا ... وتـبـدّلـت رقـاداً بالـسـهَـر
لأثـيرنّ عجـاجـاً ساطـعـاً ... بالـعـنـاجيـج وبـالبيض البترْ
وأديـرنّ على أعـدائنـا ... كاس حرب وضريـم يسـتـعـر

ثم ذكر مبايعة الناس له بعد وفاة الهادي وبعض خطبة ثم استقالته وانعزاله ووفاته سنة عشر وثلاثمائة عن اثنتين وثلاثين عاماً .

[الحدائق ج ٢ ص : ٤٢ - ٤٦] وغاية الأماني ج ١ ص : ٢٠١ .

٤ ـ عبد الله بن الحسين بن القاسم
حوالي ٢٥٠ ـ ٣٢٠هـ / ٨٦٥ ـ ٩٣٣ م

العالم الشاعر الفارس الفقيه شقيق الامام الهاي وعضده وأكبر مناصريه ترجمة يحيى بن الحسين في « المستطاب » ترجمة قصيرة ولم يذكر عام ولادته ولا سنة وفاته ؛ واكتفى بقوله : « من علماء الهدويّة الاجلاء ، وكان مناصراً لأخيه ومعاضداً له ، وله وقائع مشهورة مع القرامطة وله مؤلّفات من أشهرها كتاب الناسخ والمنسوخ مجلد وهو كتاب مفيد معتمد عند علماء الزيدية ؛ وهذا السيد ينتسب إليه « الاشراف الحمزات » الامام المنصور بالله عبد الله ابن حمزة وجميع عمومته » [ص ٣٧ ـ مخطوطة محمد المنصور] .

وترجمه ابن أبي الرجال في مطلع البدور فقال : « السيد الامام الحجة عبد الله بن الحسين بن القاسم ترجمان آل الرسول بن ابراهيم بن اسماعيل صنو الامام الهادي إلى الحق عليه السلام والوارد معه إلى اليمن ، المسمّى بصاحب الزعفرانة لرؤيا رآها بعض الصالحين انه عاتبه في ترك زيارته مع انه لم ينبت الزعفران في قبر أحد غيره ؛ وكان عالماً مستجمعا لخصال الفضل ، وجعله العلماء أحد فضائل يحيى بن الحسين ، وقالوا حسبه مطاوعة عبد الله له على جلالة قدره فانه أعلم أهل زمانه وأفضلهم ، وله كتاب الناسخ والمنسوخ » ثم قال : « وتوفي باليمن ولكنه بيَّض تاريخ وفاته وقال : إن أحد امراء الحمزات عمر في قبره بصعدة قبة لأن جميع الحمزات من نسله » [ص ـ ٣٩ ـ مخطوطة زبارة ج ـ ٣ ـ مطلع البدور] .

وقد ذكره الاستاذ كارل بروكلمان في الجزء الرابع من كتابه « تايخ الأدب العربي » ص : ١٤ وقال إن كتابه « الناسخ والمنسوخ موجود في برلين ١٠٢٢٦ ؛ الامبروزيانا ٢٠ ـ وتوجد منه قطعة كذلك في الامبروزيانا . A ٧٥ رقم ١٢ .

وفي « فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء ص : ٧٧١ ـ ان الجزء الأول والثاني من كتاب الناسخ والمنسوخ لعبد الله ابن الحسين بن القاسم هذا في المجموع رقم ١٢٠ ص ٦٠ ـ ٩٦ .

ذلك هو كلّ ما ظفرت به عن هذا المؤلّف الذي يقولون « انه أعلم أهل

زمانه » ؛ ولعلّه كان أصغر من أخيه الهادي سناً ؛ ونحن نعلم ان الهادي يحيى بن الحسين ولد سنة ٢٤٥هـ فاذا كان يكبره بخمس سنوات فيمكن القول انه من مواليد عام ٢٥٠هـ ، وانه حين خرج مع أخيه إلى اليمن عام ٢٨٤هـ كان في حوالي الرابعة والثلاثين .

وأخباره المثيرة موزّعة في سيرة الهادي ما بين صفحة ١٨ و ٣٥٩ حين كان مع الهادي في نجران عام ٢٩٥هـ لما قتل ابن بسطام . . ثم لا نسمع له بعد ذلك خبراً لأن صاحب السيرة سرعان ما توفي . وربما انه عاش إلى أواخر أيام ابن أخيه « الناصر » وتوفي قبله حوالي عام ٣٢٠هـ .

أخباره في سيرة الهادي :

من يريد أن يعرف شيئاً عن حياة صنو الهادي ، أو من يودّ أن يتحدّث عنه أدبيا ، فلا بد أن يتسقّط أخباره ويتتبّع اراءه في كتب السير والتاريخ والفقه ، وسأحاول أن أوجز له ترجمة بتتبّع أخباره في سيرة الهادي وهي الطريقة التي لجأت إليها عندما تحدثت عن ابن عمه علي بن أبي جعفر العباسي مؤلف السيرة نفسها وسوف استخرج له ترجمة لأول مرة في تاريخ الأدب اليمني من بين سطور تلك السيرة المفيدة ، وهي طريقة شاقة ومتعبة ولكن لا مناص منها فقد جشمت نفسي والزمتها كتابة تاريخ للأدب العربي في اليمن خلال العصر العباسي وهي محاولة بكر ، ثم ان من تعوّد المشاق ، والف افتراع الصعاب يستسهلها ، بل ويحبّها ؛ مثَلُهُ مثل « الرياضي » الذي يعشق تسلّق شناخيب الذري ، والغوص في أعماق البحار ، وريادة مجاهل البيداء ، ومصاولة الوحوش ولا يجد في كل ذلك الا المتعة والراحة .

والقارىء الحصيف سوف يستنتج من قراءة أخبار عبد الله بن الحسين ابن القاسم والاشعار التي كان يتبادلها مع أخيه « الهادي » ان كلا منهما كان يكن للآخر حبّا جمّاً ، وتقديرا يتجاوز الودّ الأخوي إلى الولاء العقائدي والمحبة في الله ، وسيلمس ان الهادي كان يعتمد على أخيه ، ويثق باجتهاداته ، وينتدبه لمهمّاته الخاصة ، وانه قد انتدبه عدّة مرات إلى الحجاز أحيانا لمراجعة مشايخه ، وأحيانا أخرى لجلب عدّةٍ وعتاد ، وقد رجع في احدى المرات ومعه عدد من فرسان الهاشميين والمضريين الذين كانوا يكوّنون

مع « الطبريين » أقوى فرقة في جيش الهادي أثناء صراعه مع « القرامطة » و « المحدثين » .

وسنقرأ في السيرة ان عبد الله بن الحسين كان هو قائد الحملة التي وجّهها الهادي من صعدة إلى « وشحة » لمحاربة وتأديب « أبي الدّغيش الشهابي » في ربيع الآخر عام ٢٨٥هـ وان معارك حامية قد حدثت ، وانه قد فاز وظفر ، وعاد إلى أخيه في جمادي الأولى من نفس العام [ص ٨٦ ـ ٨٩] كما انه ارسله في نفس العام إلى الحجاز في مهمة خاصة ولما عاد سنة ٢٨٦هـ وجّهه على رأس حملة إلى نجران ، لقمع من أظهر الفساد فيها من المحدثين والقرامطة ، وانه قد حبس أهل الفساد وأصلح البلد حتى قدم الهادي إليه [ص ١٣٠] .

وقد تحدّثت السيرة [ص ١٤٥ ـ ١٤٧] عن بعض ما جرى له وعاناه وصارعَهُ من صعوبات ، وأنه قد كتب إلى « الهادي » يخبره بما كان من بني الحارث وخلافها عليه وغدرها به ، وان خطابه لما وصل إلى « الهادي » أجاب عليه انه صائر إليه بنفسه وقد أرفق رسالته بقصيدة مطلعها :

ألا يـم ؛ إنّـما همّي جوادي ... ورمحـي والمفـاض من الـدلاص
ونعش الـدين بعـد ثوى دفينـاً ، ... وقـسـمي في الـبريّـة بالحصـاص
وضربي كل جبّـار عنـيـد ... بأبيضٍ مرهـفٍ فوق القُصـاصِ
ولا أبـكـى على ربـعٍ محيـلٍ ، ... ولم أرعِ الهـوَاربَ باقـتـنـاص
ولـكـن الـنّـزاع الى شقـيـقـي ... ودرعي ذَي الحفـائظ في العِـراص
فقـل لأبي محمـد ذي الأيـادي ... تأنَّ ؛ فسـوف يسعـدك ارتباصي
سأشجـى ظالميـك بحـد رمحي ، ... فلا يجدون عمـرك من مناص
بنفسي ما اعـتـممت له ، ومـا لي ... أقيـك ، ومهجتي عنـد الحيـاص
إذا رُعِـبَ الشجـاع من العـوالي ... وهـم من المخـافـة بانتكـاص !
حملتُ وفي يمـيـني مشرفيّ ... أقـدّ به الـطلي قدّ الضراص

***

إلى أن يقول :

فيـنعش خيرُهـا قومـاً وفَـوْالي ، ... ويهـلِكُ شرُّهـا من كان عاصي !
اتـتـك الخيـل معـلمـةً عليهـا ... أسـود يأنفـون من المـعـاصي ؛

وفـتـيـان إذا سمعـوا صراخي   أجـابـوا مغضبين من الصيـاصي
أولئـك حاشـدٌ وبـنـو بكـيـل   أو لو ضرب كأشـداق القـلاص

***

إلى آخرها وهي طويلة ، وقد فرح أبو محمد بكتاب الهادي ودعا الناس وقرأه عليهم ولا شك انه قد تلا القصيدة أيضاً وانّ قوافيها المحكمة ، وما فيها من ثناء عليه ، وتطمين له ، ووعيد للذين خالفوه ، وغدروا به ، قد رفع من معنويته ، وقد أطربه الشعر أيضاً فأجاب على أخيه بقصيدة من نفس الوزن والروي قال :

سلوتُ عنِ المنـازلِ والـعِـراص   وعـن دار الأحـبـة والاقـاصي
ومـن بالـفُـرْع من ولـدٍ ومـالٍ   ومـن بالـرَّوض منهم والصياصى
بأبـن أبي ومـن تفـديـه نفسي   من الأسـواء طراً ؛ لا منـاصَ
إمـام للبريّـة أريحـيّ ،   بلا ظن أقـول ، ولا اختـراصَ
بطاعـتـه فقـد أصبحـت أرجو   من الـرحمن ربيّ بالخـلاص
اذا لـمـعـت بوارقـه بـأرض   أظـلّ المـوت فيـها كالـنّشاص

***

إلى أن قال :

ومـا قصّرتُ في فرض عنـاني   ولـكـن بين مقصـوص وقـاص
سوى من بالمحـلّة من رغـوم   فهـم فيـها هويت من الحـراص
وأحـلاف براحـة قد اتـوني   على قبٍّ أيـاطـلهـا خماص
وقـالـوا طاعـة فشَفَوْا فؤادي ،   وكـانـوا مفـلحـين لمن ينـاصي
جزاهـم فالـق الأصبـاح خيراً   فودّهـمُ من الـود الخـلاص
سأحمـد خالـقـي في كل أمـر   وأسـألـه النـجـاة من المعـاصي
واجـعـل همتي مادمـت حيّـاً   طراد النـاكـثـين ذوى الحيـاص
وأغـزى الخيـل مضمـرة عليهم   ترى شعـث المعـارف والنـواصي

***

إلى آخرها ؛ وقد أجاب عليه « الهادي » يخبره بالمصير إليه ، وبعث مع الخطاب بقصيدة طويلة تجاوزت الخمسين بيتا ومنها :

أتـاني كتـاب منـك تذكـر سلوة ... عن المـال والاهلين يابن الأطـايب

***

ومنها :

اذا المـرء لم يجعـل رضـا الله ربّـه ... امـام رضـاه خاب من كل جانب
وآب حسـيراً قد تهتـك ستره ... ولم ينـج عن مستفـظعـات النوايب

***

[ص ١٥٠ ـ ١٥١ ـ ١٥٢] .

وقد أجاب عبد الله بن الحسين بقصيدة طويلة منها :

نفـي النـوم عنّي منـذ ستـين ليلة ... وأقعـدني التفكـار من كل جانب
أقـاسي صريخـاً كل يوم وغـارةً ... إلى كـلّ ضـدٍ للآلـه محارب
أبـيـت أراعـي كل نجـم ؛ وشرّ ما ... رعَت عين مهمـوم مجاري الكـواكب
إذا كوكـب منهـا بدا لنـظيره ... تغـوّر منـه جانحـاً في المغـارب ؛
واني على ما عضّـني من عظيمـةٍ ... لأقـطع من صافي الحـديـدةِ قاضب
لأن اشـتغـالي في رضى الله خالقي ، ... واني منـه بين راج وراهـب

***

ومنها :

ومـا إن أرى خلقاً من الناس كلّهم ... اذا حصـلوا في فرض ربي براغـب
اسـودُ شَرى إن هم من السيف أومِنو ، ... وإن فرقـوا منـه ضعـاف ثعـالب
ضع السيف فيهم يستقيموا ويهتدوا ... وخـذ قول مشفـاق عليك مواضبَ
والّا فكـن فـي كل يوم مسـافـراً ... لنجـران أو خيـوان طلحَ الجنـائب
وإلّا فدعْـني ؛ ان سيـفي صارم ... ولي خبرة احـكـمتهـا بالتجـارب

***

إلى آخرها ص ١٥٣ ـ ١٥٤ :

وفي ص ١٥٧ نقرأ ان الهادي بعد ان وصل صعدة وقبل ان يتوجه إلى

نجران قد كتب إلى أخيه قصيدة مطلعها :

الحّ العاذلون عليّ لمّا رأوني في المواقف لا أحيدُ

***

وفيها يشكو إليه ويقول :

دعوت الناس كلّهم لحقْ وأكثرهم عن التقوى يحيدُ
لأنهم على فِسق توالوا ويتبع ذلك الكفر العنيد
فقلت لهم ذروا كفراً وفسقاً وخلوه ؛ فقالوا : لا نريد
فان تأخذ بغير الحق تُتْبع ويصبح كلنا لك يستقيد
والّا فاعلمنْ أنا حروب كما فعلت بجدّيك اليهودُ !

***

وهي سبعة وعشرون بيتاً أجاب عليها عبد الله بقوله :

صدقت وأنت للتقوى قصود ومهما قد تقول وما تريد
فان أضحت حروبك كل نهج فلا نكس أخوك ولا رقودُ
ولا جثّامة في الحرب رخوٌ، ولا ورع إذا اقترع الحديد
ولا ينبو إذا نابت ضروسٌ ولا منها إذا احتدمت يحيد
ولكني لمعترك المنايا إذا هاب الشجاع لها ورود
واترك في الكريهة كل ضدٍ لفضلك منكرٌ وله جحود
صريعاً حوله الغربان تهفو وأوباش السباع له رُصودُ

***

إلى أن يقول :

أتشكو أنّهم فعلوا تعدٍّ كما فعلت بجدّيك اليهودُ
فأمرهم ومن حجّت إليه من الآفاق مرقلةٌ وفودُ . .
قريب إن تركت لهم سويّاً ورأيٌ سوف يحكمه سديد
فان هم سلّموا للحق طرّاً ضعيفهم ، وقرمهم الشديد
وآلا فالسيوف لهم عِصيٌّ وقد بعدوا كما بعدت ثمود

***

ثم وصف صاحب السيرة خروج الهادي إلى « نجران » سنة ٢٨٦هـ واجتماعه بأخيه وما نشب من معارك شارك فيها عبد الله مشاركات ذات شأن خطير . . [١٥٩ ـ ١٦٦ ـ ١٧٨] وقد قبلت في تلك المعارك أشعار وقال عبد الله :

طاب نومي وانجلى عني الأرق   وتسلّى ما بقلبي من شرقْ
اذ رأيت الخيل تردى بالقنا   شزّبا فيها مراح ونزقَ

***

إلى آخرها [ص ١٨٠] .

ونقرأ في ص ٢١١ ما كنا قد قرأناه في مطلع السيرة ص ـ ١٨ ـ من أنّ الهادي لما خرج من صنعاء سنة ٢٨٨هـ إلى يحصب ورعين والمخاليف الجنوبية والشرقية قد استخلف على صنعاء أخاه عبد الله بن الحسين ، وبعد أن تمرّد أنصار آل يعفر واضطر الهادي الى الانسحاب واطلاق سراح أسعد بن أبي يعفر وابراهيم بن خلف من حبس شبام أرسل أخاه عبد الله إلى الحجاز وسرعان ما عاد وبمعيّته ثمانون رجلا من مضر [ص ٢٢٤] وقد تقوى بهم جانب الهادي فأمر أخاه أن يلقى الدعام ويطلب منه النصرة على بني طريف وكان قد وعده بذلك فلما التقيا خذل الدعام عبد الله عن حرب بني طريف وقال : ان القوم في جماعة لا طاقة لكم بها ، واخلف ما كان أعطاه من نفسه فرجع عبد الله بن الحسين إلى الهادي واعلمه بما كان من خذلان الدعام له ، ولكن الهادي مع أخيه ظلّ قاصداً صنعاء وخرج لملاقاتهم من صنعاء ومن شبام آل يعفر وإلى طريف في جيش عظيم وكانت معركة « عروة » التي اعتمد فيها الهادي على « المضريين » و« الطبريين » ، وقد ظفروا وغنموا غنائم كثيرة ثم دخل صنعاء كما يقول صاحب السيرة [ص ٢٢٥] وكان الهادي ذلك اليوم يتمثل بقول الشاعر :

ويوم كأنّ المصطلين بحرّه   وان لم يكن جمرٌ وقوفٌ على جمرِ
صبرنا له حتى يبوح وانما   تفتّح أبواب الكريهة بالصبرِ

***

وفي ص ٢٣٦ والهادي لا يزال بصنعاء يقول صاحب السيرة « وقدم إليه

مادة من « الطبريين » يوم الخميس لتسع ليال خلت من صفر سنة ٢٨٩هـ فأقاموا بصنعاء أياماً فلما كان يوم الثلاثاء لأربع عشرة ماضية من صفر أمر الهادي إلى الحق أخاه عبد الله بن الحسين وربيع بن الروية فصارا بموضع يقال له « صَبل » فأقاما أياماً مقابلين لعسكر القوم بموضع يقال له « غيمان » .

ثم ظلت مناوشات المعارك تدور وفي احداها سقط الهادي عن فرسه وأرسل لأخيه عبد الله ولابن الروية فصارا إليه إلى صنعاء وعرضت للهادي علة واشتدت عليه حتى كان الناس يقولون انه قد هلك [ص ٢٣٨] .

وتقول السيرة :

ثم خرج أبو محمد عبد الله بن الحسين إلى عسكر ظَهر ، فوقع بهم في واد عَسِرٍ ، فقتل منهم نفراً من فرسانهم وَرَجّالتهم وانصرف .

فلما كان بعد ذلك بأيام أمر الهادي إلى الحق عسكراً ، فكمن لخيل كانت تخرج إلى الرحبة لقطع الطريق ، فالتقى الجيشان فاقتتلوا وأصيبت منهم فرسان ، وأخذت منهم داوبهم .

ثم أمر الهادي إلى الحق بجيش يخرج إلى صَبل ، فخرج فأقام بها أياماً ، ثم خرج إليهم للقوم عسكر من بيت بَوس ، فاقتتلوا على درب صَبل قتالا شديداً ، ثم أعطى الله الظفر منهم ، فانكشفوا إلى موضع يقال له تنعِم ، ووصل الخبر الهادي إلى الحق ، فوجّه عسكراً من خيل ورجال حتى وقعوا بهم في عسكرهم فطردوهم من المعسكر ، وقتل منهم جماعة وأخذ منهم خيلاً ، وغَنم ما كان وتُبعوا إلى بيت بَوس ، وأقام أهل صَبل بها ، وانصرفت المادة إلى صنعاء .

وفيما بين هذه الوقعات لا يزال الرجال يخرجون إلى أطراف مواضعهم ، ومواضع القوم ، ويقتتلون فيها وينهبون أموالهم ، ويرجعون إلى صنعاء .

قال : فلما كان بعد ذلك بأيام أمر الهادي إلى الحق أخاه عبد الله بن الحسين وابنه أبا القاسم فخرجا في عسكر في إتباع القوم حتى التقوا في جبل ظَبوه فاقتتلوا قتالا شديداً وأعطى الله عليهم الظفر ، وانهزم القوم ،

ورجع كل إلى معسكره ، وقد كان للقوم قائد بعَضُدان ، فأمروه أن يطلب الأمان ويبيع القلعة ويستدعي إليها نفراً ، وكان ذلك منهم مكراً وخديعة ، وكمنوا عساكرهم من دون القلعة ، وأرسل صاحب القلعة إلى عبد الله بن الحسين إني قد ضبطت لك القلعة فالعجل عليّ خذوها وادفعوا إليّ ما شرطتم لي .

فأمر الهادي إلى الحق عبد الله بن الحسين وابنه أبا القاسم ، فخرجا في عسكر حتى وقفا بالقرب من القلعة ، وبعثوا طلائع تَجس ما وراءها وحولها ، فوقعت على بعض كمُن القوم ، وخرجوا من مواضعهم في وجوه الطلائع وذلك بلطف الله تعالى لأوليائه ، وخدلانه لأعدائه فاقتتلوا قتالا شديداً وأعطى الله عليهم الظفر فانهزموا ، فقتل من رؤسائهم جماعة ، وأخذت منهم خيل ، ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً**﴾ .

فلما كان بعد ذلك اليوم بأيام ، أمر الهادي إلى الحق أخاه وابنه فخرجا بعسكر إلى حدّة وسناع فهجما بها على غرة فعلم القوم فخرجوا من جميع معسكراتهم ، والتحم القتال فيما بينهم ، وأعطى الله عليهم الظفر ، فقتلت منهم جماعة ، وولوا مدبرين ؛ وعاد كل إلى منزله .

ثم أقام الهادي إلى الحق بعد ذلك أياماً حتى قدمت مادة من الجعفري على أبي العشيرة بن الرُوية ، فنهض بهم وبعسكره حتى دخل قلعة زياد وقتل فيها وهدمها ، وكتب إلى الهادي إلى الحق وأعلمه بمصيره إلى الموضع ، وسأله أن يبعث إليه أخاه الربيع بن الرُوَية في عسكره الذي كان معه ، ويزداد معه فرساناً من فرسان الجعفري الذين كانوا بصنعاء . فأمر الهادي إلى الحق الربيع بين الرُوية بالمسير إلى أخيه بمن طلب منه . فلما وصل بأخيه ساروا بمن كان معهم من عسكر الهادي إلى الحق الذي كان بِصَبل حتى نزلوا إلى جانب غَيمان .

وأمر الهادي إلى الحق أخاه وابنه فخرجا في عسكر يُناظران أهل بيت بوْس ، ليقطعوا المادة عن أهل غيمان ، فأقاموا يومين مناظرين للقوم ، فلما كان عشية الثلاثاء وذلك في جمادى الآخرة من سنة تسع وثمانين ومائتين سار القوم للحرب ، وقد كانوا كمنوا كميناً لهم ، فعبأ أبو محمد وأبو القاسم عسكرهما ، فجعلوا الهمدانيين ميمنة والجعافر ميسرة ، والمهاجرين

والـطبريين في القلب ، فلما دنا القوم حملوا على الميسرة وكان فيها الجعافر فهـزمـوهم وقتلوا منهم جماعـة ، وانكشف العسكـر منهـزماً ، ثم انعطف أبـو محمد وأبو القاسم في جماعة الخيل فطردا القوم ، وقتلا فيهم ، ودخل عليهم الليل ، وحملوا من كان أصيب من أصحابهم ، فدفنوهم بالقرب من صنعاء ، وانصرفوا إلى معسكرهم . [ص ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١] .

وبعـد ذلـك غادر الهادي « صنعاء » إلى « صعدة » ثم إلى « نجران » وبعدها في سنة ٢٩٠هـ ، وبعد أن ناشده الدعام النهوض إلى صنعاء وأخذ له عهـود الولاء من آل يعفر وغيرهم نهض إلى صنعاء وكانت المعارك التي وصفتهـا السيرة ص ـ٢٤٥ ـ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ـ ٢٤٩ ـ وكانت معركة « أتوه » التي أسر فيها « المرتضى » بن الهادي والذي يهمنا ونحن نتتبع أخبار صنو الهـادي عبـد الله بن الحسـين انه كان معه في هذه الحملة التعسة ؛ قال صاحب السيرة ان الهادي « كان في قلب جيشه مع « الطبريين والعلويين » وكان معه من العلويين أخوه عبد الله بن الحسين وابنه أبو القاسم وابنه أحمد ومحمـد وعـلي أبنـاء الحسن بن القـاسم ، وابـراهيم وعبد الله أبناء محمد بن القــاسم ، وعــلي والقــاسم أبنــاء محمـد بن عبيد الله ، والحسـين بن الحسن ، ومحمد بن القاسم ، والحسن بن طاهر ، وكان هؤلاء الجملة معه في ذلك اليوم من ولد العباس بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه [ص ٢٤٨] .

وفي ص ٣٥٥ نلتقي بصنو الهادي وهو معه في نجران سنة ٢٩٥هـ في حروبه مع بني الحارث وقصته مع المرأة التي وجدها مسلوبة فطرح عليها ثوبه وحملها على دابته وأرسل بها إلى رجل من بني الحارث يقال له كليب بن نجاد فأمـره أن يُصـيّرهـا إلى حرمه ، وكانت المرأة بنت الأسود الكعبي . وآخر ما نجـد من أخبـاره في السيرة عندما وصف للهادي كيف كان قتل « ابن بسطام » في ص ٣٥٩ ثم لا نجد له بعد ذلك ذكراً .

ونحن نعلم أن الهادي توفي عام ٢٩٨هـ ولا شك ان أخاه عبد الله قد عظم حزنه عليه وانه قد بكاه ورثاه ، وانه قد بايع المرتضى ثم الناصر وكان له نشاط وجهاد في حروبها ضد « القرامطة » ، ولعله توفي في أيام الناصر إذ انه لو كان حيّاً لما وقف موقف المتفرّج من خلافات أولاد الناصر على السلطة

حتى كان ما كان .

ولو انّ سيرة الناصر للمؤرخ عبد الله بن عمر الهمداني بين أيدينا لعرفنا منها المزيد من أخباره وأشعاره ونرجو أن نوفّق إلى الحصول عليها .

٥ ـ الناصر أحمد بن الهادي
دعوته سنة ٣٠١هـ
ووفاته سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧ م

اثر تنازل المرتضى بايع الناس أخاه أحمد بن يحيى بن الحسين وهو شقيق المرتضى محمد وأمهما الشريفة فاطمة بنت الحسن بن القاسم الرسي كما قال صاحب « الحدائق الورديّة » ولم يذكر سنة ولادته ، وأغفل ذلك زبارة في « أئمة اليمن » قال « المحلّى » [ص : ٤٦ ج ٢ ـ حدائق] .

« وله التصانيف النافعة والكتب الرائعة ، منها كتاب « النجاة » في الرد على الجبرية والقدرية وفيه علم عجيب ، وكلام حسن غريب وهو مجلّد كبير ، وله كتاب « الدامغ » ثم عدّد كتبا أخرى إلى أن قال : وله في علوم القرآن ما يشهد له بالاصابة والتبريز ومن شعره قوله :

أبعد الأربعين رجوتَ خلداً … وشيبُك في المفارق قد أتاكا !
كأني بالذي لابد منه … من أمرِ الله ويحَك قد دهاكا

***

ثم ذكر بيعته من قِبل أخيه المرتضى وأهل الحل والعقد في شهر صفر سنة ٣٠١هـ وأورد بعضاً من رسائله وخطبه وقصيدة شاعره ابراهيم بن محمد التميمي التي مطلعها :

عادات قلبك يوم البين أن يجبا … وأن يراجع فيه الشوق والطربا

وذكر وقعاته وحروبه مع « القرامطة » وقال : « وساس الامور أحسن سياسة ، ودانت له ملوك اليمن واستولى على أكثر أعماله » [ص : ٤٩] .

ونقل المؤرخ زبارة في الجزء الأول من كتابه « أئمة اليمن » عن كتاب « أنباء الزمن » للسيد يحيى بن الحسين « ان الامام الناصر أحمد » « سار إلى بندر عدن فدخلها في ثمانين ألفاً » . وقال « بعد أن أصابه النقرس ومنعه من

القتال ووثب ذات يوم أحد أولاده على خصم له فقتله فارتجل الناصر :

ان لا أثب فقد ولدت مَنْ يثبْ كلّ غلام كالشهاب الملتهبْ

وهو بيت مفرد ، ثم قال وكانت وفاته سنة ٣٢٥هـ على الأصح من الأقوال . وقد قيل ان وفاته كانت سنة ٣٢٠هـ وقال في غاية الأماني انها عام ٣٢٢هـ وانظر غاية الاماني ص ٢٠٥ ـ ٢١٥ وأئمة اليمن : ٦٠ ـ ٦٤ ج : ١ . وقد ذكر « المحلّى » في الحدائق ان للناصر سيرة ألّفها العالم الجليل عبد الله بن عمر الهمداني الذي كان أحد أصحابه وقوّاده ، ولعمري لو وجدت هذه السيرة لأعطتنا تفاصيل مثيرة عن حياة ذلك العصر وستكون مع « سيرة الهادي » و« سيرة الامام القاسم العياني لمؤلفها الحسين بن أحمد الهمداني ، وكتب لسان اليمن أبي محمد الهمداني من أجلّ مصادر الأدب اليمني في تلكَ الفترة الخطيرة من تاريخه . ويقول الحبشي ان نسخة من كتاب الدامغ موجودة بمكتبة جامع صنعاء برقم ١٤١ علم الكلام .

٦ ـ إبن أبي عمر العدني
[ت ٣٢٠هـ / ٩٣٣ م]

قاضي عدن المحدّث الحافظ محمد بن يحيى بن أبي عمر ذكره الذهبي في « تذكرة الحفّاظ » ، والجندي في « السلوك » ، وقد سكن مكة زمناً فسمع بها من أئمة الحديث أمثال مسلم والترمذي وتوفى سنة ٣٢٠هـ /٩٣٣ م وقيل سنة ٣٤٠هـ وله « المسند » في الحديث ويوجد منه قسم كتاب الايمان في المكتبة الظاهرية ذكر ذلك الحبشي في « مصادر الفكر » ص ٣٩ ـ ٤٠ .

٧ ـ المراغي
[ت ٣١٤هـ / ٩٢٧]

العلامة الزّاهد المفتي حسين بن جعفر المراغي من الوافدين إلى اليمن في أواخر القرن الثالث وله ترجمة في « طبقات فقهاء اليمن » وقد سكن قرية « سَفْهنة » وتخرّج على يده كثير من أهلها . وله في علم الكلام كتاب سماه : « الحروف السبعة في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة » وتوفي عام ٣١٤هـ /٩٢٧ م وله مؤلف في الفقه « ما لا يسع المكلّف جهله » الحبشي مصادر الفكر ص : ٩٣ ـ ١٧٠ .

٨ ـ أبو الحسين الطبري
[حوالي ٢٦٨ ـ ٣٤٠هـ]

أحمد بن موسى الطبري وهو أيضاً من العلماء القادمين إلى اليمن في أواخر القرن الثالث والمؤثرين في حياتها الفكرية والأدبية ؛ ترجم له ابن أبي الرجال في « مطلع البدور » ج ـ ١ ـ مخطوطة زبارة ص : ٢٧٥ فقال « علامة الشيعة الفقيه الربّاني الراجح أبو الحسين أحمد بن موسى الطبري رحمه الله ، حافظ السنن ، الماضي على أقوم سَنن » ثم قال : « كان له من العناية باحياء الملّة بعد موت ابني الهادي إلى الحق [يقصد المرتضي والناصر] أضعاف ما كان في حياتهم وكان أحمد بن موسى من الطبريّين القادمين إلى اليمن فقُتِل في سبيل الله منهم من قُتِل ، ورجع منهم الى طبرستان من رجع ، بعد سقوط الجهاد لفقد سادات الأمة في ذلك العصر من الأئمة » ثم تحدّث عن عزمه على مغادرة اليمن ثم تصميمه على البقاء من أجل « تعليم أصول الدين في اليمن » وعودته من « زبيد » إلى « صنعاء » في قصة ظريفة فصّلها المؤرخ السيد يحيى بن الحسين في طبقات الزيدية الصغرى [المستطاب] نقلاً عن تاريخ مسلّم اللحجي وخلاصتها ان هذا الشيخ الجليل « شيخ الهدوّية وعمادهم في الاصول الدينيّة » لما رأى تضضع الأحوال في اليمن بعد وفاة الناصر بن الهادي عام ٣٢٥هـ وتناحر وتصارع أولاده على السلطة ساء ظنه في أهل اليمن وتبدّد أمله في الهدف الديني الذي من أجله هاجر إلى « الهادي » مع زمرة من أصحابه وتركوا وطنهم « طبرستان » فقرّر مغادرة اليمن والعودة إلى « دار أبائه ومنزل قومه » فهبط الى تهامة وقصد « زبيد » ليستعين بنايل سلطانها على سفره قال مسلّم اللحجي : « فلما قدم البلد أمسى ليلةً من لياليه في بعض دورها أو نواديها فبينا هو نائم اذ رأى كأنّ الهادي واقف عليه ثم قال : « يا أبا الحسين تخرج وتترك التعليم لأصول الدين باليمن اتّق الله ودع عنك هذا » ! فانتبه مذعوراً وكرّ راجعاً إلى صنعاء وصعدة وأعمالها لما كان عليه من التعليم ولم يدخل على الملك بزبيد لأنّه قد رجع عمّا كان مضطراً من أجله إلى تناول رفدة » [ص ٤٥ ـ طبقات يحيى بن الحسين] .

ونحن نعلم ان اليمن ومن قبل ان يموت الناصر ٣٢٥هـ كانت قد

اضطربت أحوالها فلما مات وقعت في أمر مريج وليس فقط لاختلاف أولاده في صعدة وتنازعهم خلافته بل ولضعف حكم بني زياد في زبيد اذ قد أصبح في أيدي الأطفال والجواري والعبيد الاحباش ، وتناثر نظام سلطانهم واقتطع المتغلّبون أجزاء من مملكتهم ، وتأسّست امارات « بني معن » و« بني الكرندي » و« بني التبّعي » و« بني وائل » ، و« بني المناخي » إلى « آل الضحّاك » سلاطين حاشد وآل « الدعام » سلاطين أرحب و« آل أبي الفتوح » مشايخ خولان و« اليعافرة » في شبام وصنعاء يتنازعون مع مواليهم واحلافهم ومعارضيهم وكان الجبّار علي بن الفضل قد هلك في « المذيخرة » سنة ٣٠٣هـ ، وصنع « أسعد اليُعْفري » بنسائه وأولاده وأصحابه ما صنع من سحْلٍ وقتل وسَبْي ، وتوفي الداعية الاسماعيلي الآخر منصور ابن حسن في مسور عام ٣٣١هـ ، وكاد كرسيّ السلطة في صنعاء وحواليها أن يستقر ويحتلّه « ابن الضحّاك » ، وبدأت قرون المذاهب والنحل بين ورثة النظريّات تتناطح وتتجادل وتتجالد ، والذين هاجروا الى الهادي في سبيل قضيةٍ ، ومن أجل مبدأ من الكوفة والمدينة وطبرستان يقوّضون خيامهم ، ويجمعون ما تبقى من حطام آمالهم ويعودون أدراجهم إلى أوطانهم ، ومنهم الشيخ أحمد بن موسى الطبري ! وهذا هو التأويل الذي نستمده من حكمة بقائه في اليمن ، بعد أن رأى تلك الرؤيا العجيبة ، والتي قال له الهادي فيها : « كيف تترك التعليم لأصول دين اللّه باليمن » يا أبا الحسين ؟! وقد وصفه مؤلف « المستطاب » وكاتب « مطلع البدور » و« مسلّم اللحجي » بأنّه كان « شيخ الهدوية وعمادهم في الأصول الدينيّة » . فوطّن نفسه على البقاء في اليمن لينفذ التعاليم التي تلقاها عن « الهادي » والّف « المنير » أو « الأنوار في معرفة الله ورسله » و« المجالس » وغيرهما .

ومن قراءتنا لبعض أخباره ومناظراته ومجالسه التي لم يبخل علينا بسَرْد بعضها نقلا عن اللحجي كلٌ من يحيى بن الحسين وابن أبي الرجال لا يسعنا الّا ان نعجب بتلك الشخصية « الطبرية » الفذّة الحكيمة ، وبسعة أفقه العقلي وزهده وورعه وحلمه وأناته وتبصره في سبيل اشاعة أفكاره ونشر دعوته ومثابرته متنقلا ما بين صنعاء وصعدة وزبيد وعدن .

يقول أحمد بن موسى الطبري انه حين قرّر البقاء في اليمن وصرف نظره عن مغادرتها ، وأضرب عن العودة مع من عاد من « الطبرانيين » إلى فارس . إنه قد « نظر لنفسه » وفكر في جميع حكام اليمن وسلاطينها وأبناء امرائها وأئمتها وملوكها ، ليختار المكان المناسب لاقامته ؛ قال : « فوجدت الناس أربعة ؛ منهم أسد ، ومنهم ذئب ، ومنهم ثعلب ، ومنهم شاة ، فنظرت فاذا أحكمهم عليهم ، وأقواهم الأسد فكان أحبهم إليّ جواراً فنزلت « صنعاء » وجاورت « ابن الضحّاك » . فهو ـ وقد حلب الدهرَ أشطره ، وعاصر الهادي والمرتضى والناصر ، وشهد حروب مختلف الطوائف لم يظل حبيس عاطفته المذهبيّة ؛ فيعاند الواقع ، ويصر على البقاء بجوار أحفاد امامِهِ الهادي ، ولكنّه قد حلل بثاقب بصيرته جميع حكام اليمن ، وعرف أن القوّة والشهامة في الزعيم ـ أي زعيم ـ تحرسه من الخوف ، وتجعله لا يضيق ذرعاً بالعلماء والمفكّرين ، وتشجعه على ان ينشد الحرية ويريد سيادتها في المجتمع الذي يحكمه ، ولم يخب أمل ابن موسى في الحاكم الأسد « ابن الضحاك » الحاشدي وكان قد أمِر أمره سنة ٣٣٣هـ يقول : « فنزلت صنعاء وجاورت « ابن الضحاك » فقال لي : أدع إلى مذهبك ، وأظهر حبّ أهل بيت نبيّك ، وتكلّم بما تريد ، ولا تخف من هذه العامة المجبرة » ! نعم هكذا قال « الحاكم الأسد » وهو منطق أمثاله في كل زمان ومكان ، ولعلّ نفس التفكير والتقدير والتصور قد حدث لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ؛ وفي الفترة ذاتها حين جاور قاعدة آل الضحّاك بريدة ، حيث ألّف كتابه الجليل الاكليل ، ولا شك بأنه قد اجتمع بأبي موسى الطبري عندما كانا معاً في جوار « الناصر » بصعدة ، ولفترة عشرين عاماً وربّما أن بعض أخباره قد ذكرها في كتابه اذ قد عودّنا أن يسجّل كلما يعلمه ويشاهده وانها من جملة ما حذفه محمد بن نشوان أو غيره ممن لا يؤمنون بحريّة الفكر والرأي ، والقول ، ولا يفرّقون بين طبيعة الأسد ، والثعلب ، أو الذئب ، والشاة ! ويستمر يحيى بن الحسين في سرد خبر « الطبري » فيقول : « قال فدخل جامع صنعاء وتكلّم ودعى إلى مذهب الهادي إلى الحق فاستجيب له فلم يلبث ان صار له حزب وشيعة يصلّي بهم في المسجد ؛ قال مسلّم : وكان رحمه الله من حسن الخلق واللطف والرفق والصبر والاناة والحلم والتلطف في الأمور بالمنزلة العليا والغاية القصوى » [ورقة رقم ـ ٤٥ ـ طبقات] .

وقد أثبت كلٌّ من ابن أبي الرجال ويحيى بن الحسين ـ وهما متعاصران وينقلان عن مسلّم اللحجي المتوفي عام ٥٤٥هـ /١١٥١ م أمثلةً من تعامله مع الناس وسلوكه في مجتمعه الذي يحاول اصلاحه وبعض مناظراته ومجالسه ، ومن ذلك :

١ ـ ريق الانسان طاهر !

قالوا ان قاضي صنعاء استدعاه للمناظرة بمشهد من علماء صنعاء ووجهاء الناس من أهلها فلّما احرج القاضي وضاق صدره بزَق في وجه ابن موسى الطبري ! فلم ينزعج ولم يُبَلْ بل مسح البزاق وهو يقول ضاحكاً : أجمعت العلماء على ان ريق الانسان طاهر هات جواب المسألة ! .

٢ ـ زكاة البر بالشعير

ومن لباقته ولطف أسلوبه ان رجلا كان يقارف المعاصي تأثّر بمواعظه وتاب ؛ ولكن الطبري ظل يداريه ويرفق به لأنه ثريّ غبيّ عامي ويريد أن يصلحه ويعوّده على فعل الخير ويفهّمه بالتدريج الواجبات الدينية فكان يتحاشى أن يظهر له ما قد يشقّ عليه ، أو ينفّره من أمور الدين فيرجع على عقبيه ، ويعود إلى سالف معاصيه ، واتفق ان أصاب الناس قحط ومجاعة ، وكان هذا العامي البخيل التائب ذا ثروة وله مزارع واسعة وفي حوزته الكثير الجم من سائر أنواع الطعام والحبوب ، فأتى إلى « الطبري » وقد رأى غلاء الأسعار ، وغلبه شحّ النفس ، وثقل عليه اخراج زكاة البر من البر فقال : يا أبا الحسين هل يكون زكاة البر من الشعير؟ ففطن أبو الحسين الى دوافع السؤال فقال : نعم . فزكّى البخيلُ برّه بالشعير ، وفرق منه على المساكين والفقراء ، وحَيِيَ به بشرٌ كثير من المعوزين ؛ ولما بلغ ذلك أصحاب « الطبري » أنكروا عليه فَتْواه فقال : يا قوم هذا شيء قلته عن رأي لا عن شرع ؛ فقد غلب على ظني اني لو قلت للرجل لا يجزي زكاة البر الا من البر لثقل عليه وبخل به ، ولم يزكّ ، وإذا صنع ذلك قالت له نفسه الامّارة قد عصيت الله في واحدة ، ومن عصاه في واحدة عصاه في أكثر فيمرد على المعاصي ويرتكبها وإذا ثبت على الديانة فسيعلم إن شاء الله ويخلّص نفسه ، ثم اني نظرت إلى مصلحة المساكين فعلمت ان الشعير أنفع لهم من العدم » .

وحتى العلامة يحيى بن الحسين قد قال معلّقاً على هذه الحكاية « وهذا ليس بوجه في الجواب كذلك ولو قال يجزي بالقيمة والسعر على رأي غير الهادي بجواز العدول إلى الجنس أو القيمة » ! قلتُ ولم يفطن مؤرخنا الى ما لاحظه الطبري وتحرّاه من مصلحة المزكّي والمساكين .

٣ ـ اصلاح جارٍ عربيد

وقالوا ان جاراً للطبري بصنعاء كان يعاقر الخمرة ويؤوي شرابها ، وكان يخفي عليه أمره في البداية ثم استفحل أمره واستهتر ، وذات ليلة جمع فيها بعض أصحابه وازعجوا الجيران بأصواتهم ، وأراد أبو الحسين أن يستكشف الأمر ويتأكد مما عليه ذلك المستهتر ، ويؤدّي واجبه نحوه من الوعظ والنصح والارشاد ، فذهب واشترى كبشا سمينا وقصد به ذلك الجار ، فلما قرع الباب وعرف مَن الطارق فتح له وهو يظن انه قد جاء اليه منكرا عليه ما هو فيه وفوجىء حين قابله هاشاً باشا وبالمعروف المعتاد من خلقه ولطفه وهو يقول : « بلغني ان عندك ضيفاً والجار مسؤول عن جاره وهذا كبش استعن به على أداء حقوق الضيافة » ؛ وخجل الرجل واستحى ، ولما أصبح نحىّ كل ما كان في منزله واستغفر وأناب وصلحت حاله .

٤ ـ مع قطّاع الطريق

ومن لطائفه انه كان في احدى رحلاته عائداً من الجنوب وقد نال الكثير من الخير والثياب والمال مما يجمعه من المحسنين ليوزعه على المعوزين فلما وصل إلى « حمر العلب » جوار جبل « نقم » المطل على « صنعاء » خرج عليه عصابة من قطاع الطرق واستولوا على ما في حوزته من الثياب والطعام والأثاث والمال ولم يبقوا له غير ثيابه وهو يتأملهم ضاحكاً لا يبدي أي مقاومة ولما أرادوا الانصراف قال لهم : « يا وجوه العرب هل لكم في أن يكون لكم كلّ ما قد أخذتموه حلال لا تخافون عليه عقابا ولا جزاءً ؟ وهل لكم في شيء من المروة والكرم ؟ قالوا كيف ؟ وما هو ؟ قال قد صرت في أيديكم وليس لي عليكم يد فيقال خفتموني ، وقد جئتُ بما ترون جمعته هدايا للفقراء والمساكين فلو اعتبرتموني واحداً منكم وقسمتم لي نصيباً كأحدكم فستطيب نفسي وترضى وأسامحكم ، ثم اني سأعود بنصيبي وأوزّعه على المحرومين فلعلّ الله تعالى يثيبكم على ذلك ، وتفوزون بالشرف وجزيل الشكر فراقت

لهم الفكرة واقتسموا ما انتهبوه عليه ، وجعلوا له نصيباً كأحدهم وكانوا قد ابقوا له ثيابه ومركوبه احتراماً لهيئته ، وجلال مظهره وشيخوخته ، ولطفه وبشاشته ، فقال لهم : أما وقد تعاقدنا وأصبحت واحداً منكم فقد وجب لكم علي حق الصحبة والصداقة وهُنا بين ثيابي صرة فيها دنانير ولكم فيها نصيب واخرج الصرة واقتسموا ما كان فيها من الدنانير السوّية وهم مسرورون ثم قال : لقد جمعت ما اقتسمناه لفقراء محرومين في صنعاء وهم أحوج إلى الثياب والعروض منهم إلى الدنانير فلو بعتموها مني بنصيبي من الدنانير لكي اعود بها إليهم فوافقوا وبعد التثمين بقي عليه من قيمتها ثلاثون ديناراً فقال : لو تبعني أحدكم إلى صنعاء لدفعتها إليه ولشكر صحبتي فقد لزمني لكم حق الصحبة ولزمكم لي أيضاً ! فاستجابوا وارسلوا معه أحدهم فلما وصل صنعاء عمد إلي كبش فذبحه وعمل طعاماً ودفع إلى الرجل الدنانير والطعام وقال : احمل هذا لأصحابك فلا شك ان عهدهم بمثل هذا الطعام بعيد في ذلك الجبل المقفر ؛ فلما أتاهم بالدنانير والطعام شاكراً كرم الشيخ رقّت قلوبهم ، وخشعوا ، وعلموا انه صادق الايمان ، فتابوا وأنابوا وهرعوا إليه ، واعادوا كلما كانوا انتهبوه ليوزعه على المحرومين وأصبحوا من جملة أصحابه وشيعته .

وقد أورد يحيى بن الحسين نبذاً من كتابه « المجالس » ومن ذلك ما يلي :

١ ـ التأويل والايمان الصحيح

« قال الطبري جرى بيني وبين رجل من أهل صنعاء كلام ـ وهو رجل مصري يقال له « ميمون » فقلت له : ما تقول يا ميمون في قول الله : ﴿**وما يعلم تأويله الاّ الله والراسخون في العلم**﴾ ، فقال يا أبا الحسين ليست القراءة هكذا انّما قال : ﴿**لا يعلمُ تأويله الاّ اللّه**﴾ وها هنا الوقف [ثم قال : ﴿**والراسخون في العلم يقولون آمنّا به**﴾] . قال فتغافلت عنه ساعة حتى نسي الكلام ؛ ثم قلت : يا ميمون ما معنى قوله الله تعالى : ﴿**واسأل القريةَ التّي كُنّا فيها والعيرَ التي أقبلنا فيها**﴾ قال : ليست القرية تُسأل لأنّها جماد ، وانّما يُسأل أهل القرية ، وكذلك العير لا تتكلّم وانما يتكلّم أهلها ! قال فقلت له : هذا من التنزيل أو من التأويل ؟ فقال : بل من التأويل . فقلت له : أليس قد قلت لي آنفاً : ان الوقف على « لا يعلم تأويله إلا الله » فمتى نزل عليك هذا التأويل ؟ قال فتحيّر ؛ وضحك قوم

كانوا بالحضرة ؛ قال : فقلت له في كلامنا بقية يا ميمون ؛ قوله عز وجل ﴿**والراسخون في العلم يقولون آمنّا به**﴾ ان كانوا آمنوا بما جهلوا فليس معهم إيمان ، وان كانوا آمنوا بما علموا فأيمانهم صحيح » .

٢ ـ علم النبيّ وعلم المهدي !

قال الطبري في المجالس : لقيت رجلاً من الحسينيّين « بعدن » وكان يقول بمذهب « الامامية » فقعدت معه على ساحل البحر في مسجد بناه رجل غريب فقلت له : يا شريف أنت مجمع معي على أن يد النبيّ ﷺ فوق أيدي الأئمة الطاهرين من « عليّ » الى « المهدي » ؛ قال : نعم . قلت : وفضائل النبي ﷺ فوق فضائل الأئمة وأعلا منها ؛ قال : نعم : قلت ترى ان إمامك يعلم ما في قعر هذا البحر ؛ ؟ قال : نعم : قلت والله عز وجل يقول لنبيّه : ﴿**ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم**﴾ قال فتحير وسكت .

هل كان « مطرّفياً » ؟

المطرفية فرقة « زيدية » « هدوية » قد نتحدث عنها أو نشير اليها عندما نذكر زعيمها الذي تنتمي اليه « مطرّف بن شهاب » في الفترة التالية ان شاء الله وانما ورد التساؤل الآن لأن المؤرخ يحيى ابن الحسين في كتابه « المستطاب » أو « طبقات الزيدية » قال : « وكان الطبري داعياً إلى مذهب الهادي في اليمن بعد موت الهادي وابنَيْه [المرتضى والناصر] حتى تبعه خلق كثير وصاروا علماء بعده ، وله من المصنفات كتاب « المنير » وكتاب فيه « مجالس ومناظرات » في أصول الدين على مذهب الهادي ؛ و « المطرفية » من « الهدوية » يزعمون أنه شيخ شيوخهم وعنه أخذوا مذهب الهادي في الأصول والفروع والله أعلم » [ورقة ـ ٤٩ ـ] .

وكان يحيى بن الحسين قد انكر على الطبري قوله في احدى « مجالسه » بانكار عذاب القبر وقال : « ان هذا القول لا يقول به من الزيدية الاّ المطرفية وقد انقرضوا بحمد الله فلم يبق منهم أحد » [ورقة ـ ٤٨ ـ] .

ويظهر ان تلاميذ « الهادي » وأصحابه قد اختلفوا بعد موته وزاد ذلك الاختلاف بعد موت « الناصر » وأنّ ذوي الآراء المستقلّة وأصحاب النبوغ منهم لم ينسجموا مع أحفاده ومنهم « الطبري » و « أبونصر الحنبصي »

وتلميذه « الهمداني » ونُبزوا بالألقاب ، وحوربوا من قبل بعض الفقهاء ومن يخالفونهم في بعض مسائل علم الكلام .

وكتابه « المنير » الذي ذكره يحيى بن الحسين توجد منه نسخة في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء كما يقول واضعا « فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء » الأستاذان أحمد محمد عيسوي ومحمد سعيد الرميح ضمن مجموع رقم ١٩٨ ـ [انظر صفحة ٨٠٢] ، ويقول الحبشي في كتابه [مصادر الفكر العربي الاسلامي في اليمن] ص ـ ٩٤ ـ ان نسخة أخرى من كتاب المنير في حوزة السيد محمد بن محمد المطهر بصنعاء ، ومصوّرة بالجامعة العربية وان كتابه « المجالس » ضمن مجموعة أبحاث ورسائل في « الامبروزيانا ٢٠٥ ق وأخرى في الجامع الكبير ـ ٧٩ ـ مجاميع .

وفاته :

لم تحدّد المصادر التي بين يدي تاريخ ولادته ولا وفاته ، ومن قراءتنا لسيرة الهادي نعرف ان « الطبريّين » قد هاجروا اليه دفعات ؛ وانه لم يدخل صنعاء عام ٢٨٨هـ / ٩٠١ م إلاّ وهم في « قلب » جنده ؛ وإذا كان أحمد ابن موسى هذا أحدهم فلا شك انه كان قد جاوز العشرين ومن هذا نخمّن ونستنتج انه من مواليد عام ٢٦٨هـ /٨٨٢ م ولعلّه عاش إلى ان جاور « ابن الضحّاك » مع زميله « الهمداني » ولم يمت الى بعد عام ٣٤٠هـ أو حواليها بعد أن جاوز السبعين .

وليت شعري هل لمسجد « الطّبري » المعروف حالياً بمسجد « الحرقان » علاقة به ؟ وقد رجعت الى كتاب « مساجد صنعاء » للقاضى محمد أحمد الحجري فلم أجد إشارة الى هذا « الطبري » أو انه قبر في ذلك المسجد علماً بأن جواره حارة ومقبرة للأطفال تسمى أيضاً باسم « الطبري » .

دور الطبريّين في اليمن .

وقد لعب « الطبريون » في هذه الفترة التي نتحدث عن آدابها أدواراً سياسية وعسكرية وعلمية كان لها أعظم الأثر في تأييد الامام الهادي وأفكاره ونشر مذهبه في اليمن ، وكتب التاريخ تتحدث انهم قد توافدوا اليه دفعات وانهم كانوا أهم من يعتمد عليه في معاركه ضد « القرامطة » والعصاة ، فهل

يعني هذا أن « الهادي » بعد قفوله من اليمن أثر خرجته الأولى سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٤ م وعودته الى الرس قد اتصل بابن عمه الناصر الأطروش أو من كان يتفق معه رأياً ومذهباً من علماء العراق وفارس وعرض عليهم فكرة خروجه الى اليمن من جديد ، وأخبرهم بما عرفه في خرجته الأولى من توغّل العقيدة « الاسماعيلية » وسيطرتها على « الجنوب » بزعامة علي بن الفضل ، وعلى بعض مناطق جبال السراة في قلب اليمن حيث الداعي منصور بن حسن وتطلّعهم الى التغلّب فكريّاً وعسكرياً على « صعدة » و« نجران » وما صاقبها ليجعلوا منها منطلقاً ينتشرون منه شرقاً وغرباً وشمالاً بقصد السيَّطرة على سائر الجزيرة العربيّة ، وما كانت تعانيه اليمن من مشاكل اجتماعية وسياسية ، ومن انقسامات قبليّة وطائفية ، وصراعات بين سلاطينها وقبائلها وانه قد طلب من « الزيدية » أن ينجدوه وأن يخرجوا معه كما فعل مع أولاد عمه بالمدينة ؟ . ربما ان ذلك أو بعضه قد كان .

ان هجرة « الطبريين » إلى اليمن لنصرة « الهادي » وقد كانت دوافعها دينية وعقائدية خالصة ، وقصة عودتهم الى « طبرستان » بعد موت « الهادي » وولديه « الناصر » و« المرتضى » ، ونشاط من بقي منهم في ميادين الأدب والفقه ، وأصول الدين ، خليقة بدراسة مستقلّة ولعل الله يقيض من يتفرّغ لذلك من أصحاب الهمم وعشاق المعرفة ، والمهتمّين بالأدب العربي والفكر الاسلامي باليمن .

٩ ـ الهمداني
٢٨٠ ـ ٣٤٠هـ / ٨٩٤ ـ ٩٥٢ م

لا ينصرف ذهن الأديب أو العالم اذا سمع أو قرأ لفظة « الهمداني » . . دونما اسم قبلها إلاّ إلى أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني مؤلّف « الاكليل » و« صفة جزيرة العرب » الذي كان مؤرخاً وهو شاعر ، ونسّابة وهو سياسي ، وفيلسوفاً ورحّالةً ونحوياً ومحدّثا ؛ وما بين أيدينا من آثاره : شعراً ونثراً يعرب عن علم جم ، ومعارف واسعة ، وتبحّر في الرواية ، وبصيرة في الدراية ، وما ضاع منها أو ما لايزال مفقوداً ـ وهو الكثير بينها ديوان شعره في ستة مجلدات يخوّل لنا القول بأنّها لو وصلت الينا ـ أو لو اكتشفناها ـ لازدادت معارف الناس عن اليمن وتاريخها وآدبها ؛ وازدَدْنا

إجلالاً لذلك العلم الشامخ الذي اطلق عليه الأوائل والأواخر وبجدارة لا تمارىَ « لسان اليمن » .

وقد ذاع صيت الهمداني وانتشر ذكره في أنحاء العالم الاسلامي أيام حياته وبعد وفاته ؛ لأنه كان ذا نشاط جاد ؛ يواصل ويراسل علماء وأدباء الحجاز والشام والعراق ، وكان كثير الأسفار والتجوال ، وكان بمزاجه العلميّ ، وذوقـه الأدبي ، وحسّه الشاعر يسجّل كلّما يراه أو يقرؤه أو يسمعه ولذلك ظهرت كتبه وكأنّه يؤلفها للمسلمين في كل زمان ومكان ، وليس لأبناء قومه من اليمنيين فقط ؛ وان كان قد وهب قلبه ، وحسّه ، وعلمه لوطنه وقومه والى حدّ يراه بعض النقّاد والمؤرخين من القدامى والمحَدثين أنّه قد أفضى به الى التعصّب الأعمى ، والعنصريّة المشينة !

نشأته ومذهبه :

يكـاد المحققـون من المؤرخين أن يجمعوا على أنّه قد ولد في أوائل عام ٢٨٠هـ / ٨٩٤ م بداية فترتنا الأدبية التي نتحدّث عنها ، وقد سبق أن أشرت الى انها من الفترات الرهيبة في تاريخ اليمن والجزيرة العربيّة حين بدأ الحكم العبـاسي يتضعضـع ، وتشعّبت الملل والنحل ، ! وإنّها لَصُدْفة عجيبة لا يُغفلها « الفلكيّون » القدامى ـ وقد كان الهمداني منهم ـ أن تكون ولادته في نفس السنة التي خرج فيها الامام الهادي يحيى بن الحسين خرجته الأولى إلى اليمن ؛ ثم انقلب راجعاً إلى الحجاز واكتسحت الفتن اليمن ، وغادرها وَالي صنعـاء من قبـل العبّـاسيين ؛ وظلّت نهباً بين « القرامطة » و« الدعام » و« بني يعفـر » وغيرهـم حتى عاد الهادي من جديد كما أسلفنا وكتب اليه صاحب صنعـاء « أبـو العتـاهية » ليستقـدمـه ، ودخلهـا سنة ٢٨٨هـ . و« الهمـداني » يشـاهـد كل ذلك بعقله الواعي ، وشبابه المتحفّز وفطرته السليمة . وتهيىءُ منه الأقدار شخصاً سيلعب دوراً كبيراً في احداث فترته وتاريخها ويتحمّل من بؤسها ونعيمها ، وخيرها وشرها ، ما لا يتحمّله إلاّ المحظوظون من نوابغ البشر .

ولابد أنّ الهمداني وأباه وسائر اسرته بل وصديق والده وشيخه فيما بعد أبـو نصر الحنبصي قد أخلصـوا الـولاء مع أميرهم « أبي العتاهية » للامام الهادي ، وأن البعض منهم قد ساهم في المعارك التي ظلّت دائرة بينه وبين

سائر الفئات و « السلطنات » المتنازعة على « السلطة » ودليل ذلك انهم قد هاجروا الى « صعدة » عاصمة الهادي حين تغلّب « ابن فضل » القرمطيّ على صنعاء وكذلك حين تولاّها أسعد بن أبي يعفر نيابة عن « ابن فضل » حين حالفه وأصبح أحد عمّاله وقلب ظهر المجن للعباسيّين .

وقد ثابر الشاب الهمداني في « صنعاء » على دراسة العلم وكسب المعارف لم يشغله عن ذلك شاغل وكان ذا لاقطةٍ حافظة ، وذاكرة واعية ، سجّلت معظم ما شاهده أو سمعه من أحداث صباه ؛ ومنها كارثة القحط التي حلت باليمن سنة : ٢٩٠هـ /٩٠٣ م وهو لا يزال في العاشرة فقد ذكرها في الكتاب العاشر من « الاكليل » فقال وهو يتحدّث عن أنساب آل ابي حبش : « فنوا جميعاً في حَطْمة التسعين ومائتين باليمن وذلك ان ما لهم فنى ، ورقّت وجوههم من المسألة فاعتفدوا ، وأوصدوا عليهم وعلى أهاليهم وعيالهم أبوابهم فماتوا رحمهم الله ، فلم يبق منهم أحد سوى طفلة درجت من خلل بين حجَرَيْن فأخذها بعض بني الأزهر بن عبد الرحمن فرشّحت عندهم وزوجت فيهم ، وسوى رجل كان نازحاً عنهم » . ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ : ١٠ ـ تحقيق الخطيب وقال يحيى بن الحسين فيي « غاية الأماني » ص ـ١٩٠ ـ : « وفي هذه السنة ٢٩٠هـ اشتد القحط في اليمن حتى أكل النّاس بعضهم بعضاً ومات خلق كثير وخربت عدّة قرى » ثم ذكر حادثة اعتفاد آل أبي حبش [أو جيش] وأسندها الى « الهمداني » ونحن نعلم ان الاكليل من آخر تأليف لسان اليمن بعد عام ٣٣١هـ فهو قد ألّفه بعد الحادثة بأكثر من أربعين عاماً ولولا انه قد سجّلها لما علمها ولا أشار اليها أحد من المؤرخين . فيما عدا مؤلف سيرة الهادي .

وتوفي الهادي عام ٢٩٨هـ والهمداني في عنفوان شبابه يزحف إلى العشرين ولا شك لدي أنه قد حضر مجالسه وأخذ عنه وعرف طبيعة الصراع بينه وبين بقيّة المشايخ والسلاطين وميّز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، وربّما انه قد خاض بعض تلك المعارك مع الهادي ، ثم بايع المرتضى ثم أخاه الناصر ، وفي أيامه سنة ٣٠٦هـ ذهب إلى مكة المكرمة للحجّ وجاور فيها مدّة وكتب صدراً من الحديث والفقه وتعرّف على الكثير من علماء الحجاز والشام والعراق ولمّا عاد الى « صعدة » ظل يكاتبهم . . ويراسلهم وذكر القفطي وغيره انّه قد

رحل الى « بغداد » و« الكوفة » [وهذا بعيد] ، وانه قد اختلف مراراً بين « صعـدة » و« مكـة » وقد اختار « صعدة » له سكناً وظل فيها كما يقول عشرين حولاً لأنّ حكامها أمثال « الهادي » و« المرتضى » و« الناصر » كانوا أقـرب الى روحـه وطبيعتـه اليمنية المستقلّة ، والى مذهبه « الزيدي » من « القرامطة » و« آل زياد » أتباع بني « العباس » بل ومن آل يُعْفِر الذين كانوا كما قال الاستاذ حمد الجاسر « يميلون مع هؤلاء آونة ومع أولئك أخرى ، وينضمون الى غير الفئتين في بعض الأحيان » ؟ [مقدمة صفة جزيرة العرب] والهمداني الفيلسوف لا يستطيع ان يطمئن الى أمثال هؤلاء ، ولذلك استقر في « صعدة » ولا شك ان علاقة ودّ كانت تربط بينه وبين الناصر وقد أشار في كتبه الى مدائح الشاعر « ابن الحدوبة » فيه وفي أبيه الهادي وذكر أشعار غيره ولو ان كتب الهمداني قد وصلت الينا دون تحريف ، أو لو ظفرنا بديوان شعـره كامـلاً لوجدنا فيها الكثير مما يجحد التخرّصات والاختلاقات ويقر الحقائق التي تتلاءم وتنسجم مع أخلاق الهمداني الأصيلة وطبيعة مثلِه في مثْلِ تلك الفترة المضطربة التي نتحدّث عن آدابها ورجالها .

وقد أشرت في كتاب « قصة الأدب » إلى « أن خيراً كثيراً قد حجب عنّا عمداً ، وان كثيراً من المؤرخين قد أعماهم التعصّب ، أو التحيّز لفئةٍ ما ، أو مذهب ما ، ولذلك فعلى من يريد أن يدرس تاريخ اليمن وآدابها أن لا يقتصر على كتب فئة من الفئات ، أو مؤرّخي دولةٍ من الدول ، بل عليه ان يتحرّى ، ويتتبّع آثار كل فئةٍ من كتب مؤرّخيها وأدبائها ، وانه لمن دواعي الأسف ان نذكر ان أغلبيّة مؤرخينا ـ قدامى ومحدثين ـ هم من المتعصبين والمتحيزين ، ومعـظمهم تأثّـروا بما يحيط بهم ، وتضـجّ به مجتمعاتهم من تعصّبات مذهبيّة ، أو دعوات سلالية ، وقلَّ ان تجد فيهم من يستطيع أن يتحرّر من قيود بيئته ، أو ينصف غير أبناء طائفته ؛ ويتفاوتون ؛ بين مغرق يتعسّف ، وخـائف يتعثّـر ، وعـالم يتجـاهل ، وجاهل يتعالم ، وقد يبلغ بالبعض التطاول الى التكفير والتفسيق ؛ وبآخرين الانسياق وراء الخرافات والسخافات ، وبقومٍ الهبوط إلى مهاوي التضليل والدجل ويستوي في ذلك المحدثون والأقدمون » ص ـ٣٥ ـ ٣٦ ـ قصة الأدب .

العمود الفقري لحياة الهمداني :

لقد امترست الآراء والألسن ، واختلفت وتضاربت وتجادلت بالكلام عن

« الهمداني » ثناءً ومدحاً ، وتجريحاً وقدحاً ؛ شأنها في كل زمان ومكان مع الأفذاذ ، وقد ترجمه من القدامى صاعد الأندلسي ، والقفطي ، ويحيى ابن الحسين ، واهتم به وبكتبه المستشرقون ، وأثنى عليه ناقداً العلامة محب الدين الخطيب والبحاثة حمد الجاسر ومجّده وقدسه العلامة محمد بن علي الأكوع ، وتحدّثت عنه أوّلاً في كتابي « قصّة الأدب في اليمن » وثانيا في كتابي « دامغة الدوامغ » ثم ثالثا في كتابي « جناية الأكوع على ذخائر الهمداني » وفيه زيّفت بعض ما ينسب اليه من قِبَل من لم يعرفوا قدره ، وفنّدتُ من يزعم انه كان منحرفاً عن آل الرسول ﷺ وأثبت أنه كان زيدياً مجتهداً ؛ لا يؤمن بعصمة الأئمة ، وانه كان من أصحاب الهادي وأولاده « المرتضى » و « الناصر » ، وأن تشيّعه بالمعنى اللغوي الذي هو محبة الخمسة أهل الكساء ، ومراعاة المودّة في القربى لم يتأثّر بعصبيته لقومه « قحطان » ضد « العدنانيين » ، ولا بسوء التفاهم الذي حدث بينه وبين الناصر في أواخر أيامه بصعدة بسعاية ووشاية خصومه القوميّين والسياسيين ، وأوردت على ذلك البراهين الناصعة ومن أراد الاستزادة فليرجع الى تلك التراجم والكتب .

على أن جلّ ما قيل عن الهمداني قبل اكتشاف بعض مقالات كتابه « سرائر الحكمة » كان لا يخلو من العاطفة والهوى ، والتأثر بما قاله محبّوه أو خصومه ، ولا سيما في معرفة مولده ونشأته الأولى وقضيّة سجنه ؛ أما بعد العثور على « سرائر الحكمة » فان حياة الهمداني لم تعد محاطة بالغموض لأنه قد تحدث بنفسه عن نفسه ، وسجّل كتابَ سيرته بأسلوب روائي بديع نستطيع مما جاء فيه . . ان نستجلي صورة الهمداني ونحدّد معالمها فيما يلي :

١ ـ ولد بصنعاء في يوم الأربعاء ١٩ / صفر سنة ٢٨٠هـ وهو العام الذي خرج فيه الهادي يحيى بن الحسين إلى اليمن للمرّة الأولى .

٢ ـ حدثت به علّة ليست بشديدة وهو في الخامسة من عمره ، ولم يكد يبلغ السابعة إلّا وهو يحدّث نفسه بالأسفار .

٣ ـ كان أبوه رحّالة دخل الكوفة والبصرة وبغداد وعمان ومصر وكان لأسرته بصرٌ بالأبل منذ كانوا في « مشرق اليمن » ولما انتقلوا الى صنعاء اشتغلوا بالجمالة والتجارة ونقل الحاج بين جنوب الجزيرة وشمالها .

٤ ـ انتقل من « صنعاء » وهو في الخامسة عشرة ؛ أيّ عام ٢٩٥هـ الى صعدة قبل وفاة الامام الهادي ببضع سنوات وفي صعدة شارك أهله في عملهم وهو نقل الحجيج والتجّار ما بين صعدة ومكة . وفي صعدة بلغ سن الرشد وجنح الى متع الحياة وطيّباتها وشغف بمخالطة الناس ومجالسة الغرباء خاصة واكتسب من ذلك معارف وتجارب .

٥ ـ بعد عشرة أعوام من استقراره في صعدة أي حوالي سنة ٣٠٥هـ وهو في الخامسة والعشرين وقد أمِر أمرُهُ ، وكثر أصدقاؤه وحاسدوه وأشقاه الكد ، وأضناه الترحال واكتسب حدّة الطباع ، وحب الجدل والنقاش فنال من مخالطة المنافسين ومعارضة الخلطاء وعداواتهم ما زيّن له « السفر الكبير » فارتحل إلى مكة طالباً للعلم ومجاوراً للبيت الحرام . . ! ونعلم أنه أثناء رحلته هذه قد أصابه مرض شديد أشرف به على الموت ولكنه واصل الرحلة حتى وصل « مكة » .

٦ ـ جاور في مكة حوالي سبع سنوات أي إلى عام ٣١١هـ ؛ وفي مكة تفتّحت له آفاق المعرفة ، واتسعت بسطته في العلم ، وعرف الكثير من علماء الحجاز والعراق والشام ومصر والأندلس وتلقى العلم عن بعضهم وأخذ شيئاً من علم الأخبار والمنطق والحديث والفقه واقتنى بعض كتب السيرة ودواوين الشعر ، ورغم انه فقد في مكة رفاهية « صعدة » ولذاتها ، وتعرض لأذى حرّها وهجيرها ، كما يقول في المقالة العاشرة عن نفسه إلّا ان فترة اقامته بها كانت من أخصب سني التحصيل العلمي والنضوج الثقافي ؛ واشتهر وطار صيته في الآفاق ، بل ولقّح معلوماته « اليمنية » ومبادىء مذهبه « الهدويّ » بمعارف أصحاب الحديث ، وعشاق الفلسفة وعلماء المنطق .

٧ ـ في عام ٣١١هـ أو العام الذي يليه رجع إلى اليمن ونزل صعدة وهي يومئذ قاعدة الامام الناصر بن الهادي الذي كان أثناء غياب الهمداني في مكة ـ قد قضى على سطوة القرامطة ، واجتث شوكتهم في وقعة « نُغَاش » ، واصبحت « صعدة » أكبر مراكز العلم والأدب في اليمن ، وتكتظّ بالأفذاذ من العلماء والشعراء والفقهاء ، كما انها أصبحت أهم المحطّات التجارية ، وأكبر مراكزها ما بين مختلف الجهات اليمنيّة ، بل وطريق قوافل الحجّاج والتجّار من جنوب

الجزيرة الى شمالها ، وقد رحبّت صعدة بالهمداني من جديد ، « وعمَرَ بها دارا ، وامتلك عقـاراً » ، وطـاب له العيش والمقام بها وراق ، وساهم في إحياء الحركة العلمية والثقافية ، وشارك في الأمور السياسية والتجـارية ، وكـان له حظ لدى النّـاصر ، ومكـانـة بين العلماء والشعراء ، ووجاهة لدى زعماء القبائل ، وأخذ عن العلماء وأخذوا عنه ، وأرفدهم بما تعلّمه وهو بمكة ، وبما أورده معه من كتب تاريخيّة وفقهية ولغـويّة ودواين شعـر ، وارتفع قدره وعرض جاهه ، وكانت « صنعاء »وما صاقبهـا تحت حكم أسعد بن يعفرو « زبيد »يحكمها « ابن زياد » ، وهناك عدد من المشايخ والسلاطين يحكمون قبائلهم بتقاليد عشائريّة ، وأسلوب جاهليّ يُوالون هذا تارةً وذلك أخرى ، والجميع ـ كما أسلفنـا ـ يتصـارعـون على حطام الحكم والسّلطة ، ومدنهم وقراهم تتعرض للفتن والنّهْب والدمار ، بينما كانت « صعدة » عنـدمـا عاد الهمـداني تتمتّع بشيء من الرخاء والاستقرار السياسي وتـزدهـر بنشـاط ثقافيّ حيّ ، وحاكمها إمام مبّرز في علوم المعقول والمنقول . ولذلك كلّه اطمأن الهمداني إلى الاستقرار بها كما هاجر اليها استاذه أبو نصر الحنبصي فراراً من « القرامطة » و « الحِواليين » . وهناك قرءا معاً « سجل بن ابان » وأخذ عن شيخه الطاعن في السن ما أخذ في علم الأنساب .

٨ ـ ما بين عام ٣١١هـ وسنة ٣١٥هـ وبعد أن شب أولاد الامام الناصر ، وبرز الى الساحة مجموعة من الوزراء والقوّاد والمشايخ بدأت تنجم قرون الصراع والخلاف بين المتطلّعين الى « وراثة السلطة » إذا ما انتقل « الامام الناصر » الى جوار ربّه ، كما أن الخلافات القديمة بين قبائل منطقة صعدة والتي قلنا انها كانت سبباً من أسباب ذهاب وفود تلك القبائلِ الى « الرسّ » وتنصيب الهادي اماماً لهم سنة ٢٨٤هـ بدأت أيضـاً تُثَـار من جديد ؛ ونشأت معارك كلامية نشب بسببها صراع بيانيّ مرير بين شعراء التعصّبات العرقية ، والدعوات الجاهلية والتفاخر بين « القحطانية » التي ينتسب اليها عرب جنوب الجزيرة ، و « العـدنـانية » التي يعتزي اليها عرب شمالها ؛ الى جدل كلامي وفقهي بين أصحـاب المـذاهب والنِحَـلَ ، وشبت المعارك اللسانية بالحجج و « الدوامغ الشعرية » . وما كان للهمداني أن يسكت أو

يظلّ محايداً ؛ وأنّا له ذلك وهو يعتبر نفسه بل ويعتبره الآخرون « لسان اليمن » ! وليس ذلك فحسب بل وقد نالت ألسِنةُ الشعراء من قومه ، وربما انّ بعض حاسديه ومنافسيه قد نالوا منه شخصياً ونبزوه بألقاب « الجمّال » و« الحائك » و« ابن الدمينة » !؟

فما كان منه إلّا ان نضا شبا اليراع ، وجرّد سيف لسانه الصقيل وخاض المعركة البيانية شعرا ونثراً وكال لهم الصّاع صاعين ، ولعلّ بعض شعراء « اليرسميّين » و« الهاشميين » و« العَدَوَيّين » و« التميميّين » قد لفقوا ضدّه ما أوغر قلب « الامام الناصر » الذي كان قد أرهقته الحروب مع « القرامطة » و« اليعافرة » والموالي والمشايخ ، وغيرهم ، وضاق ذرعاً بالجدل « البيزنطي » السخيف بين الشعراء حول من هو الأكرم أَعَرَب « قحطان » أم عربُ « عدنان »؟ وكان مثقل الصدر بهموم « الامامة الزيدية » ومصيرها ، ويخشى على « اليمن » من التمزّق والضياع ؛ والفتنُ والأطماعُ تتربّصُ بها الدوائرَ ؛ وربّما انّه قد خشي أيضاً ان يكون بين هؤلاء الشعراء المتفاخرين « بقحطان » و« عدنان » و«مذحج » و« جُرهم » مَن غرضُه الفتنة والمكر ، وهدفه تمزيق العرب والمسلمين ولذلك فقد انفعل « الناصر » وأمر بوقف تلك المفاخرات والمشاحنات العرقية والعصبية ، والتي تجانف روح الدين الحنيف ، بل وأمر بسجن بعض الشعراء ومنهم « الهمداني » في يوم الثلاثاء ١١/رجب سنة ٣١٥هـ ولكنه سرعان ما أفرج عنه ، ولم يمكث في السجن غير عشرة أيام ؛ وربّما أن الناصر قد توعّده ، لو عاد إلى إثارة المعارك اللسانية بين « قحطان » و« عدنان » وربّما انه قد تخوّف على مستقبله وليس من شراسة خصومه السياسيين ومنافسيه من الأدباء والعلماء بل وممّا قد تتعرض له صعدة بعد موت « الناصر » ، وهو يرى الأطماع ، والأهواء والخلافات والتعصّبات تتربّص ، بل وتعمل لمصير مرعب مجهول . ولذلك قرّر النزوح الى « صنعاء » مسقط رأسه وكان يحكمها ـ والياً من قبل السّلطان أسعد بن أبي يعفر ـ ابنُ أخيه ابو الفتوح الخطاب اليُعْفِري ، وظنّ الهمداني انه سينعم عند « آل يعفر » الحواليّين ، الحميريين بالجاه والحماية لأنهم من قحطان

والهمداني لسانها ، وما لجأ من صعدة اليهم إلّا بعد الملاحاة العنيفة ، وتحت وعيد الناصر بالعقاب اذا ما عاد الى إثارة تلك المشاحنات السلالية ، والمفاخرات التي ضمنّها قصيدته « الدامغة » ولكنه ما إن وصل صنعاء حتى اشتغل خلال العامين ٣١٦ و٣١٧هـ بشرح قصيدته الدامغة في كتاب حافل بشتى فضائل قحطان . غير هياب ولا وجل لأنه في حمى سلطانٍ حميريّ قحطاني .

٩ ـ لكن سرعان ما خاب أمل الهمداني في آل يُعْفِر الحواليين وكان معهم كالمستجير من الرمضاء بالنار ، إذ كان يظن انه بنجاته من « صعدة » حيث الشعراء والعلماء والفقهاء الذين يتعصّبون لقريش وهاشم وعدنان والتحاقه بصنعاء حيث الحاكم فيها « تبعيّ » « قحطاني » سيبعده عن أيّ احتمالٍ لمكروهٍ يحلّ به ، أو شرٍ يْراد له ؛ غير ان الذي حدث كان عكس ما ظن وتصوّر ؛ فقد أمر السلطان أسعد بن ابي يُعفر إبنَ أخيه أميرَه على صنعاء في يوم الاثنين ٢٤ / شوال سنة ٣١٩هـ بالقاء القبض على الهمداني وتكبيله بالقيود والزجّ به في أعماق سجن رهيب ، وقد وصف الهمداني سجنه في المقالة العاشرة من « سرائر الحكمة » فقال ان السلطان غضب عليه في صنعاء في التاريخ المذكور آنفاً وأنه « كثرت المطالبة من الأشراف وذوي النجدة ، بالحسنى وبالشدة ، لاخراجه من السجن فكان أن سمح له في ابتناء مسكن يتسع فيه ، وفسح له في زيارة الاخوان ، وقضاء الحوائج وذلك بعد مضي سبعة أشهر وأربعة أيّام ـ أيّ أنه ظلّ تلك الفترة في سجن انفرادي ـ قال : « ثم اطلق من القيد الخفيف بعد أربعة وعشرين يوما ونقل من السجن العظيم الى ما هو في عداد المنزل » ثم بدا للسلطان « الحوالي » ما بدا فعاد الى التشديد عليه والتنكيل به قال الهمداني : « ثم تبدّلت به الحال الرضيّة الى حال ضيق ؛ فنقل من بلد الى بلد وطيف به مصفّدا الى مواضع غُرْبة ؛ فلقي من ذلك الأمريّن ، وكان ذلك بعد ستة عشر شهرا وثمانية عشر يوما من مدخله السجن ، ثم أدخل عليه بعض الراحة بعد سبعة عشر شهراً وثمانية عشر يوماً ، واحترك في الطلب فيه العظماء من الناس فنفذت فيه الشفاعة وأذن باطلاقه وأخرج » ، « ثم ردّ الى السجن ثانيةً ، ثم

أطلق من « الموضع » وبُعث به مغرّبا مع حفظَة أينما وصلوا من قرية سجنوه فأقام على ذلك ثمانية أيام ، ثم فلَت من النهج الذي قُصِدَ له به ، وملك نفسه [كأنه يعني انه تمكّن من الفرار من الحفظة الذي يطوفون به مكبلاً في مملكة الحوالي] وذلك بعد ستمائة و ٢٢ يوماً تكون شهـوراً تامة ـ ٢١ شهرا و ـ ١٩ ـ يوماً » قال : « ثم كان وقوعه في مأمنه وخلوده للراحة بعد فَلْتَةِ شهرين ويومين » ، أمضاها في تشرّد وتخفّي وخوف .

وإشـارةُ الهمـداني الى فراره من السجن تفسّر بعض الـروايات القائلة بأنّ سلطان « زبيد » قد ساعده على الخلاص من ذلك السجن والتنكيل ! . وبمتابعة قيودات الهمداني التاريخية نعرف انه قد فلت من سجن « اليعافرة » في أواخر شعبان سنة ٣٢١/ ٩٣٤هـ ولكنه ظلّ هارباً خائفاً يترقب حتى شهر ذي القعدة عام ٣٢١هـ ولجأ الى مأمنه في « ريدة » جوار سيّد « حاشد » يومَها أبو جعفر أحمد بن الضحّاك . ولا تفسيرِ يُعقل لماذا لم يهبط على السلطان ابن زياد في « زبيد » إذا كان حقاً قد ساعده على الفرار من سجن اليعفري إلّا إذا كان قد أدرك ان « آل زياد » على وشك الاضمحلال والاستسلام لمواليهم من الأحباش وهو ما لا تطيقه نفسيّة « الهمداني » .

شهادة « قصيدة الجار »

تلك هي فقرات عمود حياة « الهمداني » وسيرته منذ طفولته وحتى بلغ قمّة هرم الحياة ، وجاوز الأربعين ، وخلد الى كتابة « الاكليل » في أسفاره العشرة ومؤلفه الذي لم يصل الينا كاملاً أيضاً « صفة جزيرة العرب » ، وفي جوار ابن الضحاك « برَيْدَة » .

وبهذا نعرف أن الهمداني قد سجن مرتين الأولى في « صعدة » ولم يمكث فيه غير عشرة أيّام ، والسجن الرهيب الثاني مع التنكيل كان في « صنعاء » على يد السلطان أسعد بن أبي يُعْفِر ، وتتلاشى التخرّصات والدعاوى التي تريد أن تلقي تبعة ما قاساه وعاناه في ذلك السجن على الامام الناصر بن الهادي .

وأمّا ما ورد في الجزء الأول من « الاكليل » مما يوحي ان الهمداني نفسه قد ذكر أنّ « أسعد بن أبي يعفر » قد ذكر انه انما سجنه بأمر « الناصر » فلا شك عندي ان تلك العبارات لم يزبرها قلم الهمداني ؛ وانها من كلام مختصر الاكليل العلامة محمد بن نشوان الذي أقرّ أنه قد تصرّف في الكتاب ، وحذف وغيّر وبدّل لأسباب فصلتها في كتابي « جناية الأكوع على ذخائر الهمداني » وقلت « ان تشدّد الحواليّين في تعذيبه كما ذكر في المقالة العاشرة من « سرائر الحكمة » لا يمكن ان يقوم به الاّ ذو حقد شخصي نحو عدوٍ لدود ؛ ولا يمكن ان يكون ذلك مجاملةً لعدوٍ قديم ـ وهو الناصر ـ الذي زعموا انه أصبح صديقاً » !! « وفي نفس الوقت قد يجوز ان « أمراء آل يعفر » الذين تولّوا حبس الهمداني وتعذيبه قد حاولوا بعد اطلاق سراحه ، أو على الأصح فراره من سجنهم أن يقولوا له إنّهم إنما عملوا ما عملوا عن أمر الامام الناصر ، أو باشارته دسا وكيدا ! وكثيرا ما يحدث مثل ذلك ؛ وقد حدثني بعض الزملاء اليمنيّين الذين كانوا في سجن الرئيس عبد الناصر ومنهم الفريق حسن العمري والأستاذ أحمد نعمان والمقدم يحيى المتوكّل وغيرهم ان « الرئيس » أشعرهم بأنه لم يكن يعرف أنهم في السجن ملمّحاً انهم كانوا في سجن البعض من زملائه ! وقال لي الصديق الأستاذ محمد أحمد محجوب وزير خارجية السودان الأسبق ان الرئيس عبد الناصر قد قال له ذلك أيضاً ! فما يمكن أن يحدث في القرن الرابع عشر الهجري يمكن انّه قد كان قبل أحد عشر قرنا . . . . وزعم « الحوالي » ما زعم تنصّلاً وتبريراً !

على ان كل ذلك من باب الإفتراضات والجدل ، والاّ فقد بيّن الهمداني نفسه ان سجنه كان على يد السلطان اليعفري في كتابه سرائر الحكمة ، بل وسجل ذلك شعراً في قصيدته الطويلة التي سمّاها « الجار » وأثبتها المحقق « الأكوع » في مقدمة الجزء الأوّل من الاكليل وأوّلها :

خليليَّ إني مخبرٌ فتَخَبّرا بذلةِ كهلانٍ ، وحيرة حميرا ،

إلى أن يقول بعد ذكر ما قاساه من ويلات وما نزل على أهله و « بُنَيَّاتِه » من كرب وبلاء ، ومذكّراً لقحطان مناضلته عنهم وعن أمجادهم :

كأن لم تقولوا يوم ناضلتُ دونكم لئن ثأرتْ « عدنان » منك لنثأرا
أ «مُسْلم» لا تُلْحِقْ «مَعَدّاً» ملامةً، فأني أراهم من قبيليَ أعْذَرا

وكأنه يفنّد العذر السخيف الذي زعمه « اليُعفري » بأن « الناصر » قد طلب منه حبسه ! ويشير أيضاً الى قصيدته « الدامغة » التي تعصب فيها لقحطان وهاجم « الأمويين » و« العباسيين » بما كانوا يصنعونه بآل الرسول ﷺ ؛ ثم وجّه اللوم والعتاب الى السلطان بن أبي يُعفِر فقال :

فليس بمنجيهم من الخِزي موتهم ... إذا كان حرّ الشعر فيهم معمّرا
ويسقط ضِعْفيْ ذاك في حيّ حمير ... وسيدها المنظور فيها «ابن يُعْفِرا»
أنختُ بهِ خوفَ العداة وغدْرهمْ ... فألفيتُه فيهم على الأمن أغدَرا!
فملكهم منّي مناط قلادتي ... وأسلمني فيهم بأذني ، وأدبرا!
فلو كان إذ لم يحم ظهري استقالني ... وأدّبني حتى أَبِينَ فَيُعذَرا!
ولكنّه أغضى على الذل عينَه ، ... وفرّط في حق الجوار ، وقصّرا!
وأصلح بي ما كان من قبل بينه ... وبين «قريش» الأكرمين تَغَيَّرا!
وقد ذلّ من جارىَ بذمة جاره ... واسلمه فيما يخاف ، فأخفرا!

***

وهو يعني بقريش هنا « العباسيين » وأتباعهم في اليمن وقد كان لهم « اليُعْفِريّون » عمّالاً على صنعاء قبل أن ينقلب عليهم السّلطان أسعد ويتحالف مع علي بن الفضل كما هو مذكور في كتب التاريخ .

وقصيدة الجار حوالي مائة بيت وهي من الشعر القصصي البديع ولكنها - كما نشرها الأكوع - مفعمة بالأخطاء ، وتحريفات النسّاخ ولم يبذل المحقق أيَّ جُهْدٍ في تصحيحها ونأمل أن نتمكن من ذلك ان شاء الله .

أهم أسباب حبس الهمداني :

ويحق لأيّ منا أن يتساءل : لماذا تُرىَ ذلك السخط الوحشيّ الذي استبد بقلوب أمراء « آل يُعفِر » على « لسان اليمن » الهمداني ؟ وماذا كان بين السلطان أسعد وبين أبي محمد من تِراث ؟ وما هي الدوافع التي جعلته يعامله بذلك التنكيل الشديد ، والقسوة التي لا ترحم ولا تلين ؟

صحيح أن الظّلَمة في الغالب لا يُسأَلون في الدنيا عما يقترفون ، أو على الأصح عن أسباب ودوافع ما يجترحون ؛ وقد عوّدنا أسعد بن أبي يعفر وآباؤه وأولاده على إتيان ما لا يرضى به ضمير انساني ، أو خلق ديني ، أو وازع

عقـلي ، ومواقفهم في الغدر والفتك مع « التّراخم » و« الدعام » بل ومع أهلهم وذويهم لم يُرْوَ أبشع منها في تاريخ الظَّلَمة من حكّام اليمن عبر العصور .

ولكنا لم نسمع ان أبا محمد الهمداني قد زاحمهم على جاه أو سلطان فقد كان عالماً مؤرخاً يشتغل بالتجارة ونقل قوافل الحجاج والمسافرين بين مدن « اليمن » ، وبينها وبين « مكة » المكرّمة ؛! وإذاً فلابد من افتراض سبب جوهريٍ دخيل متوارث تغذّي حزازته ضروع « النكث » و« المروق » على مرّ العصور .

ويخيّل إليّ ، وأظن ـ وقـد يبلغ هذا الظن درجة اليقين ـ ، ان التحاق الهمـداني بصعـدة ، واعتنـاقـه للمـذهب الـزيدي ، ومنـاصرته للهادي والناصر ، قد أوغر عليه قلوب بني يُعْفِر « الحِواليين » جميعا ، ويكفينا ان نلقي نظرة واحدة فاحصة على قصيدة الهمداني « الدامغة » والتي نافح فيها عن « قحطان » وسجّل فضائلها ، ومفاخرها ، وهتك بها حرمات القبائل « العدنانية » ، والتي سببت له العداوات وأثارت ضدّه بعض علماء وشعراء « صعدة » ، وأوجدت سوء التفاهم بينه وبين « الامام الناصر » لِما أسلفنا ذكرُه من أسباب وسوف نستشف سر ذلك السّبب الأصيل . !

نعم : نظرة الى ما ورد في « الـدامغـة » من تشيّع وولاء لأمير المؤمنين « علي » ابن أبي طالب رضى الله عنــه ، وتفنيده لما عمله « الأمـويون » و« العبـاسيون » بأولاده وبنيه ، ووصفه لعليّ بالوصيّ ، ونبزه لمن حاربوه ونـاصبـوه العـداء « بالناكثين » و« المارقين » و« الخوارج » ؛ لأنّ ذلك أو بعضه يكفي لايغار قلوب « آل يعفر » عليه ؛ إذ أنهم كانوا مع « الأمويّين بني زياد » و« العباسيين » وكان على صاحبنا الهمداني ان يقدّر ذلك قبل ان يهاجر من « صعدة » الى « صنعاء » ويترك قاعدة « الناصر » العلوي ، الى حمى « جوار » السلطان « الحِوالي » ، وان كان قد أشار الى ذلك في قصيدته « الجار » اذ قال :

وأصْـلحَ بي ما كانَ من قبـلُ بينَــه ... وبــين قريش الأكـرمـين تغـيّرا

ولكنّه لم يفطن لذلك الاّ بعد المأساة ، وسبق السيف للعذل .

يقول الهمداني في قصيدته الدامغة :

وكان « المصطفى » بأبي وأمّي ... بأفخر مفخرٍ للآدمينا ،
ولم يكُ في «مَعَدّ» له نظيرٌ ... ولا « قحطان » ، غير مجمجمينا
وآويناهُ إذ أخرجتموه ... وكنّا فيه منكمْ ثائرينا ،
وأسلمتم بحدّ سيوف قومي ... على جدع المعاطس صاغرينا
وكنتم حين أرمس في ثراه ... له في « الأهل » بئس الخالفونا؟
غدرتم بابنه فقتلتموه ، ... وفتياناً من « المتهشّمينا »
وأعليتم بجثته سناناً ... الى الآفاق ما إن ترعوونا
وكنتم لابْنه كي تنظروه ... أأنبت تقتلوهُ كاشفينا؟
وأشخصتم كرائمه اعتداءاً ... على الاقتاب غير مساترينا
أكلتم كبدَ «حمزة» يوم «أحدٍ» ... وكنتم باجتداعِهِ . . ماثلينا!
وها أنتم الى ذا اليوم عمّاً ... يسوء المصطفى ما تقلعونا
فطوراً تطبخون «بنيه» طبخاً ... بزيتٍ ؛ ثم طوراً تسمرونا
فهم في النّجل للأخيار دأباً ... وأنتم غير شك تحصدونا
كأن الله صيرَهم هدايا ... لنسككم وأنتم تنسكونا!

وقد أراد بهذه الأبيات وأمثالها أن يستثني الرسول ﷺ وأهل بيته الكرام مما سيَقُولهُ ، أو قد قاله في « قريش » وهو يفاخر بقومه ، ويفضلهم عليهم ، وأن يسْتَلّ المصطفى وآله من بينهم كما فعل حسان ابن ثابت ، كما أنه في الشرح قد فصل ما قاساه « الطالبيّون » على يد القرشيين من « أمويين » و « عباسيين » حتى يومه الذي ألّف فيه الدامغة في مطلع القرن الرابع الهجري وبأسلوب لا يقوله الا « الشيعة » المخلصون ؛

وليس ذلك فحسب ، بل انه يعود فيجعل من موازرة « اليمنيين » لأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه شعارَ فخرٍ ، ويستعمل عبارات « الشيعة » التي يطلقونها على من خرج علىً عليّ أيام « الجمل » و « صفينّ » و « النهروان » فيقول :

ووازرنا « أبا حسن » عليّاً ... على « المرّاق » بعد « الناكثينا »
وسار الى « العراق » بنا فسِرْنا ... كمثل السيل نحطم ما لقينا

علينـــا الّـــلامُ ؛ ليس يبـين منـــا ... بها غير العيـــون لنـــاظـــرينـــا!
فأرخـصنـــا الجـماجـم يوم ذاكـم ... ومـــا كنـــا لهنّ مثـمـنـينـــا!
واجـحفْنَـــا « بضبّـة » يوم صُلنـــا ... فصـــاروا من أقـلّ « الخندفينا »
وطـــايــرنـــا الأكـفّ على خطامٍ ... فما شبّـهـتـهـــا الاّ الـقـلينـــا!

***

وينتقل من واقعة « الجمل » إلى معارك « صفّين » فيقول :

وعنّـــانـــا الخيـولَ الى « ابن هندٍ » ... نطالـــبُ نفســـه ، أو أن يدينـــا
وظـلنـــا نفـتـل الـزنـدَيْـن حتى ... أطـــارا ضرمـــةً للمضرمـــينـــا . .
ونـــادينـــا « معـــاويـــة » اقـتربنـا ... بجمعـــك إننـــا لك موفـــدونـــا ،
وحـــامـــت دونـــه جمرات قومـــي ... ومن دون « الـــوصيّ » محافـــظينـــا

***

ويـــوم « الـنـهـــروان » فأيّ يوم ... فلَلْنـــا فيـــه ناب « المـارقـــينـــا »
وقـــوّمـنـــا « أمـيّـــة » فاستقـــامت ... وكـــانـــوا قبـلهـــا متـــأودّينـــا . . !
وقلنـــا « الهـــاشمـــون » أحقّ منكم ... ونـــحـــن لهم عليـــكـــم ما يلونـــا
فقـــام بنصرهـــم منـــا « جُديـــعٌ » ... وكـــان لحزبهـم حصنـــاً حصينـــا

***

إلى آخر ما قال ممّا يبرز شخصيّة الهمداني في اطارها الصحيح ويثْبت انه كما قلنـا في « الجناية » رغم اعتزازه باليمن وقوميته « القحطانية » كان من الذين يعتزّون بمحبة عليّ وبنيه ، وإنه قد سلك في مناقضته لنونيّة « الكميت ، العدناني الشيعي » مسلك « دعبل » « القحطاني » الشيعي ، والسيد « الحميري » « القحطاني » الشيعي ، من قبل « الهمداني » ومسلك من جاء بعـده من شعـراء قحـطان أمثال « الأسلمي » و« ابن العليف » و« الهَبَل » والمئات غيرهم . وهذا الاطار لشخصيته « الهمداني » سينصفه وينفض عن إسمه غبار الدعاوي التي ظلّ يراكمها عليه من لم يعرفوا تاريخ ذلك العلامة النحرير والأديب الفذّ ، ولا تعمّقوا في دراسة أشعاره وأخباره ، ولا فهمـوا طبيعة عصره وبيئته سواء ممن نقده قادحاً ، أو بالغ وأغرق في تمجيده مادحا . أو انفعل بتحريفات محمد بن نشوان .

جواره لابن الضحّاك في ريدة

قلنا ان الوشايات قد أفسدت بين « الهمداني » و« الناصر » وان ذلك ومع ضيقه بمنافسة الحاسدين من العلماء والفقهاء والأدباء بصعدة ، الى تخوّفه مما عسى ان يحدث بعد وفاة الناصر ، قد دفعه الى النزوح الى « صنعاء » ومجاورة « الحِواليين » ؛ وانه قد كان كالمستجير من الرمضاء بالنار للأسباب التي ذكرناها ولِأخرى لم نطّلع عليها بعد ؛ ولقد مات الناصر بعد ذلك واختلف أولاده على السلطة ، وعادت الفتن كما كانت هائجة مائجة بين قبائل « صعدة » ، وبدأ ملك بني زياد يتلاشى في زبيد ويمتلك الأمر جواريهم ومواليهم من « الأحباش » وكان قد صنع أسعد بنِ أبي يعفر وذووه بالهمداني ما وصفه نفسه في « سرائر الحكمة » وهنا لم يجد ظلاً وارفاً يلجأ إليه غير ابن الضحّاك أحمد بن محمد الذي كانت « ريدة » مركز سلطنته القبلية ، وقد انتزع « صنعاء » من أيدي الحواليين ، وهو هو الذي لجأ اليه العالم الزيدي الكبير أحمد بنِ موسى الطبري بعد وفاة « الناصر » كما فصلنا في ترجمته ، وقال عنه : إنّه بين سلاطين وزعماء عصره كان كالأسد بين الذئاب والثعالب والنعاج ؛ ولعل الكثير من نبغاء وأفذاذ ذلك العهد والذين لم يستسيغوا تصلّب « ورثة النظرية الهدوية » واختلافاتهم وصراعاتهم وظنونهم بأن الأمر تركة يتقسمونها بمجرّد النسب ، ولا اطمأنوا الى موالي « بني زياد » ، ولا الى مكر « الحواليين » وتفاهة وارتزاق المشايخ الآخرين قد لجأوا أيضاً إلى ظلّ « ابن الضحّاك » مع « الطبري » و« الهمداني » وربما شيخه « ابي نصر الحنبصي » . والطبريون منهم عادوا الى طبرستان ولقد خَلَدَ لسان اليمن الى التأليف والكتابة في « ريدة » حيث ألف « الاكليل » و« صفة جزيرة العرب » والكثير من الأشعار حتى توفي بها سنة ٣٣٤هـ /٩٤٦م وقيل بل عاش الى ما بعد سنة ٣٤٤هـ /٩٥٦م وانظر مقدمة الأستاذ حمد الجاسر لكتاب « صفة جزيرة العرب » والذي أطمئن اليه انه توفي حوالي ٣٤٠هـ .

ابراز صورته الحقيقية :

وعلى كلّ فقد اضطربت الأقوال والتخمينات في تحديد سنة وفاته ، وسواء كانت عام ٣٣٤هـ أو بعد عام ٣٤٠هـ أو في وقت بينَ بَيْنْ ؛ فذلك ليس من

أهـدافنا تحقيقه الآن لأننا لن نستطيع ان نقطع برأي جازم بل نرجّح انه والسلطان أحمد قد توفيا عام ٣٤٠هـ قبل أن يضعف سلطان آل الضحّاك وهدفنا الآن هو ابراز صورة « الهمداني » في إطارها الحقيقي ، وان ننفض عنها غبار القادحين والمادحين المغالين ، وتشنّجات دعاوي المتعصّبين ، من كل الفئات ، وأظن انني قد أديت بعض ما يجب في هذا الشأن ، وأنه لن يجرؤ أحد أن يزعم أو يدّعي بأنه مات في سجن الناصر ، أو أنه هو الذي أمر السلطان أسعد بن أبي يعفر بحبسه ، أو أنه كان مسئولاً أو راضياً عن كل ما نزل عليه وحل به من تشريد وتنكيل و « دَرْدَحَة » ، وهو في الأغلال في قرى اليمن التي كان يسيطر عليها السلطان الحِوالي ، وقد أثْبتُّ كل ذلك من وقائع حياته حسبما ورد في كتبه ، وعرفنا انه قد ولد بصنعاء ولكنه هاجر شاباً إلى « صعدة » وعاش في كنف « الامام الهادي » وتثقف ثقافته الأولى في « مدرستـه الزيدية » ، ثم كان من أصحاب « المرتضى » و« الناصر » حتّى هاجر الى « مكة » لطلب العلم وحين عاد بعد بضع سنوات لم يقصد « صنعاء » ولا « زبيد » بل فضّل البقاء في « صعدة » مقام الامام الناصر وانّ العيش قد طاب له وراق حينذاك « وعمر داراً وامتلك عقاراً » ونظم قصيدته التي ردّ بها على نونية الكميت وسمّاها « الدامغة » ، والتي أغضبت عليه شعراء « عدنان » فهجوه وهجاهم ، فاختلقوا وشايات أو غروا بها عليه قلب الناصر ؛ لأنّ الدّامغة نفسها لا يمكن ان تكون هي التي أوغَرَتْ عليه قلب النـاصر ، وغيّرت ما بينهما من ود وتقدير ، لأنها وإن كانت تعبّر عن تعصبه الشديد للقحطانية ضد العدنانية إلا أنها تنمُّ بل تصرخ بصوت جهير بتشيّعه وزيديّته واخلاصه في محبة آل الرسول ﷺ ، وقد أوردنا أبياتا منها آنفاً ، ولا نستطيع أن نتصور « الناصر » وهو « ابن الهادي » ، ومن نسل الحسن بن علي رضى الله عنهما غير راض عن موقف الهمداني هذا ، وأن لا يسعده ان الهمداني لسان اليمن قد أثبت « الوصاية » للامام علي ، وذكّر مشنّعـاً بأعـمال « الأمـويين » وخلفـاء بني العبـاس الذين كانوا لا يزالون يحكمــون من « بغـداد » معـظم العـالم الاسـلامي ، ويعـدّد ما صنعـوه بالـطالبيّين ؛ بل ويفـاخر بأن اليمن وقفت مع « الامام عليّ » في حروب « الجمـل » و« صفـين » و« النهـروان » وينبـز الخـارجـين عليه بالناكثين والمارقين ، لا نستطيع ان نتصوّر ذلك ، ومجرّد افتراضه لا ينسجم مع منطق

ولا ذوق ولا تفكير سليم ! وإذا كان قد ورد شيءُ يوحي بذلك في الجزء الأول أو الثاني من الاكليل فهو من وضع محمد بن نشوان الذي اختصر الاكليل وحذف منه ما يهوى وزاد ما يريد .

إعادة النظر في كتبه

إن كتب « الهمداني » أو الموجود منها تفتقر الى عناية جديدة وإعادة نظر ، وتحقيق علمي ، وضبط دقيق ، وتجريدها من الهوامش والحواشي والفضول الذي أسرف بها من قام بطبعها ، وبدلاً عن كل ذلك توضع لها الفهارس ، ويُترجم للمجهولين من رجالها وتُخرج إخراجاً جديداً يليق بما فيها من علم كثير وأدب جم .

هذا ومن أراد ان يعرف ما لم نفصّله ، أو نتحدث عنه ، مما يتعلّق بأسرة الهمداني ، وحياته في مكة ومن لقي فيها من العلماء ومن أخذ عنه من المشايخ ، والهمداني الجغرافي ، والنسّابة والأثري ، واللغوي ، وأسماء مؤلفاته فليراجع مقدمة الأستاذ حمد الجاسر لكتاب صفة جزيرة العرب ، ومقدمة العلامة محب الدين الخطيب للكتاب العاشر من « الاكليل » وبكل اخلاص ، ولوجه العلم أحذّر من الاعتماد على معظم تعليقات وهوامش العلامة محمد بن علي الأكوع التي أثقل بها ما تولّى نشره من أجزاء الاكليل وكتاب « شرح الدامغة » فانه ممّن يلقون الكلام على عواهنه ، ويدفعهم التعصب الى الاغراق ، ولا ننكر حبَّه للهمداني لكي يكفّر به سيئات تنكيل جده « الحوالي » بلسان اليمن ، والحبّ يعمى ويصمّ ومن الحبّ ما قتل ! .

شيخ الهمداني « أبو نصر الحنبصي »

قلتُ آنفاً : « لابد ان الهمداني وأباه وسائر أسرته بل وصديق والده وشيخه فيما بعد « أبو نصر الحنبصي » قد أخلصوا الولاء مع أميرهم « أبي العتاهية » للامام الهادي » الخ ؛ فمن هو أبو نصر هذا ؟ ولماذا حشرت اسمه في مطلع الحديث عن الهمداني وكرّرت ذكره ، وأعدته مراراً ؟

لقد تعمدت ذلك لأنني كنت سأذكر « أبا نصر الحنبصي » كعلَم من أعلام هذه الفترة ، وفذّ من أفذاذها ، علماً وأدبا ؛ وإذا كانت الكوارث قد قضت على آثاره ، أو أنه كان من أولئك الذين لا يهتمّون بالتدوين

والتسجيل ، ويعنون بتأليف الرجال أكثر مما يعنون بتأليف الرسائل ، ويعتمدون على ألسنتهم وحفظهم لا على أقلامهم وكتبهم ، وعلى ما هو مخزون في صدورهم ورؤوسهم ، لا على ما هو مكتوب في قطاميرهم وقراطيسهم ؛ فان كثرة روايات الهمداني عنه في كتبه تخوّل القول لمن يريد أن يزعم انه لولا « ابو نصر » هذا ما تأتّى للهمداني تأليف ما ألّف من أخبار اليمن وأنسابها وأشعارها ولغاتها فهو أجلّ شيوخه في كل ذلك بل ومعتمده فيها دق وجلّ من أصناف المعارف .

نعم تعمّدت ذلك لأجل هذا ؛ وتعمّدته أيضاً وآثرت أن أذكر الشيخ على جلالة قدره أثناء ذكري للتلميذ لأنه يؤكد ما ذهبت اليه من ان الهمداني كان زيدي المذهب أخلص مع أبيه المناصرة للهادي وأولاده ، وأنه بعد موت الأمير « ابي العتاهية » ، ونزوح الهادي من « صنعاء » الى « صعدة » كما أسلفنا قد التحق مع أبيه بالهادي لمّا زحف « علي بن الفضل » « القرمطي » سنة ٢٩٣هـ /٩٠٦م على « صنعاء » وأباح فيها ما لايباح كما قال كل المؤرخين من اليمنيين وغيرهم . وقاسى « أبو نصر » أيضاً ما قاسى من متاعب مما كلّفه رغم شيخوخته الالتحاق بصعدة مع الكثير من العلماء ورجال الفكر والأدب فراراً من « القرامطة » و« اليعفريين » الحواليين و « بني زياد » ومواليهم ، والمشايخ المتسلّطين .

يقول المؤرخ يحيى بن الحسين بن الامام القاسم في كتابه المستطاب أو « طبقات الزيدية » : « أبو نصر العلاّمة من علماء « الهدوية » عاصر أولاد الامام الهادي وهو شيخ الهمداني الحسن بن أحمد الآتي ذكره ، وأولاده « مطرفيّة » وهم المعروفون بالقضاة آل ابي ثور وسيأتي ذكرهم ، وأما هذا أبوهم فليس منهم ؛ وهاجر هذا أبو نصر الى الناصر بن الهادي الى « صعدة » في زمن « ابن الفضل » ، فأخرب قصره « ببيت حَنبص » واحرقه « ابن الملاحف » القرمطي ، وبقيت النار فيه ستة أشهر بسبب مهاجرته الى الناصر بن الهادي وهو من أولاد حنبص بن يهر الحميري وسيأتي ان شاء الله تعالى له ذكر عند ذكر أولاده أثناء الكتاب » ص ـ ٤٤ ـ مخطوطة محمد بن محمد بن اسماعيل .

ولم يزد يحيى بن الحسين في ص ـ ١٠٤ ـ من كتابه وهو يترجم لابن أبي

ثور الحنبصي على قوله : « هو من حمير من آل ذي يهر ثم من ولد ابي نصر محمد الحنبصي النسابة أحد علماء اليمن الذين ذكرهم الحسن بن أحمد ابن يعقوب الهمداني النسّابة في كتبه نحو كتاب الاكليل في أنساب أهل اليمن وأخبارهم وذكر انه من أعلم من كان بذلك وعنه كان يأخذ » .

وأمّا تلميذه « الهمداني » فقد اعترف بفضله عليه في مقدّمته لكتابه « الاكليل » فقال : « شيخ حمير وناسبها ، وعلاّمتها وحامل سفرها ووارث ما ادّخرته ملوك حمير في خزائنها من مكنون علمها ، وقارىء مساندها والمحيط بلغاتها أبي نصر محمد بن عبد الله بن سعيد » وسلْسَل نسبه إلى « ذي يهر » ثم قال : « وابرّهم في عصره ، عن مثل آبائه وأجداده فيشتار ذلك عن معطنه [أي أن من يأخذ العلم عن أبي نصر يستخرجه من أصله] ويبحث عليه في معدنه ، ويكون كما قال الفرزدق :

ما زلتُ أفتح أبواباً واغلقها حتى لقيت أبا عمرو بن عمّارِ

ويشهر بصنعاء واليمن بأبي نصر الحنبصي نسب الى مسكنه وهو قصر جاهلي يقال له قصر ذي يَهر ببيت حنبص يكونُ من صنعاء على بعض يوم وما زال لنا معوّلاً في المشكلات ، وربما وردتُ منه بحراً زاخراً لا تكدّره الدلاء ، ولا تلوب دونه الظِّماء ، فأغناني نَهلُه دون عَلَله ، وأوسعني كفاية البعض دون كَمَله ، وكان بحّاثة قد لقى رجالا ، وقرأ زُبر حمير القديمة ومساندها الدهريّة « وبعض ما يتبع ذلك من أمثال حمير وحكمها » وفي ابي نصر يقول بعض أهل عصره :

لعمركَ ما الكلبيّ إن عدّ علمه وعلم جبير ، والامام أبي بكر
ولا ابن عديّ هيثم إن سألته ولا الكيّس النسّاب نسابة النمر
ودغفل في تشجيره ، وابن شريَةٍ بأعرف فيما حاولوا من ابي نصرِ
وما علمهم في علمه غير مَجّةٍ ترشفها الظمآن من زاخرٍ غمر

***

ج ١٠ - ص ٨٥ - ٩٦ - طبعة الأكوع .

ونظن أن أبا نصر لم يهاجر الى « صعدة » إلاّ بعد عام ٢٩٩هـ وقد انتقل

الامام الهادي إلى جوار ربه وذلك عندما اجتاح علي بن الفضل صنعاء في غزوته الثانية لها لأن « ابن ابي الملاحف » الذي أحرق قصر « ذي يهر » مسكن أبي نصر الحنبصي كان أحد قادة « ابن الفضل » يومئذٍ ، وصاحب « الطبقات » يقول ان أبا نصر هاجر الى صعدة أيام الناصر ، والناصر لم يبايع له إلّا في شهر المحرّم سنة ٣٠١هـ ونستفيد من ذلك ان « الهمداني » انما تتلمذ له في هذه الفترة وهو في عامه الأول بعد العشرين .

وربما أن أبا نصر كان من جملة من لجأ الى ظلال « ريدة » في أواخر العقد الثالث وبداية الرابع من القرن الرابع عندما قويت شوكة ابي جعفر أحمد بن محمد الضحّاك وأصبح وحده كالأسد بين الثعالب والذئاب والنعاج على حدّ تعبير أحمد بن موسى الطبري ، وأصقاع اليمن تمخر في عباب الفوضى والفتن ، وهناك التقى بتلميذه « الهمداني » وهو يؤلف « الاكليل » و« صفة الجزيرة » فغمره بما يتلهّف اليه من فيض المعارف اليمنيّة ؛ مما لم يضنّ به أبو محمد علينا بل سجّله في « الاكليل » و« الصّفة » ، ولعل أبا نصر يومئذٍ كان في عقده التاسع فتكون ولادته حوالي عام ٢٥٣هـ ولا غرابة في أن يهاجر العلماء بعد موت « الناصر » إلى « ابن الضحّاك » فقد كان « هادويّ » الرأي والهوى والمذهب ، وكان مكيناً لدى « الناصر » وينوب عنه في بعض أعماله ، واختلافه مع أولاده وأولاد أخيه وأحفاد الهادي كان لأنهم هم أنفسهم قد اختلفوا فيما بينهم وتصارعوا على السلطة ، وتركتها الباهظة التكاليف وهو ما لا يرتضيه منهم العارفون بنظرية الحكم عند الهادي وابنيه « المرتضى » و« الناصر » والحديث شجون .

مختارات من شعر الهمداني

للهمداني ديوان شعر في ستة أجزاء نقل ذلك السيوطي عن المؤرخ الخزرجي ، وقال القفطي : « ولما دخل الحسين بن خالويه الهمداني النحوي إلى اليمن [توفي ابن خالويه سنة ٣٧٠هـ] ، وأقام بها في ذمار جمع ديون شعره وعربه وأعربه وهذا الديوان بهذا الشرح وهذا الاعراب موجود عند أهل اليمن وهم به بخلاء » . ولو وجد ديوان الهمداني سواء ما ذكره « الخزرجي » أو بشرح واعراب « ابن خالويه » لعرفنا عن حياة ذلك العلم

الشامخ ما حاول « الغلاة » أو « المتحاملون » ، و « العنصريون » أو « المتعصبون » طمسه وتحريفه من مؤلفات الهمداني والأحداث التي مارسها وما ساهم به في حركات عصره والفترة التي نؤرّخ لآدابها ومعارفها .

وقد أوردنا أبياتاً من قصيدته « الدامغة » التي هي في مخطوطتنا ستمائة وسبعة وأربعون بيتاً والتي مطلعها :

ألا يادار لولا تنطقينا فانا سائلوكِ ؛ فخبّرينا

وقد سجل المؤرّخ علي بنٍ الحسن الخزرجي في كتابه « طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان الزمنِ » نقلاً عن المؤرخ الشاعر محمد بن الحسن الكلاعي [ت : ٤٠٤هـ] أبياتاً مما دار بين الهمداني وشعراء صعدة من ملاحاة ومشاجرة سببّت سوء التفاهم بينه وبين الناصر حسبما ذكرنا آنفا .

قال « وكان بها ـ أي بصعدة ـ عدّة من الشعراء المنتسبين الى عدنان منهم أبو العسّاف الحسين ابن علي بن الحسن بن القاسم الرسي ، وأبو ايوب بن ابي الأسد السلمي ، وأيوب بن محمد بن محمد اليرسمي ، وكان ينسب الى الفرس فبلغ الحسن بن أحمد الهمداني أثناء إقامته في صعدة ان هؤلاء يتعصبون على قبائل اليمن ويتناولون أعراضهم بالأذى فقال لأبي العسّاف :

أبا العساف غرّك فضل قومي وانك من رؤوس الهاشمينا
وانك لا تخاف ولا تجارى . . ولا تلقى بما قدّمت هونا . . !
اليك . اليك عرِضك عن شداتي [لكي لا] أطبع الحسب المصونا
وأقسم إن رملتَ اليك بيتا لتغتمزن قُناتك ، أو تلينا

***

وفي هذه الأبيات الأربعة « الدّامغيّة » مرارة ممزوجة بالأسى ؛ وفيها وعيد مشاب بالخشية ، وتهديد يداريه التقدير ، وفيها تحذير يزَجر بتوثب منتقم ؛ يودّ أن يفعل شيئاً ولكنه يتمنى ان لا يفعله ، بل وفيه تذكير مُستعلي ، لأن « أبا العساف » من رؤوس « الهاشميين » ، الذين فضّلهم الهمداني وأنس الى البقاء في ظلال دولتهم بصعدة على سائر الامارات اليمنية في « شبام » و « صنعاء » و « زبيد » ومع ذلك فها هو يقول له : حذار حذار ، وابتعد عن حد لساني وقوّة بياني كي لا أطبع حسبك المصون ، وأدنسه بنفثة من

نفثات شيطاني ، ولو اني قذفتُك ولو ببيت واحد لانغمزت قناة حسبك ولانت في نار غضبي .

ولعلّ هذا التهديد المبطّن المخيف ، هو الّذي أزعج الامام الناصر . . وكأن أبا العسّاف قد خاف وهوّل الأمر وربّما زاد في الأبيات ـ وهو الشاعر ـ ما لم يقله الهمداني ؛ وكان ما كان !

أما الشاعر « السلمي » فقد أرسل اليه الهمداني أبياتا منها :

ألا أصْحُوا بني عدنان من سكراتكم وإلّا علمتم مَنّ أجنَّ وأسكرا !
بني أختنا لا تقطعوا ثدْي أمّكم ؛ فشر ثديّ القوم ما كان أبترا

***

وقد تذكّر وهو يصوغ البيت الأول قول عمرو بن كلثوم :

الا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وأما أيوب بن محمد اليرسمي وهو فارسي النسب فقد ردّ عليه بقوله :

أجبتُ نزاراً على ذمّها بذمٍّ يسدّ سهام النّفسْ
فلمْ يملك القوم رجع الجواب إلينا وما بهمُ من خرَسْ
مخافة نكْسٍ الى دائهم وشر السقام سقام نكسْ
وأضحتْ شياطين من فارسٍ تُهمّهم حولي كمثل البَسَسْ
فكم من ذباب هوى ميتاً بنَهم الهزبر إذا ما عَطَسْ
ولم أكُ معتمداً « فارساً » بفخر يجدّ لها ما دَرَسْ
وقد سَالَهُ سائلٌ من أبوك فقال من اللؤم : خالي الفرس!

***

ولهجته في أبياته التي خاطب بها الشاعر « اليرسمي » لا تنم عن احترام ، ولا تتضمّن رجاءَا ولا تبالي بماذا سيكون صداها .

وعلى كلٍّ ؛ فان قارىء الجزء الأول وأخيه الثاني من كتاب الاكليل الذَين أخرجهما للناس العلامة القاضى محمد الأكوع لابد أن يقف موقف دهشة وحيرة إزاء نصوصهما الشعرية التي وضع لها القاضى محمد بن نشوان أسباباً

ودوافع على لسان الهمداني وجاء المحقق فأيّدها !.

سيقف الدارس الواعي موقف حيرة ودهشة حين يقرأ تلك الأسباب التي وضعها مختصر الاكليل القاضي محمد نشوان للأشعار الواردة في السفرين الأول والثاني من الاكليل على لسان الهمداني ؛ وسيدرك انه غير الهمداني الذي تحدّث عن نفسه في المقالة العاشرة من كتابه « سرائر الحكمة » والذي ولد سنة ٢٨٠هـ عام خروج الهادي الى اليمن وهاجر الى « صعدة » عاصمة الهادي وهو في الخامسة عشرة ، ولحق الهادي بالرفيق الأعلى وهو لا يزال في الثامنة عشرة مشغولاً بالدراسة والتحصيل والتجارة ونقل الحاج ما بين صعدة ومكـة المكـرّمة ؛ وما يكاد يبلغ الخامسة والعشرين حتى يفكر في « السفر الكبير» ويهاجر إلى « مكة » عام ٣٠٦هـ طالباً للعلم ويقضي هناك مجاوراً بضع سنوات ثم يعود منها الى صعدة حيث يطيب له المقام بها و« يمتلك عقاراً ويعمر دارا » ! ويتمتع بالجاه العريض اجتماعياً وعلمياً وسياسياً . إلى أن حدثت بينه وبين خصومه من الأدباء والسياسيين الملاحاة المشئومة ، وفسد ما بينه وبين الناصر فينزح إلى صنعاء حيث يقع في سجن الحواليين حتى عام ٣٢٢هـ قبيل وفاة الناصر!

هذا ما توحي به سيرته التي لخصناها عن مقالته العاشرة في كتابه سرائر الحكمة ومن أقواله المنثورة في طوايا كتبه صفة الجزيرة والاكليل وكتاب شرح الدّامغة !. ومن تراجم من ارخ له وتحدّث عنه من الأقدمين .

وإذن فمتى حارب الهـادي ؟ ومتى وأين حضر المعارك ضد الناصر ؟ ومتى قال ذلك الشعر في علي ابن الفضل وقد أطاف بهم « في عدّة كالربا كتائبها » ؟. هل عام ٢٩٣هـ وهو في الثالثة عشرة بصنعاء ؟ أم عام ٢٩٩هـ وهو مهاجر في « صعدة » ؟؟! ومتى قال تلك الأشعار التي تصوّر معاركه مع ابن الضحاك ؟ هل قبل هجرته الى « صعدة » ثم إلى « مكة » أم بعدها ؟ أم ان هنـاك همداني آخـر لا صلة له بمؤلف « سرائر الحكمة » وصاحب « الدامغة » والمهاجر إلى « صعدة » و« مكة » وتلميذ العالم المؤرخ النسابة « الهـدوي » ابي نصر اليهري الحنبصي ؟ أم أن شخصية الحسن بن أحمد بن يعقـوب « خرافية » لا وجـود لها ألّف باسمها نوابغ الطوائف المتفاوتة من « اسـماعيليين » و« مطرفية » و« هدوية » و« قحـطانيين » و« عدنانيين »

الكتب والأشعار والأخبار ونسبوها اليه كذبا ؟

أم أن الأمر ـ إذا أردنا أن ننقذ لسان اليمن الهمداني من غمرة الخيالات والضياع ـ كما ذكرنا وأن العلامة محمد بن نشوان الحميري مختصر كتاب الاكليل ـ ولأسباب سبق ذكرها ـ هو الذي غيّر وبدل ، في الأسماء والمسميات وحشر اسم « الهمداني » في حروب ابن الضحّاك مع « المختار » ابن الناصر وأولاده وأبناء أخيه ، وجعل اسمه أحيانا « الهادي » وأخرى « الناصر » وجعله شاهداً لمعاركه ومقيداً لأخباره وأيامه ؟ .

وإذا كان الأمر كذلك أعني ان الهمداني قد حضر معارك « ابن الضحّاك » مع أولاد الناصر بعد وفاته عام ٣٢٥هـ فلا ضير ولا مشاحة ولا عتب على « الهمداني » اذا وقف ضد « المختار » ابن الناصر وكيف وقد خالفه وحاربه مع « ابن الضحّاك » أخوه ، وتركه « الطبريّون » وعادوا ادراجهم الى وطنهم « طبرستان » وانضم شيخ « الهدوية » أحمد بن موسى إلى « ابن الضحّاك » كما ذكرنا في ترجمته ، وقد علمنا ان « الهمداني » قد مسه الأذى والضر من أصحاب الناصر في أواخر أيامه وسببوا له الفرار إلى صنعاء حيث سجنه السلطان الحوالي وانزل به سوء العذاب وكان قد حذرهم بقوله :

ألا اصْحوا بني « عدنان » من سكراتكم وإلّا علمتم من أجنّ وأسكرا!

وكان ما كان ؛ وهذه اضافة الى ما سبق من الفقرات في عمود صوره الهمداني والتي تحدّدها في اطارها وشكلها الحقيقيّين .

ولو ان ديوان الهمداني بأسفاره الستة قد ظهر أو لو كانت سيرة « الناصر » للمؤرّخ عبد الله بن عمر الهمداني بين أيدينا لانجلت الحقيقة غراء جلواء ولا يهمّنا بعد ذلك ان يكون الهمداني قد ظل زيديّاً هدويا ، أم اجتهد وأصبح مستقلاً ، أم صار سنيّاً أشعريا ، أم التحق بفرقة أخرى من فرق النحل الاسلامية فسيبقى له نفس التقدير كعالم بحاثة وشاعر وفيلسوف تعتز به اليمن .

ومن مختار شعره قوله في « اليمن » :

أرض تخيّرها سام وأوطنها ، وأسّ غمدان فيها بعدما احتفرا
أمّ العيون فلا عين تقدّمها ولا علا حجر من قبلها حجرا . .
لا القيظ يكمل فيها فصل ساعته ولا الشتاء يمسّيها إذا قصرا !

***

وقال في « صنعاء » وقصرها « غمدان » :

مازال سام يرود الأرض مطّلبا　　للطيب خير بقاع الأرض يبنيها
حتى تبوّأ « غمدانا » وشيدها　　عشرين سقفاً يناغي النجم عاليها
فان تكن جنة الفردوس عالية　　فوق السماء فغمدان يحاذيها
وان تكن فوق وجه الأرض قد خُلِقَتْ　　فذاك بالقرب منها أو يُصاليها

***

وله في رثاء سلم بن صعصعة :

لئن قرع الناعي قلوباً فصدّعا　　وغار عيوناً بالبكاء وأدمعا
غداة دعا من رأس « تلفم » ناعيا :　　الا رحم الرحمن سلم بن صعصعا !
وجاوبه من رأسِ « ناعط » هاتفٌ　　فرنّ له الطودان صوتاً ورجّعا

***

وله :

غدرتم بمهدي على الأمن سرقةً　　وبيّتم همدان ، وابن حزامِ
ثلاثة أبطالٍ تريك وجوههم　　اذ اسفرتْ ما تحت كل ظلام !

***

يوم « غَرَق »

وله في وقعة « يوم غرق » التي قادها « الهادي » ومعه الدُّعام بن ابراهيم سيد همدان في عصره ودارت دائرتها على « ابن طريف والقرامط » :

ان سيوفاً جلت وجوه بني　　قحطان لما اعتدت ذنائبُها
بسفح قُرّان أو ربا « غَرَقٍ »　　أيام أذكى الحروب حاطبها
« علي بن فضل » وقد أطاف بنا　　في عدّة كالدبا كتائبها
يذكرننا ما سللن أعظمهم　　وقرع أسنانهم مضاربها
إن يطّلبها ؛ لفي عواتقنا　　مرتقبات لمن يراقبُها

***

وله يمدح المسلم بن عباد بن عبد الله الخولاني الأكيلي :

الى امرىء نصبت قحطان رايتها بالكف منه ورأس العزّ منكوس ،
فقام فيها مقاماً لا يقوم به عمرو بن هند ، ولا هند وقابوسُ
مكلّم بخماشات الحروب له ، كأنه زلَمٌ بالعجم مضروس
مبرّأ ليس فيه للعيوب إذا ما عيبَ عيْبٌ ، ولا في العرض تدنيس
ينمي به فوق « خولان » ويرفعه عليهم حسبٌ في الدهر قدموس
وكل ساع إذا يسعى لهمته فقد يساعده في سعيه البوس
ولم يزل في « أكيل » من ابوته نافى المذلّة عن خولان عتريس
حجرٌ ، وحجر ، وعمرو ، كلهم رأسوا حيّيْ قضاعة ما في القوم مرموس
تلقاك منهم وجوه إن نزلت بهم مثل الأهلّة ما فيهن تعبيسُ
سجيّة لا يزال العسر بنبتها والطبع قبل اكتساب العقل مأسوس
يوصي أكابرهم منهم أصاغرهم بسورة المجد ، ان المجد محروس
حماهُمُ ، وحماه عند دعوته من « مُغْرق » صنوه والفتية الشوس
وكل تلعاء تعلو كف ملجمها ومخطف ؛ خطوه دفقٌ وتكديس
مشرّف الهاد يرتاح النديّ له فبالأكف له مسحٌ وتحسيس

***

وله يستغيث من السجن بزيد بن ابي العباس :

يا زيد زيد الخير يا ابن محمدٍ ما كنت لاسمك إذ عرفت بناسي
بل كنت أوّل من هتفت به الى إحياء نفسي ساعة الابلاس
فابدر الى نقذ الغريق فانّه الاّ تحث يعوم عوم الغاسي
وليلحقنّي منك بُعْدَة مالكٍ في جاره المزنيّ ، أو جساس
واطلب بطايلتي طلاب مهلهلٍ ، وزهير عبس ثأره في شاس

***

وقال من مرثية طويلة في زيد هذا :

لا رَمَتْ يعربٌ بسهم شديد بعد زيد اخي الفعال الحميد
خير « خولان » بل « قضاعة »، بل «حمير»، بل « قَحطَنَ » الشريف بن « هود »
فانعياه بكل ملك عظيم يرحم الله خَير ميتٍ ومودى
عقمت بعد هلكه رحم الأرض فليست لمثله بولودِ

واضرب لهم مثلا :

قبل أن أنتقل الى ما أزمع الانتقال اليه مما يميز ويبين موقف الهمداني سواء في نظر الغلاة من أشياعه ، أو المتحاملين عليه من خصومه ، ومن الذين لم يفهموه ، أو من الذين انفعلوا وتأثروا بأقوال الغلاة من أشياعه فظلموه ، أو في نظر ناقديه من أهل العلم الذين درسوا ما نشر من كتبه غثها وسمينها ، وحاسبوه متجردين لوجه ما أدركوه من الحقائق التي استخلصوها ، وخرجوا بها بعد دراستهم لها ، دراسة بحث وتدقيق ، دونما تأثر بحب غال ، أو انفعال بكره قال ، بل بما وجدوه منقولا عنه في كتبه .

قبل أن أنتقل الى هذا الفصل والذي سيكون عنوانه « الهمداني بين الغلاة والمتحاملين والنقّاد » أو « بين الواقع والوهم والحق والباطل » . كما سيكون خاتمة حديثنا عن الهمداني الذي أحسبه قد طال وكاد يشذ عما وطّنا أنفسنا له وهو الحديث عن الأدب العربي ونصيب اليمن منه في العصر العباسي .

أودّ أن أضرب مثلاً يؤكد لدرّاس الأدب العربي في اليمن ، والذين لا بد أن يقفوا طويلاً عند الهمداني ، وتدهشهم التناقضات والأقوال المتضاربة عن نشأته وولادته ووفاته وأسباب سجنه ، واتهامه بالزندقة والكذب من قبل قوم ، والاغراق في تمجيده الى حد التنزيه عن الخطأ من قبل آخرين ، ثم ما نسبوا اليه من أقوال وأعمال تتناقض مع واقع حياته وسيرته ومذهبه وطبيعة عصره ؛ فهم يقولون إنّه قد حارب الامام الهادي مع السلاطين الذين حاربوه مع انّه لم يولد الاّ سنة ٢٨٠هـ وفي العام الذي بويع فيه الهادي اماماً ومات وهو مهاجر بصعدة لما يتجاوز عامه الثامن عشر ! ثم يقولون انه حارب النّاصر مع ابي جعفر أحمد بن محمد بن الضحّاك وسجّل له اكثر من مائة وقعة ؛ مع ان ابن الضحّاك كان من خاصة الناصر وأعيان قوّاده وساعده الأيمن في حروبه للقرامطة وغيرهم . . والهمداني عندما بويع الناصر سنة ٣٠١هـ كان لا يزال طالب علم ورفيق قوافل الحاج والتجّار ، ويرضع من أخلاف معارف أبي نصر الحنبصي الذي هاجر أيضاً إلى الناصر بعد أن أحرق « ابن الملاحف » قصره عام ٢٩٩هـ

حين اجتاح « علي بن الفضل » صنعاء ، ثم فكر في « السفر الكبير » أي الهجرة إلى مكة طلباً للعلم سنة ٣٠٦هـ ولم يعد الى « صعدة » إلاّ عام ٣١١هـ حيث استقر بها . . . حتى عام ٣١٩هـ وجرى له ما سبق تفصيله فنزح الى « صنعاء » حيث زج به سلاطين آل يعفر « الحواليين » في السجن وأوسعوه تنكيلا .

وإذاً ؛ فكيف حارب « الناصر » وأين ؟ ومتى ؟ الى غير ذلك من الأسئلة التي ستواجه قارىء « الاكليل » باختصار محمد بن نشوان الحميري وروايته والتي ستربك طالب المعرفة والباحث عن الحقيقة ، المجرّد من الهوى ، فاما أن يشك في كل ما قيل أو كُتِب ، أو يجحده ، أو ينكر شخصية الهمداني ويتشكك في وجودها ويكون ذلك أهون عليه من تبرير تلك الأخبار المتضاربة وتصديق رواياتها المتناقضة .

ولأنّنا لا نشك في وجود الهمداني ونقدّره كما قدره القفطي والسّيوطي وإبن صاعد الأندلسي ، وابن خالويه من الأولين ، والأستاذ محب الدين الخطيب والبحاثة حمد الجاسر واضرابهم من الآخرين الذين لم يقدّروه تعصّباً لمذهب أو عنصر أو هوى طائفي ، أريد أن أضرب مثلاً لدرّاس الأدب ، ومحبّي المعرفة ، وأدلّل على أنّي ما توصّلت الى انّ العلاّمة محمد بن نشوان قد جنى على الهمداني حين أعمل قلمه تحريفاً وشطباً وتغييرا في كتب الهمداني ، ولا سيما « الاكليل » الاّ بعد معايشة طويلة لكتبه وسيرته وظروفه وعصره وطبيعة بيئته ؛ وسأختار المثل من بين عشرات ، وسيؤكّد صدق ما قلته من أن على الباحثين إعادة النظر في دراسة « الهمداني » وكتبه والتفتيش عن أصولها السليمة من التغيير والبتر والاضافات والتأويلات الباطلة إن استطاعوا الى ذلك سبيلا ؛ وسأتعمّد ان يكون هذا المثل من الكتاب العاشر الذي لم يعترف « ابن نشوان » انه قد غير فيه أو حذف منه وصدر بتحقيق العلاّمة الخطيب عام ١٣٦٨هـ وطبع بالقاهرة وهو يختص بمعارف همدان وانسابها وعيون أخبارها .

يقول في ص : ٦٧ ـ وهو يتحدّث عن نسب « المعيديين » :

« فأولد العبّاس الضحّاك ورزاما وسعيد الحوالي : فأولد الضحّاك

محمد وقد رأس ، وقتل ابن مسعود غلام أبي يُعفِر بأمره غيلة فغضبت فيه همدان ، وقامت فيه حاشد وبكيل مع الدعام بن ابراهيم بن يأس العبدي سيّد بكيل فأزال مملكة آل يعفر ؛ فأولد محمد بن الضحّاك أحمد أبا جعفر سيّد همدان في عصرنا وصاحب الوقائع والأيام ، وهو الذي يمدحه الهمداني ويقيّد أيامه ، وهو منه خلّ وصاحب ، وشهد مائة وقعة وستّا كان أكثرها بين حزبه وبين يحيى بن الحسين العلوي . وأسر ابنه محمد بن يحيى يوم « اتوه » ثم صافاه ابنا يحيى محمد المرتضى ، وأحمد الناصر ، وكان لهما نعم الصاحب والوزير على أمورهما ، ثم باعده القاسم بن الناصر فجرى بينهما ما ينطق به شعر الهمداني ودخل صعدة ثلاث مرّات فأخربها ودخل صنعاء كرّتين فأحسن فيهما » .

ودارس الأدب العربي في اليمن خلال النصف الأخير من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجريّين لابد أن يلمّ بوقائع الأحداث التاريخية والظروف السياسية التي كانت تكتنف اليمن وقد أشرنا الى بعضها ؛ ولا شك انه حين يقرأ ما ورد في الاكليل ص : ٦٧ - ج ١٠ - والذي اقتبسناه أعلاه ثم يقرأ ما ورد في الصفحة التالية ص ٦٨ - وهو قوله : « وكان [أي أحمد محمد بن الضحّاك] مظفّراً له راية ، وقُتِل أبوه وهو ابن سبع سنين فراعى ثاره في آل يعفر سبعاً وخمسين سنة ، ثم قتل منهم خمسة بخديعة ، وأخباره كثيرة » لابد أن تأخذه الحيرة ، ويشدّه الارتباك ؛ فالهادي بدأ معاركه مع القرامطة ، وآل يُعْفِر ، وعُمّال العباسيين ، وغيرهم ، منذ سنة ٢٨٤هـ وأحمد بن محمد بن الضحّاك لا يزال في الثانية عشرة ، لاننا نعلم - ولابد ان دارس الأدب قد علم - أن والده محمد بن الضحّاك قد اغتاله آل يعفر عام ٢٧٩هـ وابنه أحمد في السابعة كما قال الهمداني أيّ انه ولد سنة ٢٧٢هـ كما اننا نعلم جميعاً ان الهادي توفي عام ٢٩٨هـ وأحمد بن الضحّاك في عامه السادس والعشرين فكيف يمكن ان يعقل دارس الأدب والتاريخ أن تكون أكثر وقعاته التي تنوف على المائة قد كانت بينه وبين الهادي يحيى بن الحسين ؟ وماذا بقي لمعاركه مع آل يعفر قَتَلة أبيه ، والذي قال الهمداني انه

« راعى ثاره فيهم سبعة وخمسين سنة » أي من عام ٢٧٩هـ حتى عام ٣٣٦هـ حين تلاشى سلطان آل يعفر الحواليين وإذاً فلابد أن تحريفا وتغييرا قد كان في كلام الهمداني وان الأقرب الى منطق الأحداث وما يستسيغه العقل ان الأصل هو « وشهد مائة وقعة وست كان أكثرها بينه وبين آل يعفر حتى انهم لما أرادوا مخالفة الهادي يحيى بن الحسين على مواليهم وابن خلف وآل طريف عام ٢٩٠هـ مال ابن الضحّاك مع آل طريف مراعاة لثاره في آل يعفر وفي رجب من نفس العام كانت وقعة « اتوه » التي أسر فيها المرتضى محمد بن الهادي .

هذا أو ما يشاكله هو ما كان يمكن أن يزبره قلم المؤرّخ الهمداني ولكن أتباع وأنصار وأحفاد « الحواليين » ومنهم محمد بن نشوان في أواخر القرن السادس الهجري ، ومحمد الأكوع في أواخر القرن الرابع عشر الهجري يحاولون أن يبرّؤوهم من تَبعة سجن الهمداني والتنكيل به ، ولذلك أمعنوا في تحريف وتأويل وطمس كلّما يوحي بأن الهمداني كان يشعر بمضاضة وغيظ وألم ، وبالغوا في اختلاق وابراز كلما يُشعر أو يوحي بأنه كان من المعارضين للهادي وانه مع ابن الضحّاك ـ وحتى قبل ان يبلغا سن الرشد ـ قد حارباه بالسيف والسنان . كما يحاولون طمس وإخفاء كل ما يدل على « زيدية » الهمداني أو إبن الضحّاك لتعصّبهم المذهبي والطائفي وتعنصرهم العرقيّ لما يسمونه « حِوَالَ » و « يُعْفِر » و « حِمْيَر » و « قحطان » والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿**يا أيّها النّاس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ؛ إن أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾ .

ويقول الرسول ﷺ « الناس لآدم وآدم من تراب » .

من هو ابن الضحّاك ؟ :

ومن يتتبع سيرة ابن الضحّاك في حياة « الهادي » وطيلة حكم ولديه « المرتضى » و « الناصر » يتأكد من صدق ما ذكرناه آنفاً ؛ وقد ورد في كتاب « سيرة الهادي » رواية علي بن محمد العباسي العلوي وهي رواية شاهد عيان حين تحدّث عن أحداث عام ٢٩٠هـ لما حصل الخلاف بين آل يعفر وعبيدهم وراسلوا الهادي عن طريق الدعام بن ابراهيم يستنهضونه على ان

يسلموا له ما في ايديهم ويحارب معهم ابن خلف وآل طريف وكان أحمد ابن محمد الضحّاك يومئذٍ في الثامنة عشرة من عمره يعمل بحقد ومرارة كلّما يستطيع لأخذ ثاره من قتلة أبيه آل يُعْفِر أن إبن الضحّاك كره هذا التحالف ؛ يقول صاحب السيرة : « وقد كان ابن الضحّاك في ذلك الوقت مائلاً ميل آل طريف فهرب من البلد ، فأتى ناسٌ الى الهادي فكلّموه في قطع ماله وهدم منزله فكره ذلك » ص : ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ـ سيرة الهادي .

ولا شك ان « الهادي » قد أدرك أن أحمد بن الضحّاك الشاب الحاقد الذي يريد أن ينتقم من آل يعفر انما اندفع الى التمرّد والميل الى آل طريف نكاية في الحواليين لا كراهية للهادي ولذلك لم يتسرّع في « قطع ماله وهدم منزله » كما كان يعمل مع سائر المحدثين .

وقد احتفظ ابن الضحّاك الشاب الثائر بهذه المكرمة ورعى جميلها ؛ فان جيش الهادي قد انهزم أمام قوّات آل طريف وفيهم ابن الضحّاك ولما وقع المرتضى بن الهادي « وسقط من فرسه مغشياً عليه ، ولحقه القوم طمعاً في اصابته والقضاء عليه كان الذي أنقذه هو ابن الضحّاك قال العلوي : « وكان فيمن لحقه ابن الضحّاك الخيواني فحال بين القوم وبين إصابته وأخذوه ورجعوا به الى ابن خلف » ص : ٢٤٩ سيرة الهادي فهذه هي قصّة أسر المرتضى في « اتوه » وليست كما حاول محرّف الاكليل أن يصوّرها ولم يكن ابن الضحّاك هو قائد الحملة بل كان أحد أتباع ابن خلف ولا يزال « صبياً لا عقل له » حسب تعبير العلوي ص : ١٤٥ .

ونحن نعلم من سيرة الهادي ان ابن الضحّاك قبل هذه الوقعة كان من أصحاب الهادي في صعدة وقد أتى ذكره في السيرة في أحداث عام ٢٨٦هـ عندما أراد الهادي ـ كما ذكرنا في ترجمة أحمد بن عباد ـ النهوض الى نجران ، وكان ابن عباد كما قال صاحب السيرة « هو وابن حميد وابن بسطام وابن الضحّاك تواطأوا وتعاقدوا في سفر الهادي الذي أخذ فيه المحدثين على ان يحدث كل رجل منهم في بلده على الهادي » [ص : ١٥٥ ـ سيرة] وكان يومئذٍ ابن الضحّاك لا يزال في الرابعة عشرة فلا نستغرب ان خنزوانة الزعامة المنفعلة بطيش الشباب ، وشهوة الانتقام من آل يعفر ، قد تأثرت بمطامح الزعيم الشاعر « ابن عبّاد » ؛ وهو يريد ان يؤلب الجميع معه ، وان يجمع حوله أكبر عدد لأخذ الثار لأبيه ، وزيّنَتْ له التمرد مع المتمرّدين ، وقد فصل

صاحب السيرة ما حدث لابن حميد ، وابن بسطام ، فيما كتبه من صفحة ١٥٩ ـ إلى صفحة ١٨٢ ـ أما الشاب الثائر « ابن الضحّاك » فقد ذكر في ص : ١٨٣ ان أبا القاسم محمد بن الهادي قد أرسل من صعدة الى بني « معْمَر » يخبرهم بانتصارات الهادي على بني الحارث في نجران ، ويحثهم على طرد ابن الضحّاك وعبيدة من بلدهم ، وكانوا « يقطعون الطريق » و « يدفنون الآبار » ، وسجّل ذلك شعرا فقال :

يا حيّ همدان ان الله فضلكم بنصر آل رسول الله في الكتب
حتى سما فخركم في كل شارقةٍ من البلاد وقُدّمتم على العرب

***

إلى أن يقول :

يا قومنا فارقوا التضليل وانصرفوا للحقّ لا تركنوا لِلّهو واللّعب
وشرّدوا أعبداً من عقر داركم فعارهم يصِمُ الأخيار كالجربِ !

***

قال صاحب السيرة :

« فلما وصل كتاب أبي القاسم الى بني « مِعْمَر » اجتمعوا وتشاوروا في أمرهم ، وعلموا أنّهم لا طاقة لهم بالهادي ، فأمروا بعض سفهائهم ان يعقر فرس ابن الضحّاك فعقرها بالليل فلما بان ذلك لابن الضحّاك علم ان القوم قد أسلموه وتركوه وجفوه ، وجعلوا يطرحون له الكلام ، ويغلظون له الجواب ، فاستغاث بأبي العتاهية أمير صنعاء ومضى اليه وسأله ان يكتب الى أبي القاسم بن الهادي ؛ أن يؤمّنه ، ويصفح عن زلته فأحسن أبو العتاهية في أمره ، وكتب له الى ابي القاسم ، ووجّه معه رجلاً من أصحابه في قطعة من خيل ورجال مادة لأبي القاسم وسأله أن يؤمن له ابن الضحّاك ويهب له ذنبه ، فلما وصل اليه أعطاه الأمان ولزم العافية وأقام عنده بخيوان واطمأنّت البلد ، وانقطعت الفتنة ، واستأمن « المعمريّون » فأمنّهم وكتب الى الهادي يخبره بما كان من خبرهم » .

السيرة ص : ١٨٣ ـ ١٨٤ ـ ١٨٥ ـ ١٨٦ .

فهذه هي « الوقائع » أو « المعارك » التي حدثتْ بين الشاب الثائر وبين

الهـادي كما ذكـرهـا صاحب سيرتـه وكان قد ذكر في ص ١٤٠ ـ ما يلي : « حدثني محمـد بن سليمان قال : حدثني أحمد بن الضحّاك قاضي همدان وفقيهها وعالمها والمقصود اليه في ذلك ، وفي كل ما يحتاجون اليه من حلال أو من حرام قال : قال لي هو ومُرَوّع بن عبد الله الصايدي : بايعنا يحيى بن الحسين ونحن نعلم انه ما على وجه الأرض أقوم بحق الله منه ، وما يفقدَ من محمـد الاّ شخصـة » ؛ فهذه هي كلمة العقل والحكمة في لسان ابن الضحّاك لما ثاب الى رشده وهي كلمة تفسّر لماذا كان « إبن الضحّاك » بعد موت النـاصر ملجـأ للهـدوية أمثـال « الـطبري » و « الحـنبصي » و « الهمداني » ؛ ولا يعزبن عن البال ما قاله الهمداني نفسه في العاشر من الاكليل ان ابن الضحّاك كان للمرتضى والناصر « نعم الصاحب والوزير على أمورهما » .

وقد ترجمه العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال في مطلع البدور فقال :

« العـلاّمة الخطير الأمير الشهير زعيم الجنود الناصريّة ، حتف الطائفة القـرمـطيّة ، ثقـة أمـير المؤمنين أبو جعفر أحمد بن محمد بن الضحّاك ابن العباس الهمداني ذكره في « طبقات الزيدية » [يقصد طبقات مسلّم اللحجي] مع الطبقة الأولى وذكر له عبد الله بن عمر الرَّيدي [مؤلف سيرة الناصر] مشـاهـد حميدة ولأخيه أبي حاشـد ابـراهيم بن محمـد ، وكـان يلي ما يلي السلاطـين الكبار ، وما يتولاّه العلماء الأخيار ، وينيبُهُ الناصر بن الهادي منابَ نفسه ، قال في الطبقات : « كان من نصحاء الناصر ، وأهل الثقة عنده والزعامة وجودة الرأي وصدق المودّة ومن عظماء الأقدار » .

وجاء في « الحدائق الوردية » تأليف العلامة الفقيه حميد بن أحمد المحلي المتـوفي سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٥ م في ترجمته للامام الناصر بن الهادي يصف وقعـة « نغـاش » المشهـورة بين « الزيدية » و « القرامطة » ، وهي المعركة الحـاسمـة التي لم تقم للقـرامطة بعدها قائمة قال : « وكان آخر الوقعات وأعظمها وقعة « نغاش » وكان قد اجتمع مع الباطنية خلق كثير من جميع المغارب ، وناحية تهامة وقائدهم يومئذ صاحب مسور عبد الحميد بن محمد بن الحجّاج فأقاموا في « نغاش » وندب الناصر عليه السلام أمراءَه وقُواده ، وهم ابـراهيم بن المحسن العلوي العبـاسي ، وأبـو جعفـر أحمد بن محمد

الضحّاك وعبد الله بن عمر [مؤلف سيرة الناصر] وغيرهم من الرؤساء » ، « وكان ابتداء القتال في يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر شعبان سنة ٣٠٧هـ [سبع وثلاثمائة] فتلازم القتال في موضع يعرف ببيت الورد بين الفريقين ، من صلاة الظهر الى غروب الشمس » الى آخر ما قال عن نصر جنود الناصر والهزيمة المنكرة التي حلّت بالباطنيّة ج ٢ ـ ص ٤٩ . والذي يهمّنا هو أن السلطان أحمد بن محمد بن الضحّاك كان بمن معه من همدان وخولان في ميمنة جيش الناصر ويومها أنشد الغطريف بن الضحّاك شاعره :

سيّدنا النّاصر بادٍ عَلَمُهْ مثل الهلال زيّنتْه أنجمُهْ
همدان في كلّ مغارٍ تقدمُهْ طرّاً ؛ وخولان جميعاً تخدمُهْ

***

ومن كل ذلك نعرف أن ما قيل من أن أكثر وقعات ومعارك « ابن الضحّاك » كانت في محاربة « الهادي » لا يمكن ان يزبره قلم الهمداني ، وأما ما حدث بعد ذلك من اختلاف بين أولاد الناصر وحتى اغتيل ابنه « المختار » في سجن « ابن الضحّاك » سنة ٣٤٥هـ فلا مجال للحديث عن أسبابها ومسبباتها في هذا الكتاب ! ، وليس فيما بين يديّ من المصادر ما يذكر العام الذي مات فيه أو قُتِل أحمد بن محمد بن الضحّاك إلّا ان القَاضى الحسين العرشي يذكر في كتابه « شرح مسك الختام » « ان المنتصر محمد بن المختار قد أخذ بثار أبيه ؛ وعضدَه قيس بن الضحّاك الهادوي على أبيه وكانت له وقعات قتل فيها « ابن الضحّاك » وقال في ذلك شعرا »

[أنظر أئمة اليمن لزباقرة ج ـ ١ ـ ص ٧٠] .

من هو قاتل المختار ؟ .

على أن ثمّة شك يخامرني انّ الذي قتل المختار القاسم بن الناصر أو أمر بقتله غيلةً في سجنه ليس هو السلطان أحمد بن محمد ، وأنه كان قد توفي قبل سنة ٣٤٥هـ وأن من قام بعده من آل الضحّاك هو الذي قتل المختار في سجنه ؛ ويؤيد هذا الشك ان العلاّمة مجد الدين في كتابه « التحَف » قد سمى آسر « المختار » وقاتله الضحّاك بن قيس الهمداني ص ـ ٧٩ ـ وان مؤرخ الزيدية أحمد بن صالح بن أبي الرجال قد مدح ، وأثنى على السلطان

أحمد ثناءاً عاطراً كما أسلفنا ولم يشر الى انه قد قتل الامام المختار ، ولو انه قد فعل ذلك لتذمّمَ منٍ مدحه . كما انه قد أثنى على أخيه ابراهيم بن محمد وقـال : « كان رجلاً له قدر ودرجة وشجاعة وشرف في قومه همدان ورأي وديانة ومودّة خالصة لآل محمد عليه السلام » ص ٧٢ ج - ١ - مطلع البدور كما أن مؤلف غاية الأماني في أخبار القطر اليماني قال وهو يتحدّث عن أخبار سنـة ٣٤٤هـ : « وفيهـا وصل المختار بن الناصر إلى « ريدة » فخرج اليه « ابن الضحّـاك » من صنعـاء واستمـدّ منـه التولية على « صنعاء » فولاّه ودخلت سنة ٣٤٥هـ وفيها غدر « ابن الضحّاك » بالمختار فحبسه في قصر ريدة ونـالتـه المشقة من أصحاب ابنِ الضحّاك فانهم كانوا يدخلون عليه بأوعية الخمر ويشربونه في مكانه قصداً منهم لأذيته وتنجيس موضعه وثيابه ، فكان خادمه يدخل عليه كل يوم فيطهّر ثيابه ، وموضع صلاته ولم يزل كذلك الى شهر شوال من هذه السنة ثم قتلوه ظلما والله المستعان » غاية الأماني ص - ٢٢٢ - ج - ١ . ومن البعيد أن يقترف ابن الضحّاك أحمد بن محمد الذي قال فيه « الطبري » ما قال ، والذي اثنى عليه مؤلّف سيرة الناصر وابن ابي الـرجـال مثـل هذه المـآثم ، ويعـامـل أسيره وابن إمامه الناصر بن الهادي تلك المعاملة التي يترفّع عنها الشرفاء ، وذوي الهمم العالية ! . و « زبارة » و « العرشي » قد اتّبعوا مؤلّف غاية الأماني ، فلم يعينوا من هو « ابن الضحّاك » الذي سجن المختار وأمر باغتياله ، وأما المؤرخ القاضي عبد الله الشماحي فاكتفى وهو يتحدّث عن « امارة السلاطين آل الضحّاك » بقوله :

« كانت الـرئـاسـة على همدان من أواخر القرن الثالث للسلطان محمد بن الضحّاك بن العباس بن سعيد بن قيس بن أبي معيد بن حمزة الهمداني ثم من بعــده لأبي جعفر أحمـد بن محمـد بن الضحّـاك ثم لأبي حاشـد بن العباس ابن الضحّاك ثم ليحيى بن أبي حاشد ثم لأبي حاشد الذي قتله علي ابن محمـد الصليحي سنـة ٤٥٣هـ مع ألف من همدان بمعركة قرية صوف بيَازِل من بني مطر ، وكـانت عاصمـة آل الضحّـاك ريدة ونـازعوا الـرسيّين واليعفـريين وقتلوا الامام المختار بن الناصر الرسي سنة ٣٤٥هـ بريدة » ولم يحدّد اسم السلطان . فهل تراه ابن عم السلطان أحمد الذي تولّى السلطنة بعده وأن أحمد كان قد توفي قبل ذلك ؟

وإذا ثبت هذا الحدس فبالتالي نستطيع القول بأن الهمداني قد توفي حوالي سنة ٣٤٠هـ وتوفي بعده خلّه وصديقه السلطان أحمد ولم تحدث مأساة « المختار » إلّا بعد وفاتهما .

أخذ الثأر للمختار

وقد ذكر « زبارة » أثناء ترجمته للامام المنصور يحيى بن الناصر [ت ٣٦٦هـ] أن المنتصر محمد بن المختار القاسم قد ثأر من قاتلي أبيه وقصدهم الى عقر ديارهم فقتلهم وقال قصيدته المشهورة :

علامَ أُلامُ يا سلمى ؟ علاما ... عداني اللوم فاطرحي الملاما ؛
ألّما تعلمي فتَكى جهاراً . . ... عشية لم تهَبْ نفسي الحماما ؟
وطعني غيرَ ما وجل ، وضربي ... كُلاً وطلا وأحشاءً وهاما
بردت الغلّ ثم شفيت نفسي ... بقتلي للأولى قتلوا الاماما
فتي في السلم كان هدى ونوراً ... وسيفاً في الوغى ذكراً حساما
جلونا حين ان صُلْنا عليهم ... بأوجهنا عَن اوجهنا القتاما
وأفطر سيف ثار بني عليّ ... ومنهم طالَ ما قد كان صاما
وحكمنا البواتر في طُلاهم ... فخرّت هامهم فلقاً ترامى
وحزنا خيلهم والبيض غنما ... وأوسعنا أُساراهم ذماما
رأينا قتلهم إذ ذاك أحرى ... بنا من أن نذلّ وأن نضاما
فصلنا صولة شعواء أضحتْ ... أنوف الكاشحين بها رغاما

***

وقد أورد زبارة منها أحد وعشرينِ بيتاً وهي تبلغ في سيرة الهادي ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ـ اثنين وثلاثين بيتاً وهي من القصائد والأخبار التي أضيفت الى السيرة بعد وفاة مؤلفها وراويها علي بن محمد بن عبيد الله كما ذكرنا في ترجمته .

وقد قال السيد العلّامة مجد الدين المؤيدي في كتابه « التحف شرح الزلف » ص : ٨٠ ـ ان هذه القصيدة معروفة بالحماسة الهاشمية والشجاعة « العلوية » ومن أبيات حماستها وفخرها :

بدعنا كل مكرمةٍ ولمّا ... نزل للمجد والعليا سناما

وما إن زال أولنا نبيّاً ولا ينفك آخرنا إماما . . !
يدين الناس كلهمو جميعا لمرضعنا وما بلغ الفطاما ؛

***

إلى آخرها . ونقل زبارة عن القاضي حسين العرشي انه قال في كتابه « بلوغ المرام » « لما أسر الضحّاك الحاشدي المختار القاسم بن الناصر وقتله في ريدة قام ابنه الامام المنتصر محمد بن المختار فأخذ بثار أبيه وعضده قيس بن الضحّاك على أبيه فكانت بينهم وقعات في خيوان قتل فيها الضحّاك وكان قيس ابنه ممن أظهر مذهب الامام الهادي وتعصّب له حتى أعلا مناره » ولم يذكر عام وفاة المنتصر وقصيدته الحماسية تدل على ان نفَسَهُ كان عاليا .

الهمداني بين خصومه وناقديه :

قلنا إن هناك من اليمنيين من غالى وأفرط في تقدير وإطراء الهمداني إلى حدّ التنزيه عن الخطأ ونحن لا نحفل بهؤلاء ولن نناقشهم ، أو نلتفت الى أقوالهم ، وهناك من تحاملوا عليه واتهموه في دينه وبالوضع والكذب فيما يرويه من أخبار وأنساب ، ويقولون أنه تنكّب نهج الحق وغاب عنه الصواب حين تعصّب لقحطان على قبائل « عدنان » ومن هؤلاء القاضي العلامة المؤرخ أحمد بن صالح بن أبي الرجال فقد نقل عنه القاضي العلامة محمد الأكوع في مقدمته للكتاب الأوّل من « الاكليل » انه قال في « مطلع البدور » : « اعتُقِل - أيّ الهمداني - لشانٍ في دينه قيل بصنعاء ، وقيل بصعدة أيّام النّاصر أحمد ، وأيام أسعد بن أبي يُعْفِر » إلى أن قال : « لهج « إبن الحائك » بتفضيل قبيلة « قحطان » على « عدنان » وحقّر ما عظم الله ، وتجاسر على انتقاص من اصطفاه الله » ص : ٦٢ - مقدمة الكتاب الأول من الاكليل .

وابن ابي الرجال قد انفعل وتأثر بأغراق الغلاة من أشياعه ولم ينتبه الى عبث المتعصّبين وذوي الأهواء بكتب الهمداني ، ولعلّه لم يطلع على كتابه شرح الدامغة بل ولا على الدّامغة نفسها وقد سبق أن نقلنا ما فيها من ثناء وتنزيه لصفوة خلق الله محمد ﷺ غير متردّدٍ ولا مجمجم ، وما قاله في آل الرسول ﷺ .

ويشبه موقف « ابن ابي الرجال » من الهمداني موقف العلامة المؤرخ يحيى بن الحسين بن القاسم ؛ فقد ترجمه في « المستطاب » أو « طبقات الزيدية الصغرى » فقال : « الحسن بن أحمد بن يعقوب صاحب الاكليل والجزيرة قال الامام شرف الدين [ت ٩٦٥هـ] في شرح مقدّمةِ « الاثمار » : كان في أواخر مدّة الهادي ووقت أولاده المرتضى والناصر وهو أفصح وأعلم من « نشوان » ، وهو حائك من حاكة ريدة ، وصنّف في شتى العلوم ، وأكثر تصانيفه لا يخليها من التعصّب لقحطان على عدنان حتى خرج إلى الكذب ، وكان مشهوراً بالكذب في الأنساب مع معرفته بها ، وكان يأخذ على الكذب فيها مالا ، وكان سبّاباً لأهلِ بيت النبي ﷺ ، وحبسه « ابن يُعْفِر » على رأي « الامام الناصر » شهوراً ، والظاهر ان المذكور كان سنيّاً لما رأيته في بعض مصنفاته ، ومن الناس من يتوهّم انّه من الاسماعيلية العبيدية وليس كذلك ، وقد ذكر « القرامطة » وذمّهم ، ومن خرافاته وكَذبه انه ذكر في بعض مصنفاته في فضائل « قحطان » و« حمير » انكار دخول الحبشة اليمن ، وقال : العرب أرفع شأنا ، وأقوى مكاناً ان تدخلهم الحبشة وانما دخلوا من ساحل « جدة » الى « مكة » وهذا كذب ضروري لتواتر التواريخ بدخولهم اليمن وملكهم له » ص ـ ٥٣ ـ مخطوطة محمد بن محمد المنصور .

فالامام شرف الدين لا شك قد اطّلع على أخبار متناقضة عن الهمداني ولكنّه أقرّ له بالعلم والفصاحة وفضله على « نشوان الحميري » مؤلف « شمس العلوم » و« الحور العين » ؛ وقد رجّح أنه من « أهل السنة » واستبعد ان يكون « اسماعيلياً » أو « قرمطياً » ، ولكنه دمغه بالتعصّب والكذب في الأنساب ! ولا ندري أين وجد إنكار « الهمداني » لاحتلال اليمن ، ولعلّ أحد المتعصّبين قد وضع ذلك على لسان الهمداني ودسّه في بعض كتبه التي لم نعثر عليها بعد ؛ ومن البعيد أن يكون الهمداني قد قال ذلك ؛ لأن حجّته بان اليمنيين عرب « والعرب أرفع شأنا وأقوى مكانا » من أن تحتل أرضهم الحبشة حجّة واهية داحضة ، إذ أنّ سكان الحرم الشريف من قريش ، ولا ينكر الهمداني عروبتهم ، وجبروت القوة ، وهو ان الضعف ، لا تختص بجنس أو عنصر ، وأسبابهما مهيئة لكلّ من يأخذ بها

من عرب وعجم ، وسود وبيض ، وبني الأحمر والأسمر والأصفر في كل زمان ومكان .

موقف النُقّاد المعاصرين :

هذان مثالان من أقوال « المتحاملين » على « الهمداني » من القدماء اكتفينا بهما وآثرناهما ـ أولاً ـ تقديراً لصاحبيهما الامام شرف الدين والقاضي أحمد بن أبي الرجال لأن مكانتهما العلمية تربأ بهما عن ان يكونا قد قالا ما قالاه دون علم أو اطّلاع ، أو بدافع التعصب المذهبي ، أو المقت العنصري ؛ والامام شرف الدين شريفٌ علوي ، وابن أبي الرجال الخولاني من أكرم الأسر القحطانية العريقة ؛ وكلامهما قابلٌ للنقاش وقد علّلناه بجناية من حرّف كتب الهمداني ، أو أضاف اليها ما ليس منها ، وذلك ما يقرّه درّاس آثار الهمداني والنقّاد المنصفون .

وثانياً ـ اختصاراً وعزوفاً عن ايراد تلك الأقوال التي تحامل بها أصحابها على « لسان اليمن » تعصباً لعرق ، أو حميّة لطائفة ، أو انصياعاً لطغيان العواطف الخرساء ، وتيّارات الجاهلية الجهلاء .

أما العلماء والباحثون من النقّاد المعاصرين الذي عنوا بكتب الهمداني ودرسوها دراسة تحقيق وتمحيص ، ونقدوها بوعي ودراية فسنكتفي بآراء ثلاثة منهم :

١ ـ الأستاذ محبّ الدين الخطيب :

بعد أن نبّه الأستاذ العلامة محب الدين الخطيب في مقدمته للكتاب العاشر من الاكليل الى بعض أخطاء الهمداني « كخطأه في تسمية قاتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب يوم صفين (ص ٢٢١) وقوله (ص ١٢٤) عن عبد الرحمن بن عبيد الشاكري انه قاتل عبيد الله بن زياد بالكلتانية » وخطأه في رواية ابن الزّبير الأسدي في أسماء ابن خارجة (في ص ١٠) واستعماله شعراً لِثابت قطنة في غير سببه ، ونسبته الى غير قائله (ص ١٥٥) وبعد أن أثنى على الكتاب ومؤلّفه قال ناقداً :

« وأثبتُ نزعات الهمداني همدانيّته ويمنيته ؛ فهي لونُه الثابت الذي كان يحبّ أن يَصْبَغَ به كلّ ما يقع نظره عليه ، ومن هنا اتي !! فان الاسلام ـ كما

قال الامـام الشـافعي ـ لا يعـدُّ من العصبيّة ان يحَب الرجل قومه ويشيد بمآثرهم بل يقدح بها إذا غمطت الحق وعارضت أهله . وأنا قد راقبت المؤلّف فرأيتـه يثبت حقـائق العلم على صحتها ما استطاعَ ، في كلّ ما لا يمس همدانيته ويمنيته ، فاذا لامس العلم هذا الجانب الحسّاس من المؤلّف وجد فيه ضعفا نرجو الله سبحانه أن يغفر له وفي هوامش نسخة (م) (محمد مرسي قنديل التي اعتمدها المحقق وهي ذات الرقم ٥٥٢٩ تاريخ في دار الكتب المصرية) من الكتاب العاشر للاكليل تعليقات للسيد عبد الله المفضل ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله تاريخها سنة ٩٦٩هـ تَتَبَّع بها بعض هذه الجوانب الضعيفة من علم المؤلف بالنقد نكتفي منها بهذه الاشارة اليها لأنّها مما لا يجوز إغفاله عند الكلام على حياة أبي محمد الهمداني وميوله » .

ثم قال محب الـدين الخـطيب : « ويروي ابـو الحسن علي بن الحسن الخرزجي مؤرخ اليمن انه في مدّة اقامته بصعدة هاجى شعراءها فنسبوا اليه ما أوّلوه تقصيرا في حقّ سيد الخلق ﷺ ونحن نستبعد ذلك ونحمله على ما عرف عن المؤلّف من العصبيّة التي تتجاوز سَنَنَ الاسلام » « والذي نراه ان عقيدة الرجل سليمة ، ولو كان فيها مغمز لعرف دعاة الاسماعيلية والقرامطة كيف يستميلونه ، وإنه لعلى عكس ذلك يقول في أول دبور وقعت عليهم من الامام الهادي والدعام بن ابراهيم والسفيانيين وأورد الأبيات التي سبق ان اخترناها له : «ان سيوفاً جَلَتْ وجوه بني قحطان لما اعتَدتْ ذنائبها» .

وموقف الأستاذ الخطيب قد لا يختلف كثيراً عن موقف الامام شرف الدين الذي نقله الينا صاحب « الطبقات » فقد دافع عن عقيدة الهمداني وقال إنها سليمـة مثلما قال الامـام ان الرجل كان « سنيّاً » ؛ ولم يكن إسماعيلياً ولا قرمطيا ، ولكن الخطيب وصمَه بالتعصّب ، وانه قد يحيد عن حقائق العلم إذا لامَسَتْ تلك الحقائق العلمية « همدانيّته أو يمنيّته » ! وقد تحاشى ان يتهمه بالكذب باسلوب ناعم لطيف ، ولكنّه سأل الله سبحانه له الغفران ! ولعل نظرة أستاذنا محبٍ الدين لا تبعد كثيراً عن نظرة الامام شرف الدين .

ويا ليت الأستاذ الخطيب أثبت في تحقيقاته هوامش عبد اللّه المفضل التي تتبع بها بعض الجوانب الضعيفة من علم الهمداني بالنقد ؛ اذ انها كانت ستريناً صورةً من صور النقد الأدبي في اليمن في القرن السابع الهجري الذي هو آخر القرون التي نؤرّخ لأدبها العربي في هذه الأبحاث .

٢ ـ **الأستاذ حَمَد الجاسر** :

كانت الترجمة التي قدم بها الأستاذ العلامة حمد الجاسر كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني أوّل ترجمة شاملة تتحدّث عن أسرته ونشأته ، ومراحل حياته ومشايخه ، ومفتاح شخصيّته ، وعن الهمداني النسّابة والأثري واللّغوي ، وعن مؤلفاته وأقوال العلماء فيه ، وقد أجاد وأفاد ، ومع اجلالِهِ لَهُ ، وإعجابِه بِهِ ، فقد انتقده نقد المنصف الخبير فقال :

ويؤخذ على الهمداني أمور :

١ ـ منها شدّة تعصّبه شدّةً قد تحيد به في بعض الأحيان عن جادة الصواب ، وكتاب « شرح الدامغة » أوضح دليل على ذلك ، والاستاذ محب الدين الخطيب على حق حينما قال عن الهمداني : « يثبت حقائق العلم على صحتها ما استطاع ، في كل ما لا يمسّ همدانيّته ويمنيته ، فاذا لامس العلم هذا الجانب الحساس من المؤلف وجد فيه ضعفاً » .

٢ ـ إعتقاده بتأثير النجوم ، في تكوّن المعادن ـ كما في « الجوهرتين » وفي البشر أيضاً ، كما شحن بذلك القسم الباقي من كتابه « سرائر الحكمة » وهو الخاص بالنجوم متأثراً بأفكار اليونان والهنود .

٣ ـ تصرّفه في الشعر ، وايراده بروايات مختلفة ؛ ففي « شرح الدامغة » أورد أبياتاً لعلقمة تختلف عن ايراده لها في « الاكليل » بل في « شرح الدامغة » أورد بيتاً لقيس بن الخطيم ثم أورده في الكتاب نفسه مغيّرا كلمة (وضعت) بكلمة (جعلت) ومثل هذا التغيير حدث في شعر للبيد ، بل قد صرّح بمثل هذا فقال عن أرجوزة الرداعي : « ما كانَ منها معيباً من جهة الاضطرار ، ولا فائدة فيه فقد ثقّفْته ، وأصلحته » .

ومن أسوإ أنواع التصرف تغيير أسماء المواضع ، فقد أورد في « صفة الجزيرة » لذي الأصبع :

جَلَبْنَا الخيلَ من بقران ، وأورده في « الاكليل » : عدا بالخيل من جلْدان ! وفي « الصفة » : يا حرّ ذات الوعث ـ في الحرّة ، والرجز : يانخل ـ في وادي نخلة . ثم قال : « وقد ينقد بعض الأخبار بطريقة المقارنة في الأنساب وبطريقة العقل أحيانا » « وقد تطغى عليه العاطفة فيثبت أمراً كان قد نفاه عقلاً ! »

والأستاذ الجاسر بهذه المآخذ قد وقف موقف « الأستاذ الخطيب » ومن سبقه في « دمغْ » الهمداني بالعصبيّة ، التي قد تحيد به عن الصواب ، وأضاف بأنه كان يعتقد بخرافة تأثير النجوم في المعادن والبشر ، وهي تهمة خطيرة لعلّ بعض من اتّهمه في دينه من الأولين كان يستند إليها ؛ كما ان نقده له بأنه كان يتصرف بالنصوص الشعرية ويغير أسماء المواضع كما يهوى قد تبرّر اتهام الأولين له بالوضع والكذب والتدليس بالاصطلاح المعروف عند أصحاب الرواية والاسناد . دونما اخلال بكرامة أو عقيدة الوضّاع ، أو « المدلّس » !

والأهم من كل ذلك هو ما قاله البحّاثة حمد الجاسر في ص ـ ١٣ ـ من مقدمته وهو : « والهمداني فيما عدا بلاد اليمن ـ لا يتجاوز علمه حدّ ما ينقله أو يستنتجه ، ولهذا وقع في كلامه عن بلاد نجد ، وعن منازل القبائل في جهات الجزيرة أخطاء كثيرة ، لأنه اعتمد في ذلك ما ورد في الشعر ، فنسب إلى بعض القبائل ما ورد من أسماء المواضع في شعر شعرائها بل قد يحاول أن يخطّىء غيره فيقع في الخطأ » وضرب لذلك مثلاً . .

وهذا أول نقدٍ من نوعه للهمداني ، وقد كان المتحدّثون عن صفة جزيرة العرب ـ بما فيهم الأستاذ محبّ الدين الخطيب ـ يظنون ان الهمداني قد ألّفه بعد أن ساح في جزيرة العرب وطواها شرقاً وغرباً وشمالا وجنوبا وان كلّ ما نقله كان عن عيان ومشاهدة ؛ وبهذا النقد القيّم ستتغير نظرة الباحثين الى ما أثبته الهمداني في كتابه ـ رغم قيمته العلمية النادرة ، وسيتثبّتون ويستوثقون من صحة وصدق روايته ، ولن يأخذوا كلامه مأخذ من يروي عن عيان ومشاهدة الاّ فيما يتعلّق باليمن .

ومع ذلك فقد وَهمَ استاذنا حَمَد الجاسر عندما فهم من كلام القفطي انّ الهمداني « كان يختلف بين صنعاء وبغداد » فقال : « ويظهر أنّ مسيره إلى العراق محل شك ، ولعلّه تعرّف ببعض علمائه أثناء إقامته بمكة ، وفي كتب الهمداني ما يدل على جهله بمواضع طريق العراق ، ولو سلكه لما جهلها » . . فنصّ كلام « القفطي » لا يدلّ على انه قد قال : إنّ الهمداني قد اختلف بين صنعاء وبغداد . . وهو كما أورده استاذنا حَمَد الجاسر كما يلي : « صحبَ أهلَ زمانه من العلماء وراسلهم وكاتبهم ؛ فمن العلماء

الذين كان يكاتبهم ويعاشرهم أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري ، « وكان يختلف بين صنعاء وبغداد » وهو أحد عيون العلماء باللّغة وأشعار العرب وأيامها وكذلك أبوه القاسم » . فالقفطي قد أراد ان الذي كان يختلف بين صنعاء وبغداد أبا بكر محمد بن القاسم الأنباري وليس الهمداني ولذلك قال : « وكذلك أبوه القاسم » ، وإذن فكل أخبار الهمداني عن العراق وطرقها ليست أخبار السائح المعاين « ولا تتجاوز حدّ ما ينقله أو يستنتجه » كما قال أستاذنا حَمَد الجاسر بالنسبة لكلامه عن بلاد نجد وغيرها .

وأخيراً فقد قال الأستاذ الجاسر وهو يتحدث عن مفتاح شخصية الهمداني ما يلي : « الدارس لكل ما يتصل بحياة الهمداني يجد ان تعصبه لقومه أو للقحطانية عامة المنفذ الواسع لدراسة أحوال الهمداني ، ومن هذه الناحية نجد ان كل نقد يمكن أن يوجّه إليه يلج من هذا الباب الواسع الذي بقي مفتوحاً إلى عصرنا الحاضر ، حيث نجد أشعاراً لشعراء معاصرين من اليمن ولجوا هذا الباب » « ومن يريد ان يدرس حياة هذا العالم اليمني لا يستطيع إغفال هذا الجانب الذي لن تتضح معالم شخصيته بدون أشباع القول فيه » . وفي إشارة أستاذنا الجاسر الى ولوج بعض شعراء المعاصرين باب التعصب للقحطانية تنبيه رصين لؤلائك الشعراء ! هدانا الله جميعاً إلى سبيل الرشاد .

٣ ـ الأستاذ محمد بامطرف :

على أن أخطر دراسة قام بها عالم معاصر لأهم كتب الهمداني « صفة الجزيرة » ، والأول والثاني من « الاكليل » هي تلك التي قام بها العالم الباحث الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف من علماء حضرموت وأدبائها المشهورين ونشرها في مجلة « الحكمة » التي تصدر في « عدن »

وقد قرأت المقالة الأولى من تلك الدراسة في عدد أبريل/يونيو/١٩٨٢ تحت عنوان : « ملاحظات على ما ذكره الهمداني عن جغرافية حضرموت » في كتابه « صفة جزيرة العرب » والجزئين الأول والثاني من كتاب « الاكليل » . وما ورد في هذا المقال من تتّبع لأخطاء « الهمداني » ونقد علمي رصين ، يتجاوز قول الاستاذ حمد الجاسر انّ الهمداني « قد وقع في

أخطاء كثيرة في كلامه عن بلاد نجد وعن منازل القبائل في جهات الجزيرة » ؛ وان في كتبه « ما يدلّ على جهله بمواضع طريق العراق » ، وأنه « فيما عدا بلاد اليمن لا يتجاوز علمه حدّ ما ينقله أو يستنتجه » من كلام غيره . . فيجعلنا نقف موقف الريبة حتى فيما سجّله عن اليمن نفسها ، وهو ما أكّده الناقد « بامطرف » عن واقع دراسة العيان والمشاهدة ، وبعد أن ساح بنفسه في أصقاع « حضرموت » .

يقدم البحّاثة محمد بامطرف لملاحظاته بقوله :

هذه ملاحظات وجيزة قصدت بها تصحيح بعض ما رواه أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني اليمني في كتابه (صفة جزيرة العرب) والجزئين الأول والثاني من كتابه (الاكليل) عن مواقع وقبائل في محافظتي حضرموت والمهرة من جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

إن عذر الهمداني في حدوث أخطاء في بحوثه الجغرافية يكمن في أنه كان يعتمد على الروايات التي كانت تنقل إليه محرفة أحياناً ، من أشخاص اعتقد فيهم المعرفة التامة بالمناطق الحضرمية والمهرية وبأهلها .

ولا ينكر المجهود الضخم الذي بذله الهمداني في محاولاته الالمام بأحوال حضرموت الجغرافية وبقبائلها . ولو أنه كان قد زار هذه المناطق التي ذكرها في كتبه وتثبت في مواقع وأسماء المدن والقرى والمعالم الأخرى التي بها ، واتصل اتصالا مباشراً بأهلها لجأ وصفه الجغرافي عنها وعن علاقات أهلها العشائرية مغايراً ، في معظم الحالات ، لما ضمنه كتبه عنها من أخبار .

ثم أن العمل الذي ندب الهمداني له نفسه في كتابيه (الصفة) و (الاكليل) لم يكن من السهل أن يقوم به شخص بمفرده ، ذلك لأنه كان عملا موسوعياً مبنياً لا على مراجع مكتوبة يمتح منها ما يشاء ويضاهي بين ما ورد فيها من معلومات ويتحقق ، إلى درجة معقولة ، من صحتها ، ولكن عمله انبنى ، في بعض الحالات ، على روايات سماعية مفتقرة إلى الدقة عن العمران والتوزيع الأثنولوجي وما كانت تستوجبه تلك المظاهر البشرية من احاطة وصحة في الخبر .

ومهما كان الأمر فقد قدر لمؤلفات الهمداني التي ذكرناها الانتشار في أنحاء

من العالم العربي والاسلامي في حياته وبعد مماته حتى وصلت ، كما قيل ، إلى الأندلس ، فأخذ الباحثون عنها معلومات ربما امتزج فيها الصواب بالخطأ ، وذلك ما لاحظته فيما كتب عن حضرموت على الأقل .

إنه لمن قبيل البر بأسلافنا تصويب أخطاء قليلة ارتكبوها من غير قصد ، في كتبهم . . و

من الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط ؟

ومن هنا رأيت أن الواجب علي يقضي بأن أصحح ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، بعض روايات الهمداني عن حضرموت وما كان لها من علاقة بأرض وقبائل المهرة .

إن معظم المدن والقرى التي ذكرها الهمداني في بعض جهات من حضرموت باقية وعامرة إلى يومنا هذا ، ولعل حالها اليوم شبيه بما كانت عليه في عهده . أما ما أعتوره الخراب من المثاوي الأخرى فان آثاره باقية كمثاوي تجيب الكندية ، وصنهاجه الحميرية ، ومطارح حضرموت القبيلة بمنطقة شبوه ، وخدون ودمون بمنطقة الهجرين .

وبعد ان نقل كلام « الهمداني » في « صفة الجزيرة » عن « فلاة اليمن » (ص ١٦٦ ـ ١٦٧) قال « بامطرف » :

لرب قائل يقول بعد أن يقرأ هذا الوصف اليوم ، وقد توفرت له الخرائط الحديثة المفصلة المضبوطة الاتجاهات . . ان الهمداني كان يتحدث عن جهات يزورها ولم يستطع حتى التصور الجغرافي الحقيقي لها . فأين الدهناء بقسميها من جبل حضن وأين يبرين من التثليث ، وأين أعراض نجد من بيشه أو تبالة أو نجران . وربما قال أيضاً ، لو أخذنا بما ذكره الهمداني عن صيهد فاننا سوف نجد صيهد اليمن قد اشتمل على حوالي ثلثي مساحات الجزيرة العربية بما فيها أكبر جزء من رملة الربع الخالي ، ولست أشك في أن الهمداني قد جانب الحقيقة في أكثر من جهة ذكرها لدى تحديده منطقة صيهد وأفاض في وصف الفلاة كما هي عليه ، وكما شاهدها عيانا ، وكما هي مرسومة في الخرائط العلمية الدقيقة ، مصحّحاً الأسماء والحدود والأخطاء التي وقع الهمداني فيها إلى أن قال :

وغير صحيح ما قاله الهمداني أن من قرى وادي رخية سور بني حارثة

(صفحة ١٦٧ من الصفة) . والصحيح أن سور بني حارثة واد مستقل بمفرده يكون في وجه الناظر إليه من ثغر وادي رخية إلى الضفة الشمالية من وادي الفوهة (بضم الفاء وتشديد الواو وفتح الهاء بعدها تاء مربوطة) هكذا يسمي الحضارم أطراف وادي حضرموت المتصلة بمنطقة مأرب .

وفي صفحة ١٦٩ من الصفة يذكر الهمداني مكاناً اسمه ريدة أرضين . . وهذا خطأ والصحيح هو (ريدة الدين) وهي ليست في وادي حضرموت كما يزعم الهمداني ، ولكنها تقع في المرتفعات الجبلية الواقعة جنوباً بين وادي دوعن وحجر . وفي دور متأخر من التاريخ جاء ذكر ريدة الدين في كتاب (نزهة الأسماع والأبصار) لمطهر بن محمد بن أحمد الجرموزي الذي وصف مسيرة الجيش الامامي الذي قاده الصفي الحيمي لغزو وادي حضرموت عام ١٠٧٠هـ ، وكان هذا الجيش قد مر بهذه الريدة لغرض التموين .

وبصفحة ١٧٦ من الصفة يذكر الهمداني (صوران) قائلا انها قرية مقتصدة . والصحيح أنها ليست قرية ولكنها مسيال ماء يتفرع من مسيال وادي دوعن بكسر قشاقش . ويسقي ذبور قرية المنبعث . ولا علاقة لصوران (المسيال) هذا ولا قرية (العادية) بالكسر بصوران التي ذكرها الدكتور جواد علي بصفحة ٣٧٢ جـ ٢ من كتابه (المفصل) . لان العادية قرية صغيرة بين جملة قرى مثلها واقعة إلى الجنوب من هينن في مكان لا يحتمل أنه مكان المدينة القديمة التي غزاها شعر أوتر ملك سبأ وذو ريدان . ولكن يحتمل أن تكون هذه المدينة (صوران) في بيحان أو الجوف .

ثم يذكر الهمداني قرية قشاقش بضم القاف الأولى والصحيح انها تنطق بفتح القاف الأولى ولعل الخطأ في عدم ضبط نطق الاسم راجع إلى الناسخ . وقد أخطأ الهمداني حينما قال أن هذه القرية على رأس جبل . والصحيح انها قائمة على سفح الجبل وهي نصف خربة . وللفائدة يجدر بنا التوضيح أن هذه القرية كانت مقراً لأحد ملوك كندة من قبيلة قشاقش من بني يزيد بن معاوية ، ولذا أطلق أسمها على مساحة واسعة من الأرض المجاورة لها تسمى إلى اليوم كسر قشاقش . وكلمة (الكسر) تعني الناحية المطمئنة من الار س الجرداء الصلبة المجاورة للجبال والصحراء . وبما أن هذه الأرض الجرداء تقع بين سلسلتي جبال غربية وشرقية فقد سميت الكسر

ونسبت الى القبيلة الكندية القديمة قشاقش .

وبصفحة ١٧٠ من الصفة يذكر الهمداني خطأ مدينة قديمة اسمها (هدون) قال إنها في منطقة الهجرين . والصحيح أن مدينة هدون عامرة إلى اليوم ولكنها ليست في منطقة الهجرين وانما هي جنوب مدينة رحاب في وادي دوعن الأيمن .

أما (خدون) ـ هذا هو رسمها الصحيح وليست خودون أو خيدون كما جاء خطأ بصفحة ١٧٠ من الصفة ـ و(دمون) فانهما خراب الآن وكانتا في القديم تشكلان جزئين لمدينة واحدة يقال لها المنيظرة (تصغير منظرة) وتقع بأسفل السفح الشرقي لجبل الهجرين . دمون الوارد ذكرها هنا هي التي عناها الشاعر الجاهلي أمرؤ القيس حينما قال (كأني لم أله بدمون ليلة) إلى آخر ما قال .

لكن الهمداني بصفحة ١٧٠ من الصفة يقول خطأ : « أن خدون ودمون قريتان مقتبلتان في رأس جبل حصين يطلع إليه في منعة من كل جانب يقال لواحدة خدون ويقال للأخرى دمون . والصحيح هو كما ذكرناه .

ثم يقول الهمداني : الهجران تثنية الهجر ، والهجر القرية بلغة حمير والعرب العاربة .

ونقول نحن أن مدينة الهجرين (كان الحضارم قديماً ينطقونها هجرن) مدينة عامرة إلى يومنا هذا ، ولا علاقة لها البتة بمدينة المنيظرة ، سالفة الذكر التي يشكل جزئيها كل من خدون ودمون ، وتقع الهجرين على سطح تل يشرف على قصبة مسيال وادي دوعن حيث تكون النخيل والذبور على ضفتي هذا المسيال ، إلى شرقي التل .

ونحن مع الهمداني أن حمير تسمى القرية (هجر) ولكن حمير (يلاحظ أننا نستعمل كلمة حمير تجوزاً ونعني به اليمنيين القدامى) أيضاً كانت حمير تعرف القرية الكبيرة أحياناً فتقول (هجرن) ، والنون هنا أداة التعريف في لغة المسند . ولعل الأمر اشتبه على الهمداني فظن (وكان قد وقع في وجدانه أن الهجرين قريتان) ، نقول ظن الهجرين اسماً مثنى يرفع بالألف والنون وينصب ويجر بالياء والنون ، وأتى ببيت شعر ، علم الله من أين ، فقال

بصفحة ١٧١ من الصفة :

الهجران كفة بكفة والنخل والذبر بهما محفة

فجاء عجز بيته معلولا من الناحية العروضية لأنه غير الكلمة (بها) من وتد مجموع إلى بهما فصار فاصلة صغرى ، أي أنه احل فعلن في محل فعل فأضاف إلى فساد المعنى الاعلال العروضي .

أما القاضي الأكوع فقد أوغل في الخطأ من ناحيتن : أولا ببيته الذي أورده بهامشه على صفحة ١٧٠ من الصفة وهو :

خودون ودمون كفة بكفة والنخل والذبر بهما محفة

والخطأ العروضي في بيت القاضي لا يحتاج إلى تبيان . والثانية لأنه أورد بهامشه رقم (٦) من الصفحتين ١٦٩ ـ ١٧٠ (نقلا عن صفحة ١٢ من الجزء الثاني من الاكليل) قوله أن جبل الهجرين كالجمل البارك بين القريتين أي « خودون » و « دمون » على حد تعبيره فزاد الأمر ضغثاً على إبّالة .

ثم ظل « بامطرف » يضرب الأمثال ويعدّد أخطاء الهمداني حتى قال :
ويخرج الهمداني من العجز ، حلة صنهاجة الحميرية إلى قرية سماها (ثوبة) وصفت له أنها قرية بسفلى حضرموت ، في وادي نخل يفيض إلى بلاد مهرة (صفحة ١٧٣ من الصفة . هذا الزعم من الهمداني أو غيره غير صحيح . والصحيح أن اسم هذه القرية (ثوبهم) ، لكن الشخص الغريب على أساليب نطق بعض الكلمات عند أهل المشقاص (المنطقة الواقعة شرقي الشحر) يظن أنها تنطق (ثوبة) لأن عرب المشقاص أحياناً يقضمون الهاء والميم من أواخر الأسماء فيخال للسامع الغريب أنهم ينطقونها (ثوبة) وهم قد نطقوها على طريقتهم (ثوبهم) مثلهم في ذلك مثل الانجليز حينما يقضمون الهاء والألف من كلمة (برمنجهام) أو (باكنجهام) فينطقونها (برمنجم) (باكنجم) . . وعلى أي حال ، فان هذه القرية ليست بأسفل وادي حضرموت ولا هي في وادي يفيض ماؤه في بلاد المهرة ، لكنها على منبسط من ساحل المشقاص إلى الغرب من قرية المصينعة (بعيدة كل البعد من بلاد المهرة) .

من مخلفات اللهجات اليمنية القديمة عند أهل الشحر كلمات عديدة ،

يستعملونها إلى اليوم في لهجتهم منها (المشقاص) و(المعراب) ، وتعني الأولى المنطقة الساحلية الواقعة إلى الشرق منهم كالحامي والديس الشرقية وقصيعر والريدة إلى مكان اسمه الدمخ حساى (ومعناها كثبان الرمل) وهي الحد الفاصل بين منطقة الحموم (حضرموت القديمة) ومنطقة المهرة ، وتعني المعراب المنطقة الساحلية الواقعة على غرب الشحر كزغفة والمعينة وهي الحد الفاصل بينهم وبين المناطق السيبانية الحميرية .

وفي حالات الغزو بين القبائل تقول قبائل الجوف كدهم وعبيدة انهم يغزون (المشقاص) وهم يعنون بذلك القبائل الحضرمية والمهرية الواقعة إلى الشرق منهم كالصيعر والعوامر والمناهيل وبيت يماني المهرة ، هذه القبائل الحضرمية والمهرية ليست ساحلية ولكنها انما تسكن الصحاري الشمالية الواقعة بين حبروت في الشرق وحدود رملة يام في الغرب . لذلك نرجو من أستاذنا الجليل القاضي الأكوع أن يعيد صياغة هامشية رقم ٦٨٢ من صفحة ٢٦٧ من الجزء الأول من الاكليل .

ويأخذنا الهمداني إلى قبر نبي الله هود قائلا عنه بصفحة ١٧٣ من الصفة (وقبره في الكثيب الأحمر ثم منه في كهف مشرف في أسفل وادي الأحقاف وهو واد يأخذ من بلد حضرموت إلى بلد مهرة مسيرة أيام) .

أما ما ذكره الهمداني عن قبر نبي الله هود هنا غير صحيح . والاحتمال القوي هو أن الهمداني اعتمد رواية الأصبغ بن نباته الذي حكى أن حضرمياً جاء يوماً إلى الامام علي بي أبي طالب (رع) ، وكان الأصبغ حاضراً في مجلس الامام ، فسأل الامام عن الأحقاف فأجابه الحضرمي عن قبر هود وموقعه إلى آخر الحكاية (انظر ص ١١٥ ـ ١١٦) من الجزء الأول من معجم البلدان (لياقوت الحموي) . والرواية التي تنسب إلى الأصبغ باد عليها الوضع والافتعال ، ولعلها من وضع عبيد ابن شرية الجرهمي أو محمد بن السائب الكلبي .

والله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه العزيز عادا وهودا والأحقاف على سبيل الموعظة والعبرة ، ولكنه ، جل شأنه ، لم يذكر أين تكون منطقة عاد ، ولا أين مات وقبر هود ، ولا أين الأحقاف . وجاء الاخباريون واخترعوا

حكايات عن عاد وعن هود وقبره وعن الأحقاف ، ومن تلكم الروايات ، فيما يبدو ، الرواية المنسوبة إلى الأصبغ . والمهتمون بالأنساب اليمنية القديمة يعلقون أهمية كبرى على أن يكون النبي هود في اليمن لأنهم يعتبرونه الأب لقحطان الذي تفرعت منه الجذوم اليمنية على اختلاف اسمائها ، وهذا زعم لا يقوى على الوقوف أمام النقد العلمي .

ولا يعلم أحـد إلى يومنـا هذا أين تقع الأحقاف ، وقد جازفت بعض الخرائط الحديثة فاطلقت اسم الأحقاف على بقاع شمال أو جنوب أو شمال غرب أطـراف الـربـع الخالي المتاخمة للصحراء الحضرمية الشمالية ، وربما اطلقوا اسم الأحقاف على منطقة بشمال غرب عمان .

والحضارم في تاريخ وسيط أطلقوا اسم الأحقاف على وادي حضرموت ويزعم أهل الشحر أن مدينة الشحر هي مدينة عاد وأن منطقة الشحر هي أرض الأحقـاف اعتماداً منهم على رواية قديمة تنسب إلى قتادة بن دعامة البصري (ت ١١٨هـ) وكان مفسراً وملماً بأيام العرب وأنسابهم .

والدكتور جواد علي بصفحة ١٥١ من الجزء الأول من كتابه (المفصل) يقول : (ويطلق على القسم الغربي من الدهناء (أي صحراء الدهناء) اسم الأحقاف ، وهو منطقة واسعة من الرمال بها كثبان اقترن اسمها باسم (عاد) ونقـول نحن إن القسم الغـربي من الـدهنـاء هو حسب الخرائط المفصلة الحديثة ، المنطقة الواقعة بين صحراء الدهناء وسلسلة جبل طويق (وكما هو ظاهر فان رواية الدكتور جواد علي لا تستند إلى دليل وانما هي رواية من جملة الروايات عن الأحقاف .

ومن أراد المزيد من الروايات المضطربة حول موقع الاحقاف فليقرأ كتاب (عاد في التاريخ) للاستاذ هارون بن أحمد العطاس .

أما القبر الذي يعتقده بعض الحضارمة أنه قبر النبي هود ، فهو في حقيقته مخالف للروايات الاخبـارية القديمة ومنها رواية الأصبغ ـ الهمداني سالفة الذكر . والرواية الحضرمية ، على أي حال ، تزعم أن هذا القبر اكتشفه حوالي سنـة ٣٤٤هـ شخص من آل باعباد سكان وادي رخية وأرشد إليه السيد أحمد بن عيسى المهاجر جد العلويين الحضارمة .

ولقد زرت هذا القبر المزعوم سنة ١٩٥٤ فألفيته عبارة عن كوم مستطيل من الحجارة الصغيرة ، طوله إثنان وتسعون قدماً وارتفاعه ، في بعض جوانبه حوالي أربعة أقدام ، ويقع في سفح جبل إلى الشرق من بئر برهوت (نسبة إلى البراهيت الحميريين) . فلا كثيب أحمر ولا كهف مشرف مما ذكره الأصبغ بن نباتة ونقله عنه الهمداني .

ويحتمل أن يكون هذا المكان سوقاً من الأسواق اليمنية الموسمية القديمة وقد أقيم فيها هذا القبر ليعطيها طابعاً وثنياً جذاباً . والتاريخ مليء بأوهام دخلت معتقدات البسطاء من الناس ثم صارت مع التقادم حقائق بحكم قوة العاطفة الدينية وبما انطوت عليه من منافع اقتصادية . ومن تلك الأوهام ، مثلا ، قبر السيدة زينب بنت الامام علي بن أبي طالب ، رضى الله عنهما ، الذي يعتقده بعض المصريين أنه في مكانه المعروف بمدينة القاهرة ، في حين أن التواريخ المعتمدة لم تذكر أن السيدة زينب دخلت مصر حية أو ميتة .

وذكر الهمداني بصفحة ١٧٣ من الصفة مدينة بحضرموت أسمها (يثرب) . ونحن ، والذين سألناهم من ثقاة الحضارم ، لم نسمع بمدينة قديمة أو حديثة بحضرموت تحمل هذا الاسم . ولعل الهمداني سمع من أحد مصادره اسم المدينة الحضرمية (تاربة) ، ثم دون اسمها من الذاكرة (يثرب) وبني حول اسم هذه المدينة على سبيل الاستطراد أقاويل مختلفاً على نسبتها ومناسبتها بين الرواة القدامى ، فجاء ذلك تصحيفاً منه لاسم المدينة (تاربة) وهي مدينة عامرة إلى اليوم ، وتقع في ثغر وادي غنيمة الذي يصب سيله في نقطة من مسيال وادي سر غرب قرية الغرف .

وأخطأ الهمداني حين رسم ، بصفحة ١٧٤ من الصفة ، العباد بفتح العين والباء ، والصحيح هو أن يكون رسمهم بفتح العين وتشديد الباء . والعباد (وهم من ندعوهم آل باعباد) والحرمية من الصدف من كندة . وأخطأ ثانية حين زعم أن مقرهما ريدتان . والصحيح أن لكل من هذين الفرعين قرية .

أما قرية العباد فقد كانت بوادي رخية ، وقد اندثرت بفعل السيول ،

وبعدها تفرق آل عباد ، في أدوار متعددة من التاريخ ، في قرى ومدن كثيرة بحضرموت منها الشحر وشبام (انظر مدونة العلامة أحمد بن حسن العطاس) . وفي القرن السابع الهجري أقام أحدهم واسمه عبد الله بن محمد باعباد ، الملقب بالقديم ، مركزاً روحياً لهم ، في مكان بالسرير بوادي حضرموت ، عرف فيما بعد بالغرفة (أي الجنة) وقد توفي القديم هذا في مقره الروحي سنة ٦٧٨هـ ودفن بمقبرة مدينة شبام . وآل عباد هؤلاء هم غير آل عباد اللخميين الذين كان منهم ملوك في أشبيلية بالأندلس .

أما قرية الحرمية (ويقال لهم أيضا حريميين والأحروم) فهي باقية وعامرة إلى اليوم وتسمى الأحروم (ينطقها الحضارم لحروم) وتقع في ثغر وادي عمد بالقرب من قرية عندل .

أما (الحيق) الذي ذكره الهمداني بصفحة ١٧٤ من الصفة وقال انه لبني نباتة من الصدف ، فغير صحيح ، كما أخطأ ، بهذا الصدد ، القاضي الأكوع بهامشيه (٣) و(١) بالصفحتين ١٧ و ٤٠ على التوالي من الجزء الثاني من الاكليل .

والصحيح هو أن كلمة الحيق (بفتح الحاء المهملة وسكون الياء التحتية المثناة) أصلها (الحلق) وهو متنفس الأودية الجبلية التي تنحدر سيولها إلى الساحل الحضرمي . لكن قبيلة الحموم (من حضرموت) وبعض فروع قبيلة سيبان (من حمير) ينطقون الحلق (الحيق) باخفاء اللام واحلال نبرة مكانه متمثلة في الياء (المثناة التحتية) ، كما ينطقون (الخلق) (الخيق) أي الناس .

إن منطقة الحيق الأصلية تمتد من شمال غرب مدينة غيل باوزير إلى شمال غرب مدينة الشحر . وتسكن هذه المنطقة قبيلة صغيرة من سيبان الحميرية تسمى آل الحيق . ولا صحة لما قاله القاضي الأكوع أن منطقة الحيق تمتد إلى المهرة . وعلى سبيل المجاز يطلق العوام اسم الحيق على أغوار الأرض ، ويطلقون اسم النيد (تحريف كلمة نجد) على أعالي الأرض .

ويخطىء الهمداني حيث يقول بصفحة ١٧٤ من الصفة : (شزن وذو صبح مدينتان بدوعن) . والصحيح أن ذو صبح (ينطقها الحضارم ذي

أصبح) قرية صغيرة بوادي حضرموت وليست بدوعن ، وتقع على ضفة مسيال سروهي عامرة إلى اليوم . أما شزن (فلعلها تصحيف لمدينة سيئون) ، وهي تقع على نفس الضفة التي تقع عليها قرية ذي أصبح .

وفي هامش الصفحتين ٢٠ و ٢٤ من الجزء الثاني من الاكليل قال القاضي الأكوع أن ذي أصبح تقع أمام (جودة بن زيد) وهذا خطأ ، والصحيح أن ذي أصبح تقع أمام (حوطة أحمد بن زين الحبشي) التي صحفها الشارح إلى (جودة بن زيد) .

أما كلمة (السرين) التي ذكرها الهمداني بصفحة ١٩ من الجزء الثاني من الاكليل ، وقال القاضي الأكوع إنه لا يعلم عنها شيئاً ، فهي منطقة النخيل الكثيفة الواقعة بين مصب وادي بن علي في غرب ، وبين مصب وادي شحوح في شرق ، وادي حضرموت . والسرير كان منطقة لبني ضنة ، أما اليوم فانه في معظمه يضم مثاوي آل كثير الشنافر .

وفي الهامش (٣) من صفحة ٥٤ من الصفة قال القاضي الأكوع : (الأسعاء هو ما يحمل اليوم المكلا ، كما أخبرني بعض علماء حضرموت) . ومن الواجب علينا القول أن ما ذكره أولئك البعض من علماء حضرموت لاستاذنا القاضي لا أساس له من الصحة . . والصحيح أن اسم الأسعاء هو أحد أسماء مدينة الشحر القديمة ، وقد كانت تسمى اللسة واللسعة ثم حرفت إلى الأسعاء ثم إلى سعاد (مدونة السادة آل بن اسماعيل الشحريين) . ومن الخير أن ينظر القارىء خريطة وضعها الرحالة بطليموس سنة ١٤٠ ميلادية وفيها ذكر اسم Alasa Emporiom أي مدينة الأسعاء المركز التجاري ، على الموقع الذي فيه مدينة الشحر . هذه الخريطة مثبوتة أمام الصفحة ٣٥٣ من الجزء الثالث من كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) للدكتور جواد علي . ناهيك بذكر الأسعاء (على أنها مدينة الشحر) في عدد من المؤلفات الحضرمية والأجنبية منها على سبيل المثال تاريخ حضرموت للحامدي ، وأحسن التقاسيم للبشاري .

ذكر الهمداني قرية حبوضة (بفتح الحاء المهملة وضم الباء بعدها واو وفتح الضاد المعجم) بصفحة ١٩ من الجزء الثاني من الاكليل ، وقال انها من قرى السرير ، وهو خطأ ، والصحيح أن موقعها كان إلى الشرق من مدينة تريم ،

في مسيلة وادي عدم (بكسر العين والدال وسكون الميم) وقد درست ، وإلى حبوضة هذه ينسب الأمير سالم بن ادريس الحبوضي الذي حكم ظفار وجزءاً من حضرموت ، ثم حاربه الرسوليون وقتلوه سنة ٦٧٨هـ في معركة دارت بينهم وبينه بالقرب من ظفار (أنظر ترجمة الحبوضي بالصفحات ٨٩ ـ ٩٣ من كتاب صفحات من التاريخ الحضرمي للمؤرخ اليمني سعيد بن عوض باوزير) .

الكلمة (الدوقة) ، بالقاف ، الواردة بصفحة ٢٣ ج ٢ إكليل غير صحيحة ، ولعلها خطأ مطبعي ، وصحيحها (الدوفة) بالفاء . وهي قرية عامرة .

الكلمة (جودون) الواردة ص ٣٩ ج ٢ اكليل صحيحها (قيدون) وهي مدينة عامرة وبها قبر الشيخ سعيد بن عيسى العمودي (ت ٦٧١هـ) جد آل العمودي الحضارمة .

في صفحة ٥٤ من الصفة يقول الهمداني : (الأسعاء من مهرة) وهذا غير صحيح لأن الأسعاء والمهرة ليستا أسمين لقبيلتين ولكنهما أسمان لمنطقتين كتهامة ونجد . وعلى أي حال ، الأسعاء هي مدينة الشحر ، ولا علاقة لها بأرض المهرة . وكلمة (المهرة) يمنية قديمة وتعني الساحل .

في صفحة ٢٧٧ من الصفة قال الهمداني : (أهل الشحر والأسعاء ليسوا بفصحاء ، ومهرة غتم يشاكلون العجم) . وبما أن الهمداني لم يذكر الأساس الذي ميز به الحديث الفصيح من غير الفصيح حينما أشار إلى لهجات عدد من المناطق اليمنية الجنوبية فاننا نعتبر زعمه هذا غير جدير بالمناقشة وكما قد قدمنا فان الشحر والأسعاء أسمان لمدينة الشحر .

ولو أن الهمداني كان قد توخى الحقيقة لقال أن قبائل الشحارة (وهي غير أهل الشحر) والقراء (هاتان القبيلتان تسكنان ظفار) والحراسيس والدروع وآل وهيبة (سكان شمال غرب عمان) وقبائل المهرة المجاورين لهذه القبائل التي ذكرناها تتحدث لهجات يمنية قديمة ترجع إلى أصل واحد إلى جانب تحدثهم باللغة العربية .

ولو أن الهمداني قال ذلك لأتى بالقول الصواب ، ولأضفنا نحن الى قوله

أن الرحالة البريطاني اللغوي برترام توماس زار عام ١٩٣١ مناطق الشحارة والقراء والمهرة وغيرهم ، وقام بدراسة لهجاتها بدرجة تكفي لتثبت أن لهجات هذه القبائل ليست عربية مستعجمة كما يزعم الهمداني ، ولكنها تعود في أصلها إلى لهجات معين وسبأ وحمير (أنظر ص ٣٣ من كتاب Arabian Sands by the Siger الرمال العربية للرحالة بلغريد تاسيجر ، وصفحة ١٤٢ من كتاب دولة اليعاربة للمؤرخة الظبيانية عائشة السيار) .

لذلك فان الهامش رقم ٦٩٥ على صفحة ٢٦٩ من ج ١ إكليل ينبغي إعادة النظر فيه .

ومن المحتمل جداً ان الهمداني قابل أيام مجاورته الطويلة بمكة المكرمة ، بعض الحجاج من بادية هذه القبائل التي ذكرناها وتحدثوا إليه بعربية فيها شيء من عدم الوضوح ، وكان قد فات الهمداني أن تلك القبائل كانت تتحدث في مناطقها باللهجات اليمنية التي أشرنا إليها .

أما قبائل المهرة الذين تعودوا الأسفار إلى الأقاليم العربية الأخرى وإلى أجزاء من اليمن فقد كانوا يتحدثون اللغة العربية بطلاقة قبل أن يدرج الهمداني في مهده . وكذلك كانت تتحدث العربية تلك الجموع الكبيرة منهم التي شاركت في الفتوح الاسلامية » .

تلك هي أهم الملاحظات التي سجّلها الكاتب البحّاثة محمد عبد القادر بامطرف ؛ وقد آثرنا نقلها وإثباتها كما كتبها صاحبها ، لأنها من الأهمية العلمية والجغرافية بمكان خطير ، وقد توصل إليها الكاتب بعد طول بحث ، ومشقة جهد ، ودراسة مستأنية ، ولم تكن من باب الرجم بالظن والحدس ، أو النقل عن الغير ؛ بل عن مشاهدة وعيان ، ومن قبل يمنيّ حضرمي خبير ببلده ، وواسع الاطلاع على جغرافيتها . وسوف تغيّر مفاهيم النقاد والباحثين عن « الهمداني » ودقة معرفته بالبلدان ، وأنه قد ساح في جزيرة العرب أو حتى في عموم اصقاع اليمن الطبيعية التي كتب عنها ، كما كنا نعتقد ، وكما كان يظن ويقول الكثير من الباحثين قديماً وحديثاً .

إن ملاحظات « بامطرف » جديرة بالدرس والتأمل وقد تقلّل من قيمة بعض ما نقله الهمداني ليس عن نجد والعراق كما قال الأستاذ حمد الجاسر

بل وحتى عن اليمن نفسها ، وتحوّل الظن بأنه كان ينقل دون إسناد المتثبّت الناقد البصير ، بل يعتمد أحياناً على ما يشاع ويسّاقط من أفواه الناس ، ولا يحقّق ما يسمعه أو يرويه ، بل وقد يخترع لذلك شواهد ، ويحرّف بعض الاشعار والأماكن كما أشار الاستاذ الجاسر قبل الاستاذ بامطرف ولعل ذلك هو ما دفع بعض الأوّلين إلى إتهامه بالوضع وسمى بعضهم ذلك كذِباً !

من أقول العلماء في الهمداني :

أما وقد طال بنا البحث وتشعّب ، وهو ما لم يكن في الحسبان ، وما كنّا نظن ذلك ولا نريده ، بل وليس من نهجنا في هذا الكتاب التوسّع والاسهاب والاحاطة بكل ما يمكن أن يقال ؛ فلا بد إنصافاً للهمداني من ان نذكر أقوال بعض العلماء التي تشيد بفضله :

يقول « إبن فهد » في الدرّ الكمين !
« لم يولد في اليمن مثله علماً وفهماً ولساناً وشعرا ، ورواية وذكرا ، وإحاطةً بعلوم العرب من النحو واللغة والغريب والشعر والأيام والأنساب والسير والأخبار ، والمناقب والمثالب ، مع علوم العجم من النجوم والمساحة والهندسة والاستنباطات الفلسفية والأحكام الفلكية » .

وقال القفطي في « انباه الرواة » :
« الأديب النحوي الطبيب المنجّم الاخباري اللغوي ؛ نادرة زمانه ، وفاضل أوانه ، الكبير القدر ، الرفيع الذكر ، صاحب الكتب الجليلة ، والمؤلفات الجميلة ؛ لو قال قائل : انه لم يخرج اليمن مثله لم يزلْ ؛ لأن المنجّم من أهلها لا خطر له في الطب ، والطبيب لا يَدَلَهُ في الفقه ، والفقيه لا يَدَلَهُ في علم العربية ، وأيام العرب وأنسابها وأشعارها وهو قد جمع هذه الأنواع .

وقال صاعد الأندلسي في كتاب « طبقات الأمم » عن العرب : « وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله منه شيئا ، ولا هيّأ طباعهم للعناية به ، ولا أعلم أحداً من صميم العرب شهر به الاّ أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي ، وأبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني » .

الهمداني وخط المسند

وأخير . . هل كان يعرف الكتابة الحميرية ، وخط المسند ؟

أمّا القدماء فلا يشكّون في ذلك « وله ـ كما قال الأستاذ حمد الجاسر ـ أهميةٌ عظيمـة عنـد علماء اللغـات والمنقّبـين عن الآثـار القديمة لذكره في كتبه الكتابات العتيقة بالخط المسند الحميري ، ونقوش الأحجار كما يفعل علماء أوروبا الباحثون عن الآثار القديمة » . « وقراءة النصوص التي أوردها في « الاكليل » تدل على معرفته التامة » . [مقدمة صفة جزيرة العرب] .

وقد كان يقرأ الخط المسند قراءةَ عربيّة فصيحة ولا تربكه المصطلحات من علامات التعريف والتنكير والتأنيث والتذكير والافراد والجمع وهي حروف يلصقونها بالكلمات فيظن من لا خبرة له ولا معرفة بقواعد خط المسند ان تلك العلامات تُنْطَق ، أو أن حذف بعض الحروف من بعض الكلمات يستلزم عدم نطقهـا ؛ فيذهب بهم الجهل والوهم إلى انّ لغة اليمن قديما لم تكن عربيّة فصيحـة ، وانها تختلف اختـلافاً كبيراً عن لغة شمال الجزيرة ونجد والحجاز وذلك ما وقع فيه بعض « المستشرفين » وجرّ الدكتور طه حسين إلى القـول بأن اللغـة التي كان اليمنيون قبـل الاسـلام يتكلمون بها لم تكن العـربية ؛ وقـد ناقشت هذا الموضوع باسهاب في كتابي « قصة الأدب في اليمن » ، وأثبت بما لا يقبل الشك ان لغة اليمنيين كانت هي العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وان رَسْم الخط الذي يسمّونه « المسند » هو الذي يسبّب الأرباك لمن لا يدري تلك القواعد وانهم كانوا يكتبون ما لا ينطقون من حروف ، ويحـذفـون ما لا يهملون النـطق به ، كما نقـرأ نحن « الم » ألف لام ميم ، ونكتب « الـرحمن » وننطقها الرحمان ؛ ونحو ذلك وقد نبّه الهمداني نفسه إلى ذلك في أكثر من مكان من كتابه « الاكليل » .

ويقـول اغنـاطـوس كراتشوفسكي ، في كتابه « تاريخ الأدب الجغرافي العـربي » : « وممـا يدعو إلى الدهشة حقاً ان الهمداني استطاع فك رموز الكتابة العربية القديمة في جنوب الجزيرة » وللعلّامة المؤرّخ الدكتور جواد علي رأي في الموضوع يحسن بنا أن نّجعله مسك الختام .

يقول الدكتور جواد علي (ص : ٩١)

لقد بذل الهمداني مجهوداً يقدر في تأليف كتبه وفي اختيار موضوعاته ، وسلك في بحوثه سبيلاً حسناً بذهابه بنفسه إلى الأماكن الآثارية وبوصفه لها في كتبه ، فأعطانا بذلك صوراً لكثير من العاديات التي ذهب أثرها واختفى رسمها ، بل طمست حتى أسماء بعضها . وبمحاولته قراءة المسند وترجمته إلى عربيتنا ، للوقوف على معناها ومضمونها . يكون قد استحق التقدير والثناء ، لأن عمله هذا يدل على ادراكه لأهمية الكتابات في استنباط التواريخ . على أننا يجب أن نذكر أيضاً أن الهمداني لم يكن أول من عمد إلى هذه الطريقة ، طريقة قراءة الكتابات لاستنباط التواريخ منها ، فقد سبقه غيره في هذه القراءات ، وكانوا مثله يبغون الوقوف على ما جاء فيها ، ومعرفة تواريخها . وقد أشار (الهمداني) نفسه إليهم وذكرهم بأسمائهم ، مثل (أحمد بن الأغر الشهابي من كندة) و (محمد ابن أحمد الأوساني) و (مسلمة بن يوسف بن مسلمة الخيواني) وغيرهم . فهم مثله يستحقون الثناء والتقدير أيضاً ، وهم بطريقتهم هذه في جمع مادة التاريخ يكونون على شاكلة الآثاريين المحدثين في ادراك أهمية دراسات الآثار والكتابات بالنسبة إلى اكتشاف تواريخ العاديات ، وهم بطريقتهم هذه يكونون قد فاقوا غيرهم من المؤرخين العرب في الأمكنة الأخرى بهذه الطريقة ، فقلما نجد مؤرخين في الأماكن الأخرى لجأوا الى دراسة الآثار ودراسة الكتابات ووصف الأمكنة الآثارية لاستنباط التواريخ منها كما يفعل الآثاريون في الزمن الحاضر .

وبعد أن أورد ثناء الهمداني على شيخه واستاذه « أبي نصر الحنبصي » ، وذكر ان الاسماء اليمانية القديمة كانت ثقلت على ألسنة الناس في أيامه وقبلها وان في ذلك دلالة على حدوث تغيّر في عقلية أهل اليمن بعد الميلاد وعلى حصول تقارب بين لهجتهم وبقية لهجات العرب في الشمال قال : (ص : ٩٦) : عن أبي نصر هذا :

أما علمه بالمساند ومدى وقوفه عليها ، فأنا أعتقد أن علمه بها لا يختلف عن علم غيره من أهل اليمن : وقوف على الحروف ، وتمكن من قراءة الكلمات ، واحاطة عامة بالمسند . أما فهم النصوص واستنباط معانيها بوجه صحيح دقيق ، فأرى أنه لم يكن ذا قدرة في ذلك ، وهو عندي في هذا الباب مثل غيره من قراء الخط الحميري . ودليل على ذلك أن القراءات المنسوبة

إليهم هي قراءات لا يمكن أن تكــون قراءات لنصــوص جاهلية ، وإن تضمنت بعض أسماء يمانية قديمة ، لسبب بسيط ، هو أن أساليبها ومعانيها ونسقها لا تتفق أبداً مع الأساليب والمعاني المألوفة في الكتابات الجاهلية ، فقراءات أبي نصر وأمثاله قراءات بعيدة جداً عن النصوص المعهودة ، هي قراءات إسلامية فيها زهد وتصوف وتوحيد وحض على الابتعاد عن الدنيا . أما نصوص المسند التي عثر عليها حتى الآن ، فإنها نصوص وثنية لا تعرف هذه المعاني ، وأسلوبها في الكتابة لا يتفق مع ذلك الأسلوب . وهي في أمور أخرى شخصية أو حكومية لا صلة لها بمثل هذه الآراء والمعتقدات .

ثم قال (ص : ٩٧ ـ ٩٨) :

ولكنني لا أريد هنا أن أكتفي بتقديم التقدير إلى الهمداني وإلى الباقين من علماء اليمن الذين سبقوه أو جاؤوا من بعده والثناء على طريقتهم المذكورة ، بل لا بد لي من التحـدث عن درجة علم هؤلاء العلماء بالمسند ، وبقراءة الكتابات وبعلمهم بمعانيها ، أي علمهم بقواعد وأصول اللهجات التي كتبت بها مثل اللهجة المعينية أو السبئية أو القتبانية أو الحضرمية وغيرها من بقية اللهجات ، وذلك ليكون كلامنا كلاماً علمياً صادراً عن درس ونقد وفهم بعلم أولئك العلماء بتاريخ اليمن القديم .

ولن يكــون مثل هذا الحكم ممكناً الا بالرجوع إلى مؤلفات (الهمداني) وغيره من علماء اليمن لدراستها دراسة نقد عميقة . ومقابلة ما ورد فيها من قراءات للنصــوص مع قراءات العلماء المحـدثـين المتخصصين بالعربيات الجنوبية لتلك النصوص ان كان أصولها أو صورها موجودة محفوظة ، وعندئذ يمكن الحكم حكماً علمياً سليماً على مقدار علم أولئك العلماء بلغات اليمن القديمة وبتاريخها المندرس . ولكننا ويا للأسف لا نملك كل أجزاء كتاب (الاكليل) ولا كل مؤلفات الهمداني أو غيره من علماء اليمن ، فالجزء التاسع من الاكليل مثلا وهو جزء خصص بأمثال حمير وبحكمها باللسان الحميري وبحروف المسند ، هو جزء ما زال مختفياً ، فلم نر وجهه ، وهو كما يظهر من وصف محتوياته مهم بالنسبة إلينا ، وقد يكون دليلاً ومرشداً لنا في اصدار حكم على علم الهمداني بلغة حمير . ولكن ماذا نصنع ونفعل ، وقد حرمنا رؤية هذا الجـزء ، وليس في مقدورنا نشره وبعثه ، فهل نسكت ونجلس

انتظاراً للمستقبل ، عسى أن يُبعث إلى عالم الوجود ؟

هذا ، وقد طبع الجزء الثامن من الاكليل وكذلك الجزء العاشر منه ، فاستفاد منهما المولعون بتاريخ اليمن القديم وبتاريخ بقية أجزاء العربية الجنوبية ، وطبع الجزء الأول من هذا الكتاب حديثاً برواية (محمد بن نشوان بن سعيد الحميري) ، وقد ذكر أنه اختصر شيئاً في مواضع الاختلاف وفي النسب مما ليس له شأن في نظره دون أن يؤثر على الكتاب .

وطبع الجزء الثاني من الاكليل أيضاً ، أخرجه ناشر الجزء الأول : « محمد ابن علي الأكوع الحوالي » من عهد غير بعيد ، وليس لنا الآن إلا أن نرجو نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب ، ليكون في وسعنا الحكم على ما جاء فيه من أخبار عن أهل اليمن الجاهليين .

إن أقصى ما نستطيع في الزمن الحاضر فعله وعمله لتكوين رأي تقريبي تخميني من علم الهمداني وعلم بقية علماء اليمن بلهجات أهل اليمن القديمة وبتاريخهم القديم ، هو أن نرجع إلى المتيسر المطبوع من مؤلفاتهم ، لدراسته دراسة نقد علمية عميقة ، لاستخراج هذا الرأي منها . وهو وإن كان أقل من الضائع بكثير ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله ، والموجود خير من المعدوم ، وفي استطاعته تقديم هذا الرأي التخميني التقريبي . فلنبحث إذن في هذا المطبوع لنرى ما جاء فيه .

أما بخصوص الخط المسند ، فقد ذكر (الهمداني) أن جماعة من العلماء في أيامه كانت تقرأ المسند ، غير أن أولئك العلماء كانوا يختلفون فيما بينهم في القراءة ، وكان سبب ذلك ـ على رأيه ـ اختلاف صور الحروف ، (لأنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويكون للذي يقرأ لا يعرف إلا صورة واحدة) . وقد عرف (الهمداني) أن كتّاب المسند كانوا يفصلون بين كل كلمة وكلمة في السطر بخط قائم ، وذكر أنهم كانوا يقرأون كل سطر بخط . غير أنه لم يذكر عدد الحروف . وصرح أنهم « كانوا يطرحون الألف إذا كانت بوسط الحرف ، مثل ألف همدان وألف رئام ، فيكتبون رئم وهمدن ، ويثبتون ضمة آخر الحرف وواو عليهمو » . وهي ملاحظات تدل على احاطة عامة بالمسند ، سوى ما ذكره من أنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويظهر أنه وغيره قد توصلوا إلى هذا الرأي من اختلاف أيدي الكتّاب في رسم

الحروف ونقرها على الحجر ، كالذي يحدث عندنا من تباين الخطوط باختلاف خطوط كتبته ، فأدى تباين الخط هذا إلى اختلافهم في القراءة ، وإلى ذهابهم إلى هذا الرأي ، أو أنهم اختلفوا فيها من جراء تشابه بعض الحروف مثل حرف الهاء والحاء ، فان هذين الحرفين متشابهان في الشكل ، فكلاهما على هيئة كأس يرتكز على رجل ، والفرق بينهما ، هو في وجود خط عمودي في وسط الكأس هو امتداد لرجل الكأس ، وذلك في حرف (الحاء) ، أما الهاء ، فلا يوجد فيه هذا الخط الذي يقسم باطن الكأس إلى نصفين . ويشبه حرف (الخاء) حرف (الهاء) في رسم رأس الكأس ، ولكنه يختلف عنه في القاعدة ، اذ ترتكز هذا الرأس على قاعدة ليست خطاً مستقيماً ، بل على قاعدة تشبه كرسي الجلوس ذي الظهر . ومثل التشابه بين حرفي الصاد والسين ، فكلاهما على هيئة كأس وضعت وضعاً مقلوباً ، بحيث صارت القاعدة التي ترتكز الكأس عليها إلى أعلى . أما الرأس ، وهو باطن الكأس ، فقد وضع في اتجاه الأرض . ولكن قاعدة (الصاد) هي على هيئة رقم خمسة في عربيتنا ، أي على هيئة دائرة أو كرة بينما قاعدة حرف السين هي خط مستقيم ، أما باطن كأس حرف (الصاد) ، ففيه خط يقسمه إلى قسمين وذلك في الغالب ، وقد يهمل هذا الخط المقسم ، أما حرف السين ، فلا يوجد فيه هذا الخط . « ص : ٩٩ » .

ثم قال في ص : ١٠٠ ما يلي :

ومما يؤسف عليه كثيراً اننا لا نملك النسخ الأصلية التي كتبها أولئك العلماء بخط أيديهم ، حتى نرى رسمهم لحروف المسند . فإن الصور المرسومة في المخطوطات الموجودة وفي النسخ المطبوعة ، ليست من خط المؤلفين ، بل من خط النساخ ، فلا أستبعد وقوع المسخ في صور حروف المسند في أثناء النقل ، ولا سيما اذا تعددت أيدي النساخ بنسخ أحدهم عن ناسخ آخر . وهكذا ، فليس للنساخ علم بالمسند ، ولذا لا أستبعد وقوعهم في الخطأ . ومن هنا فإن من غير الممكن اصدار رأي في مقدار اتقان الهمداني وبقية العلماء لرسم حروف الخط المسند .

وقد أشار (الدكتور كرنكو) إلى هذه الحقيقة ، إذ ذكر أن صور الحروف الحميرية في (الاكليل) تختلف باختلاف النسخ اختلافاً كبيراً ، فقد صوّر كل

ناسخ تلك الحروف على رغبته وعلى قدرته على محاكاة النقوش ، ومن هنا تباينت وتعددت ، فأضاعت علينا الصور الأصلية التي رسمها الهمداني لتلك الحروف .

وتابع كلامه قائلا (ص ١٠١ ـ ١٠٢) :

وخلاصة ما توصلت إليه من دراستي الاجمالية للأجزاء المطبوعة من مؤلفات (الهمداني) أن الهمداني ، وإن كان يحسن قراءة حروف المسند ، ويعرف القواعد المتعلقة بالخط الحميري ، الا انه لم يكن ملماً بألسنة المسند . ولم يتمكن من ترجمة النصوص التي نقلها ترجمة صحيحة ، ولم يعرف على ما يتبين منها كذلك ما كان قد ورد فيها وما قصد منها ، فجعل (تالباً) ، وهو اسم آله من آلهة اليمن المشهورة ، ومعبود قبيلة (همدان) الرئيس ، اسم رجل من رجال الأسرة المالكة لهمدان . وجعل (رياما) ، وهو اسم مكان من الأمكنة المشهورة ، وكان به معبد معروف للآله (تالب) ، ابناً من أبناء (نهفان) ، ومن أبناء (تالب) . ولم يبخل الهمداني عليه ، فوهب له أماً قال لها : (ترعة بنت بازل بن شر حبيل بن سار بن أبي شرح يحضب بن الصوار) .

ويظهر على كل حال ان قراء المسند (وقد قلت إنهم يحسنون في أيام الهمداني قراءة حروف المسند) لم يكونوا على اطلاع بقواعد الحميرية ، ولا باللسان الحميري ، أو الألسنة العربية الجنوبية الأخرى . خذ مثلا على ذلك : (بن) وهي حرف جر عند العرب الجنوبيين ، وتعني (من) و(عن) بلغتنا قد أوقعتهم هذه الكلمة في مشكلات خطيرة . فقد تصور القوم عند قراءتهم لها ، أنها تعني أبداً (ابناً) على نحو ما يفهم من هذه الكلمة في لغتنا . وفسروها بهذا التفسير . ففسروا (بن بتع) أو (بن همدان) وما شابه ذلك (ابن بتع) أو (ابن همدان) ، والمقصود من الجملتين هو (من بتع) و(من همدان) ، وبذلك تغير المعنى تماماً ، ومن هنا وقع القوم ـ على ما أعتقد ـ في أغلاط حين حسبوا أسماء القبائل وأسماء الأماكن الواردة قبل (بن) وبعده ، أسماء أشخاص وأعيان ، وأدخلوها في مشجرات الأنساب . فاقتصار علمهم على الأبجدية وجهلهم باللغة ، أوقعهم في مشكلات كثيرة ، وسبب ظهور هذا الخلط .

وجاء الهمداني بنصوص اخر ذكر أنها كانت مكتوبة بالحميرية ، مثل النص الذي زعم أن مسلمة بن يوسف بن مسلمة الخيواني قرأه على حجر في مسجد خيوان ، وهذا نصه : (شرح ما ، وأخوه ما ، وبنوه ما ، قيول شهران بنو هجر ، هم معتة بدار القلعة) . وأمثال ذلك من النصوص . ولا أعتقد أنك ستقول : إنّ هذا نص حميري ، ولا يسع أمرءاً له إلمام بالحميرية أن يوافق على وجود مثل هذه العائلة عائلة ما ، أو يسلم بأن هذه قراءة صحيحة لنص حميري . بل لا بد من وجود أخطاء في القراءة وفي التفسير . ولا أريد أن أتجاوز على رجل مشى إلى ربه ، فلعله كان يحسن قراءة بعض الحروف والكلمات ، ويتصور أنه أحسن قراءة النص كله وفهمه ، فجاء بهذه العبارة . وعلى كل ، إن كلّ الذي جاء في النصوص التي وقفت عليها في كتب الهمداني لا يمكن أن يعطي غير هذا الانطباع ، ولعلنا سنغير رأينا في المستقبل اذا تهيأت لنا نصوص من شأنها أن تغيره .

ثم يقول ناقداً (ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٥) :

ويأتي (الهمداني) أحياناً بأبيات شعر زاعماً انها من المسند . ففي أثناء كلامه مثلاً على قصر (شحرار) قال : وفي بعض مساند هذا البنيان بحرف المسند :

شحرار قصر العلا المنيف أسسه تبع ينوف
يسكنه القيل ذي معاهر تخر قدّامه الأنوف

أما نحن ، فلم نعثر حتى اليوم على أية كتابة بالمسند ، ورد فيها شعر ، لا بيت واحد ولا أكثر من بيت . وأما متن البيتين المذكورين ، فليس حميرياً ولا سبئياً ولا معينياً وليس هو بأية لهجة يمانية أخرى قديمة ، وانما هو بعربيتنا هذه ، أي بالعربية التي نزل بها القرآن الكريم ، نظمه من نظمه من المحدثين بهذه اللغة البعيدة عن لغات أهل اليمن .

أما الباب الذي عقده في الجزء الثامن بعنوان : (باب القبوريات) ، فقد استمد مادته من روايات وأخبار (هشام بن محمد بن السائب الكلبي) ، و (ابن لهيعة) و (موهبة بن الدعام) من همدان و (أبي نصر) و (وهب بن منبه) و (كعب الأحبار) و (عبد الله بن سلام) . وقد أورد فيه نصوصاً زعم انها

ترجمات لنصوص المسند ، عثر عليها في القبور عند الأحداث . وأورد بعضها شعراً ، زعم انه مما وجد في تلك القبور ، كالذي ذكره عند حديثه عن قبر (مرشد بن شدّاد) ، وعن قبرين جاهليين عثر عليها بـ (الجند) وقد نص على ان الشعر المذكور كان مكتوباً بالمسند وقد دونه . وهو وكل الأشعار الأخرى ومنها المراثي منظوم بعربية القرآن . وأما النثر ، فإنه بهذه العربية أيضاً ، وهو في الزهد والموعظة والندم والحث على ترك الدنيا ، فكأن أصحاب القبور ، من الوعاظ المتصوفين الزهاد ، ماتوا ليعظوا الأحياء من خلال القبور ، ولم يكونوا من الجاهليين من عبدة الأصنام والأوثان .

وهو قسم بارد سخيف ، يدل على ضعف أحلام رواته ، وعلى ضعف ملكة النقد عند (الهمداني) وعلى نزوله إلى مستوى القصاص والسمّار والأخباريين الذين يروون الأخبار ويثبتونها وإن كانت مخالفة للعقل . إذ أنه لا يختلف عنهم هنا بأي شيء كان .

ومجمل رأيي في (الهمداني) أنه قد أفادنا ولا شك بوصفة للعاديات التي رآها بنصه على ذكر أسمائها ، وأفادنا أيضاً في ايراده ألفاظاً يمانية كانت مستعملة في أيامه استعمال الجاهليين لها : وقد وردت في نصوص المسند ، فترجمها علماء العربيات الجنوبية ترجمة غير صحيحة ، فمن الممكن تصحيحها الآن على ضوء استعمالها في مؤلفات الهمداني وفي مؤلفات غيره من علماء اليمن . أما من حيث علمه بتاريخ اليمن القديم ، فإنه وإنْ عرف بعض الأسماء إلّا أنه خلط فيها في الغالب ، فجعل اسم الرجل الواحد اسمين ، وصير الأماكن آباء وأجداداً ، وجعل أسماء القبائل أسماء رجال ، ثم هو لا يختلف عن غيره في جهله بتاريخ اليمن القديم ، فملأ الفراغ بايراده الأساطير والخرافات والمبالغات . وأما علمه بالمسند فقد ذكرت أنه ربما قرأ الكلمات ، ولكنه لم يكن يفقه المعاني ، ولم يكن ملماً بقواعد اللهجات اليمانية القديمة ، وقد حاولت العثور على ترجمة واحدة تشير إلى أنها ترجمة صحيحة لنص من نصوص المسند ، فلم أتمكن من ذلك ويالالأسف .
ويختتم حديثه عن الهمداني قائلاً :

« وعلم (الهمداني) بجغرافية اليمن والعربية الجنوبية ، يفوق كثيراً علمه بتاريخ هذه الأرض القديم ، فقد خبر أكثرها بنفسه وسافر فيها ، فاكتسب

علمه بالتجربة . أما علمه بجغرافية الأقسام الشمالية من جزيرة العرب ، فإنه دون هذا العلم » .

وهذا قبل أن يطّلع على ملاحظات الاستاذ محمد عبد القادر بامطرف عن معارف الهمداني الجغرافية ويعرف انها بنيَتْ على السماع ، واستندت إلى ما يدور على ألسنة الناس وليس إلى المشاهدة والعيان ، ولم يخبر أكثرها بنفسه ، ولا سافر فيها فاكتسب علمه بالتجربة ! ترى ماذا سيقول الآن الدكتور البحاثة جواد علي ؟

أما أنا فلا يسعنى إلاّ أن أتذكر ما سبق أن قلته قبل ربع قرن في كتابي قصة الأدب في اليمن وأنا تحدّث عن الهمداني :

« ولكنّه على كل أحواله ؛ منصفاً كان أو متحيّزا ، مخلصاً أو مغرضا كان يمثّل العبقرية والكمال ، أحبّ بلده وقومه ، وتعمّق في دراسة تاريخ وطنه وأهله ، وورث علومهم وآدابهم وأعطى من نفسه كثيراً باحثاً متجوّلا ، وكاتبا ساهراً ، ومجادلاً صائلا ، ومناويا وثائرا ، ولا تزال كتبه مصدراً كريماً للباحثين والعلماء ، وينبوعاً ثرّاً يستقي منه روّاد المعرفة والمؤرخون والنقّاد » .

وكان بحقّ وجدارة « لسان اليمن » .

١٠ ـ الكِشْوَري

أبو محمد عبيد الله بن محمد بن ابراهيم الكِشْوَري ؛ من علماء صنعاء في أواخر القرن الثالث الهجري وهو أحد أساتذة الحافظ الطبراني ، وله تاريخ نقل عنه الرازي في تاريخ صنعاء نقولات كثيرة ، كما أن ابن حجر في الاصابة نقل عنه وذكر ان اسمه أبو عبيد وان له كتاب في التاريخ (الاصابة ٣/ ٥٨٥ ـ في ترجمة النعمان بن برزخ) وانظر الأنساب للسمعاني ورقة ٤٨٤ ب وتاج العروس « كشر » ومعجم الأدباء لياقوت ٤/ ٤٦٣ وطبقات فقهاء اليمن ص ١٧ ـ ١٨ وكشّاف اعلام تاريخ صنعاء للرازي ص : ٥٧٥ الطبعة الثانية .

١١ ـ الإمام القاسم العياني
[٣١٠ ـ ٣٩٣هـ / ٩٢٣ ـ ١٠٠٣ م]

من أئمة اليمن المشهورين بالعلم والتأليف ، وفصاحةِ البيان الامام القاسم بن علي بن عبد الله العياني ، ولد سنة ٣١٠هـ /٩٢٣ م ودعا إلى نفسه سنة ٣٨٨هـ / وهو في الثامنة والسبعين وكانت وفاته سنة ٣٩٣هـ /١٠٠٣ م وظل طيلة إمامته في صراع وحروب مع أحفاد الهادي ، وقبائل نجران ، وابن أبي الفتوح ، وآل الضحاك ، وله سيرة ألّفها العلامة الحسين بن أحمد بن يعقوب الهمداني الذي كان قريب الصلة بالامام المنصور القاسم العياني منذ بداية عهده حتى وفاته ؛ ويقول الدكتور حسين العمري أن نسخةً من « سيرة المنصور » توجد في المتحف البريطاني ورقمها ٣٨١٦ تَمَّتْ نِساختها في أواخر ربيع الثاني سنة ١٠٨٠هـ /١٦٦٩ م « وانها لا تفتقر إلى الترابط أو وحدة التأليف وفيها من أشعار مؤلّفها ما قاله في بعض المناسبات والأحداث [ص ٣٥ ـ مصادر التراث اليمني] وقال بروكلمان ان له كتاب « التفريع » ومنه بعض الأحكام في المتحف البريطاني ثاني ٢٠٣ ، ٧١١ ، ٢٠٥ ، ١١١ .

وقد ترجمه حميد المحلّي في « الحدائق الوردية » وأورد بعض رسائله [ج ـ ٢ ـ ص ٦٠ ـ ٦٤] ونقل من كلام له في كتاب إلى أهل نجران : « أما بعد فانه لا خطأ بعد تذكرة ، ولا ذمامة بعد معذرة ، وقد قبلتُ عذرَ من اعتذر ، وتجاوزت عن خطيئة من قصرّ ، فتعوّضوا من سيئاتكم

إحسانا ، ومن زللكم استمكانا ، واعلموا ان من يرجع عن سيّئته كمن لم يُسيء ، ومن عاند في غيه نحس وغوي ، وقد عرفتم جميعاً انه لا معذرة لمن عصى الله حتى يرجع عن معصيته ، ولا توبة للتائب حتى يندم على خطيئته ، وقد أظهرتم جميلاً شكرتم عليه ، فحوطوا قولكم بالتمام ، وأنفسكم بالاسلام ، واعلموا ان الاسلام حرمة ترعى ، والديانة أوامر لا تعصى ، ومن قصرّ عن بعض ما أمر الله به كمن أضاع جميع أمره ونهيه والله تعالى يقول وقوله الحق : **﴿الذين آمنُوا ولَمْ يُلبِسوا إيمانهم بظُلم أولئك لهمُ الأمنُ وهم مهتدون﴾** .

قال المحلى : « ثم أقام بصعدة حتى كان نهوضه يوم الاثنين من شهر ربيع الأول سنة ٣٨٩ تسع وثمانين وثلاثمائة واستقرت أوامره النبوية في كثير من الأقطار اليمنية ، ودخل صنعاء واستحكم أمره في مخاليفها ، وانتشر في كثير من اليمن ، ودوّخ كثيراً من الأعداء ، واستولى على بلدانهم مجرياً للأحكام ، قائما بشريعة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم غير وانٍ ولا مقصرّ وكان يقود الجنود الكثيرة » إلى أن قال : « وكان اذا حضر معركة نازل اقرانها ، وانزل فرسانها ، واثباً عن الصولة ، راكبا عند الجولة . وازعاً لأرباب الظلم ، راعيا حرمة أهل العلم ، كثير الوطأة واللّين ، معروفاً بتقريب المساكين » [ص - ٦١ - ٦٢] .

ولن يعجب المرء ، وليس بغريب ، ان يكون الامام وهو العالم المجتهد وازعاً لأرباب الظلم راعياً لحرمة العلم ، أو « كثير اللين » «مقرّبا للمساكين » فذلك واجب الحاكم ، ولكن لا بد أن نعجب بهذا الامام الذي قد أشرف على الثمانين أو جاوزها وهو لا يزال ينازل الأقران ، ويُجدِّل الفرسان ، ويصول ويجول في الميدان . وذلك يدلّ على انه كان قوي البنية ، متين التركيب ، وان الله سبحانه قد زاده بسطة في العلم والجسم .

وقال : « ثم كانت وفاته يوم الأحد لسبع خلون من شهر رمضان من سنة ٣٩٣هـ ثلاث وتسعين وثلثمائة ومشهده عليه السلام بعيان مشهور مزور وأولاده يحيى وجعفر وعلي وسليمان وعبد الله والحسين » .

ولما ولّى ولده علياً بلاد « لاعة » كتب إليه رسالة منها :
« تعلم يا بني - أسعدك الله وأرشدك أنّ الحكيم من جعل الاناة نصب

عينيه ، وشعـار قلبه ، ثم استظهر بآراء ذوي التجربة الذين كثرت عليهم نوائب الـزمان ، وتتابع الحدثان ، وما يدور به على الانسان ، فان استشرت من قد نقّحَتِ التجـربـةَ عقله ، رشَـدتَ وسعـدتَ ، وليس كل النـاس يستشارون وانما الرأي لأهل العقول الرضيّة ، والديانة والأمانة ، وليس رأي الواحد يكاد أن يبين صوابه ، إلّا لمحصّل حكيم ، فاذا أردت بيان الرأي فشـاور جماعة من ذوي الرأي كلّا على حياله ، فان اتفقت أراؤهم ، فلا يكون مع الاجماع خطأ ، وان افترقت واختلفتْ ، فخُذْ منها بما أوجب العفو والاناة ، واجعله المقدم ، فإنك مع ذلك ستدرك الفائت ، وتأمن الندامة ، ولا تدع المشورة في صغير ولا كبير ، ولا قليل ولا كثير الله الله . واحذر نفسك فانها من اعدا اعدائك لك ، وأشدهم مضرة عليك وقد قال الله تعالى : ﴿**ان النفس لأمّارة بالسّوء**﴾ وقال عزّ وجل ﴿**فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى**﴾ والهوى أصل كل معصية إلى أن قال واحذّرك ان تطلب حوائجك معاً ؛ فيثقل عليك مطلبها ، ويُحْزنك فوتها ، واطلبها بددا . فان ذلك أحرى لنَيْلها ، وأخف لتكلّفها لمن كلّفهَا ، فهـذا وجـه فاعـرفـه ولا تغلط فيه ، وهـو الـذي أخلَّ بكلٍّ من دخل في مدخلك ، وكن بمعزل عما لا يعنيك ، ولا تذر اكتساب العلم ، والاقتداء بآثار العلماء والحكماء وهذا مفتاح الرزق والنجاة من غضب الخالق وقد قال النبي ﷺ من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار والسلام .

وهـذه الرسالة والأولى التي إلى أهل نجران لا تعربان فقط عن حكمة ومعرفة وعمق تجارب الامام القاسم العياني بل وتصوّران الأسلوب البياني في نثر أدباء وكتاب ذلك الزمان ونقل مؤلف الحدائق نبذا من رسالة له قال انه كتبها إلى أهل « طبرستان » ورواها عنه الامام عبد الله ابن حمزة ، وبعض ما ورد في هذه الرسالة يصور عقلية ذلك الامام الذي صقلته التجارب ، ولم يصـل إلى الحكم الاّ وهـو في عقـده الثـامن بل وتنْبي عمّا كان يعتمل في جوانحه ، ويشغل باله ، ويريد أن يجعل منه سياسةَ لحكمه ، لو تمكّن ، ومما ورد فيها : « التسويف والرجا يوردان ولا يصدران ، والخوف والعمل ينقذان ولا يبطلان ، أصل العلم مع السؤال ، وأصل الجهل مع الجدال ، العـالم في غير علمنـا كالجاهل بحقّنا ، والراغب في عدونا كالزاهد فينا ، والمحسن لعـدونـا كالمسيء إلينـا ، والشاكر لعدونا كالذام لنا ، والمتعرض

لنحلتنا كالغازي علينا ! والراعي لمن لم يسترع كالمضيّع لمن استرعى ، والقائم بها لم يستأمن عليه كالمعتدي فيما استحفظ ، والخاذل لنا كالمعين علينا ، والمتخلّف عن داعينا كالمجيب لعدونا ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينتظمان بغير زمام ، ولا يؤدَّى فرضُهما بغير إمام ، ومقلد الناس كالباني على غير أساس » [أئمة اليمن ج ١ ـ ص ٨٠] .

قال العلامة زبارة :

ثم لمّا رأى خذلان الناس له وميلهم إلى أعدائه وحسدته ومنافسيه لزم العزلة والانقباض ، وأقام حينا في حصنه بضيعته في مذاب بالقرب من مدينة « عيان » وحينا في « عيان » ، وارسل رسالة إلى الناس مشحونة بالمواعظ والحجج والتذكير ؛ وردّ على من أظهر الطعن عليه بكتاب دمغ به الباطل وسماه « كتاب الردّ على الرافضة » وهو أحسن كتاب وضعه [أئمة اليمن ج ١ ـ ص ـ ٨٠] .

ومن أكابر قوّاد الامام القاسم الشريف القاسم بن حسين الزيدي واليه على « صنعاء » و « ذمار » ولكن خلافا حصل بينهما ومال الزيدي الى الامام يوسف الداعي سنة ٣٩٢هـ ثم ما لبث ان توفى بمدينة ذمار في محرم عام ٣٩٤ بعد وفاة الامام العياني بأربعة أشهر . وانظر تفاصيل سيرته وأخباره في أئمة اليمن ج ـ ١ ـ ص ٧٥ ـ ٨٢ وغاية الأماني ج ـ ١ ـ ٢٢٧ ـ ٢٣٤ .

ومن شعره الذي لا يداني إبداعا رسائله ، قوله من قصيدة :

طال الثواء بصعدةٍ وعِيَانِ ومذاب فالأحراج من سنحان
فهل الزمان مساعف لمواشك يقصو ، ويغرب مرة ، ويداني
فنأ ، وخلّى من ونى في رأيه وأضاف ظن الخير في قحطان
السادة الغر الكرام أولى النهي أهل العفاف ، ومعدن الايمان

***

ويقول في أخرى :

أقول لأصحابي ، ونحن بجانب من الشطّ ترعانا خيول العساكر
هل الجمع جمع المشعرين كجمعنا ؟ وهل يزهدن فينا امرءٌ غير خابر ؟
سقى الله أقطار الحجاز وأهله ؛ ولم يبعدوا عنا بأيمن طائر

هموا زهـدوا في كوننـا ببـلادهم وكـانـوا ظهـيراً بين راع وحـاسرِ
فهـل عوّضـوا عنا المهنا ؟ فلم يكن بنـا عوضاً في ذي الخطوب الجواهرَ
وحـولي حماة ليس خلق يروعـهـم لقـد كرمت احسـاب تلك العشائرَ
وأصبحت في همدان في رأس شامخ من العـز ؛ إذ فازوا بفخـر المفاخرَ
أولـئك انصاري ؛ فهل من مفاخر بمثلهمو في الناس ، أو من مكابر ؟

***

[ائمة اليمن ص ٨١ ـ ج ١]

وقد ذكر له الحبشي اثنى عشر كتاباً ورسالة [حكام اليمن المؤلفون ص : ٥٩ ـ ٦٠] .

١٢ ـ الامام المهدي العياني [٣٧٦ ـ ٤٠٤ / ٩٨٧ ـ ١٠١٤ م]

وما إن لحق القاسم العياني بالرفيق الأعلى حتى أظهر دعوته ابنه الحسين ابن القـاسم بن علي العياني في رمضان سنة ٣٩٣هـ وهو شاب لما يتجاوز السابعة عشرة من سنيّ الحياة ؛ لأن مولده كان في عام ٣٧٦هـ وقد عرفنا ان والده لم يبايع الاّ وهو في الثامنة والسبعين .

وقد ترجمه المحلّي في الحدائق الوردية فقال : « برّز في العلم حتى فاق أهـل عصره ، وسبق فيه أبناء دهره ، وهو غصن خلافة نضير ، وروضة فضل وغدير ، مشهور بالزهادة ، معروف بالعبادة ، وله التصانيف الرائقة في علم الكلام ، وهي كثيرة قيل انها تبلغ ثلاثة وسبعين تصنيفا » ثم قال : « قام بالأمر بعد موت أبيه وملك من الهان إلى صعدة وصنعاء ولم يزل ناعشا للحق حتى قتله بنو حماد في نواحي البون سنة ٤٠٤هـ » ثم قال : « وقد بقي جماعة من أشياعه يعتقدون انه حيّ إلى الآن ؛ وانه المهدي المنتظر الذي بشر به رسـول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم وقـد كتبنا رسالة في هذا المعنى ووسمنـاهـا بالـرسـالـة الـزاجـرة لذوي النهي عن الغلوّ في أئمة الهدى » [الحدائق ص ـ ٦٤ ـ ج ـ ٢] .

وقد ترجمه وذكر أخباره وبعض مؤلّفاته المؤرخ محمد زبارة في كتابه أئمة

اليمن ونقل ما قاله السيد صارم الدين ابراهيم بن محمد الوزير في بسامته التاريخية يشنّع على من يدّعى انه « المهدي المنتظر » في أبيات منها :

وانـزلت ساحـة المهـدي قارعـة بذي « عرارٍ » ونقـع الخيل لم يثر ،
وقـال قوم هو المهـدي منتـظر ، قلنـا كذبـتم حسـينٌ غير منتـظَر
كيـف انـتـظاركـمـو نفسـاً مطهّـرةً سالت على البيض والصّمصامة الذكرِ
ولـلـخـيـالات أوهـام مسـلطةٌ على العقـول التي ضلّت عن الفكرِ

***

وقال السيد أحمد الشرفي في شرح هذه الأبيات باللآلي المضية ان المؤرخ مسلّم اللحجي حكى عن الامام المهدي الحسين بن القاسم ووالده الامام المنصور بالله القاسم بن علي العياني أشياء كثيرة تقضي بمخالفتهما لمذهب أسلافهما وانهما ربما يسترجحان أشياء من مذاهب « العبيديين » ، وأكثر الطعن على الحسين بن القاسم ، وملأ الأوراق من سبّه ، وذكر انه أدعى انه ينزل عليه الوحي في كلام كثير حتى قال : « وما شنّع به مسلّم اللحجي عليهما وبهتهما به لا يحطّ من رتبتهما ، ولا يقبله الاّ من انخرط في سلك أعداء أهل البيت ! فان شهرة فضلهما ، وعلوّ قدرهما ، وكثرة عنايتهما بأمر الدين ، وما شحناه في كتبهما ورسائلهما من العلم الواسع والرد على من خالف العترة الزكية أوضح الأدلة لذوي البصائر » [ص ٨٥ ـ ج ١ ـ أئمة اليمن] .

أما المؤرّخ ابن أبي الرجال فقد قال أثناء ترجمته للشريف القاسم الزيدي [ص : ٢٤٣ ج ـ ٤ ـ مخطوطة زبارة] ما يلي :
« حين توفي القاسم العياني دعا الامام الحسين بن القاسم ، وكان صغير السن غزير العلم ! مصنفاته خمسة وسبعون مصنفاً قال السيد صلاح الجلال [ت ٨٠٥] : وزعم انه المهدي المنتظر الذي بشر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فافتتن الناس به ، وأقبلوا إليه مهرعين . ثم زعم انه أفضل من النبي ، وان كلامه ومصنفاته ورسائله أفضل من القرآن ، وابهر في ظهور المعنى وقطع كلام الخصم فنفر الناس عنه ؛ فجار على الناس في صنعاء ، وطلب الأخماس في كل شيء من الحلية والأموال حتى في العبيد والأماء ، والثلث في سائر الأشياء من الحبوب وغيرها فمن ساعده في ذلك والاّ حكم عليه بحكم اليهود في ضرب الجزية ، وسلب السلاح ، ومن تعذّر عن ذلك

قتله وصلبه أو حبسه ؛ فلحق الناس في أيامه ما لا يعلمه الاّ الله حتى انها وصلت رسالة من الامام الداعي يوسف الأكبر [ت ٤٠٣هـ] في هذا المعنى فأجاب عليه أقبح جواب وسبّه أعظم السبّ وسماه الزنيم الأبتر إلى نحو ذلك » ثم قال ابن أبي الرجال : « وقد حمله أكثر الشيعة على عروض نقصان العقل » وأورد ما دار بينه وبين معارضيه وسلاطين عصره من حروب إلى ان قتل في صفر عام : ٤٠٤هـ كما سبق .

كما أن العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم قال أثناء ترجمته للسيد المحسن ابن محمد المختار بن الناصر بن الهادي الذي عاصر القاسم العياني وولده الحسين هذا انّ الامام أحمد بن سليمان [ت ٥٦٦هـ] قال في الحكمة الدرّية « وكان هذا السيد إمام مسجد الهادي إلى الحق بصعدة ، وكان عفيفاً عابداً ورعاً زاهدا قال وكتب إليه الحسين بن القاسم العياني يقول فيه : أما بعد أيها الفاسق المنافق النجس الرجس البغيض المبغض فانه بلغني انك تهجوني ، وتزعم اني لست بالمهدي فأنت أنت ومن معك بكل علم أنزله الله في التوارة والانجيل والزبور والفرقان ، وبكل علم انزله الرحمن ما يكون في علمي الا كالمجّة في البحر ! ومن أنت يا مسكين ؟ ، وما الفرق بيني وبين الأنبياء الاخيار ، والائمة الاطهار الا فرق ما بين الليل والنهار » ، قال فردّ عليه المحسن المذكور جواب عاقل عالم ؛ فذمّ الرفث ، والقول الشنيع وأنشد : وتشتمون فنعفوا عن شتائمكم لا عفو ذلٍ ولكن عفو احلام . واحتج عليه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبحجج كثيرة منها في ادعاء الفضل قول الله تعالى : ﴿**ولا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ واحتج في القرآن بقول الله تعالى : ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله**﴾ قال الامام أحمد بن سليمان وهذا الكتاب صحيح عنه ، وهو في أيدي أصحابه إلى اليوم وهو أيضاً عندنا في كتب بني الهادي المبتدا [أي كتاب العياني] والجواب ولا يمكن نفيه عنه لتواتر الأخبار ، ولقرب العهد ، ولاجماع المخالف والموالف انه منه إلى آخر ما ذكره والله أعلم [ص ـ ٦٤ ـ الطبقات نسخة محمد المنصور]

وكلام الامام أحمد بن سليمان يؤكد ما قاله مسلّم اللحجي [ت : ٥٤٥هـ] في طبقاته من طغيان المهدي العياني وخروجه عن الاسلام ودعاويه الظاهرة البطلان والتي حاول السيد أحمد الشرفي بعد وفاة العياني

بستة قرون [توفي الشرفي عام ١٠٥٥هـ] أن يدافع عنه وبحجةٍ واهية سخيفة وهي ان كتبه وكتب أبيه مشحونة بالردّ على من خالف العترة الزكية » ! .

وقد عرفنا أن معظم الغلاة والذين ادّعوا النبوة ، والمهدويّة وعاثوا في الأرض فسادا ؛ قد كان منهم من يتخذ من محبّتهم للعترة الزكية ستاراً وشعاراً ؛ كما عمل « علوي البصرة » و « علي بن الفضل » و « الحاكم بأمر الله » وغيرهم ولذلك فان العلامة السيد محمد بن ابرهيم الوزير المتوفي سنة ٨٤٠هـ قبل الشرفي بمائتي عام والذي وصفه الامام الشوكاني بقوله : « الامام الكبير المجتهد المطلق » وقال عنه أيضاً : « لو قلت ان اليمن لم ينجب مثله لم أبعد عن الصواب » قد جزم ـ هذا العالم ـ وهو على يقين مما يقول ـ انه خرج من جميع المذاهب الاسلامية وقال في كتابه الروض الباسم « وقد اغتر بهذه الشبهة بعينها الحسين بن القاسم العياني أحد من أدعى الامامة من الزيدية فخرج من مذهب الزيدية بل من المذاهب الاسلامية وادّعى انه أفضل من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وان كلامه انفع من كلام الله عزّ وجل وتابعه على ذلك طائفة مخذولة من الزيدية قد انقرضت بعد انتشار » [الروض الباسم ص ١٥٨] .

وإذاً فما نقله الامام أحمد بن سليمان في النصف الأول من القرن السادس ، ومعاصره مسلّم اللحجي ، وتكفير العلامة محمد بن ابراهيم الوزير له وما نقله قبله عن فرقة المهدي العياني حميد المحلّي المتوفي سنة ٦٥٢هـ ثم اثبات ذلك من قبل المؤرخين الكبيرين يحيى بن الحسين وأحمد ابن صالح ابن أبي الرجال يبدّد حجة معاصرهما السيد أحمد محمد الشرفي الذي ربما كان يتودّد بدفاعه عن العياني إلى بعض أصحاب السلطة في زمنه وذلك ما يحدث في كل زمان ومكان ؛ ولو شئت ان اضرب الأمثال لطال المقال .

ولقد ذكر البحاثة عبد الله محمد الحبشي في كتابه « حكام اليمن المؤلفون » أسماء ثلاثين كتاباً ورسالة من مؤلفات المهدي العياني وذكر أرقامها في الخزائن التي توجد بها باليمن وغيرها [ص ٦٣ ـ ٦٦] .

وقد وقف السيد العلامة المعاصر مجد الدين بن محمد المؤيّدي موقف

الدفاع عن المهدي العياني ، وأورد أدلة وبراهين تدعو الى التأمل ولا يليق بي اهمالها لكي يكون البحث وافيا ومنصفا .

قال السيد مجد الدين في كتابه « التَّحف شرح الزلف » :

« الزلف »

ومن في عيان أعلن الدين وابنه وقد خانه من للديانة خالع

« **التحف** »

المراد به الامام المنصور بالله أبو الحسين القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن الامام القاسم بن ابراهيم عليهم السلام قام ببلاد خثعم ثم أنفذ رسله إلى اليمن سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فأجابوه في عصر الامام المتقدم آنفا الداعي إلى الله يوسف وكان بينهما من المعاونة على إقامة الدين واحياء سنن المرسلين ما يشفي صدور المؤمنين وفاته سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة مشهده بعيان ببلاد سفيان قال الامام المهدي أحمد بن يحيى المرتضي (ع) :

والقاسم بن علي المشهور بالعلم الغزير الواسع الدفاق

ومن مؤلفاته كتاب الأدلة من القرآن على توحيد الله وكتاب التوحيد وكتاب التجريد وكتاب التنبيه . أولاده سليمان ويحيى وعبد الله وعلي وجعفر وابنه الامام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي (ع) دعا بعد وفاة أبيه وكان من كبار علماء الآل وله آثار جمة وأنتفع بعلومه الأئمة وقد روي عنه أشياء خارجة عن سنن أهل البيت رواها الامام أحمد بن سليمان وأما الامام عبد الله بن حمزة فقد سمعت نقله عنه في الرسالة الناصحة وثناءه عليه وكلام هذا الامام في كتاب الرحمة وغيره من رواية السيد العالم الكبير حميدان ابن يحيى القاسمي يقضي بأن مذهبه وعقائده عقائد الامام الهادي وابنه المرتضى وهي التي ارتضاها الله لعباده وتبرأ إلى الله من كل ما نسب إليه خلاف ذلك ولعله لبس على الامام المتوكل على الله أحمد بن سليمان (ع) لكثرة أعدائه في ذلك العصر ولبعضِ العلماء في تنزيه هذا الامام أبيات منها :

هذا إمام عالم عامل أبرأ إلى الرحمن من بغضه
ومن موالاة لاعدائه ومن غلو فيه أو رفضه

قف واتق الله الـه السما | يا أيها الطاعن في عرضه
ان تك منه اليوم مستقرضا | ففي غد تندم من قرضه
أدين ان الحق ما قاله | من صفة الباري ومن فرضه
صلى عليه الله من راحض | طاب وطاب الدين من رحضه

***

إلى آخرها وقد بلغ هذا الامام في العلوم مبلغا تحتار منه الأفكار وتبتهر فيه الابصار على صغر سنه فلم يكن عمره يوم قيامه عليه السلام الا سبع عشرة سنة لأن مولده سنة ست وسبعين وثلاثمائة وقد كان عليه السلام كثير التشكي من المحرفين لكلامه ومع ظهور الخامل فلا يؤخذ بالنقل وان بلغ أي مبلغ فهذا أمر عسير والهجوم عليه بغير بصيرة جرم خطير نعم قتل هذا الامام في وادي عرار سنة أربع واربعمائة مشهده بريدة من مخاليف صنعا وأحرق الله قاتله بالنار وله من العمر نيف وعشرون سنة والف ثلاثة وسبعين مؤلفا منها كتاب مهج الحكمة وكتاب تفسير غرائب القرآن وكتاب مختصر الاحكام وكتاب الامامة وكتاب الرد على أهل التقليد والنفاق وكتاب الرد على الدعى وكتاب الرحمة وكتاب التوفيق والتسديد وكتاب شواهد الصنع وكتاب الدامغ وكتاب الاسرار وكتاب الرد على الملحدين وكتاب نبأ الحكمة .

وبعد أن مرّض عبارة قتل المهدي العياني للامام محمد ابن القاسم الزيدي سنة ٤٠٣هـ قائلا « والله أعلم بحقيقة الأمر ، وقد كثرت الأحداث في هذا العصر ، وقد جدّ اعداؤه من المطرفية في الثلم لعرض الامام الحسين بن القاسم ، ولا بد لكلّ ذي شأن من اعداء من عصر آدم صلوات الله عليه إلى آخر أيام الدنيا ﴿**يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الاّ ان يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ [ص ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٣] .

ومع الاحترام والتقدير لآراء شيخنا العلامة مجد الدين أطال الله عمره وقوله « ولعله لبس على الامام المتوكل على الله أحمد بن سليمان لكثرة أعدائه في ذلك العصر » وقد سبق نقل كلام أحمد بن سليمان عن صاحب الطبقات وهو واضح وصريح يشهد بأنه قد رأى كتاب المهدي والجواب عليه بنفسه فان استاذنا الجليل لم يوفّق حين استشهد بالآية الكريمة : ﴿**يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم**﴾ وكيف وممن شنّع على المهدي العياني الامام أحمد

بن سليمان والعلامة محمد بن ابراهيم الوزير ولكن « لهوى النفوس سريرة لا تعلم » والله المستعان .

هذا وقد ذكر « كارول بروكلمان » كلاً من القاسم العياني وابنه الحسين في الجزء الثالث من كتابه تاريخ آداب العرب ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ فقال :

٨ ـ الامام المنصور بالله ، القاسم بن علي بن عبد الله ، توفي سنة ٣٩٣هـ /١٠٠٣ م .
له : كتاب التفريع ، ومنه بعض الأحكام في : المتحف البريطاني ثاني ٢٠٣ ، V11 ٢٠٥ 111 .

٩ ـ الامام المهدي لدين الله ، الحسين بن القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن ابراهيم ، فهو في المرتبة الخامسة من نسل ترجمان الدين القاسم بن ابراهيم . وتوفي سنة ٤٠٤هـ /١٠١٣ م .
له :

١ ـ كتاب الأكفاء ، وهو يتناول التكافؤ في الدين والنسب من أجل الزواج : برلين ٤٩٧٦ .
٢ ـ كتاب السبيلين ، العقل والنفس : برلين ٥٣٤٠ .
٣ ـ تفسير الغريب من كتاب الله : الكراسة الثالثة منه في : برلين ١٠٢٣٨ .
٤ ـ التحدي للعلماء والجهال والرد على الزنيم وغيره من الضلال : برلين ١٠٢٦٦ .
٥ ـ الرد على أهل التقليد والنفاق : برلين ١٠٢٦٧ .
٦ ـ الرد على من أنكر الوحي بعد خاتم النبيين : برلين ١٠٢٦٨ .
٧ ـ موعظة : برلين ١٠٢٦٩ .
٨ ـ الرد على الملحدين وغيرهم : برلين ١٠٢٧٩ ، شهيد علي باشا ٦ .
٩ ـ التوحيد والتناهي والتحديد ، القسم الأول منه في : برلين ١٠٢٧١ شهيد علي باشا ١ .
١٠ ـ بناء الحكمة : برلين ١٠٢٧٢ .
١١ ـ الرد على من أنكر قتل عدو الله حاتم : برلين ١٠٢٧٣ .

١٢ ـ الفرق بين الأفعال والرد على الكفرة والجهال :
برلين ١٠٢٧٤ .
١٣ ـ الامامة : برلين ١٠٢٧٥ .
١٤ ـ الأدلة على الله : برلين ١٠٣١٤ .
١٥ ـ مختصر من التوحيد : برلين ١٠٣١٥ .
١٦ ـ التوكل على الله ذي الجلال ، والرد على المشبهة الضلال :
برلين ١٠٣١٦ ؛ شهيد علي باشا ٢ .
١٧ ـ الرحمة وابتداء الله سبحانه لعباده بالنعمة : برلين ١٠٣١٧ .
١٨ ـ الدليل على حدث الأجسام : شهيد علي باشا ٣ .
١٩ ـ الطبائع : شهيد علي باشا ٤ .
٢٠ ـ شواهد الصنع : شهيد علي باشا ٥ .
ـ وهناك عناوين رسائل أخرى عند آلورد (برلين ٤٩٥٠ ,V) .

نقد الدراية

تلك الكثـرة الكـاثـرة من الكتب والتي قيل ان الامام الشاب المهدي الحسـين بن القاسم العياني قد ألفها وبلغت نيفّا وسبعين كتابا ، وجعلت شيخنا العلامة مجد الدين يقول « وقد بلغ هذا الامام في العلوم مبلغاً تحتار فيه الأفكار وتبتهر فيه الابصار على صغر سنه » لا يسعنا إلاّ ان نعقب عليها بنقد دراية لا يخضع لتهاويل المواصفات التي يشترطها فقهاء الاسناد وعلماء الرواية في تصحيح الأخبار التي تروى لهم أو يروونها .

ونقاد الدراية إذ يقدّرون ويحترمون تلك الشروط والمواصفات عند نقاد الرواية فلا بد أن يحكموا عقولهم فيما لم يكن دليله قطعياً ولا يفيد غير الظن ويحللّونه ويعللّونه ويعملون دراياتهم في نقد ما يصح عقلاً وما يأباه العقل ولذلك فلا استطيع الاّ ان اعترف باني قد وقفت موقف الشك من هذه الكثرة الكاثرة من المؤلفات في شتى العلوم والتي نسبت لهذا الامام الشاب ؛

وبـالتـالي فلا الوم من يقول أو يتساءل متشككا : كيف استطاع هذا الشاب وهو في السابعة عشرة أن يصبح إماماً « غزير العلم مصنفاته خمسة وسبعون مصنفاً ؟ » أيعقل هذا ؟

ولا الوم ولا أنكر على من يجحد أو ينكر - أو يشك في - أن هذا الشاب « الامام صغير السن » قد تمكن وخُوِّل له من الوقت خلال السنوات العشر التي أمضاها بعد ان ادعى الامامة و« المهدوية » ، وقد كانت سنوات قتال وصراع بينه وبين أنصار أبيه وخصومه من الزيديين والرسّيين وآل أبي الفتوح وآل الضحاك ، والعديد من المشيخات والسلطنات حتى سقط قتيلاً . . أن يجد من الوقت ما يخوّل له تأليف خمسة وسبعين مصنفاً ؟ وهل يعقل هذا أيضاً ؟

ولكنني لا أستطيع ان أجحد ان هذه الكتب قد ألّفت وهي موجودة في خزائن المكاتب اليمنية ، بل وبعضها موجودة في المكاتب العالمية في « مصر » و « لندن » و « برلين » و « تركيا » وقد ذكر اسماءها وأرقامها الاستاذ كارول بروكلمان .

وإذن فلابدّ ان هناك من قد ألّفها أو شارك هذا الامام الشاب العالم في تصنيفها ، ولن اعترض على قائل يقول ان بعض تلك المؤلفات كانت من تصانيف والده العالم الوقور الحكيم الذي لم يبايع بالامامة الاّ وهو في سن الثمانين والذي لم يجد له « بروكلمان » الاّ كتاباً واحدا اسمه « التفريع » ! .

لماذا لا يكون الامام القاسم في أعوامه الثمانين قد الف تلك الكتب أو بعضها ثم لما ادّعى الامامة والمهدوية ابنه الشاب النزق الذي تجالدت في عقيدته ألسن علماء اليمن ؛ استولى على تلك الثروة ، وربما زاد في بعضها ونقص في البعض الآخر ، وأظهرها منسوبة إليه يتبجح بها ويفاخر فتتحيّر الأفكار ، وتنبهر الأبصار ؟

لماذا لا يجوز ذلك إذا حكّمنا عقولنا ، وانتقدنا الأمر نقد بصيرة ودراية ؟ وعلى كل حال فبعد أن نطّلع على تلك الكتب وندرس ما فيها سنستطيع ان ندرك ما هو للشيخ الامام القاسم وما هو أشبه به علماً ونفساً وبيانا ، وقد نعرف ما هو أقرب إلى نزق وعقلية ابنه الشاب الامام المهدي الحسين بن القاسم الذي قيل عنه ما قيل ؛ وبألسنة أفذاذ منهم الامام أحمد بن سليمان ، وصلاح الجلال ومحمد بن ابراهيم الوزير ومسلّم اللحجي ؛ ولا ندري ماذا في كتابه رقم - ٦ - في قائمة بروكلمان والذي سماه « الردّ على

من انكر الوحي بعد خاتم النبيين » فانه يوحي بما يؤيد الذين قالوا بأنه خرج على جميع المذاهب الاسلامية .

نكبة اليمن وتمزّقها

ما إن لفظ القرن الرابع الهجري أنفاسه ، وأطلّ القرن الخامس مكشّراً بأنيابه ومخالبه حتى نشبت الحروب وشبّت نيرانها في كل أنحاء اليمن وكثر النهب والسلب وتمزّقت اصقاع اليمن ؛ في كل مدينة إمام ، ولكل قبيلة سلطان ، وقد وصف المؤرخ يحيى بن الحسين ذلك فقال :

« وفي هذه المدّة كانت اليمن مشتركة بين أمرائها فالتهائم وجميع أعمال زبيد الى موالي بنى زياد ، وعدن ولحج وأبين وحضرموت والشحر إلى بنى معن وسمدان ، والدملوة ، وذخر ، والتعكر ، إلى بني الكرندي ، وتغلّب ابن التبعي على حصن حبّ ، وعزّان ، وخدد والشعر ، والسحول ، والشوافي ، وأما اليمن الأعلى « صنعاء والشمال والشرق » فانقسم بين آل يعفر ، وآل الضحّاك وبني أبي الفتوح وأولاد الامام الدّاعي يوسف بن يحيى وأولاد الامام القاسم بن علي العياني » .

« وتلاشى بنيان صنعاء حتى لم يبق فيها سوى ألف وأربعين داراً ومن المساجد العامرة مائة وستة مساجد واثني عشر حماماً ، بعد أن بلغت في زمن هارون الرشيد الى مائة ألف وعشرين ألف دار كما تقدم ذكره ، وكان ابتداء نقصانها من أول ظهور القرامطة في اليمن ، وذلك بسبب تتابع الفتن ، واختلاف الأيدي عليها في كل زمن ولقد كانت صنعاء وأعمالها كالخرقة الحمراء بين الأيدي وضعف أهلها وانتقلوا الى كل ناحية » [غاية الاماني ج ـ ١ ـ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١] .

وكل ذلك قد مهد لظهور الملك علي بن محمد الصليحي الذي استطاع في وقت قصير أن يبتلع كل تلك الامارات ويوحّد اليمن ويؤسّس « الدولة الصليحية الفاطمية » وبدأت الفترة الثالثة من فترات تقسيمنا لتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ونصيب اليمن منها ، وذلك ما سننتقل إليه بعد ان أتحدث بايجاز عن فرقة الباطنية أو القرامطة في اليمن وأخبارهم وآثارهم وبعد أن اترجم لشعراء الفترة الثانية أو للمشاهير الأفذاذ منهم .

الاسماعيلية أو « القرامطة » في اليمن

منـذ أواخر القرن الثالث الهجري صارت اليمن مسرحاً لجدل وصراع بالـيراع واللسـان ، وأحيانـا بالسيف والسنـان ، بين دعـاة واتباع النحل والمذاهب من معتزلة وأشعرية وشيعة وسنيين واستمر ذلك وظل إلى ما شاء الله . ولقـد كان الجدال والصراع باليراع واللسان والحوار والنقاش يسود ما يدور بين أربـاب وعلماء المـذاهب الاسـلامية المعـروفـة كالأحنـاف ، والحنـابلة ، والمالكية وأتباع الامام الشافعي ، أو الامام زيد بن علي فقد تعـايشـوا مع الحوار والجدل البياني ، واثمرت محاوراتهم علماً جمّاً أخصب التراث الفكري الاسلامي والأدب العربي في اليمن ؛ أما الصراع الدامي المرير فقد نشب بين كل هذه المذاهب الاسلامية المذكورة مجتمعة أو منفردة وبين فرقة « الباطنية » ، وكان أشدّه ما دار في العقد الأخيرمن القرن الثالث والنصف الأول من القـرن الـرابـع الهجـري بين أئمـة « الزيدية » ودعاة « الاسماعيلية » أو « القرامطة » كما يسمّيهم المؤرخون اليمنيون .

ولأني لا أورّخ للمـذاهب والملل والنحـل ، ولأن كتبا كثيرة ، ورسائل جمّة ، قد أُلِّفَتْ وتحدّثت باسهاب وتفصيل عن كل المذاهب الاسلامية وشتى الملل والنحل فقد تحاشيت سرد ما قاله الأولون أو المحدثون عنها قدحاً أو مدحاً ، وهجوماً أو دفاعاً ، أو أن اجعل من نفسي استاذاً أو معلماً يشرح ويحلل ويعلّل ويبيّن الصواب والخطأ فأنا أقلّ من ذلك ؛ ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ! ومن السذاجة ـ ان لم يكن من الخطل ـ أن افترض أن من سيقرؤن هذا البحث لا يعرفون ـ أكثر مني ـ عن أصول المذاهب الاسلامية أو عن فرق الشيعـة والصوفية والخوارج والمعتزلة والاشاعرة ، وأهل السنة والجماعة ، وسائر الملل والنحل ، فأجعل من نفسي استاذا يشرح المعروف ويكرّر أقوال من سبق من المؤرخين والكتاب قديماً وحديثاً وما من فرقة أو فئةٍ من تلك المذاهب والنحل إلاّ وقد ألف فيه العلماء المئات من الكتب والرسائل .

وهـل سآتي بجـديد لو قلت : إن مبـادىء الزيدية هي القول بالعدل والتوحيد ، والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخروج على الظالم ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنهم لا يختلفون مع المعتزلة الاّ في مسائل

منها « الأمـامـة » ، وإنهم أنفسهم ينقسمـون إلى عدّة فرق ويوافقـون « أبـا حنيفـة » في معـظم مسـائلهم الفقهية ؛ بل ويوجبـون على القـادر الاجتهاد ، ومعتمدهم في الفقه وأصوله الموسوعة الكبرى : « البحر الزخّار الجامع لمذاهب علماء الأمصار » . . . للامام أحمد بن يحيى المرتضى ؟

ولـو قلت إن آراء الامـام زيد في أصول الدين والفقه ومن اقتفى اثره لا تختلف كثيراً عن آراء أئمة المذاهب الأربعة ومن تابعهم من علماء أهل السنة والجماعة ، وإنهم ينكرون القول بالتقيّة والمهديّة المستورة ، والرجعة والعصمـة ، والعلم اللّدني ، ويقـولـون بجـواز امامة المفضول مع وجود الأفضل فهل سأقول جديـداً لا يعرفه الكثير؟

ولعـلّي بما سبق ومـا استخلصتـه من أخبار وآثار الامام الهادي وكاتب سيرتـه ، والـطبري ، والهمـداني ، والعياني ، وغـيرهم قد لخصت أهم الأحـداث التـاريخية التي كانت أهم الأسباب والدوافع للتيارات الفكرية والأدبيّة بل والسياسية للفـرقة الزيدية وأتباع الهادي ، غير ان الصورة لن تكون واضحة المعالم كاملة الشكل الاّ إذا تحدثت بايجاز عن « القرامطة » الذين كثر ترداد ذكرهم فيما سبق من أخبار ، والذين دخلوا مع « الزيدية » في صراع دام مرير وحرب إبادة شرسة .

والتزاماً بما ذكرت آنفا فلن أتحدّث عن « الاسماعيلية » وفرقها ومؤسّسيها ودولها في العراق والبحرين والشام والمغرب العربي ، ولن أتحدث ـ وبايجاز أيضـاً ـ الاّ عما يتعلّق باليمن بل وبـالمفـاهيم الخـاصـة بأهـل اليمن عن « القرمطة » ونشأتها .

ولأني لا أحبّ ان أفْتَئت ، وأكـره ان أنقل قدح أيّ فرقة في أخرى ، فسأكتفي بما كتبه العلامة نشوان الحميري المتوفي سنة ٥٧٣هـ في كتابه شرح رسالة الحور العين وسنعلم منه كيف نشأت دولة « القرامطة » في اليمن ، ومـاذا تعني لفظة « القَرْمَطة » عند اليمنيين ، وسنرى انها لا تعني بالنسبة إليهم أتباع حمدان « قرمط » كما يقول « المؤرخون » ، وان كان الاشتقاق اللغوي قد تحدّر تاريخيا من اسم ذلك الثائر المشهور .

يقول نشوان بن سعيد الحميري

« وأول من نشر مذهب الاسماعيلية باليمن الداعي أبو القاسم الحسن ابن فرج ابن حوشب بن زادان الكوفي » [وقد امره الامام المستور يومئذٍ] « أن يقصد اليمن وينزل بعدن لاعة في مغرب اليمن ، فان الله عزّ وجل قسم لليمانية الاّ يتم أمر في هذه الشريعة الاّ بنصرهم ، وأمره أن يدعو الى ابنه عبد الله المهدي » ، « وبعث معه علي بن الفضل الخنفري وكان قد وفد اليه من اليمن فخرجا جميعاً إلى مكة ثم افترقا ؛ فقصد المنصور [الحسن بن فرج] عدن لاعة ، وقصد ابن فضل أرض يافع ، ثم ان المنصور شهر السيف وطلع جبل مسور واستفتحه . وأسر العامل الذي كان فيه للأمير ابراهيم ابن محمد بن يعفر الحوالي ، وبني حصن مسور ونزل به وغلب على تلك الناحية » . [الحور العين ص ١٩٨] .

إلى أن قال « وسار علي بن فضل الخنفري إلى أرض يافع فاشتدت وطأته باليمن . واستولى على أكثر مخاليفه ، وأعلن بالكفر وأحلّ جميع المحرّمات ، وخرّب المساجد ، وكان يدّعي أنه نبي فقال فيه بعض شعراء عصره :

خذي العود يا هذه واضربي ، نقيمُ شرائع هذا النبي
تولّى نبيّ بني هاشم وهذا نبيّ بني يعرب
فحطّ الصلاة وحطّ الزكاة وحط الصيام ، ولم يُتْعِبِ !!

***

وغالب الظن انه كان من الخطابية لأنهم يدعون انهم أنبياء ، وابن فضل أول من سنّ « القرمطة » في اليمن ، والقرمطة عند أهل اليمن عبارة عن « الزندقة » وصاحبها عندهم « قرمطيّ » فجمعه « قرامطة » .
[الحور العين ص ٢٠٠]

ونحن نعلم أن المنصور بن الحسن بن فرج ورفيقه علي بن الفضل قد ظهرا في اليمن عام ٢٦٨هـ /٨٨٢ م قبل ظهور الهادي يحيى بن الحسين باثني عشر عاما . وأخبارهم وأعمالهم مشهورة معروفة في كتب التاريخ .

أقوال وآراء المؤرخين ورواية المعرّي :

وقد اختلفت وتضاربتْ آراء وأقوال المؤرخين القدامى في « منصور اليمن » الحسن بن فرج ـ ويقال إنّه من أولاد عقيل بن أبي طالب ـ ورفيقه

« الـداعي » علي بن الفضـل ، وأحكـامهم عليهـما ؛ فمنهم من يسبّهـما ويكفّرهما معاً ؛ مبدأً وسيرةً وسلوكا ، ومنهم من يميّز ويفرّق بين بداية أمرهما ونهايتـه ، وآخـرون ينـزّهون المنصور فقط ؛ وكلّهم يجمعون على أن علي بن الفضـل قد خرج على « الدعوة الفاطمية » التي قام باسمها ، واستبد بالأمر واستقل به لنفسه ، « وافترى على الله وارتكب المحارم ، ومال إلى الاباحـات ، وباء بلعنة الله ، وان « منصور اليمن » قد ظلّ على ولائه للفـاطميين حتى وفـاتـه ، وهـذا هو رأي رئيس الدعوة الفاطمية في زمنه عماد الدين إدريس بن الحسن القرشي المتوفي سنة ٤٧٢هـ وذكره في كتابه عيون الأخبار .

وأهمّ الكتب التي تحدّثت عن « الـداعيتين » إلى جانب كتب الداعية إدريس والحامدي ؛ السّلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي و « كشف أسرار البـاطنية وأخبـار القـرامـطة تأليف محمد بن مالك الحمادي و « قرّة العيون » لابن الـديبع ، وأنباء الزمن ليحيى بن الحسين إلى كتب أخرى ذكرها الدكتور حسين الهمداني في كتابه « الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن » ولخّص أهم أخبـارهـا ، ونقَـدَهـا بأسلوب علميّ ؛ وهو أحسن ما كتب في موضوعه حتى الآن .

وقد أورد الدكتور حسين الشعر الذي نسبه نشوان الحميري لأحد شعراء عصر « إبن الفضل » ساخراً منه ، ولكنه رواها كما قرأها بتحريف بعض كلماتها مع زيادة بيتين ، فجاءت كما يلي :

خذي الـدُّفَّ يا هذه والـعْـبـي — وغـنّي هزاريـك ، ثم اطـربي
تولّى نبـيّ بني هاشـمٍ — وهـذا نبـيّ بني يعـرب
لكـل نبـيّ مضـى شرعـة — وهــذي شرائـع هذا الـنـبي :
فقـد حط عنـا فروض الـصـلاة . . . وحط الـصـيّـام ، ولم يتـعـب
ولا تطلبـي الـسعي عنـد الصفـا — ولا زورة الـقـبـر في يثـرب

***

وكان البهاء الجندي في كتابه السلوك قد قال ان علي بن الفضل لما دخل مدينة الجند في أول خميس من رجب سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٥م صعد على منبرها وأنشد الأبيات :

« خذي الدفّ يا هذه واضربي » ؛ وجاء بعد بيت :

تولّى نبيّ بني هاشمٍ وجاء نبيّ بني يعرب

قوله :

أحلَّ البنات مع الأمهات ومن فضلِه زاد حَلَّ الصّبي !

وفيها زيادة قوله :

إذا الناس صلّوا فلا تنهضي وإن صوّموا فكلي واشربي
ولا تمنعي نفسك المعزبين من الأقربين ، معٍ الأجنبي
فمن أين حُلّلتِ للأبعدين ، وصرتِ محرمةً للأب ؟
أليس الغِراسُ لمن أسّهُ وسقّاه في الزمن المجدب ؟
وما الخمر الّا كماء السما حلال ؛ فقدّستَ من مذهب !!

***

وقد استبعد الدكتور حسين الهمداني مثل هذه الرواية مما نسب الى « علي بن الفضل » ، وقال : « ولا نتصور أن المجتمع اليمني يقبل رياسة « ابن الفضل » لمدة عشرين سنة بل أكثر ، لو كان ارتكب في أواخر عهده ما نُسبَ إليه من الفواحش طوال هذه المدة ؛ وقد يجوز انه بالغ في يمنيّته ، وتطرّق في قحطانيته حتى تعدّى حدود الاسلام كما فعل أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني بعده بقليل ! فلذلك قيل إنه لما عاد الى « المذيخرة » عاصمة ملكه ، ورأى أنه أضحى سيّد اليمن عمل على التخلّص من جميع المذاهب وقيودها ، فنادى بقطع الحجّ وقال : « حجّوا الى الحَرَف واعتمروا إلى الثلاث » [ص : ٤٣ الصليحيون] .

وهذا دفاعٌ قد يكذّب أنّ علي بن الفضل قد قال الأبيات ولكنه لا ينفي انَّ علي بن الفضل قد مرق عن الاسلام ! بل ويتهم صاحب الاكليل وهو ما سبق أنْ فندناه ؛ ولا ندري لماذا وقع صديقنا الدكتور حسين الهمداني في مثل هذا الخطأ وبدلاً من أن ينزّه صاحبه « القرمطي » ، دنّس صاحبنا « الزيدي » الهمداني ؟

والذي تطمئن نفسي إليه أن الرجل كان داهية . . . وانه قد انحرف وضلّ ومرق ، إذ قد اجمع كل المؤرخين المعاصرين له ومن جاء بعدهم ،

ومن أنصار الدعوة الباطنية وخصومها ، على أن شيئا من ذلك قد كان ؛ ومما يؤيّد هذا الاطمئنان أن أخبار ذلك الانحراف والمروق عن الاسلام كانت قد ذاعت وشاعت وتعدّت حدود اليمن إلى سائر الأقطار العربية والاسلامية وفي وقت مبكّر ، فهذا شاعر الاسلام أبو العلاء المعري المتوفي سنة ٤٤٩هـ يحدثنا عن ابن الفضل أو منصور اليمن في كتابه « رسالة الغفران » فيقول أولا : « والصناديقي في اليمن كانت جيوشه بالمَذيْخِرة ، وسفهنة وخوطب بربّ العزّة وكوتب بها ، فكانت له دار إفاضة يجمع إَليها نساء البلدة كلها ويُدخل الرجال عليهن ليلا . قال من يوثق بخبره دخلت إليها لأنظر فسمعت امرأة تقول : يا بني ! فقال يا أُمة ، نريد نمضي أمر وليّ الله فينا » .

« وكان يقول : إذا فعلتم هذا لم يتميز مال من مال ، ولا ولد من ولد فتكونوا كنفس واحدة ، فغزاه « الحسني » [يريد الامام الهادي أو إبنه] من صنعاء فهزمه ، وتحصّن منه في حصن هناك فأنفذ إليه الحسني طبيباً بمبْضَع مسموم ففصده به فقتله » [ص ٢٢٧ رسالة الغفران طبعة دار صادر] . وهذا هو نصّ ما ورد في رسالة ابن القارح إلى أبي العلاء فلم ينكره ولا اعترض عليه بل ورد في رده ما يلي :

وأما المنسوب الى الصناديق ، فانه يُحسب من الزناديقِ ، وأحسبه الذي كان يعرف بالمنصور ظهر سنة سبعين ومائتين ، وأقام برهة باليمن وفي زمانه كانت القيان تلعب بالدف وتقول :

خذي الدفّ يا هذه والعبي ... وبثّي فضائل هذا النبي
تولّى نبيٌّ بني هاشم ... وقام نبيٌّ بني يعرب !
فما نبتغي السعيَ عند الصفا ، ... ولا زورة القبر في يثرب
إذا القوم صلّوا فلا تنهضي ، ... وإن صوّموا .. فكلي واشربي
ولا تحرمي نفسَكِ المؤمنين ؛ ... من أقربين ومن أجنبي
فكيف حلَلْتِ لذاك الغريب ... وصرتِ محرّمةً للأب ؟
أليس الغراس لمن ربّه ، ... ورواه في عامه المجدب ؟
وما الخمر الاّ كماء السحاب ... طِلقٌ ، فقدّستَ من مذهب !

فعلى معتقد هذه المقالة بَهْلَةُ المبتهلين [ص ٣٠٠ ـ ٣٠١] .

ثم قال في آخر الرسالة : « وما زال اليمن منذ كان معدناً للمتكسّبين بالتديّن ، والمحتالين على السُّحْتِ بالتزيّن ؛ وحدثني من سافر إلى تلك الناحية أن به اليوم جماعة كلّهم يزعم أنه القائم المنتظر فلا يعدم جباية من مال يصل بها إلى خسيس الآمال [ص : ٣٠٣] . وهي تهمةٌ « علائيةٌ » مفجعة تدين اليمنين بما لا يرتضونه ؛ وأمّا خلط « ابن القارح » و« أبي العلاء المعري » بين الاسماء . . فلبعدهما عن اليمن ، واعتمادهما على ما تتناقله الألسن من أخبار ؛ « وما آفة الأخبار إلاّ رواتها » كما قال الشاعر ، ولكن ما ورد في رسالة « المعري » وليس له أي غرض مذهبي ، أو هوى طائفي ، يؤكد ما قاله المؤرخون عن صاحب « المذيْخرة » وهو علي بن الفضل الذي ملك في نفس المدة التي حدّدتها « رسالة الغفَران » .

وأما ما يحاوله بعض أدباء اليمن المعاصرين في قرننا الخامس عشر الهجري ، من تحميل « ابن الفضل » مفاهيم « اشتراكية » و« ماركسية » وأفكار اقتصادية ، واجتماعية ، لم تنشأ الاّ بعد الثورة الصناعية الأوروبية فهو ضربٌ من تخرّصات الظنون ، وتوجّسات الخيال ، ولا نستطيع ان نقيم له وزناً أدبياً أو تاريخياً وليس جديراً بحوار أو نقاش .

نهاية آل « فضل » وقسوة « السلطان الحوالي » ؟

قد يتساءل البعض : لماذا نشب الصراع الدامي بين « الزيدية » و« الاسماعيلية » في اليمن وكلاهما فرقة شيعية تهدف إلى إقامة دولة تدين بالولاء لأبناء علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ؟ وسوف تتلاشى ظلال هذا التساؤل في ذهن من قد يخْطر بباله إذا لم يظلّ أسير الاتهامات التي كالها للزيدية خصومهم من الفقهاء والسياسيين ؛ ومن ينبزونهم بمفهوم لفظة « التشيّع » الباطني القرمطي ؛ وليس بمفهومه اللغوي الذي كان يعرفه « عمار بن ياسر » وأمثاله من صحابة الرسول ﷺ ؛ والذي عبّر عنه « الامام الشافعي » مجادلاً ساخراً فقال :

إن كان « رفضاً » حُبَّ آلِ محمدٍ — فليشهدِ الثقلان أنّي رافضي !

وإذا رجع إلى كتبهم . . ومنها سيعرف ان « الزيدية » أصلاً لم تنشأ ، ولم تقُمْ على أسس عنصرية ، ولا لأسباب عرقية ، وأن « زيد بن علي » وإن كان يقدم جدّه الامام عليّاً ويفضّله على غيره من الصحابة ، لم يتقول على

الخلفاء الراشدين ، وكان يقول بأمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وخسر معركته العسكرية والسياسية حين أبى التبرّأ من الصدّيقين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما لما طلب منه الغلاة أن يفعل ذلك لكي يقاتلوا ويحاربوا معه ، ولما خذلوه ورفضوه قال « اذهبوا فأنتمُ الرافضة » ،! وانّ أتباعه مثل أهل السنة والجماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويدعون للعمل بما أنزل الله وسنة رسوله ، ولا يقولون ان في « القرآن » باطناً لا يعرفه الاّ « المعصومون » ويؤلون الأسماء والمسمّيات ويحرّفون الكلم ، وينتظرون المستور أو الغائب في السرداب عند عَسَلِهِ ومائه ! وعلى هذه الأسس حاربوا « إبن الفضل » القحطاني ، ومنصور اليمن الهاشمي وغيرهما من الظلمة أو المارقين ، وما أظنّهم قد أقرّوا القسوة التي عامل بها الملك الحوالي أسعد بن أبي يعفر عائلة « ابن الفضل » وأولاده وأتباعه بعد موته أو اغتياله ، ولا يقرّون ما صنعه بهم من تقتيل وسبيْ وقد لخّص ذلك العلاّمة « نشوان الحميري » فقال :

« فلما مات علي بن فضل قام ابنه بالمذيخرة من بعده ، وفرّق الأموال في أصحابه فخرج الأمير أسعد بن أبي يعفر الحوالي من صنعاء في رجب سنة ٣٠٣هـ ومعه قواد اليمن فلم يزل يحارب القرامطة حتى استفتح بلدانهم ودخل المذيخرة في جمادي الأولى سنة ٣٠٤هـ [أربع وثلاثمائة] فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه وظفر بهم في رجب من هذه السنة فقتل منهم خلقاً كثيرا ، وأخذ أموالاً عظيمة يقصر عنها الوصف ، وسبى نساء إبن فضل فوهب بنته لابن أخيه قحطان ابن عبد الله بن أبي يعفر فولدت له عبد الله بن قحطان أمير اليمن ؛ وبيع من القرامطة ناس كثير، وأخذ ولدين لعلي بن فضل ، وجماعة من رؤساء القرامطة ، معه إلى صنعاء ، وأمر بهم فذبحوا جميعاً ، وطرحت أبدانهم في بئر في الجبانة ، وأخذت رؤوسهم فبقرت ووجّه بها في أربعة صناديق إلى مكة فنصبت هنالك أيام الموسم » [رسالة الحور العين ص ٢٠٠] .

ومن يريد أن يعرف المزيد عن أخبار وآداب وآثار القرامطة في اليمن فليراجع كتاب البحاثة « الفاطمي » رأياً ، « اليمني » أصلا ، « الهندي » مولدا ، « المصري داراً وموتا ، صديقنا الدكتور حسين بن فيض الله الهمداني واسمه : « الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن » من سنة

٢٦٨هـ إلى سنة ٦٣٦هـ وقد جمع فيه من الفوائد ما لا يجده الطّالب في غيره ؛ وباسلوب علميّ رصين يدافع عما يراه ويهواه ، ولكنه لا يزيغ ولا يطغي ، ويجادل بالحجة والرأي دونما افتئات ولا اضطغان ؛ وتلك لعمري طريقة من يفقهون .

نهاية منصور اليمن وأسرته ودعوته :

لم يتنكر منصور اليمن الحسن بن فرج لأئمته العُبَيْديّين كما فعل ابن الفضل الذي ظلّ يخادع رفيقه ويقول له « انما أنا سيف من أسيافك » والمنصور يهابه ويخافه على نفسه ، غير ان الصراع ما لبث أن نشب بين الداعيتين . إذ أن ابن الفضل لما تمكّن واعرب عن مطامحه وعما يجيش في صدره ، وأراد ان يكوّن دولة يمنيةً مستقلّة عن « العبيديين » يكون هو سيدها حاول المنصور أن يردّه عن رغبته وذكّره بالعهود والمواثيق لكن ابن الفضل تمادى وأجاب عليه قائلاً : « ان لي بأبي سعيد الجنَّابي أسوة ، وأنت ان لم تنزل اليّ وتدخل في طاعتي نابذتك الحرب » ؛ وقال في خطاب آخر : « انّما هذه الدنيا شاة من ظفر بها افترسها » واشتعلت الحرب بين الداعيتين سنة ٢٩٩هـ كما هو مفصل في كتب التاريخ .

وما لبث الرجلان أن ماتا ـ وفي عام واحد ـ وقد ذكرنا نهاية ابن الفضل وأسرته وأتباعه كما لخصها نشوان الحميري ولم يكن آل « المنصور » أسعد حظاً من اسرة آل « الفضل » اذ ان « المنصور » قد أوصى بالولاية من بعده الى ابنه الحسن وخصّيصه عبد الله الشاوري وقال في وصيّته « قد أوصيتكما بمبدأ الأمر فاحفظاه ، ولا تقطعا دعوة بني عبيد بن ميمون فنحن غرسٌ من غروسهم ، ولولا ناموسهم وما دعونا به إليهم ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه ولا تم لنا في الرياسة حال » الخ . ولكن الرجلين ما لبثا ان اختلفا وخرج الحسن بن منصور عن « الدعوة الفاطمية » وحاول أخوه جعفر بن المنصور ان ينصحه فلم يصغ إليه وكان مما قاله له : « ان أمرنا إذن يتلاشى ، ويزول ملكنا ، وتفترق الدعوة ، ويذهب الناموس الذي نَمسْنَاه على الناس فلا تحدّث نفسك بهلاكه فتهلك » ! فلم يلتفت الحسن إلى قول أخيه وكتم السر حتى دخل على الشاوري في بعض الغفلات فقتله ، واستولى على السلطة ، ولم يكتف بذلك بل اعلن خروجه على دعوة أبيه ومذهبه ورجوعه إلى مذهب أهل السنة والجماعة وتتبّع أنصار أبيه واتباع

المذهب الباطني ، فأباد معظمهم وفرّ أخوه جعفر إلى المغرب فوجد المهدي قد توفى وقام بعده ابنه القائم فبلغ عنده مبلغاً عظيماً من التقدير والمكانة ويقول الدكتور الهمداني أن جعفر بن المنصور هذا كان حبراً تقياً وهو من المنظّرين « الباطنيين » ، وذكر له عدة كتب منها : كتاب الشواهد والبيان ، وسرائر النطقاء وتأويل الزكاة ، وكتاب الكشف ، وكتاب الفترات والقرانات ورسائل في تأويل سيرة النساء ، وكتاب المراتب والمحيط ، ورسالة في معنى الاسم الأعظم ، ورسالة الرضاع في الباطن [راجع كتاب الصليحون : ٤٣ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ وص ٢٥٦ - ٢٥٧] .

وقد لخص مصير المنصور ودعوته وأسرته المؤرخ يحيى بن الحسين في غاية الاماني فقال : « ودخلت سنة ٣٣٦هـ فيها خرج حسن بن المنصور صاحب مسور إلى محل يعرف بعين محرم واستخلف على مسور ابراهيم بن عبد الحميد ولما وصل الى المحل المذكور وثب عليه نائبه فيها وهو رجل يعرف بابن العرجاء فقتله واستولى على ما تحت يده ، وبلغ الخبر ابراهيم بن عبد الحميد فثبت في مسور وادعى الأمر لنفسه وأخرج أولاد المنصور وحريمهم إلى بني عَشب فوثب الناس عليهم فقتلوهم عن آخرهم وسبوا حريمهم واصطلح ابن العرجاء وابن عبد الحميد واقتسما البلاد واعتنق ابراهيم بن عبد الحميد مذهب أهل السنة وخطب للخليفة العباسي ، وتتبع القرامطة قتلاً واسراً ، وقام بعده ولده المنتاب ، وكتب إلى المعز العبيدي يستمد منه الولاية ، ولما حضرته الوفاة استخلف يوسف بن أحمد بن الاشج فقام بالدعوة ولما حضرته الوفاة استخلف سليمان الزواحي ودعا إلى الحاكم والظاهر وكان كثير المال والجاه فاستمال الناس واعتزى الى العبيديين وكان كلّما همّ به المسلمون دافعهم بالحيل وقال : « أنا رجل مسلم أشهد ان لا إله الاّ الله فيكفوا عنه ؛ وكان كريم النفس واسع العطاء فلما حضرته الوفاة استخلف على الدعوة علي بن محمد الصليحي وأوصى له بكتبه وأمواله » [ص : ٢٢٠ غاية الأماني ج - ١ وص : ٥٨ الصليحيون] .

محاولة ضدّ حركة التاريخ

لقد حاول قوم أن يغيّروا سنة الله ، وأن يقفوا في وجه حركة التاريخ التي كانت متجهة في قوّة لتكتسح كل تلك القوى المبعثرة من المشيخات

وسلطنات الموالي والعبيد ، ومناوشات « الرسّين » و« العِيانيين » وتمهد الطريق أمام قوّة جديدة .

وهؤلاء الذين أرادوا ان يغيروا من السّنن الآلهية وحركة التاريخ ما لا يمكن تغييره ، بعد أن فكروا وقدّروا بنفس العقول والأهواء والأطماع ، ظنوا ان إماماً جديداً ليس من أحفاد « الهادي » ، ولا من أولاد « العياني » إذا استقدموه من خارج اليمن فقد تُحَلُّ به المشاكل ، ويجمع الناس على مبايعته ، ويعود الاستقرار إلى ربوع اليمن فاستقدموا أولاً الامام المعيد لدين الله الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم من الحجاز وبايعوه في « ناعط » من بلاد خولان شمال شرق صنعاء سنة ٤١٨هـ وقد دخل « صنعاء » في نفس العام وبايعه سلاطين ابن أبي الفتوح ، وابن أبي حاشد ثم خرج من « صنعاء » إلى « ذمار » وسرعان ما فسد ما بين الامام « المعيد لدين الله » وما بين السلاطين ومالوا عنه الى موالات مرجان الحبشي سلطان تهامة ونشبت عدة معارك حتى احتل الامام « صنعاء » من جديد سنة ٤٢٦هـ ولكن شريفاً آخر اسمه الحسين بن مروان عارضه وخرج من صنعاء وتحالف مع همدان وعاهده أبناؤها على الطاعة واحتل صنعاء في المحرّم سنة ٤٣٣هـ ولكنه غادرها إلى « ناعط » حيث توفي في نفس العام .

هذا ما ذكره المؤرخ زبارة في السفر الأول من « أئمة اليمن » ص - ٨٦ - أما العلامة حميد المحلّي فقد ترجمه في « الحدائق الوردية » وقال : « كان من عيون العترة النبوية » وانه « ادعى الامامة في سنة ست وعشرين وأربعمائة » ، ثم أورد له رسالة طويلة في تسع صفحات تحدّث في آخرها عن السياسة فقال :

« إن السياسات أربع ؛ فسياسة تلزم الخاصة والعامة ظاهرة وباطنة ، سافرة وكامنة ، وهي سياسة الأنبياء الصديقين صلوات الله عليهم أجمعين وسياسة أئمة الحق والسياسة الثانية تلزم الخاصة والعامة ظاهرة لا باطنة وقولا لا نية وهي سياسة الملوك المتغلبين ؛ فان السلطان الجائر إذا ظهر شخصه قالوا : قد جاء . . لا جاء ، فاذا توسطهم قالوا : خلّد الله ملكك وحرس عزك وسلطانك ، فاذا فارقهم قالوا : مضى لا ردّه الله وتمنّوا ان يكون آخر عهدهم به ، والسياسة الثالثة تلزم الخاصة ظاهرة وباطنة دون العامة وهي

سياسة الحكمة والعلوم الاستنباطية ، والآراء النظرية والاجتهادية ولا حظ للعامة فيها لأنها تدق عن افهامهم ، والسياسة الرابعة : سياسة الوعاظ للعامة وأصحاب الاقاصيص والكراسي فان سياستهم تملك العامة ظاهرة وباطنة دون الخاصة ؛ الا ترى الى بكائهم بعيونهم وخشوعهم بقلوبهم » وهي طويلة مفيدة [ص ٩٠ ـ ٩٩ الحدائق] .

وبعد وفاة « المعيد لدين الله » ورد إلى اليمن من « الديلم » الامام الناصر أبو الفتح الديلمي وهو الحسين بن محمد بن عيسى من ذرية زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد ولد ونشأ في بلاد « الديلم » وادعى الامامة هناك سنة ٤٣٠هـ ثم وصل إلى « صعدة » سنة ٤٣٧هـ ولا بد ان ذلك بعد مراسلة بينه وبين بعض علمائها ومشايخها وقد ترجمه المحلّي في الحدائق الوردية وقال : « كان غزير العلم وافر الفهم له التصانيف التي تكشف عن علو منزلته وارتفاع درجته منها تفسير القرآن الكريم جمع فيه أنواع المحاسن وهو أربعة أجزاء ، ومنها كتاب الرسالة المبهجة في الرد على الفرقة الضالة المتلجلجة يعنى « المطرفية » ثم أورد كتاب دعوته ثم قال : واستشهد في نيف وأربعين وأربعمائة وقبره بردمان من بلاد عنس [ص ٩٩ ـ ١٠٤ ج ـ ٢ ـ الحدائق] .

وأما المؤرخ محمد زبارة فقد أورد قطعة من كتاب دعوته وفيها الأبيات التالية :

ألا ياالهمدان ابن زيد تعاونوا	على نصرنا فالدين سرب مضيّع
ونادوا « بكيلاً » ثم وادعة التي	لها المشهد المشهور ساعة تجمع
ولا بد من يوم يكون قتامه	بوقع القنا والمشرفية أدرع
سينقاد لي من كان بالأمس عاصياً	ويقرب مني النازح المتمنّع
أنا الناصر المنصور والملك الذي	تراه طوال الدهر لا يتضعضع
سنملأ دنيانا من العدل بعدما	مضت حقبا بالظلم والجور ترتع

***

وذكر بعض حروبه ودخوله صنعاء ثم استطرد قيام علي محمد الصليحي من جبل مسار في جمادى الآخرة سنة ٤٣٩هـ /١٠٤٨ م والمعارك التي دارت

بين أنصار الامام الديلمي وجند « الصليحي » وانه في سنة ٤٤٤هـ قد قصد الامام إلى عنس فقتله في نيف وسبعين رجلاً من أصحابه ثم قال ان « الزحيف » قال في شرحه للبسامة ان استشهاده في سنة ٤٤٦هـ وبه انطوت آخر صفحة من تاريخ آداب الفترة التي نتحدث عنها وبدأت الفترة الصليحية .

عُقْدَة ذي يزن

يذكّرني لجوء اليمنيين للامامين « المعيد لدين الله الحجازي » والامام « الديلمي » بحديث سمعته من الاستاذ محمد أحمد نعمان وربما انه قد نشر ذلك في أحد كتبه ولا أتذكر اسمه الآن وفيه يقول ان اليمنيين مصابون بعقدة « ذي يزن » وهو لجؤهم عند أن تتأزم الأمور الى الاستعانة بالأجانب ـ على حد تعبيره ـ منذ ذهب سيف ابن ذي يزن إلى فارس مستعينا بهم ضد الأحباش مروراً بابن عبّاد ، فالى أن ذهب الوفد الوزاري إلى القاهرة أيام الرئيس جمال عبد الناصر وهناك أمثال ونظائر لمن أراد تتبعها في تاريخ اليمن ؛ وهي نظرةٌ قوميّة بحتة !

ويقول الحبشي ان البرهان في تفسير غريب القرآن للامام الديلمي توجد منه نسخة بمكتبة الجامع بصنعاء وكذلك كتابه العهد الأكيد في تفسير القرآن المجيد .

وانظر « أئمة اليمن جـ ١ ص ٩٠ ـ ٩٣ » .

علماء التفسير والحديث
سجل يمني مجيد في خدمة القرآن والسنة

سبق القول في مطلع الكتاب وأثنائه ان علماء اليمن كانوا من أكثر علماء المسلمين اعتناءً بخدمة القرآن الكريم والسنة النبويّة ، وأنهم كانوا السبّاقين إلى ذلك منذ فجر الاسلام ، وكان « التابعون » منهم شيوخاً لمن جاء بعدهم من علماء وفقهاء التفسير والحديث ؛ بل ان التفسير القصصي كان واضعوه ، وأساتذته من اليمن مثل كعب الأحبار الذي أسلم زمن الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ووهب بن منبّه الأبناوي الذي قالوا انه قرأ نحو سبعين كتاباً سماوياً ، وتوفي سنة ١٢٦هـ /٧٤٤هـ وكان حبرا لأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنه يسميه « عالم الدنيا » ؛ ثم جاء معمر بن راشد الأزدي المتوفي سنة ١٥٣هـ ويعدّه المؤرخون في طليعة المفسرين والمحدثين بل وصاحب أول محاولة في كتابة « التفسير » ، معتمداً على أحاديث الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، دونما إلتفات إلى « الاقاصيص » و« الاسرائيليات » . ثم تلاه تلميذه الامام عبد الرزّاق الصنعاني صاحب « المصنف » المسند المشهور وهو يضم أكثر من عشرين ألف حديث وتوفي عام ٢١١هـ ، وتتابع بعده العلماء والأئمة الذين سبق ذكر بعض اعلامهم واسماء مؤلفاتهم في التفسير وعلوم القرآن ، والسنة النبوية ، ولعلّه من المفيد أن أسجّل في جدولٍ زمني أسماء مؤلّفات أولئك الاعلام في علوم القرآن والحديث منذ البداية وحتى فترتنا التي نتحدث عنها .

فمن ما يتصل بالقرآن الكريم وتفسيره وعلومه ما يلي :

١ ـ كتاب « الاسرائيليات » لوهب بن منبّه ذكره « بروكلمان » في تاريخ الأدب العربي ج ـ ١ ـ ص : ٢٥٢ وقال ان ابن قتيبة نقل منه كثيراً في عيون الأخبار ، والغزالي في الأحياء .

٢ ـ زبور داود . ترجمَهُ وهب بن منبّه ؛ ذكره ابن خير الله في فهرسته ص ٢٩٤ ونقل عنه الغزالي في الاحياء ج ـ ٣ ـ ص : ١٣٩ .

٣ ـ قصص الأنبياء لوهب أيضاً وهو مخطوط بمكتبة الاسكندرية تاريخ : ٩٨ ـ وقال « بروكلمان » وعلى هذا الكتاب تعتمد الآثار المجموعة في أوراق من البردي بمكتبة « هايدلبرج » ص : ٢٥٢ بروكلمان .

٤ ـ الزهر الأنيق في قصة يوسف الصديق يقول « بروكلمان » : إنّ ابن السراج نقل حكايتين عنه في « مصارع العشاق » ص ١١٣ . ويقول السيد الحبشي ان نسخة منه توجد في جامعة الرياض « مصورة » رقم ١٣ مجاميع .

٥ ـ تفسير القرآن تأليف معمر بن راشد المتوفي سنة ١٥٣هـ ومنه مخطوطة بمكتبة انقرة « صائب » : ٤٢١٦ ، وقد نقل معظمه « الطبري » في تفسيره .

٦ ـ كتاب « التفسير » تأليف محمد بن موسى الثقفي الصنعاني المتوفي سنة ١٩٠هـ ومنه نسخة في « امبروزيانا » ٨٤٧ وأخرى بمكتبة محمود بالمدينة المنورة برقم ٥٧ .

٧ ـ « التفسير » للامام عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفي سنة ٢١١ ومنه نسخة بدار الكتب المصرية : ٢٤٢ ـ تفسير .

٨ ـ الناسخ والمنسوخ مؤلفه صاحب الزعفرانة ؛ شقيق الامام الهادي يحيى بن الحسين واسمه عبد الله بن الحسين بن القاسم [توفي أواخر القرن الثالث] ، ومنه نسخة في مكتبة برلين : ١٠٢٢٦ وأخرى في « الامبروزيانا » وثالثة في مكتبة جامع صنعاء . برقم ١٢٠ مجاميع .

٩ ـ تفسير القرآن الكريم ؛ تأليف الامام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي [ت ٢٩٨هـ] ذكره أبو علامة في كتابه « نفحة العنبر » وأنه في ستة أجزاء .

١٠ ـ تفسير القرآن الكريم ؛ للامام الهادي أيضاً من سورة « المنافقون » إلى سورة « النبأ » ومنه نسخة بمكتبة « الامبروزيانا » برقم ٥٣٣٤ .

١١ ـ تفسير القرآن الكريم للهادي مما نقله عنه عبد الله الشرفي في كتابه « المصابيح » ومنه نسخة بمكتبة الجامع بصنعاء ٥١٨ تفسير وأخرى برقم ٥١٩ .

١٢ ـ تفسير آية « الكرسي » نسخة بمكتبة الجامع وأخرى بمكتبة الامام يحيى رقم ٦٧ للهادي .

١٣ ـ الرد على من زعم أن القرآن ذهب بعضه للهادي أيضا بمكتبة الجامع الكبير .

١٤ ـ تفسير القرآن تأليف الامام المرتضي محمد بن الهادي [ت ٣١٠هـ] ذكره المؤرخ السيد محمد زبارة في « أئمة اليمن » ج ـ ١ ـ ص ٥٢ ـ وقال انه في سبعة أجزاء .

١٥ ـ كتاب « علوم القرآن » للامام الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين [ت ٣٢٥هـ] ذكره العلامة السيد مجد الدين المؤيدي في كتابه التحف ص : ٧٨ .

١٦ ـ كتاب « الادلة من القرآن على توحيد الله » للامام القاسم بن علي العياني المتوفي سنة ٣٩٣هـ . ذكره « المؤيّدي » في « التحف شرح الزلف » ص : ٨١ .

١٧ ـ تفسير الغريب من كتاب الله للامام الحسين بن القاسم العياني المتوفي سنة ٤٠٤هـ وتوجد منه نسخة مخطوطة سنة ١٠٥٩هـ في ٢٠٢ ورقة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ؛ رقم ٢٦٤ تفسير ، وأخرى في مكتبة برلين رقم ١٠٢٢٨ .

١٨ ـ البرهان في تفسير غريب القرآن تأليف الامام أبو الفتح الديلمي [ت ٤٤٤هـ] منه نسخة في ٢٣٠ ورقة كتبت سنة ١٠٤٦هـ بمكتبة الجامع بصنعاء رقم ٨١ ـ علم التفسير ، وأخرى برقم ٢٤٧ .

١٩ ـ العهد الأكيد في تفسير القرآن المجيد للامام الديلمي أيضاً منه نسخة كتبت عام ٩٣٦هـ في ٣٦٠ ورقة بمكتبة الجامع الغربية .

تلك هي أهم وأشهر كتب التفسير في تاريخ اليمن الأدبي منذ بداية الفترة العباسية الأولى سنة ١٣٢هـ وحتى ظهور الصليحي .

السنة النبوية وعلم « الحديث »

أما في علوم « السنة النبوية » و « حديث » الرسول ﷺ ؛ فلم تَقِل عنايةُ علماء اليمن بها عن عنايتهم بالقرآن الكريم وعلومه اللغوية والبيانية ، وكانوا من السباقين إلى تدوين أحاديث الرسول ﷺ ، وتأليفها ، وجمعها ، وكانوا من العلم بها ، والحفظ لشواردها ، والاتقان لها ؛ روايةً ودرايةً بمكانةٍ شريفة ، استحقوا بها ان يرحل إليهم أئمة الاسلام في بغداد والحجاز والشام أمثال الامام محمد بن ادريس الشافعي القائل : « لا بد من صنعاء وإن طال السفر » ! والامام أحمد بن حنبل والحافظ يحيى بن معين وغيرهم .

وقد سبق القول أن أول من صنّف في علم الحديث ابن جريج في مكّة ، ومعمر بن راشد في اليمن ، ويقال ان همام بن منبّه سبقهما عندما عني بتدوين روايته عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ويذهب بعض الباحثين إلى ان مؤلّفه أول مصنف في علم الحديث .

١ - والتابعي المشهور همام بن منبه هو أخو وهب بن منبه ، وقد صحب الصحابي أبا هريرة وأخذ عنه نحو مائة وأربعين حديثاً ، وسميّ ما جمعه من أحاديث عنه « الصحيفة الصحيحة » ، ويوجد منها نسخة بمكتبة برلين ، وأخرى بالظاهرية ، ووردت كاملةً في مسند الامام أحمد بن حنبل ، وقد نشرها العلامة محمد حميد الله في مجلة المجمع العلمي العربي ج ٢٨ - ص : ٩٦ - ١١١ ، سنة ١٩٥٣ م وتوفي سنة ١٣٢هـ .

٢ - وجاء بعده معمر بن راشد وقد سبق ذكره بين المفسّرين [ت ١٥٣هـ] وله كتاب « الجامع في السنن » قال ابن سمرة : « تفقّه وسمع من همام بن منبه اليمني ، والزهري ، و[كان من تلاميذه هشام بن يوسف قاضي صنعاء] ، وأخذ عنه عبد الرزّاق فقيه اليمن وله الجامع المشهور في السنن وهو من الكتب القديمة ؛ وهو أقدم من « الموطأ » ص : ٦٦ - طبقات فقهاء اليمن . وتوفي في شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائة ؛ وروي عن عبد الرزاق ان معمر كان يقول : « من كسب مالاً حلالاً وأراد ان يهنيه العيش فليأكله بصنعاء » ! .

٣ ـ ومن الفقهاء المحدّثين أبو قرة موسى بن طارق الزبيدي اللحجي وكان حافظاً فقيهاً ، وقال العلامة ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب ج ١٠ : ٣٤٩ : « صنّف كتاب السنن رتّبه على الأبواب ، رأيته ، ولا يقول في حديثه ، حدثنا ، إنّما يقول : ذكر فلان ، وقد سئل الدار قطني عن ذلك فقال : كانتْ أصابت كتبه علّة فتورّع أن يصرح بالأخبار » ؛ وقال ـ ابن سمرة : وله تواليف في الفقه انتزعها من فقه مالك وأبي حنيفة ومعمر ، وابن جريج ، وسفيان الثوري وابن عيينه ، لأنه لقيهم جميعاً وروى عنهم ، وأدرك القارىء « نافع » بن أبي نعيم المدني أحد السبعة القراء رضى الله عنهم فقرأ عليه باختيار له في القراءة ، وكان أبو قرّة اماماً مشهوراً بالفضل يتردّد بين الجند ولحج وعدن ومكة وزبيد « في كل واحدة من هذه البلاد له رواة وأصحاب » ص ٦٩ ـ طبقات الفقهاء وتوفي سنة ٢٠٣هـ .

٤ ـ وأما الامام عبد الرزاق بن همام الصنعاني فقد سبق الكلام عنه بين مؤلّفي الفترة الأولى و « نقلنا ما رواه ابن خلكان عن السمعاني وهو قوله : « ما رحل الناس إلى أحد بعد رسول الله ﷺ مثلما رحلوا إلى عبد الرزّاق » ثم ذكرناه بين « المفسّرين » ، وموسوعته الضخمة « المصنف » طبعت في أحد عشر مجلداً سنة ١٣٩٢هـ وتوفي الامام عبد الرزاق سنة ٢١٢هـ .

٥ ـ وأما أبو هاشم عبد الملك بن عبد الرحمن الذماري فقد أخذ عن الثوري ، وأخذ عنه ابن حنبل والبخاري وابن معين ، وقد ترجمه يحيى بن الحسين في المستطاب [ورقة : ١٤] فقال : « عبد الملك بن عبد الرحمن الأبناوي « صاحب المسند » قاضي ابراهيم بن موسى بن جعفر بصنعاء داعى الامام محمد بن ابراهيم باليمن قتله « ابن ماهان » من قبل المأمون نُقِلَ إليه ان عبد الملك يكرهه ويميل إلى ابراهيم بن موسى الطالبي فقتله يوم الجمعة في شهر رمضان سنة ست وخمسين ومائتين وبقي مطروحاً ثلاثة أيام على وجه الأرض ثم قبر رحمه الله ؛ أخذ عنه أحمد وسأله عن بلد « طاووس » فقال الجند وروى عنه النسائي وأبو داود ، هكذا في مخطوطة « المستطاب » سنة ٢٥٦هـ ! ولا شك ان هناك تصحيف ـ ان لم يكن المؤلف قد وهم ـ فأمر

« ابن ماهان » بعد عصيانه وتمرّده على « المأمون » قد انتهى أمره عام ٢٠٥هـ على يد عامل المأمون الجديد عيسى الجلودي ؛ أو أن ثمة خطأ كتابي ؛ في تحديد تاريخ القاضي عبدالملك الذماري ونحن نعلم ان ابـراهيم الجـزّار داعية الامام محمد بن ابراهيم في اليمن ثار بها سنة ٢٠٠هـ فلعل صواب العبارة هكذا شهر رمضان سنة ٢٠٥هـ أو قبل ذلك .

٦ ـ قاضي عدن محمد بن يحيى بن أبي عمرو العدني ترجمه « ابن سمرة في طبقات فقهاء اليمن فقال : « كان من جلّة الحفاظ وأكابر العلماء سمع منـه الامـامـان الحافظان مسلم بن الحجّاج النيسابوري ـ في الجامع الصحيح ، وأبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي في جامعه الصحيح والمعلول ، وأخذ عن سفيان بن عيينه الهلالي ووكيع وغيرهم وروى عنه الترمذي انه قال : « حججت ستين حجّة ماشياً على قدمي » وكان في المائة الثالثة بعد ظهور القرامطة » [ص : ـ ٧٢ الطبقات]

ولـه ترجمة في تهذيب التهذيب ٩ : ٥١٨ « السلوك : ٣٥ » وثغر عدن ٣ : ٢٣٠ وذكر أن وفاته سنة ٣٢٠هـ .

ويوجد من مسنده في الحديث قسم في المكتبة الظاهرية : ١٠٤ [الحبشي ص : ٤٠] .

الفقه والفرائض

سبق أن أشـدنـا بتعـدّد جوانب النبوغ في بعض الشخصيات العلمية والأدبية ؛ وليس ذلـك من خصوصيات أبناء اليمن بل هي مواهب إلهية يرزق بها من يشاء من أبناء البشر وفي كل زمان ومكان .

١ ـ الهادي :

وأكبر فقهاء اليمن في « العصر العباسي » الذي نتحدّث عن آدابه هو الامام الهادي يحيى بن الحسين الذي سبقت ترجمته في مطلع الفترة الثانية وله في « الفقه » أصولا وفروعاً ـ عدة كتب ورسائل كانت وظلت وما تزال مرجع فقهاء « الزيدية » ومنها :

١ ـ جامع الأحكام في الحلال والحرام بدأ تأليفه بالمدينة المنورة ، وقد قام بجمعه وتبويبه على بن حسن بن أبي حريصة ، وعليه شرح للعلامة أحمد بن ابراهيم الشرفي ، ومنه عدّة مخطوطات في مكتبة الجامع الكبير ، كما توجد منه عدة نسخ بمكتبات ميونخ ، والفاتيكان ، وفينا ، والامبروزيانا ، وانظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ج ٣ ص ٣٢٨ .

٢ ـ امهات الأولاد ، جواب على سؤال محمد بن سعيد ، ومنه نسخة كتبت سنة ٤٠١هـ بمكتبة الجامع وبرقم ٥٨ .

٣ ـ كتاب « الرضاع » ومنه نسخة في المتحف البريطاني [مصادر العمري ص : ١٣٨] .

٤ ـ كتاب « الفنون في أبواب من العلم والفقه » منه نسخة في المتحف البريطاني [مصادر ص : ١٣٨] .

٥ ـ المنتخب في الفقه [مصادر العمري ص : ١٣٩] .

ولمعرفة بقية مؤلفات الهادي انظر « بروكلمان ج ٣ ص : ٣٢٧ ـ ٣٣٠ » والحبشي في كتابه « حكام اليمن المؤلفون » ص : ٢١ ـ ٤٥ ـ ومصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني للدكتور حسين العمري ص : ١٣٣ ـ ١٤٠ .

٢ ـ المرتضى :

وللامام المرتضي ابن الهادي عدة كتب ورسائل في الفقه منها :

١ ـ كتاب « الايضاح في الفقه » .

٢ ـ كتاب « الرضاع » .

٣ ـ كتاب « المناهي » .

٤ ـ مسائل الطبريين .

٥ ـ مسائل البيوع .

وغير ذلك وانظر التفاصيل في أئمة اليمن للعلامة زبارة ج ١ ص : ٥٢ ـ ٥٩ ـ و« حكام اليمن للبحاثة عبد الله الحبشي ٤٦ ـ ٥٤ » و« مصادر العمري ص : ١٤١ » .

٣ ـ ابن سراقة العامري
[ت ٤١٠هـ]

وقد اشتهر في الفترة الثانية التي نتحدث عنها عدّة فقهاء منهم العلامة أبوعبد الله محمد بن يحيى العامري المتوفي سنة ٤١٠هـ وقد تلقى العلم بالبصرة ومن أساتذته في بغداد العلامة الاسفراييني وبعد عودته من العراق استقر في ناحية « المعافر » ، وله كتاب « ما لا يسع المكلف جهله » [الحبشي ص : ١٧٠] وقد ترجمه « ابن سمرة في طبقاته » ص ـ ٨٤ ـ وقال « وقد سكن إبنُ سراقة المعافر بعد خروجه من العراق ومن مكة ، وكان بينه وبين المراغي منافرة » . . وقد كان « ابن سراقة » أيضاً فرضياً لأنه تفقه بالبصرة بأبي الحسين بن اللبّان الفرضي المشهور [ت : ٤٠٢هـ] ، وكان وحيد عصرة في علم الفرائض وقسمة التركات وكان يقول : « ليس في الأرض فرضي الّا من أصحابي أو أصحاب أصحابي ، أو لا يحسن شيئا » ، وكان إماماً في الفقه والفرائض صنّف فيها كتبا كثيرة ليس لأحد مثلها كما يقول « ابن سمرة » .

٤ ـ ابن مُلامِس
[ت ٤٢٠هـ]

وأبو الفتح يحيى بن عيسى بن ملامس ترجمه « ابن سمرة » فقال : « الامام أبو الفتح فانه تفقّه بجماعة منهم الامام الحسين بن جعفر المراغي ، والامام محمد بن يحيى بن سُراقة ، ثم ارتحل إلى مكة وجاور فيها وشرح « المختصر للمزني » شرحه المشهور له في اليمن ، وذكر في أوله : « انه شرحه بمكة المشرفة ، في أربع سنين مقابلاً للكعبة الشريفة . [ولخّصه] من كتب القاضي أبي علي بن أبي هريرة ، وكتب ابي اسحق المروزي ، وكتب أبي علي الطبري » ثم روى « ابن سمرة » عن القاضي طاهر بن يحيى بن أبي الخير حكاية « طريفة ظريفة تقول : إن ابن ملامس الامام الفقيه كان ذا مال نكّاحاً ، يحبّ الزواج والطلاق ليمتّع نفسه ، وقال : ان ابنه خَيْر بن يحيى ـ ويظهر انه كان مثل أبيه مِزواجاً ـ لما استأذنه في المجاورة بمكة ، أمره ان لا يتزوّج الّا من هي بكر بالغ في سَنَتِها ؛ قال : فانّي قد تزوجت هناك في أربع سنين ، ستين إمرأة ولا آمن عليك ان تتزوّج من كنت تزوجتُها » ! وقوله : « بكر بالغ في سَنَتِها ، له معانٍ شتى » !

وروي عن القاضي طاهر هذا رواية أخرى تنبي عن فطنة « ابن مُلامس وحدة ذكائه ، قال عن خَيْر ، عن أبيه عيسى بن ملامس ، قال : « لقيت الشيخ الامام أبا حامد الأسفراييني [ت : ٤٠٤هـ] بمكة في بعض المواسم فرأيت عليه ثياباً مُنَمْنَمةً من ثياب الملوك ، ورأيته يركب مراكب الملوك ، ورأيته في الطواف والناس يُعظمونه ، فقرأ في الطواف قاريء قوله تعالى : ﴿تلكَ الدارُ الآخرة نَجعلُها للذين لا يريدُونَ علُوًّا في الأرض ولا فَسادًا﴾ فبكى الشيخ أبو حامد بكاءً عظيما ، وسمعته يقول : يارب ؛ أمّا العلو فقد أردناه ، وأما الفساد فلم نرده ، قال : وحضرت معه مجلس مذاكرة فألقى عليَّ سِتين مسألة ما أخطأت القولين من الوجهين ، ولا وجهين من قولين ؛ ثم استأذنته في الالقاء عليه ؛ فأذن لي ، فصار يُجيبني بأحد القولين ، أو بأحد الوجهين . تارة بنص ، وتارةً بنظر ، فلما فطن اني استقصرت حِفظه قال لي : ما أنت الاّ ذكي فَاهمٌ فطن ؛ تصلح لطلب العلم ، فهل لك في الرواح معي إلى بغداد ، وأجعلك مُلْقي مدرستي ، وأكبر أصحابي عندي ؟ فلم أزد على شكره وتحسين قوله إجلالاً للعلم وأهله ، واعتذرت بأني لم أخرج من اليمن على هذه النيّة . وتوفي الامام « ابن ملامس » بعد سنة عشرين وأربعمائة [طبقات ص : ٩١ ـ ٩٣] وقد ترجم له الجندي لوحة : ٧٥ ـ وسماه علي بن عيسى . وفي موقفه مع الاسفراييني ما ينبى عن علو قدره .

علم الكلام

حدّ « علم الكلام » ـ عند الزيدية ـ لخّصه مؤلّف « الاساس »[1] بقوله : « هو بيان كيفية الاستدلال على تحصيل عقائد صحيحة جازمة تترتب صحة الشرائع عليها ؛ أو : الاستدلال بالكتاب والسنة ، أو بأحدهما على شرائع وعقائد مخصوصة ؛ وثمرته بيان معرفة الله سبحانه وعدله ، وما يترتب عليها من أمور الدين ؛ واستمداد بعضه من صنع الله سبحانه باستعمال الفكر ، وبعضه من السمع المثير لدفائن العقول وبعضه من السمع فقط » .

حروب طوائف « علم الكلام » وحظ اليمن منها :

وفِرَق وطوائف « علم الكلام » ؛ أو « علم أصول الدين » كثيرة

(١) الأساس لعقائد الأكياس ، تأليف الامام القاسم بن محمد المنصور [ت ١٠٢٩هـ]

ومعـروفـة ، وتفـاصيل ما نشب بينهـا من جدال وحوار ، وانقسام بعض طوائفها وفرقها إلى عدّة فرق وملل ونحل ، قد الّف فيها العلماء والمؤرخون مئات الكتب عبر عصور التاريخ الاسلامي ؛ ولا داعي بل ولا مبرّر لعدّها أو حصرها أو الخوض في كيفية نشأة هذا العلم ثم تشعّبه ، واختلاف آراء العلماء فيه . . فليس ذلك من موضوع هذا الكتاب ، وقد قتله العلماء بحثاً كما يقول الكتاب !

ومن بعـد اغتيال الخليفـة « عثـمان بن عفـان » رضى الله عنـه وتمزق المسلمـين إلى أحـزاب ، وحـدوث حَرْبَيْ « الجمل » و« صفّين » ، ونشوء « الخوارج » و« الشيعة » ، وما حصل بعد قتل الحسين بن علي رضى الله عنهـما ، إلى خروج الامام زيد ابن علي ، وانقسام المسلمين الى « سنية » و« شيعـة » و« معتـزلـة » و« أشـاعـرة » و« قدريّة » ، و« مُرجئـة » ، و« روافض » ؛ وانقسام كل فئة إلى فئات . . نشبت ودارتْ حروبٌ طاحنة باللّسان والسّنان بين تلك الفرق ، واستمرت قروناً ؛ وإذا ما خمد أوارُها بالسّيف والـرمـح والحـديد والنار ؛ فان الصراع الأدبي والفكري ظل حيّاً يتـوهّج لم يخمد له أوار ، ولم تَنْطَفِ له نار . وقد شمل ذلك ساحة العالم الاسـلامي ، ورقعتـه الشـاسعـة ، وكان نصيب اليمن وحظها منه نصيباً وافرا ، وحظاً « سيء الحظّ » مع الأسف الشديد ـ إن صحّ هذا التعبير ؛ لانه كان حظاً داميا مفجعا !

وعندما أذكر حروب الجدل والصراع الذي طال أمدها في اليمن بين تلك الفئات والطوائف ، . . . والثروة الأدبية والفكرية ، والمؤلفات الجمّة التي كانت حصيلتها وثمرتها . . . لا بد أن أشير إلى أن اليمن قد عرفت كـل المـذاهب الاسـلامية ؛ بل وكـل أنواع الملل والنحل . . وليس تلك التي انتقلت إلى ساحتهـا إثـر خلاف ونـزاع الصحـابـة في حَرْبَيْ « الجمـل » و« صفّين » فقط ؛ ومن المعلوم أن معظم جيش الفرقاء المتصارعين كان من اليمنيين ؛ المهاجرين والنازحين ـ بل وتلك التي تأثرت بما كان قائما في اليمن قبل الاسلام من ديانات يهودية ومسيحية ومجوسية ووثنية ؛ وقد ظهرت آثار تلك المعتقـدات التي لا تمت إلى الاسـلام بسبب في بعض آراء وأفكـار ومـذاهب من اعتنق الاسـلام من اليمنيين ، وكـانـوا يدينـون قبله بدين « فارس » أو أحبـار « اليهـود » أو رهبـان « النصـارى » الـذين كانـوا ـ

ولا شك ـ أقرب مودة للذين آمنوا كما ينصّ القرآن المجيد .

وقد سبق أن أشرت الى أن « التفسير » الذي يستند إلى أساطير « الاسرائيليات » كان منشؤه اليمن ؛ كما ان « إبن سبأ » كان يمنيّاً ، وفتنته معروفة ؛ وقد ذكرت شيئاً من أخبار « القرامطة » و« الباطنية » فيما تقدم من فصول الكتاب ، وتحدثت عن « الزيدية » وأئمتها بما يناسب بحثنا الأدبي ؛ فلسنا نؤرّخ للمذاهب الاسلامية في اليمن ولا لفئات طوائفها ، ومن ضل السبيل منها ومن اهتدى ، بقدر ما نؤرّخ للأدب والبيان وحظّ التأليف والثقافة من كل ذلك شعراً أو نثراً .

الزيدية ؛ والصراع الفكري في اليمن

ومن المحتم أن أشير الى انّ ما يسمّى مذهب « السلف » أو أهل « السنة والجماعة » كان هو السائد خلال القرنين الأول والثاني الهجريّين ، بل والى منتصف القرن الثالث بين أهل اليمن ، إلى محبة صادقة خالصة لآل الرسول ﷺ ؛ وكان معظم اليمنيين في الفروع « شوافع » وفي أصول العقيدة « حنابلة » ؛ ولم يظهر إلى جانب مذهب « أهل السنة » باديء ذي بدءٍ الاّ مذهب الخوارج الأباضية في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري ؛ وقد سيطر إمامهم طالب الحق عبد الله ابن يحيى الحضرمي على اليمن ، بل وتجهّز قائده « أبو حمزة الشاري » فاحتلّ الحجاز ، ودانت له مكة والطائف والمدينة في أواخر العهد الأموي ، وكان من أمرهم ما هو معروف في كتب التاريخ ، ولما انهزموا عسكرياً ظلّوا يبثون أفكارهم ومبادئهم في شتى ربوع اليمن بل والجزيرة العربية بعامه .

وفي منتصف القرن الثالث الهجري نشأ مذهب الغلاة من الشيعة « الباطنية » في اليمن ، على يد علي بن الفضل ، ومنصور بن حسن ، وقد ذكرنا أخبارهم سلفاً ، ثم كان خروج الامام الهادي إلى اليمن سنة ٢٨٠هـ ورفع الراية « الزيدية » ، ودخل وأتباعه من بعده ، في حرب ضروس مع « الخوارج » و« الباطنية » بالسيف تارة ، وبالقلم أخرى ، حتى تمّ القضاء عليهم سياسياً وفكريّا . وفي نظري انه لولا « الزيدية » بتعاليمهم الدينية ،

ونظرياتهم العقلية ، ومبادئهم الخمسة التي لا تخاف قوةً تصارعُ بالسيفِ أو الحديد والنار ، ولا جدالا تتصادم فيه الالسن والأقلام والأفكار ، لسيَطَرَ « الخــوارج » ، أو « القــرامـطة » ، على اليمن ، ولتغـيّر مجرى التـاريخ الاسلامي ؛ علماً بأنهم كانوا هم الذين يقفون في وجوههم في العراق أيضا !

وإذا صوّبنا نظرة فاحصة الى الفقهاء الأجلاء ، والعلماء الاعلام ، الذين كانوا قدوة للناس ومرشدين ، وعنهم يأخذ اليمنيون تعاليم دينهم في القرنين الأول والثـاني الهجـريّين أمثـال : فروة بن مسيـك ، ومعمـر بن راشد ، وطـاووس ، وعبـد الـرزاق الصنعـاني ، ووهب بن منبـه ، وأخوة همام ، وأبــو قرة ، وابـن أبي عمــرو اضرابهم . . . ممّن لم يكــونــوا منــزويين ولا مغمـورين ، بل على صلة بعلماء الـدنيا في مناسبات الحج والزيارة ، وكانت تُشَدّ الرحال إليهم ، بل ويقصدهم أمثال الامامَين محمد بن ادريس الشـافعي ، وأحمـد بن حنبل . . . نعم اذا صوّبنا نظرة فاحصة إلى ذلك المجتمع الذي ـ ورغم مخلّفات الملل التي كانت تسوده قبل الاسلام ـ كان يتحرّى طريقة « السلف الصالح » ويترسّم الصراط النبوي المستقيم ـ وإذا بأصـوات « الخـوارج » تتعالى وترتفع من كل صوب ، ثم بأفكار ومبادىء « الاسماعيلية » و « القرامطة » تنتشر انتشار النار في الهشيم ، وقد هيجوا بتلك الأصوات المشاعر ، وأثاروا الاحقاد ، وأحكموا تَزْيين تلك الأفكار والمبادىء بما يخلب الباب العامة ، وما يستعيذ بالله منه الصالحون ، فلا بد أن نقـدّر انـه لم يكن في وسـع أولئك الفقهاء الاجلاّء والعلماء الاعلام ، وتلامذتهم الأبرار الوقوف في وجه تلك الأصوات والأفكار والمبادىء ، ما لم يعتمدوا على مقارعة الحجة بالحجة ، والرأي بالرأي ؛ وقد كانوا وهم أهل الفضل والتقوى يكرهون الجدل ، ولا يتقنون وسائله ، ولا يرغبون في إثارة المشـاكـل العقلية ، والمسـائـل الكـلامية ، والخـوض فيما يتعلّق بالقضاء والقـدر ، وينـزّهـون أنفسهم وألسنتهم وأفكـارهم عن الكـلام فيها ، أو مناقشتها ، أو التحدث بها .

فاستــولى « الخـوارج » أولاً ، ثم « القـرامـطة » ثانياً على « المنـبر » ، و « النادي » و « الشارع » و « السوق » ثم على السلطة ، وخلبوا الأفكار ، وسحـروا أعين الناس . وجاؤوا بسحر عظيم ، حتى جاء « الهادي يحيى

بن الحسين » رافعاً لراية القرآن ، ومشعل العقل ، والمنطق والحوار ، لا يبالي بنقاش أو جدل في أيّ مسألة من مسائل الدين والدنيا ، والقى عصاه فاذا بها تلتهم ما كانوا يأفكون .

وبهذا نفسّر تلك الكلمة التي نقلها إلينا علماء الفقه والمؤرخون في اليمن والتي تقول : « على أهل اليمن نعمتان في الاسلام الأولى : الهادي يحيى بن الحسين ، والثانية : القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام » . والفضل والنعمة من قبل ومن بعد لِلّهِ عز وجل فهو ناصرُ دينه وحافظ قرآنه وهو القائل : ﴿**إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ .

حركة التأليف في علم الكلام

كان علماء وفقهاء السلف من التابعين ، وتابعيهم باحسان ، قبل ظهور وتفرّع المذاهب مجتهدين مستقلّين ، وكانت عقائدهم في أصول الدين حسبما كان عليه الرسول الأمين محمد ﷺ ، وصحابته الأبرار ، وأما في مسائل الفروع الفقهية فقد كانوا ـ فيما ليس فيه نصّ قطعيّ ـ يختلفون فيها ؛ كلٌّ حسب اجتهاده .

فلما ظهرت المذاهب الاسلامية ـ ومنها مذهب الامام زيد بن علي بعد « خروجه » افترقت طائفته بعد موته مثلما افترقت طوائف المذاهب الأخرى إلى فرقٍ شتى مذكورة معروفة في كتب « الملل والنحل » وبعض هذه الفرق الزيديةً قد خالفت الامام زيد نفسه ـ أصولا وفروعاً ـ الاّ في النزر اليسير ؛ لأن المذهب الزيدي ؛ قائم على الاصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي أيضاً أصول « المعتزلة » ، ولمن يعتقدها حرية الاجتهاد ، أو إتّباع أي مذهب من المذاهب الاسلامية ؛ ولكنهم في الغالب يوافقون الفقه الحنفي ، وقد أضافت بعض الفرق أصولا أخرى ، إنبثقت عنها ثم جعلها المتأخرون من « الزيدية الهادويين » ، من أصول الدين ، حتى بلغت « ثلاثين مسألة » . هي أوّل ما يقرأه الطالب الزيدي من كتب « علم الكلام » .

ولا أعلم قبل الامام الهادي [٢٤٥ ـ ٢٩٨هـ] من ألّف من اليمنيين في علم الكلام ، أو « أصول الدين » ، أو عن « الزيدية » ومبادئهم أصولاً وفروعا ؛ ويظهر انّ زيدية اليمن كانوا يعتمدون على كتب أئمة الزيدية في العراق والحجاز وفارس ، ولم يؤثر عن ابراهيم بن موسى بن جعفر داعية الامام محمد بن ابراهيم [ابن طباطبا] الذي ثار ومعه « أبو السرايا » عام ١٩٩هـ ، والذي وصل إلى « صعدة » لأخذ البيعة لابن عمه محمد بن ابراهيم وكان من أمره ما سبق شرحه . . . لم يؤثر عنه أي تعاليم أو نصوص في هذا الشأن .

١ ـ مؤلفات الهادي [ت ٢٩٨هـ]

وللامام الهادي كتب ورسائل كثيرة في علم الكلام ومسائل أصول الدين والعقائد والردّ على بعض الفرق ومنها غير ما سبق ذكره :

١ ـ أصول الدين . ٢ ـ استدلال على رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . ٣ ـ اثبات النبوة . ٤ ـ بوار القرامطة . ٥ ـ اثبات النبوة . ٦ ـ رسائل العدل والتوحيد . وقد حققها ونشرها البحاثة محمد عمارة ـ وكتب ورسائل أخرى ؛ وقد تحدث الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه « الزيدية » حديثاً مسهبا وافيا عن « الهادي » وآرائه « الكلامية » [ص ١٥٠ ـ ٢١١] وعدّد كتبه واين توجد مخطوطاتها السيد عبد الله الحبشي في كتابه « حكام اليمن المؤلفون » . وسبق ان ذكرنا ذلك .

٢ ـ مؤلفات الامام المرتضى [ت ٣١٠هـ]

وسبق أن ذكرنا ان للامام المرتضى بن الهادي مؤلفات منها في علم الكلام :

١ ـ « جواب علي فضل القرمطي » . و ٢ ـ كتاب « الرد على الروافض » .

٣ ـ المراغي

أما أول كتاب في علم الكلام نسب الى أحد فقهاء الشافعية ؛ فهو

« الحروف السبعة في الردّ على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة » ؛ وقد ذكره « ابن سمرة » في ترجمته للعلامة الحسين بن جعفر المراغي وقال انه سكن « سَهْفَنَة » ، وسمع عن الحافظ محمد بن مظفر بن موسى البغدادي [ت ٣٧٩] ولم يذكر سنة وفاته ولعلها في أواخر القرن الرابع ، وقد ترجم له الجندي في السلوك لوحة : ٧٦ ويقول انه قرأ كتابه في « المعتقد » ؛ ولعلّه يعني « الحروف السبعة » فوجده موافقاً لمعتقد أهل السنة الاّ مسألة راجع فيها الأكابر ؛ ولعلها أدخلَتْ على الكتاب !

[طبقات الشافعية ص : ٨٣ ومصادر الحبشي ص ـ ٩٤] وقد وهم البحاثة الحبشي فخلط في حديثه عن « المراغي » بينه وبين شيخ مشايخه عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري المتوفي سنة ٣٢٤هـ ! وقال المحقّق فؤاد سيد ان كتاب « الحروف السبعة » أورده صاحب كشف الظنون ١ : ٦٦٠ ولم يذكر أوّله مما يدل على انه لم يطلّع عليه .

٤ ـ الطبري
[ت ٣٤٠هـ تقريبا]

سبق أن تحدثنا عن أبي الحسين أحمد بن موسى الطبري أحد أصحاب أولاد الامام الهادي وذكرنا ان له في علم الكلام كتاب « المنير » والذي يسمى أيضا « الأنوار الكاشفة في معرفة الله ورسله وصحة ما جاؤوا به » وان نسخة منه توجد في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ضمن مجموع رقم ١٩٨ [انظر الفهرس ص ٨٠٢] وكتاب « مجالس الفقيه الأفضل أحمد بن موسى الطبري » [مصادر الحبشي ص : ٩٤] .

٥ ـ الامام القاسم العياني
[ت ٣٩٣هـ]

سبق أن ترجمنا للامام القاسم بن علي العياني وذكرنا بعض أخباره وأشعاره ومؤلفاته ومنها في علم الكلام ١ ـ كتاب الردّ على الرافضة . و ٢ ـ كتاب الأدلّة من القرآن على توحيد الله . و٣ ـ كتاب « التوحيد » .

٦ ـ المهدي العياني
[٣٧٦ ـ ٤٠٤]

أمـا الامام المهدي الحسين بن القاسم العياني فله في علم الكلام عدة كتب ورسائل ذكرها « بروكلمان » في كتابه تاريخ الأدب العربي ومنها كتاب الامامة ، وكتاب « الصفات ومعرفة الصانع ، وكتاب الفرق بين الافعال » وغيرها .

وإلى هنا ينتهي ما بلغ إليه علمي من مؤلفات علماء اليمن في فن « علم الكلام » منذ بداية العصر العباسي حتى سنة ٤٣٩هـ وهي بداية فترة العهد الصليحي .

التصوف

إذا كان المـراد بالتصـوف لبس الصوف ، والتوكأ على عكّاز ، وتطويل اللحية والسبحة ، وترتيل الطقوس المعروفة في حلقات الزوايا ، وشطحات القـول شعـراً ونثـراً ، ونحو ذلك ، فهو ما لم تعرفه اليمن الاّ بعد القرن السـادس الهجري ـ فيما اعرف ـ وإن كان المراد منه الزهد والورع والنسك والتقوى ، ومحبة الله والحق والخير ، والخشية والانقطاع إلى الله ، واحتقار الدنيا والتقلل من حطامها والجهاد في سبيل الله وما هو لبّ لباب التصوف ، ومهجة قلبه ، وقرة ناظره ، وسر أسراره فقد اشتهر في اليمن من أقطابه أفذاذ لا نظراء لهم بين الأمم منـذ أيام الـرسـول الأعـظم ﷺ وحتى يومنا هذا وحسبك منهم من شهد بفضله سيد الأمم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

الزاهد الكبير سيد التابعين أويس بن عامر القرني المرادي وانظر ما ورد فيه من آثار وما روي عنه من أخبار « بلدان اليمن » للقاضى محمد الحجري ص ٦٤٩ ـ ٦٥٢ ج ـ ٤ .

وللامام الهادي يحيى بن الحسين مواقف في الزهد والورع والتقشف تذكر بمواقف « الصديقين » و « الامام علي » وعمر بن عبد العزيز .

وابنه « المرتضى » تنازل عن « الخلافة » زهداً وورعاً وترفّعاً كما أوضحت في ترجمته .

وقد قرأنا أخبار « أحمد بن موسى الطبري » وسياسته القرآنية في الدعوة إلى سبيل الرشاد ، وسنرى في الفترة التالية كيف ان الاخوين شمس الدين وبدره من آل يحيى بن يحيى رفضا الولاية بل وتورعا عن عمارة قلعة « تلمص » وقد ملكهما إياها الامام عبد الله بن حمزة خشية أن يطغى بها أولادهما على المواطنين .

وذلك هو التصوف الاسلامي الحق الذي عاشه الرسول ﷺ وعلّمه آله وأصحابه وما زالت اليمن له منبعاً ، ولأقطابه مرتعا ، وسير الأئمة وكتب « الطبقات » والنسّاك والصالحين والخواص في « حضرموت » و« عدن » و« زبيد » و« صعدة » و« صنعاء » وسائر أنحاء اليمن منذ « أويس القرني » ومروراً بأحمد « بن علوان » و « يحيى بن حمزة » و « الكينعي » وحتى « أقباس أحمد بن حسن العطاس » . وقد اشتهر علماء « الزيدية » بالورع الشحيح حتى ان بعض المتكلمين استدل على ان « عقدة » والد الحافظ « أحمد بن عقدة » « زيدي » المذهب بأنه لما ضاع له دينار وطلبه أصحابه حتى وجدوه فلم يقبله قائلا : « من أين لي انه ديناري ؟ » وتلك هي طريقة « الزيدية » !

مؤلّفات اليمنيين في « التصوف » :

معظم الكتب اليمنية في هذا الباب تتحدّث عن الزهد والورع والتقوى وتطهير القلب وتصفية النفس ؛ وأوّل كتاب في ذلك هو كتاب العلامة الفقيه الشاعر علي بن أحمد بن أبي حريصة الذي سوف نتحدث عنه في فصل « الشعر والشعراء » أثناء « الفترة الهادوية » ويقول صاحب الطبقات ومؤلف « مطلع البدور » ؛ ان له كتاب في « الزهد والارشاد » وانه من الكتب المحبّبة للقلوب ، المذكرة بالله الداعية اليه [لوحة ١٠٣ مطلع ج - ٣ -] ولعلّه توفي قبل وفاة الامام الناصر بن الهادي عام ٣٢٥هـ وهو أول من ألّف في التصوف فيما نعلم .

وأمّا من ألّف بعده في الموضوع فسوف نتحدث عنها في السفر الثاني إن شاء الله .

ولعل من واجبنا ان لا نهمل الحديث عن علم من اعلام الزهد والورع والفقه في هذه الفترة التي نؤرخ لأدابها وهو العالم الفقيه عبد الله الخراساني .

عبد الله الخراساني
[حوالي ٤٠٠هـ]

العالم الزاهد الناسك عبد الله بن أبي عبد الله الخراساني من أصحاب أبي الحسين أحمد بن موسى الطبري الهدوي وقد ترجمه مؤلف مطلع البدور وقال انه كان « طبقة عالية في الزهد والعبادة والقراءة والفقه » « وكان يسكن « حَمدَة » بالبون ثم سار إلى « مسور » ثم آل أمره إلى أن نزل موضعاً من أعلى وادي « بيت شهر » وابتنى فيه صومعة يعبد الله فيها ، ونزل هنالك بولده حتى مات ؛ والموضع الذي سكنه يعرف بضَواض بضادين معجمتين ، وبهجرة آل عبد الله ، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم » وعاش حتى زمن المهدي الحسين بن القاسم العياني المتوفي سنة ٤٠٤هـ ولكنه اعتزل ولم يتدخل في أي شأن من شئون الصراع بين الأئمة ومن عاصروه من سلاطين وملوك وأمراء .

ثم قال : « وكان من أشد الناس حرصاً على طلب العلم والتواضع للعلماء والصبر على المشقة وبعد الشقّة . ومن أقرأ الناس لكتاب الله ؛ وأتى مكة في بعض حجّاته فقعد بين يدي قارىء الحرم ، ثم سأله أن يستمع منه سورة فقال : لا . فقال عشر آيات . فقال : لا . قال : آية قال : إقرأ . فلما قرأ باسم الله الرحمن الرحيم قال مقرىء الحرم استمر في قرائتك فاندفع يقرأ البقرة فلما انتهى إلى قوله تعالى ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الاّ دعاء ونداء**﴾ . . فقطع عليه القراءة وقال : أنت عبد الله بن أبي عبد الله الخراساني صاحب اليمن ؟ قال : نعم . قال : قد عجبت ؛ إنّه لا يُذكرُ إلاّ شيء » !

وقال ابن أبي الرجال أيضاً : « وكان قوي القلب متيقظاً شجاعاً ، بصيراً بعمل السلاح وآلة الحرب رامياً تارساً ، ! وحفر قبره بيده وكان يبرك فيه فيقرأ

القرآن فقيل له : وما يدريك بأيّ أرض تموت ؟ فقال إني سألت الله تبارك وتعالى حوائج فقضاها ، وهذه مما سألته ، وأرجو ان يقضيها ، فمات هنالك ودفن فيه ، وكان إذا نظر إليه قال : نعم البيت ! وحكى أن أمير مكة في زمنه كان يرسل إليه بهدية من ثياب فاخرة فكان يبيعها ويتصدق بأثمانها ، فرأت امرأته في بعض تلك الهدايا قميصاً أعجبها فسألته بالله ان يهبه لها ، ففعل وقال : لولا ذكرك الله ما فعلت ؛ وروى انه كان بمسجد « حمده » بعشر ذي الحجة معتكفا فأقبل سائل فأعطاه ذخيرة أهله للعيد من الدقيق ؛ فأرسلت إليه امرأته تطالبه بحاجة العيد من الطعام وغيره فلم يلتفت إليها ، فلما أكثرت الرسائل خرج يريدها فبينا هو في الطريق إذ أقبل رجل يسوق دابةً ، عليها حمل بر ، ويقود كبشا ، ويحمل حوائج من حوائج العيد ، وإذا هو رسول من علي بن أبي الفوارس اللّعوي قد بعث إليه بتلك الأشياء لعيده ، فأقرأه منه السلام وسلم إليه ذلك ، فأمر من قبض منه ذلك وقال : اذهب به إلى « كبيرة البطن »! ومن اظرف ما روى عنه ان بعض أصدقائه أرسل إليه بورق لينسخ له فيها أخبار « الجمل » و « صفين » فكتب له فيها القرآن وكتاب « أحكام الهادي » ، وكتب إليه : « وأما أخبار الجمل فانهم التقوا في يوم من الأيام فافترقوا عن خمسة وعشرين الف قتيل ، وأما أخبار « صفين » فانهم التقوا أربعين يوما فافترقوا عن سبعين الف قتيل فهذه جملة الأخبار .

قال : « وكان له شعر ومما نقل من خطه » :

من أحسن الظنّ بمعبوده — جاد ولم يبخل بموجودِه
من طلب الجنة من ربّه — فانّها في بذل مجهودِه
فليبلغِ الطالب في جهده — ما يبلغ النجّار في عودِهِ

***

وروى انه كمل قول من قال :

وإذا غلا شيء عليَّ تركتُهُ — فيعود أرخص ما يكونُ إذا غلا

بقوله

الاّ الطعام فانّ فيه حياتنا — فاذا غلا يوماً فقد وقع البلا

ولم يذكـر سنة وفاته ولكنه إذا كان من تلاميذ أحمد بن موسى الطبري كزميله علي بن أبي الفـوارس اللّعـوي وعاصر القاسم العياني وابنه فتكون وفاته في حدود عام ٤٠٠هـ أو قبل ذلك بسنوات .

موقف غريب !

وان المرء ليعجب من موقف الامام العالم الورع القاسم بن علي العياني من هذا الرجل الصالح والفقيه الزاهد فقد روى مؤرخ سيرة الامام العياني انه لما بلغه زهد عبد الله الخراساني راسله وأحبّ أن يعاضده ويناصره ولما لم يستجب قال : « والله لن ينفعه زهده وانعزاله في شواهق الجبال ولن تغنيه تلك العبادة شيئاً ان لم يأت بما فرض الله لنا عليه »! بينما وقف ابنه المهدي بن القـاسم موقفاً مغايراً وقال انه يدين الله بولايته ويتقرّب اليه بمودته ، وانظر مطلع البدور جـ ٣ ـ لوحة ٤٦ و٤٧ .

الشعر والشعراء

لا شك ان القرّاء قد لاحظوا أن الشعر - وهو عند العرب - الكلام الموزون المقفّى - قد ازدهر في هذه الفترة ؛ فهو على لسان الامام والوزير ، والمؤرخ ، والفقيه والقائد والشيخ ، والتاجر .

ولقد كان طابعه الفنّي هو طابع الشعر في الفترة التي سلفت ، وألفاظه وثيقة الصلة بألفاظ الشعر الجاهلي وشعراء صدر الاسلام ، وان كان الائمة والعلماء قد أكثروا من استعمال الألفاظ الدينيّة والفقهية .

وقد اشتهر غير من ذكرنا أشعارهم وأسماءهم ونحن نتحدّث عن العلماء والفقهاء والمؤرخين وكبار المؤلفين شعراء أفذاذ منهم :

١ - ابن جبران الجيشاني

من شعراء الباطنيّة أيام علي بن الفضل المتوفي سنة ٣٠٣هـ /٩١٦ م وقد ذكره الحبشي في « مصادر الفكر » ص : ٣١٢ .

٢ - ابن أبي البلس

وهو من شعراء الهادي وابنه الناصر وت : ٣٢٨هـ /٩٤٠ م وقد أثنى عليه الهمداني في صفة جزيرة العرب ص - ٩٨ - وأشار الى قصيدته السينية في الهادي والتي يقول فيها :

لو أن سيفك يوم سجدة آدم   قد كان جرّد ما عصى ابليسُ

٣ - علي بن أحمد بن أبي حريصة

كان من أصحاب الامام الهادي ويعدّ من أهل الزهد والورع ومن المتصوّفين ولعله عاش إلى أيام الناصر [ت ٣٢٥هـ] وقد ترجمه ابن أبي الرجال في السفر الثالث من مطلع البدور وقال انه « روى كتاب الاحكام الذي وضعه الهادي فى أصول الدين وأصول الفقه ورتبه ترتيباً حسنا » ثم قال : « وكان أديباً فقيهاً شاعرا سلك في شعره طريقة أبي العتاهية في نظم منثور الحِكَم والآداب والأحاديث مثال ذلك قوله في نظم الحديث « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

من حسن إسلام الفتى تركه ... ما ليس يعنيه إذا ما نَطَقْ
وخائض في الأمر لم يعنِه ، ... كخائض لجة بحرِ الغَرقْ !

***

وله في نظم الحديث الشريف « ما ضاع أمرءٌ عرف قدره » وقول الأحنف : « عجباً لمن جرى في مجرى البول مرتين وهو يتكبّر » :

قال رسول الله نور الهدى ... وخاتم الرسل وخير البشَرْ
ما ضاع مرءٌ عارف قدره ، ... فاقنعْ بما أوتيته واقتصر
لا يلبس الكبر كريم ولا ... يطاوع التيه فتىً ذو خطر
مجرى الفتى في مبْولٍ مرةً ... من بعد أخرى ؛ ثم لم يعتبِر !

***

وله في نظم ما روى عن بعض الصحابة : « عجباً لمن يضحك بملىء فيه والمنايا ترصده » :

يبسم المرء ضاحكا ملؤ فيه ... والمنايا وراءه تقتفيهِ
عجباً إننا لنخشى من الموت ، ... وانا نلهو ولا نتّقيهِ !

***

وله في نظم قول كسرى : « من لم يكن العقل أكثر ما فيه قتله أكثر ما فيه » :

إذا لم يكن عقل الفتى أكثر الفتى ... فأكثر ما فيه ولا شك قاتلُهْ

هل العقل الاّ حجّة مستنيرةٌ ، ونور هدى ما إن تضل دلائلُهْ
بحسبك ان العقل زَيْن لأهلهِ وان ليس في الخيرات شيء يعادلُهْ

***

وله في نظم الحديث الشريف : كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على اللّه لأبرّه :

الاربَ ذي طمرين أشعث أغبرا خفيّ عن النظار لم يبغ منظَرا
ولو أقسم الحافي الضئيل رداءه على الله ذي النعماء أعطى فأكثرا
ولكن زوى الدنيا الدنيّة دونه ، ليُوفِيهُ الحظّ الجزيلَ الموفَرا

***

ومن شعره السائر قوله :

ليس بحُرٍ ولا كريمٍ من غيّرت ودّه الدهورُ
الحر حرٌّ وإن جفاه دهر وحالت به الأمورُ
ليس الفتى مَنْ إذا ألّمتْ أزْمَةٌ دهر به يخورُ
ولا الذي إن به تراختْ حال رأى أنّه الخطير
وإنّما الحرّ عند هذا مصطبرٌ أو فتىً شكورُ

***

وله قصيدة :

ومن رأى ما لا يراهُ طغى وصار يمشي كالمجانينَ
كأنّه قارون في سكره يخبطه مسُّ الشياطينَ
فهو على ما نال من أمره كبعض أعوان الفراعين
يُديره الدَّهر بتصريفه . . فليسَ ذَا دُنيا ولا دينِ !

***

ولم يذكر ابن ابي الرجال سنة وفاته ولكنه قال انه صحب الهادي وابنيه وقد ترجمه أيضاً يحيى بن الحسين في المستطاب فقال : « من علماء الهدوية الأخيار وهو الذي رتب جامع الأحكام للهادي » . ولا شك أن الهمداني

وأستاذه « اليهري » قد عرفاه ورويا عنه ، وروى عنهما ، وكذلك أحمد بن موسى الطبري ، ولكن المتعصبون طووا ذلك ! .

٤ ـ الحسين بن علي الرسيّ

شاعراً تلاحى مع الهمداني بصعده حوالي عام ٣١٩هـ /٩٣٢ م .

٥ ـ أيوب بن محمد اليرسمي

شاعر تلاحى أيضاً مع الهمداني في نفس الفترة أواخر أيام الناصر .

٦ ـ ابن أبي الأسد الصنعاني

ومن تلاحى مع الهمداني في المفاخرة القبلية والعنصرية بين شعراء « عدنان » والمتعصبين لقبائل قحطان الشاعر محمد بن ابراهيم ابن أبي الأسد الذي عاصر الامام الناصر [٣٠١ ـ ٣٢٥هـ] .

وقد ذكره القفطي في كتابه « المحمدون من الشعراء » فقال : « محمد بن ابراهيم ابن أبي الأسد الصنعاني اليمني » شاعر مذكور في جهته ومن شعره :

عيون المها بين الرّبا والمذانب	أذَبْنَ قلوبَ العاشقين الذوائب
شفين سقاماً من رمَيْنَ بأسهمٍ	يرشن حماماً بين صرف وصائب
جعلن له حتفاً جرى البين بينه	وبين الهوى جَرْي الصدى في المشارب
ولما تعاطاه الهوى علق اللّها ،	وبُتّت حبال الوصل دون المذاهب
فأسبل من دمع الفراق صبابةً	إلى الوجد حتىّ رق صرف النوائب
ألا لا تلومنّ امراءاً ليس واجداً	سبيلاً إلى وصل ، وليس بغالب
وكم من أطاع الهجر واستحقب الصّبا	وحل محلّ الذُلّ تحت المطالب
أسا بالأسى حتى استثار من الجوى	ينابيعَ موتٍ من هوى متراكب
وقد يقتل المرء الجليل بسمّه	ضعيفٌ لهيفٌ لم يرم ثأر طالب
وتوقد نار الحرب بعد خمودها	كما وقدت بالصمد نار الحُباحب

***

وقد قال محقق الكتاب ومراجعه انهما لم يجدا ترجمة للشاعر في غير كتاب « المحمّدون » وقد ورد اسم « ابن أبي الأسد » ضمن الشعراء الذين تلاحى معهم « الهمداني » ، ولعلّ القفطي قد عثر على نُسَخٍ أصيلة من كتب الهمداني التي تسرّبت إلى خارج اليمن قبل أن يعبث بها محمد بن نشوان الحميري وغيره ، ويحذفون منها ما لا يوافق النّعرات العرقية التي كانت تجيش في صدورهم [المحمدون ص : ١٣٣] .

٧ ـ محمد العوسجي

وثمـةّ شاعر آخر اسمه محمد بن إبراهيم بن إسحاق العوسجيٍ اليمني ترجمه أيضاً « القفطي » وقال : « كان سيّداً شجاعاً ، جواداً مذكوراً في وقته وبلده وله شعر بدوي تشهد به فصاحته » ولكنه لم يحدّثنا عن ولادته ولا عن وفاته ولا في أيّ عهدٍ عاش ، وقال محقق الكتابِ ومراجعه : « إنهما لم يجدا له ترجمة في غير « المحمدون » . وكنت قد سمعتُ عن هذا الشاعر وقرأت له في بعض الكتب اليمنية ولكني الآن لا أتذكر أينَ ومتى ؛! وظنٌّ يشبه اليقين انه قد عاش في صعدة ، وفي الفترة التي كان « الهمداني » فيها أو في الفترة التي سبقتها فهو من شعراء أواخر القرن الثالث الهجري . وهذه هي الأبيات التي أثبتها له القفطي [المحمدون ص ١١٣] :

وانى لأمضي الهـمّ عنـد احتضـاره — برأيٍ أصيـل في النهى والتجـارب
ولست بمجـزاع إذا الـدهر عضّني — ولا مستكـين للعـدوّ المشـاغب
سنـاني رفيقي ، والكميت ملاعبي — وسيفي شقيقي في المكـرّ وصـاحبي
أبـا لي أن أرضى الـظلامـة معشرٌ — أنـوف علتْ من حمير في الـذوائب
وكيف ترى « عنزٌ » خضوعي وذلّتي — و «نهدٌ» و «جنّبٌ» جيرتي وأقـاربي
وهم عدتي في النـائبـات وجُنتي ، — وحصني ودرعي في الـوغى ومخـالبي

٨ ـ ابن أفنونة
حوالي سنة ٣١٥هـ / ٩٢٨ م

الشاعر المجيد محمد بن أفنونة ترجمه أيضاً القفطي فقال محمد بن أحمد بن يوسف ابن أفنـونـة الصنعـاني اليمني أحـد الفقهـاء بصنعـاء وعلماء

الحديث ، وكان يرى رأي أهل الكوفة ويروى عنهم وخاصة ابنَي أبي شيبة ، ومن روى عنهما ، وكان من أدباء عصره ، وله شعر قليل فمنه قوله :

أقــول وطــرفي للنجــوم مسـامـرٌ … أراقــب منهــا طالعــاً بعــد غائب
ولاح سهــيــل في الســماء كأنّــه … على مرقب يُزجى صفــوف كتـائب
ألا أيهــا الليــل المهيـج وساوسي … أمالك صبح ؟ أنت شرّ مصاحب !

***

ولما تولّى القضاء ببَيْتِ رَيْب من جبل مسور [قال من قصيدة] :

يا ليت شعــري هل الأيّــام محدثـة … من طول غربتنـا يومـاً لنـا فرجـا ؟
أم هل ترى الشمل يضحى وهو ملتئم … ويبهــج الله صبّــاً طالمـا حرجـا
لا حبّـذا بيت رَيْب، لا ولا نعمت … عينـا غريب يُرى يومـا بها بهجـا
وحبــذا أنـتِ يا صنعــاء من بلدٍ … وحبـذا عيشـك الغضّ الذي درجا
أرضٌ كأنّ ثرى الكــافـور تربتهـا … ومـاؤهـا الـراح بالماذي قد مُزجـا
تهدي الى الشمّ أنفـاس الـرياح بها … ـ ما هبّتِ الريح فيها ـ العنبر الأرجا
لولا الـنـوائـب والمقــدور لم ترني … عنهـا ـ وعيشـك ـ طول الدهر منزعجا

***

ولم يذكـر « القفـطي » سنة وفاته ، وقد أورد ياقوت خمسة أبيات من القصيدة في معجم البلدان ج ١ ـ ص : ٥٢٠ لكنا نعلم أنه من شيوخ الهمداني وقد ذكره في السفر الثاني من كتابه الاكليل [ص : ٢٠٨ ـ اكوع] فقال : « وحدثني محمد بن يوسف ابن أفنونة عن ابن المعمر عن ابن أبي شيبة ، ورفع الحديث الى خلاد بن يحيى عن حبيب بن حسان قال سمعت سعيد بن جبير يقول : قال ابن عبّاس لا تسبّوا حسان بن ثابت ، فانه ينصر رسول الله ﷺ بيده ولسانه » ثم قال : « وهذا يدلّ على انه كان يقاتل ، وان ما يروى عنه من الجبن باطل ، والدليل على ما قلنا انه قد هاجى شعراء قريش وشعراء العرب قاطبة فما عيّره شاعر من شعرائها بالجبن بل عيّرهم هو بالجبن الخ » .

ولا ندري هل هذا الدفاع عن حسان وإبطال ما روي عن جبنه من كلام « ابن أفنونة » أم من تعليق تلميذه الهمداني .

وأكثر شعراء هذه الفترة لا تراجم لهم وانما يذكرون في كتب التاريخ ونتتبّعها ، كما عملنا في الفصل السابق ولابد ان نقف وقفة طويلة مع الأكيلي الثاني ان شاء الله .

٩ ـ أحمد بن عبد الله بن عبّاد الاكيلي ت ٣٢٣هـ / ٩٤٥ م

الشاعر الثائر بن الشاعر الزعيم عبد الله بن عباد الذي سبق أن أوجزنا ترجمته أثناء الحديث عن الفترة الأولى من فترات هذا الكتاب ، وقلنا انه من فحول شعراء القرن الثالث الهجري .

وأحمد بن عباد الذي نريد أن نتحدث عنه ليس له ترجمة في كتاب من كتب الطبقات والتراجم ، ولأنه قد تصارع مع الهادي وأنصاره بالسيف والقلم فلا شك أن قوماً من المتزمتين قد عبثوا بأشعاره وأخباره ، ولذلك فقد تتبعت اسمه وأخباره في كتب التاريخ اليمنية وحاولت أن أنسّق منها ترجمة تلقي ضوءاً على حياته وشعره لأول مرة في تاريخ الأدب العربي في اليمن .

١ ـ بداية أمره :

يقول الهمداني في الجزء الأول من « الاكليل » ص : ٣٣٣ ـ ٣٣٨ :

« وأحمد بن عبد الله بن محمد بن عبّاد هذا هو الوافد على المعتضد بالله في آخر أيامه [ت ٢٨٩هـ] فوجد المكتفي قد بويع له ـ يطلب النصر على يحيى بن الحسين ابن القاسم بن ابراهيم العلوي [يقصد الامام الهادي] فواجهه بالعراق وأمر معه بالجيوش العظيمة ، حتى ورد كتاب أبي مزاحم عجّ بن حاج والي الحرمين يخبر ان العلوي قد أخرج من صنعاء ، ففتر السلطان عن ذلك العزم » ثم قال : « وقد اكدى فيما طلب » أي ان رحلته كانت فاشلة ولم ينجح مسعاه في اخراج جيش عباسي يقاتل به الهادي في « صعدة » كما فعل أبوه مع سلطان آل يُعْفِر حتى خضعت صنعاء لبغداد ودان اليعفريون بالولاء للعباسيين .

وبعد أن أورد الهمداني شيئاً من أشعاره قال وهو يتحدّث عن الحسن ابن أحمد بن عبد الله بن عباد : « وحدثني أبو الصباح عن أبيه قال : دخلت على الخليفة فبثثت له خبري ، وأعلمته بما قصدت له من نجدته لي ، فقال

لي أتيت على حاجتك ، وبلغت مني أقصى مرادك . قال ثم دخلت عليه بعد ذلك ليتأكّد عليّ في بعثه الذي يبعثه معي قال : فألح عليّ في ذلك : فقلت يا أمير المؤمنين انهم خدمك ، يصيرون الى بلدك ، والى جوار رعيتك وطاعتك ، قال فقال لي : ان لأهل اليمن وثبات كوثبات السباع النهمة » !

قال : فما أقمنا الآّ أياما حتى اتى كتاب عجّ يذكر اخراج العلوي من « صنعاء » ، قال : فقال لي الوزير : كيف رأيت قول أمير المؤمنين ؟ قال : قلت : الله أعلم حيث يجعل رسالته ! « ما جعله الله عميد هذا الخلق بأمر مريب » ص : ٣٥٠ ـ ج ـ ١ ـ الاكليل وص : ١٩٧/١٩٦ رسالة الحور العين للعلامة نشوان الحميري وـ ص : ١٨٧ من غاية الأماني ج ـ ١ ـ .

أما في سيرة الهادي فقد تردّد اسمه كثيراً وأول ما نسمع عنه انه كان من وجوه أصحاب الامام وانه كان به معجباً وبه مباهيا ، وانه حينما رآه يعلم جنده الطعن والضرب ويصف القتال : ثم أخذ الرمح فأراهم ما وصف لهم قال شاعرنا وهو المشهور بالفروسية : « ما يقوى أحد يعمل بالرمح كمثل ما يقوى عليه ابو الحسين » [سيرة ص : ٦٧] ونقرأ في ص : ٧٣ ـ ٧٨ انه كان ضمن حملة الهادي الأولى الى نجران سنة ٢٨٤هـ /٨٩٨ م وكتب شهادته على الصلح الذي أجراه مع أهل الذمة من أهل نجران . ونحن نعرف أن والد الشاعر الزعيم عبد الله بن عبّاد رئيس قبيلة « أكيْل » وانه كان مناهضاً لآل « يُعْفِر » ؛ وانه قد استنجد بالخليفة العباسي في بغداد على يعفر بن عبد الرحيم عام ٢٣٢هـ /٨٤٧ م وانجده الخليفة واخرج معه حملة وعاملاً على « صنعاء » وكل ذلك قد حمل السلطان « اليُعْفِري » على تقديم فروض الطاعة والولاء للعباسيين .

ولعل ذلك هو ما حمل ابنه أحمد شاعرنا الذي نتتبع أخباره في بداية الأمر على الانصياع لدعوة الهادي والدخول في ما دخلت فيه قبائل « صعدة » لا حبّاً ولا ولاء بل نكاية بأعداء أبيه سلاطين « الحواليين » من آل « يُعْفِر » .

ثم لعل تفكيره في الذهاب الى بغداد بعد أن تعكّر الصفو ما بينه وبين « الهادي » قد لجأ اليه تقليداً لأبيه ، ولكن الظروف كانت مختلفة وكان الخليفة العباسي مشغولاً بما هو أكثر خطورة من « اليمن » و « الهادي » ولذلك « اكدى » الشاعر كما قال الهمداني .

٢ ـ التمرد :

ونتابع أخبار شاعرنا في « سيرة الهادي » فنجده في أواخر عام ٢٨٦هـ ، لّما عاد الهادي من « خيوان » الى « صعدة » وعزم على الخروج الى « نجران » لتأديب « بني الحارث » أخوال « ابن عبّاد » قد بدأ يظهر التمرّد والانحراف عن الهادي « فقد خرج من صعدة وقت دخول الهادي اليها ، وحاذر ان يلقاه لما كان قد أمّل من الفساد عليه وما كان من كتبه الى « بني الحارث » وغيرهم ممن كان يطمح بالفساد عنده منهم » كما يقول صاحب السيرة ص : ١٥٥ .

ويبدو أن بعض مشايخ اليمن ممن أفزعهم « الهادي » بشدّة ورعة ، وتصلّبه في اقامة الحدود وشعائر الدين ، وسيادة النظام والمساواة ، دونما مداراة لمناصبهم وعاداتهم وأطماعهم وما الفوه من مظاهر وسلوك وأعراف ، قد تآمروا على التمرّد والعصيان ، وقد سمّى صاحب السيرة بعضهم غير شاعرنا « ابن عبّاد » فذكر « ابن حميد » و « ابن بسطام » و « ابن الضحّاك » وقال : انهم قد تعاقدوا على أن يحدث كل رجل منهم في بلده على الهادي ، وان « ابن عبّاد » قد حاول أن يمكر وان يبرّر موقفه فكتب الى الهادي : « يعلمه انه انما خرج [من صعدة] رهبة منه وليس عنده الاّ السمع والطاعة » ، ولكن الهادي لم يصدق قوله وعرف انه انما يريد تثبيط قومه « اكيل » عن الخروج في حملة « نجران » فلم يلتفت اليه ، وعزم الى حيث أراد ، وتخلف ابن عبّاد وبعض قومه بعد أن كتب اليه : « يسأله ان يعفيه من الخروج الى « نجران » فان « بني الحارث » أخواله ولا يشتهي ان يرى بهم ما يسوء » ، ولّما لم يعذره الهادي جاهر بالعصيان ، وأعلن التمرّد ، وخرج الى حصنه في « علاف » وكانت فتنة فصّلها صاحب السيرة ص : ١٥٦ .

٣ ـ وكان زير نساء !!

وفي ص : ١٦٣ ـ ١٦٤ ـ وصف لنا السيد علي بن محمد العبّاسي الذي بقي مع أبيه خليفة الهادي في صعدة بأمر منه عندما ذهب الى « نجران » كي يراقبا « المتآمرين » ويحولا بينهم وبين ما يعملون من أجل تحقيقه . . محاولة « ابن عبّاد » القيام بالشغب واحتياله لأخراج من كان « الهادي » قد أمر بحبسهم من السجن ، وما نتج عن ذلك من فوضى ، ثم ذكر في ص ١٨٩ وحتى ص ١٩٦ ـ أخبار مخالفة « الأكَيْليّين » وكافة « الربيعة » ، وثورتهم

ضد الهادي بقيادة شاعرنا الفارس أحمد بن عبّاد الأكيلي وغزو الهادي لبلادهم وتنكيله بهم ، وهدم منازلهم ، وقطع أعنابهم ، واهلاك مزارعهم ومواشيهم وقال : « ولما انهزم « الاكيليون » من حصنهم ، قال بعضهم لأحمد بن عبّاد : يا أبا الحسن كنت توعدنا انك ستفعل وتفعل فلمّا حاربنا كنت جالساً مع النساء ! وكذلك بلغنا انه كان ذلك اليوم مع النساء في البيوت ».

٤ - نزوحه الى العراق وشعر الهادي فيه :

ويقول صاحب السيرة انه بعد تنكيل الهادي بقومه وبلاده قد فرّ الى بلاد « بني بحر » ومعه المحاربون من « الأكيليين » و« الكلبيّين » فمكث برهة من الزمن ، ثم طلب الامان من الهادي فأبى أن يؤمّنه وعلّل ذلك بقوله :

« قد عرف ان « ابن عبّاد » لا خير فيه ، وانه لا ينصحه ، وانّما همه ان يشوّش الاسلام ويهتكه ، ويتربّص به دوائر السوء » ، « فلما أيس من أن يؤمنه « الهادي » خرج الى « تهامة » ثم مضى الى « مكة » ثم نهد الى « العراق يصطرخ على الهادي بالمسوّدة [يقصد العباسيين] فأقام بالعراق سنة [عام ٢٨٨هـ] خازيا ذليلاً لم يلتفت اليه ، ولم ينظر في حاجته ، فلما رأى ذلك من أهل العراق رجع خاسئاً مدحوراً حتى صار الى « مكة » ثم رجع الى اليمن بأسوأ حال » [ص - ١٩٨ - سيرة] .

هذه هي رواية علي بن محمد العلوي وقد سبق أن أوردنا رواية ابي محمد الهمداني في الاكليل وهي دون تفصيل تقرّ انه « اكدى » وأخفق في مهمته وان كانت لا تتعرض للنيْل من كرامة ابن عبّاد أو التشفي به .

ومما يدل على ان الهادي كان قد انزعج لحركة « ابن عبّاد » وضاق به ذرعاً ، وفكرّ فيه طويلاً حتى نظم فيه شعراً فيه هجو ما كان لمثله وهو الامام ان ينفث به لولا انه قد عرف أو بلغه ما أشار اليه كاتب سيرته وأنه يدعو الناس الى ما يخالف دعوة الهادي التي خرج الى اليمن من أجلها ، ونقرأ ذلك صريحاً في قول الهادي من قصيدة « قافية » مطلعها :

نام خدن الحرب من بعد الأرقْ واستلذ العيش من بعد شرَقْ ،

يصوّر فيها تنكيله بأرض « ابن عبّاد الاكيلي » وقومه وأحلافه :

عايـنـوا المـوت فخـلّوا دورهـم ... وعـيـالات لهم عنـد الـفـرقْ ؛
وزروعـاً و« عنـابـا » جمّة ... وسـلاحـاً وأثـاثـاً ، وسَرَقْ
وعـبـيـداً ودروعـاً غنـمـتْ ... وثـيـابـا ، ومـتـاعـاً وورق ،
وهـم قد طرحـوا أسـلابهـم ... ورمـاحـاً وسـيـوفـاً ودرق
ثم طاروا في جبـال صعـبـة ... وتـبـعـنـا فقـتـلنا من لحق ،
وغـشـيـنـا عسكـر الـفسق ... يبـق فيـه من جديـد ، وخَـلق

***

ويقول عن « ابن عبّاد الأكيلي » متوعداً :

شامـهـم ذاك « الاكليـلي » الـذي ... غاص في الـغـرّةِ في بحـرٍ غمـقْ
احكمـوا درب « علاف » زعمـوا ... فاستبحنـا الـدرب وانـدقّ الغلق
أدبـرت دنـيـاهمـو من بعـده ... وتمـشـى الـذل فـيـهـم فاتّـسـقْ
ليس للشـيـبـة تجديـد إذا ... ودّع المـرء شبـابـاً وانـطلق
فهـو لا ينـجـيـه مني جبـل ... يعـجـز النـسر ولا الحـرف الأمقْ
ليس بالمـفـلت من سيـفـي ولـو ... جرع الـبـحـر ولـو خاضَ الأفق
سوف أجـتـث قريـبـاً أصـلـه ... ليس أمـر الـفـسـق يومـاً يتفق !

***

إلى آخرها ؛ ولا نستبعد ان « الاكيلي » قد ردّ على هذه القصيدة ، ولكن الرواة لا يستطيعون أولا يشتهون ان ينقلوا الينا إلاّ ما يرضون عنه ، أو من يرضى عنه من يقدرون ويحاذرون ويرجون !

٥ ـ عودته وتأمين الهادي له :

ويقول مؤلف سيرة الهادي أن شاعرنا قد عاد إلى « علاف » في رمضان سنة ٢٨٩هـ بمادة من قبل آل طريف ، وانه كان يرسل خيله تشرف على « علاف » ونـواحيها ويطارد الرعاة ، ويقطع السبل ، وانه أقام على ذلك حتى المحرم سنة ٢٩٠هـ وان « ابن الحكمي » كان أيضاً قد أمدّه بعسكر وخيل ص : ٢٤٣ ـ وان كل ذلـك قد سبب الخـراب وتغوير المياه وقطع الاعناب كما يحدثنا في ص : ٢٥١ انه ـ ولعل ذلك سنة ٢٩٠هـ قد عاد إلى بلده وان جماعـة من قومـه ومن كليب قد وصلوا الى الهادي اثر عودته من صنعاء بعد ان يأس من الجميع « وطلبوا منه الأمان لابن عبّاد فأجابهم الى

ذلك فقدموا به وصرف العسكر الذين كانوا معه وعاد الى الموضع الذي كان فيه واجتمع اليه أصحابه من كل « موضع » .

٦ ـ **وفاته وشعره :**

وبعد عودته الى بلده « علاف » واستعادته مكانته في قومه ، لا نسمع شيئاً عن نشاطه وكأنه قد أخلد الى الراحة ، وفضّل التربّص والانتظار حتى وفاة الهادي ، كما انا لا ندري له نشاطاً سياسياً أو حربياً طيلة أيام الناصر وحروبه مع القرامطة ولا نسمع عنه شيئاً في السيرة لأن كاتب يوميّاتها قد توفي سنة ٢٩٧هـ كما أسلفنا ؛ ولكن من أضاف الملحقات والزيادات اليها وذكر شيئاً من أخبار أولاد الهادي قد أخبرنا بأن أحمد بن عبد الله بن عبّاد الاكيلي وأخاه « الوجيه » قد قتلا في احدى حروب ابن الضحّاك مع القاسم بن الناصر في رجب سنة ٣٢٧هـ [ص : ٤١٤ ـ سيرة] .

ومما يلفت النظر ان صاحب السيرة ومن أضاف اليها ما أضاف لم يثبتوا شيئاً من أشعاره ولا نستبعد أن علي بن أبي جعفر كاتب اليوميات قد سجل بحسه الأدبي وذوقه الشعري ومزاجه العلمي بعض أشعاره لأنها بلاغة وتصويراً وتعبيراً في طبقة عالية ، ولكن المتعصبون وذوي الأهواء والميول المتضاربة قد حذفوها غمطا وتشويها ، كما حذفوا ما يريدون من كتب الهمداني وغيرها ، وقد قال العلامة نشوان الحميري ان شعره « من أحسن الأشعار وأفصحها » ص : ١٩٧ الحور العين .

أما الهمداني فقد أثبت في الجزء الأول من الاكليل بعضاً من أشعاره ومنها طويلته البائية التي قالها أثناء تشرّده وتمرده على « الهادي » :

لعمرك ما زال المطايا نواجيا لهنّ رسيمٌ دائم ووجيبُ

وهي طنّانة ، ومن أجود ما قرأنا في « التغرّب » و« العتاب » و« التعزّي » ووصف قوارع الزمان .

ويخيل اليّ ان شاعرنا قد سمع أقوالاً وأشعاراً ساءته ؛ ولا شك ان الكثير من ذلك قد كان ، وحسبك ان الامام الهادي نفسه قد ساهم في المعركة وهجا « الاكيلي » وقومه وتوعّده وهدّده كما سبق في قصيدته القافية ، وربما ان شعراء صعدة المعاصرين له أمثال ابراهيم بن الحدوبة وابراهيم التميمي

بل وعلي بن أبي جعفر قد ساهموا أيضاً في الجدل البياني وقدحوا في هذا الأكليلي الزعيم الشاعر المتمرّد ، الذي لم يكتف بالاستنجاد بالزعماء المواطنين كآل طريف والحكمي . . بل وذهب الى « بغداد » ليستعين بالخليفة العباسي . وان كل ذلك قد آلمه وأوجعه فقال هذا الشعر الحزين الرصين :

لعمرك ما زال المطايا نواجيا لهنّ رسيم دائم ووجيبُ
اذا جاوزت وعثاً من الأرض أرقلتْ وقابلها من بعد ذاك سهوب
ودويّة مجهولة ما يرى بها مدى العين الاّ جفجفٌ وكثيبُ
هي البحرُ من برّ يمورُ سرابُه لها منخرٌ يذري الرياح رحيبُ
ترى طُلّحَ الانضاء . . في فلواتها لقيٍ ؛ ما لمحسورٍ هناك طبيبُ
بعيدة عهدٍ بالأنيس فجاجها بها الناس وحش والنعام ربيبُ
ترى الذئب فيها دالعاً بلسانه أضلّت جرَاه المُورُ فهو حريبُ
تخوض بنا أجوازها في سرى الدجى وفي حائم للحرّ فيه لهيبُ
نجائب لولا الله سخّرها لنا لعز علينا فوقهن ركوبُ

***

ولغة القصيدة وتراكيبها تمثّل لغة وتعابير الشعر الجاهلي والقرن الأول الهجري ، وكثير من القرّاء لا بد ان يعودوا الى المعاجم لمعرفة معاني بعض ألفاظها .

ومن بعد وصف الدويّة والنجائب ينتقل الى ما سمعه من كلام أحد أصحابه الذي تسّاقط الشكوى من فيه وكأنه قد سمعه يتبرّم كما سمع امرؤ القيس صاحبه لمّا رأى الدرب دونه فيقول مواسيا :

فبينا أنا من فوق حَرْفٍ شمِلّةٍ لها خببٌ مستوسقٌ ودبيبُ . .
وعت أُذني من بعض أسقاط صاحبي : الا ليت شعري من تراه يؤوبُ ؟
فقلت له : قَدْكَ اتّئدْ ، وَكُ صابراً على نائبات الدهر حين تنوبُ

***

ويسترسل وقد أدركه الأسى كصاحبه فيقول :

أقول وقد جاوزت « فيداً » وبعدها سباسب فيها للقلوب وجيب
على حين لا تخفِي الصبابة أهلها ، ولا يبرح العينَ الجمودَ سكوبُ

وأنكـر أمـري صاحباي وأن أُرى | على ولـعٍ ؛ إن الصبـابـة حوبُ
وأعـرضَـت الجـوزاء حتـى كأنها | وقـد ركدتْ وسط السماء صليبُ ؛
أرى أنـجـماً يا صاحـبـيَّ وانها | وعـيشـكـما من أرضنـا لقـريب
غرائـب في أرض العـراق كمثلنـا | وقـد يؤنس المـرء الغريب غريبُ !

***

وانه لخيال بريء لطيف يحاول به هَدْهَدَةَ ولَعِهِ وصبابته القاتلة ، وحزنَ ويأسَ وآلامَ صاحبيه أو أصحابه ، حين يرى نجوماً تعوّد ان يراها في أرض اليمن فيحسب انها قد تبعته من هناك ويقسم بعيشيهما انها قريبة من ربعه وأهله ، وموطن صبابته وصباه ، مع انه يعلم ان نجوم السماء ترى من كل مكان ، في مشارق الأرض ومغاربها ؛ وليست الى بلد أقرب منها الى بلد آخر ، ولكنه يريد أن يتحدّث الى نفسه والى صاحبيه مواسيا ، فيستكثر من اليمنيين الغـربـاء معـه في « العـراق » فيعطي « النجوم » جنسية وطنه ، ويستأنس بغربتها ؛ « وقد يؤنس المرء الغريب غريب » ثم يقول فاتحاً أبواب الأمل بالعودة :

ستـسليكـما ـ ان فرجَ الله ـ أوبـةٌ | تقـر بها أعـيـانـنـا وتـثـوبُ
ويضحى الـذي قاسيتماه قد انقضى | ويخـفض عيش بعـدهـا ويـطيبُ
فما العسر الاّ اليسر يأتيـك بعـده ، | ولا الضيق الاّ بالـرخـاء مشـوب
وليس نعيم الـدهـر ضربـة لازب | ولا هو بالـبـلوى عليـك رتـيـبُ

***

ثم يتذكر اولئك الذين جشموه الصعاب وأفسدوا ما بينه وبين قومه وربما وبين « الامام الهادي » من المنافسين والحاسدين فيقول :

فما اخـترتمـا هذا ؛ ولكن مشت بنا | عقـارب لم يوجس لهن دبـيـبُ !
عقـارب ضغنٍ أبْـرهـا غير بارحٍ | له حمة تجري بنـا وتـذوبُ
ولا منكـر من حاسـدٍ نال ما ابتغى | ولا من حريصٍ أن تراه يخيـبُ
وكـنـا جميـعـاً أهـل دارٍ وطينـةٍ | وبـعض لبـعضٍ صاحـب وحبيبُ

***

ويتـذكـر شتيمتهم له وتحاملهم عليه بالاشعار فيخاطبهم بهذا العتاب

المرير وفيه ما يدل على انه يودّ أن يستبقي أو يستحيي الود القديم ، وان تعود المياه الى مجاريها ؛ ولعل له أشعار كثيرة من هذا القبيل وانها كانت من أسباب صلاح ما بينه وبين الهادي وقومه فكتب له « الأمان » وعاد الى بلده مكرّما كما كان .

فأبلغهم عنّي إذا ما لقيتهم ، ولن يُلْفَ منهم للعتاب مجيبُ
علام اجترأتم بالقبيح وبعضنا لبعض أكيلٌ دهره وشريبُ ؟
ألم نك نكفي كالدريّة دونكم عداكم ، وأنا للعفاة قليبُ
وكنا لساناً تأمنون سقاطه إذا ارفضّ في عُور الكلام خطيبُ
وكنا نراعي غيبكم فكأنّما علينا لكم في الغائبينَ رقيبُ
سنحفظ ما ضيعتم ونصونه ليُكشفَ يوماً ذاك وهو قشيبُ
عفا الله عنكم كل شاةٍ برجلها ، على نفسه يخطي امرؤ ويصيبُ
وانا لنجزي حملنا وتقلّه كواهل منا ما لهن ندوبُ
وما زال فينا الدهر نفس أبيّةٌ ورمحٌ يعاف الغدر وهو صليبُ

***

ثم يعرب عما في قرارة نفسه من رجاء في عودة الصفاء بينه وبين الامام وانه ببعد نظره قد يغيّر رأيه فيه ويسجّل ذلك ببيت واحد وهو :

ونرجو ـ على ما كان ـ ان «إمامنا» له بُعد رأي للجميل يئوبُ

ويخيل الي أن أبياتاً قبل هذا البيت وأخرى بعده قد شطبت قصداً وربما كانت ضمن ما استغنى عنه محمد بن نشوان الحميري مختصر الاكليل لأن الشاعر قد خرج الى ذكر الامام دون تمهيد ثم قفز فجأة فقال :

ولله أمر نافذٌ في عباده تقلّب آراءٌ به وقلوبُ
هو اللّه قيوم البلاد وأهلها ، ومَن لَهُ فيهم شاهد ورقيبُ

***

وقد اعتمدت في نقل النص على نسخةٍ مخطوطة أما محقّق المطبوعة الاستاذ العلامة محمد الأكوع فقد خبط العشواء تصحيفا وتحريفا وتفسيراً لألفاظها .

ولشاعرنا قصيدة عينية في سفره للعراق أوردها أيضاً الهمداني في الجزء الأول من الاكليل ومطلعها :

هي العين أمستْ والكرى لا يطيعها ... فغيم تَلوم النفسَ ، أو ما صنيعها ؟
واني وان كان العراق محلةٌ ... من الأرض مأمونٌ ظماها وجوعها
لمستشعرٌ شوقاً إذا ما تألقتْ ... بوارق أرض واستبان لميعها
أقول ، وبات الهم ثمّ مضاجعاً ... يسامرني والعين نزرٌ هجوعها
ألا ليت شعري عنْ حمام عهدتها ... تجاوب في حرف (الرّجاة) سجيعها
وعن قاطنات من ظباء رواتع ... بأكناف (دمّاج) يطيب رتوعها
حمينا عليها بالقنا عقوةَ الحمى ... فهنّ كوال ليس شيءٌ يروعها
أكالعهد ؟ أم حالتْ ؟ فللدهر نوبةٌ ... تبيّن في الصم الصلاب صدوعها
وما القلب بالنّاسي على كل حالة ... وإن نزحتْ دارٌ وبان شسُوعها
وهل مرجعاً أيامنا ومرادها ... لتسكن نفسٌ ، أو ليهدَا نزوعها ؟

***

إلى أن يقول :

ذوت لفراق الماء حتى كأنها ... سعائف عُسْبَانٍ تميد جذوعها
مخافة ذي حاج يضيّع حاجة ... ولا لوم ان كان القضاء يضيعها
اذا ما وقفت النفس في الشك لم يزل ... لها خاطراً ينزوْ لها ، ويليعها
وعند بلوغ العذر للنفس راحةٌ ... ويأوي اليها خفضها وقنوعها
لنا أنفس لن يبلغِ الضر جهدها ... ولم تستكن للهم وهو ضجيعها
أصارع أياماً ومنها صريعنا ... إذا ما استطعْناه ومنا صريعها
لحسن مقال أو لنفي مذمة ... إذا صالح الأنباء يثْني رجيعها
خلائق من آبائنا عرفت لهم ... إذا نائبات الدهر هبَّ فظيعها
سلي عقب الأيام عنا فكلّها ... حلبنا ، فذقنا ما تضمّ ضروعها
فما حملتنا فوق أصعب مركب ... ولوآدنا ـ الاّ ونحن نطيعها

***

وانظر الأكليل الجزء ـ ١ ـ ص : ٣٣٨ ـ ٣٤٤ ـ .

١٠ ـ ابراهيم بن محمد بن الحدوبة الصنعاني
[٢٦٠ ـ ٣٣٠هـ / ٨٧٤ ـ ٩٤٢ م]

والجدوية بالجيم المعجمة بعدها دال مهملة مفتوحة ، ثم واو مكسورة ، فيَاءٌ مثنّاة مشدّدة ؛ فهاء ؛ هكذا سمعتُ أدباء صنعاء ينطقونها ، وهكذا كتبها نسّاخ كتاب الاكليل ، وصِفة جزيرة العرب للهمداني وأمّا ناسخ كتاب « مطلع البدور » لابي الرجال فقد ضبطها « الحدوبَة » بالحاء المهملة بعدها دال مهملة مضمومة ثم واو بعدها باءٌ موحّدة مفتوحة ؛ وقال مؤلف « مطلع البدور » أحمد بن أبي الرجال : « وحدوبة بيت من الفرس الذين يقال لهم فرس العدن » ؛ وقد ضبطها محمد بن بليهد النّجدي « الجدَّوَيْة »[1] بفتح الدّال وتشديدها وفتح الواو بعدها ياء مسكّنة ثم هاء . قال ابن أبي الرجال : « كان ابراهيم أشعر أهل عصره ، وسلك في شعره مسلك الكميت ، ومن مرثيته في الهادي عليه السلام [توفي في شهر ذي الحجة سنة ٢٩٨هـ الموافق أغسطس سنة ٩١١ م] .

وَهَتْ عضد الاسلام واندقّ كاهلُهْ ... وغالتْ بنيه في الزّمان غوائلُهْ

ذكر ذلك السيّد صارم الدين رحمه اللّه تعالى » . ولم يذكر بقية القصيدة بل أورد مرثاة أخرى رائية لابن الحدوبة في الامام الهادي ومطلعها :

دموعٌ مرتها واستهلّ غزيرُها ... حزازات ثكْل ، ليس يخبو سعيرُها
هو الثكل ؛ لا ثكل البنين ؛ وإنّما ... تعفّي على ثكل البنين شهورها
وثكل أمير المؤمنين مجدّدٌ ... على الأرض ؛ ما هبّت عليها دبورها
ألا خابت الأيام ماذا تعاقبت ... علينا بها أصالها ، وبكورها ،
برتْنا كما تبري القداح بدَوِّها ... وكرّ لنا بالمُصْمَئلّ كرورُها
لقد ضُمّنَ الهادي الى الحق حفرة ... مطهّرة ، طابت وطَاب نشورها
فصارت بطون الأرض تزهو وطالما ... زهت بأمير المؤمنين ظهورها
وكانت قلوب المؤمنين بعدله ... مطهّرة طول الحياة ، ودورها
فقد أصبحت من بعده اليوم إذ ثوى ... مطهرة أمواتها وقبورها
وكان لأهل الأرض في الأرض رحمةً ... فلمّا تولّى فاجأتهم شرورها
أتخلو قلوب المؤمنين من الأسى ... وقد مات يحيى بن الحسين أميرها
وأصبحت الدنيا ، وأمة أحمدٍ ... معطلة أمصارها وثغورها

ألا أبلغا خولان في مستقرها   وهمدان ، ما أهدى إليها مسيرها
أناشدكم بالله في منع دينكم   وفي حُرمٍ غالٍ عليكم مهورها
وفي بلدةٍ كانت لكم قبل تبّع   بكم مُنعت أطامها وقصورها(١)
وابن رسول الله بين ظهوركم   وسيرة عدل كان فيكم يسيرها
دعوا عنكم الشحناء في ذات بينكم   وكونوا له عوناً على من يثيرها

***

إلى آخرها ؛ وهي طويلة ، وفي بقيتها أبيات ضعيفة بل سخيفة لا أظنّ أن شاعراً قال عنه الهمداني ـ وهو الشاعر والناقد ـ انه « أشعر شعراء زمانه » يرضى بأن تُنْسبَ إليه ، ولعلّها من إضافات الرواة . لا لأنّ فيها تحامل على أهالي صنعاء ، أو شتائم لأبن الفضل ، وسائر المعارضين للامام الهادي فقد يكون ذلك ما يعتقده الشاعر ، وقد نجد في أشعاره وأشعار أمثاله ما هو أشد وانكى . . ولكن لأنها من النظم الركيك لغةً وسبكا . . ولا يقوله شاعر مثل ابن الجدويّة أو إبن الحدوبة .

ولم يذكر ابن ابي الرجال متى ولد الشاعر ولا متى مات ولكنّا نعرف أنّه قد مدح ورثى الامام الهادي المتوفي سنة ٢٩٨هـ وابنه الامام الناصر أحمد ، والسلطان أسعد اليُعفري المتوفي سنة ٣٣١هـ وعليه فقد عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين ؛ أي ما بين عام ٢٦٠هـ و٣٣٠هـ « ٨٧٤ ـ ٩٤٢ م » تقريبا .

ثم ختم ابن ابي الرجال الترجمة بقوله : « فائدة : وقد كان ابراهيم هذا يلتبس عليّ بابن أبي البلس الخيواني الزيدي الشاعر المجيد لجامعة مدحهما ليحيى [بن الحسين] عليه السلام ، وكان بليغاً . والقصيدة السينية التي منها :

لو كان سيفك قبل سجدة آدم   قد كان جُرّد ما عصى إبليسُ

من شعره رحمه الله وقد اكتفينا بذكره هنا » .

وقد تحدّث الهمداني عن ابراهيم بن الجدويّة [أو الحدُويَة] في مواضع شتّى

(١) هكذا في الأصل ؛ ولعلها : بعد تبّع .

من كتبه ففي الجزء الأول من الاكليل قال ص ٤٤١ .

« وفي العشِّينَ يقولُ ابراهيم بن محمد بن الجدويّة الصنعاني وكان أشعر شعراء زمانه ، وكان يتنزّر :

تعاتبني حُسينة في مقامي بأرض العشِّين ، فقلت : خِبْتِ
أفي قوم احلّوني ، وحلّوا على ظهر الثريا اليوم لُمت ؟
بقربهم علوت الناس حتّى رأيتُ الناسَ والثّقلَين تحتي ،
وإن شهدوا الحروبَ فأسْدُ غاب غضاب ، دونَ أشبلها بخَبْت . .
وإن طلبوا المكارم أدركوها بكل مقدّم العِرنين صَلتِ
فقد طابت مغارسهم وطابوا وزادوا في المدائح فوق نعتي
سلي الدنيا ومن أضحى عليها تُنبِّئكِ اليقين إذا سالتِ
أحقّاً يا سماء رأيتِ قوما مشوا من تحت ظلّك مُذ رُفِعْتِ ؟
وهلّ يا أرض كان لهم نظيرٌ على أكتاف ظهرك مُذ سُطِحتِ ؟
ويا شمس النهار عليك أولى يمين اللّه ربّك هل طلعت . .
على قوم كمثلهم لجار غريب ،؟ أو لأرملةٍ ومُشْتي ؟
وللحرب العوان إذا إزبأرّتْ نواصي الخيل من شقرٍ وكُمتِ
أريني خامساً لهمُ ، وأنّى تنالين السماء ، ولو حرصتِ . .
كمثل « ابي فطيمة » ، أو « كزيدٍ » و « ابراهيم » ، أو « حَسَنٍ » ، وبَتِّ

***

وقال أيضاً في كتابه « صفة جزيرة العرب » وهو يتحدّث عن « صنعاء » : « ومن شعراء صنعاء نفسها ابراهيم بن الجدوية ، وقد ذكرنا شيئاً من شعره في كتاب الاكليل ، وكان مطبوعاً في الشعر ، وكان في الرجز أبرع ، وكان ربما يشابه في بعض مذهبه مذهب « الكميت » في مثل كلمته في العلوي الناصر » [الامام أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين] .

ناصر الدين لم تزل منصورا شكر اللّه سعيك المشكورا

وله في أبي الحسين الرسيّ [الامام الهادي يحيى بن الحسين] مرثية وهي :

وهت عضد الاسلام واندقّ كاهله وغالت بنيه في الانام غوائلُه

وكان يستغرق أكثر شعره هجاء السّوقة والسُقّاط ؛ ومن أحسن شعره

كلمته في أسعد بن أبي يُعْفِر وأوّلها :

يا طائـرين أحَـالَ البـيْنُ فارْتَفعَـا ؛ إنّ النّـوى قد قضتْ أوطـارَها فقَعَا

ولا شك أن الهمداني قد روى له عدّة قصائد في الاكليل كما قال ولكن لم يصـل الينـا منهـا إلاّ المـطالع الثلاثة في الهادي ، والناصر ، واليُعْفِري ؛ والأبيات في « العشيّين » ولا نستبعد أن المتعصبين من الأدباءِ والنسّاخ قد تعمـدوا حذفهـا ولا سيما إذا عرفنـا أن الجـزء الأول من الاكليل المطبوع والمتـداول ليس هو الـذي ألّفـه الهمـداني بل هو المختصر ومؤلفـه محمـد ابن نشوان الحميري الذي قال في مقدمته انّه قد تصرّف وحذف ما لا فائدة فيه من الأصـل للهمداني . . وكان محمد بن نشوان هذا شديد التعصّب للقبليّة والاعـراق والـطائفية وشـاعـرنا ابن الجدويّة كان كما قال الهمداني « يتنزّز » أي يتعصب « لنزار » ، ويذهب مذهب الكميت في تشيّعه لأهل بيت الـرسـول ﷺ فلا نستبعـد أن محمد بن نشوان قد تعمّد حذف جل ما ذكره الهمداني من أشعار ابن الجدوية في الهادي وابنه الناصر ، وما يوحي بتشيعه ، وتعصبه لعدنان والنزارية وتلك شنشنة المتعصبين والعنصريين في كل زمان ، وحسبنا ان الذين طبعوا ديوان شاعر اليمن محمد محمود الزبيري قد شطبوا وحذفوا من ديوانه « الأعمال الكاملة » كل قصائده في الامام يحيى وابنه الامام أحمد حميد الدين وهذا في عصرنا الذي يسمّونه القرن العشرين بعد محمد بن نشوان بسبعة قرون .

١١ ـ ابراهيم بن محمد التميمي
[ت حوالي ٣٢٥هـ / ٨٤٠ م]

من معاصري سميّة « ابن الحدوبة » . قال ابن أبي الرجال في « مطلع البـدور » : « صدر صدور الشريعة الذي لا يُلحق ، وبدر بدور الشيعة الذي لا يُمحق ، كان من أعيان زمانه ، فصيحاً بليغاً مفوّها شاعراً مجيدا ، له كلّ قصيدة غرّاء » . ومن شعـره لمّا بويع الناصر أحمد بن الهادي [سنة ٣٠١هـ] وكان قد اجتمع اليه خلق كثير فقال ابراهيم :

عادات قلبـكَ يوم البـين أن يَجِبـا وأن يراجـع فيـه الشـوق والـطربـا

وخرج إلى المديح فقال :

قومٌ أبـوهمْ رسـول اللّه ؛ حسبهمُ ... بأن يكـون لهم دون الأنـام أبـا . .
من ذا يفـاخـر أولاد النبي ، ومَن ... هذا يداني الى أنـســابهـم نسـبـا
قوم إذا افتخـر الأقـوام واجتهـدوا ... وجــدْتَ كل فخــارٍ منهمُ اكتسبا
لولا الآلـه تلافـانـا بديـنـهـمُ ... لما فتِئنـا عكـوفـاً نعبـد الصُّلُبا
أقـام « جبريـل » في أبيـاتهم حقبـاً ... يتلو من اللّه في حافـاتهـا الكتبـا
أنتم أنـاسٌ وجـدنـا اللّه صيّركم ... لنـا إليـه إذا لذنـا بكـم سبَبـا
لا يدْفَـع السـوء والبلوى بغـيركم ... عنّـا ، ولا ينجـز الـوعد الذي كتبا
وأنـتـمُ حزبُـهُ من دون غيركـمُ ... ومن يكن حزبـه منكم فقـد غلبـا
لا يصلح الـدين والـدنيا بغيركمُ ، ... ولا يُقـال لمن سامى بكم كذبَـا ،
من عابكم ـ حسداً ـ عاب الآله، ومن ... عاب الآلـه ؛ فقـد أودى، وقـد عطبا
ومـن يكـن سلمـكـمْ يسـلَمْ بسِلْمِكمُ ... ومـن يحاربكم جَهْـلاً فقـد حربـا ،
لم يفـرض الـلّه أجـراً غير حُبّـكـمُ ... لجدكم خاتم الـرسـل الـذي انتخبا ،
حق الصـلاة عليكم والـدعـاء لكم ... فرض على كلّ من صلّى ومـن خطبـا

***

ولم يذكر ابن أبي الرجال الارتباك الذي حصل بعد وفاة الامام الهادي [ذو الحجة سنة ٢٩٨هـ] وتفاقم أمر القرامطة وتوافد الناس بصعدة ونواحيها الى المرتضى بن الهادي ومناشدتهم له بالقيام بالأمر بعد أبيه وتمنعه وقوله لهم : « لسنا رحمكم الله بأبناء دنيا فنتكالب عليها ، ولا بأهل باطل فنطلب الامارة والسلطان والأمر والنهي من غير استحقاق ، وعلى غير جهة رشدٍ ورشاد ، واستقامة وصلاح » ثم ذكّر بعضهم بنقضهم العهود والمواثيق التي أعطوها للامام الهادي وقال : « ألم ينكث جلّكم أيمانكم بعد توكيدها وقد جعلتم اللّه عليكم كفيلاً ؟ . ألم يترك أكثركم الحقّ جهراً ، واتبع الباطل ، وباع الكثير الباقي بالتافه اليسير الفاني ؟ » الى آخر خطبته التي ذكرناها في ترجمته .

وقد ذكر المؤرخون كيف أصرّ الناس على تحميله الحجة ومبايعته في شهر المحرم سنة ٢٩٩هـ [ـ ٩١٢ م ـ] وتسييره الجنود لقتَال القرامطة واستقامة أموره طيلة أحد عشر شهراً . ولكنّه جمع وجوه العشائر في ذي القعدة من نفس العـام ـ ٢٩٩هـ وألقى فيهم خطبـةً طويلة عاب فيها عليهم أشياء

كرهها منهم . . وأعلن اعتزاله والتخلّي عن الأمر وبيّن الدوافع والأسباب التي أوجبت عليه ذلك ، ولزم بيته في صعدة ، وكان أخوه الناصر أحمد غائبا في الحجاز فقدم الى صعدة فالتف الناس حوله وبايعوه في صفر سنة ٣٠١هـ وفي خلال العامين كان قد دار خصام وجدال بين رؤساء القبائل أشار الى بعضه شاعرنا ابراهيم التميمي في قصيدته فقال :

تشوّفَ الملحدون النوك مذ علموا ... ان الامام علينا اليوم قد عتبا . .
فقلت : لا ترفعوا جهلاً رؤوسكمُ ... فيأخذ السيف من هاتيك ما انتصبا ،
ان الامام وان ابدى معاتبة ... منّا ؛ ليشبه فينا الوالد الحدبا
كانت أمورٌ وكان الله بالغها ... ومحنةٌ منه قد كانت لنا أدبا
وقد تولّى أمور الناس خيرهمُ ... بعد الامام ، فتم الأمر أو كربا !
صنو الامام ومن سدّ الامام به . . ... نهج الثغور ، ولَمَّ الصّدعَ فارتأبا . .
هذا أبو حسنٍ والجود في قرنٍ ... أمسى بذي يَمَنٍ أمناً لمن رهبا
ساس الأمورَ وكانت قبل مهملة ... وقام فينا بدينِ الله محتسبا ،
اذا تحجّب أهل المال وامتنعوا ... لم تلقه خشية الإنفاق محتجبا
يعطي الجزيلَ ، ولا يرضى القليلَ ، ولا ... يجفو الخليلَ ، لذنبٍ؛ جدّ أو لعبا،
لمّا بدا ابن رسول اللّه منصلتاً ... يوم العروبة في خولان إذ وثبا
تحفّه عصبٌ ضاقتْ بهم عصبٌ ، ... من حولهم عصبٌ تتلو بها عصبا . .
رجال سعد بن سعدٍ والربيعة إذ ... أتوا إليه جميعاً جحفلاً لجبا
كأنّه اليّم إذ جاشت غواربُه ... إذا تلاطم موج البحر وارتكبا ،
أو كالعريض إذا التفّت سحائبه ... فطبّق الأرض والآفاق وانسكبا
راق العيون ، وسرّ المسلمون به ... وساءَ من عاند الاسلام واكتئبا ،
وكان إشباب نار الحرب بينهما ... لو انها اضطرمت كانا لها حطبا . .
على شفا جُرفٍ هارٍ مواقفهم ... لا يستطيعون من اشفائها هربا
حتّى تداركهم منها ؛ فأنقذهم ... ربٌ بجدّك منها انقذَ العربا ،
فألّف اللّه بالاحسان بينهما ... بنهيكم ؛ فأماطا الحرب واصطحبا
تلك الصنائع عند العالمين بكم ... لا يعدلون بها الأوراق والذهبا
فأنتمُ رحمة فينا لأوّلنا ، ... وآخرينا ، وهذا الشكر قد وجبا

***

وهذه الفتنة هي التي تخوَّف من حدوثها الشاعر « ابن الحدوبة » في مرثاته للهادي حين قال :

ألا أبلغا خولان في مستقرها وهمدان ما أهدى اليها مسيرها
أناشدكم بالله في منع دينكم وفي حرم غالٍ عليكم مهورها
دعوا عنكم الشحناء في ذات بينكم وكونوا له عوناً على من يثيرها

***

١٢ ـ الرئيس محمد بن أحمد الظُّلَيّمي : [ت حوالي ٣٢٠هـ]

كان أباضياً وكان أصحابه قد أرادوا مبايعته إماماً ، ولكنه اجتمع بالامام الناصر أحمد بن الامام الهادي [ت ٣٢٥هـ] فتأثر بكلامه وحُجَجه ، ففارق الاباضية ، واعتقد العدل والتوحيد ، ودعا أهله وعشيرته الى ذلك وبايع للناصر وقد ترجمه ابن ابي الرجال وقال انه « كان من سادات القبائل متبوعاً مسموع الكلمة ، مشارا اليه في النوازل » وذكر قصة اجتماعه بالناصر ومبايعته له ثم قال : « واستقام على الطاعة غاية الاستقامة ووفى بما عاهد الله عليه حتى مات » وهذا يعني انه توفي قبل وفاة الامام الناصر عام ٣٢٥هـ .

وأورد ابن أبي الرجال في تركه للمذهب الاباضى واعتناقه للمذهب الزيدي قصيدة طويلة للعلامة عبد الله بن أحمد التميمي مطلعها :

الآن قمت بدولة الاسلام ونفيتَ عنك عماية الاظلام
ونصرت آل محمد ونصحتهم وتركتهم في العز والإعظام
وحفظت قول الله في القربى ولم تتبع ضلالة جاهل متعامي

***

إلى آخرها ؛ وقال ان الرئيس محمد الظليمي أجابه بقصيدة منها :

يالائمي في حبّ آل محمدٍ تبا لرأيك لات حين ملامي
كفّ الملام فقد عرفت فضائلا أرجو النجاة بها من الآثام
لمحمدٍ علم الهدى وشقيقه قمر الدجى ذي الفضل والانعام

فرعيتها وجعلت أقصى همتي   حفظ المودّة سائر الأيام
من كان أصبح راعياً في نائل   فسماحهم حظي من الاقسام

***

ثم تعرض للدولة الاسماعيلية والقرامطة كما تعرض لذلك التميمي ، وهو من زعماء قبيلة حاشد ويظهر ان المذهب الاباضى كان قد انتشر في اليمن بجانب الدعوة الاسماعيلية والزيدية ، وان لتأثر الرئيس الظليمي بالناصر أثر كبير في تلاشي فرقته ويقول ابن ابي الرجال انه اجتمع بالامام في « خيوان » ولم يحدّد تاريخ اللقاء ولا عام وفاة المذكور ولعله توفي في حدود عام ٣٢٠هـ .

[مطلع جـ ـ ٤ ـ لوحة ٢٩٤ ـ ٢٩٥] .

١٣ ـ عبد الله التميمي :
[ت خوالي ٣٢٠هـ]

العالم الكبير عبد الله بن أحمد التميمي أحد الأعلام المعاصرين للامام الهادي يحيى بن الحسين [ت ٢٩٨هـ] وابنيه المرتضى والناصر [ت ٣٢٥هـ] ترجمه ابن أبي الرجال وقال : « وعدُّه في العلماء أولى من عدّه في الشعراء وان كان له شعر ؛ فتناهيه في العلم ، وعلوّ مكانه قد أناف بقدره عن هذه الحطة ، وكان يقول الشعر الجيد» ! ثم نقل عن الشيخ أبو الغمر قوله : « واحسبه صاحب المسائل التي في تفسير أي من غريب القرآن وغوامض معانيه وهي كثيرة سألته عنها الاباضية فسأل عنها الامام الناصر أحمد ابن يحيى فأجاب بذلك الجواب المعروف بأيدي الزيدية اليوم وهو من جلائل الكتب في علم التفسير » وبعد ذلك أورد قصيدته التي أنشأها يوم بيعة الناصر بن الهادي في شهر صفر سنة ٣٠١هـ وأوّلها :

نصح المشيب أزاح اللهو والطربا . ومنها :

دافعت عن فئة الاسلام حاسدها   فما تركت له رأساً ولا ذنبا
لم يبق طاغ يكيد الحقّ معتمداً ،   الا هوى ونجا من خوفه هربا
ذكرتنا سيرة الهادي وقمت بها   وسرت فينا تعزّ الدين والحسبا

***

وهي من نظم العلماء ، وتُصدِّق أن عدَّه في فئة العلماء أولى من عدّه بين الشعراء ، وليس لتناهيه في العلم بل لأن نظمه ليس من الشعر الجيد ! وقد سبق أن أوردنا قصيدة الشاعر الكبير ابراهيم بن محمد التميمي التي أنشدها لما بويع الناصر ابن الهادي عام ٣٠١هـ وهي على نفس وزن وقافية التميمي هذا ومطلعها :

عادات قلبك يوم البين ان يجبا — وأن يراجع فيه الشوق والطربا

ولعل العالم عبد الله والشاعر ابراهيم من أسرة واحدة ؛ وان كانت قصيدة ابراهيم التميمي من الشعر الجيد البديع .

ولم يذكر « أبو الرجال » سنة وفاة العالم الفقيه عبد الله التميمي ولعله توفي قبل وفاة الامام الناصر سنة ٣٢٥هـ .

[مطلع ـ ٣ ـ لوحة : ٣٢] .

١٤ ـ الشاعر الأوساني :
[ت ٣٦٠هـ / ٩٧١ م]

العالم النسابة الشاعر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل الأوساني المتوفي عام ت ٣٦٠هـ / ٩٧١م ترجمه علي بن يوسف القفطي في كتابه « المحمدون من الشعراء » فقال : « والأوسانيون من بطون حمير الكبار وساداتها ، وفيهم الكرم والشجاعة ، وفيهم عمرو بن عامر الأوساني مبيح ماله للناس بوادي ضهر من مخلاف صنعاء وفيه يقول شاعرهم :

ومنّا نجل ذي أوسان عمروٌ — مسبّل ماله قبل السبيلِ

ومحمد بن أحمد بن عبد اللّه هذا من نسله وله شعر منه قوله :

سائل معدّاً كلّ يوم كريهةٍ — وحاكمهمُ حُكْماً وإن لم يحكّموا
ألسنا شفينا يوم بدرٍ صدورنا — بأسيافنا إذا قيل : يا فهر أسلموا
فما أسلموا حتى قضينا لبانةً — وغلًّا ، ولم يطلب مع الغلّ مغنم
ونحن جدعنا أنف قيس ، ولم ندع — بمكّة من ينشو ، ومن يتكلّمَ !
فان يزعموا أن النبيّ ورهطَه — بنو عمّهم أولى ولاءً وأرحمَ
فما لهم فخرٌ علينا بمجدهم ، — ونحن اتبعنا ما أحلّ وحرّموا
فما الفخر الّا فخر قومي ومجدهم — وما العزّ إلاّ حيث ساروا ويمّموا
وما الأرض إلاّ أرضنا وسماؤنا — وإن غضبت من ذا نزارٌ واعظموا

هذا ما أثبته القفطي المتوفي سنة ٦٤٦هـ ولا شك انه قد نقل نسب « الاوساني والشعر عن نسخة من الجزء الثاني للأكليل قديمة غير التي اختصرها وحرّف فيها وبدّل معاصره محمد بن نشوان الحميري الذي ما إن أطلع على القصيدة وهي من شعر المفاخرات العنصرية حتى نسبها في مختصره للاكليل الى جدّ محمد هذا وزعم انها من شعر عبد الله ابن محمد بن اسماعيل الأوساني ؛ ونقل عن شيخه عبد الله بن سليمان الحكمي انه روى هذا الشعر عن محمد بن عبد الله سنة ٣٥٦هـ ست وخمسين وثلاثمائة وهو من عمره في ثمانين وأنه قتل في سنة ستين وثلاثمائة وهو ما أربك محقق الثاني من الاكليل القاضي محمد الأكوع وجعله يقول ان الهمداني قد عاش الى ما بعد سنة ٣٦٠هـ [حاشية رقم (١٢٦٠) ص ٣٣٢ ج ـ ٢ ـ اكليل تحقيق الأكوع] وهو وهمٌ تنبّه له استاذنا حمد الجاسر في مقدمته لكتاب صفة جزيرة العرب وقال : « أخشى أن تكون تلك الجملة مضافة الى الأصل من غير كلام الهمداني ؛ من كلام المختصر محمد بن نشوان أو غيره إذ لو أدرك الهمداني مقتل شيخه لذكر سببه كعادته » وهي حجّة دامغة لكن القاضي الأكوع أوغل في العناد وأصر على خطأه فعلّق على كلام الاستاذ الجاسر في الطبعة الثانية لصفة الجزيرة قائلاً في الهامش ص ـ ٣١ : « لم تكن هذه الزيادة من مختصر محمد بن نشوان وإنما هي من أصل الجزء الثاني » . ونحن نقول : ان الزيادة تثبت وتؤكد ان أجزاء الاكليل المطبوعة محرفة ومختصرة وفيها نقص وزيادة ، وأما إصرار الأكوع وردّه على الجاسر فلِلّه در القائل : « لهوى النفوس سريرة لا تعلم » ! ولا يهمّنا ان يكون الشعر للجد أو للحفيد فانه « أوساني » ، ومن آداب اليمن في الفترة التي نؤرخ لها .

١٥ ـ سلام بن الحدّاد الصنعاني
[حوالي ٣٩٩هـ]

من شعراء أواخر القرن الرابع الهجري العلامة الأديب سلام بن الحدّاد الزيدي الصنعاني ذكره بايجاز المؤرخ ابن أبي الرجال وقال : « كان أديباً شاعراً عارفاً ، ومن شعره ما أنشده العلامة الحسين بن أحمد بن يعقوب [مؤلف سيرة المنصور العياني] في الامام القاسم بن علي العياني والقاسم الزيدي الذي ولاه الامام صنعاء

قسم القاسمان فينا الامانا		فبلغنا من الصلاح رضانا
وأدالا دهراً أديل علينا ،		وعليه برأفة دوّ لانا !
أمنّا سر بنا ، وصانا حمانا . .		وأخافا من كان قد اشجانا
وأعادا مذاهب العدل فينا ،		وأزالا الطغاة والطغيانا
مَنّ ذو العرش بالامام علينا ،		إن ذَا العرش لم يزل منّانا
حسنيّ أتى فأحسن فينا		والحسيني زادنا احسانا
نعمٌ اثرها على اثر بعض ،		قد سررنا بها وساءت عدانا
نحمد الله ذو الجلال فباًلحمد نرجى		تمام ما أولانا
زمن صالح ، وأمن وخفض		لم ير الناس مثل هذا زمانا

***

وهذا من الشعر السهل الممتنع ولا شك ان سلام هذا كان من شعراء صنعاء المطبوعين ، ولعل له في سيرة المنصور قصائد غير هذه ، وان كان الظن يرجّح أن اثاره الشعرية قد أتت عليها الفتن والتعصبات التي قضت على آثار غيره من معاصري تلك الفترة الكئيبة .

ونحن نعلم ان الأمان الذي كان ينشده شاعر صنعاء لم يدم ، بل لم يكن لأن الامام قد اختلف مع واليه على صنعاء ، وحصلت بينهما حروب ، وحل البلاء والضيق بصنعاء وسكانها وتعاورتها شتى اطماع سلاطين القبائل المحيطة بها ، والامام الصعدي ، والشريف الزيدي ، وابن أبي الفتوح وغيرهم طيلة الفترة ما بين عام ٣٨٩ و٣٩٣هـ وعم النّصَبُ ، وطمّ ، مع غلاء الأسعار والقحط وكثرة الفتن ، وقد صور المؤرخ يحيى بن الحسين ذلك بقوله : « وثارت الفتنة على صنعاء من خولان وهمدان وحمير والأبناء وبني شهاب ، ففي كل شهر لها حاكم ، وفي كل يوم عليها أمير والغالب آل الضحاك وقد تخلو [صنعاء] عن الأمير في بعض الأوقات إلى آخر سنة ٣٩٩هـ » .

وفي مثل هذه الظروف يتعرض أمثال الشاعر سلام الصنعاني لفنون البلاء ، وشتى الكوارث ، ولم يذكر أحد تاريخ وفاته ولعله لم يطلّ على القرن الخامس . [مطلع ج ٢ ص : ٢٧٤] .

١٦ ـ محمد بن الحسن الكلاعي
[ت حوالي ٤١٠هـ / ١٠٢٠ م]

عالم أديب شاعر له صولات في عالم الثقافة والتأليف والمفاخرة بين قبائل « عدنان » و« قحطان » ، وقد ترجمه العلامة يحيى بن الحسين في « المستطاب » من طبقاته فقال : « محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الله بن محمد الكلاعي الحميري كان فقيهاً نبيلاً نحوياً لغوياً عارفاً بالسير والتواريخ والأنساب وأيام العرب والعجم وحروب الجاهلية ووقائعها ، والمناقب والمثالب ، شاعراً فصيحا مترسلاً ، وهو صاحب القصيدة المشهورة بالكلاعية ذكر فيها شيئاً كثيراً من المناقب والمثالب والفخر ، وذكر فيها عدداً كثيراً من أمراء قحطان وكبرائهم وملوكهم ووزرائهم وعلمائهم وشعرائهم ، وأودعها من مثالب « عدنان » ما أودعها وسمّاها « القاصمة » وهي أكثر من الف بيت » وأولها :

أبت دِمن المنازلِ أن تبينا ... إجابةَ سائلينَ معرّجينا

وقد أجاب بها القصيدة « العدوّية » التي فيها أشياء من مناقب عدنان ومثالب قحطان وأوّلها :

طربتُ وقد هجرت اللهو حينا ... وهاجَ لي الهوى داءاً دفينا

ثم قال يحيى بن الحسين : « وأوّل من فتح الهجاء بين عدنان وقحطان الكميت بن زيد الأسدي ، وكان باروخ الرومي مولى الأمير اسحاق ابن ابراهيم بن زياد هجا حمير بقصيدة فأجابه الكلاعي .

وللكلاعي المذكور قصيدة طويلة رائية تزيد على ثلاثمائة بيت تشمل على أنساب حمير ومفاخرها وأيّامها ومآثرها وملوكها وأقيالها وفرسانها وأبطالها وقبائلها وبطونها ، وأفخاذها وعيونها سمّاها « ذات الفنون » يقول في أولها :

خليليّ هل ربع بَخيْوان مقفرُ ... يرقّ لشكوى ذي الجوى ويخبّر

وكان إنشاده لهذه القصيدة في قصر كحلان من بلاد ذي رعين وذلك في شهر صفر سنة ٤٠٤هـ هكذا ترجمه أبو مخرمة في تاريخه ذكرته هنا لتقدمه [المستطاب أو الطبقات الصغرى ص ـ ٥٣ ـ نسخة المنصور] .

كما أن القاضي أحمد بن صالح ابن أبي الرجال قد ترجمه في الجزء الرابع من كتابه « مطلع البدور » فقال : « لسان الزيدية البليغ المنشى الهمام بدر الدين محمد بن الحسن الكلاعي رحمه الله كان أحد عجائب الدنيا في بلاغته ونباهته وطال عمره ، واتصل بالسلطان حسين بن سلامة وكتب له ، وقد ذكرنا شيئاً من أحواله في ترجمة الوقّاد وفي رحلة الطبري عن اليمن احسبه اجتمع به في تهامة ورجع الطبري من هنالك كما تراه ان شاء الله في ترجمة أحمد بن موسى » ثم قال : « ولهذا الانسان أشعار مجيدة ينبغي ذكر شيء منها ، ومن أحسنها مساجلته للأمير المطهّر بن علي جد الامام أحمد بن سليمان ؛ فأنهما اجتمعا في منزل الأمير الحسن بن محمد بن يحيى بن الناصر بصعدة ، وحضر هنالك الأمير زيد بن ابراهيم بن محمد بن المختار بن الناصر ، وحضر معهم جماعة من أصحابهم منهم محمد الكلاعي هذا فاستدعى الشريف المطهّر الدواة والبياض ومدّ يده الى القاضي محمد بن الحسن الكلاعي فقال له : قل بيتين فيهما شئت حتى أجيزهما وكان الجوّ يومئذ لابساً للسحاب فقال الكلاعي مبتدئا :

أما ترى الجوّ وتعبيسهُ … كأنه من غيظه مغضبُ
يحكي لنا تعبيسه أنّه … عمّا قريب دمعه يسكبُ

فقال المطهّر :

يوم من الأيام مستطرب … بديع لون ، طرزه مذهبُ
قد طبّق الأرض بأطباقها … فليس من أطباقه مهربُ

فقال الكلاعي :

والرعد في حافاته مزجلٌ … كأنه نائحة تندب
والبرق كالبيض إذا جردت … يوم وغىً يشعله مقنبُ

فقال المطهّر :

صَهْصَلِقٌ مؤتلقٌ برقه … مغرورق مسحنفرٍ مُلجب
مجلجلٌ محتفلٌ مسبلٌ … أطباؤه دانيةٌ تحلب

فقال الكلاعي :

أخبرنا أن سوف يكسو الربا … ثياب نورٍ نسجها معجبُ

من فاقع أصفر ، أو ساطع ، أو اخضر ، أو احمر يخلبُ

فقال المطهّر :

شقائق النعمان من نسجه يضحك منها لونه المعرب
كأنها وشي وقد زخرفت ، أو درر تزهى ولا تثقب

فقال الكلاعي :

فاشرب على الروض وأنواره من قهوة نشوتها تلهب
يبدو لها في الكاس من درّها نظم اكاليل اذا تقطبُ

فقال المطهّر :

ومسمع يسبى عقول الورى مهفهف ذو أدب يطربُ
يستخرج القلب بأنياطه اذا انبرى ينشد أو يضرب

فقال الكلاعي :

واهيف يسعى بها طائفاً كأنها من خدّه تشرب
كأنه في لحظة شادن حواه في الآفه سبسب

فقال المطهّر :

في وَحْفِه ليلٌ ؛ وفي جهه بدر ، وفي الثغر له كوكب
مهفهف أغيد ، ذو غنّةٍ ، دعص نقيً ، من خلفه مكثب

فقال الكلاعي :

هذا ؛ وقد اغدو وجنح الدجى قد صوبت انجمه تغرب
يحمل بِدّي أشقر سابحٌ مبرّزٌ في عنقه سلهبُ

فقال المطهّر :

نهدٌ من الخيل العراب التّي أباؤها المنجبُ فالمنجب
يختطف الأرض إذا ماشى ويملأ العين إذا يُجَنب

فقال الكلاعي :

يدرك ما شاء إذا ما عدا ويعجز الطالب إذ يطلبُ

كأنــه مســتــقــبــلٌ يرتــقــى إلى كؤودٍ وعــرةٍ تصــعــب

فقال المطهّر :

مقــارب الـصــلب قريـب الـقــرا ما حامــه الــسنبــك والحــوشب
أكــرم به حرّاً ليــوم الــوغــى ، وزيــنــة للعــين إذ يُركــب

فقال الكلاعي :

ان مديــح الــصــيــد من هاشم أجـدر ما ينـعـتـه المـطلبُ
ودّي لهم ذخــري ليــوم الـقـضــا لأنّــني في ذاك لا أكــذبُ

فقال المطهّر :

هم الــنجــوم الــطالــعــات الــتي يزهــو بها المشرق والمــغــرب
هم الــبــحــور الــزاخــرات الــتي يحيــى بها المــقــتر والمــجــدب

فقال الكلاعي :

همُ الــلــيــوث الــضــاربــات التي أسـيــافــهــا يوم الــوغــى تخضــب
هم المــلوك الــفــصــحــاء الأولى مصــقــعــهــم يفــلق إذ يخطب

فقال المطهّر :

ان سوجلوا طالــوا ، وان يذكــروا طابــوا ، لمن يذكــر أو ينــســب
أصــلهــم الــزاكــي كما فرعــهــم هو الــزكــيّ الأفــضــل الأطــيــب

فقال الكلاعي :

والــدهــم ذو المفخــر المصــطفى قد انــجــبــتــه أمــه والأب
من غالــب والــغــلب من خنــدف تسـمــو به الأحــســاب والمنصب

فقال المطهّر :

أنــا ابــن ساداتهــم والــذي منــصــبــه من بيــنهــم أغــلــب
في ذروةٍ من عزّهــم لم يزل يســمــو به الانــجــب فالأنــجــب

***

وقد أثبتها كاملةً كما أوردها « إبن أبي الرجال » لا لأنّها من الشعر اليمني

المنتقى المختار ؛ إذ قد كانت مساجلةً وارتجالاً ، ومن عفو الخاطر ، ولكن لأنّها تصوّر سرعة بديهة الشاعرين العالمين ، وتبحّر معرفتهما باللغة العربية واستعمالهما الألفاظ الغريبة وما قد نعدّه اليوم حوشيا ولا نقرؤه الاّ في الشعر الجاهلي ، ولا نفهمه إلّا بالعودة الى المعاجم اللغوية .

أما الشاعران ـ ومن كان يستمع إلى مساجلتهما فقد كانا يستعملان مثل ألفاظ « صَهْصَلق » أي شديد الصوت صخّابة ، و« مسحَنْفر » بمعنى كثير المطر ، و« أطباؤه » أي ضروعه و« الوحف » بمعنى الشعر ، و« بدّي » أي مثلي ونظيري و« دعص النقى » ، و« مقارب الصلب » و« القرا » وهو الظهر ، و« السُّنْبك » ، ومعناها طرف الحافر ، و« الحوشب » وهو عظم في باطن الحافر ، أو عظم الرُّسغ وغير ذلك وكأنهما يتكلمان لغتهما الجارية الدارجة !

ومع ذلك فالسرد محكم رائق مثير ، ومعانيه في الوصف والمدح والفخر نفيسة ؛ ولقد تعرض محقق كتاب « قصيدة الدامغة » القاضي العلامة محمد بن علي الأكوع لذكر شاعرنا العلامة « الكلاعي » في مقدمته فقال : « وممّن دس أنفه في المناقضات « العدوي » واسمه زيد بن محمد من أحفاد عمر بن الخطاب وكان يسكن « صنعاء » وأحيانا « صعدة » فقد تصدّى لمناقضة « لسان اليمن » الهمداني بقصيدة في الوزن والروي أوّلها :

طربت وقد هجرت اللهو حينا   وهاج لي الهوى داءاً دفينا

وسمّي قصيدته « العدوية » نسبه إلى عديّ بن كعب بن لؤي جد عمر بن الخطاب ولم نظفر من قصيدته على غير هذا البيت .

« فناقضه علامة اليمن في عصره المؤرخ الكبير محمد بن الحسن الكلاعي الحميري المتوفي بقلعة كحلان خبان سنة ٤٠٤هـ أربع وأربعمائة بقصيدة على الوزن والرويّ وأسماها بالدامغة واشتهرت بالكلاعية وبالقاصمة . وأولها :

أبت دمن المنازل أن تبينا   إجابة سائلين معرّجينا

وهي نحو الف بيت وشرحها بمجلّدين ضخمين ، ويبدو أنها موجودة كما يستفاد من نقولات المؤرّخ محمود الألوسي عنها في كتابه « بلوغ الأرب في تاريخ آداب العرب » . وللكلاعي المذكور قصيدة أخرى في مفاخر قحطان

تُسمى « ذات الفنون » كما تسمّى « المفحمة » وهي رائية وأولها :

خليـلي ؛ هل ربـع بخفّـان مقفـرٌ يرقّ لشكوى ذي الجوى ، أو مخبّر ؟

أجـاب بها فضـل بن باروح الرومي مولى اسحاق بن ابراهيم بن زياد المتوفي اسحاق هذا سنة ٣٦٢هـ اثنين وستين وثلاثمائة ولا نعرف عن الرومي هذا وهويته غير هذه الكلمة ولا سوى .

« وقصيدة الكلاعي الرائية ثلاثمائة بيت واثنا عشر بيتاً وهي في حوزتنا مع شرحها ولله الحمد وسننشرها مع مجموعة من القصائد » .

انتهى ما قاله العلامـة الأكوع وقد ناقشتُ موقفه التعصّبي في كتابي « جنـاية الأكـوع على ذخـائر الهمداني » قبل أن أقرأ ترجمتَيْ المؤرخ السيد يحيى بن الحسـين بن القـاسم ، والعـلامـة القـاضي أحمـد بن صالـح بن أبي الرجال للكلاعي ، ولا أدري عندما أثنى القاضي محمد الأكوع على « الكلاعي » هل كان يعلم أنه « لسان الزيدية » وانه كان يذهب في تفاخره بقومه مذهب الشيعة وان محبته لآل الرسول كما قال في مساجلته :

ودّي لهم ذخـري ليـوم القـضـا لأنّنـي فـي ذاك لا أكـذبُ

وهل عندما يعلم ذلك سيضرب عن نشر قصيدة « المفحمة » ؟

الكلاعي ، والعدوي ، والوقار ؛ والملاحاة

وقد رجعتُ إلى ما قاله ابن أبي الرجال في ترجمة العلامة محمد بن جعفر الوقار التي قال انه ذكر فيها شيئاً من أحوال « الكلاعي » فوجدته قد أشار إلى أسباب المعارك الكلامية والمفاخرات العرقية التي دارت بين « الكلاعي » وبعض شعراء عصره والقى أضواءاً جديدة لم أكن أعرفها عندما ألّفت كتابي الجناية قال القاضي أبن أبي الرجال في « مطلع البدور » السفر الثالث ص : ٣٢٣ .

« العلامة الأوّاة ، المعاضد لأولياء الله ، محمد بن جعفر الطائي رحمه الله تعالى ؛ والده جعفر يعرف بالوقار أصلهم من بني ضبّة الّا انهم نسبوا إلى طيّ لأنهم كانوا ينزلون بجبل طيّ ونسبهم في بني ضبّة بن أدّ ، ولعلها قد مرت ترجمته وانه أوّل من خرج الى الهادي إلى الحق عليه السلام ، وولده

محمد هذا كان من أكابر العلماء ، عليه تعويل في رواية المهذب ، وكان يختص بعبد الله بن المختار بن الناصر ، وبالحسن بن أحمد الطبري ، والحسن استاذه » .

إلى أن قال : « وكان محمد بن الوقار من جملة أهل الأدب وأربابه ، له في نظم الشعر احسان وروى أبو بكر محمد بن الحسن الكلاعي الزيدي الآتي ذكره في آخر قصيدته « النونية » التي يجيب بها القصيدة المعروفة بأم الذباب المنسوبة إلى أبي زيد محمد بن الخطاب العدوي الصنعاني ، وهو رجل قرشيّ النسب من رواة الأدب ، وذوى الفضل وقومه العدويون من ولد عمر بن الخطاب منهم العدد بصنعاء وذيبين ، وبقرب صنعاء ، وهي قصيدة يفتخر للمعدّية والأعاجم وفيها نفي أنساب ، وتكلّم على الباطنية من جملتها فيهم :

ألستم مذعنين لابن فضل ومعطين المقادة أجمعينا
سما فيكم وقال : أنا نبيٌّ فلبّيتم وقلتم قد رضينا

ويسمّيها غير أهل اليمن بالقارعة ؛ نعم ؛ فروى « الكلاعي » أن القارعة المذكورة ليست لأبي زيد المذكور ، ونزهه عنها ، وجعل نسبتها الى جماعة من أهل صعدة تجمّعوا على نظمها منهم العلّامة هذا محمد بن جعفر الوقار ، ومنهم الحسن بن محمد بن عبد الرحمن الصرار وهو من بني دارم من بني تميم خرج من البصرة الى اليمن أيام صاحب الزنج ، وأكثرها فيما قال الكلاعي للصرار المذكور وأعانه الجماعة منهم أيضاً أبو أحمد بن أبي الأسد وكان ينسب إلى بني سليمان ، ومحمد بن الحسن بن دانة ، وقد مضى ذكر الحسن بن دانة ونسبهم إلى بني عبد الدار ، ابن قصيّ بن كلاب من قريش وعلي بن عشام من ثقيف ، وعلي بن محمد السحولي وهذا السحولي جد آل المذاهبي بصعدة وكان أصله يهوديا من يهود بني هارون ثم اسلم وصار عَقِبهُ إلى العمل بصعدة ، أبو عبيد محمد بن عبيد الصنعاني . وقد استبعد ما قاله الكلاعي سيما في إبن الوقار هذا فأنه كان من أهل العلم والديانة ، وشرفه يربأ به ويرفعه عن الخوض في أمثال هذه ! ومحمد بن الحسن بن دانة أبعد أيضاً فانه كان على منهاج أبيه من أوعية العلم وكتب بخطه كثيراً من علوم الأئمة » إلى أن قال : « وأما إبن أبي الأسد ، وابن عشام ، وأبو عبيد فقد

عرفوا بالشعر واشتهروا به سيما ابن عشام فانه هاجا النسّابة المعروف بأبن الحائك وهو الحسن بن أحمد الذي هدم الناصر للحق عليه السلام داره بصعدة ؛ وكانت دخيلته فاسدة ونحلته خبيثة » .

« ومن عجب أمر إبن عبيد ، وابن أبي الأسد انهما كانا يتماريان ويتمازحان ، فكان أبوعبيد يفضّل الجبن على الشجاعة ، وابن أبي الأسد يناقضه ؛ فحكّما في ذلك الحسن بن محمد بن الهادي إلى الحق فقضى للشجاعة على الجبن ؛ فمن شعر ابي عبيد يمازح ابن أبي الأسد ويخاطب زوجته :

دعيني عن السيف الحسام وحمله ... ولا تعذلي في نيل أعلى المراتب
فاني رأيت الحرب تودى بأهلها ... وتنطح كبش العارضِ المتراكب
أبى الله ان أحظى بسيف مهندٍ ، ... فلا تكثري ما حل عيباً بصاحب
دعيني فما عيبي قعودي عن الوغى ... ولكن عيبي أن تُرَي في النوادب !

***

ولما حكم الحسن بن محمد بن الهادي لابن أبي الأسد بتفضيل الشجاعة قال :

قضى بيننا بالعدل محض الضرائب ... قضية مفتٍ في جميع المذاهب
وحاط بها علماً ففضّل خيرها ، ... وصحت له في قدرها والمراتب
قضى بين هيّاب ذليل وصابر ... عزيز ؛ بما أدلى به في التخاطب

***

[مطلع البدور ج ٤ ص ٣٢١ - ٣٢٣]

ومن كلام القاضي أحمد بن أبي الرجال نستفيد عدّة فوائد جديدة علينا بالنسبة لما سبق ان تحدثنا عنه فيما يتعلق بالدوامغ والمفاخرة والملاحاة بين شعراء اليمن المتعصبين لعدنان أو قحطان أو المنصفين من الطرفين ؛ وأثبتناه في كتبنا « قصة الأدب » و « جناية الأكوع » وشرح « دامغة الدوامغ » ، فقد استفدنا أولا أن من وَصَفَه العلامة الأكوع بأنه « قد دسّ أنفه في المناقضات » وقال قصيدته « العدويّة » ليس اسمه « زيدا » كما قال بل اسمه محمد

بن الخطاب وكنيته أبو زيد وانه كان « من رواة الأدب وذوى الفضل » .

وثانيا ان القصيدة المذكورة التي نفى فيها بعض الأنساب وافتخر بالعجم ، وذكر الباطنية كانت تعرف بأمّ الذباب ، ويسميّها غير أهل اليمن « القارعة » .

ثالثاً : ان « الكلاعي » نفسه قد استبعد أن يكون « العدوي » هو صاحب « القارعة » أو « أم الذباب » أو « العدوية » ونزّهه أن يكون هو الذي قالها ونسبها إلى جماعة كانوا يلاحون « الهمداني » في « صعدة » عدّد أسماءهم .

رابعاً : ان القاضي « ابن أبي الرجال » قد استبعد ان يكون « الوقار » أو « ابن دانة » قد شاركوا في نظم « القارعة » أو « العدوية » ورجح أنها لابن عسام وابن أبي الأسد ، وأبو عبيد الصنعاني وبنى نقده على مثالية « الوقار » و « ابن دانة » وان شرفهما وديانتهما وعلمهما يربأ بهما ان يخوضا في المهاترات والملاحات والافتئات وأما الشعراء الثلاثة وربما رابعهم الحسن بن محمد الصرار القادم من البصرة إلى اليمن أيام صاحب الزنج فهم الذين قد عرفوا بالملاحاة والشعر .

وخامساً ما قاله القاضي ابن أبي الرجال عن النسابة « ابن الحائك » الحسن بن أحمد الهمداني الذي « كانت دخيلته فاسدة ونحلته خبيثة » وأن الناصر لذلك « هدم داره بصعدة » .

وابن أبي الرجال بهذا يجاري بعض من كال التهم لأبي محمد صاحب الاكليل كالامام شرف الدين وقد سبق أن ذكرنا بعض الأسباب في ترجمته ولا ندري ما قصد بنحلته الخبيثة ! وهل قصد انه كان « يعتقد بتأثير النجوم في المعادن والبشر » متأثراً بأفكار اليونان والهنود كما أشار إلى ذلك الاستاذ حمد الجاسر في مقدمته لكتاب « صفة جزيرة العرب » ؟!

ولا بد أن أعقد فصلاً أتحدّث فيه عن فتنة « الدوامغ » وأشعار المفاخرات بين شعراء قحطان وعدنان في الفترة التي نتحدث عنها إن شاء الله .

شهرة الكلاعي ومؤلّفاته :

وقد طار ذكر الكلاعي وانتشر صيته وترجمه علي بن يوسف القفطي في كتابه « المحمدون » ص ٢٥٩ فقال : « محمد بن الحسن بن محمد القاضى أبو بكر الكلاعي اليمني ؛ له علم بالحديث والأسانيد ، ورواية لكتب الأدب عن مصنفيها ، والسير وأيام العرب وتواريخها ، والرواية للنظم والنثر ، مع العلم بالفقه فقه الامامية فانه كان عالمهم في عصره » .

وهذا وهم من « القفطي » اذ لا صلة للكلاعي هذا بالامامية ولم يكن عالمهم انما كان « زيديّا » وقد خلط بين أئمة الامامية وأئمة الزيدية وقد سماه ابن أبي الرجال « لسان الزيدية » كما سبق ثم قال « القفطي » : « وله كتب مصنفة عند أهل اليمن منها كتاب « كنز المآثر في مفاخر قحطان » جزءان ، وكتاب « الأنوار » في مثل ذلك ومختصرات في الفقه ، وله « القصيدة النونية » في الردّ على من فاخر قحطان ثلاث مجلدات وهي عجيبة ؛ وكان القاضى الكلاعي هذا قد وقف على كتاب « الاكليل » لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المعروف بأبن الحائك اليمني الصنعاني فريد عصره في أكثر الفنون ، وهذا الكتاب من أجمل الكتب في أنساب اليمن وأخبار ملوكها ، وأهلها ومآثرها ، وهو كتاب كبير يشتمل على عشرة كتب قال فيه [أي الكلاعي] وكتب هذه الأبيات على الجزء الأول منه :

انظر إليه تجد بستان ذي فطن ... فيه طرائف من علم ومن أدب
فللأعاجم في أقطارها تحفٌ ... تحُفّها زهرة الآداب للعرب
يحكى لكل ذكيٍّ أن منشئه ... في الناس مثلٌ له في سائر الكتب
ان كان حُلّي في منظوره ذهبا ... فما تضمّنه أبهى من الذهب

وفاته :

ولم يذكر أحد ممّن ترجمه سنة وفاته ، الّا ان ما ورد في ترجمته من أنه جالسٍ أحفاد الناصر وشعراءه في صعدة يدل على أنه كان في سنة ٣٢٠هـ موجوداً وقد أوردنا المساجلة بينه وبين صديقه الأمير المطهّر بن علي بن الناصر بن الامام الهادي ونحن نعلم انه توفي سنة ٤١٥هـ ومن البعيد ان يكون الكلاعي قد توفي سنة ٤٠٤هـ كما قال الأكوع وتبعه الحبشي ولا سيما وقد قال

المؤرخ يحيى بن الحسين في المستطاب ان « الكلاعي » أنشد قصيدته الرائية « ذات الفنون » في كحلان سنة ٤٠٤هـ وقال ابن أبي الرجال انه قد طال عمره وكتب في زبيد للسلطان حسين بن سلامة الذي نعلم انه كفل مولاه الطفل لما مات والده ابي الجيش بن زياد سنة ٣٧١هـ وتوفي سنة ٤٠٢هـ ولعلّه قبل ذلك كان يسكن صعدة ؛ وتلاحى مع بعض شعرائها كما تقدم ، ثم لّما خربت واختلف أحفاد الهادي وتفرّق الأنصار والعلماء أيدي سبا صنع ما صنع أساتذته الطبري واليهري والهمداني وأمثالهم من الطبريين والمضريين وتقحطن منهم من تَقَحْطَن ، وتمَعْدَدَ آخرون ، وتمزّقت اليمن كما قال المؤرخون حتى تخطفهم الصقّر الذي انقض من جبل مسار « علي محمد الصليحي » .

وارجح انه توفي قبيل وفاة صديقه الأمير المطهر أي حوالي عام ٤١٠هـ الذي يوافق عام ١٠٢٠ م والله أعلم .

قصيدة « ذات الفنون »

وقصيدته « ذات الفنون » التي أنشدها في « كحلان » ذي رعينَ كما يقول المؤرخ يحيى بن الحسين سنة ٤٠٤هـ لا شك انها من آخر ما قاله ويقول القاضي محمد ابن علي الأكوع « انها ثلاثمائة بيت واثنى عشر بيتاً وانها في حوزته وينوي نشرها » . مع شرحها ؛ وياليته ـ إن قام بذلك يضيف إليها كلا من قصيدة « ذات الفروع » للسيد الأمير محمد بن الامام عبد الله ابن حمزة ، وقصيدة « ذات الاصول » للشاعر ابن عدوان ، ويهتم بالضبط لا بالتعليقات السياسية وآرائه المذهبية ، ولا أعرف من قصيدة « ذات الفنون » إلّا « المطلع » وسبعة أبيات عثرت عليها في مخطوطة قديمة وهي :

ونـاعمة الأطراف مدمجة الحشا ... لها كفـلٌ راب ، وأهيف مضمـرُ
اذا غمـزت في المـرط قالت لفتيةٍ : ... انـا ابنـة قسطنطين في الدور أشهرَ
تقـول أرى في عارضيـك بواديـاً ... من الشيب لاحت لم تكن قبـل تنظر
فقلت لها : لا تعجبي للذي بدا ؛ ... لشيب فؤادي يا ابنـة الـروم أكثر
اذا أصبحت ابـاؤك القلف تنتمي ... إلى آل ابـراهيم جهـلاً وتفخـر
ومن عجب الـدنيـا تكلّم جاهـل ... يفـاخـر قحـطان بِمَنْ يتنصَّر !

***

ولدي مخطوطة فيها ورقة واحدة من قصيدة رائية على نفس الوزن وقد سُجّل فيها ما يلي :

لنا قصر « ريدان » الشهير وما حوت ... « ظفار » التي فيها ذوو الملك ظفّروا
لنا «عَرْعَر» و «الأهجر» الشامخ الذرى ... و « بينون » ذو سقفاه ساجٌ وعرعر
و « صرواح » أيضاً والقشيبة « مأرب » ... و « سلحينها » صنفان : شِيدٌ ومرمرُ
فما خطة في المجد الاّ وقد غدت ... وحظّ قبيلي من علاها يوفَّر !
ولست بمحصٍ ما اختبته معاشري ... ولو أنني عمر النسور اعمّرُ
واعمله في وصفٍ ما فضلوا به ... لأفنيته جهراً ، ولم تُحْصَ أنسر
وما كنت يا بن القُلْف أهل إجابةٍ ... لأنك عن قدر المجازاة تُحقَرُ
ولكنّه نذر عليّ حتمته ... ومثلي أوفى بالذي كان ينذرُ
مدى الدهر لا أنفك اكعم كلّ من ... تعرّض يهجو معشري ويحقّر
فدونك ذق غبّ الذي كنت صانعاً ؛ ... وتحصدُ كفّ المرء ما كان يبذرُ !
سيكشف عن عينيك شعري دجى العمى ... ويصبح من حرّ الوسوم يحرّر
ولم يُنْه ذا بغي كمثل جزائه ... وفي البطش إصحاءٌ لمن هو مسكر
وعندي أمثالٌ لها لا تغرّني ... وغيري يعيا دون ذاك ويحصر

***

ثم قال الناسخ : « تمت القصيدة وهي ثلاثمائة واثنا عشر بيتا وذلك في ١٥ جمادي الأولى سنة ٦٢٣ بقرية مسلت من بلاد همدان ؛ ولا يخامرني شك أن الأبيات هي خاتمة قصيدة « ذات الفنون » التي لاحى بها « فضل بن باروخ الرومي » ودليل ذلك قوله :

« وما كنت يا بن القُلْف أهل إجابة » ؛ والأقلف هو من لم يُختن والمشهور عن « الروم » ذلك ؛ ولم أطلع بعد على قصيدة « الرومي » ولا أذكر أني قرأت عنها أو منها شيئاً في أي كتاب ولعلّها مما أتلفه المتعصّبون .

١٧ ـ المطهّر بن علي بن الامام الناصر
[ت سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٥ م]

أما الشاعر الذي ساجله الكلاعي بصعدة فقد ترجمه ابن أبي الرجال فقال : « الأمير الخطير المطهر بن علي بن الناصر هو جد الامام أحمد

بن سليمان ، وكان عالماً مصنّفا في علوم آبائه التصانيف النافعة على مذهب يحيي عليه السلام ، وتصرّف في « التجريد » للمؤيد بالله عليه السلام ، وتعقّبه حفيده الامام أحمد ابن سليمان بأصول الأحكام اختصر فيه شرح التجريد ، وللمطهر على مذهب الهادي تخاريج كثيرة منها ان الترتيب في الوضوء بين اليد اليمنى واليسرى وبين الرجل اليمنى واليسرى لا يجب ، وكان شاعراً فصيحاً وله المساجلة بينه وبين الكلاعي » [مطلع البدور السفر الرابع ص ٤١٦ نسخة زبارة] ثم أورد له ستة أبيات من قصيدة أوردها في ترجمته السيد يحيى بن الحسين وهي :

لحاني في الهوى لاح نصوح ... وقال إلى متى هذا الجموحُ ؟
فقلت له وفي الخدّين منّي ... خدود خدّها الدمع السفوح
أتطمع أن أميل إلى سلوٍّ ... وأن ينسى الهوى قلب جريحُ ؟
بروحي من برى روحي وأعجب ... بروح كيف منه ذاب روح
سأركب كلّ هول أو أراني ... أسيح ، ولن أراني استميح
ولا ألوي على وطنٍ فتضحى ... مذلته على وجهي تلوح !
فسِحْ في الأرض واطلُب المعالي ... فكم من سيّد فيها يسيح
ولولا ان في من ساح خير ... يفوز به لما ساح المسيح

***

قال « أبو الرجال » وتوفي في ذي جبلة من أعمال اليمن سنة خمسة عشر وأربعمائة . وقال يحيى بن الحسين : « وتوفي بمخلاف جعفر بذي جبلة » [ص ٦٠ ـ المستطاب] ويظهر انه كان من جملة من نكبوا بسبب أولاد جدّه الناصر اخوان أبيه عليّ ثم حروب القاسم العياني وابنه المهدي وأخبارهم مفصلة في كتب التاريخ وقد أوردنا بعضها آنفا .

١٨ ـ الحسين بن أحمد بن يعقوب
[ت ٤١٠هـ]

الفقيه القاضي العلامة المؤرخ الحسين بن أحمد بن يعقوب مؤلف سيرة الامام القاسم بن علي العياني المتوفي عام ٣٩٣هـ ترجمه ابن أبي الرجال [لوحة ١٣٢ جـ ـ ٢] فقال : « قاضي المسلمين وعضد الملّة ، وحيد وقته

وفريد دهره تولّى القضاء للامام المنصور بالله القاسم بن علي العياني وكتب له عهداً يدل على جلالة قدره وقدر الامام » ثم قال : « وله أشعار كثيرة من جملتها ما قاله بعد قضية بني ربيعة وايقاع الامام بهم » ثم أورد القصيدة ومطلعها :

ذكــراك أرقــني وصــبــحــي نوّم   وهــواك منّي في الحــشــا يتضرّم
وعـلقـت منــك محاسنــاً صيرنـي   لا أستـفـيـق من الــورى اتكتّم

وهي واحد وثلاثون بيتا ؛ وقد سبق القول في ترجمة الامام القاسم العياني ان السيرة التي ألفها توجد منها نسخة في المتحف البريطاني ورقمها ٣٨١٦ وفيها الكثير من أشعاره التي قالها في شتى الأحداث والمناسبات ولم يذكر أحد تاريخ وفاته ولعل حياته لم تطل بعد وفاة الامام القاسم وانه توفي حوالي عام ٤١٠هـ أو قبلهـا والله أعلم [وانـظر مصـادر العمـري ص : ٣٥] وفي المستطاب ان اسمه الحسن بن أحمد بن يعقوب ولعله من تصحيف النسّاخ .

١٩ ـ أحمد القاعي
[حوالي ٤٣٠هـ]

أبو الفلاح أحمد بن عبد الله القاعي كان رجّازا يرتجل الشعر في المعارك تحميساً وتنشيطاً ويقول ابن أبي الرجال انه كان « من وجوه أصحاب الامام المنصـور بالله القاسم بن علي العياني [ت٣٩٣هـ] وشهد معه المشاهد ، وكـان فصيحـا جيد البـديهـة ، يستحضر الكـلام الفـائق ، عند تلاحم المضايق ، حكى عنه انه لما ثار من ثار بصعدة على الامام ، وغلقوا أبوابها فخرج عجلاً على قدميه حتى لحقه خادمه بفرسه في فناء الحصن فسار حتى صار على البـاب الغـربي فألفاه مصفداً موصداً فأمر به فكسر فارتجز أحمد بن عبد الله المذكور قائلا :

نحن مفــاتيـح الـدروب والـدِيَرْ   والمـنـجـنـيقــات لها نحن الحجَـرْ
كم من قتــيـل قد قتــلنـا لم يُجَرْ   تجحظ عيــنــاه وقــد زاغ الــبصَرْ
نحــن الأولى نوردهــا خيراً وشرّ   إذا تلظّت مثــل نيران الحــفَــرْ
يوقــدهــا لمن بغــى أو من كفَــرْ   القــاسم المنصــور مولانــا الأغـرْ

وقال بعد ذلك وهو في مكانه :

انـا حماة الـدين أصحاب الـوفا — نكفيـك ما همّك يا ابن المصـطفى
أيـمانـنـا والبيض تبـدى ما خفى — من كلّ من عانـد أو من خالـفـا
نروي السنـان والحسـام المرهفا — ونـترك الـطير عليـهـم عكّـفـا

***

وعندما كسر الباب قال :

نهوى مع القـاسم في دهم الـظلَمْ — كبـارق « الـقبـلة » يهوى لم يشمْ
نتم بالـعـهـد ونـوفى بالـذممْ ، — والسمـر في أيـمانـنـا ترعف دم ،
والـقـاسم المنصـور فينـا كالعلم — يحكـم بالحـق ويجـزى من ظلَمْ

***

ونحن نعلم أن الامام القاسم العياني كان فارساً ومسعر حرب وانه قد خاض معارك كثيرة ، وكان القاعي راجز تلك المعارك وحادي ركابها ولعل في سيرته من ذلك الكثير ولم يذكر ابن أبي الرجال كعادته لا تاريخ ميلاد ولا وفاة ولا نظنه عاش طويلاً بعد الامام العياني .

[مطلع : ١٩٣ - ج - ١ -] .

الدوامغ في تاريخ الشعر اليمني

سبق أن تحدثت عن الـدوامغ في تاريخ الشعر اليمني في كتابي « قصة الأدب في اليمن » وشرح قصيدتي « دامغة الدوامغ » ثم في كتابي « جناية الأكوع » ولا أريد أن أعيد ما سبق ذكره ؛ ولكن لأن لفظة « الدامغة » قد تكـرّرت ، ونحن نتحـدّث على « الهمـداني » و « الكـلاعي » فلعلّه من المستحسن أن ألخّص ما سبق لي تفصيله في تلك الكتب وأضيف ما جدّ من معلومات تتعلّق بالموضوع بعد نشر تلك الكتب .

و « الدوامغ » الشعريّة في الأدب العربي واليمني منه على وجه الخصوص هي تلك القصائد التي تجالد بها شعراء عدنان وشعراء قحطان عبر العصور

في نغمة واحدة وزناً وقافيةً ؛ وسموّها أوّلاً « دامغة » ثم « دامغة الدامغة » وأحياناً كانوا يسمونها « القارعة » و« المفحمة » وجاء شاعر متأخر فسمى قصيدتـه « دامغـة دامغـة الـدامغة » ! وأقبلتُ قبل عشرين عاماً أي سنة ١٣٨٦هـ /١٩٦٦ م فسمّيت قصيدتي « دامغة الدوامغ » إذ قد شطبتُ بها التفاخر بالأنساب والاحساب ، وأشدتُ بشريعة القرآن الذي يقول : ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ ؛ ومع ذلك فقد ردّ عليها الشاعر مطهّر الارياني بقصيدة سمّاها « المجـد والألم » جرى فيها مجرى الأولين . والدامغة لغة مشتقة من دمَغَه ؛ إذ اضربه على دماغه وهي من الشجاج التي تهشّم الدماغ .

وأوّل من ابتدع هذا الاسم ـ فيما أعلم ـ هو أبو الذلفاء في قصيدته التي جارى بها قصيدة « الكميت » والتي سماها « المذهبة » وكان قد رّد بها على تفاخر الشاعر حكيم بن عيّاش على شعراء « مُضر » ، وقد التزم الكميت فيها النون المفتوحة ووزن « الوافر » ومطلعها :

الا حيّـيـتِ عنّـا يا مديـنـا وهـل بأسُ بقـول مسلّمينـا ؟!

***

وهي أكثر من ثلثمائة بيت كما قالوا . إذ أن معظمها قد تلف أو لا يزال مفقودا .

وقد التزم « أبو الذلفاء » في دامغته نفس الوزن والروي ومطلع قصيدته :

أمـا تنـفـك متـبـولاً حزيـنـاً بحبّ البيض تعصى العـاذلينـا ؟

***

وكـان دعبـل بن علي الخزاعي قبـل أبي الذلفاء قد ناقض « مذهبة » الكميت بقصيدة طويلة من نفس الوزن والقافية وتبلغ نحو ستمائة بيت ومطلعها :

أقـلّي من ملامـكِ ياظـعـيـنـا كفـاك الـلوم مرّ الأربـعـيـنـا

ومنها البيت الذي اقتبس الآية الكريمة :

« ويُخزهمُ وينصركم عليهم ويشفِ صدور قوم مؤمنينا »

***

كما أن أبا سعيد المخزومي الهجّاء المشهور قد ناقض « دعبل » كما قال صاحب الأغاني ، وهناك شاعرا آخر عاصر « دعبلا » وناقض مذهبة الكميت وهو عبد الله بن أبي عينية ، وقد تعصّب لقحطان وهجا نزارا وجاء صاحب الأكليل في عام ٣١٩هـ فنظم قصيدته « الدامغة » في ستمائة وسبعة وأربعين بيتاً ومطلعها :

ألا يا دار لولا تنطقينا ؟ فانّا سائلوك فخبرينا !

***

وقد سبق الحديث عنها مفصلاً في ترجمة الهمداني .

ثم باض الشرّ وأفرخ من عهد الهمداني وهلّم جرّاً فناقضه معاصروه ومن بعدهم ، وتعصب له آخرون ، وقد سبق ذكر بعضهم في ترجمته وترجمة الكلاعي وأهمهم محمد بن الخطاب العدَوي ، والحسين القاسمي ، وإبن أبي الأسد ، وأيوب اليرسمي ، ومحمد بن جعفر الوقار والصرار ، والسحولي ، وابن عشام وأبو عبيد ، وإبن دانة وفضل الرومي ومحمد بن الحسن الكلاعي ، وهؤلاء هم أعلام « الدوامغ » في الفترة التي نؤرّخ لآدابها .

وقد سبق هؤلاء جميعاً شعراء من اليمن ترنّموا بهذا الوزن الوافر وقافيته ، في قصائد فخر وحماسة منهم الشاعر الجاهلي الخولاني خالد بن قيس بن يزيد ابن عمر ومن قصيدته قوله :

حبانا الملك خولان بن عمرو وأصفاناه من دون البنينا

فصار تراثه جمعاً إلينا ، وصار لواءه والقِدرُ فينا

***

وعمرو بن القاسم الرازحي من شعراء القرن الأول الهجري القائل :

أبـونـا القـرم خولان بن عمـرو ثوى في ملكـه حقبـاً سنيـنـا ،
فأورثـهـا بنيـه وقـد تولّـوا . . فنـعـم الشيـخ أورثهـا البنينـا !
حبـانـا المـلك منّـا آل حُجـر أولئـك فخـرنـا وبـنـوا أبـينـا
وسـادتهـا إذا أدلـوا بأمـرٍ ، وإذ يدعـون نأتي طائـعـينـا

***

[الاكليل جـ ـ ١ ـ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢] .

وللشاعر الاسلامي ابراهيم بن كُنَيْف الشهابي قصيدة مفاخرة على نفس الوزن والروى يقول فيها : [الاكليل جـ ـ ١ ـ ص ٤٦١] .

ملكنـا حقـل صعـدة بالعوالي ؛ ملكنـا السّهـل منهـا والحـزونا
وشـاركـنـا بها أبـنـاء حُجـر وهـمّ منّـا مكـان بني أبـيـنـا
ورثـنـا المـجـد آبـاءاً كرامـاً ، ونُـورثُ ما ورثـنـاه بنـيـنـا
وسرنـا في قضـاعـة يوم سارت نجـالَـد من هوازن من لقـيـنـا
قضـاعـة جدنـا جدٌ كريـم ، نطول به جميـع العـالمـيـنـا !

***

تاريخ وخصائص وزن الدوامغ :

ولا شك أن ثمة مفاخرات كثيرة على رويّ ووزن « الوافر » وبقافية النون وقد تتبعت في كتابي قصيدة « دامغة الدوامغ » تاريخ هذا الوزن مع هذا القافية من أوّل شعر معروف على قافية النّون المفتوحة قبلها واو تتبع ضمّةً ، أو ياءٌ قبلها كسرة ، وفي وزن الوافر وهو في أبيات تعزى الى « خزيمة بن نهد القضاعي » وهي :

إذا الجـوزاء أردفـت « الثـريـا » ظننت بآل فاطمـة الـظنـونـا ؛
وحـالـت دون ذلـك من همومي همومٌ تخرج الـشـجـن الـدفـيـنـا
أرى ابنـةَ « يَذْكُـر » ظعنتْ فحلّت جنـوب الحـزن ؛ يا شحـطا مبينـا

إلى أن أنشأت « دامغتي » .

وللقضاعي قصة طريفة رواها صاحب الأغاني في الجزء ١٣ ص ٧٨ وقال

عنـه إنّه « شاعر مقلّ من قدماء شعراء الجاهلية » ؛ وقد رجّحت بمقارنة الأنساب انه عاش في القرن الخامس قبل الهجرة . وربّما كانت أبياته أقدم ما وصل إلينا من شعر العرب قبل الاسلام ؛ وقلت : « وفي نظري ـ تجربة وممارسة ـ انّ لكل « وزنٍ » في « قافيةٍ مَا » أثرٌ مستقل ، وان بعض المواضيع تجمل في بعض « الأوزان » ولا تجمل في غيرها بقدر شرفها أو خساستها ؛ وأنه كان من المفروض أن يهتم بذلك أدباء العربية ، ويضعوا له حدودا ، ويؤرخوا له في دراسات مستقلة تثمر علما مستقلا .

وقد نعلم حينئذ ان كل موضوع شعري خليق بوزن خاص ، وفي قافية مناسبة أيضا . . « فللملاحم » مثلا « وزن » معلوم ، و « للوصف » « وزن خاص » أو أوزان ، و « للغزل » كذلك « أوزان » معلومة ، و « للمفاخرة » ما يناسبها ، و « للعلم » و « التاريخ » و « الجدل » ما هو بها جدير ؛ وهكذا .

وقد نعرف حينئذ ان الشعراء ـ وبالفطرة ـ قد التزموا ذلك في أثارهم !

ولقد أشار العلامة مصطفى صادق الرافعي رحمه الله في كتابه « تاريخ آداب العرب إلى أهمية انسجام تفاعيل « الوزن » مع الموضوع وعناية العرب باخراج « المعنى » في « الوزن » الملائم له فقال : « وعلى ذلك كان لا بد في الأوزان التي نظموها من موافقة « المعنى » في حركاته النفسية « للوزن » في حركاته اللفظية ، حتى يكون هذا قالب ذاك ، وإذا أنت اعترضت شعر « الجاهلية » فانك ترى كل « بحر » من « البحور » « مخصوصاً » بنوع من المعاني ؛ « فالطويل[1] » وهو أكثر « الأوزان » شيوعاً بينهم انما اتسع لتفرغ فيه العواطف جملة ؛ فهو يتناول « الغزل » الممزوج بالحسرة والحماسة يخالطها شيء من الانسانية ، والرثاء الذي يتوسع فيه بقص الأعمال مبالغة في الأسف والحزن ، ويتصل بذلك سائر ما يدل على التأمل المستخرج من اعماق النفس ؛ كالتشبيهات والأوصاف ونحوها ؛ وبالجملة فان حركات هذا « الوزن » انما تجرى على نغمة واحدة في سائر المعاني وهذه النغمة تشبه ان

---

(١) الطويل : من الشعر جنس من العروض سمي بذلك لأنه أطول الشعر كله وذلك أن أصله « ثمانية وأربعون حرفا » بينما أكثر حروف الشعر من غير دائرته ؛ « اثنان وأربعون » ومثال أصله قول « طرفة بن العبد » .

أبا منذر كانت غروراً صحيفتي ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي

تكون حركة الوقار في نفس الأنسان بخلاف « الكامل[1] » فان كل ما يحمل من المعاني لا يدل الا على حركة من حركات النزق في هذه النفوس ؛ فان كان « حماسة » كان شديدا ، وإن كان « غزلا » كان أدخل في باب العتاب ، والارتفاع الى الشكوى ، وان كان رثاءاً كان أقرب الى التذمر والسخط ، وان كان « وصفا » كان نظراً سريعاً لا سكون فيه ولا إبطاء ، وقس على ذلك سائر الأوزان[2] » .

وهذه الاشارة الدقيقة لم يؤيدها « الرافعي » بأمثلة ، ولا تجاوزها الى ما قصدت اليه ، ولو انه توسع لأفاد وأجاد ومن ذا يجاري « الرافعي » دراية واطلاعا وبيانا ؟ ثم هو لم يطرق الموضوع الا عرضاً وأثناء بحثه عن « الباعث على اختراع الشعر » وهو لم يزد على ما أوردناه اللهم الا إشارة عابرة أخرى عند حديثه عن « الشعر العلمي » مما يدل على ان فكرة اختصاص كل بحر من البحور بمعنى من المعاني كانت واضحة لديه إذ قال : « وهم مجمعون على استعمال هذا النمط من « الرجز[3] » الذي يستقل فيه كل مصراعين بقافية حتى لقبوه بحمار الشعر لسهولة الحمل عليه » . يقصد اختصاص بحر « الرجز » بالمواضيع العلمية لسهولته .

بحر الدوامغ

ولأني صرفت جهداً في دراستي للدوامغ وشعرائها فقد خطر لي أن أجعل من « وزنها » و« قافيتها » موضوع بحث وتاريخ أضرب به مثلا للمعنى الذي أردت أن ألفت نظر الأدباء إليه :

وقد تتبعت النصوص ، واستجريت الذكريات ، محاولا الاتقان قدر الامكان ، والاماطة لا الاحاطة .

(١) الكامل : من شطور العروض وأصله « متفاعلن » ست مرات ؛ سمي « كامل » لانه « استكمل » على أصله في الدائرة وكان اكمل من « الوافر » ومثال أصله قول « عنترة » .

وإذا صحوت فما اقصر عن ندى　　وكما علمت شمائل وتكرمي

(٢) ص - ١٣ - تاريخ آداب العرب جزء - ٣ -

(٣) الرجز من بحور الشعر على خلاف بين الأوائل ؛ ويكون كل مصرع منه منفرداً وتسمى قصائده أراجيز واحدتها أرجوزة .

الوزن

سبق ان بينت أن وزن الدوامغ القديمة هو « الوافر » وعند العروضيين انــه « مفـاعلتن ، مفـاعلتن ، فعـولن » مرتـين وذلـك وزن أصله وهـو « المقطوعان » ، أما المجزوءان ، أو المجزوء فوزنها : « مفاعلتن مفاعلتن » مرتـين ومـوضوع البحث هو المقطوعان . وقد سمي « وافراً » لأن أجزائه « موفورة » له وفور أجزاء « الكامل » غير أنه حذف من حروفه فلم يكمل .

القافية

وقافيتنا ـ كما يعرف القارىء ـ هي « النون » المفتوحة يسبقها « واو » قبلها « ضمة » ، أو ياء قبلها « كسرة » .

وقد احترز بذلك عن الياء التي قبلها « فتحة » فان حشرها في النظم على النسق المذكور غلط ويسمى « سناداً » .

والسنـاد هو أن يخالف بين الحركات التي تلي الأرداف في « الروى » ؛ فعبيد بن الابرص حين قال :

فان يك فاتـني اسـفـا شبـابي   وأضـحى الـرأس مني كاللجـين

ثم قال بعده :

فقـد ألـج الخـبـاء على جوار   كـأن عيـونهـن عيـون عيـن

قد ساند واقترف عيبا ، وقال « ذو الرمة » يفتخر انه لا يقع في مثل هذا العيب .

وشـعـر قـد أرقـت له غريـب   أجـانبـه « المسـانـد » والمحـالا

ومثاله في « الوزن » في « القافية » التي نتحدث عنها قوله :

شربـنـا من دمـاء بني تميم   بأطـراف الـقـنـا حتى روينـا
ألم تر أن « تغـلـب » بيـت عز   جبـال معـاقـل ما يرتـقـينـا ؟

فكسر ما قبل « الياء » في « روينا » وفتح ما قبلها في « يرتقينا » وذلك هو « السناد » وقد وقع فيه بعض الشعراء وانتقدهم الأدباء .

خصائص الوافر

وإذا كان « الرافعي » رحمه الله قد أشار إلى « خصائص » « الكامل » و« الطويل » فاني أجد أن وزن « الوافر » في أصل شكله يستوعب كل العواطف الانسانية ولكن بحرقة ومرارة أو سخرية واستهتار ! .

ونغمته المتموجة « توفر » للشاعر نفسا كلما استطلع إلى معنى جديد ؛ وهو يشارك « الخفيف[١] » في صلاحيته للمواقف الخطابية التي تنسجم مع « الشعر الملحمي[٢] » وذكر أسماء الرجال ، والأماكن وحوادث التاريخ واتساعه للأقاصيص في قالب شعري تهوى إلى نغمته الأسماع والقلوب ، وخصوصاً في قافيته التي نتحدث عنها ؛ ولولا اني ملزم ان لا اتجاوزها لضربت لذلك الأمثال من الشعر العربي القديم والحديث ؛ فلقد كان « الوافر[٣] » دائماً منبر النفوس حين تجيش والعقول حين تضل ، والقلوب حين تثور ، ومستفرغاً لعواطف الأبطال والمغامرين ، والعشاق والماجنين ، والزهاد والساخرين ، والحاقدين والمؤرخين .

وقليل هم الذين لا يجيدون فيه ؛ اذ لا يضرب على وتره ـ وبالطبيعة ـ الا المجيدون دون ما وعي ، وعندما يكونون تحت عوامل قاهرة . . ! ومن حاوله من غير المجيدين اخفق وأدركه الغرق . . !

والنون المفتوحة في هذا الوزن تمد من نفس الشاعر ، وتترك لبراعته الحرية في التلاعب بالألفاظ والمعاني وحشدها حشداً انسانيا يتأرجح بين النزق والحكمة ، والخوف والرجاء ، والحنين والحماس ، والحرية والاستغلال ، ورهبوب المجهول ، وجبروت الواقع ، ولذلك فكثيراً ما يلجأ إليه كبار

---

١ الخفيف ضرب من العروض سمي بذلك لخفته ، ومثاله التام

كل حي حاس من الموت كأسا   لا يعرى منها سوى ذي المعالي

٢ التزم الشاعر الكبير بولس سلامة وزن الخفيف في ملحمته الخالدة « عيد الغدير » وفي ملحمته الرائعة « عيد الرياض » .

٣ للشاعر الكبير أحمد بن الحسين (المتنبي) بضعة وثلاثين قصيدة من وزن الوافر وكلها من روائعه .

الشعراء في مواقفهم العاطفية الحاسمة منذ قال عمرو بن كلثوم « معلقته » :

الا هبي بصحنك فاصبحينا

إلى أن أبدع « شوقي » طويلته :

قفي يا أخت يوشع خبرينا

ومن قبل ومن بعد .

موضوع بكر

لم أقرأ لأحد في هذا الموضوع ، وأظن انه سيفتح باباً جديداً للأدباء والمهتمين بدراسة تاريخ آداب العرب ؛ ويخيل إلي بأن أساتذة الأدب العربي عندما أرادوا في مطلع هذا القرن أن يؤرخوا للآداب العربية ؛ فكتب « الرافعي » و « جرجي زيدان » ثم « الزيات » وأضرابه . . . قد حجبوا عن قرائهم بحثا ممتعا كان يستحق منهم الدراسة والتحقيق .

وأنا أعرف بالممارسة انه جهد كبير يفتقر إلى الصبر وسعة الاطلاع ، والامكانيات الذهنية والأدبية ، والتفرغ ، والشاعرية ، وتلك شروط يلزم توفرها لدى كل باحث أو أديب .

« تاريخ الأوزان والقوافي » ؛ تلك هي الفكرة التي تعيش معي منذ زمن طويل ، وأحاولها ألوانا شتى . وان كانت لا تتوفر لدى كل الشروط المشار إليها آنفا . . لأن حياتي تتناهبها عوامل كثيرة ؛ معظمها بعيد كل البعد عن الأدب والدراسة والشعر والشعراء .

لقد كتبوا « موازنات » بين الشعراء ، ومقارنات بين الكتاب ، وألفوا عن « العروض والقوافي » قديما وحديثا . . ولكني دائما أريد شيئاً آخر . . . أريد أن يؤرخ لكل « وزن » في « قافية ما » على حدة ؛ ويستعرض - المتصدي لذلك - كتب اللغة ، والسير ، والأدب ، والعروض ، والبلدان ، والتراجم ، والتاريخ ، ليستخرج منها ما يمكن عن كل « وزن » في « قافية ما » ، وقصتها مع الشعراء والحوادث ، منذ أقدم العصور حتى يومه الذي يكتب فيه ؛ ثم يذكر أول من قال شعرا في « هذا الوزن » وفي « القافية » والموضوع الذي طرقه ومن طرقه بعده والشعراء الذين مارسوه ،

ومن أجـاد ومن أخفق ، ويتحدث عن المواضيع التي كثر ورودها فيه ، ثم قيمة « الوزن » هذا في « القافية » التي يتحدث عنها نفسياً وفنيا ، وأثرهما على السمع والفؤاد .

دامغة مجهولة

وتـوجد لديّ صورة فتوغرافية لكتاب « الدامغة » للهمداني ـ القصيدة وشرحها ـ نقلا عن الصورة الموجودة بدار الكتب المصرية ، وفي هذا المجلد توجد بضعة قصائد جمعها كاتبها بخط واضح سنة ٦٢٣هـ /١٢٢٦ م ومن جملتها أحد عشر بيتاً من « دامغة » أخرى أرى من المفيد اثباتها وهي :

وازد شنـوءة انـدرعـوا إلـيـنـا … بجـم يحسبـون لهم قرونـا
فما قلنـا لبـارق قد أسـأتـم … ولا قلنـا لبـارق اعـتـبـونـا
ومـا إن بارق فأنـال منهـم … بأعـراب ولا بمـهـاجـريـنـا !
ولـكـن بين ذلـك من أنـاس … بليـلى في الـغـنـاء موكـلينـا
و « مذحـج » قد رأينـاهم حديثاً … لأطـفـال الأذاة مرشـحـينـا
فكـانـوا إخـوة ويـداً وكـنـا … لهم في الـود غير ملونـيـنـا
فأمـسـوا يبرقـون بعـارضيـهم … لنـا في المـبرقـين ، ويـرعـدونا
وكـنـا عن « يحابـر » لو هتـفنـا … بدعـوى يا لخندف مكتـفينـا
وإن رفـعـوا منـاسبـهـم رفعنـا … إلى « مضر » الـتي لا يجهـلونا
وإن يتـيـمـنـوا يجدو نزاراً … بأحـسـن ألـفـة متـنـزريـنـا

***

ولا أستـطيع الجزم لمن تكون ؛ ولا من أي الدوامغ هي ولهجة بعض أبياتها تعربُ وتدلّ على أنها لشاعر عدناني التعصّب والهوى ؛ ولقد ظل هذا الوزن « الوافر » مع قافية النون المفتوحة هو بحر المتلاحين والمتفاخرين الى ما بعد القرن السابع ، وسوف نرى ونحن نتحدث عن الأدب العربي في اليمن خلال الفترة الرابعة والأخيرة من كتابنا والتي أسميناها « فترة الأيوبيين والرسوليين » [٥٦٩ ـ ٦٥٦هـ] أن الملك المعز اسماعيل بن طغتكين الأيوبي لما دعا لنفسه بالخلافة وانتسب الى بني أميّة ولقب نفسه امام الائمة وفرع الشجرة الامامية الأموية المعز الناصر سيّد الموحّدين أمير المؤمنين اسماعيل بن

طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان الأموي خليفة رب العالمين سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠ م انشأ الشاعر أحمد بن محمد الأموي « دامغة » يمدحه ويفتخر ببني أمية ومطلعها :

بني العباس هاتوا فاخرونا … هلّموا للجدال ، وأنصفونا

وقال وهو يتحدّث عن الرسول ﷺ

ولم يك بعده أحدٌ نبيّاً … ولكن بالخلافة طامعونا !
ومات ولم يوصّ بها لشخصٍ … ولم يعط البنات ولا البنينا
بلى قال : الخلافة في قريشٍ … ففيكم نص ما قد نصّ فينا
وبويع بعده الصديق طوعاً … عليه الخلق كانوا مجمعينا
وحوّلها إلى الفاروق لما … رأى من فعله الدين المتينا
وما مدّوا إلى العباس فيها … شمالاً ؛ لا ولا مدّوا يمينا
ولا اتّفق الأنام على عليّ … وهم قد احرزوا الرأي الرصينا

وهي سبعة وخمسون بيتاً ؛ وعندما كتب اسماعيل بن طغتكين إلى عمّه الملك العادل يخبره انه قد دعا لنفسه بالخلافة ويعرض عليه التنازل وتسليم الأمر اليه عاد جوابه يلومه ويقول : « ان الناس لم ترضنا ملوكاً لها فكيف ترضانا أئمة وخلفاء ؟ وقلت إنا من بني مروان فمن أين وصلت إلى هذا العلم الذي لم نصل إليه ؟ وانما نحن قوم من أهل تكريت أنعم الله علينا بما أنعم » [السمط الغالي الثمن ص ـ ٧١ ـ ٧٢] .

وليست كل المفاخرات الشعرية والملاحات بين القحطانيين والعدنانيين كلّها ولا جلّها على هذا الوزن « الوافر » وقافية « النون » فهناك المئات من القصائد بشتى الأوزان والقوافي غير ان ما اصطلح الأدباء والمؤرخون على تسميته بالدوامغ كانت قصائده وحتى أواخر القرن السادس على هذا الرويّ .

وأما ما يسمّى بالدوامغ في تاريخ الشعر اليمني بعد القرن السادس فجل ما ورد منها قد نهج نهجاً « مذهبيا » والتزم شعراؤها قافية النون المفتوحة في وزن البسيط مثل دامغة ابن العليف المتوفي في أواخر القرن السابع الهجري ومطلع دامغته وهي تفتخر بعدنان .

ما عبثُ منذ كنت للأحباب مظنونا … ولا بثثتُ من الأسرار مكنونا

وقد ناقضها علي بن سليمان الأسلمي بقصيدته « دامغة الدامغة » ومطلعها :

فخارنا بسيوف الهند يكفينا عن فخركم آل عدنان ويغنينا

وللهادي بن ابراهيم الوزير المتوفي سنة ٨٢٢هـ « دامغة الدامغة » مطلعها :

فخارنا برسول الله يكفينا عن كل فخر وان الأنبيا فينا

وانظر كل ذلك في كتابنا قصة الأدب في اليمن .

المجلس الزيدي الإسلامي

أدب الأباضية في اليمن

لن ننتقل إلى الفصل الثاني لكي نؤرخ للفترة الثالثة من فترات الأدب اليمني في العصر العباسي .

قبل ان نلقي نظرة خاطفة ، ونتحدث بايجاز عن « الأباضية » ونشاطهم السياسي والأدبي في اليمن .

وقـد قلت إن النـظرة ستكـون خاطفة ، واني سأتحرى الايجاز جهدي لأسباب منها ان معلوماتي عن فرقة الاباضية ولا سيما في غير اليمن ـ نَزْرَة ؛ ولا تتجـاوز ما يعرفه قراء التاريخ الاسلامي العام ولم أبذل في دراستها ، والتنقيب عن مصادر أخبارها من الجهد بعض ما بذلته في استيعاب ودراسة واستكنـاة آداب الـطوائف والمذاهب الأخرى التي كانت سائدة في اليمن حينذاك كالاسماعيلية والزيدية والمعتزلة ، والأشاعرة ، والشافعية ممن سبق أن تحدثت عن اعلامها ، ولا تخوّل لي هذه المعلومات النزرة الحديث عن الاباضية وآدابها في اليمن باسهاب « ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه » .

هذا من جهة ؛ ومن أخرى فقد كان نشاطهم الحربي والثقافي ـ في هذه الفترة التي نتحدث عنها ـ في جنوب اليمن وشرق الجزيرة العربية الجنوبي والشمالي أكثر منه في شمال اليمن وما صاقبها نحو الحجاز وغرب الجزيرة . ومعارفي عن تلك الاصقاع محدودة أيضاً ! وان كان أشهر زعيم سياسي وديني أباضي وهو « طالب الحق » عبد الله بن يحيى الكندي الحضرمي قد استولى على معظم اليمن واحتل « صنعاء » وخطب على منبرها . . ثم جهّز جيشا

عرمـرماً بقيادة أبي حمزة الشاري فاكتسح شمال الجزيرة حتى بلغ المدنية المنورة وحصلت المعارك الدامية في « قديد » وغيرها . . لكن كل ذلك كان في أواخر العهد الأموي ١٢٩ ـ ١٣٠هـ وهو مذكور في الكتب المنشورة المشهورة .

خطبة طالب الحقّ في صنعاء

وبعد أن استفتح عبد الله بن يحيى الكندي صنعاء خطب على منبر جامعها خطبته المشهورة ، والتي منها يُعرف بعض مذهب الاباضية ومنها قوله :

انـا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما الاسلام ديننـا ، ومحمـد نبيّنـا ، والكعبـة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلال حلالاً ، ما نبغي به بديلاً ، ولا نشتري به ثمناً قليلا ، وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهـورنـا ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، وإلى الله المشتكي ، وعليه المعوّل ؛ من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شك في أنه كافر فهو كافر ! » إلى آخرها . ومن أراد التوسع في معرفة مباديء الاباضية وفرقهم والمغالين منهم والمعتدلين ودولهم في اليمن وعُمان وشمال افريقية فليراجع كتاب الدكتور عوض خليفات « نشأة الحركة الاباضية » الصادر سنة ١٩٧٨ م وليقرأ أيضا كتاب الاستاذ محمد بن أحمد الشـاطـري : « أدوار التاريخ الحضرمي » وقد كتب فيه فصلاً نفيساً عن « الدور الأباضى » من سنة ١٢٩ إلى سنة ٥٩١هـ .

من هم الأباضية ؟

الأبـاضية هم الـذين ينسبون إلى عبد الله بن أباض المري على أرجح الأقوال وقد كان مشتركا في محاربة الجيش الأموي بجانب عبد الله بن الزبير سنـة ٦٣هـ وهم فرقـة من فرق الخـوارج على الامـام علي رضى الله عنه بصفّين ؛ وقد انقسموا إلى أربع فرق وتتلخص مبادئهم فيما يلي :

١ ـ كفر مرتكب الجريمة .
٢ ـ الكبيرة لا تغفر بدون توبة .
٣ ـ كل من خالفهم من المسلمين كفار .
٤ ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
٥ ـ عدم لزوم الامامة في قريش .

ولهم عقائد أخرى منها التحامل على الامام علي والخليفة عثمان رضى الله عنهما .

وأول إمام إباضي في اليمن هو المذكور سابقا عبد الله بن يحيى الكندي الذي ثار ضد مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ وقتل سنة ١٣٠هـ وكان مجتهداً شجاعاً كريماً ، ذا فصاحة ولسن .

وموجز النشاط السياسي والفكري للأباضية في حضرموت قد لخَّصه البحاثة محمد بن أحمد الشاطر فقال :

الاباضية في حضرموت :

ان للاباضية في هذه الفترة التي دعوناها بالدور الاباضي موقفين ناشئين عن الظروف السياسية التي تكتنفهم . فتارة يظهرون بمظهر الحزب الذي يحكم البلاد . وذلك حين يأنسون من أنفسهم القوة والقدرة على مقاومة الحكومة المتغلبة بحضرموت ، ورئيس دولتهم إمامهم المنتخب على قاعدة مذهبهم من أنهم يختارون التقي القوي الكفؤ من بينهم وينفذون أحكامه في المناطق التي يستولون عليها كمنطقة شبام في أثناء القرن الخامس الهجري ، ومنطقة دوعن في أثناء القرن الرابع الهجري . وأكثر ما تقيم أئمتهم بها . ويتخذون فيها عاصمة لهم . ويزعم بعض المستشرقين ان موضع الخريبة بالذات كان مقر ائمتهم .

وكثيراً ما يعتصمون في حروبهم برؤوس الجبال ويوغلون في بطون الصحاري والأودية كما هي خطة تقليدية عن اسلافهم السابقين في العراق إذا ضايقتهم جيوش الدول الكبيرة ، وتارة يتمسكون بمذهبهم كفرقة اسلامية يطبق أفرادها مذهبهم وينشرون عقايدهم فيما بينهم ، وذلك حين يقضى على شوكتهم ولا يكون لهم كيان سياسي ، كما حدث فعلاً في أواخر القرن السادس الهجري .

ويظهر أنهم في كل من الموقفين يقبلون الجدل والأخذ والرد حول مذهبهم فيما له وعليه بالطرق السلمية ، كما وقع لهم مع الامام المهاجر أحمد ابن عيسى العلوي في أثناء القرن الرابع الهجري ، فانه استعمل معهم طريقة الاقناع والاقتناع ، ونشر بواسطتها في حضرموت المذهب السني هو

وبنوه وأشياعه وأعقابهم من بعدهم ، حتى توارى المذهب الاباضى من حضرموت شيئاً فشيئاً إلى أن رحل عنها فعمها المذهب الشافعي في الأعمال والأحكام ، والمذهب الاشعري في العقائد . وقد يختارون في أحوال قليلة مسائل من غيرهما كما سبق عند الكلام على جغرافية حضرموت .

ولا يعني ما تقدم من مناظرة المهاجر للاباضية أنه لم يكن في مناعة من بطشهم وإرهابهم بل أن له في حضرموت من يؤويه وينصره من شيعته وحشمه . ومع ذلك فلم يقع بينه وبين الاباضيين صدام مسلح كما تفيد المراجع التاريخية القديمة التي بين أيدينا . ولا يستطيع المؤرخ الباحث أن يجزم بشيء من ذلك وإن سطره بعض المعاصرين الذين كتبوا في تاريخ حضرموت . ويشير كلام الامام عبد الله بن علوي الحداد في كتاب تثبيت الفؤاد إلى انه يستدل بسكنى الامام المهاجر وابنه عبد الله وحفيده علوي المواقع الحصينة العالية كما توجد بها قبورهم ـ يستدل بهذا على ما يتشممون إليه من إيجاد قوة يمكنهم بواسطتها اقامة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدافع من علمهم وتقاهم . وكلما حلوا بمكان لم يطب لهم المقام ، فبقوا في الأطراف إن حصل لهم ما أرادوه بقوا عليه وإلا فلا ينالهم في مكانهم أذى ملوك البلاد . وتجمل بعض المصادر بما يفيد وجود حزب قوي مع المهاجر ضد الاباضية ولكنها لا تصرح بوقوع اصطدام حربي بين الطرفين . وسواء قاتل الاباضية المهاجر أو لم يقاتلوه فموقفهم كما ذكرناه وطريقتهم طريقة اخوانهم الاباضية والخوارج الآخرين من حيث انهم لا يتورعون عن استعمال القوة ضد أعدائهم في السياسة أو المذهب كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

ثم قال :

« لقد أصبحت حضرموت في هذا العهد محوراً تدور عليه رحى الحروب ولم يعرف أهلها الاستقرار منذ فتنة طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي الذي سبق ذكره اذ نكل ابن عطية قائد مروان بالكثير منهم وخرب جزءاً لا يستهان به من بلادهم . وتلتها الحرب الضروس بين معن بن زائدة الشيباني والحضارمة خصوصاً الخوارج الاباضية منهم وقتل منهم ما يقدر بخمسة عشر ألفاً وخرب مدائنهم وأفنى مزارعهم وغور مياه عيونهم . واستقرت البلاد بعد

ذلك في أيام الزياديين دون أن يدوم ذلك طويلاً . ثم جاء الصليحي فيما بعد واشتبك معهم ولما قاومه الحضارمة ومنهم ابراهيم بن اسحق الهمداني الحضرمي الأباضى على ما يروى في ترجمته . . لما قاوموه قتل منهم مقتلة عظيمة أضرت بهم وببلادهم أضراراً بليغة . وجاء الزنجبيلي فيما بعد فزاد الطين بلة وكاد يفني البقية منهم كما سيأتي الكلام عن هذا في الدور التالي . وفيما بين هذه الهجمات والحروب الكبرى حروب جزئية يشنها ويقوم بها أرباب الطموح من ملوك اليمن الآخرين .

وهناك في الداخل حروب القبائل المتوطنة والنواقل من البلاد الأخرى فيما بينها والتي هي أشبه بحرب العصابات التي تشنها على الحكومة المحلية الحضرمية الاباضية التي قد تكون في بعض الجهات الحضرمية اسمية فقط ولم تستطع أن تفرض مذهبها ولا سلطتها على بعض المحلات بحضرموت كالهجرين وتريم في أواسط وأواخر العهد الاباضى » .

[أدوار التاريخ الحضرمي ص : ١٤٨ ـ ١٥١] .

جناية الاباضية على حضرموت

رغم ما يقوله المحققون من علماء الملل والنحل ان مذهب الاباضية أكثر مذاهب الخوارج قرباً إلى أهل السنة والزيدية ؛ فقد حكى الشهرستاني أنهم يذهبون الى ان دار مخاليفهم من المسلمين دار توحيد ، وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم ، وقالوا في مرتكبي الكبائر انهم موحّدون لا مؤمنون ، ويقصدون بقولهم ان العاصي أو مرتكب الكبيرة كافر . . . كفر النعمة لا كفر الملّة ، والشرك بالله ، وأجازوا التزوج ممن يخالفهم من المسلمين الى غير ذلك من الآراء التي يتفقون في بعضها مع المعتزلة وفي بعضها مع الأشعرية [ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ج ـ ١ ـ الملل والنحل] نعم بالرغم عن ذلك فانني ارجّح قول العارفين بتاريخ وأحوال اليمن ان الحركة الأباضية قد جنت على حضرموت اجتماعياً وفكريّاً ؛ فهي التي حفّزت الأمويين على ارسال الجيوش لسحقها ، ثم تلاهم العباسيون فبعثوا الحملات تِلو الحملات ، ونشبت حروب طاحنة قضت على الأخضر واليابس وأهلكت الحرث والنسل هذا من الناحية الاجتماعية والسياسية ؛ وأما فكريّاً وأدبيا فان إنغلاق الذهن الخارجي ـ والاباضية خوارج وان كانوا معتدلين ـ واعتبار من يخالفهم في

الرأي كافراً ـ ولو كفر نعمة ـ قد فصل حضرموت ـ فترة طويلة من الزمن ـ عن العالم الاسلامي وحرمها من نعمة الحوار والبحث والتبحرّ في شتى أنواع وفنون المعرفة ؛ حتى قيّض الله إنتجاع الامام المهاجر أحمد بن عيسى اليها سنة ٣١٩هـ وهو الذي استطاع بعلمه وحلمه ، وقوة عزيمته وشموخ صبره ، أن يقارع بدع القرامطة والخوارج بالبراهين والحجج والدعوة بالّتي هي أحسن ؛ مبتعداً عن أيّ نشاط سياسي يخوّل لخصومه إتهامه بأنه يطلب الجاه والسلطان ، والامامة العلوية ؛ فَلَحَب طريق الرشاد ، وأعاد أهل حضرموت إلى مذهب السنة والسلف الصالح . ولقد كان دوره في حضرموت كدور ابن عمه الهادي يحيى بن الحسين في شمال اليمن ولكن من ناحية التأثيرعقائديا وفكريا وثقافيا فقط لأن «المهاجر» وأبناؤه وأحفاده وأتباعه من بعده لم يفكروا ولا حاولوا تأسيس دولة سياسية ، ولا أرادوا السيطرة المادية ، واقتصرت دعوتهم على الارشاد والتوجيه المعنوي والامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة . وتلك ميزة لهم محمودة . نجوا بها من مآسي الصراع الدامي الذي ابتلى به أبناء عمهم من « ورثة النظرية الزيدية » في الشمال .

من هو المهاجر

أمّا المهاجر الذي كان أول من نشر مذهب الامام الشافعي في حضرموت فهو الامام العالم الزّاهد المجاهد أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق وقد لُقّب بالمهاجر لأنه هاجر من البصرة الى حضرموت مع أسرته وحاشيته في رحلة طويلة مضنية بين رَصَد عيون العباسيين ، وسيوف المتربّصين ، وقد غادر البصرة الى المدينة عام ٣١٧هـ ثم منها ذهب إلى مكة وأدّى فريضة الحج عام ٣١٨هـ وبعدها سافر إلى اليمن يتلمس ويتحسّس المكان الذي يطمئن فيه مع أهله ويعيش آمنا حتى نزل بحضرموت واستقر بها سنة ٣١٩هـ ، وقد سكن أولا بقرية « الجبيل » ثم تحوَّل إلى « الهَجَرين » وفيها بنو الصدف من قبائل كندة واستوطنها فترة ثم انتقل الى « قارة » بني « جُشَير» ؛ وكان المذهب السائد عند وصول المهاجر الى حضرموت ، هو « المذهب الاباضى » ، ولذلك كان « المهاجر » يتنقل من بلد إلى أخرى ، ويتحرّى النزول بالأماكن التي لم تغمرها البدع والتي يوجد فيها شيعة لآل البيت ، ومن لا يزالون يقتفون السنة والسلف الصالح وكان « المهاجر »

يجنح في الفقه إلى المذهب الشافعي ، وإن كان في الاصول اماماً مجتهداً كأسلافه ولذلك فنستطيع القول بأنه أول من أظهر مذهب الامام محمد بن ادريس الشافعي بحضرموت وجنوب اليمن ، واستطاع بعلمه الغزير وقوة عارضته ، وحسن سلوكه أن يزاحم به المذهب « الاباضى » ؛ وقد ظل داعياً مرشداً حتى توفاه الله سنة ٣٤٥هـ بالحسيسة ، وقد خلفه في الدعوة ابنه الجهبذ عبد الله بن أحمد المتوفي سنة ٣٨٣هـ ثم ظل أحفاده من بعده أئمة طاعة ، وارشاد وتوجيه ، وتقوى واجتهاد ، في حضرموت وسائر اصقاع جنوب اليمن عبر العصور حتى يوم الناس هذا . ونبغ منهم الاعلام فقها وعلما وشعرا وزهدا .

درس تاريخي وعبرة

لقد كان « الامام المهاجر » أحمد بن عيسى جدّ حكيم حين صرف نفسه ، ونظر « آل البيت » من ذويه وأهله عن « السلطة » ، وحثهم على ان يكونوا « أئمة محاريب » ودعوه ، لا « أئمة قصور » وقوّه ؛ فاحتفظوا لأنفسهم بالمنابر والعلم والتقوى محافظين على شرف « المودّة في القربى » ؛ إذ أن الطموح من طبيعة البشر ، والتّوق الى الحكم والسلطة أقصى غاية الطامحين من أبناء البشر ؛ وقد قال الشاعر :

نصف أهل الأرض اعداءٌ لمن ولي السلطة هذا إن عدل

وقلة هم أولئك الذين يستطيعون ـ خُلُقاً أو توفيقاً ـ ان يكبحوا جماح رغباتهم ومشاعرهم وأهوائهم من أبناء البشر !

وقد أهّل الله سبحانه أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق لذلك الموقف الحكيم خَلْقاً وخُلُقاً ، وطبعاً وسلوكا ؛ وبذلك التأهيل الآلهي والفطري منع أخاه العالم الكبير محمد بن عيسى من الخروج والثورة على خليفة عصره العباسي وأقنعه بالصبر والأناة ؛ وهو نفس الموقف الذي حاوله جده الامام جعفر الصادق مع ابن عمه الامام الشهيد « زيد بن علي » ولكنه أخفق ليقضي الله أمراً كان مفعولا ، وتوفّق حفيده « المهاجر » في اقناع أخيه « محمد » ؛ ثم أسّس لأولاده وأحفاده في « حضرموت » طريقة الخلود إلى « المحاريب » والدعوة إلى الله بالتي هي أحسن ، وترك السلطة لمن يريدها

ويهواها من أولئك الذين تواثبوا على كراسيها في « حضرموت » طيلة أحد عشر قرنا ؛ وظل ا« الأحبّاء » بعيدين عن الصراع عليها ؛ لا بينهم وبين أنفسهم كما فعل « السادة » أولاد عمّهم في شمال اليمن ، ولا بينهم وبين « الأذواء » والسلاطين ! ، وآثروا الاحتفاظ بشرف وجلال « المودّة في القربى » وأعظم به شرفاً ، وأكرم به من جلال ! أليس في هذا درس تاريخي وعبرة لذوي الألباب ؟

تعليق وتعقيب

حقّاً ان هذه الفترة التي استمرّت حوالي مائة وخمسين عاماً وسميناها « فترة الامامة الهادوية » كانت ـ رغم أحداثها الرهيبة ومآسيها الدامية ـ حافلةً بما يعجب علمياً وفكرياً وأدبياً ؛ وقد نبغ فيها واشتهر من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ، والزهاد والقادة أفذاذ لا يقلّون مكانة وقدرا وإنتاجاً ثقافياً عن أكابر العلماء المجتهدين ، والأدباء الموهوبين ، والشعراء المبرزين في المدينة المنورة ، والبصرة والكوفة ثم في بغداد وحلب وقاهرة المعز خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وشواهد ذلك تزخر بها سيرة الأئمة ، وكتب المؤرخين وآثار الاعلام الذين عشنا مع بعضهم ، وتعرضنا لذكر أخبارهم ومؤلفاتهم .

نعم ؛ لقد كان الوضع السياسي سيّئا ، وكانت أحوال الناس المعيشية ، وعلاقاتهم التقليدية الأسرية والقبلية ، وظروفهم الاجتماعية ، يسودها القلق والخوف ، وترقّب الكوارث والفتن ؛ ولكن ذلك ما كان يسود غير اليمن ؛ فالخوارج والقرامطة والشعوبيّون والطّامحون في السلطة ، والمماليك كانوا يعيثون فساداً في أصقاع العالم الاسلامي ؛ ولست في موقف المؤرّخ ، ولا مُلْزَماً بتعليل أسباب ومسببات ذلك والذي عليّ في هذا الكتاب هو رصد النواحي الثقافية والفكرية والأدبية وهو ما أحاوله جهدي .

ولقد وعي واستوعب علماء وأدباء وتلاميذ « فترة الهادي » التعاليم الفقهية والسياسية للزيدية ، وهي تعاليم إسلاميّة مستمدّة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ واستنباطات الأئمة المجتهدين وما فهموه من معاني العدالة الاجتماعية ، والأخوّة الدينية ، والدعوة إلى الحق من أجل عالم يسود فيه الخير ويعم جميع البشر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بلا تمييز عنصري ،

ولا تفريق طائفي ، ودونها حيف أو عدوان أو غلوّ أو تفريط ؛ وعوا ذلك واستوعبوه وألّفوا فيه الرسائل والكتب . . لكنهم عملياً لم يوفّقوا في تطبيق تلك التعاليم كما أراده وحاوله المؤسّسون ، وكما تنص عليه أقوال كتبهم ! ربّما لأن الوقت لم يكن كافياً للدّعاة المؤسّسين الذين فازوا بثقة الناس وولائهم فيتسنّى لهم مع تطبيق تلك التعاليم تثبيتها حتى تصبح خلقاً وعادة وتقليدا . . ولذلك فما إن استُشْهدوا ، أو ماتوا ، حتى صعق تلاميذهم وورثة تعاليمهم ، وارتبكوا ، لَعدّة أسباب منها أنهم لم يكونوا في مراكز قيادية ، ولا يحوزون على ثقة الناس وولاء الطاعة وهيبة شرعيتها هذا أوّلا ، وثانياً لم يكن لهم تنظيم اداري يحدّد وظيفة وواجب كل منهم ، وثالثاً كانت الأفكار الهدّامة للخوارج والقرامطة والشعوبيين والروافض قد انتشرت وأفسدت الناس ، وخدّرت الهمم والعزائم ، وبعض هذه الفئات كان لها تنظيمات سرية ، وإلى جانب ذلك مؤامرات العنصريين المتعصبين للقبليّة والطامحين في الجاه والسلطان . . فارتبك التلاميذ وورثة النظريات والتعاليم ؛ بل واختلفوا وتباينوا ؛ فظن البعض انه الأحق والأولى وصاحب الأمر الشرعي ، وآخرون أصيبوا بخيبة الأمل واليأس فساحوا في الأرض مهاجرين ، وغضب قوم فثاروا ، واستعاذ البعض ـ وهم الصفوة ـ بالصبر وعكفوا على دراسة العلم والتأليف و« تعليم الناس أصول دين الله » ، واشتغل آخرون بالدوامغ الشعرية وكل ذلك قد سبّب الجدل البياني ، والحوار العلمي بل والصراع الدامي سياسياً ، والتمزّق الرهيب اجتماعياً ، والتفرّق المذهبي فكرياً وعقائدياً ، وبالتالي تكوّنت قوى ثقافية وسياسية وقبلية متباينة ومختلفة وقد تحدثنا عن « المهدوية العيانية » و« التعصبات القبلية » ، وسوف نتحدث عن « اسماعيلية » أو « فاطمية الصليحيين » ، وعن أتباع « المطرفية » ، واشياع القسوة « الحمزية » في الفصول القادمة إن شاء الله .

ولولا الخصب الفكري والأدبي للفترة الهادوية ، والروافد الثقافية التي وفدت إلى اليمن مع « الطبريّين » و« المضريين » المهاجرين مع الهادي واليه ؛ لما قُضِيَ على « القرامطة » ، وتحوّل بقاياهم الى « فاطميين صليحيين » ولا كان « مطرفيون » ولا « عيانيون » ولا « حمزيّون » ؛ ولا كان لنا هذه الحصيلة من العلم والشعر والأدب ، ولا كان ذلك الصراع الفكري

بين أعـلام هذه الحقبة التي سنفارقها بالاعجاب يشاغبه الأسى ، والتقدير يؤذيه الاشفاق ، ونحن نتساءل : « هل كان في الامكان أحسن مما كان » ؟ أم انهاء طبيعة « حركة التاريخ » التي هي من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الحقبة الثالثة
أو « عهد الصليحيين »
٤٣٩ ـ ٥٦٩هـ/ ١٠٤٨ ـ ١١٧٤ م

تُعَـدّ هذه الحقبـة الثالثة من فترات تاريخ الأدب العربي في اليمن من أخصب الفترات فكرياً وأدبيّاً في تاريخ اليمن الثقافي ، وتبدأ بظهور الداعي الفاطمي « علي بن محمد الصليحي » سنة ٤٣٩هـ وتنتهي بتلاشي الدولة الصليحية على يد السلطان « توران شاه ابن أيّوب » الذي اكتسح اليمن بجيوشه الجرّارة عام ٥٦٩هـ /١١٧٤ م .

وهي حقبة تطلّعت اليمن في بدايتها الى الاستقرار حين حاول الملك علي محمد الصليحي توحيدها بعد أن قضى على معظم الامارات والسلّطنات واستولى على سائر الأصقاع اليمنية جنوباً وشمالاً ، وشرقاً وغربا ، وفي سنة ٤٥٤هـ توجّـه إلى مكةّ وانتزعها من بني أبي الطيب الأشراف الحسنيّين ، وألغى الخطبة للعباسيين ، فخطب للخليفة المستنصر الفاطمي العُبَيْدي في مصر .

ولكنّه ما إن قُتِل في المعركة التي فاجأه بها سعيد الأحول بن نجاح الحبشي مع المئات من عبيدة وأبناء جلدته سنة ٤٥٩هـ /١٠٦٧ م حتى تمزّقت اليمن من جديد ، واكتسحتْهـا الحـروب والفتن ، وقـد خلفه إبنه المكرّم الذي ما لبث أن أصيب بالفالج ، وأمراض أخرى ، فسلّم سلطة الدولة لزوجته

السيّدة أروى بنت أحمد الصليحية ، واستردّ « النجاحيّون » الأحباش سلطتهم في زبيد ، واستولى « الزريعيّون » على « عدن » ، وقويت شوكة « آل حاتم » في « صنعاء » ، وتتابع « الأئمة » في الشّمال ، ثم ساد على زبيد وغيرها « علي ابن مهدي » سنة ٥٥٤هـ / ١١٦٠ م .

وسبحت اليمن بين أمواج المآسي الى أن غزاها « توران شاه » الأيوبي في الحملة المصرية الأولى .

فإطلاق اسم « الصليحي » على هذه الحقبة من باب التغليب ، ! ويشبه إطلاق إسم « الهادي » على الفترة التي سبقتها اذ لم يتفرّد « الهادي » وأولاده ، ومن جاء بعدهم من الائمة بالسّلطة ، ويستبدّوا بحكم اليمن دون معارض ، بل قد عارضتهم وحاربتهم ونازعتهم ، إمارات وسلطنات كثيرة ، وكانت تفوقُهم أحيانا عُدةً وعتادا ، ورجالا ومالا ، وقد ذكرنا بعض أسماء تلك الإمارات والسّلْطنات ؛ وكذلك كان حال الدولة الصُّليحية ، فقد تنازعت السلطة والحكم مع « النجاحيّين » ، وبعض الأئمة ، و« آل حاتم » ، و« بني مهدي » ، وغيرهم ؛ ولم تطلْ مدّة استبداد مؤسّس الدولة علي محمد الصليحي بحكم اليمن ؛ وإنما هي بضع سنوات لكنّها لم تكن عجافا . . !

وإطلاق اسم الزعيمين « الهادي » و« الصّلَيحي » على الفترتين لأن كلَيْهما قد طبع فترته بطابعه الخاص ، وكان كلّ منهما مؤسِّساً لا وارثاً ، ويستند في حكمه الى نظريّةٍ فقهية وعقائدية ، يدين بها أتباعه ومؤيّدوه ، ويحاربها خصومه ومعارضوه ، ولم يكن هدف أيٍّ منهما فقط الحصول على السلطة والسيطرة على الحكم ومقاليد الأمر ، مثلما كان الحال بالنسبة لآل يُعْفِر ، وأبي الفتوح ، وبني الضحّاك ، والأحباش ، وأضرابهم ؛ وبالرغم مما نعلمه من تباين بين النظريّتين « الزيديّة » و« الفاطمية » ، والاختلاف الشديد مبدءاً ، وفكراً ، وسياسة ، وفقها ، وسلوكاً ، بينهما ، وبين الممثّلين لهما ؛ فقد كان كلّ من « الهادي » و« الصليّحي » يُمثّل نظريةً قائمةً على عقائد دينية ، ومبادىء سياسية ، وتشريعات فقهية ، ولسنا في مقام التمييز بين ما هو حق وما هو باطل ، بل في موقف الرَّصْدِ والتصوير ؛ وللرّشدِ والغيّ مقياسُ « قرآني » و« ميزان » إسلامي لا يزيغ ولا يطغى .

أصل الدعوة وتطوّرها .

وقد سبق أن تحدثت عن « الزيدية » مبدأً ونظريّة ، وعن بعض أئمتها ، وعلمائها وأدبائها وشعرائها ، ولابدّ أن نلقي ضوءاً على « الدعوة الصليحية الفاطمية » ونتعرّف عليها ، لكي نفهم هل ثمة فارق بينها وبين إسماعيلية أو فاطمية « المنصور بن فرج » و « علي بن الفضل » الداعيتين الّذين كانت دعوتهما أصلاً « لِفاطميةِ علي محمد الصليحي » !؟ وقد سبق أن بيّنا أنّ دعوة ذينَيْك كانت في نظر جميع المؤرخين اليمنيين دعوة مروق عن الدين الاسلامي الحنيف ! .

فهلْ ثمة فرق بين الدعوتين ؟
وهل جاهر « الصليحيون » بما جاهر به القرامطة ؟
وهل كانت الظروف مواتيةً لشخصية قوية مثل الصّليحي فنجح من حيث فشلوا ؟!

أمّا الدكتور حسين الهمداني ؛ فانه بعد أن دافع عن « الدعوة الفاطمية » كمبدأ ، وقال إنها تبرأ مما أحدثه ابن الفضل من منكرات ، واعترف ان مروق ابن الفضل وثورته على الدعوة قد أدّى الى ضعف الحركة الفاطمية في اليمن ، وأكدّ ولاء « المنصور الحسن » الثابت لمبدأ الدعوة ، وانّه نفسه قد أنكر ما مارسه رفيقه « إبن الفضل » . . وقال : إنه « أوصى من بعده لابنه الحسن وخِصّيصه الشاوري » ، وقد أشرنا الى ذلك أثناء حديثنا عن « الفترة الهادوية » . . قد أوجز كيف كان مصير « الدعوة » بعد اغتيال الشاوري وخروج ابن المنصور على مذهب ابيه وقتله ، فقال : « بقي من أهل الدعوة قليل في ناحية جبل مَسْوَر فقام يوسف بن موسى ابن أبي الطّفيل بأمر الدعوة » فلما قُتل « بقيت زعامة الدعوة في اليمن في غير بيت منصور » ، ثم ذكر ان الذي قام بها بعد « ابن أبي الطّفيل » شخصٌ يدعى « جعفر ابن أحمد بن عباس » ، وخلفه « ابن بشر » ، ثم « محمد بن أحمد الشاوري » ثم خلفه « هارون بن محمد القُدَمِي » وقال : « وفي أيام الداعي هارون ظهر الأمير عبد الله ابن قحطان بن يُعْفِر بصنعاء ، فلاقت الدعوة في أيامه بعض الرّواج » وكان ذلك حوالي سنة ٣٨٠هـ وعبد الله بن قحطان هذا كما نعلم هو ابن « معاذة » بنت علي بن الفضل التي سباها عمّه أسعد ابن ابراهيم اليُعْفِري ووهبها لقحطان بن يُعْفِر سنة ٣٠٣هـ .

ثم خلف هارون بن رحيم يوسف بن أحمد بن الأشج ، ولمّا توفي خلفه سليمان الزواحي الذي ذكرنا سابقاً أنه الذي استخلف الصّليحي ، وقال الدكتور الهمداني : « وقبل أن يتوفى سليمان الزواحي أوصى بكتبه وأمواله الكثيرة إلى علي بن محمد الصليحي ، الذي قام بأمر الدعوة باليمن من بعده » [الصليحيون ص ـ ٤٩ ـ ٥٨] .

ونعرف بهذا ان « دعوة الصليحيين الفاطمية » قد تُوورِثَتْ عن دعوة علي ابن الفضل ، والحسن بن فرج ، وهي التي حاربها أئمةَ الزيدية ، وسائر المذاهب الاسلامية ، فكيف استطاع الصّليحي وخلفاؤه ان يتعايشوا مع المذاهب الاسلامية في اليمن ؟ هل لحكمته ؟ أم لأن الدعوة نفسها قد تطوّرت ؟ أم لأنّ الحالة السياسية وما يسود اليمن من تمزّق وشتات وتفكّك وانحلال ، كانت تتطلّب شخصيّة قويّة تجمع البلاد تحت لواء واحد ، وكانت هذه الشخصية هي شخصية علي محمد الصّليحي ؟ وهو ما يرجحه الدكتور حسين الهمداني [ص ـ ٦١] .

شخصية الصليحي وتوحيده لليمن

والصّليحي نسبة إلى قبيلة « الأصلوح » من بلاد حراز ، ووصفه سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزّمان فقال كان : « شاباً أشقر اللّحية أزرق العينين وليس في اليمن من يماثله في ذلك » ، ! وكان أبوه شافعيّ المذهب ، حسن السيرة ؛ فنشأ عليٌّ إبنه على طريقته في بدايته ، ويقول عمارة اليمني في تاريخه : « كان القاضي محمد بن عليّ والد الدّاعي علي محمد الصليحي سنيّ المذهب ، وله طاعة في رجال حراز ، وهم أربعون ألفا ، ولمّا انتقلت الدعوة الى سليمان بن عبد الله الزواحي ، شرع في ملاطفة القاضي محمد بن علي والد الداعي علي بن محمد الصّليحي ، فكان الزواحي يركب اليه ، لأنّ محمداً كانت له رئاسة وسؤدد ، وصلاح وعلم ، فلم يزل سليمان حتى استمال قلب علي بن محمد وهو يومئذٍ دون البلوغ ، ولاحت له فيه مخايل النجابة » « واستماله سرا من أبيه وقومه ، ولم يلبث الزواحي حتى مات وأوصى له بكتبه وعلومه ، ولم يمت إلاّ وقد رسخ في ذهن عليّ من كلامه ما رسخ ، فعكف على الدرسِ ، وكان ذكياً ، فلم يبلغ الحلم حتى تضلّع في معارفه التي بلغ بها وبالجِدِ السعيد غاية الأمل ؛ فكان عالماً فقيها في

مذهب الدولة [الفاطمية] مستبصراً في علم التأويل » [ص : ٤٧ ـ ٤٨ ـ طبعة الدكتور حسن سليمان] .

ثم ذكر عمارة انه كان يحجّ بالناس دليلاً عن طريق السّراة والطائف عدة سنين وانّ الأحوال تقلّبت به « من خفض الى رفع ، ومن ضر الى نفع » ، وانه تغرب وساح ، وأورد عنه أقاصيص لطيفة حتى ثار في رأس « مسار » وكان معه ستون رجلاً حَالَفهم في مكة في موسم ٤٣٨هـ على الموت ثم لم تخرج سنة ٤٥٥هـ الاّ وقد ملك اليمن سهله ووعره ، وبرّه وبحره ، وذلك أمر لم يعهد مثله في جاهلية ولا اسلام [ص : ٥١]

سُبّوحان قُدُّوسان !

ومن لطائف ما رواه عمارة ان الصليحي « قال يوماً وهو يخطب بالناس في جامع الجند » : وفي مثل هذا اليوم نخطب على منبر « عدن » ان شاء الله فقال بعض من حضر مستهزءاً « سبّوح قدّوس » ! فأمر الصليحي بالحوطة عليه ، وخطب الصليحي في مثل ذلك اليوم على منبر عدن فقال ذلك الانسان : « سبّوحان قدّوسان » !

« ومن سنة ٤٥٥هـ استقر بصنعاء ومعه ملوك اليمن الذين أزال ممالكهم وأسكنهم معه بصنعاء وولّى في بلدانهم غيرهم واختط بصنعاء عدة قصور » [ص ٥٢] .

زواج الصليحي :

وقد روى عمارة قصة زواج علي محمد الصليحي بالسيّدة أسماء بنت شهاب وهي قصة ظريفة فقال :

« كان على باب زبيد من داخل السور دار رجل من الحبشة ، يقال له فرج السحرتي ، وكان من أهل المعروف والصدقات الواسعة . وكان من نزل بمسجده أكرمه وآواه . ويتنكّر ويدخل المسجد يتجسّس أخبار الضيوف سرّاً من وكلائه وخدمه . فخرج ذات ليلة ، فظفر برجل يقرأ القرآن ، فسأله عن العشاء ، فأنشد قول المتنبي :

من علّم الأسـود المخصيّ مكرمـة أعـمامـه البيض أو أخواله الصيد ؟

فأخذه الحبشي ، وطلع به إلى أعلى مكان في داره ، وأكرم مثواه ،

واستخبره عن سبب قدومه إلى تهامة . قال الصليحي : إن لي عمّا يقال له شهاب ، وله ابنة يقال لها أسماء ، قليلة النظير في الجمال ، معدومة المثل في الأدب والعقل ، وخطبتها إليه ، فأشطّ عليّ في مهرها ، وأمّها تقول : لا تزوجها إلّا لبعض ملوك همدان بصنعاء أو ملوك بني الكرندي بمخلاف جعفر . وقد استاموا عليّ من المال مبلغا لا قدرة لي عليه . وأنا متوجّه إمّا إلى بني معن بعدن ، وإمّا إلى بني الكرندي بالمعافر . قالوا : فدفع له القائد فرج السحرتي مالا جزيلا أضعاف ما أدّى الصليحي ، وجهز العروسين جميعا أحسن جهاز يحتفل الملوك به لعقائلهم ، وأعاده إلى عمّه ، فتزوج بأسماء » . [ص : ٤٩] .

وقال عمارة : « وكانت أسماء من الكرم والسودد ، والجوائز السنية الجزيلة للشعراء ، والصلات الواسعة في سبيل اللّه تعالى وفي سبيل المروءة والخير ، بحيث يتمدحَ أولادها وإخوتها وبنو عمّها بمفاخرها » . وفيها يقول شاعر زوجها واسمه عمر بن يحيى الهيثمي من قصيدة :

رَسَمتْ في السَّماح سنّةَ جود لم تدَعْ من معَالم البخل رسْما
قلت إذ عظّموا لبلقيس عرشاً دَسْتُ أسماء من ذرا النجم أسمى

***

وقال ابن الجوزي : « وكان يخطب لها على المنابر ، فيخطب أولا للمستنصر ثم لعلي الصليحي ، ثم لزوجته ، فيقال : اللهمّ وأدم أيّام الحرة الكاملة السديدة كافلة المؤمنين » [مرآة الزمان : ٨٨] .

وكانت إذا حضرت مجلساً لا تحتجب ولا تستر وجهها عن الحاضرين ، وكان الصّليحي يثق بها كامل الثقة ويوكل اليها تدبير بعض أمور الدولة ، ويجلّها اجلالاً كبيرا ؛ وتفاصيل ذلك في كتابي « الصليحيون » ، وتاريخ عمارة .

أهداف الدعوة الصليحية :

وقد أوضح الصليحي في بيان دعوته مبدأه وهدفه من ثورته ، وسياسته التي سينتهجها وهذا نصّه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذي أورى زناد الحق ، ورفع عماد الصدق ، بالذين أكمل بهم الحجة على الخلق ، وأنارهم ما بين الغرب والشرق ، الهداة إلى الخير والأدلة ، الدعاة إلى أشرف المنهاج والملة ، خلفاء أنبيائه ، وأمنائه وأصفيائه ، وسلالة رسله من لدن آدم عليه السلام ، ووصل نظامهم ، وأعلى مقامهم ، وفتق بالنور أيامهم ، ونشر بالعدل أعلامهم ؛ فهم أعلام الدين ، والدعاة إلى الحق المبين ، الشيعة الميامين ، والسلالة الطيبين ، آل طٰه ويس » .

« وصلوٰاته على من ختم به الرسالة ، وفتح بالأئمة من عقبة أبواب الدلالة ، سيدنا محمد النبيّ ، وعلى أخيه ووصيه عليّ ، وعلى الأئمة من نسل مولانا الحسين الزكيّ ، ورثة التنزيل ، وخزنة التأويل » .

« وأفضل صلواته وأنمى تحياته وبركاته على وارث علمهم ، والقائم من بعدهم ، بقية السلف ، وخيرة الخلف ، مولانا معدّ أبي تميم الامام المستنصر باللّه أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه وعلى خلفه وسلفه » .

« أما بعد ، يا أهل حراز ! ألهمكم اللّه رشدكم ، وجعل الجنة قصدكم ؛ فلم أطلع إلى حصن مسار متجبرا باغيا ، ولا متكبرا على العباد عاتيا ؛ ولا أطلب الدنيا وحطامها ، ولا طالبا أملك غوغاءها وطغامها ، لأنّ لي بحمد اللّه ورعا يحجزني عما تطمح النفوس إليه ، ودينا أعتمد عليه » .

« وإنما قيامي بالحق الذي أمر اللّه عز وجل به ، والعدل الذي أنزله في محكم كتابه ، أحكم فيه بحكم أوليائه ، وسنن أنبيائه ؛ وأدعو إلى حجته الذي في أرضه ، والقائم بفرضه . لست من أهل البدع ، ولا من ذوي الزور والشّنع ، الذين يعملون في الدين بآرائهم ، ويحكمون بأهوائهم ؛ بل أنا متمسك بحبل اللّه المتين ، عامل بما شرع اللّه في الدين ، وداع إلى أمير المؤمنين ، عليه صلوات رب العالمين . لا أقول إلاّ سدَدا ، ولا أكره في الدين أحدا ! فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها . وما اللّه يريد ظلما للعباد » .

« واعلموا ، يا أهل حراز أني بكم رءوف ، وعلى جماعتكم عطوف ، للذي يجب عليّ من رعايتكم وحياطتكم ، ويلزمني من عشرتكم وقرابتكم ، أعرف لذي الحق حقه ، ولا أظلم سابقاً سبقه ، وأنصف المظلوم ، وأقمع الظالم الغشوم ، وأبث فيكم العدل ، وأشملكم بالفضل . فاستديموا ذلك بالشكر ، ولا تصغوا إلى قول أهل الكفر ، الذين من بقايا أهل الكفر ، فيحملونكم من ذلك على

البغي والعدوان ، والخلاف والعصيان ، وكفر الانعام والاحسان ، تستوجبوا بذلك تغيير الانعام وتعجيل الانتقام . وكتابي هذا حجة عليكم ومعذرة إليكم . والسلام على من اتبع الهدى ، وتجنب أمور الردى . والحمد لله على ما أعاد وأبدا ، وصلواته على من أرشد به من الضلالة وهدى ، سيدنا محمد النبي وآله الأئمة الشهداء وسلم تسليما ، حسبنا الله ونعم الوكيل » .

سياسة التعايش السلمي !

واستناداً إلى هذا البيان نستطيع أن نقول أن علي محمد الصليحي ـ سواء كان مخلصاً صادقا ، أو قال ما قال في بيانه « تَقِيّةً » ومكرا ، قد طوّر مبادىء الدعوة المتوارثة عن الداعيتَيْن « ابن فرج » و « إبن الفضل » ، أو على الأقل غيَّر أسلوب العمل من أجلهَا ؛ وفيما عدا تشيّعه ، وحصره للأئمة من نسل سيدنا الحسين بن علي رضى الله عنه ، واعلان ولائه للمستنصر مولاه معدّ ابي تميم ، لا نجد في كتابه أو بيانه ما يمرق به عن الاسلام فهو يعلن انه سيحكم بما أنزل اللّه وسنة رسوله ولن يُكْرِه في الدين أحداً .

وربّما انه قد تلقّى هذا الاسلوب الحكيم في بث « الدعوة الفاطمية » من أستاذه الداهية سليمان الزواحي الذي سبق أن ذكرنا بأنه كان كثير المال عظيم الجاه وكان يوارب ويجامل الناس وكلّما همّ أحد من الناس بقتله ردّه بقوله : « أنا رجل مسلم أقول لا إله إلاّ اللّه » فكيف يحلّ لكم دمي ، وأخذ مالي ؟ فيمسكون عنه ، وقد توصل الى ذلك بالتجارب ، وعلمته الأحداث والرزايا التي حلّت بعائلتيَّ علي بن الفضل ورفيقه الحسن بن فرج ان أهل اليمن شديدوا التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، وجاء الصليحي وخلفاؤه فلم يكرهوا أحداً على اعتناق مذهبهم ، ولا حاولوا نشره بالسيف ، وتعايشوا مع من يسالمهم من أهل السنة ، والزيدية ، والمطرفية ، وسائر المذاهب الاسلامية .

ومما يؤكد ذلك قول المؤرخ الشاعر عمارة اليمني : « وبقي الصليحي في « مسار » وأمره يستفحل شيئاً فشيئا من سنة ٤٣٩هـ كاتماً لما يضمر من الدعوة ، وكان يخاف « نجاحاً » صاحب تهامة ، فكان يكافئه ، ويلاطفه ويستكين لأمره ، ولم يزل يعمل الحيلة على « نجاح » حتى قتله بالسمّ على

يد جارية جميلة أهداها اليه ، وكانت وفاة نجاح بالكدراء في عام ٤٥٢هـ » [ص : ٥١] .

وبعد هلاك « نجاح » الذي كان الصليحي يخافه ، والعباسيون يؤيّدونه وينصرونه ، زحف الصليحي بجيوشه فاستولى على جبل صبر ، وبلاد بني الكرندي وحصن الدملؤة ، وبلاد التبّعي صاحب حصن حب وبَعْدَان ، والسحول ، ودخل الجند واستولى على « عدن » التي كان يحكمها بنو معن ، ثم شمّر عن ساعد الجد وسار إلى زبيد فافتتحها ، واحتل التهائم كلها وطرد منها أولاد « نجاح » فنزحوا إلى جزيرة « دهلك » ، وتمنّعت عليه صعدة ، ولكنه ما لبث ان ملكها ، وبعد ذلك كتب خطابه الى نائبه في « عدن » والذي يقول فيه : « الدولة حصينة ، والصولة مكينة ، والرايات منشورة ، والأجناد منصورة ، وسيوف الحق على الأعداء مشهورة والحضرة بالسعود محروسة » إلى آخر الرسالة التي هي من انشاء كاتبه الأديب القمّي وهذا يدل على اطمئنانه باستقرار أمور الدولة و توحيد كلمة اليمن كما يقول الدكتور حسين الهمداني [الصليحيون ص ٨٧] .

دخول الصليحي مكة وموقفه من الأشراف

يقول الدكتور حسين الهمداني : « ولم يكن اهتمام الصليحي مقصورا على اليمن فحسب ، بل كان ينظر إلى ما وراء حدود بلاده ، وبالأخص إلى بلاد الحجاز والأراضي المقدسة ـ أقرب البلاد من اليمن ، وأهمها في نظر المسلمين ، وأحوجها إلى استقرار الحكم وحسن الادارة فيها ، فتوجّه اهتمام الصليحي إليها . وكان أخلاصه للدعوة الفاطمية ، وتفانيه في رضا الامام بمصر ، يحتم عليه أن يجيب أوامره صاغرا ، ويؤديها متبركا برضاه ، معتزًّا بثقته له . فلما خرجت مكة عن طاعة المستنصر ، وقطعت الخطبة له من سنة ثلاث وخمسين وأربع مائة أرسل علي الصليحي إلى واليها الشريف شكر الحسني ، وحذره مغبة خروجه ، وتبودلت بين الطرفين مراسلات تنطوي على كثير من التهديد والوعيد ، من ذلك قصيدة للشريف شكر بعث بها إلى الصليحي ، جاء في أولها :

لتفليق الجماجم والرؤوس وإقحامي خميساً في خميس

فأجابه الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي على لسان الملك علي بن محمد الصليحي ردّا على الشريف شكر السليماني بقصيدة طويلة جاء فيها :

دم الأبطال في اليوم العبوس مدامى لا شرابُ الخندريس
ولهوى بالنشيج إذا تلاق الـ وشيج بمعرك حامي الوطيس
أحب إليَّ من نغمات عود وصادحة تغرِّد عيطموس
ولولا فضل من لَبّى وجدوى معدّ ذي الندى الغمر المسوس
لكنت حليف إقتار حبيساً بدار صريع أفيون شريس
أفق عن عيب أجدادي ومجدي فما بأسي بمفلول الضروس
ولا بيتي بهمدان بن زيد بمجهول الفروع ولا القنوس
أنا ابن حماتها وذرا قناها أنا ابن عنابس الحرب الضروس
أنا ابن سراتها الحكام فيها ذوي الأفضال مرضيّ المسيس
نماني كلّ أغلب حاشديّ عدوّ للخنَا عنه شموس
بَنَوا ، وأتمّ مفخرهم بنائي وقوّي حبل مجدهم فريسي
وكم ملك أسرت ، وكم خميس أباد سراتَه قتلا خميسي
وكم نقع أثارته رمالي فحيلِ الجوُّ منه في سُدوسي
وكم قوم نعشْتُهُم وقوم طحنتُهمُ وحصن من مَريس
بني حسن ! ألا تنهون شكراً عن استمطاره سحب النحوس
أتاني السبّ عنه ، وقال : أني إذا أقسمت أحلف بالمجوس
إلى قسم بغير أبي تميم وأسرته البدور من الشموس
متى أذن الامام بحرب شكر أتته بالردى خيلي وعيسي
بني حسن ! حذار ! إذا أتتكم جنود اللّه بالخطب الشكوس

***

ولما عيل صبر الصليحي ، وضاق صدره ، طلب من الامام أن يأذن له بإزالة الشريف عن مكة ليكون أمرها اليه . فأجابه الامام ينهاه عن سفك الدماء بالحرم ، فقال : « إياك أن تلقى اللّه بدماء بني فاطمة » . فاعتمد الصليحي أمر إمامه ، وصبر مدة على ما كان يجري بالبلاد المقدسة .

ثم توجه الصليحي إلى مكة في السادس من شهر ذي الحجة سنة ٤٥٤هـ

وقضى فرض الحج ومعه ملوك اليمن وزعماؤها ، وانتزعها من بني أبي الطيب ، ذلك أن شكرا لما توفي ، وخلفه ابن جعفر رئيس الهواشم وزوج ابنة شكر ، أوقع بالسليمانيين الهزيمة ، وأخرجهم من بلاد الحجاز ، واستقل بإمارة مكة ، وأقام الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي . ولكنه لم يعمل على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة ؛ لأنه ما لبث أن انحرف عنهم ، وأمر بذكر اسم الخليفة القائم العباسي . [ص ٨٨ ـ ٩٠] .

وجهة النظر المعاكسة :

هذه هي وجهة نظر المؤرخين المتعاطفين مع الدعوة الفاطمية والدكتور الهمداني منهم ؛ أمّا خصومهم من « الزيدية » و « السنيين » فلهم وجهات نظر أخرى ولنستَمع أوّلاً إلى ما يقوله المؤرخ السيد يحيى بن الحسين بن القاسم في غاية الأماني قال :

ودخلت سنة ـ ٤٣٩ ـ

فيها ثار علي بن محمد الصليحي في مسار من أعمال حراز ، فملك اليمن جميعه من مكة إلى عدن في أقرب زمن ، وسيرته مشهورة ، وأخباره مذكورة . ولم يكن من أهل بيت ملكوا ؛ إنما كان أبوه القاضي محمد بن علي الصليحي حاكماً في جهته ، شافعي المذهب ، مطاعاً في عشيرته ، فنشأ ولده علي ابن محمد على طريقته في بدايته ، ولاحت عليه مخايل النجابة في إبان شبيبته .

وكان الداعي عامر بن عبد الله الزواحي ممن يتصل بالقاضي محمد الصليحي في أكثر الأوقات ، ويركب إليه عند الحاجات ، لرياسته وعلمه وصلاحه وفضله ، فظهر له من شهامة ولده علي بن محمد وسمو نفسه ما أطمعه فيه ، وعرف أنه القائم بأمر دعوته ، فمال إليه بكليته ، وكشف له عن باطن سريرته ، حتى غرس في قلبه محبة مذهب الباطنية الأشرار ، والفرقة التي موردها النار . ولما حضرت الزواحي الوفاة أوصى بجميع كتبه لعلي بن محمد الصليحي ، وفيها من علْم أهل ذلك المذهب الخبيث ، ومستودعات أسرارهم وزخارف أقوالهم ، ما يدل على فساد معتقدهم وافترائهم على معبودهم . فأقبل علي بن محمد على درس تلك الكتب ، وكان فطناً ذكيا ، فأحرز منها المراد ، وسمت نفسه إلى القيام بأمر الدعوة ، فغلب

الأضـداد . ولم يزل يحجج بالناس على طريق السَّراة منذ خمس عشرة سنة ، وتحدث كثير من الناس أنه سيملك اليمن . وكان إذا سمع ذلك من أحد ينكره غاية الانكار ، حتى دخل العام الذي أراد فيه القيام ، فاجتمع برجال يعـرفهم من مكـة ، وتمـالئـوا على اظهـار الدعاء في اليمن إلى القائم من العبيديين أهل مصر ، وهو يومئذ المستنصر .

ثم رجع إلى اليمن فقصد مسَار ، وهو في ذلك الوقت قمة عالية ليس فيه بناء . واجتمع النفر الذين والوه في مكة . ولما أراد أن يبني [حصن] مسار اجتمع إليه من أهل تلك الجهة عالم كبير ، فأنكروا عليه وشتموه وعنفوه ، فقـال لهم : « انما أردت أن أحفظه من عدو يملكه » فتركوه حتى أحكم ما أراد من بنيانه .

ولم يزل أمره يعلو شيئاً فشيئاً حتى قصده كثير من الناس ، وصرفوا إليه شيئا من واجباتهم ، فتقوت شوكته ، ونفذت كلمته . ولما سمع به جعفر بن الامام القسم بن علي العياني ، سار إليه بجيش عظيم ، وعضده رجل من مغـارب اليمن الأعـلى ، يسمى جعفـر ابن عبـاس ، كان مُطاعاً في جهته ، فاجتمع معهما نحو ثلاثين ألف مقاتل . ووقعت الحرب بينهم وبين الصليحي ، فقتل جعفر بن عباس ، وانهزم أصحابه ، وتفرق الناس عن جعفـر ابن الامام ، فعاد إلى بلده . واستفحل أمر الصليحي فنهض إلى حضُور فاستفتحه ، وملك حصن يَناع . فخرج إليه صاحب صنعاء ـ وهو ابن أبي حاشد ـ في جمع كبير فالتقيا في قرية ما بين الحيمة وحضور ، يقال لها صوف فاقتتلوا قتالا شديدا . وكانت الدائرة على صاحب صنعاء ، فقتل ، وقتل من أصحابه ألف نفر . وبهذه الوقعة يضرب المثل في اليمن ، فيقال قتلة صوف . ثم سار الصليحي إلى صنعاء فملكها ، وبث عماله إلى جميع المخاليف . ولم تمض مدة حتى استولى على اليمن جميعه ، كما سيأتي ذكره .

ثم قال :

ودخلت سنة ـ ٤٥٢ ـ

فيها مات نجاح صاحب التهائم في مدينة الكدراء . وكان سبب موته على ما ذكره أصحاب التواريخ أن عليا بن محمد الصليحي كان يخاف من نجاح لرياسته ، فما زال يعمل الحيلة في قتله حتى أهدى له جارية جميلة ، وأمرها

أن تسقيه السم ، ففعلت . وخلف نجاح خمسة أولاد وهم جيّاش وسعيد الأحـول ومعادل والذخيرة ومنصور ، وكلهم يومئذ في سن الصغر ، فقام بكفالتهم مولاهم كهلان . وسيأتي تمام أخبارهم في أثناء الكتاب إن شاء اللّه تعالى .

ثم قال :

ودخلت سنة ـ ٤٥٥ ـ

فيهـا سار الصليحي إلى مكة ، فأنفق فيها نفقة عظيمة ، وحمل إليها الأقوات الواسعة ورفع منها رسوم الجور ، وظهرت منه فيها أفعال جميلة . ثم عاد إلى تهامة ، وفيها أولاد نجاح المقدم ذكرهم ، فتوارى عنه سعيد الأحول في زبيد ، وخرج جياش ببقيتهم إلى جزيرة دهلك ، وجرت لهم هناك أمور يطول ذكرها .

ولم تخرج هذه السنة حتى استولى الصليحي على اليمن سهله ووعره ، وبره وبحره ، إلاّ صَعْدة فإنها امتنعت عليه بعض الامتناع بأولاد الناصر ، حتى قتـل القـائم منهم ، فاستقر ملكه لليمن جميعه . واتخذ صنعاء دار ملكه ، وعمر فيها عدة قصور ، وجمع ملوك اليمن الذين زال ملكهم على يديه ؛ فأسكنهم صنعـاء . واشتـد ملكـه ، وبلغت سراريه إلى أربعـمائة سرية ، وكانت سيرته فيما يرجع إلى أمر الدين غير مرضية .

حكى مسلّم اللحجي في تاريخه ما معناه ، أن الصليحي لما استقر في صنعاء بلغه أن أهلها يجتمعون في المساجد ، ويتذاكرون قبح سيرته ، وربما خاضـوا في شيء من أمـر عقيدته ، وأنه قد يعيد مذهب علي بن الفضل بصفته ، فشق عليه ذلك ، وتألم منه كثيرا ، فأمسك أياما ، ثم أمر بتسمير أبواب المساجد ، ومنع من دخولها .

ثم قال :

ودخلت سنة ـ ٤٥٨ ـ

فيها قام الحمزة بن أبي هاشم لمحاربة الصليْحي في ثمانية آلاف راجل ، وخرج لقتاله من قبل الصليحي عامر بن سليمان الزواحي في ألف وخمسمائة فارس وخمسة عشر ألف راجل ، فوقعت بينهم عدة حروب ، وقتل فيها خلق كبير . وفي آخرها قتل الحمزة عليه السلام في موضع يعرف بالمنوي من بلاد

أرحب ، وهو واد ضيق إلتجأ إليه الحمزة وأصحابه ، فأخذ عليهم أصحاب الصليحي أعلى الوادي وأسفله ، ورموهم بالنبل والحجارة حتى أثخنوهم ، ووقف بين يدي الحمزة سبعون شيخا من همدان ، يجالدون دونه حتى قتلوا عن آخرهم ، رحمهم اللّه تعالى . ولم تطل مدة الصليحي بعد قتل الحمزة عليه السلام ، بل قتل في أواخر هذه السنة . وقام بثأر الحمزة ولده علي ، والمحسّن بن الحسن ، من أولاد الهادي عليه السلام ، فقتلا عامر الزواحي وابنه يحيى في نواحي ثلا .

كشف أسرار الباطنية للحمادي

واذن فالصليحي في نظر المؤرخ الزيدي مؤلف « غاية الأماني » « من الباطنية الأشرار والفرقة التي موردها النار » [ص ٢٤٨ ج ١] وكانت سيرته « فيما يرجع إلى أمر الدين غير مرضية » وذلك هو رأي المؤرخ « المطرفي » مسلّم اللّحجي المتوفي عام ٥٤٥هـ [ص ٢٥٤ ج ١ غاية الأماني] .

وقد تصدّى الكثير من علماء اليمن للحديث عن الباطنيّة ، أو القرامطة في اليمن قديما وحديثاً والّفت في تضليلهم وتكفيرهم عدّة مؤلفات ولكن أهمها كتاب « كشف أسرار الباطنيّة وأخبار القرامطة » لمحمد بن مالك ابن أبي الفضائل الحمادي المعاصر للملك علي بن محمد الصليحي ، وأهميّته لأنه أولاً عاصر الدولة الصليحيّة ، وثانياً كان ممن دخل في الدعوة الفاطمية الباطنية وتحقّق أصل مذهبهم ولما عرف فساده رجع عنه كما يقول في مقدمة كتابه الذي طبع في القاهرة مرتين ، وثالثاً لأنّه لم يحدثنا عن علي بن الفضل الذي جاهر بالاباحية ، بل عن علي محمد الصليحي وأتباعه الذين يدافع عنهم وعن عقيدتهم الكثير من القدامى والمحدثين وقد اعتمد على كتاب الحمادي معظم من تصدّوا للكلام عن الدعوة الفاطمية في اليمن .

وقد وصف الحمادي في كتابه كيف انه كان يتشكّك فيما يسمعه من اشاعات عن علي محمد الصليحي ، وما يقال عنه وعن طائفته من أنّهم يمارسون أعمالاً بشعة ويقترفون ما يخرجهم من صفوف أهل القبلة وكان كلما سأل من يتّهمهم بذلك هل شاهد بنفسه ما يرويه ؟ يجيبه ما شهدت ولا رأيت ؛ ولكني أقول ما يقوله الناس ، وفي نفس الوقت يسمع الملك علي الصليحي نفسه يقول : « حكم الله لنا على من يظلمنا ويرمينا بما ليس

فينـا » ! . ولكي يعـرف الحقيقة ويتحرّاها قرّر أن ينتسب إليهم ، قال : « فرأيت أن أدخل في مذهبه لأتيقن صدق ما أسمع ما ينسب إليه وأطلع على كذبه أو صدقه . فأول ما أشهد به أن له نواميسا يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يسميهم المكلبين تشبيهاً لهم بكلاب الصيد ، لأنهم ينصبون للناس الحبائل ويكيدونهم بالغوائل ، وينقبضون عن كل عاقل ويلبسون على كل جاهـل بكـل كلمة حق يراد بها باطل ، يحضون على شرائع الاسلام من الصـلاة والصيام والحج والزكاة كالذي ينثر الحب للطير ليقع في شركه . فيقيم أي الجاهل أكثر من سنة يمعنون به ويختبرون صبره ويتصفحون أمره ، يخدعونه بروايات عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم محرفة وأقوال مزخرفة ، ويتلون عليه القرآن على غير وجه ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فإذا رأوا ممن يرضـونـه الاقبـال إليهم والـركـون عليهم والاعجاب في جميع ما يعلمونه والانقياد لما يأمرونه ، قالوا له : إكشف عن السرائر ولا تقنع بما قنع به العوام من الظواهر ، وتدبر القرآن ، واعرف معاني الصلاة وما يروى عن النبي ﷺ بالرموز والاشارة ، دون التصريح والعبارة ، فإن جميع ما عليه الناس أمثال مضروبـة ، لممثولات محجوبة ، فاعرف الصلاة وما فيها وقف على باطنها ومعانيها فان العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه ، فيقول المخدوع : عم أسأل ؟

فيقال له : قال الله تعالى : ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فالزكاة في كل سنة مرة وكذلك الصلاة من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار وأيضـاً فإن الصـلاة والـزكاة لها باطن لأن الصلاة صلاتان والزكاة زكاتان والصوم صومان والحج حجان ، وما خلق الله من ظاهر إلاّ وَلَه باطن يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿**وذروا ظاهر الاثم وباطنه**﴾ ، ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾ والظاهر ما تساوى به الناس وعرفه الخاص والعام والباطن هو ما قصر علم الناس عن العلم به ولا يعرفه إلا القليل فالله تعالى يقول : ﴿**وقليل ما هم**﴾ ، ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ . . . الخ .

« ومعنى الصلاة والزكاة : محمد وعلي ، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة . . . فإذا قبل منهم ذلك المخدوع قالوا له : قرب قربانك يكون لك سلماً ونجـوى ونسـأل مولانـا أن يحط عنك الصلاة ويضع عنك هذه

الآصار فيدفع إثنى عشر ديناراً فيقول الخداع : « يا مولانا إن عبدك فلان قد عرف الصلاة ومعانيها ، فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الاصر وهذه نجواه إثنى عشر ديناراً فيقول : إشهدوا أني قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ عليه : « ونضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة ويهنئونه ويقولون له : الحمد لله الذي وضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك . . . . الخ » .

« ثم يقول له الداعي : الآن قد عرفت الصلاة وأنا أرجو أن يبلغك الله أعلا الدرجات فاسأل وابحث ، فيقول المخدوع : عم أسأل ؟ فيقال له : سل عن الخمر والميسر فاعرف معناهما ، فان الدين لا ينال إلا بالعلم فإن الخمر والميسر الذين نهى الله عن قربهما هما أبو بكر وعمر لمخالفتهما علياً وأخذهما الخلافة دونه ، وأما ما يعمل من العنب والزبيب والحنطة وغير ذلك فليس بحرام لأنه مما تنبت الأرض ، ويتلو عليه قوله تعالى : ﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا خالصة يوم القيامة**﴾ وقوله تعالى ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا**﴾ الآية » .

وهكذا وبعد أن يدفع النجوى وهي إثنى عشر دينارا يفسرون له الصوم بأنه (الكتمان) ويتلون عليه قوله تعالى : ﴿**ومن شهد منكم الشهر فَلْيَصمْهُ**﴾ ؛ ويؤولونه بكتمان أمر الأئمة في وقت استتارهم خوفاً من الظالمين ويستشهدون في ذلك بقوله تعالى : ﴿**إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا**﴾ .

« ثم يفسر له الطهارة قائلا : إن المؤمن طاهر بذاته والكافر نجس بذاته ، لأنه لا يطهره الماء ولا غيره ، وأن الجنابة معناها أضداد الأنبياء والأولياء وأهل الطاعة ، وكيف يكون المني نجساً ، وهو مبدأ الانسان وعليه أساس البنيان ، ولو كان التطهر منه من أمر الدين لكان الغسل من البول والغائط أولى لأنهما نجسان ، وإنما معنى : وان كنتم جنبا فاطهروا أي إن كنتم جهلة بالعلم الباطن فاعرفوا العلم الذي هو حياة الأبدان قال تعالى : ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون**﴾ ، وقال تعالى : ﴿**فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق**﴾ ، فلما سماه الله بهذا الاسم دل على

طهارته . . . . وبعد أن يتمكن الداعي من خدع المستجيب بهذه الأباطيل يأمره بدفع النجوى ، ثم يقول لسيده : يا مولانا هذا عبدك فلان بن فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة وهذا قربانه ، فيقول : أشهدكم أني قد أحللت له ترك الغسل من الجنابة » .

ومضى الحمادي في وصف اغراء من سمّاهم « المكلّبين » للمخدوع ؛ فما إن يترقّى ويتدرج به في مَخْرَقَاته الى الدرجة الخامسة ، إلّا وقد أحل له الزنا ، وأباح له جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن ! وختم شهادته قائلا : « هذا ما اطّلعت عليه من فعالهم وكفرهم وجهلهم ، والله يشهد على ما ذكرته ومن تكلّم عليهم بباطل لعنه الله لعنة اللّاعنين والملائكة والناس أجمعين ، وأخزى الله من كذب عليهم وحكى عنهم غير ما هُمْ عليه فهو يخرج من حول الله وقوّته الى حول الشيطان وقوّته » .

وخلاصة ما قاله الحمادي في كتابه كشف أسرار الباطنية ما ذكره في ص ـ ١٢ ـ عن مذهبهم « انه مذهب الراحة والاستباحة يريح أتباعه مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله » ويقول في ص ـ ٤٤ ـ « كان الصليحي الملعون شهماً شجاعاً مقداماً فحرّم الحلال ، وأحلّ الحرام وناقض بجهده الاسلام ، وأبطل الصلاة والصيام والحجّ إلى بيت الله الحرام » .

دفاع الدكتور الهمداني

وقد دافع الدكتور حسين الهمداني عن الصليحي واستبعد ان يكون ما قاله الحمادي صحيحاً وقال : « وكيف يكون ذلك وقد عرفنا ما قام به من أعمال جليلة في مكة عندما حج سنة ٤٥٤هـ ؟ » ثم قال : « إننا نستبعد أن يكون كلام المغرضين صحيحاً لأن تاريخ الصليحيين لا يدلّنا على شيء مما ذكروا ، فالصليحيون كانوا يتخذون الدين الاسلامي الحنيف ، وولاءهم لأئمتهم الفاطميين بمصر وسيلة لنشر نفوذهم وتوطيد حكمهم في البلاد التي أخضعوها لسلطانهم » [ص ١٠٩ صليحيون] ثم قال : « وكان الصليحي يتسامح كما كان الفاطميون بمصر يتسامحون مع علماء السنة » ، وذكر أن « أسعد بن شهاب لما دخل زبيد سنة ٤٥٦هـ والياً عليها من قبل

الصليحي أحسن السيرة في الرعية ، واذن لأهل السنة باظهار مذهبهم » وختم دفاعه المجيد بما قاله المؤيّد في الدين الشيرازي داعي دعاة المستنصر في قصيدة له :

فكـيـفَ شرع الانبيـاء ندفـع ... ومـا لنـا إلا الـنـبيّ مرجـع !
بنـوره في الـدرجـات نرتـقـي ... وبـالـكـرام الكـاتبـين نلتقي ؛
يا رب فالـعنْ جاحـدي الشرائـع ... وأرمـهـم بأفـجـع الـفـظَائـع ،
وألـعنْ إلاهي من يرى الإِبـاحـه ... بلعـنـة فاضـحـة مجتـاحـه ،

***

وأعتبر ذلك من الأدلة الواضحة على تمسك « أهل الدعوة » بالتكاليف الشرعية حسب تعبيره ونقل ما قاله أدريس بن الحسن القرشي عماد الدين المتوفي ٤٧٢هـ في كتابه عيون الأخبار عن الصليحي : « فلم ينكر على أحد مذهبا من مذاهب فرق الاسلام على تشعّبها بل أقرّ كل امرىء على ما كان عليه » [ص ١١٠ ـ ١١١] .

ودفـاع الدكتور حسين الهمداني ـ ونحن نعلم انّه فاطميّ الهوى كأبيه فيض الله يكـون معقـولاً ومقبـولاً لو قصرنـاه على ما كالـه الحمّادي وغيره للاسـماعيلية والقـرامـطة من شتـائم وانهم أبـاحيّون « يحلّون البنـات مع الأمهات » إلى آخر ما ورد في الأبيات « الفضليّة » إذ أن الاغراق والمبالغة ظاهرة ، والافتئات محتمل من كل فرقة مذهبيّة أو سياسية ضد فرقة أخرى ، تعـارضهـا وتعـاديهـا ، أو من فئة تتغلّب على فئةٍ ضدها ، شاهدنا ذلك وسمعنـاه وقـرأنـاه عبر العصور ، ولا تزال عجلته تدور ، وبعض ما قيل لا يصـدّق عقـلاً ، وقـد كان علي محمـد الصليحي قبل أن يثور من روّاد الحاج ، وقتل وهو في طريقه إلى مكة . وكان مستقيماً وشهما كريما شجاعا .

ولكن الـدكتـور الهمداني لا يستطيع أن يدافع عن « الباطنيّة » أو من يسمّيهم « أهل الدعوة » أمام انتقادات علماء وأئمة « الزيدية » وبعضهم لم يعتمد ولم يرتكزْ في تضليله لهم على النّواحي الشخصيّة والسلوكيّة لأنهم هم أنفسهم ينكرونها ؛ سواء كانوا صادقين أو « مُتّقين » ، وهم يكفّرونهم ، أو يضلّلونهم حتى ولو كانوا يصلّون ويصومون ويحجّون ولا يقارفون الفواحش

التي شنع بها عليهم الحمادي وغيره ، ويقولون ان معتقداتهم فاسدة مفسدة ضالّة مضلّة ، ليست من الاسلام في شيء لأنها تبطل العقل وتخالف النصوص وذلك كغلوّهم في تقديس أئمتهم ، وقولهم بأنهم معصومون عن الخطأ ، وايمانهم بالتقيّة ، وبالامام المستور وبأن « مهدِيّهم » لم يمت بل هو حيّ يرزق ينتظر في السرداب عنده عسل وماء ، وسبّهم للصحابة ، وتكفيرهم لهم ، وتأويلاتهم المنكرة لآيات الكتاب العزيز مما دفع الامام صالح بن مهدي المقبلي الى أن يقول في كتابه العلم الشامخ بأن مصيبة الاسلام بالباطنية والروافض أشدّ وأعظم من مصيبته بالخوارج . وأنهم أكفر من اليهود والنصارى فهل سيجحد الدكتور الهمداني أنهم يدّعون عصمة أئمتهم ويضفون عليهم صفات الألوهية وأنهم يسبون ويكفّرون أكابر الصحابة ؟

وقبل العلامة المقبلي كان الامام يحيى بن حمزة المتوفي عام ٧٤٩هـ قد جادل « الاسماعيلية » أو « الباطنية » باليراع والبيان ، مثلما صاولهم بالسيف والسنان ، وألّف كتابه « مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار » و « الأفحام لأفئدة الباطنية الطغام » ؛ وقد ركّز انتقاده لهم في « الافحام » على معتقداتهم في الألآهيّات ، والنبوّة والامامة ، وتأويلهم الباطن لآيات القرآن والأحاديث وابطالهم النظر ، وتمسكهم بالتعليم مصدراً للمعرفة اليقينيّة والأخرويات ، وشبّه معتقداتهم الألاهية بعقيدة المجوس بل ان حالهم أسوأ منهم ! ، وقال انهم قالوا ان معرفة الله وصدق النبوة لا تثبت ولا تقوم بالنظر ، وان حكمته تقتضي بعثه للأنبياء ، وأن صدق النبي يعرف بالمعجزة ، بل أقاموا معرفة الله وصدق النبوة بتعليم من امامهم المعصوم ؛ وقالوا : « لا بد في كل عصر من إمام معصوم يرجع إليه في تأويل الظاهر ، وحل الاشكالات ، وكشف كل لبس في المعقولات ، وهو يساوي النبي في العصمة والعلم بحقائق الأمور ! وأبطل كل ذلك ، وقال ان تأويلاتهم لباطن كل ظاهر ليس لها أصل تدل عليه من اللغة أو العقل أو الاصطلاح ولم يقصدها صاحب الشريعة ولا خطرت له على بال . وسرد الأوهام التي جعلتهم يبطلون النظر ويتشبثون بتعليم الامام المعصوم العالم وحده بحقائق الأمور ، وفنّد تأويلاتهم لأحوال المعاد ، وان النظام الدنيوي لا ينصرم أبد الدهر ، وان معنى القيامة هو خروج الامام وقيام قائم الزمان وقال ان

كلامهم منقول عن الفلاسفة والثنوية وقد نشر كتاب الافحام الدكتوران علي سامي النشار وفيصل عون ومنه نسخة خطية في مكتبة الجامع بصنعاء وكذلك كتاب مشكاة الأنوار الذي بلغ انه طبع أخيراً ولمّا أطلع عليه .

فماذا سيكون دفاع الدكتور الهمداني ؟ وهل سيدّعي أن ما حكاه الامام يحيى بن حمزة ليست أقوال « الاسماعيلية » ؟ كما أنكر انهم أبطلوا الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وأباحوا الخمر والزنا ، وتلك الفواحش التي ذكرها الحمّادي ؟

ولقد سبق أن ناقشت اعتراض العلامة الشماحي على حصر الامام الهادي للخلافة في نسل الحسنين ، وقلت ان الهادي لم يبتدع ذلك بل اعتمد على ما حصل يوم السقيفة واحتجاج الصدّيقَيْن بأن الخلافة أو الامارة في « قريش » ، فكيف بالاسماعيلية وقد حصروها في أولاد الحسين فقط .

ولقد عقّب « المقبلي » في الأبحاث المسدّدة على بعض أباطيلهم فقال : « لا جزاهم الله خيراً من شيعة أشقياء قديماً وحديثا يدّعون حب أهل البيت وهم أضر الناس عليهم ، انظر كيف غلبهم الرفض ويوجّهون بحب أهل البيت ، وانما يريدون بأهل البيت جماعة كذبوا عليهم وصْلَةً الى جهالاتهم وهم الاثناعشر ، وهم أعداء سائر أهل البيت ، ولذا يكفّرون من لم يكن على مذهبهم ، وأهل البيت منزهون عن أباطيلهم حتى الأثناعشر » [الأبحاث المسدّدة ص ٤٩٤] .

تعقيب :

تلك هي وجهات نظر بعض علماء اليمن في الدعوة الاسماعيليّة أو « الفاطمية » التي لم يمثلها في اليمن بحكمة ورصانة وقوّة وغموض أيضاً ؛ مثلما مثلها « الصليحيون » ، ولا سيما الملك علي محمد الصليحي ، والملكة السيدة أروى بنت أحمد . . . ولقد تعايشت في زمانها جميع المذاهب الاسلامية مثلما كانت تتعايش في ظل الحكام الأقوياء الشجعان ، من الائمة والملوك والسلاطين كما قرأنا في عهد الامام الناصر أحمد بن الهادي وأيّام السلطان أحمد بن محمد الضحّاك قبل أن يظهر على المسرح السياسي والأدبي أولادهما ! .

وقد حصرت حديثي عن الاسماعيليين وما قيل عن عقائدهم وسياستهم وآدابهم في اليمن فقط ولا شأن لنا بما قرأناه وسمعناه من أخبار وعقائد الاسماعيلية أو القرامطة في البحرين والعراق وايران والشام ومصر والمغرب فقد أفاض الحديث عنهم المؤرّخون والكتّاب حديثا وقديماً . وقالوا عنهم ما قالوه بالحق وبالباطل !

ومن يقرأ تاريخ اليمن الأدبي والسياسي في عهد « الصليحيين » يرى انهم اعتنوا بعمارة المساجد ، وانهم كانوا يقرّبون اليهم الكتاب والعلماء والشعراء ممن ليسوا اسماعيليين أو فاطميّين سواء من فرقة « الزيود » أو من « الشوافع » ، ولم نقرأ انهم قد حاربوا بالعنف مذهباً معيّنا كمذهب فقهيٌ وعقائدي ، وانما كانوا يتشدّدون مع من ينازعهم السلطة والحكم سواء باسم الامامة الزيديّة أو باسم الخلافة « السنيّة » . شأن كل حاكمٍ طموح في كل زمان ومكان .

وقد قتل على يد الملك علي الصليحي في معركة « نجد الجاح » عام ٤٤٤هـ الامام أبو الفتح الديلمي ، والامام المحتسب حمزة بن ابي هاشم في معركة وادي المنوي من بلاد أرحب سنة ٤٥٩هـ على يد ابنه « المكرّم » ولكن الصراع لم يقم بينهم على أساس عقائدي بل دفاعاً عن السلطان والدولة كما كان مع بني نجاح والكرندي وسائر سلاطين اليمن .

وقد روى لنا المؤرخ يحيى بن الحسين في غاية الأماني موقف الصليحي من الشريف الفاضل الامير القاسم بن جعفر بن الامام القاسم العياني وأصحابه وأهله بعد أن انتصر عليه فقال : « ودخلت سنة ٤٤٨هـ وفيها خرج رؤساء همدان وهم سلامة بن الضحّاك وعلي بن ذعفان وغيرهما من رؤساء همدان ثم جمعوا العساكر من حاشد وبكيل واستنهضوا القاسم ابن جعفر بن الامام القاسم العياني لحرب الصليحي فلم يجد بداً من النهوض وعضده أخوه ذو الشرفين محمد بن جعفر ، وسارا بمن اجتمع معهما من القبائل حتى وصلوا قرية « حاز » فخرج اليهم قوم الصليحي وكانت معركة « قراتل » التي انتصر فيها الصليحي ، وانهزمت جنود الشريف وأخيه وتفرّقوا أيدي سباء ولجأ الشريفان من أولاد الامام العياني الى « الهرابة » وهي حصن في « وادعة » ، وأوى اليه كثير من شيعته ، وأهل جهته بأهلهم

وأولادهم ، حتى اجتمع منهم نحو ألف مقاتل فيهم ثمانمائة فارس ونهض اليهم « الصليحي » بجيوش لا تحصر ونصب عليهم المنجنيقات والعرّادات فصبروا على الحصار صبراً لم يعهد مثله في سالف الأعصار ومُنعوا عن الماء سبعين يوماً حتى اشتد عليهم الأمر ومات أكثرهم من العطش واضطر الشريف الفاضل ومن معه الى النزول على حكم الصليحي ، ولما وصل اليه أكرمه وخلع عليه ودخل « الهرابة » فأخربها ، وعجب من صبر أهلها وقال : « لو ملكت رجال الهرابة لأخذت بهم الروم » ثم رجعا صنعاء والشريف صحبته » . [ص ٢٥٢ ج - ١ - غاية] واستصحب حفيد الامام معه عندما نهض لقتال آل الكرندي ولما وصل زبيد عزم على التوجه إلى مكة للحجّ واستأذن من « الصليحي » فأذن له وسار معه أخوه ذو الشرفين محمد ابن جعفر في نفر من أهله الخ وهو موقف كريم لم يكدّره حقد لئيم ، أو صنع ظافر نزق ، كما ان موقف الصليحي والسيدة أروى من « المطرفية » وهم فرقة زيدية كان أرحم بكثير من الموقف القاسي الذي وقفه منهم الامام « الزيدي » عبد الله بن حمزة ؛ مع انهم أصلاً فرقة زيدية هدوية خالفوا « إبن حمزة » في وجهة نظره المتحجّرة عن « الامامة » وفي بعض النظريات العقلية ، والفقهية فحكم بكفرهم وأباد خضراءهم ، وعاملهم معاملة يهود بني قريضة قتلا وسبيا وسوف نعود إلى ذلك عند الحديث عن « المطرفية » والامام المنصور عبد الله بن حمزة والحوار الذي دار بين الصليحي و « مطرف بن شهاب » شيخ فرقة « المطرفية » ان شاء الله .

وكما أشرت سابقاً اني أعرف قدر نفسي ، وأقلّ من أن أجعل منها منظّرا أو معلّما ، بلْه أن أبدي رأياً يفسق أو يكفر أحداً يقول لا إله إلاّ الله ويشهد بأن محمد رسول الله ، وخاصة من أولئك الذين تفصل بيننا وبينهم عشرات القرون والأجيال ، وتضاربت فيهم وفي أخبارهم الروايات والأقوال ، ثم اني لم أقرأ كتب « الباطنية » أو « الدعاة الصليحيين » في مصادرها الأصيلة ، بل منقولة في كتب مخالفيهم ومنتقديهم ، ولست في موقف الناقد الديني المنظّر ، بل في موقف الراصد الأدبي المصوّر ، لما كان أو قيل انه كان مع سرد وجهات النظر المختلفة والمتباينة دونما تنزيه أو تجريح ، وقد تطغى مشاعري أحيانا فأعرب عما أحسبه حقا ، وأعبّر عما يدور بخلدي وأراه صوابا . وأستغفر الله .

الخطأ في الوقف أهون من الخطأ في التكفير

وللسيد العلامة محمد بن ابراهيم الوزير [ت ٨٤٠هـ] كلام لطيف في كتابه القيم ايثار الحق على الخلق [ص ٤٢٩ - ٤٩٦] لخّصه الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه عن « الزيدية » فقال : « لا يُكفّر أحدٌ من أهل القبلة إلا بانكار متواتر ، يقول الرسول : (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بأحدهما) ؛ هذا علي وقد كفّره الخوارج لم يكفّرهم ، ولما سئل عن كفرهم قال : من الكفر فرّوا ، ولما سئل عن ايمانهم قال : لو كانوا مؤمنين ما حاربناهم ؛ قيل فما هم ؟ قال : اخواننا بالأمس بغوا علينا فحاربناهم حتى يفيئوا الى أمر الله ؛ ولو كفرنا كل من تأوّل فأخطأ لكفرنا الجمع الغفير من المسلمين ، على أنّه لا تأويل في العبادات ، فان من ترك الصلاة متأوّلاً كفرناه بالاجماع ، والكفر درجات ، فقد كفر النبي النساء فسأله الصحابة : يا رسول الله يكفرن بالله تعالى ؟ قال : لا : يكفرن العشير ، وفي الحديث سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر ، ولا ترجعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، وهناك أحاديث : ترك الصلاة كفر - النياحة كفر - الانتساب الى غير الأب كفر - ثم قال : « وعلى تقدير الخطأ فليس كل خطأ كفرا حتى لو كان خطأ غير معفو عنه كخطأ الخوارج ، والوقف أحوط للدين والآخرة . إذ الخطأ في الوقف أهون من الخطأ في التكفير» [ص ٨٩٥ - الزيدية] . هذا مع العلم بأن المتعصبين والمتطرفين يوجدون في معظم الفرق الاسلامية وقد يغرق بعضهم في التعصب لفكرةٍ ما ولا يعني اذا خطّأناهم وانتقدنا مغالاتهم أننا نخرجهم عن حضيرة الاسلام وأمة الموحّدين .

نهاية الملك الصليحي
[عام ٤٥٩هـ]

لقد كانت نهاية الملك علي محمد الصليحي أليمة دامية وقد رويت بشتى الأساليب نثرا وشعرا ، وفي بعض الروايات ما يوحي بالتشفّي والشماتة ، وفي بعضها الاجلال والألم حسب أهواء الرواة وأمزجة المؤرخين ، ولكنها جميعاً تروي كارثة نزلت بآل الصليحي وهم في قمة مجدهم وابّهة سلطانهم ، انزلها بهم القدر على أيدي قوم ضعاف ؛ لا عدّة لهم ولا عتاد غير الحقد

وشهوة الانتقام وقوة الارادة والتصميم .

ولسنا نؤرخ لآل الصليحي فنهتم بسرد الأحداث التاريخية ، ولكنا نؤرخ لأدب فترتهم ، ولما كانت حادثة قتل الملك الصليحي قد أوحت ما يستحق النقل والرواية والتسجيل ، وصورها الواقعية والشعرية جديرة بالاعتبار فسأحاول أن أوجز قصّتها مع أشعارها .

وأوّل ما نقرأه ما قاله مسلّم اللّحجي في تاريخه ونقله عنه يحيى بن الحسين في غاية الأماني والطبقات « ان الصليحي لم يكن يقصد الحج بل كان يريد النهوض إلى مصر لزيارة الخليفة العبيدي ولم تكن مكة الّا مجازا قال : « وجعل أمواله وذخائره المعدّة لسفره في المسجد الجامع واتخذه خزانة لذلك وملأه بالصناديق وسائر الأحمال فعاجله الله بالنقمة وقتل في سفره ، ثم سار في أبهة عظيمة وملك كبير ، ومعه جميع آل الصليحي وغيرهم من ملوك اليمن .

ثم نقرأ في تاريخ عمارة انه توجّه في الفي فارس منهم مائة وستون من آل الصليحي والملوك والسلاطين الذين ازال سلطناتهم وإماراتهم مثل ابن معن وابن الكرندي وابن التبعي ووائل بن عيسى الوحاظي ونظراءهم وقد أخذهم معه خوفاً منهم أن يثوروا بعده ويضايقوا خليفته ابنه المكرّم وكانوا كما يقول الهمداني خمسين ملكا وسلطانا وبين يديه خمسمائة فرس مطهّمة بالسروج المحلاّة بالذهب والفضة ، وخمسون هجيناً وغير ذلك من الزينة والآلات مما لا يدخل تحت الحصر .

وكان قبل قيامه من صنعاء قد عهد لابنه أحمد المكرّم ، وأقيمت الحفلات للوداع والتكريم وفي ذلك قال القاضى الحسن بن أبي عقامه من قصيدة طويلة :

هَنَا الدينَ والعلياءَ تقليدك الأمرا ... فقد طوّق التقليد هذا وذا فخرا
لعمري لقد طال انتظارهما لذا . . ... وعدّا له الأيّام والحول والشهرا ؛
إلى ان أتى تحقيق ما كان ظنه ... وللكون فعلٍ ليس تفعله البُشرى
فلو ملكا قولاً إذن نثيابه ، ... ولو ملكا فعلاً ؛ إذن سجدا شكرا

***

ولما غادر صنعاء قال شاعره عمرو بن يحيى الهيثمي من قصيدة في المكرّم :

ما لمن فارق الاحبة عذرُ ان نهى دمعه عن الفيض صبرُ
ان سيف الامام كالبحر ذي الموج له في البلاد مدّ وجزرُ
ولئن ساءنا فراق «علي» فبترك ابنه لنا ما يسر
ذاك بحرٌ سقى به مكة اللّه وهذا لِوفد صنعاء بحرُ !

***

ولم يكن يدري الشاعران أن نار الحقد ، وحب الانتقام تلتهم قلوب بني « نجاح » بزعامة سعيد الأحول ، وأنهم يتربّصون مع عبيدهم وأبناء جلدتهم الاحباش لينتقموا من قاتل أبيهم ، ومُقوّض سلطانهم ، وأنهم والملك علي في طريقه مع الفرسان المطهمة ، والأثقال والهدايا ، والثلاثة الآلاف من الجمال الموقرة بالعين والوَرِق ، والملوك والسلاطين الذين استصحبهم معه ليهديهم إلى الخليفة العبيدي في مصر ! سوف يثبون على عامل الصّليحي على زبيد ويقتلون كل من معه من أهل حراز وينهبون ما معهم من أموال ثم يفاجئون بحرابهم المسمومة الرّكْبَ الكبير في « أم الدهيم » !

ولمَّا وصل الملك وركْبه إلى « المهْجَم » ، وضرب مخيّمه في ظاهرها بضَيْعَةٍ يقال لها أم معبد ، وخيّمت عساكره والملوك الذين يرافقونه من حولهِ وكان سعيد الأحول ابن نجاح قد توارى في زبيد وأخوه « جيّاش » قد نزح إلى جزيرة « دهلك » ، فكتب سعيد إلى نجاح عندما بلغه مغادرة الملك الصليحي ؛ أن يواجهه بمن أمكن معه من مواليهم ، وأبناء جلدتهم للتعرض للركب في الطريق ، فوصل جياش في أربعمائة نفر وأقبل سعيد الأحول أخوه في سبعين رجلاً ليس لهم مركوب ولا سلاح الاّ مسامير من حديد قد جعلوها في رؤوس جرائد النخيل وسلكوا طريق الساحل ، وبلغ الصليحي أمرهم فوجّه إليهم طائفة من جنده أكثرهم من عبيده الأحباش فاختلفوا في الطريق ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

ولما وصل جياش وسعيد بمن معهما الى المهجم وقد أخذ منهم التعب والعطش كلّ مأخذ دخلوا في غمار الناس منتصف النهار من اليوم الثاني عشر

من ذي القعدة فلم يظن من رآهم من أصحاب الصليحي الآّ أنهم من بعض عبيد العسكر وقد قصدوا مخيّم الصليحي فعرفهم أخوه عبد الله بن محمد الصليحي فقال لأخيه : « يا مولانا ؛ هذا والله الأحول سعيد بن نجاح » فقال له : « اني لا أموت الأ بأم الدّهيم وبئر ام معبد » معتقداً انها بئر أم معبد الخزاعية في طريق المدينة فقال له رجل من أصحابه : « قاتل عن نفسك ، فهذه والله بئر ام معبد » فلحقه زمع اليأس من الحياة وخوف المفاجأة وبال في أثوابه ، ولم يبرح من مكانه حتى قُطِعَ رأسه بسيفه ، وكان أخوه عبد الله قد أراد الركوب ولكنهم طرحوه أرضا وقتلوه ، وقتلوا من حضر من الصليحيين ، وركب سعيد الأحول فرس الملك ، وركب أخوه جياش فرس أخيه عبد الله ، ورفعوا رأسيهما على الرماح ونادى المنادى « ان الصليحي قد قتل » فافتشل القوم ، وارتاعوا وذهبوا في كل وجه ، وتخطفتهم القبائل في الطرق والمنازل ، واستولى آل نجاح على خزائن الصليحي وذخائره وخيله ورجله ، بعد أن ذهب منها في أيدي الناس ما ذهب واستغنى الفقير ، حتى لقد حكي أن رجلاً مرّ بصندوقٍ مملوء من دنانير « أسعدّية » فرغب عنها وقال أريدها « حاشدية » !! وكانت زوجة الملك الحرة أسماء بنت شهاب معه فأسرها الأحول ، وجعل رأسي زوجها وأخيه المعلّقين على رمحين أمام هودجها ، وسار إلى ذبيد فدخلها دخولا معظماً وعاد إلى بني نجاح ملك تهامة بأسرها [غاية ج ١ - ص ٢٥٦ - ٢٥٨] وهذه هي رواية المؤرّخ « الزيدي » أما المؤرخ « الفاطمي » فيقول : « ان سعيداً وجيّاشاً كانا قد علما من عيونهما ان الصليحي لم يكن معه أحد من أهل الباس والمراس لأن رجاله قد تقدموه ، وجميع أمواله وأثقاله مبثوثة فيما بين هجر والمهجم ، ولم يكن معه الا إبنه الموفّق ،وزوجته السيدة أسماء، وأخواه عبد الله وابراهيم وجماعة من بني الصليحي ، وأن الصليحي لما علم بأن الأحباش في طريقهم لقتاله قد انفذ عبيده لمقاتلتهم ، ولكنّهم حين التقوا في الطريق ببني جلدتهم انضموا إليهم ، وغدروا بسيدهم ، ودلّوا العبيد من الحبشة على موضعه ، وقالوا لهم ان فاتكم غداً السبت لحق بأصحابه وعسكره وامتنع عليكم ، وساروا معهم مجدّين حتى فاجأوه بضيعة « أم الدهيم » وانه واخوانه وبنو عمه قد أبلوا بلاءً شديداً حتى صرّعوا » الخ [الصليحيون ص - ٩٩ - ١٠١] .

وأما عمارة الشاعر اليمني فيقول في تاريخه : « حتى إذا كان في المهجم مخيّماً لم يشعر الناس وهم مرتئون في أحوالهم ، مفترقون في أنديتهم ، ومخيماتهم ، حتى قيل لهم « قتل الصليحي » ! فانذعر الناس وأسقط في أيديهم ، وانكشف الخبر عن قطع رأس علي وعبد الله ابني محمد الصليحي ، وأحيط بالناس فلم ينج منهم أحد ، وانتقل الى سعيد الأحول بن نجاح ملك الصليحيين وذخائرهم وأموال تلك السلاطين بأسرها ، وقتل الملكُ سعيد جميع بني الصليحي رماهم بالحراب ، وأبقى على « الوحاظي » وعلى « ابن معن » و « ابن الكرندي » وقتل من بقى ، وسبا أسماء بنت شهاب أم الملك المكرم وقفل من « المهجم » عائدا إلى « زبيد » والرأسان معلّقان أمام هودجها إلى أن ركزهما قبالة . الطاقة التي اسكنها بزبيد فيها [ص ١٢٦ ـ ١٢٧] .

سخريّة الشاعر العثماني :

ومهما اختلف السرد ، فالنتيجة واحدة ، وفيها عظة وعبرة ، ولكن المضحك المبكي ان الشاعر أحمد بن محمد العثماني الذي طالما وقف أمام الصليحي مادحاً ممجّدا . قد وقف أمام سعيد الأحول ورأس الصليحي ، ورؤوس أخيه وذويه معلقة على الرماح أمام هودج السيدة الملكة أسماء وهو ينشد :

ياسيف دولة دين آل محمدٍ   لا سيف دولة خيبرٍ ويهودها ،
لاقيت يوم السبت تقدم فتيةً   تلقى الرّدى بنحورها وخدودها
ورأيت أعداء الشريعة شرّعاً   صرعى وفوق الرمح رأس عميدها
أوردتها لهب الردى ، وصدرت في   ظلّي مظلّتها ، وخفق بنودها
يا غرّة لعلي بن محمدٍ   ما كان أشأم من صدى غرّيدها
بكرت مظلّته عليه فلم ترح   الاّ على الملك الاجلّ سعيدها ؛
ما كان اقبح وجهه في ظلها   ما كان أحس رأسه في عودها !
سود الأراقم قاتلت أسد الشرى   يا رحمتا لأسودها من سُودِها !
واراد ملك الأرض قاطبةً فلم   يظفر بغير الباع من ملحودها !
اضحى على خلاّقها متعظّماً   جهلاً فألصق خدّه بصعيدها
تعساً لأيام الروافض ؛ إنها   رفضت مروّتها لنقضُ عهودها :
ما كان اكذب شعرنا في مدحها   ما كان أنزر حظّنا من جودها .

وانها لجرأة شعرية تصدّق قول أبي العلاء :

وما ندب الأقوام في كل معشر ... إلى المين الاّ معشر أدباء

وقول الأول قبله :

والناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهي ولام المخطىء الهبل

وكان صوت الدهر يصرخ في آذان البشر ويتلو قول الله عزّ وجل : ﴿**قل اللّهم مالك الملك تُؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء ، وتذلّ من تشاء بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير**﴾ .

هل كان شاعراً

أما ان علي محمد الصليحي كان « عالماً وفقهياً وخطيباً » فذلك ما قاله المؤرّخون ويقول الدكتور الهمداني انه كان ممن يتذوقون الشعر ويقولونه ، وبالرغم من أن الشاعر العثماني في قصيدته التي قالها في قتل الصليحي قد قال في دولته :

ما كان اكذب شعرنا في مدحها ... ما كان أنزر حظنا من جودها

فإن الهمداني يقول انه « كان يجزل العطاء للشعراء كما كان يفعل العباسيون والفاطميون » وقد عدّه عمارة في تاريخه ضمن الشعراء ونسب إليه هذين البيتين :

انكحت بيض الهند سمر رماحهم ... فرؤوسهم عوض النثار نثار
وكذا العُلا لا يستباح نكاحها ... الاّ بحيث تطلّق الاعمارُ

وقال حين عزم على السفر إلى العراق

والذ من قرع المثاني عنده ... في الحرب ألجمْ ياغلام وأسرجِ
خيل بأقصى حضرموت مجالها ... وصهيلها بين العراق ومنبج

ويقال ان البيتين ليست له بل قيلت على لسانه وذلك معروف في تاريخ الملوك والأمراء فان الشعراء يقولون عى ألسنتهم أشعاراً ويكتب الأدباء رسائل ثم تنسب إليهم .

ومن رسالة لعلي بن محمد الصليحي بعثها إلى الشريف الفاضل قاسم

بن جعفر العياني يتهدّد ويتوعد :

« فان الله لو أراد للنملة صلاحا لما جعل لها جناحا ، وأنا في استدعاء الفرسان وسنّ الرماح ، وصقل الصفاح ، ثم أنا ناهِضٌ إليك ، ومطل بمشيئة الله عليك فكأني والأمر في خلاف ما نزلت وذيّلها بهذه الأبيات :

هذا اليقين وخيل الله مقبلة تخبّ في نقعها جرى السراحين
هناك لا تنفع « الرسي » ندامته وعض ابهامه في الوقت والحين
فياهمدان لا يغرركم طمعٌ ان الغرور حبالات الشياطين

***

ولا يزال الحاقد يغرّر به حقده حتى يوقعه في الهلكة ، ويندم حين لات مندم » .

ولا نستطيع أن نحكم هل ذلك من انشائه أم من انشاء أحد كتابه وشعرائه ولكنّه كان ـ ولا شك ـ فصيحاً بليغاً خطيباً مستبصرا في علم مذهبه .

المكرم الصليحي وانقاذ أمه أسماء من الأسر

وقع المكرم أحمد بن علي الصليحي في حيرة عندما بلغه قتل أبيه ورجال دولته وأسر والدته أسماء ، وكاد يقضى على الدولة الصليحية قضاءً مبرما ؛ إذ قد خرج عليهم وتآمر أكثر قبائل اليمن ، في كحلان وهرّان ، وعنس ، وزبيد ويحصب وعدن وامتدت العدوى إلى صنعاء وحاصره عبيده فيها ، وانتفضت صعدة وشهارة وبلاد الشرفين ، وثبت المكرم في قلة من أصحابه لا يزيد عددهم على ستمائة من « الحجازيين » حتى فك الحصار عن صنعاء ورجع إليه قوّاد أبيه ، الذين كانوا في جيشه ونجوا من القتل ، أمثال عامر بن سليمان الزواحي ، ومدافع الجنبي ، وعمران اليامي ، والحسن السنحاني فقوي بهم جانبه ، واستعاد أنفاسه ، واستطاع التغلّب على بعض القوى ، التي تمردت عليه حول صنعاء وأن ينظّم قوّة استعادت بلاد حمير والمغرب ويحصب ورعين وهرّان ، وكانت وقعة « المنوي » بين الامام المحتسب حمزة بن أبي هاشم وبين قائد المكرم عامر بن سليمان الزواحي التي أسفرت عن قتل المحتسب ابن أبي هاشم واستشهاده .

وبذلك قويت شوكة المكرم وهنأه الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي بقصيدة طويلة مطلعها :

لك اللّه ذا السيفين يكلأ ناصرُ فمجدك بعد الأوحد الملك قاهرُ

وتفاصيل تلك الأحداث في غاية الاماني وتاريخ عمارة ، والصليحيون ، وقد وصف عمارة مسير المكرم إلى زبيد لانقاذ أمه أسماء بنت شهاب من أسر سعيد الأحول بن نجاح فقال :

قالو : لما أعيت الحيلة في إيصال كتاب من أسماء إلى المكرم ، أو منه إليها ، احتالت أسماء وكتبت كتابا ، وجعلته في رغيف ، واحتالت في إيصاله إلى سائل ضعيف ، فأوصله إلى المكرم في شوال سنة ستين وأربعمائة ، وهي تقول فيه : إني صرت حبلى من العبد الأحول فإن أدركتني قبل أن أضع ، وإلا فهو العار الذي لا يزول . فلما وقف المكرم على الكتاب جمع الناس وأوقفهم عليه ، فضجوا بالبكاء وثارت الحفائظ وسار المكرم من صنعاء في ثلاثة آلاف فارس بعدما حالفهم وخطبهم ، وحرضهم ، واستنصرهم . وكان فصيحاً خطيباً شجاعا مشهورا بالثبات والاقدام ، ولم يكن في زمانه من يتعاطى رمحه وسيفه وقوسه لشدة قوته ، وعظيم خلقته . ولم يزل في كل منزل يخطب الناس ويقول لهم : (من كان يرغب في الحياة فلا يكن معنا) . إلى أن صفا له من الحلفاء ألف وستمائة فارس ، وعاد عنه ألف وأربعمائة .

وحدثني الشيخ الفقيه المقرىء سليمان بن ياسين قال : حدثني الشيخ محمد بن علية قال : كنت في مسجد التريبه يوم الجمعة عند طلوع الفجر ، وقد دخل أهل البوادي إلى زبيد ، وتحصنوا بها من خوف العرب ، وكنت قد بلغت في الختمة إلى سورة والسماء ذات البروج ، ولم يكن لي شغل في ليلتي تلك إلا التلاوة إلى حيث بلغت من الختمة ، والمسجد محمول في قفرة من الأرض فإذا أنا بفارس يهولني ، وأنا لا أتحققه لغطاط الأرض وبقايا الغبش ، فركز رمحه ، وأسنده إلى الجناح الغربي الذي أنا فيه . ثم نزل فصعد إلى شخص ، ما رأيت من ولد آدم أتم منه خلقة ، ولا أحسن منظراً ، وروائحه روائح الملوك .

ثم قام إلى جانبي فصلى ، ولم يلبث الصباح أن تجلى ، وإذا رمحه إمبوبة

من اليراع الكولمي ، ولا تلتقي عليه الكفان ، والفرس مثل البعير ، ثم قال لي : اختم حزبك ، فتختمت ، وهو مصغ إلى التلاوة ، وأمرني أن أدعو عند الختم ، ففعلت ، وهو يؤمن على الدعاء ، وإذا الخيل قد أقبلت عند طلوع الشمس إرسالا وحزقا ، من هجول ذلك الخبت ، وكل رعيل منهم يسلم عليه ويقف ، وكانت تحيتهم له : أنعم الله صباحك مولانا ، وأدام عزه . ولا يزيدهم على الرد أكثر من قوله : مرحباً ياوجوه العرب . إلى أن تكاملوا ، وصعد إليه في المسجد أقوام لا أعرف منهم إلا أسعد بن شهاب بحكم ولايته علينا أهل زبيد .

فقلت لأسعد : من هؤلاء ؟ فقال : أما هذا فالمكرم الملك السعيد أحمد بن علي الصليحي ، وأما هذا فالمكرم اليامي ، وأما هذا فعامر الزواحي ، أكرم عربي تمشى به الخيل ، ثم عرضوا على رابع أن يطلع إليهم فلم يفعل ، وهو عم أسعد بن شهاب ، وعم السيدة أسماء بنت شهاب وليس دون الأربعة في شرف ولا حسب .

ثم قام المكرم فخطبهم بحيث يسمع ، وحفظت من كلاه قوله : « أيها المؤمنون إن عزائمكم لو تجسمت حديداً لكان قد أرهفته ولست اليوم أزيدكم غير ما سمعتموه مني بالأمس ، وفيما قبله ، وفيما قلته كفاية ، وقد كنت أعرض عليكم الرجوع وفي المسافة إمكان ، فأما اليوم فقد صار الخيار إلى عدوكم ، لأنكم توغلتم عليه خيسة وإنما هو الموت أو العار بفرار لا يجدى ، ثم أنشد قول أبو الطيب المتنبي :

وأورد نفسي والمهند في يدي موارد لا يصدرن من لا يجادل

وكان الحبشة يومئذ قد صفت في عشرين ألف رجل ، وكانت ميمنة العرب لأسعد بن شهاب (والميسرة) لعمه ، وقال لهما المكرم : لستما كأحد من هذا الجيش لأنكما موتوران ، ومولاتنا أخت أحدكما ، وابنة (أخي) الآخر . وسار المكرم في القلب وانطوى العسكر (فاصطدم الجيش) ، والتقى القوم ، فقاتلت الحبشة التي كانت في القلب ، وانطوى جناحها ، فانكسرت الأحبش ، وقتلوا قتلا ذريعاً ، وهرب سعيد بن نجاح الأحول ، ومن معه الى دهلك وجزائرها ، ولم يزل القتل في الناس إلى صلاة الظهر على باب المدينة .

ثم كان أول فارس وقف تحت الرأسين المصلوبين ، وتحت طاقة أسماء بنت شهاب ، ولدها المكرم أحمد بن علي الصليحي ، فقال لها المكرم وليست تعرفه : أدام الله عزك يامولاتنا . فقالت : مرحبا بأوجه العرب ، فسلم عليها صاحباه مثل سلامه . ثم سألت : من هو ؟ فقال لها : أنا أحمد بن علي بن محمد . قالت : إن أحمد بن علي في العرب كثير ، فاحسر لي وجهك ، حتى أعرفك ، فحسر الحديد عن وجهه فقالت :

مرحبا بمولانا المكرم وفي تلك الحالة أصابه الهواء فارتعش واختجلت بشرة وجهه ، وعاش عدة سنين . وهو ينتفض وتتحرك بشرة وجهه . ثم قالت له : من صاحباك ، فسماهما لها . فوهبت لأحدهما ارتفاع عدن في تلك السنة ، وكان مائة ألف دينار ، ووهبت للآخر حصني كوكبان وحوبان ومخلا فيهما ، وليسا دون إرتفاع عدن .

ثم دخل الجيش إرسالا ، وهي في الطاق لا تستر وجهها ، وتلك عادتها في أيام زوجها . لسمو قدرها عما يحتجب عنه النساء ، ثم تقدم المكرم فأمر بإنزال الرأسين وبنى عليهما مشهدا ، وأنا أدركت مشهد الرأسين . ويقال إن أسماء بنت شهاب قالت للمكرم حين سفر عن وجهه : من كان مجيئة كمجيئك ، فما أبطأ ولا أخطأ . ولم يكن قولها في كتابها : أنا حاملة من العبد صحيح ، وإنما أرادت أن تثير حفيظته .

ونادى منادي المكرم يومئذ برفع السيف بعد الفتح ، وقال للجيش : اعلموا أن عرب هذه الناحية يستولدون الجوار السود فالجلدة السوداء . تعم العبد والحر ، ولكن إذا سمعتم من يسمى العظم عزما ، فهو حبشي فاقتلوه ، ومن سماه عظما فهو عربي ، فاتركوه ، ثم تولى خاله مالك بن شهاب أعمال تهامة على جاري عادته ، وارتحل إلى صنعاء بأسماء بنت شهاب قرير العين بالظفر . وأدركت أهل زبيد ، إذا شتم السوقي صاحبه قيل له : أتشتم الرجل ؟ فيقول الشاتم : الرجل والله (هو) الذي أخذ أمه من زبيد ، وقتل من الحبشة عشرين ألفا دون أمه ، لعمري إن هذا هو الرجل حقا ، ثم ان المكرم أعطى خاله مالك بن شهاب ولاية زبيد وما معها . . لابن شهاب في هذه الكرة ، (و) أحمد بن سالم العامل ووافده إرتفاع تهامة ، ففرقت أسماء على وفود العرب معظمه ، فنتف أحمد بن سالم

لحيته وقال : دخلت النار في هذا المال ، ثم صار إلى ما صار إليه . فقالت أسماء بنت شهاب :

إذا المال لم تصرفه في مستحقّه فما هو الاّ حسرة ووبال

ثم كتبت إلى أخيها مالك ابن شهاب تأمره أن يحتسب لأحمد بن سالم بعشرين ألفاً من ارتفاع السنة الحاضرة صلة له وبرّاً به ، ولم تلبث أسماء بنت شهاب أن ماتت بصنعاء سنة سبع وستين وأربعمائة » [ص : ٥٦ - ٦٠ عمارة سليمان محمود] .

لقد تمكن « المكرم » من اعادة الهيبة للدولة الصليحية الاّ انه بعد اغتيال الصليحي عاد « العيانيون » الى صعدة والأهنوم وقد مرض المكرّم ومال إلى الملذّات والراحة وأشرك زوجته السيدة أروى بنت أحمد في الأمر وفي عام ٤٧٩هـ انتقل الى « جبلة » وجعلها قاعدة المملكة الصليحية ، وحين توفى سنة ٤٨٤هـ أسند الوصية الى السلطان سبأ بن أحمد الصليحي فأدار المملكة بمشاورة السيدة إلى أن مات عام ٤٩٢هـ وبموته انفصلت صنعاء وتغلّب عليها السلطان حاتم الهمداني وانفردت السيدة بالسلطة حتى ماتت سنة ٥٣٣هـ وعادت اليمن الى الحالة التي كانت تعانيها قبل قيام علي بن محمد الصليحي من التمزّق والفوضى . وقامت إمارة بني زريع بعدن (٤٦٧ - ٥٦٩هـ) ، وإمارة السلاطين بني حاتم من سنة ٤٩٢ - ٦٢٥هـ .

وفي سنة ٥٣٣هـ استلم السلطة أكبر امراء عصره القيل السلطان حاتم بن أحمد بن عمران اليامي ، وفي أيامه نهض الامام أحمد بن سليمان المتوفى سنة ٥٦٦هـ ونشبت بينه وبين آل حاتم حروب ومعارك حامية الوطيس ومات السلطان الخطاب الحجوري واختلف أولاده سياسة ومذهبا وكان صراع مرير بالسنان والسيف واليراع والبيان ، حتى تصرّم الجميع ، واستعاد آل نجاح ومواليهم السلطة في زبيد ونواحي تهامة ، وتكونت امارة سلاطين جنب عام ٤٩٢هـ واستولى على ذمار وما يتبعها سلاطينها ، وقامت في تهامة دولة بني مهدي الحميري (من سنة ٥٥٤ - ٥٦٩هـ) وكان مؤسسها علي بن مهدي عالماً أديباً فقيهاً شاعراً ، وعمت الحروب والفتن جميع اصقاع

اليمن حتى جاء السلطان « توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩هـ فالتهم الجميع . وابتدأت الفترة الرابعة والأخيرة من تاريخ الأدب اليمني في العصر العباسي .

ازدهار الثقافة والتأليف رغم الكوارث :

ومع تلك الفوضى السياسية ، والصراعات الطائفية ، والحروب والفتن المذهبية ، ورغم عرامتها الطّاحنة خلال هذه الحقبة التي استمرت مائة وثلاثين عاما فقد ازدهرت بالعلم والأدب والتأليف وعمارة المساجد ، وتعبيد الطرقات وكان الكثير من حكّامها الأئمة والسلاطين والملوك من العلماء المبرزين والخطباء والشعراء والمؤلّفين في شتى العلوم ومنهم بعد أبي الفتح ، والصّلَيحي وابنه :

١ ـ ابن أبي هاشم
[ت ٤٥٩هـ / ١٠٦٧ م]

هو الامام المحتسب الشهيد حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن الرسي وقد ترجمه زبارة فقال : كان أميراً خطيرا شهماً شجاعاً فاتكاً لا يهاب الجحافل ، ولا تروعه النوازل ، ولما عظم أمر علي بن محمد الصليحي بعد قتله للامام أبي الفتح الديلمي ومطاردته لسائر الأمراء من السادة وغيرهم قام محتسباً ومجاهدا سنة ٤٥٢هـ وفي سنة ٤٥٩هـ قصده عامر بن سليمان بن عبد الله الزواحي من أكابر أمراء الصليحيين في ألف وخمسمائة فارس وخمسة عشر ألف راجل إلى بلاد أرحب فلقيه الأمير حمزة في نحو ثمانية آلاف مقاتل ؛ ووقف الأمير حمزة يقاتل بضراوة وهو يقول مرتجزاً :

اطعن طعناً ثائراً غبارُه طعن غلام بعدَتْ أنصاره
وانتزحَت عن قومه ديارُه !

ثم أخذ عليه وعلى أجناده أصحاب الصليحي أعلا وادي « المنوَي » ورموهم بالنبل والحجارة فقتل منهم نحو ثمانمائة رجل ووقف سبعون من همدان يجالدون دون الأمير حمزة حتى قتلوا جميعا وقتل حمزة وذلك في سنة ٤٥٩هـ /١٠٦٧ م ثم قال : « وهذا الأمير حمزة هو جدّ عموم « الحمزات » [ص ٩٣ ـ ٩٥ ج ـ ١ ـ أئمة اليمن] .

٢ ـ أبو الطامي جياش بن نجاح
[ت ٤٩٨هـ / ١١٠٦م]

بعد أن قُتل الملك سعيد بن نجاح [الاحول] سنة ٤٦١هـ فرّ أخوه جياش إلى الهند ، وأشاع انه مات ، ثم عاد إلى اليمن بعد حوالي عام متنكراً في زي فقراء الهند مستخفياً عن الانظار ، وما زال يراسل أبناء جلدته الاحباش ويستميل قلوب الناس حتى جمع بضعة آلاف ثار بهم في زبيد وقضى على سلطة الصليحيين ، وكان داهية عارفاً بالتاريخ ، وقد ذكره عمارة في تاريخه فقال ومن الشعراء « الملك العادل » أبو الطّامي جيّاش بن نجاح صاحب زبيد وهو من المكثرين المجيدين ، ورأيت ديوان شعره مجلدا ضخما ، وله ترسّل جيّد ومتوسط ، وبعيد من الكلفة ، رأيت منه عدّة مجلّدات وهو كتاب ممتع فمن شعره قوله :

وتحسدني قومي ، وأكرمهم ، فهل ... سواي حوى الاكرام منه حسودُه ؟
ولو متّ قالوا : أظلم الجوّ بعده ... وغاض الحيا الهطّال إذ غاض جودُه

وله يذم أصحابه :

ما انتظار الدجّال إذْ أنا القى ... اليوم كم من مداهن دجّالِ ؟!
ليس فيهم من سائل عن صلاحي ... لي ، ولا من مقصرٍ في سؤال !

ومن سائر شعره :

اذا كان حلم المرء عون عدوّه ... عليه فانّ الجهل أبقا وأروحُ
وفي الصفح ضعف ، والعقوبة قوّة ... إذا كنت تعفو عن كفورٍ وتصفحُ !

وله

تذوب من الحيا خجلاً بلحظي ... كما قد ذبتُ من نظري اليكا
أهابك ملأ صدري ؛ إذ فؤادي ... بجملته أسيرٌ في يديكا !

قال عمارة : ومما أجاد فيه قوله :

كثيب نقاً من فوقه خوط بانةٍ ... بأعلاه بدرٌ فوقه ليل ساهرِ

وكتابه « المفيد في تاريخ زبيد » اعتمد عليه عمارة في تاريخه ، ونقل عنه

وهو نادر الوجود ويعلل المؤرخ « بامخرمة » في كتابه « ثغر عدن » سبب ندرته بقوله : « انه كشف فيه انساب عدة من الناس كانوا يعزون إلى العرب فحكى عنهم غير ذلك فبالغوا في اعدامه » وأخباره في تاريخ عمارة ، والسلوك للجندي ، وقرة العيون ، وله رسالة كتبها إلى معلم ولده ، أورد منها قطعة الخزرجي في كتابه العسجد المسبوك نقلاً عن الجندي ومنها : « الأمانة ديانة تحرم فيها الخيانة ، والمرء مرتهن لمعاده فان راعى فمرعي ، وإن أضاع فمجزي ، إعلم اني ائتمنتك على بضعةٍ مني ، فكن أيدك الله عند ظني بك ؛ فخذه بالتّعبيس والإبتسام ، وعلمه وقار القعود ، وعدل القيام ، ولا تُسِمْهُ طول المكث بين يديك ، ولا ترخّص له الابطاء إن استأذنك ، ورضْهُ بالصّلوات في أوقاتها ، ليمرن على أداء مفترضاتها ، وعلى إسباغ الطهارة من إبتدائها إلى انتهائها ، وإذا أراد الكتابة فسوّ قلمه ، وصوّر له وضع الخط كمال التصوير ، وعلّمه الفرق بين الواوات والقافات ، وعلّمه المختلفات ليسلم له قبول الصنعة من الآفات ، ولا تقبل من دواته الاّ الاصلاح ، ومن اقلامه غير العقد الصحاح ، وعلمه كتاب الله فانه الحبل المتين ، ولا ترخّص له في نسيانه فانه الخسران المبين ، وعلمه قراءة أبي عمرو فانها أشهر القراءات في البدو والحضر واختر له مذهب الشافعي محمد بن ادريس رحمه الله فاذا بلغ المأمول جزيتك الحسنى بمشيئة الله والله يبلغنا واياك ، ويسعد عقبانا وعقباك والسلام الجزيل على المؤدّب الجليل ورحمة الله وبركاته [١١٠ - ١١١ - العسجد المسبوك] .

لا حِبشيّة ولا قرشيّة في الاسلام !

وهذه الرسالة تدلّ على أنّ جيّاش بن نجاح الأسود الحبشيّ كان كما يقول عمارة والجندي والخزرجي ذا حكمة وفطنة ورصانة ، وتبينّ لكل ذي عقل وبصيرة كيف ان لغة القرآن وتعاليم شريعته ، تهذب من يتكلم بلسانها ، وتهدي من يعتنق دينها وعندما نسمع « جيّاش بن نجاح » الحبشي يقول لمؤدّب ولده : « ورضْه بالصلوات في أوقاتها ، ليمرن على أداء مفترضاتها » وقوله : « وعلمه كتاب الله فانه الحبل المتين ، ولا ترخّص له في نسيانه فانه الخسران المبين » نشعر اننا نسمع كلاماً للمأمون بن الرشيد العباسي ، أو للمرتضى بن الهادي العلوي ، أو لعمر ابن عبد العزيز الأموي . ونقدّر عظمة الاسلام و« أمميته » وصدق الحديث الشريف الذي حدّد « العربي »

بقوله : « من تكلّم لغتنا ودان بديننا فهو عربي » وتلك هي قومية الاسلام ان كان له « قوميّة » ! وأما الكرامة والفضل فقد حدّدها الله تعالى بقوله : **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** .

ومما يدّل على حكمة جياش وعقله وكماله ، ورصانته ، نصيحته لأخيه سعيد الأحول بعد قتله للملك علي بن محمد الصليحي ، وهي كما رواها عمارة عن كتاب « المفيد » لجياش قال : « قال الملك جياش : وعزّت نفس الملك سعيد من ذلـك المقام ، وشمخ أنفه حتى عليّ وأنا ابن أبيه وأمّه ، وذلك اني أشرت عليه ان يُحسِن إلى السيدة أسماء ، ويعفو عمّن معها من بني « الصليحي » ، وهم مائـة وسبعون سلطاناً كان « الصليحي » خاف منهم أن ينافقوا بعده ، ويعفو عمّن معها من ملوك قحطان ، وهم خمسة وثـلاثـون سلطانـا وان يكتب على يديهـا الى وَلَـدِهـا « المكـرم » بن علي الصليحي : إنّا أدركنا ثارنا ، واسترجعنا ملكنا ، وقد أحسنا إليك بصيانة أمّك ، والعفو عن بني عمك ، وقلت له : والله يا مولانا لئن فعلت ذلك لانازعتك قحطان في ملك تهامة ، ولئن كرهت ذلك لتهيّجن حفائظها ، ولتطلبنّ ذحولها ، فأجابني سعيد الأحول بقول الأول :

لا تقـطعنْ ذنـب الأفعى وتـتركهـا إن كنتَ شهـما فأتبـع رأسهـا الذنبا

ثم أمر بالصليحيين فقتلوا عن آخرهم ، ولقد رأيت شيخا منهم اتّقى الحربة بولده فنفذت منهما ؛ نعوذ بالله من جهد البلاء .

فلو ان « سعيداً » أصغى لنصح جيّاش لما غزاه المكرم ، وكان ما سبق تفصيله ، ولا سيما وهو لم يقطع بقتل الملك علي وأخيه الذّنَبَ بل الرأس والنّاب !

ومما يدلّ على حكمته ورصانة عقله ، وسلامة تفكيره ، وحنكته ودهائه ، إحكام خطة هربه إلى الهند ، ثم اعلان موته ، وتنكره في ثياب وزيّ فقراء الهنود عند عودته إلى اليمن ، ومكوثه يتآمر في زبيد حوالي عام حتى نظّم وسلّح خمسة آلاف من أنصاره ومواليه ، وليس ذلك فحسب . . . بل إنّه بعد أن استولى على السلطة لم ينتقم ويحكّم السيف ، كما فعل أخوه سعيد

بل إنّه لما ضرب الأبواق والطبول ، وثارت معه عامة المدينة ، وخمسة آلاف من الحبشة وأسر « ابن عراف » والي الصليحيين ، قال له « ابن عراف » : ما يومنا منكم يا آل نجاح بواحد ، والأيام سجال بين الناس ، ومثلي لا يسأل العفو ، فقال جياش ومثلك لا يُقْتَل يا أبا حسان ، ثم أحسن إليه وإلى أولاده ، وسيّرهم بجميع ما يملكون ! ولم يمض شهر الاّ وهو يركب في عشرين ألف حربة من عبيدة وبني عمه الذين كانوا مستضعفين في البلاد .

ولكن الهوى اذا تحكم في الانسان ضاعت حكمته ، وتلاشت رصانته ، وفسد رأيه ، وذلك ما ابُتلي به الملك جياش حين طغى به الهوى وقتلَ القاضى « ابن أبي عقامة » قال العلامة ابن الديبع في « قرّة العيون » !

ولم يزل جياش مأمون القول والفعل إلى أن قتل القاضى الحسن بن أبي عقامة التغلبي فأنكر الناس منه ذلك ، وكان سبب قتل القاضى ان جيّاشا خطب امرأة من « الفَرُسَانِيِّين » أهل « موزع » وهم وبنو أبي عقامة ينسبون إلى ربيعة ابن نزار ، فأجاب بعض أوليائها ، وامتنع بعضهم ؛ فقال لهم القاضى الحسن بن أبي عقامة لا يصلح إلاّ برضى الكلّ ، فأصرّوا على الامتناع ، ويقال ان ذلك كان باشارته لعدم كفاءة جياش فاستدرجهم بالمال حتى أجابوه ، فلما زفّت المرأة إليه أخبرته بقول القاضى حسن فوجد عليه باطناً ، ثم قتله ، وفي قتله يقول الحسين بن علي بن القم القصيدة المشهورة :

أخطأتَ يا جيّاش في قتل الحسن ... فقأتَ واللهِ به عينَ الزمنْ
ولم يكن منطوياً على دخن ... مبرّءاً من الفسوق والدرن
كان جَزَاهُ حينَ ولاّكَ اليمن ... فتلكه ، ودفنه بلا كفنْ !

***

وإنما استعظم الناس ذلك من جيّاش لأنه كان موصوفاً بالحلم والعدل ، معظماً للعلماء لا سيما الحسن المذكور لأنه كان أحد أسباب أخذ جيّاش ملك تهامة .

وقال عمارة ان للشاعر « إبن القم » قصيدة أخرى في قتل قاضى القضاة الحسن بن أبي عقامة منها يخاطب جيّاشاً :

تفـرُّ إذا جرّ المـكـرّم رمحـه وتشجـع فيمن لا يُمِـرُّ ولا يُحْلِي !؟

وان « العَقَـاميين » ينقمـون هذا البيت على ابن القم ويقـولون : قتل صاحبهم أهون عليهم من كونه « لا يُمرّ ولا يُحْلي » .

ولم يزل « جياش » مالكاً لتهامة إلى عام ٤٩٨هـ / ١١٠٥ م .

٣ ـ السلطان سبأ بن أحمد
[ت ٤٩٢هـ / ١٠٩٩ م]

ومن الأمراء وسلاطين الصليحيين الذين جمعوا بين امارتي السَّيف والقلم السلطان سبـأ بن أحمد الصليحي وكان قد اشتهر بشهامته وشجاعته أيام حروب الملك علي بن محمد الصليحي مع مشايخ وسلاطين الطوائف ؛ وما إن قضى على دويلاتهم حتى اختار الكملاء من قوّاده وأقاربه وولّاهم على تلك الامـارات والمقـاطعات ، واختار السلطان سبأ لحصن « أشْيَح » وما يتبعه من مخاليف ، وقد اختص به الشاعر الكبير الحسين بن علي بن القم ، وأقام معه في « أشْيح » ومدحه بغرر قصائده مثل قوله :

إن ضامكَ الدهر فاستعصِم بأشْيح ، أو أزْرى بكَ الفقـر فاستمطر بنَانَ سَبَا ،
ما جاءه طالـب يبـغـى مواهبـه ، الاّ وأزمـع منـه فقـره هَرَبـا !
تخال صارمـه يوم الـوغـى نهراً تضرّمت من دم حافـاتـه لَهَبـا ؛
بني المظفّـر ما امتـدت سماء عُلاً ، إلا والْـفـيتـمُ فِي أفـقـهـا شهبـا
إنّ أمـرءاً كنتَ دون النـاس مطلبه لأجـدر النـاس أن يُحظى بما طلبا

***

وفيه يقول أيضاً :

ومـا يلتقى صدق الـوداد وطاعة الـ ـعذول ، ولا جود بن أحمد والجدبُ
كريـمٌ إذا جادتْ فواضـل كفّـه تيقنت أن البخـلَ ما تفعل السحبُ
أجارَ فلا خوفُ ، وأحيا فلا رَدىً ، وجـاد فلا فقرٌ ، ورامَ فلا صعبُ
ويثـني على قصّـاده فكـأنّـه . . يُجادُ بما يُجْدي ، ويُحْبى بما يحبـوُ
كتـبـتُ إليـه والمـفـاوز بيـنـنـا فكـان جوابي جود كفّيـهِ لا الكتبُ

وقد عدّه عمارة بين من جمعوا بين « الدعوة والملك » من الاسماعيليين وقال : « أما صفته فكان دميم الخلق قصيراً ، لا يكاد يظهر من السرج بطائل ؛ وأما هو فكان جواداً كريماً شاعراً أديباً فاضلاً عالماً بالمذهب ، خبيراً بأقوال الحكماء ، مُنْشِئا بالشعر يثيبُ بالمدح ، ويثيب عليه ومن ذلك قول ابن القم فيه :

ولما مدحت الهزبريّ ابن أحمد ... أجاز وكافاني على المدح بالمدح
فعوّضني شعراً بشعري وزادني ... عطاءاً ؛ فهذا رأس مالي وذا ربحي
شققت إليه النّاس حتى لقيته ... فكنت كمن شق الظلام إلى الصبح
فقبّح دهر ليس فيه ابن احمدٍ ، ... ونزّه دهر كان فيه من القبح

***

وحكى عمارة في ترجمته لابن القم قصة ظريفة يسندها إلى محمد بن العبيد الشاعر الحكمي قال : حججت عام ثلاث وستين وأربعمائة فلقيت بمكة محمد بن سعيد الخفاجي الحلبي فأنشدني قصيدة له يمدح فيها ناصر الدولة أبا علي يقول فيها :

وفيكم روى الناس المديح ومنكم ... تعلّم فيه القوم بذل الرغائب
فدعني وصدق القول فيك لعله ... يكفّر من تلك القوافي الكواذب
طويت إليك الباخلين كأنما ... سريت إلى شمس الضحى في الغياهب

***

قال ثم اجتمعت بابن القم عند الداعي سبأ بن أحمد وقد جاء هارباً من صاحب زبيد [يقصد جيّاشا] فأنشدته قصيدة الحلبي هذه فقال : تعلم والله اني آخذ هذا البيت من الحلبي أخذاً يسرّك ؛ ثم بتنا معاً فلما أصبحنا قام ابن القم لينشد سبأ مقطوعاً عمله في تلك الليلة فمنعه من القيام ورمى له بمخدّة ، وأقعده إكراماً له ورفْعاً ، وقال : أنت يا أبا عبد الله كما قال المتنبي :

وفؤادي من الملوك وإن كان ... لساني يُرى من الشعراء

ثم انشد ابن القم الأبيات « الحائية » : ولما مدحت الهزبري الخ وفيها :

شققت إليه الناس حتى لقيته ... فكنت كمن شق الظلام الى الصبحِ !

وهذا البيت هو بيت الحلبي بعينه .

ولم ينقل عمارة شيئاً من أشعار الداعي « سبأ » ولكنه قال انه كان شاعراً أديبا عالماً بمذهب الدعوة الفاطميّة وأكّد ذلك الشاعر ابن القم بقوله أولا :

ويـثـني على قصّاده فكـأنـه يُجاد بما يُجدي ، ويُحبى بما يحبو ،

وقوله ثانيا :

اجاز ، وجازاني على المدح بالمدح

وعندما قتل « سعيد الأحول » واستعاد المكرم « زبيد » ولاه عليها فترة وقبل ان يتوفى أسند إليه الوصيّة في الدعوة ، ونعته بقوله « الأمير الأجل الأوحد المنصور المظفّر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي » .

زواج سبأ بالسيدة أروى

لما توفى الملك علي بن المكرّم طالب السلطان سبأ بحقّه في تولي أمور الدولة والدعوة ولكن الملكة لم تمكّنه من ذلك فاتخذ سبيلاً آخر لاقناعها بان طلب يدها للزواج . . ولكن السيدة رفضت فسار السلطان سبأ من حصن أشيح بآنس بجيشه إلى ذي جبلة فجندت الملكة جيشاً لملاقاته ، وكادت رحى الحرب ان تدور لولا أن سليمان بن عامر الزواحي أخو الملكة من أمها أشار على سبأ أن يتصل بالخليفة المستنصر بالله قائلا « والله لا أجابتك الى مرادك الّا بأمر المستنصر » ؛ واتبع السلطان نصيحة سليمان وسيّر إلى الخليفة رسولين ولما وصلا إلى القاهرة كتب الى الملكة يأمرها بقبول أمر الزواج ولم تزل الوسائط تعمل حتى استجابت وحققت رغبة الخليفة وعقدوا عقد الزواج وأقبل السلطان في أمم عظيمة ، الى « جبلة » فتلقتهم الملكة بالاكرام وانفقت على عساكره أضعاف ما قدمه من المهر ؛ ويروي أنه ارسل إليها يستأذنها في الدخول إليها بدار العز ليوهم الناس انه دخل بها ففعلت ؛ وقال آخرون انه اجتمع بها ليلة واحدة ثم ارتحل في صبيحتها ، وقال قوم انها بعثت إليه جارية شبيهة بها ، وعرف ذلك السلطان سبأ فباتت الجارية واقفة على رأسه وهو لا يرفع طرفه إليها حتى اذا صلّى الفجر أمر بضرب الطبول وسار وانه قال للجارية : « أعْلِمي مولاتنا انها نطفة شريفة لا توضع الّا في

مستحقها » وكان قد شهر عن السيدة أروى انها استعفت زوجها المكرم من ان يلامسها وقالت له : « ان المرأة التي تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر فدعني وما أنا بصدده »! ومع ذلك فانها قد أقامت السلطان سبأ في الدعوة والملك وقال عمارة : « ويقال ان الداعي سبأ بن أحمد ما وطىء أمة قط ولا شرب مسكراً » وتوفي سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩ م وانظر أخباره في تاريخ عمارة وكتاب « الصليحيون » ص ١٥٤ ـ ١٦١ .

٤ ـ عبد الله بن يعلي الصليحي

ومن الأمراء الصليحيين الذين اشتهروا بقرض الشعر وذكره عمارة بين من ذكر من شعراء اليمن في تاريخه « المفيد في أخبار صنعاء وزبيد » السلطان عبد الله بن يعلي الصليحي الذي كان من أكابر أعوان الملك علي بن محمد وولّاه على حصن خدد المطل على « جبلة » مدينة النهرين والتي اتخذها المكرم قاعدة لمملكته .

وكان ممن حضر وقعة « الكظائم » التي دارت بين الملك جيّاش بن نجاح والجيوش الصليحية بقيادة الداعي سبأ بن أحمد سنة ٤٧٩هـ وانتصر فيها جياش وتوطّد عرشه وانهزم سبأ ومن معه وقتل الاميران قيس بن أحمد أخو الأمير سبأ ومحمد بن مهنأ الصليحي .

وكان جيّاش قد استنصر بالشريف يحيى بن حمزة بن وهّاس من أشراف المخلاف السليماني ، الذي أبلى في المعركة بلاء حسنا وحمل على القاضى عمران بن المفضل اليامي فطعنه طعنة نجلاء مات بسببها وعقر في ذلك اليوم فرس الداعي سبأ فاضطر ان يسير راجلاً حتى ساعده بعض جنده كما يقول عمارة .

وفي قتل القاضى عمران قال الشريف يحيى مفتخراً قصيدة مشهورة رائية ومنها هذا البيت :

ونجا الحجازي الرئيس بطعنةٍ نجلا ؛ لها تحت القميص خُوارُ

وقد اعتذر الشريف فيما بعد إلى السلطان سبأ بن أحمد فيما كان من نصره « للحبشة » وجيّاش ضد « العرب » والصليحيين بقصيدة مطلعها :

يا راكبا جسرةً كالقارب القَطِم تهوي كقاريّة الكدريّ من أمم

وفيها يقول :

وقد يعزّ علينا ما أصابكم ... منّا بغير رضا كفّ ولا قدمِ
والله يعلم انّي يوم وقعتكم ... لم أمس الاّ على جمرٍ من الندم
وان فيض دم منكم كفيض دم ... بكر بلاء ، وثارٍ الطف لم يرمِ

***

وقد أجاب عليه السلطان عبد الله بن يعلي الذي نتحدث عنه على لسان الداعي سبأ بقصيدة مطلعها :

يا راكبا راح لا يلوي على أحدٍ ... لقيت داعية التوفيق والنعم

وفيها يقول :

فليس قيس ؛ وان جلّتْ رزيّته ... وكان صنوي ؛ لحمي لحمه ، ودمي
ولا الهمام أبو موسى وصاحبه ... محمد وهما من أوثق العِصَم
بأول القوم مناحمَ موتهم ... بين الأسنّة والهنديّة الخُذُم
والسيف يأكلنا حينا ونرتعه ... حينا اذا شاء في الأعناق والقمم

ومعني مطلع قصيدة الشريف « يحيى بن حمزة » « يا راكباً جسرة الخ » « يا راكباً فرسا ضخماً أو ناقة ضخمة تشبه في سيرها القطا الكدري الذي يطلب الماء من قريب ليروي ظمأه » وانظر « الصليحيون » ص : ١٥٣ .

ومن شعر عبد الله بن يعلي في وصف مدينة « جبلة »

هبّ النسيم فبتّ كالحيران ... شوقاً الى الأهلين والجيرانِ
ما مصر ؟ ما بغداد ؟ ما طبريّة ... كمدينة قد حفها نهران !
خَدَدٌ لهاشام ، وحبُّ مشرق ، ... والتعكر السامي الرفيع يمانِ

***

ولم يذكر عمارة ولا غيره السنة التي توفي بها عبد الله بن يعلي ، ولكنا نعلم انه كان لا يزال حيّاً لما تضعضع سلطان السيدة بنت أحمد وثار فقهاء أهل السنة واحتلوا « التعكر » سنة ٥٠٤هـ والتي كانت من أسباب موت المفضل ابن أبي البركات الحميري الذي خلف الداعي سبأ ، وأدت وفاته الى خروج

بعض الجهات على الملكة السيدة أروى « فاستولى مسلم بن الزر على حصن خدد » وأخرج منه السلطان عبد الله بن يعلي الصليحي الشاعر الأديب .

ذكر ذلك عمارة في تاريخه ثم قال : « وكان عبد الله بن يعلي هذا كثير الأموال فانتقلت أمواله إلى مسلم بن الزر فقويت شوكته » [ص ـ ٧٤] .

ثم لا نسمع بعد ذلك في تاريخ عمارة شيئا عن شاعرنا الا ان أبن خلدون في « العبر » قد قال وهو يتحدّث عن قواعد اليمن : « حصن خدد كان لعبد الله بن يعلي الصليحي وهو من مخلاف جعفر » ثم ذكر وثوب مسلم ابن الزر عليه وامتلاكه له وقال ان « عبد الله بن يعلي » قد لحق بحصن مصدود وعقب بعد ذلك بان حصن « مصدود » قد سقط من يد عبد الله ابن يعلي . ومن المحتمل انه قد مات همّاً وكمداً وغيظاً بعد هذه النكبات المتتابعة والنكسات المتتالية وكأن مصيره مصير المفضل بن أبي البركات ولم يعش طويلا بعد عام ٥٠٤هـ .

وله من قصيدة يقول عمارة انه قالها في رجل ادعى انه شاعر ومدح الملكة الحرّة بما لم يستحق عليه جائزة فاستشفع به !

قاس الأمور فلم يجد في فكره ... أمراً يقوم بواجب من عذره
فمضى يلفّق زائفاً من تبره ... وسرى يُنَفِّقُ كاسداً من شعره
ويظنّ ان حقوقكِ ابنةَ أحمدٍ ... جملا تقيم هَوىً ؛ وهَيَ من قدره
هيهات منكِ ، وفوق ذاك وانه ... قسماً بحقك عاجز عن شكره
ان الذي يلقي الصنيع بجحده ... مثل الذي يلقى الآله بكفره !
ومتى أخل بواجباتك شاكرٌ ... عن قدره هدمت مباني فخره
ان الصنائع في الكرام ودائع ... تبقى ولو فني الزمان بأسره

***

وكما لم يذكر عمارة سنة وفاة السلطان عبد الله فلا ندري أيضاً عام ولادته ولكنا نستنتج انه كان قد جاوز العشرين حين ولاّه الملك علي محمد الصليحي على « حصن خدُد » سنة ٤٥٤هـ فتكون ولادته حوالي سنة ٤٣٠هـ ان لم يكن قبلها وعندما أخذ مسلم بن الزر من خولان على « خدد » وملكه من يد عبد الله سنة ٥٠٤هـ كان قد جاوز السبعين لانّه ما إن لحق بحصن

« مصدود » حتى تبعه « الخولانيون » وغلبوه على حصن مصدود وقد توفي بعد ذلك أي حوالي ٥٠٥هـ /١١١٢ م .

٥ ـ ٦ ـ الخطاب بن ابي الحفاظ وأخوه سليمان

مِقْولا قحطان أو الشاعران السلطانان . [٤٧٥ ـ ٥٣٣] من شعراء السلاطين والحكام في اليمن خلال هذه الفترة الأخوان اليمنيّان سليمان ابن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري المتوفّي غيلةً على يد أخيه الخطاب حوالي سنة ٥٣٠هـ ، والسلطان الخطّاب بن أبي الحفاظ المتوفي قتلاً على يد أحد أولاد أخيه في شهر صفر سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩ م .

وقصّة صراع السلطانين الحجوريّين ، وقتل الخطّاب لأخيهما الثالث أحمد انتقاماً لقتله أختهم مأساة دامية لها في تاريخ اليمن الأدبي حديث حزين مثير .

والشيخان أو السلطانان الفارسان الشاعران العالمان هما ولدا زعيم قبيلة « حجور » في عصره الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري وقد عاشا في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري ، والثلث الأول من القرن السادس الهجري أيضاً ، أي ما بين عام ٤٧٥ وسنة ٥٣٣هـ وعاصرا دول الطوائف التي كانت تتنازع الحكم والسلطة في اليمن خلال ذلك العهد السياسي الكئيب والتي ذكرنا أسماء بعض سلطناتها ؛ ومنها الدولتان المتصارعتان ؛ « الصليحيون » في « جبلة » ، و « النّجاحيون » في « زبيد » وقد عرفنا ان دولة « الصليحيين » كانت تخضع عقائدياً لنفوذ « الفاطميين » في مصر وتدين بمذهبهم الشيعّي الاسماعيلي ، وأما « النجاحيون » فقد كانوا يعلنون ولاءهم للخلافة « العباسية » في بغداد ويدّعون اعتناق المذهب السنيّ ؛ وكلتاهما كانت قد شاختْ وهرمت وينافسها دويلات أخرى في الشمال والجنوب وغرب اليمن وشرقها والفتن تشبّ وتضطرم هنا وهناك .

وقبيلة « حجور » التي ينتمي اليها « السلطانان » الشاعران من قبائل « همدان » المشهورة وقد قال الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العر ب » انها « امنع ديار اليمن وأعزّها » .

وكان والدهما رئيس هذه القبيلة ، وقاعدتُها « الجريب » وبعد وفاته حوالي سنة ٥٠٤هـ ورث الرئاسة عنه ابنه الأكبر « سليمان » ودان له أخوه « الخطّاب » بادىء ذي بدىء ، وقد كان يتولّى من عهد أبيه رئاسة بعض مناطق « حجور » ، وسرعان ما دبّت عقارب الخلاف بين الأخوين الفارسين الشاعرين ، وما لبثت قليلاً حتى نشبت بينهما حرب ضاريَة لا تبقي ولا تذر ؛ وبالسيف والسنان ، واليراع واللسان .

وكان « الخطّاب » كما ينطق شعره يدين بالتشيّع الاسماعيلي ويقول إدريس : إنه كان أخاً من الرضاعة للملكة الصليحية السيدة أروي بنت أحمد . ؛ ويقول أدريس أيضاً ان سليمان كانَ سنّيا ، وكان لهما أخ إسمه « أحمد » يظهر انه كان يميل إلى أخيه الأكبر « سليمان » مذهبا وهوى وسياسة ؛ كما كانت لهم أخت يصفها المؤرّخون الفاطميون بالصلاح ، وانها كانت تميل الى أخيها « الخطّاب » ، ويظهر انها كانت تعتنق مذهبه الاسماعيلي ويقول بعض المؤرّخين أن ذلك هو الذي دفع أخاها « أحمد » الى قتلها وقد جرّ ذلك الى قتله بيد أخيه « الخطّاب » ، وصوّر ذلك أخوهما سليمان بقوله من قصيدة طويلة : يعدّد فيها مثالب « الخطّاب » :

وأخوه « أحمد » كان تحت لوائه ... متصدّياً مثل الحسام الفاصل
فدعاه يوم العيد نحو غدائه ... في أكلةٍ كانتْ فناءَ الآكلَ !
فَفرى وريدَيْهِ بطعنة حربةٍ ... أجرتْ بلاعمه بأحمر سائل
واستقبل الحلقوم يُفْرِغ كلّما ... قد كان في أمعائه من داخل

***

أحربٌ على السلطة أم على العقيدة ؟

واندلعت لسان الحرب بين « السلطانين » فاستنجد « سليمان » بحكام زبيد النجاحيين الذي يعتَزُونَ الى « بغداد » ، واستعان « الخطّاب » بالصليحيين الذين ينتمون الى « القاهرة » ، ودارت حرب ضروس بالسيف والسنان يُحْمِي أوارها ويؤجّج ضريمَها حربٌ بالقلم واللسان ملأت كتب التاريخ ، وأثمرت ديواني شعر ، وقد ذكر بعض تفاصيلها الدكتور حسين الهمداني في كتابه « الصليحيون » ، كما أورد بعض قصائدهما الأستاذ محمد

العقيلي في الكتاب الذي سماه « ديوان السلطانين » .

ومن القصائد التي تشير الى مأساة السلطانين والحرب التي انتهت بالقضاء عليهما وأكلتهما أكلاً لمًّا . . قصيدتان نونيّتان . . أولاهما للسلطان « سليمان » يذكر فيها قتل أخيه « الخطّاب » لأخيهما أحمد بن الحسن ومطلعها :

ذُرِفَتْ دمـوع العـين في الخـدّيْن ... وتَعـلّق الأرق الـطويـل بعَيْني !
وفقــدت سيّــد يعـرب وهمـامهـا ... رحـب الـفنـاء ، مشرّف الجَـدَّيْنَ
يا قاتـل الأسـد الهصور ؛ قتلتَه ، ... وقبلتَ فيـه مشـورة « العبدَين »
ما كان يحسن فـي أب الحسن الذي ... يحمي الـديـار يكون مقضى الدّين
أقتلتَ صنـوكَ طالبـاً شرف العلا ؟ ... ليس العــلا بقـطيعـة الصنـويْن
أطـمعْتَ في مالٍ يخلف بعــده . . ... والمـال لا يربـو على الـظلمين ؟
ورغـبـت في إغـلاق باب واحـدٍ ... وفـتـحت من جوّ السـما بابـيْنْ ؟
أتعبتَ نفسك في أسـاسـك للعـلا ... وهــدمــتَ من أركـانها ركـنَـيْن
وفـعـلت فعــلاً لا يزينــك فعلُه ... وقــطعت بالسيف البتـور يديْن !
تبغي المـودّة في نواحي « مسـورٍ » ... وتجـذّ صفـوة خالص الأبـوين ؟

***

والأخرى للسلطان الخطاب أجاب بها على أخيه يدافع عن نفسه ويذكر سبب قتله لأخيه أحمد وهي على نفس الرويّ ومطلعها :

الحـقّ أبـلجُ واضـح الـنـوريْنِ ، ... والله لا يرضـى بذي كفـرَيْـنِ

ومنها في قصة قتل أخيه وأخته :

ما كان يحسُـنُ كشـف فعـلة أحمـدٍ ... الاّ تكـون بأسـبـغ الـسـترَيْن ،
لكـن إذا قد شئت كشف فعـالـه ... فأنـا بذلـك أبيض الثـوبـيـنْ ،
لا تحـسـبـنّ بأنّـي لم أفـنـه ... الاّ مخافـة شركـةَ الأمـريـنَ
والله مـا بـي ذاك ؛ إلا أنَّـه ... أبـدى طرائقـه إلى الـظلمـينّ ؛
ترضى لأحمـد سفكـه دم أختـه ؟ ... أتـرى بذاك تواصـل الأخـوين ؟
متجـرّداً ؛ بالسيف يضرب رأسها ... وكـأنّـها أضـحـت صريـعـة دين
فبـدرت حين أتى بسـوء فعـالـه ... أجـريت منه الموت في الودجَين !
طهّـرتـه بالـسـيـف يوم قتلتُـه ... ونـفـيـتُ عني أخبث القـولَـين !
يا قائـلاً أبـدى فضـائـح نفسـه ... أضحت بأقصى الشـام واليمنـيَنِ

قف فاستمع مني الجوابَ مبرهناً | كالشمس يخطف نورها العينين
وتقول : إني قد أثمتُ بقتله ! | ولَقَتْلُهُ من أعظم الأجرين ؛ !
وزعمتَ أنّي استشير ، وأنني | خاطٍ ؛ ورأيي أضعف الرأيينْ
والله ما أشْتار في رأيي ، ولا | في همتي عبدَيْن ، أو حرّينَ

***

ويظهر من قوله « طهّرته » الخ أن « أحمد » هذا ؛ قد زعم زاعم بأنه الى جانب قتله لأخته قد قارف الفاحشة ! ويدلّ على ذلك ما ورد في قصيدة « الخطّاب » الحائية التي تُعدُّ من روائعه ، والتي لسبب لا ندريه شطبها ناشر ومحقق « ديوان السلطانين » ، وأسقطها ضمن ما أسقط ، وهي ستون بيتا تصّور معتقدات « الخطّاب » وتدمغ العصاة من « فرقته » ، وكنت قد استنسختها من مخطوطة الدكتور حسين الهمداني رحمه الله ، ومنها في قتله لأخيه ، مفصّلاً ما عناه بقوله :

طهّرته بالسيف يوم قتلته | ونفيتُ عنّي أخبثَ القولَينِ

يقول :

ما شاكَ ذا رحْمِيَ بي شائكٌ | ولا اغتدى ذا ودَجٍ فاتحِ
بل في رضاء الله لما اغتدى | يمتح في الفسق مع الماتحِ
وارتكب الفحشاء من محرم | باشر منه أيّما جائحِ !
جشّمت نفسي خُطّةً صعبة | فيه أتته بردي تائح
غسلتُ عن عرضي وعن عرضه | بها مقال القائل القَابحِ

***

وهي تهمة بشعة يدمغ بها أخاه ، ويبرّر بها قتله له ؛ وسيكون لنا عودة الى هذه القصيدة عندما نتحدّث عن عقيدة « الخطّاب » الحجوري . إن شاء الله .

وقد استمرت الحرب بين الأخوين بعد قتل الأخ والأخت شرسَةً عدّة سنوات سجّل الشاعران أحداثها بقصائد بديعة تقطر بالأسى والحزنَ حيناً ، وبالحقد والغيظ أحيانا .

ويظهر أن السلطان « سليمان » قد سئم الحرب وملّها ، وأن بعض المشايخ من « حاشد » و « بكيل » قد توسطوا بين الأخوين وأقنعوا « سليمان » بالتسليم لأخيه « الخطّاب » فرجع واستسلم لكن « الخطّاب » ما فتىء أن اغتاله ـ ولأسباب لا ندريها ـ ولم يراع خضوع أخيه وشيخوخته واستسلامه !

وكأن السلطان سليمان قد أدرك واحسّ بأن أخاه الجبّار يترصّد خطاه ، ويتربّص به ، ويدبّر قتله ، ويتحينّ الفرص ليقضي عليه ، ولذلك أنشأ قبل مقتله قصيدة يقول فيها :

فمن مبلغ عنّي « بكيلاً » و « حاشدا » بان قتال الماكرين جهادُ
بعدتُ من الخطّاب بعْداً، ولم يكن لقربي اليه مرجعٌ ومعادُ
فقرّبني منه شيوخ وثقتهم ، وما كان في قربي اليه سداد
فان حضرت منّي الوفاةُ ، فأنّهم وفاتي ، وقربي للوفاةِ أرادوا
وما أسفي ممّا أتاه ، وإنّما أسفت لِمَا لحوّا عليّ وزادوا
وقد بلغتْ نفسي من الأمر مبلغاً يقصّر عنه حميرٌ وزياد

مصير الخطّاب :

وبعد أن قتل « الخطّاب » أخاه كفل أولاده وضمّهم إليه ، وآواهم ، ولكنهم تذكّروا ما صنع عمّهم بأبيهم ، وربّما ان هناك من حرضهم فتربّصوا به ، ثم هاجموه في مضجعه ، وأعملوا فيه سيوفهم تقطيعاً ، وتمزيقاً ، وذلك في شهر صفر سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩ م وأسدِل الستار على مأساةٍ اثمرت أدباً داميا !وقد وجدوا بعد مقتله قصيدة ميمية كان قد قالها قبيل اغتياله ، وهي تدلّ على أن قوماً من أصحابه قد انذروه وحذروه ، ومطلع هذه القصيدة التي هي آخر ما قاله السلطان الخطاب :

الدّهر يتبع ما يجري به القلمُ والمرءُ يلحقه النعماء والألمُ
خاب امرؤٌ خاف ما يقضي عليه به وارتدّ عن نيل ما تأتي به الهمم

ومنها :

ولي من الناس إخوان صحبتهم على الوفاء فلم تُبْخَسُ لهم ذممُ
قومي حجورٌ جناحٌ لي أطير به وأهل عزي من دون الورى « قُدَمُ »

لا أعرف الدهر لي في الناس غيرهم قسماً اذا الناس يوم البأس تُقتَسَمُ
لا يبدلون لرسمٍ حين أرسمه ، ولا أبدّل رسماً غير ما رسموا !

ثم يقول لمن حذّره وانذره :

يا أيها الناطق الناهي يحذّرني إن الحذير من المقدور مخترمُ
ان كان قد حل حقاً ما أحاذره فليس لي من قضاء الله معتصم
كم من عدوٍّ سقيت السيف من دمه لم يثنني عنه تعنيفٌ ولا رَحمُ !
فان أصِرْ مثل من قد صيرته يدي فالله أكبر وهو العادل الحكمُ
ولست أجزع من موت على كرمٍ وذاك أكرم شيء ؛ إسمه الكرم

ولا شك ان « الخّطاب » كان متألما لما حصل بينه وبين أهله وذويه ، وكان حزيناً مهموماً ويدل على ذلك هذه الضراعة وهي من آخر ما قال :

يا من رضيتُ مسلّماً لقضائه ورضيت حُكمه
وعلمت أن جميع ما يأتي به عدلٌ وحكمة ؛
لا تنسني وتلافني وانظر إليّ بعين رحمه
مولاي كم من نعمة أوليتني في زيّ نقمه !
ومسرة انتجتها للمبتلي من بطن غمّه
فافرج بمنك عن وليّك مسرعاً ما قد أغمّه
وارحم تضرّعه ونفّس كربه عنه وغمّه ،
واعضده بالتوفيق فيما رام من غرض وأمّه
وأنِلهُ فيمن ضامه بلطيف صنعك كلّ هِمّه
وانصره نصراً يستقيدُ من العدا عاصي الأزمه
وأدِلهُ منهم إنّهم أعداء غدرٍ للأئمة
لا يحفظون لمؤمنٍ عهداً ولا يرعون ذِمّه
فترى الوليّ بهم حليف كآبةٍ ، وأخا مهمّه
تطوى محامده بهم ، وتشيّع الأنجاسُ ذمه
لو يُعضدونَ بقوةٍ لتقاسموا دمه ولحمه
لا ينظرون له وشيجَ قرابةٍ . . وأكيد حُرمه
قد صيّروا إيمانه وولاءه لله جُرْمَه !
فتألبوا عُصَبا عليه ، وأكثروا بالغيب رجمه
ورموه عن قوس العداوة طالبين بذاك ظلمه

متنـــاصريـن عليــه يُطلِـق كلّهـم بالــكـيــد سهـمَــه
فالـيـــك يــا مـــولاي يدعـــو رافـعـــا يـــده وَوَهْـــمَـــه !

***

عقيدة الخطاب :

كان السلطان الخطّاب إسماعيلياً فاطمياً من حزب الصليحيين ، ولم تُنَشِّئْه على ذلك بيئته ، ولا يدلّ عليه سلوكه قبل موت والده واختلافه مع أخيه ، وإن كان قد نقل الدكتور حسين الهمداني عن إدريس القرشي مؤلّف « عيون الأخبار » قوله « وكان الخطاب بن حسن أخا الملكة من الرضاع ـ ذا منزلة جليلة ، وهو أرفع الدعاة بعد الداعي الذؤيب بن موسى ، وعاضده في اقامة الدعوة الآمريّة والطيبية في أوان الحرة الملكة السيدة الصليحية وبعد وفاتها ، وكانت له عندها مزيّة جليلة ومرتبة ، وفضيلة وهو من دعاة أيام الظهور والستر ، وكان معروفاً بالفضل والعلم والشعر والحكمة ، وبالبأس عند الشدائد والاقحام في الحروب وبالورع والزهد وبالملك والسوؤدد » . بل نعرفه ونستخلصه من أخباره وأشعاره بعد أن نازع أخاه وأصبح سلطانا .

ومن يقرأ ديوان شعر الخطاب يتأكّد انه كان موالياً للسيدة بنت أحمد الصليحية ، وللأئمة الفاطميين بمصر ، وللنظام الفكري الفاطمي ، وهمزيته الطويلة التي مطلعها :

مللت بدار الحسّ طوال ثوائـي وسـجـني وتـعـذيـبي بها وبـلائي
وجمـع لطيـفي بالـكـثيف ولـزّه إلَيْـهِ لأشقـائي ، وطـول عنـائي

تدلّ ألفاظها ، وعباراتها على عقيدته « الفاطمية » وجُمل « دار القُدس » و « لألاء نور » ، و « حبـل الـولاء » ، « والعـترة النجباء » ، و « مقامات الصفوة » تنطق بذلك . .

تلقّوا بحسن السمع والطوع أمرهم بما جاءكـم ؛ لو جاءكـم بفنـــاء !
ولا تسألوا لِمْ ذاك ؟ وارضوا وسلّموا بغــير اعــتراض منكـم ومــراء !
فتـلك صفــات المؤمنـين وسمتهم وسـيرتهـم نقـلاً عن الـعـلماء !

وهو إنما يرشد الناس ، ويبذل نصحه الأمين لأنه مخلصٌ للدعوة ، لا

يطلب شكراً ، ولا نباهة ذكر ، يلحب بنصحه المطموس من سبل الهدى ، ويوقظ من يغطّون في نوم الجهالة ، ويخاطب النفوس التائهة في غبش الضلال :

عسى تنجلي منهنّ نفس صديّة بصقلي وتهذيبي لها وجلائي ،
فيصبغ إكسيري مهيّأ ذاتها ، صباغاً به تضحى من البلغاء ،
وتخلص من سجن الهيولي الذي غدت بظلمائها في جملة السجناء ،
ولن يدرك الحال الذي أنا واصفٌ فتى ليس معدوداً من العقلاء !

وبيّن انه يقصد « عقل المعارف » وليس « عقل الطبع الاعمى » الذي يشبه « عقل البهيمة » ، وان الطريق الموصل إلى الغاية المنشودة هي سلوك « سنة الفضلاء » ، وحذّر ممّن يخترقون الشريعة ، بالتأويلات الباطلة

وسموه دينا عندهم وادّعوا به مقاماً وشدوا أيدياً بهواء
وأوّل كلٌّ منهم بقياسه له من كتاب الله عدّة آئي ،
ألا كلّ مَنْ هذا السبيل سبيله فاني له من أبغض البغضاء
وقالوا كذا قول الائمة واعتزوا إليهم بمكر منهم ودهاء
لقد قال إفكاً في الذي قال عنهم ، وزوراً مبيحاً منهم لدماء !

فهو إذاً يتبّرأ مما يقال عن « الباطنية » و« الاسماعيلية » ، مما سبق تفصيله نقلاً عن كتاب الحمادي « كشف أسرار الباطنية » ؛ ولكنه يُصَدِّق ان ذلك الضلال من « اختراق الشريعة » و« تأويل آيات القرآن » وتحريف « أقوال الأئمة » أو الكذب عليهم ، قد كان ، وهو يتبرؤ منه ، وينكره أشد الانكار ، ويسمّي من يقترف ذلك :

أباليس من نسل ابن مرة أصلهم ، تسمّوا لمن كادوه بالخلفاء ،
عليهم شعار المؤمنين وسمتُهُمْ وسيماء قوم جلّة حلماء !

بل ويختتم قصيدته بقوله :

حلفت بمولاي الذي كفروا به وهم مدّعو نصحٍ له وصفاء
لأنّهم بالقتل من كلّ حيّةٍ أحقّ ، ولا كانوا منَ الشهداء

***

ونرتبك لأننا لا ندري من يقصد بمولاه ! هل مولانا الواحد الأحد الفرد

الصمد الحي القيوم ، فيكون قد عنى بمن سمّاهم أبالسة ، وأباح دماءهم ، من قال فيهم الحمادي وغيره ما سبق تفصيله ومنهم الملك علي محمد الصليحي ؟! أم أنه يحلف بمولاه المستور لأنه يؤمن بالعبادتين الظاهرة والباطنة وهما أسس المذهب الفاطمي ، ولأنه كما قال مؤلّف « العيون » من دعاة أيام الظهور والستر وإذن فهو لا يقصد الا المنحرفين المجاهرين علناً باختراق الشريعة كما فعل « علي بن الفضل » ، وربما عنى قوماً آخرين في عهد السلطان الخطّاب نفسه ؟!

وإذاً فهو « فاطمي أصيل » ، وكل أشعاره تدل على ذلك ، لكنه يحارب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويقف نفس الموقف الذي اتخذه « علي محمد الصليحي » واستاذه « الزواحي » والكثير من « أهل الدعوة الفاطمية » في اليمن وغيرها عبر العصور .

وقصيدة « الخطاب » الهمزية في مائة وعشرين بيتا وقد أودع فيها فلسفته ومعتقداته ، وفيها وثبات صوفية مثل قوله :

أرى الموت جسراً والأحبة خلفه … وعابره من أسعد السعداء ،
وقد كان رأيي أن أكون وراءه ، … فعدتُ ورأيي أن يكون ورائي !
وهل يكره الموت امرؤٌ متعلّقٌ … بعروة إخلاص وحبل ولاء ؟
غدا راضياً في كل أمرٍ ، مسلما … لمولاه ديناً ، ليس فيه يُرائي

***

ويعرب عن تشيّعه فيقول :

وذلك اني قد بلوتُ فلم أجد … مذاهب هذا الخلق غير هباء
سراب كما قال الآله بقيعةٍ … ترائى لقوم مصحرين ظماء !
ولا شيء الاّ ما علقتم بحبله … وعروته للعترة النجباء ،

***

وأفرط وغالى ما شاء له هواه ونستغفر الله من شطحات الهوى ، والزيغ والضلال .

وللخطاب قصيدة حائية في ستين بيتاً هاجم فيها « الباطنية » الذي يقول

المؤرخون انه منهم ، وان عقيدتهم التي دان بها والتي نجدها صريحة واضحة مصحرة في شعره ونثره ، فلا يدري الناقد أو المؤرخ المنصف بماذا يحكم عليه ؛ لنصغ إليه قائلا :

ان صحّ ما قالوا وما شنّعوا … من الكلام الفاسدِ الفاضح
عن معشر في الدين قد حلّلوا … ما هو بئس الكدح للكادح
واستوطئوا مركب فسقٍ به … أوروا زناد الكفر للّامح
لشَهْوةٍ حسِّيةٍ عندها … باعوا الفُرات العَذْب بالمالح
وللطبيعيات فيها غدَوا … عالين منها مَركبَ الجامح
فنحن منهم أبرياءٌ كما … تَبرَّأ الناجي من الطالح
ولعنة الله على كل من … ناواه من غادٍ ومن رائح
قد قُلْتُ ما قُلْتُ به رافعاً … عَقيرةَ المُعلى به البائح
ديني لَعْنُ الباطنيِّ الذي … يَصُدُّ عن نَهْج الهُدى الواضح
وكلِّ من دانَ بما دانَه … أحلِّ جاري دَمه السافح
قومٌ فُروضَ الشَّرْع قد عَطَّلُوا … وصيروُها هُزُؤ المازح
وكَذَّبوا بالبَعْث وَاسْتَصْوَبُوا … في الدين غير العمل الصالح
وأَوْجبُوا من كان ذا محرَم … كالأمّ أو كالبنتَ للناكح
وحَلَّلو الخمر معاً والزِّنا … والفِسْقَ للداني وللنازح
تأوُّلاً دانوا به فاسداً … قد رسبوا في جهله الطافح
حلّوا عُقود الشرع من دينهم … حتّى غدوا كالنَّعم السارح
هيهات ما في الدين من رُخصةٍ … يَسْمُو إليها نظرُ الطامح
ما استعبد الله تعالى الورَى … بما اقتضاه مزحُ المازح
من مُبلغٍ عنّي قوماً نَسُوا … مما تسمّوا صَفْقَةَ الرابح
يرون أنَّ الدين ما سوَّلَتْ … أنفسهُم من عملٍ فاضح
بَراءتي منهم ولعَني لهم … حتّى أُوَارى بيَدِ الضارح
لا قدّس الله لهم أنفسا … قد عَدَلَتْ عن سَنَن الناصح
وحبّذا قومٌ هم ما هُمُ … تمسكوا بالمَتْجَر الرابح
وأخلصوا لله مولاهم … ديناً وللمُستخلص المانح
لم يسبحوا في بحر لَهْوٍ به … قد سَبَحَ الناسُ مع السابح
ولا دَعَوْا خزْياً إلى ما دعوا … إليه لكنْ مدح المادح
ولا أتوا فاحِشَةً أُطْلِقَتْ … عليهم في القَدْح للقادح

فمن هو يا ترى هذا « الباطني » الذي يصرّح بأن دينه لَعْنهُ ؛ لأنه قد صدّ عن نهج الهدى ؟ ومن هم أولئك الذين حلّلوا الحرام ، واستوطئوا مركب الفسق والشهوات وآمنوا بمذهب الطبيعيين ، وعطّلوا فروض الشرع ، وكذبوا بالبعث ، وأباحوا نكاح البنت والأم ، وحللوا الخمر والزنا إلى آخر ما قاله الحمادي وغيره في الاسماعيلية ومنهم علي بن الفضل والحسن بن منصور بل وعلي محمد الصليحي وكل أتباعه ؟ ومن يعني بقوله وحبّذا قوم أخلصوا لله ، ولم يسبحوا في بحر لهو ، ولا دَعَوْا خِزيا ، ولا أتوا فاحشة ؟!

بلْ جانبوا الدنيا وما استكلبوا ... على الدّنايا كَلَبَ النابحِ
واتبعوا الشَّرْعَ فما فيهمُ ... من تاركٍ ذاك ولا طارحِ
واستعملوا الدين فلم يَزْجُرُوا ... عِيافَةَ السانحِ والبارحِ
ما سَرَّهم خَيْرٌ ولا ساءهم ... من شَرِّ ذي شرٍّ ولا فادحِ
قد شغلوا بالدَّرْس أوقاتهم ... في الدهر من ماسٍ ومن صابحِ
حتَّى غَدَوْا أَعلامَ عِلْمٍ به ... يقوم قصد العانِدِ الجانِحِ

إن هذه الصفات هي صفات المسلمين من اتباع الامام الشافعي أو الحنبلي ، أو المالكي ، وممّن لا يقولون برجعةٍ ولا تقيّة ، ولا بأيّام ظهور ولا ستر ، من الشيعة الزيديّة والأشاعرة والمعتزلة . . فهل ترى « الخطاب » قد فكر فيهم وهو يكتب هذه الأبيات ؟ أم انه فقط كان يريد أن يدافع عن مذهبه وعقيدته ومذهب عقيدة الصليحيين في اليمن ، والفاطميين في مصر ، وينفي عنهم ما اقترفه علي بن الفضل وأصحابه وما نسب إليهم من أعمال وأقوال ؟

أظن ان الخطّاب انما أراد الدفاع عن نحلته وبدهاء ومكر إنْ لم يكن صادقاً ، وان كان مخلصاً ؛ فانّه لا شك ينطق بأمور لم نتعوّد سماعها مما يحكيه المؤرخون والعلماء عن « القرامطة » في اليمن وفي غيرها . ويكون الخطّاب قد دعا الى « باطنيّةٍ » أخرى ليست « باطنية » ذلك الذي يدين الخطّاب بلعنه ويبيح دمه ، ويتبرّأ منه ؛ فهل كان يا ترى متأثرا بمهدوية العياني ؟ وهل كان مخلصاً للأئمة من أهل البيت كسائر « الحجوريّين » ولكن تمزّق أحفاد الهادي ، وأولاد « العياني » جعله مع والده وأخيه يندفعون مع موجة الصليحي حفاظاً على سلطنتهم وإرمهم « الجريب » ثم دهاه من هوس

« المهدوية » مادها الامام « الحسين العياني » فقال :

وأُطـلِعُـوا مــن سِـرِّ أسراره ... على خفـي لهمُ لائـح
وعــاهـدوا الله على سَتْرِهِ ... من كل ضِدٍّ حاسِـدٍ كاشِـح
فهـم يَدِينـون لمولاهـمُ ... من تحت سَتْرٍ لهمُ سانـح
أولاك إخــوانــي لـم يَنْـأ بـي ... عن سُوحِهم مَنْدُوحَـة النادح
تفـترقُ الأشـبـاحُ منَّـا ومـا الـ ... أرواحُ من ذلـك بالـبـارِح
فَقُـلْ لمن يُزْري على مذهـبـي ... زَرْيَ الـثـمـوديِّ على صالِـح
هذا اعـتقـادي فَاقْفُ أو فاعْتَـزل ... طِرْتُ فلازمْ صِفـةَ الـرازح
ومـن يُـنـاضِـلْني عليـه يجِدْ ... من حُجَجي مُوهِيَـةَ النـاطِـح
أدْمَـغُ بالـحـقِّ أبـاطـيـلَه ... دَمغَ النَّوى عن حَجَر الـراضِح
هـا أنـذا أَعْـرضُ نفسي فمـن ... شـاء فذا بابـي للفـاتـح
ولاءُ أهـل البيـت ديني الـذي ... به مسـحْـتُ الـكـفَّ للماسـح
هُم شُفَـعـائـي يومَ بعـثـي إذا ... ما جَمَّعَتْنـا صَيْحَـةُ الصائـح
يا قادحـاً زَنْـدَ مَلامـي على ... حُبِّـهـمُ قُبِّـحْـتَ من قادح
سَمَـحْـتُ من قَبْـل مُوالاتهـم ... بما به لم أُضْـحِ بالسـامِـح
صافَحتُـهـم بالعهـد في حين أنْ ... صَفَحْتَ عنهم أخـدع الصـافح
فكـيـف أنْ ترْجُـو نكْـثي به ... بعـد اصْطِفـائي نظر النـاقِح
هيـهـات ! حُبِّي لهمُ حُبّ من ... ينـجـو بهم من لَهَبٍ لافِـح
عَسـايَ أنْ أُبْـعَـثَ في محشري ... صاحِبَ ميـزانٍ بها راجِـح
وَجَّـهْـتُ وجـهـي لهمُ طائـعـاً ... ولا أُبـالي رمحَـة الـرامِـح
أرضي حِمامـي فيـهـمُ بالـذي ... أنـالُـهُ من عَتَـبِ الجـارِح
والله لولا ما غدا شارحـاً ... له الـذي قُدِّس من شارِح
في طاعـة الله وطـاعـاتهـم ... على الـوليّ الـعـابـد السـائِـح

***

ثم ماذا بعد هذا الدفاع عن مذهبه والتأييد لنحلته ؟ لقد ختم القصيدة بالأبيات التي سبق سردها والتي يتهم فيها أخاه « أحمد » بأنه قد ارتكب الفحشاء من محرم يقصد أخته وانه لذلك قتله وليس لأن أحداً من أهله قد آذاه بل في سبيل الله .

ما شاك ذا رحْمِـيَ بي شائـك ولا اغـتـدي ذاودج فاتـح
بل في رضـاء الله لما اغـتـدى يمتـح في الـفسـق مع المـاتـح

***

الخ .

وقد فطن علماء « الزيدية » إلى دهاء وحيلة « الخطّاب » فقال الفقيه محمد ابن الحسن الدّيلمي المتوفي سنة ٧١١هـ في كتابه : « بيان مذهب الباطنية وبـطلانه » : « اعلم أن من جملة حيلهم العظيمة ، وتلبيساتهم المليمة ، أنهم إذا عرفوا ان المسلمين قد اطلعوا على كفرهم والحادهم قالوا : من يقول نحن من البـاطنية الكافرة ؟ ألا لعنة الله عليهم ، نحن من الاسماعيلية المؤمنة والذين ذكرتم همّ الباطنية » وهم عندنا كفّار كما قال شاعر الاسماعيلية :

إن صحّ ما قالـوا ومـا شيّـعـوا من الكـلام الفـاسـدِ الفـاضح

ثم أورد بضعـة أبيات من قصيدة الخطاب وقال : « وقد أجمعت الأمة المسلمة ان الاسماعيلية والباطنية فرقة واحدة » [ص ٩٢] .

عقيدة السلطان سليمان وشعره

لقد أطلنا الوقوف مع السلطان الخطّاب وكدنا أن ننسى سليمان ، ومعظم شعـر الخـطّاب إن لم يكن كلّه في مدح آل الرسول والأئمة ، وفي الحِكَم والحقائق على عقيدة نحلته الاسماعيلية وفي الدفاع عن « الدعوة » والرد على المعترضين عليها والمناوئين لها وله قصائد في الفخر والحماسة ولم يمدح أحداً من معـاصريه إلاّ الملكة السيدة بنت أحمد وشخصاً سمّاه « صاحب الرتبة الأسبق » ولعله يقصد به أستاذه الذي تلقّى علمه عليه الذؤيب بن موسى الوادعي ، ومن جامله من الأشراف ؛ والمؤرخون مجمعون على ان كلاً من الاخوين السلطانين الشاعرين كان عالماً حتى عُرفا باسم « مقوليّ قحطان » وقال مؤلف « العيون » : إن « الخطّاب » أجيز في أربعمائة كتاب وركب أيامه في خمسمائة فارس كما أجيز لسليمان في ستمائة كتاب قراءةً ، وركب أيّامه في ثلاثمائة فارس [ص ١٩٥ الصليحيون] .

أما سليمان فيقول الفاطميّون انه كان سنيّ العقيدة ، ويزعم البعض انه درس وتعلم في « زبيد » قاعدة بني « زياد » و « آل نجاح » الذين ناهضوا وصارعوا « القرامطة » و « الصليحيين » ، مذهباً وسياسةً . وكان علماء زبيد وفقهائها إمّا « أحنَافاً » أو على مذهب « الامام الشافعي » .

وللسّلطان « سليمان » قصائد في أخيه « الخطّاب » أيام نشوب الصراع بينهما فيها عتبٌ ولوم وتنديد ، وتذكير بفضله عليه ، وتربيته له ، وتبكيت على فعلته الشنعاء بقتله لأخيهما أحمد ، وشوق وحنين الى « الجريب » . . وقد يقسو ويشتد تبرمه وقد يلين فيقول :

لقد بعث الخطّاب لي ولنفسه ... كما شاء ربي محنة وعذابا

إلى أن يقول :

مضى بامتحان الدّهر لي فيك حجّةٌ ... وسبعٌ ، مصيباً مرةً ومُصابا
فما عطفتك الحادثات ، ولم أجد ... لسالف إحساني اليك ثوابا
وكنت أظن الخير لي منك قسمة ... فأخلف ظني عند ذاك وخابا
فلا الرحم القربى المسوس ثنتك لي ... فتفتح ما بيني وبينك بابا
ولا نعمتي يوماً شكرت ، وقد همت ... عليك وجادت في ثراك سحابا

***

فهو يشير إلى انّه قد أمضى ثمان سنوات متغرّباً وكان سليمان بعد أن تغلّب الخطاب على السلطنة حوالي سنة ٥١٤هـ بعد حروب استمرت بضعة عشر عاماً قد انتزح لاجئاً إلى قومه من بني أفلح ؛ ثم استجار بالأمير علي بن يحيى بن حمزة بن وهاس بالمخلاف السليماني ، ثم استنجد بالملوك من آل نجاح ، وقوّادهم ومواليهم ، وجاور في زبيد حتىّ قامت بينهما الوساطة من قبل بعض مشايخ « حاشد » وبكيل فاستسلم يائساً وعاد الى « الجريب » ، وقتله « الخطّاب » كما تقدّم .

وهو في القصيدة « البائية » يبكّت أخاه بسوء صنيعه معه ومن خلّفهم من نسائه وبناته وطفليه فيقول :

أسامحتني في ظل بيتٍ سكنتُه ؟ ... أأعتبتَ يوماً أم سمعت عتابا ؟

أواسيتني بعد استكانة صفحتي ؟ أأليَنْتَ يا خطّاب منك جنابا ؟
ألم تكشف الضّعفى المساتير بعدما حويت سبيّاً ما لهَنّ نهابا ؟
وكلفتهنَّ المشيَ قد خضبتْ دماً رخائصُ أقدامٍ لهنّ خضابا ؟
كمَنّ بليلات العيون رواجفاً كقنْصٍ ؛ وأسبلْن الشعور حجابا !
اذا ما برزنَ للظهور سمعت ما يقولونَ : كونوا يا رجال قرابا . .
فهم دثرٌ من خلفهنّ ، وقد بنوا بناءً ، بنوه بالحراب ـ وغابا ،
ألم ترع للطفلين بالأخذ منهما ؟ أنلتهما مما جمعت كلابا ؟
ألم تستبح مضنون مالي جميعه ؟ أصدقٌ كلامي ؟ أم أقول كذابا ؟
صدقتُ ؛ ولكن انت ناسٍ لما مضى ؛ ضلالاً لرأيي هكذا ، وسبابا

***

ويظهر انّ « الخطّاب » كان قد حاول إرضاء أخيه « سليمان » فبعث اليه رسالة ـ ربما كانت قصيدة ـ يعرض فيها عليه المصالحة فأجاب سليمان بأبيات يعرب فيها عن رغبته في الصلح والوئام لولا أنه لا يثق بحسن نوايا أخيه ومنها :

إذا ما صفتْ منّي ومنك العقائد تقارب من أحوالنا المتباعدُ ،
ويدنو الذي تبغيه من كل فائت ؛ وسرَّ مُوالينا ، وأرغم حاسدُ ،
ومن لي يا خطّاب بالوقفة الّتي لها منك بالأيمان والصدق شاهدُ
وعندي في كلّ الذين ذكرتهم أمور ؛ ولكن أين أين المساعدُ ؟

***

لك الله إبقاءً ؛ عليّ فانْني لأَخْرُجَ مما قد عنانيَ جاهدُ ،
ولا تعتقد إلّا وفائي فإنني الى كل ما يرضيك والله عائدُ
وسكنّ نفاري واشمزازي ولا تقل : « أراك على الحال الذي أنا عاهدُ »
فبي ؛ وبرأيي تستقرّ استقامة وللامر أركان له وعوائدُ
ولولا جفاء ظاهر منك والذي يراه قريبٌ في الورى وأباعدُ
لكان جوابي بعدما قد بذلتَهُ ركوبي ؛ واني نحو دارك قاصد
ولكن لي نفس إذا ما تشتّتت فليس لها الاّ المداراة قائد !

***

ولعـل « الشـطر » : « اراك على الحـال الـذي أنا عاهدُ » من قصيدة « الخطّاب » التي بذل لأخيه فيها من الوعود ما بذل ، عارضاً المصالحة ، والوئام الذي يسرّ الصديق الموالي ، ويرغم أنف العدوّ والحاسد . . ولكن ما قد جرى منه من الجفاء ، وما قد رآه وشاهده من أعماله وأقواله ضد أخيه الأقـارب والأبـاعـد ، والخوف من الغدر ، وعدم وثوق « سليمان » بأيمانه وصدق وعوده ، يمنعه من الخروج مما هو فيه رغم انه يرغب في ذلك ، ولولاه لكان نفسه الجواب .

السبب المفرق في كل زمان :

وإذن فلا صحّة لما يقول المؤرّخون أن سبب الخلاف بين « الأخوين » هو الاختلاف في العقيدة أو المذهب وأن « سليمان » كان « سنيا » و « الخطّاب » « شيعيّاً » « اسماعيليّاً » ؛ ولكنها « السلطة » والطمع في الحكم ، والاستبداد به ، وذلك ما يفرّق بين الأقارب والاخوة في كل زمان ومكان ، وليس ببعيد عنّا ما حدث بين بني « مروان » في الشام والأندلس ، وبين الأمين والمأمون ، وفي محيطنا اليمني بين أولاد « الناصر » و « الحواليين » وأولاد « نجاح » و « الأمراء الصليحيين » في الفترة التي نتحدث عنها .

والسلطان سليمان نفسه قد شرح أسباب ذلك الصراع الدامي الذي انتهت مأساته بالقضاء على إمارة « آل أبي الحفاظ » في حجور ؛ بل وذكر أن والده السلطان الحسن كان قد حذّره من أخيه الخطّاب ولكنه لم يصغ إلى تحذيره واتخذه سنداً وساعداً ، ! وليس ذلك فحسب بل وتنحّى له عن الامارة راضياً ، وذكر حوادث لا ندري تفاصيلها وليس لها في كتب التاريخ التي بين أيدينا ذكر ولا حديث . . لكن القصيدة لا تشير الى خلاف عقائدي ، ولا تباين مذهبي ، وهو ما يجعلنا نتشكك فيما قاله بعض المؤرخين استنتاجاً أو استنباطا ! يقول سليمان : إذا كان « الخطّاب » يفتخر فليفخر بأنّه لم يقدّر احساني اليه ، فقد أمنته وخان ، وأدبته وربيته فجفا ، وصنته ودافعت عن السلطنة وعنه ومكنته من أسهمي فرماني بها ! وحفظت وصية والدنا في أمانة « الجريب » والدولة ، وقد أخذ لي البيعة من أهل الحل والعقد فحملتها وفيّاً أمينا شريفا ؛ ثم زعم ان والده قد حذره من الخطّاب ، ونبّهه الى خبثه ، وقال انه يرى الغدر ظاهرا في عينيه ، وانه لم يصغ ؛ وقال في نفسه بل هو

أخي وساعدي . ثم كيف يقدم على ايذائه وهو « ابن عجْزَة امه » وابن العجْزة هو آخر الأولاد ، وغالباً ما يكون أحبّ الأولاد الى امه ، فكيف يفجعها ويوري كبدها ورئتها فتموت ، وقد رضع منها وما يحزنها يحزنه ؟! وأشار الى ان الشريف « غانم » قد أشار عليه بالتخلّص منه والقضاء عليه ، وأرسل نحوه خالدا ومحمدا من ثقاته يفاوضونه في ذلك لكنّه نزّه نفسه ، ولجأ الى حلمه ومروّته الذين هما كالطودين لا يتقلقلان . كل ذلك صرح به في خمسة عشر بيتا وهي :

إذا افتخر الخطّاب يوما بفخره ... على الناس أن شرَّ الجزاءِ جزاني
وأن خانني لما إخاءً أمنته ، ... وأدبته مستقصياً فجفاني
وإنّي رميت الناس دوني ودونه ... ومكنته من أسهمي فرماني
حفظت وصاةَ الشيخ فيه لأنه ... غداة دنا منه الحمام دعاني
فقلدني في حفظ ما كان بعده ... أمانةَ من تعنو له الثقلان
فحملها مني وفياً بعهده ... أميناً هِجاناً ينتمي لِهجَان
وقد كان أدرى قدس الله روحه ... بما فيه من خبث ومن شنئان
وحذّرني من غدره غير مرة ... وقال أراه فيه رأي عيان
فلم أرهِ إلاّ قبولا لقوله ؛ ... وقلت أخي بل ساعدي وبناني
وقد كان مع هذا ابنَ عَجْزَةِ (أمه) ... ومهما شجاها ساءني وشجاني
وما كنت بالموري على قتلها به ... خداعاً لها بعد ارتضاع لبان
ومن بعد هذا كله أن (غانماً) ... بفتكي به قد خار لي . . وبداني
وأرسل نحوي (خالداً) ومحمداً ... بذاك وكانا عنده ثقتان
فنزهت نفسي عن قبولي قوله ... وقلت حسامي للعدا وسناني
فإن جئت « خطابا » إليها ؛ فإنني ... رجحت بطوديْ يذبلٍ وأبان

***

ثم مضى يقول كيف يرضى لنفسه الغدر والخيانة اللّتين ارتضاهما « الخطّاب » وهو من نسل ملوك اليمن والدنيا لا تساوي ذلك ،؟ والتفت الى السبب الحقيقي في النزاع بينهما وهو أن « الخطّاب » كان يكثر الانتقاد عليه ويقول للناس لو سلمنا « سليمان » لما بقينا في هذه الرقعة الصغيرة « الجريب » بل لو سّعتُ السلطنة الى « شهارة » حتى « عِيَان » في الجوف ، وصرّح بأنه قد شاور نفسه وقرّر التنازل له وتمكينه من السلطة ليرى هل هو

صادق فيما يزعم أم هو مجرّد هذيان ؛ وذلك ما كان ! وذكر فشلُه وأعذاره بل وكشف لنا أن أخاهما « أحمد » كان قد ناصر « الخطّاب » ضدّ « سليمان » ثم فتك به مستغلاً قتله لاختهما الى آخر القصيدة :

أأرضى لنفسي ما ارتضاه لنفسه ؟ ... نفتْني إذاً منها ملوك يمان
وماذا عسى الدنيا ؟ وأيسر مطعمٍ ... إذا ما أصيب البعض منه كفاني !
وكم مرة قد قال لو كنت سالماً ... سليمان لم أضرب هناك جراني
ودوخت ما بيني وبين (شهارة) ... (ولاعة حتى (الفج) فجّ (عيان)
فقلت: تأخر يا سليمان وانتزح ... إلى بلد تنآ بها ومكان
ومكن له ، وانظر صحيح مقاله ... أعن صحةٍ ما قال أم هذيان ؟
فما كان إلا خلباً برق قوله ... كخفق سراب كاذب اللمعان
فقصّر عما قال شرقاً ومغربا ... وعن شام ما عَنْ حولهِ ويماني
ولم يستبح إلا عبيداً دماؤُها ... كما هو من فوق المذلة باني
ولما رأى من نفسه العجز ذمهم ... بأن قال خانتني رجال زماني
وقال شكا قبلي سليمان مثل ما ... شكوت وهذا ليس بالمتداني
فإن أك من دهري شكوت وأهله ... غداة انتحاني صرفه وبلاني
وكاشفني جهراً رجال عشائري ... وأصْلَتَ كل منهم وأتاني
وقام ابن (جياش) عليَّ وأسعد ... و (غانم) عن زور القسي رماني
ووالي ابن (قصمٍ) غارة بعد غارة ... علي معاً في اليوم يطرداني
وكنت محلاً منك يألف مدبرا ... ويألف منحوسا قليل أمان
ومن صنوك الثاوي بحرمتك التي ... سقا جدبها من حلقه الودجان
غداة تضحي منه في العيد بامرىء ... صفا لك منه مُدَّةً ، وقلاني
فجردت منه في لقائيَ صارما ... فتيقاً دليق الحد غير ددان
فلو كنت ألقى في حياتي فرجة ... وأطلقت الأيام ثنى عناني
وصادفت ما صادفت في مثل هذه الأمور لَبانَ العاجزُ المتواني
فلما رأى تقصيره ردّ عجزه ... على عصبةٍ ما منهم متواني !
أطاعوه فيما لو يطيعون ربّهم ... كطاعته حازوا رياض جنان

***

أسرار الخلاف والصراع :

وإذاً فلم يتنازعا ويتصارعا لأن أحدهما كان اسماعيليا والآخر « سنياً » ، وقد عاشا زمنا في ظلال والدهما ، يقدّر كلّ منهما أخاه ويحبّه ويعلن « الخطّاب » موالاته له كما قرأنا في عدّة قصائد من ديوانه ، ثم طمحت نفس « الخطّاب » الى الاستبداد بالسلطة ، ويظهر انه كان أصغر أولاد أبيه ؛ فبدأ باغراء « أحمد » على سليمان كما يذكر في قصيدته ، ثم حصلت جريمة قتل أختهم في ظروف لا نعلمها ، وتحمّل وزر قتلها « أحمد » فقتله الخطّاب غدراً في وليمة « عيد الأضحى » !

وفي ديوان الخطّاب قصيدة نونية في ثلاثة وثلاثين بيتاً كأنه أجاب بها على أخيه مناقضاً ومطلعها :

أَبـى لي أن أرضـى بسَـوْم هوان ... مكـاني من العـزّ الـذي تريـانِ ؛
وإرخـاص نفسي كل يوم كريهـةٍ ... على المـوت أغـلاهـا على الثقـلانِ

[قال : « الثقلان » على اللغة التي تلزم الألف المثّنى في جميع أحواله] .

ومنها يشير الى قصيدة أخيه « سليمان » :

غد الـنـوم عنّي نافـراً بنـفـوره ... نفـور أمـانٍ عن فؤاد جبـان
وأصـبـح همّي منـه فيّ أَمـارَةٌ ... تُبـينّ للأعـيـان حين تراني
ومـاذاك اني نيْـلَ منّي بطائـل ، ... فيـثـلم حدّي ، أو يفـلّ سنـاني
ولـكـن أتـتـني عن سليـمان نفثـة ... جفـوت لها طيب الكـرى وجفـاني
يعـيّرني فيـهـا بمصرع فتـيـةٍ ... لدى الـروع والخـيـلان يطردانِ
غداة الـتـقينـا بالـدروع وأجلبت ... علينـا الأعـادي والحتـوف دواني
فقلت مجيبـاً حين قال وخـاطـري ... كليـل ولـفـظي عاقـل للسـاني
رويـدك لا تشمت فيا رب وقعـةٍ ... عوان تريـك الحـرب غير عوانِ!
ابحتنـا بها أرض العـدوّ فأصبحت ... قفـاراً وكـانت قبـل ذاك مغـاني
ويـا ربُ رأسٍ قد ضربنا وسُرْبةٍ ... طردنـا ، ولم يُجذَب لنـا بعـنـانِ
ويـا رب مالٍ قد أبحنـا ، ومحـرم ... مصـان رجعنـا وهـو غير مصـان!
وأنـت رخيّ البـال بين معـازفٍ ... وخمـرٍ وطـيـب فائـق وقـيـانِ
ولما جرت هاتـا نطقت تذمّنـا ... معيـنـاً علينـا اليـوم غير معـانِ

ولابـدَّنَـا من أن نثـير بمـن به | تعـيّرنـا إذ ذاك غير مهـان
أيـذهب ثاري أو تطلّ على العـدا | ذحـولي ، وأعـطى للقيـاد زمـاني ؟
وحـولي من سام وحـام عصـائب | تخوض بحـار المـوت كل أوان !
وسـوف ترى صدقـي وتـعلم انني | وفيّ بها دارت به الـشـفـتـان

***

ولسنـا نقـارن بين شعر الأخوين فأحتاج الى القول بأن نفس الخطاب أعـلا ، وبيانه أنصع ، وضرباته أوجع ، ولكن الذي يلفت النظر انه قد أشار الى عنصر جديد من عناصر الصراع الدامي والى سبب من أسباب تنحية « سليمان » عن الإمارة وهو قوله :

وأنـت رخـيّ الـبـال بين معـازف | وخمـرٍ وطـيـب فائـق وقـيـان

والسؤال الذي لم أجد له جواباً هو : لماذا يتحاشا سليمان في شعره ذكر قتل أخيه أحمد لأختهما ؟

هل كانوا « عيانيّين » و « تَصَيْلَحوا » سياسياً !؟

اني لا أطمئن الى القول بأن أسباب الصراع الدامي بين أولاد السلطان الحسن بن ابي الحفاظ الحجوري كانت عقائديّة مثلما كانت بين « الهادويين » و « القرامطة » ، وكلاهما كان يهدف إلى تأسيس دولة لآل بيت عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه ؛ ونحن نعلم ان الخطّاب كان اسماعيلياً « صليحيّا » تدلنـا على ذلك أقواله وأشعاره ، وديوان سليمان أو ما نشره الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي من شعره لا يضمّ كل أشعاره ولا أستبعد أن ممّا حذف منه واسقط فيه مدائح للأمراء الصليحيين وللملكة السيّدة بنت أحمد ، ومؤلفاته لا تزال مفقودة ، وقد أورد العلامة الشرفي شيئا من أشعار « سليمان » في كتابه « اللآلي المضيّة » وذكر معلّقا على الملاحاة بينه وبين « الخطّاب » قصة قتله لأخيه أحمد بحُجَّة قتلهِ لأختهم ، وان ذلك أفزع « سليمان » فهرب من البلاد وكان يغزوه بمن أطاعه من القبائل حتى أدّى ذلك الى خراب البلاد وقـال : « وكـان بين الخطّاب وسليمان مشاقة ومنافسة على الامارة » وقال القاضى محمد الأكوع في احدى تعليقاته على تاريخ عمارة وهو يتحدث عن

الأخوين : « وما منهما إلّا وله عدّة مؤلفات في مذهب الباطنية » [ص : ٢٥١] .

ولا أدري إلى ماذا استند!؟ والى ما يقوله المؤرخون الفاطميون استند الأستاذ العقيلي حين زعم انّ « سليمان كان سنيّ العقيدة » ؛ وان ذلك هو سبب الصراع الدامي بين الأخوين ، وفي بعض أشعار سليمان التي وردت الينا ما يدل على تشيّعه ومحبته لأهل البيت ، وفي القصيدة التي أثبت « العقيلي » بعضها في ديوان سليمان والتي يمدح بها الأمير الشريف « غانماً » ابن يحيى بن حمزة ، ومطلعها :

« قفافا سألا ربعاً عفتْهُ الغمائم »

هذان البيتان : وقد تعمّد الأستاذ العقيلي شطبهما :

ومن مثل أولاد النبيّ وحيدرٍ غيوث بني الدنيا ليوث ضراغمُ
أئمة حقٍ فاضلون همُ لنا الى الله في يوم الحساب سلالمُ

***

والذي اطمئن اليه بعد بحث وتأمل طويلين أن البيئة التي نشأ فيها الاخوان كانت بيئة إمارة وعلم وأدب وأنّ أبوهما الحسن كان علويّ الهوى ؛ يحب أهل البيت حباً لا غلوّ فيه كسائر قبائل حاشد وبكيل وهمدان وخولان ، ولم يكن اسماعيليّاً ولا باطنياً وان كان قد أيّد . . الصليحيين مؤخراً سياسيّاً ليحافظ على سلطنته ويحميها من السلطنات والامارات التي تحدق به ؛ « الأشراف » الذين يحكمون « المخلاف السليماني » و « النجاحيون » في « زبيد » وتهامة اليمن ، و « السادة » أولاد القاسم العياني في « الشرفين » و « الأهنوم » وما صاقبها ، وأحفاد « الهادي » في « صعدة » ، وبني حاتم في « صنعاء » فلما توفي بعد سنة ٥٠٣هـ وتولّى السلطة ابنه الأكبر « سليمان » وكانت الدولتان الرئيسيتان « بنو نجاح » و « الصليحيون » قد ضعفتا بعد قتل « الملك علي محمد الصليحي » ، ووفاة الملك « جياش بنِ نجاح » ظل الوئام والصفاء قائمين بين الأخوين سليمان والخطّاب ؛ فترةً وجيزة من الزّمن حتى كان ما زعمه الخطّاب من خلود « سليمان » الى الملذات ، وكذلك أخوهما الثالث « أحمد » الذي لم يتورّع عن

اقتراف أبشع الفواحش ، وعن قتل أخته ، وتساهل السلطان « سليمان » في إجراء القصاص ، فاندفع « الخطّاب » لتنفيذه بنفسه وغضب « سليمان » ونشب النزاع ، هذا اذا أخذنا بما ترويه وتشير اليه أشعار الخطّاب . . أو حتى اذا صدّقنا ما ترويه أشعار « سليمان » من انه وثق بأخيه « الخطّاب » وجعله ساعده اليمين ثم طمح في الاستبداد بالسلطة ، وبدأ يتقوّل في « سليمان » وينسبه الى الضعف والخمول فآثر السلامة ، وتنازل للخطّاب الى آخر ما سبق تفصيله . وكلا الروايتين لا تشير الى مذهب شيعي باطني ، ولا إلى نِحْلَة سنيّة ، كانت هي سبب النزاع والخلاف والصراع . وبعد أن نشب لجأ سليمان الى « النجاحيين » ، والى « أشراف المخلاف السليماني » . ومال الخطّاب إلى اخته من الرضاعة أيّ إلى « الصليحيين » ! واتصل بأبي ذؤيب الداعي الفاطمي ، واعتنق المذهب ، وتبحّر فيه ، وأعلن الخطبة والولاء للأمام الفاطمي ، كما تنص على ذلك أشعاره ؛ فهو إذاً لم يكن « باطنياً » ايام أبيه والفترة الأولى القصيرة لتولي أخيه سليمان وربّما كان « عيانياً » .

هذا ما تطمئن اليه نفسي وفيه الجواب على أسئلة كثيرة إذ لو فرضنا ان سليمان كما قال الأستاذ العقيلي كان سنياً لأنه درس في « زبيد » و « الخطّاب » كان « باطنياً » لأنه رضع « الاسماعيلية » مع السيدة بنت أحمد لثارت لدينا عدّة أسئلة :

أولا : كيف حدث هذا الاختلاف العقائدي والتباين المذهبي وهما أخوان نشأ في بيئة واحدة وفي منطقة « زيديّة » ؟

ثانياً : ماذا كان مذهب والدهما السلطان الحسن بن أبي الحفاظ ؟ وهل كان له تأثير عليهما ؟ وهل هو الذي وجّه ابنه « سليمان » توجيهاً « سنيّاً » وبعثه للدراسة في زبيد ، ووجّه أخاه « الخطّاب » توجيهاً « باطنياً » وقذف به الى حضن الاسماعيلية ليرضع مبادءها مع « السيدة » الصليحية ؟ ولماذا اختار لهما هذا الانشطار الرهيب ؟ واذا كانت الأخت المذبوحة إسماعيلية فمع من رضعت من الصليحيين ؟! وذابحها أحمد هل درس في زبيد ؟

ثالثاً : كيف حصلت الأخوة من الرضاعة بين الملكة السيدة والخطّاب وهل

هو في سنّها ورضعا من أم احدِهما طفلين ؟ وهذا محال لأنّ مولد السيدة كان عام ٤٤٠هـ ووفاتها سنة ٥٣٢هـ وقد هرمت وجاوزت التسعين وإذا كان سليمان الذي تصرّح أشعاره بأنه الذي ربّى أخاه الخطّاب طفلاً صغيراً أكبر منه بحوالي عشرين عاماً فيكون الخطّاب حين قتله سنة ٥٣٠هـ قد جاوز التسعين ، واعتدى على أخيه وهو في مائة عام وعشرة أعوام وهو ما لا أستطيع تصوّره ولا الاطمئنان اليه ! .

وكلّ هذه التساؤلات لا نجد لها جواباً فيما بين أيدينا من كتب المؤرخين ، وليس أمامنا الاّ شعر « السلطانين » وما يمكن ان نستنبطه في دراستنا للأحداث التاريخيّة والظروف السياسية التي اجتاحت اليمن بعد وفاة الملك علي محمد الصليحي وتمزّقها الى عدّة إمارات ودويلات منها سلطنة « آل ابي الحفاظ » في « حجور » وذلك ما بين عام ٤٥٨هـ وعام ٥٣٣هـ حين قُتِلَ الخطّاب . وفي هذه الفترة لعب أولاد وأحفاد الامام القاسم العياني أدواراً فعّالة ، وحدثت بينهم وبين الصليحيين عدة معارك سواء في عهد حياة المكرّم أو بعد موته ، وقد قامت بالأمر الملكة السيّدة ، وقد كان للشريف جعفر ابن القاسم ولدان هما الشريف الفاضل القاسم بن جعفر والشريف محمد ابن جعفر المعروف باسم « ذي الشرفين » ، ولم يدَّع أيّ منهما الامامة ؛ وقد قيلِ ان ذلك لأنهما كانا يعتقدانِ أنّ عمهما المهدي الحسين بن القاسم لا يزال حيّاً مستورا ! وكانت منطقة نفوذهما في « الشرفين » التي هي من مخاليف « حجور » وفي « شهارة » والاهنوم ، ويناوشان « الصليحيين » في « صنعاء » و « الجوف » و « مسور » وغيرها ، وقد سبق أن الملك الصليحي كان قد أسر الشريف الفاضل وأخاه « ذي الشرفين » في وقعة « الهرابة » سنة ٤٤٨هـ وأكرمهما ، ثم ذهبا باذنه الى مكة للحج وسكنا ديار « خثعم » ولما هلك « الصليحي » عادا ؛ فلماذا لا يكون الشيخ أو السلطان الحسن الحجوري من أصحابهما والمشايعين لهما فلمّا توفى كان أولاده على صلة بهما حتى قتل الشريف الفاضل في الجوف ثم توفى « ذو الشرفين » العياني عام ٤٧٨هـ في « شهارة » وبايع الناس ابنه جعفر بن محمد بن جعفر ابن القاسم العياني الذي كان « آخر من ملك من أولاد الامام القاسم بن علي العياني وفي أيامه ضعفت شوكتهم بسبب الاختلاف فيما بينهم » كما يقول المؤرّخ يحيى بن الحسين في غاية الاماني ص ٢٧٠ جـ ـ ١ ـ

وهنـاك نصّ تاريخي يؤكـدّ ما أذهب اليه قال العلامة العرشي في كتابه « بلوغ المـرام في من تولّى ملك اليمن من ملك وإمام » وهو يتحدث عن السلطنات اليمنية : « الحجوريون هم بنو ابي الحفاظ بن شرحبيل الهمداني الحاشدي الحجوري الحارثي ، والحسن بن أبي الحفاظ الداخل تحت إمرة « ذي الشرفـين » ، وأولاده سليمان والخـطّاب وأحمـد ، واستـولى عليهم الخطّاب وقتلهم بعد مكايدةٍ شديدة بينه وبين « سليمان » ، ومسكنهم بين « جِل » و « الجـريب » وعـاصروا بني الصليحي وبني زُرَيْع وفي أشعارهم ما يدل ، بل يصرّح أنّ رأيهم رأي الباطنية ، وكذا غيرهم من المتقدمين ، أو أنّهم يتقلّبون تقلّب الرياح طمعاً في التملك والارتياح » [ص - ٣٠] .

وقوله : « الحسن بن أبي الحفاظ الداخل تحت امرة « ذي الشرفين » يؤيد ويؤكد ما ذهبت اليه من انه كان « زيديا عيانياً » فالأمير « ذو الشرفين » أيّ صاحب الشرفين - وهما من حجور التي هي بلد واسع وتشمل حجور أبي منصّر ، وحجور الشام ، وحجور اليمن ، وحجور البشرى وبلاد الشرف الأعـلى والأسفل - ينسب اليهما لأنهما كانتا تحت إمرته واسمه محمد بن جعفر ابن القاسم العياني ، وكان من المعارضين للمكرم ، والسيدة بنت أحمد كما سبق ، وكانت حجور بما فيها مخلاف جِلّ والجريب داخلة تحت سلطته ، ويظهـر أنّ الحسن بن أبي الحفاظ تقوّى وانفصل عن « ذي الشرفين » في أواخـر مدّتـه ثم استبد بالأمر بعده أولاده ومنهم من استعان بالصليحيين كالخطاب وأعلن الولاء لهم ولمذهبهم ، أما والدهم فكان زيديّاً « عيانيّا » ، وقد تشكك « العرشي » حتى في « باطنيّة » الخطّاب ، وأضرابه فقال : « أو أنهم يتقلّبون تقلّب الرياح طمعاً في التملك والارتياح » ! وكثيراً ما يحدث ذلك وقديماً قال علي رضى الله عنه ليس مع بني تغلب من « النصرانية » الا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، ووصف عبد الحكيم عامر بعض مشايخ اليمن أثنـاء الحـرب الأهلية فقـال « جمهـوريون في النّهـار حين توزّع « القَرانيف » ، وملكيون في الليل حين يستلمون « الذهب » !

ثـار عثـمـان لمروان مجاز ودم السـبط أثـار الأقـربـونْ !
مكـر سوّاس على الـدهـماء جازْ ورعـاةٍ بالـرعـايـا يلعـبـونْ !

كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي .

الدليل الشعري :

ذلك هو الدليل التاريخي الذي نستنبط منه ان إبن أبي الحفاظ لم يكن وارث سلطنة بل كان أحد « العصاميّين » الذين تساعد الظروف مواهبهم ، وتهتبل مواهبهم الظروفَ السانحة فيعملون شيئاً لأنفسهم ولقومهم فيكونون شيئاً مذكورا ، وانه كان مثل سائر أبناء منطقته « حجور » الشام واليمن والشرفين عقيدة ومذهباً في القرن الرابع الهجري ولم يكن اسماعيلياً ولا باطنيا ، ولكن حُمُق وتشتّت « ورثة النظرية الزيدية » من أحفاد « الهادي » وأولاد « القاسم العياني » قد دفعه الى مجاراة الموجة « الصليحية » ؛ ثم بعد أن اختلف أولاده على السلطة ـ كما اختلف ورثة النظرية نفسها ـ ركب « الخطّاب » دولاب الهوس المهدوي كما ركبه من قبله « الحسين بن القاسم العياني » وكان ما سبق أن شرحناه ! . وأنا مطمئن الى ان ذلك ما كان ؛ وقد لا يرتاح غيري الى هذا الاطمئنان ولا مُشَايَحَة ولا غرابة . . غير ان الدليل الشعري ومن كلام السلطانين ربما كان أقوى حجة وأنصع بياناً ، وقد لا يترك مجالاً لشكٍ يخامر ، ولا مَسْرباً لريبةٍ تُقلق ، وقد أثبت المؤرّخ الشرفي في كتابه « اللآلي المضية » قصيدتين للأخوين السلطانين توجد أبيات منها فيما تبقى من ديوانهما :

يقول الأستاذ العلامة محمد بن أحمد العقيلي ناشر ومحقق « ديوان السلطانين » « وقال ـ أيّ السلطان سليمان ـ مجيباً لجعفر بن محمد الشهاري وقد كتب اليهم شعرا يهددهم فيه ويتوعّد :

عليك سلام طيّب النشر بعده ... سلام ، وكأْسٌ للمنون دهاقُ
بأيدي رجال مصلتين كأنهم ... وأنت هلال في السّرار محاقُ
رجال شروا بالأمس ما كنت بعته ... وقدت الى حوض المنون وساقوا
أأنكرت زأر الأسد ما حول « تَمَّةٍ » ... ومنك خوارٌ عندها وزعاقُ
ضراغم غاب من «حجور» و «قادم» ... بأيديهم بيض جُلِيْنَ رقاقُ
فطلّقْ ثلاثاً يا أبا الفضل بتّةً ... « شهارة » اذ قد حان منك فراقُ
فان سيوفاً أولغت في دمائكم ... بها ولهٌ شوقاً لها وشهاقُ
وخبّرني ظنّي بأنك راجع ... الى « الرس » ملويٌّ عليك خناقُ
أبت أن تزكىّ ماها لك حاشدُ ... وضاق فِنا همدان عنكَ وضاقوا

***

إلى آخر الأبيات وهي الى النظم الركيك أقرب منها الى الشعر الجيّد ، ولم يثبت في الأصل الشعرَ المثير والذي بعث به الأمير جعفر من شهارة مهدداً متوعداً للسلطان سليمان وأخيه ، ونحن نعلم ان الأمير جعفر قد بويع بالامارة في « شهارة » بعد وفاة أبيه « ذي الشرفين » سنة ٤٧٨هـ ولا يزال السلطان الحسن على قيد الحياة وقد أغتيل الصليحي الكبير وتمزّقت اليمن الى دويلات وسلطنات ، ويظهر ان السلطان الحسن الحجوري قد ظلّ على وئام مع الأمير جعفر العياني ويجبي إليه زكاة بلاده فلما توفى حوالي سنة ٥٠٤هـ أعلن ابنه سليمان استقلاله ، واستبد بالأمر فبعث اليه الأمير جعفر بأبيات يتهدّده ويتوعّده محاولاً استعادة هيبة إمارتهم التي ضعفت بسبب خلافات الأمراء من آل العياني ، فأجاب عليه سليمان بتلك الأبيات ، وكان لا يزال في صفاء ووئام مع أخيه الخطّاب الذي بعث هو نفسه بردّ شعري على الأمير جعفر ، وكان الخطّاب لا يزال في عنفوان شبابه في حوالي الرابعة والعشرين ، وقد مزج في جوابه العتاب بالسخرية ، والتذكير بودّه القديم ، وصنيعته معه في احدى « المعارك بينه وبين الصليحيين » ، والتبكيت له على الاقدام بالتهديد والوعيد وهو في ضيق وخلاف مع ذويه ، ولا يستطيع أن يُصَدّق قولَه بفعله ، ويسخر كيف أصبح الهاشميون لا يقدرون العُرف ، ولا يرعون الود القديم ، وهو كعادته أبرع تعبيرا ، وأوجع سخرية ، وأنصع بياناً من أخيه سليمان وهذا ما تبقى لنا من قصيدته :

حلفت برب المعْلِمين رمت بهم ... فجاج المـوامي محرمين نياقُ
ومـاضم جمعا والمحصّب من منى ... وقـادوه من هدى اليـه وسـاقـوا
لقد زهدت في العرف أبناء هاشم ... وسـاء بهم للأصطناع مذاق
فما ليدٍ تُسدى اليهم صنيعة ... مكافأة الاّ أذى وشقاق !
أفكّ ـ ولم أمنن يدي يوم « تمّةٍ » ... لجعفر من أسر المنون وثاق
وأُرخيَ عنه والغلاصم ضيقةٌ ... بحوباه من دون الانام خناق
فأضحى منيراً بعد أن كان كاسفاً ... وتمّ ، وقد حط التمامَ محاق
ويرعى له حسنُ اعتقادي جدودَه ... وللدين فوقي والولاء رواق
فكان مكافاتي لديه تهدّدي ... وأحواله عما يقول دقاق !
وشر مقال المرء ما كان حاله ... ينافيه اذ بعض الكلام سياقُ !
وما أنصفتني هاشم ، ومذاقتي ... لها دون طعم النحل حين يذاق

على أن ما القاه مذ كنت منهم حميمٌ إذا ما ذقته وغساق ،
توسط بين الغور والنجد منزلي قريباً لهم مالي بذاك خلاق
لهم كل يوم أسهم في عداوتي تراش على حبيّ لهم وتُفاق

***

أجعفر هل كان التهدّد عنوة لنعماي لما أن مننت صداقُ ؟
ألا ربما زفّت الى غير كفؤها عروس ففاجاها لديه طلاق
فهل علمت بطحاء مكة والصّفا ومصر بما كافأتني وعراق ؟
سلام على آل الرسول فانهم سبيل لادراك النجاة وفاق
شموس منيرات ، هداة أئمةٌ كرام ، وقول المدعين نفاق
إذا ابتدر الناس المعالي شدت بهم الى نحوها قبّ البطون عتاقُ
خوارج بالسهم المعلّى نحورها إذا جال نحو المكرمات سباقُ
وكم طالب مسعاتهم فتقامرت به قدمٍ من دون ذاك وساق ؛
وهل أدركتْ شأو الفحول تخمّطت هديراً بترجيع الحنين حِقاق ؟؟

***

فهو لم يسف في تقريعه ، ولم يتنصل من ودّه العميق ، وان كان قد بث شكواه وسخر ، وبيّن له ان المبتدىء الذي لم تحنكه التجارب هيهات ان يدرك شأو الفحول ولو تكبّر وتجبّر وأظهر الغضب في تخمّطه وهديره ! .

ومما يؤكّد ما ذهبت اليه من أن « الخطّاب » لم يرضع « الاسماعيلية » في بيئته ولا في صباه وانه كان كسائر أسرته وبني مخلافه « حجور » من الموالين للأئمة أبناء « الهادي » ثم أبناء وأحفاد « القاسم العياني » . . أنّ التاريخ لم يذكر أن والدهم « الحسن » قد أعلن ولاءه رسمياً للخلافة الفاطميّة ، وخطب في الجمعة للمستنصر أو المنصور الحاكم بأمر الله في مصر ، وكشف قناعه مجاهراً وأظهر « سكّةً » عليها اسمه ، ولا عمل ذلك خلفه « سليمان » ولو ان ذلك قد كان لما فاخر بذلك الصنع « الخطّاب » في قصيدته الرائية وقال :

أموالا تناحَقّت لديك نصيحةٌ حقيقة أعلامٍ بغير تماري
وما كان من كشف القناع بمذهبي ، وأنيّ لم أخش العدا فأداري
خطبت لمولانا وأظهرت سكّةً عليها اسمه طارت بكل مطار

اخلاص الخطّاب واستقامة سلوكه

لا شك ان « الخطّاب » قد أخلص للمذهب الذي اعتنقه عن طريق استاذه الداعي الذؤيب بن موسى الوادعي ، وأعانه على التعمّق في شعاب الباطنيّة وأغوار فجاجها انه كان « عيانياً » ، وصادقاً في محبته لأهل البيت ، وإذاً فنحن حين ننفي انه قد نشأ « باطنياً » ونستبعد الاشاعة التي تقول انه رضع مع الملكة السيدة بنت أحمد ، ونرجّح ان « الرضاعة » هذه أو تلك الأخوّة كانت مجازية . . يقصد منها « الرضاعة المبدأية » و « الأخوة المذهبية » كما قال بعض المؤرخين فنحن لا ننكر انه قد أصبح علماً من أعلام الفكر الفاطمي ، وداعية من دعاتهم ، ولكن أصل تربيته « الزيدية » أو العيانية » قد عصمه من التورّط في « الاباحية » التي يصم بها « المؤرخون » غيره من أتباع المذهب الباطني ، كما أنّ أحداً لا يستطيع أن يرمي الامام المهدي الحسين بن القاسم العياني بالرغم من انه قد قيل انه ادعى المهدوية ، وزعم انه « المنتظر » ، بالانحلال الخلقي ، والسلوك المشين ، والخروج على المظاهر الشرعية بالاستهتار والفسوق كما رموا غيره من الاسماعيليين ، وأتباع وزعماء « الباطنية » ، وقد عرف « الخطّاب » بالزهد والورع والتقوى منذ نشأ حتى أغتيل بسيوف وخناجر أولاد أخيه .

وقصيدته « الرائية » التي أوردنا منها تفاخُره بالمجاهرة ، وكشف قناعه ، واعلان الخطبة لمولاه ، وطبع السكة باسمه فَرْدَةٌ في بابها ، وقل أن نجد لها شبيها في تاريخ الأدب العربي ؛ انها قصيدة مذهبية ، كأنها تقرير سياسي رفعه الى الملكة السيدة بنت أحمد بلغة الشاعر الفحل ، والداعية المخلص ، معبّراً عن مشاعره ، ومصوّراً ظروفه السياسية والاجتماعية ، ومفاخرا بما قام به من أعمال ، ومستنجداً ومستنصرا ، غير هياب ولا مُجَمجم ، ولعلها أحسن ما نختتم به الحديث عن شعر السلطانين : قال يخاطب الملكة أروى :

حرامٌ عليَّ النَّومُ غيرَ غِرارِ ... يُلِمُّ بجَفْني بعد طول نِفارِ
ويَسْلُ على نفسي السلوّ إلى مدى ... أنالُ به حقّي وأُدْرِكُ ثاري
وأُظْهِرُ أَعْلام الهُدَى مُسْتَنِيرَةً ... أَشِعَّةُ أَقْمارٍ لها ودراري
وأُعْلى منار المُؤمنين ودينَهم ... بهدمي من الفُجّار كلَّ منارِ

وأُظْهِـرُ للمنصـور مولاي دَعْـوَةً ... مُوطَـدةً في مسكـني وقَـراري
وأَكْشِفُهـا جهْراً بغَير تَستُّرٍ ... وأُعلنها كَشْفاً بغير سِرار
أَمِثْـلي يُلْهِيـه فَيُلْهَى بظَبيةٍ ... وتَرنّيمُ أَوْتـارٍ وشُرْبُ عُقارِ
ويـرضى بما يرضى به من معيشةٍ ... من النـاس في دنيـاه كلُّ حِمارِ
سأَركبهـا سِيساء عاصيةَ القَرَى ... وأَكشـف داجي لَيْلها بنهارِ

***

وأَضربها من عَزْمَتي بصوارمٍ ... وأُضرمها من هِمّتي بنِيار
فما أَنا إلا السيف هزَّني القضا ... وقد أَمْهَت الأَيّامُ عزم غِراري
وأَوْمَتْ على أَعداء آل محمّدٍ ... يَدُ الله مني في المضارب هار
فمن مُبْلغ مولاتنا ابْنَةَ أَحمد ... نهايتيَ القُصْوى وقُطْبَ مَداري
سلامي وإلمامي وزاكي تحيّتي ... وإنْ بعُدَتْ داري وشَطّ مَزاري
أَمولاتنا حَقَّتْ لديك نصيحةٌ ... حقيقةُ إعلامٍ بغير تَماري
وما كان من كَشْفِ القِناعِ بمذهبي ... ولكنِّ لم أَخْشَ العدا فأُداري
خَطَبْتُ لمولانا وأَظهرتُ سكَّةً ... عليها اسمه طارَتْ بكلْ مطار
لدى معشرٍ حَبْلُ الضلالة عندهم ... مُغارٌ وحَبلُ الدين غيرُ مُغار
ثلاثة أَصْنافٍ أَباضٍ وناصبٍ ... لديَّ وزيديٍّ أَحطَنَ بداري
ضربتُهُمُ بعضاً ببعضٍ كأَنّما ... أَصُكُّ حجاراً منهمُ بحجارِ
وأَلْبَسْتُهم من بعد خلعي ما اكْتَسَوْا ... من العِزِّ ثَوبَيْ ذِلّةٍ وصَغارِ
وفارَقْتُ أَولادي وأَهلي وما حَوَتْ ... عليه يدي من فِضّةٍ ونُضارِ
أُحاولُ وَجْهَ الله لا شيءَ غيره ... أُحاولُ في سِرّي به وجَهاري
ورُمْتُ رضَى المنصور فيما أَتَيْتُهُ ... إذا فارَقَتْ دُرِّي قشورَ مَحاري
فهل لي يا مولاتَنا منك عاضِدٌ ... مُعِينٌ به يُضحى زِنادَى واري
أَمولاتنا لا تتركيني بقَفْرَةٍ ... وحيداً لأَعداءٍ تروم دماري
وقُومي بأَمْري والْحَظِيني بلحْظَةٍ ... فلَحظُكِ غادٍ بالسعادة ساري
فلي غرَضٌ لابُدَّ لي من ركوبه ... بلا رقبةٍ مني ولا بحِذار
سأُمْضي له عزمي فإمّا منيّةٌ ... تحينُ بفَكِّ من وثاق إساري
وإمّا غَدَتْ لي دعوةٌ آمريّةٌ ... بها وإليها نِسْبتي وشِعاري

***

وتأمّل تصويره لمن يحدق بسلطنته التي من أجلها قَتَلَ أخويه :

ثلاثة أصناف : « أباض »، و «ناصبٍ» لديّ و «زيـديّ» أحـطن بداري
ضربتـهـم بعـضـاً ببـعض كأنّـما اصـكّ حجـاراً منهـم بحجـارِ !

وهـو يقصـد بالزيدي ـ أحفاد الهادي في « صعدة » و « العيانيين » في « شهارة » و « مسور » و « الشّرفَيْنْ » ، وبالناصب « النجاحيين » ومواليهم في « زبيد » ويُطلق اليمنيون لفـظة « النـاصبي » على من لا يقول بحصر الامامة في أولاد الحسنين رضى الله عنهما ، ويظهر ان المبدأ « الأباضى » كان قد بدا يسري من « حضرموت » الى قلب اليمن في القرن الخامس الهجري .

هذا وأرجّـح بعـد تأمـل وبحث طويلين ان سليمان ولـد حوالي سنـة ٤٦٠هـ /١٠٦٨ م واغتيل عام ٥٣٠هـ /١١٣٦ م وان ولادة الخطاب كانت حوالي سنة ٤٧٥هـ وقتل عام ٥٣٣هـ /١١٣٨ م والله أعلم .

الخطاب العالم :

سبق أن نقلت ما قاله مؤرخو الدعوة الفاطمية من أن الخطّاب كان عالماً وانه قد أجيز له في أربعمائة كتاب كما أجيز لأخيه سليمان في ستمائة كتاب ؛ لكن شيئاً من آثار سليمان العلمية لم تصل الينا وليس غير « ديوان شعره » ولذلك فلا نستطيع ان نتحدث عنه كمؤلف وعالم ولا نستطيع ان نجزم هل مارس التأليف والكتابة أم لا ؟ .

أمـا السلطان الخطّاب فقد حفظت مؤلفاته في مكاتب « أهل الدعوة » ورأيت بعضهـا في مكتبة الدكتور حسين الهمداني بالقاهرة ، ومعظمها في علم التأويل والحقائق وقد تأثر في بعض أبحاثه برسائل اخوان الصفاء ومن كتبه المشهورة ١ ـ منيرة البصائر و ٢ ـ رسالة النفس ـ و ٣ ـ رسالة أعجاز القرآن و ٤ ـ رسالة النعيم ـ وهي آخر مؤلفاته وقد اغتيل ولما يكمل تأليفها [وانظر ص ـ ٩٥ من مصادر الفكر للحبشي والصليحيون للدكتور الهمداني ص ١٤٥ ـ ١٩٥ ـ ١٩٩ الى ص ٢٤٩] .

رأي الخطاب في «إعجاز القرآن» :

ويقول الخطّاب ان اعجاز القرآن لا ينحصر في بلاغة بيانه ، وفصاحة وجزالة ألفاظه فقط ، بل ومن حيث المعنى ، اذ لو كان اعجازه يقتصر على الكلمات وفصاحة الألفاظ وبلاغة الأسلوب فقط ، لما قامت به حجّة على العجم لأنه أنزل بلسان عربي مبين ، والرسول عليه الصلاة والسلام أرسل للثقلين ، ولكافة البشر وليس للعرب فقط ، ولذلك فلا يخلو القرآن الذي هو معجزة الرسول وآيته ، من أن يكون فيه ما يبهر العجم بمعانيه ، ويقوم مقام الجزالة والفصاحة والبلاغة ، التي بهرت العرب لتكون معجزة القرآن جامعة لكافة الناس .

مناجاة :

ولعل خير ما أختتم به حديثي عن الخطاب السلطان العالم الشاعر الفارس الجبار هو هذه المناجاة الرائعة :

يا عالم الغيب منّا والشهادة يا ... باري البرية تركيباً وتصويرا
شهدت أنَك فرد واحد صمدٌ ... شهادة لم تكن مَيناً وتزويرا
وجهتُ وجهي في سري وفي علني ... اليك حمداً وتهليلاً وتكبيرا
عبادة هي عين الحق خالصةً ... وكان ذلك في القرآن مسطورا

***

سليمان الشاعر الغَزِل

ذلك ما يمتاز به شاعر الفاطميين في اليمن وداعية الصليحيين ، والذي قالوا انه كان « باطنياً » فاسد العقيدة ! أما أخوه « سليمان » فقد كان شعره أنسب من شعر أخيه ، ويستنتج دارسه منه انه كان نديم كأس ، وصريع غواني وخدن وتر وعود ، وزير قيان ، وان إتّهام أخيه له بقوله :

وأنت رخيّ البال بين معازفٍ ... وخمر وطيب فائق وقيان

لم يكن رجماً ولا افتراءً ، وانك لتظن أحيانا وأنت تقرأ أو تسمع شعره أنك تسمع أبا نواس أو مسلم بن الوليد .

وإذاً فالسلطان سليمان يتفوق على أخيه في شعر اللهو والمجون والنسيب والتشبيب ووصف ساعات اللذة والطرب واللهو ، يقول مجارياً لسينية أبي نواس المشهورة بل مغيراً على بعض معانيها :

وآنية من فضةٍ صورت لنا ... تماثيل خيل شزّب ورجال
ورسم انو شروان في الدست جالسٌ ... كما كان في دنياه ناعم بال
« فلو رُدّ في كسرى بن ساسان روحه » ... لجاذبني فيها أخصّ خلالي
بنينا علينا بالمدامة رتبةً ... مكلّلةً حافاتها بلأل

***

ويقول في أخرى يمدح بها مَنَّ الله الفاتكي :

يا غزالاً مهما قربتُ اليه ... زاد بعداً وازداد عجباً وتيها ،
ما كشفت القناع عن وجهك الأَبلَج إلّا ... لمهجتي تستبيها
نحل الجسم ؛ ذابت النفس ، هل أنت ... بوصل معجّل محييها ؟
بحياتي عليك قم واشرب الرّا ... ح دراكا ثلاثة واسقنيها !
في الحشا حرقةٌ ولثم ثناياك ... وترشاف ريقها يطفيها
كم فتاة بيضاء كالشمس قد أنسيتها ... برَّ أمها وأبيها .. !
محضتني الوداد منذ التقينا ... ثم لم تلتفتْ الى عاذليها

***

وقال يصف مجلس انس :

كم ليلةٍ بتنا معاً في غرفة ... جدرانها مستورة بستوره
نتبادل الراح السلاف وعندنا ... ما نشتهي من مسكه وبخوره
وتفوح مجمرنا ويملأ كاسنا ... ونعاف عند الشرب من تقديره
والآس والأترنج والتفاح منثور الشذا ... بسريرنا وسريره
وينيلني من ثغره ما أشتهي ، ... واشمٍ طيب إزاره وشعوره
يا حسنه يبكي وقد شاب الدجى ؛ ... جزعاً لفرقتنا وخوف عشيره
وسهيل فوق الماء يطفو غاربا ، ... والديك يزعق منذراً بنفوره
فكأن وجنته وفيها دمعه ... ورد عليه الطلّ في تقطيره

***

وهذا ولا شك نوع من الشعر لا يجيد صنعه أخوه الخطاب ومن طرائفه :

خلعت عذاري قبل شيب عذاري … وأرخيت في لهو الشباب ازاري
وأسخطت عذّالي وأرضيتُ مسعدي … وتابعتُ غيّي واجتنبتُ وقاري
وما زلت من ام الوليد صبابة … صريع غرام أو رهين إسارِ
تبدّت لنا كالشمس من تحت حالك … فقلت أليل في بياض نهارِ ! !
بنفحة داريّ ، ومقله شادنٍ … وخطرة نشوان بكاس عقار
رنت فانطوى قلبي على مستكنة … من الوجد فيها سكرتي وخماري
خليليّ إن البين لا يرحم الفتى … أقلّا ملامي فالأمور جواري
تعاديني الأيام حتى كأنّما . . … يطالبني صرف الزمان بثار :
وحتى متى ؟ والبؤس ليس بمنقضٍ … اغالط دهري تارة وأداري ؟

***

ولا ندري هل قد تعمد أخوه « الخطاب » مناقضته والتعريض به عندما أنشأ قصيدته التي مطلعها :

حرام عليّ النوم غير غرارِ … يلمّ بجفني بعد طول نفار !

وانه قد عناه بقوله فيها :

أمثلي يلهيه فيُلهي بظبْية … وترنيم أوتارٍ وشرب عقار ؟
ويرضى بما يرضى به من معيشةٍ … من الناس في دنياه كل حمارِ ؟ !

ومن نسيبه الرقيق قوله :

يا بأبى من وصلته فأبى … وصلي ، فلم أقض منه ما وجبا
ظبى من الانس قد كلفت به … ولم أزل عاشقا مهىً وظبى
فما لقلبي عذلته فأبى … وقلت عنه انقلب ؛ فما انقلبا ؟
معسّل الريق والرضاب ، فما … يخشى الضنا من لريقه شربا
غضّ الصبا لو عصرت وجنته … لذاب منها النعيم ، وانسكبا

***

ومن تشبيبه الذي لا يحسن صياغته أخوه قوله :

قولوا لمن صدّ بعد ما وصلا … وجار في حكمه وما عدلا ؛

وخــان ودّي وقــد وثــقــت بــه ... يا بئسَ واللهِ بئس ما فعـلا !
أطـاع قول الـوشـاة إذ عذلـوا ... فيّ ؛ ولم أرض فيـه من عذلا !
كم ليـلةٍ زرتـه على عجلٍ ... متـزراً بالـظلام مشـتـمـلا . .
حتـى إذا جئتـهـا وقـد هجعت ... حراسهـا ، والـرقيب قد غفـلا
قرعـت باب الـفـتـاة قرعـة ذي ... عقـل أريـب . . فأقبلت عجـلا
تسحب في الأرض فضـل مئـزرهـا ... لم تستـطع ان تضمّـه خجـلا . .
قالت : سلام عليـك ؛ قلت لها : ... أهـلاً وسهـلا ، وقيتِ كل بلا
ثم اعتـنـقـنـا فذقت من فمهـا ... صهبـاء تحكي بطعمهـا العسـلا
وبـات لي نحـرهـا وسـاعـدهـا ... مهـداً ، وبـاتـت تعلّني القُبلا
أضـمّـهـا تارةً ، وتُـلحِـفْـني ... قدّاً كمثـل القضيب معتـدلا ،
هيفـاء ترخي على مناكبهـا . . ... وحفـاً من الشعـر فاحمـاً جثلا
مصقـولـة العـارضـين خرعبـة ... بسحـرهـا روت طرفهـا كُحـلاَ
تسـمـع للحـلْي في منـاكبـهـا ... ونحـرهـا عنـد سيرهـا زجلا !
اقـسـمـتُ لا حلتْ عن مودّتهـا ... ما برحـت لا تريـد بي بدلا . .
ولا تبـدّلـت غيرهـا أبـداً ... حتـى ألاقـي بحبـهـا الأجـلا !
وان يمـتـني الهـوى ؛ فرب فتـى ... قبـلي من الـعـاشـقـين قد قتـلا

***

ومن شعره وهو غريب لاجىء في الحنين إلى بلده « الجريب »

اذا الله عم الأرض منـه برحـمـةٍ ... فلا فات أرضـاً بالجريب نصيبهـا
بلاد تسـاوى صيفها وشتاؤهـا ، ... ونيـســان كانـون بها ، وأبيبهـا
غزيـرة انهارٍ تفيض ميـاهـهـا ، ... وغـير حرور حيث كان قليبهـا
وأعـذب أرض الله ماءً لشـارب ... وخصّ بها برداً وطيبـا « جريبهـا »
تذكـرتُهـا ؛ ذكـر البغيّ شبابهـا ... وقـد حال عمّا تبتـغيـه مشيبهـا
وذكـرنيـهـا جذوةٌ في سحـابـة ... من الـبرق يعلو مستـطيراً لهيبهـا
فيـا ليـلة ما كان أطـولهـا على ... أخـي مقـلةٍ تجرى بدارا غروبهـا

***

دولة بني زياد وعبيدهم وعبيد العبيد .

وللسلطان « سليمان » أبيات لعله كتبها الى الجارية المغنية « عَلَم » التي

كانت في ملك الوزير أنيس الفاتكي فلما قتله منصور بن فاتك ابن جيّاش واصطفى أمواله وحريمه صارت « عَلَم » إليه واستولدها ولداً يُدْعى « فاتكاً » وقد اشتهرت في نفس الفترة التي كان سليمان لاجئا أثناءها في زبيد ، ولعلها « قصيدة » ولكن ناشر ديوانه الاستاذ العقيلي لم يثبت منها غير خمسة أبيات مطلعها :

سقاني فراقي لكم يا عَلَمْ كؤساً بجسمي منها ألَمْ

ولعل لها بقية ، ولم اذكرها لأنها مما يختار ويُنْتَقى ولكن لأتخذها ذريعة للحديث عن الحياة الاجتماعية التي كانت زبيد تعيشها أثناء حكم « النجاحيّين » ولا سيما بعد أن توفى جيّاش ، واختلف أولاده على الحكم والأمر ، واستولى على السلطة عبيدهم ووزرائهم « الفاتكيين » ، وساد اللهو والعبث والفساد الخلقي ، وانتشر وباؤه بها أكثر مما انتشر ببغداد في اسوأ عهدوها المجونية .

ولكني قبل ذلك سأوجز كيف تكونت دولة بني زياد وكيف وزعت السلطة في زبيد للزياديين الامارة ، ولبني خلف الوزارة ، وللتغلبيين بني عقامة القضاء طيلة ثلاثمائة وخمسين عاما ، انتقلت أثناءها الامارة من بني زياد الى عبيدهم بني نجاح والوزارة إلى عبيد العبيد « الفاتكيين » !

في عام ١٩٩هـ / ٨١٥ م أُتيَ الى المأمون بن هارون الرشيد بقوم من بني أمية ، فانتسب أحدهم إلى عَبيد الله بن زياد بن أبيه وانتسب آخر الى سليمان بن هشام بن عبد الملك وانتسب رجل معهم الى بني تغلب . فقال المأمون أما الأمويّان فيقتلان وأما التغلبي - وكان اسمه محمد بن هارون فيُعفَى عنه رعايةً لأسمه واسم أبيه ! فقال محمد بن زياد : ما أكذب الناس يا أمير المؤمنين ؛ انهم يزعمون انك حليم كثير العفو متورع عن سفك الدماء بغير حق ؛ فان كنت تقتلنا على ذنوبنا فانا لم نخرج عن طاعة ، ولم نفارق في بيعتك رأي الجماعة ، وان كنت تقتلنا عن جنايات بني أمية فيكم فالله تعالى يقول : ﴿ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى﴾ » فاستحسن المأمون كلامه وعفى عنهم جميعا . وكانوا أكثر من مائة رجل وأضافهم الى وزيره « ابن سهل » . . . وفي سنة ٢٠٢هـ ورد كتاب عامل اليمن بخروج « الأشاعر » و « عك » عن الطاعة فأثنى « ابن سهل » علي الزيادي والمرواني

والتغلبي عند المأمون وأشار بتسييرهم على رأس قوة تأديب إلى اليمن فسيّر محمد بن زياد أميراً وابن هشام وزيراً والتغلبي قاضيا شرعيا ، وظل بنو زياد وذرية « المرواني » ومماليكهم يتوارثون كَتَرِكةٍ شرعية الامارة والوزارة والقضاء في زبيد حتى ثار « ابن مهدي » ، واحتل « زبيد » عام ٥٥٤هـ والتهم الجميع .

هذه هي بداية « الزياديين » ، وقد تولى الأمر بعد وفاة محمد بن زياد سنة ٢٤٥هـ ابنه ابراهيم الذي توفي عام ٢٨٧هـ وقام بالأمر بعده ابنه زياد ابن ابراهيم ثم أخوه أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم الذي طالت مدته وتمزقت مملكتهم في أيامه واستولى علي بن الفضل في أيامه عدة مرات على زبيد وحين توفي سنة ٣٩١هـ خلّف ابنا صغيراً تولت أخته تربيته وقام بالأمر له مولي من موالي أبيه يسمى الحسين بن سلامه وكان شهماً ذا سياسة فاسترجع أكثر ما سلب ، ولما توفي عام ٤٠٣هـ انتقل الأمر الى طفل زيادي كفلته عمته وعبد حبشي من عبيد الحسين بن سلامة يُسمّى مرجان وكان يملك عبدين احدهما « نفيس » والآخر « نجاح » ؛ ثم ان « مرجاناً » بالتآمر مع « نفيسٍ » في غيبة لنجاح في المهجم قبضا على ابن زياد وعمته ، وبنيا عليهما جداراً وهما قائمان يناشدان « نفيساً » الله حتى ختمه عليهما ، في سنة ٤٠٧هـ وكانت بذلك نهاية دولة بني زياد .

ولما بلغ « نجاحاً » الخبر وأنّ « مرجاناً » و« نفيساً » قد فعلا ما فعلا استنفر الناس وقصد زبيد في جيش جرّار ، ونشبت حرب ضروس انتهت بقتل « نفيس » ، ولما دخل « نجاح » المدينة سنة ٤١٢هـ قبض على « مرجان » وقال له : ما فعل مولانا ومولاك ؟ ارني الجدار الذي عُمّر عليها . فأراه فاستخرج الجثتين ، واستدعى بمرجان وهو حي وبجثة نفيس ، ووضعهما حيث كان ابن زياد وعمته وختم الجدار عليهما وبدأت دولة « بني نجاح » .

واغتيل « نجاح » بالسم بتدبير من الملك علي محمد الصليحي كما ذكرنا سلفاً ونشب بينه وبين أولاده « معارك » ، و« سعيد الأحول » ، وأبي الطامي « جياش » ما عرفناه وشرحناه ، ولما مات « جياش » سنة ٤٩٨هـ قام بالامر ابنه « فاتك » حتى توفي عام ٥٠٣هـ فنهض ابنه « المنصور »

الذي اصطفى وتملك الجارية « عَلَم » ، وعارضه أعمامه ولجأ البعض منهم إلى « الصليحيين » والبعض إلى « الحجوريين » واستمروا في نزاع وكان آخرهم الداعر فاتك بن محمد بن فاتك بن جيّاش الذي قتل عام ٥٥٣هـ / ١١٥٩ م وزالت به دولة بني زياد وعبيدهم وعبيد العبيد .

[وانظر التفاصيل في « عمارة » و« الجندي » و« العرشي » و« الشماحي »] .

البيئة والحياة الاجتماعية :

قلنا ان الفساد واللهو والعبث قد ساد دولة هؤلاء المماليك ، واننا إنما استعرضنا الموجز التاريخي لكي نتحدث عنه ، ولعل شاهد العيان المؤرخ والشاعر عمارة خير من يحدثنا عن ذلك ، وقد تحدث عنه في مناسبات شتى أثناء كتابه « المفيد » وسنحاول إيجاز بعضها .

يقول : « ومن جملة الوزراء بعد أنيس الفاتكي الشيخ منّ الله الفاتكي وأفعاله مقسومة له وعليه ، فأما الذي له فالكرم الباهر والشجاعة والهيبة وهو الذي تصدّق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بما اغناهم عمن سواهم ، وهو الذي كسر ابن نجيب الدولة على باب زبيد في آخر سنة ٥١٨هـ [وكان السلطان سليمان لاجئا لديه ومدحه بعدة قصائد] وكان يثيب على المدح ثواباً جزيلاً ، وجمعت قصائد المجيدين من الشعراء الذين مدحوه في عشرة أجزاء كبار ، وأما الذي عليه فانه لما وزّر بعد قتل أنيس سنة ٥١٧هـ أقدم على قتل مولاه « منصور بن فاتك بالسم وملك ابنه فاتك بن منصور وهو يومئذ طفل صغير» .

نهاية عبث « منّ الله » بالجواري والقيان

قال عمارة : « ومات منصور بن فاتك وأبوه فاتك بن جياش وغيرهما من آل نجاح عن أكثر من ألف سرية ؛ ما منهن أحد سلم من الوزير « منّ الله » إلا عشر نساء من حظايا منصور بن فاتك منهن الحرة الملكة أم فاتك ابن منصور فانها اعتزلت القصر ، وخرجت خارج المدينة ، وبنت لها دارا لا يتطرق اليها الوزير بعذر ولا بسبب ، هذا والملك ولدها ولكنها حسمت المادة بالبعد عن قصر ولدها ، ووكلت كفالته إلى عبيد أبيه الاستاذين .

ومنهن أمّ الجيش وهي مولدة وكانت لها بنت من منصور بن فاتك وكانت

فائقة الجمال وحسن الغناء [قال عمارة] : وأنا أدركتها وكنت أدخل إليها ، واقعد بين يديها في رسائل كانت تجري بينها وبين السلطان عبد الله بن أسعد الـوحـاظي لانه كان تزوج بنتها التي رزقتها من منصور ومنهن « رياض » و « جنان » الكبرى ، و « تمَنى » وما أدراك ما تمنى جمالا ؛ ولم يكن لأم فاتك ضرّة سواها » .

« ولما أراد الله هلاك » منّ الله الفاتكي حاول بنت « معارك » ابن جياش وراودها ؛ وكانت موصوفة بالجمال ، فافتدت نفسها منه بأربعين بكراً من جواريها . . فأبى ، فكشفت أمره الى عبيد عمها فاتك ، وعبيد ابن عمها منصور بن فاتك ، فهابوه ولم يقدروا على شيء ، فقالت لهم الحرّة أم أبي الجيش أنا أكفيكم أمره ، ثم استخرجت ابنة معارك بن جياش من قصر الامارة إلى قصرها ، وأرسلت إلى « منّ الله الفاتكي » تقول له : انك قد أسـأت السمعـة عليك وعلينا فيما تقدم ، ولو كنت اعلمتني خدمتك أَتَمّ خدمة ، ولم يعلم بك أحد ، ففرح الوزير بذلك ، وتواترت الرسائل بينها وبـينــه حتى قال : فاني أزورك في هذه الليلة إلى دارك متنكــراً ! قالت لرسوله : « ان الله قد أجل قدر الوزير عن ذلك ، بل أنا أزوره في داره . . فلما أمسى الليل جاءت إليه فغنّت له ، وشرب وطرب ومكنته من نفسها ، ثم وقع عليها ومسحت ذكره عند الفراغ بخرقة فيها سم قاتل ، فتهرّأ ومات من ليلته ؛ فدفنه ولده منصور في اصطبله وسوى به الأرض فلم يعرف له قبر إلى اليوم ، وكانت وفاته ليلة السبت الخامس عشر من جمادي الأولى سنة ٥٢٤هـ [ص ٢١٠ ـ ٢١٢] .

ولعل ذلك بعد مغادرة السلطان سليمان الحجوري لزبيد لأن في ديوانه قصائد وداع لكلّ من « منّ الله الفاتكي » والجارية « عَلَم » التي يسمونها « الحرة » لأنها « أم ولد » .

هذه هي البيئة ، وذلـك هو المحيط الذي كانت تعيشه « زبيد » بعد هلاك نجاح ، والذي لجأ إليها السلطان سليمان مستنجداً بمنّ الله الفاتكي على أخيه الخطاب ؛ فرقّ شعره وراق ، وهو محيط يخالف بيئة ومحيط أخيه « السلطان الخـطـاب » الـذي وان كان قد رمي بالباطنية الاّ أن المؤرخين يجمعون على انه كان محافظاً ورعاً ، وليست نفس البيئة ولا نفس المحيط

الذي كانت تعيشه « شهارة » و « صعدة » و « صنعاء » ، بل وربما « جبلة » قاعدة ما تبقى من ملك للسيدة بنت أحمد ، وان كان قد روي انها وسائر السلاطين الذين يؤيّدونها كانت دورهم وحصونهم وقصورهم تضج بالمئات من الجواري والخصيان والقيان ، وقصة وفاة المفضل بن أبي البركات غَيْرَةً على سراريه وحظاياه في حصن « التعكر » معروفة [عمارة ص ٧٣ حسن سليمان] .

ولقد كانت زبيد أيضاً وكراً للمؤامرات والاغتيالات والسموم والخمور والطبل والزمر أيضاً ويتضح ذلك في قصة رواها « عمارة » وهو يتحدث عن وزارة مفلح الفاتكي وهذا نصّها لم نحذف منها حرفاً لطرافتها

عالم مؤامرات وسموم ومماليك وقيان :

قال المؤرخ عمارة يتحدّث عن وزارة مفلح الفاتكي :

أما جنسه فبطن من الحبش يقال لها « سحرت » وكان يكني أبا منصور ولدٌ له ، وكان هذا منصور من الأعيان أهل الخبرة والفقه والأدب والصباحة والسماحة والشجاعة والرياسة الكاملة وكان الناس يقولون لو كان له نسب من قريش كملت له شروط الخلافة وكان عبيد فاتك وهم صغار ينبزون مفلحا بالبغل فكان يقال له مفلح البغل (ولا يغضب من ذلك) .

وحدثني كاتبه حمير بن أسعد قال : إنما سمي البغل لأنه كان يدلي آلة مثل التي يدليها البغل وكان مع ذلك عفيف الذيل لم تعلم له صَبْوَة في صغر ولا كبر قال حمير ولقد أذكر يوماً من عفافة أنه دعاني وهو وزير فقال قد تنكد علي العيش بسبب ما اسمعه كل حين من غناء وردة جارية الأمير عثمان الغزي ويوصف لي من جمالها ، ولقد انسدت على أبواب الحيلة في حصولها عندي فقلت له إن كنت تريدها سفاحا بذلت وسعي في خدمة الوزير فقال : والله ما عصيت الله تعالى بفرجي منذ خلقت قلت فبكم يشتريها الوزير قال بكلما يقترح مولاها وكان مولاها أميرا جليلا كبير القدر له وجاهة ومنزلة في الدولة ثم هو مقدم الغُزّ الذين استدعاهم الملك جياش لمحاربة سبأ بن أحمد الصليحي ، وعثمان أميرهم وشيخهم وهم أربعمائة فارس رماه وبهم امتنعت دولة الحبشة من العرب وكان الملك جياش استدعى منهم ثلاثة آلاف قوس فلما فصلت منهم عن مكة ألفان إلى زبيد ندم جياش على رأيه ، وعلم أنهم

يخرجونه من البلاد ويستولون عليها فتقدم جياش على ولاته الذين تمر بهم الغز من مكة عليهم أن يطرحوا لهم السموم فيما يأكلون ويشربون ويلبسون فمات منهم بشر كثير وخلص منهم إلى زبيد ألف فارس أو دونها فجهز منهم خمسمائة إلى الجبال ففتحوا منها ما وطى الحافر ولما حصلوا في بون صنعا دس عليهم جياش من قتلهم بالسم وفرق كلمتهم بالحروب والأموال وبقيت عنده بتهامة أربعمائة وخمسون فارسا فاقطعهم واديا واسع الأعمال يقال له ذو آل ورعيته من علك وبلاد الأشاعر وعرضه يوم وطوله من الجبل الى البحر يومان أو دونها بينه وبين زبيد يوم واحد ولم يزل الغز يستأدون خراج هذا الوادي من سنة ست وثمانين وأربعمائة إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة فأثرت الغز وحسنت حالهم وتملكوا ورياستهم تنتهي إلى « ساولي » و« طيطاس » وهـذا عثمان ، ثم مات الاثنان وبقي هذا عثمان ولم يبق من الغز إلا مائة فارس شيوخ فأما أولادهم المولودون بزبيد فلم يفلحوا ولا جاء منهم بأس يتقى ولا معروف يرتجى .

قال الشيخ حمير بن أسعد كاتب الوزير ففكرت في حيلة أتوصل بها إلى غرضه فوجدتها وهي أني قلت للوزير تأمره بنقض قسمة الأعمال القديمة فإن الرجال التي كانت تنفع قد ماتت وبقيت الاقطاع الجيدة في يدي أولادهم الذين لا ينفعون وتصلّبْ في ذلك وتقدم على الناس بالحشود من الأعمال إلى زبيد وتنقل قوماً إلى عمل الآخرين قال حمير. فلما فعل ذلك الوزير ضاق الأمر على جماعة من أكابر الدولة ولا كضيقه ، على عثمان الغزي فإن أموال الغز الذين ماتوا من رفاقه صارت إليه .

فلما كاد عثمان أن يخرج من زبيد ومن معه من قومه ويشق العصا دخلت عليه وشربت عنده وغنت لي وردة وغيرها ممن عنده ولم يكن أحد من أهل تهامة يحجب عن حمير لا مغنية ولا أم ولد لأن أكثر سراريهم ومغنياتهم من تخريجه وتربية داره وتعليمه الغنا والطبخ وخزن الثياب وعمل الطيب ونادم وخدم جماعة من ملوك الجبال ثم نزل تهامة فاختص بصحبته أحمد بن مسعود بن فرج المؤتمن صاحب حيس ثم كتب بعـده للشيخ منّ الله الفاتكي ثم كتب للشيخ أبي منصور مفلح الفاتكي ومن عند هذا حمير يبتاع السم الذي يقتل به الملوك لأن له أخوة وأعماماً في بلاد بكيل وحاشد تنبت هذه الشجرة

في بقعة من الأرض ليست هناك إلا لهم وبين حصونهم وهم يحتفظون بها ويشحون عليها كما يحتفظ في الديار المصرية بالشجر الذي منه دهن البلسان وأوفى ، وكل من مات بالسم من ملوك بني نجاح ووزرائهم فمن عند حمير بن أسعد حتى كانوا إذا نادموه قالوا له يا أبا سبأ نأكل ونشرب ونحن في حَبْسِك فيضحك ويقول ، نعم وكان حلو المحاضرة كثير المحفوظات حسن النادرة كثير البذل في ذات الله وفي سبيل المعروف يترسل بين الملوك من الحبشة فيرفع الخلل ويهون الجلل ثم سكن الكدرا عند القائد إسحق ابن مروزق السحرتي فأكرمه وخلطه بنفسه وبها مات سنة ثلاث وخمسين وقد جاوز التسعين وكان ينزل عندي إذا دخل زبيد وعند أصدقائه ولم يكن بها أهله وبهذا السبب كان يسترسل معي قال حمير : فلما أخذت النشوة من عثمان مأخذها قال لي كنت حريصا على لقائك طمعاً في إصلاح أحوالنا مع هذا العبد الطاغي ، وتركنا على اقطاعنا وأملاكنا التي لم نستفدها في أيامه ولا من إنعامه قلت له هو مع ما فيه من الأعجاب والتكبر حسن الباطن قريب الرجوع ؛ وأنا اجتهد في غد إن شاء الله إذا دعاني من الصباح على مولانا أن يصل ضيفاً عندك ، وأنا أعلم أنه إذا أكل طعامك وشرب شرابك وغنى له حريمك استحيا منك وخجل وعاد عما في نفسه ، فكاد عثمان أن يطير فرحا ، ولم يصدق أن الوزير يزوره وأشرت على عثمان أن يَتطفّل بالليل على الوزير ويركب إلى داره ويقول ضيف يشتهي أن يتشرف بالسماع والشراب ، قال فلما أمسينا ووصل عثمان إلينا أشرت على الوزير أن يخرج المغاني والوصائف الساقيات علينا ففعل ذلك ووعده الوزير أنه في غد يكون ضيفه ، فحمل لي عثمان في تلك الليلة مالا جزيلا وعدنا من الركوب من دار مولانا إلى دار عثمان فوجدنا أسمطة واسعة عددت في واحد منها ثلاثين خروفاً مشوية وثلاثين جاماً من الحلاوة ، وأما الذي جلس عليه الوزير وكان في طول قاعة البستان التي لعثمان وهي خمسون ذراعاً فامتعض الوزير من ذلك حسداً لعثمان على همته وسرعة ما تأتي من تلك الأسمطة وكانت أربعة ثم فرق على حواشي الوزير خمسمائة خروف ، وانهب العسكر تلك الأسمطة وفرق على حواشي الوزير ثلاثة أبهرة سكر وهي تسعة قناطير ثم انتقلنا مجلس الشراب وكنا سبعة ، وأنا الساقي فأسكرت الخمسة الذين حضروا فلما انصرفوا قلت لعثمان أنك بهيمة لا عقل لك أترى الوزير إنما زارك لأكلة أو شربة ما أقصر همتك ، وأعمى بصيرتك ، قال لي فدبرني قلت أعرض عليّ

ما عندك فذكر الخيل والعدد والمال والألطاف والذخائر فأظهرت له في كل شيء نقيصه وقبحته عليه قال : فما ترى قلت انظر هدية لا تخبأ في الخزاين ولا تغيب عن عينه فإن المقصود أن يكون يذكرك بهديتك كلما نظر إليها قال : ما عندي سوى وردة وهي روحي ، فإن كانت تصلح له نزلت عنها وإن كنت أموت قلت إن قبلها فهي مما تصلح قال فتحدث معه فيها فإن قبلها فلك عندي ألف دينار ، ثم أمر بإحضارها عاشرة عشر فقبلن يد الوزير ثم اندفعن يغنين بين يديه مكشوفات الوجوه وأوصيت الوزير أن يعرض عن وردة ويستحسن غيرها ففعل وكان ذلك مما قوى عزيمة مولاها في قبولها منه فلما سكر عثمان ونام وسكر النسوة إلا وردة فإني كنت أريد صحوها ، فقمت إلى المستراح واستدعيت وردة فاعلمتها القصة فقالت لا أرغب إلا في مولاي فاستدعيت الوزير إلى مجلس ودخلت أنا ووردة إليه فوعدها ومناها وهممت بالخروج عنهما فأمسكني وقال والله لا يكون هذا أبداً ثم عدنا جميعاً إلى المجلس ووالله ما ملأ عينه منها ولا مكنها من يده عند السلام .

فلما صحا مولاها استأذناه في الخروج ، وكان ذلك عند العشاء الآخرة ، فلم نخرج الآ ووردة بين أيدينا ؛ فأما عثمان فلما أصبح أعدت إليه الألف الدينار التي كان دفعها اليّ وسألته في ضيعة ذُؤال فوقع لي بها ، وأما الوزير فأحضرني إليه وخلع علي وقال ان ابنتك وردة أقسمت علي لادنوت منها حتى يرضى « حمير » فما الذي يرضيك ؟ قلت : ضيعة العبادي بما فيها من زروع ، وما لها من أبقار ، فوقّع لي بها ، وهي الضيعة التي لا ضيعة على مالكها . [ص ١٠٧ ـ ١١١] .

القائد سرور ووَرْدَة المغنية

وبعد ان فرغ « عمارة » من الحديث عن وزارة مفلح ووفاته في عام ٥٢٩هـ ذكر ان الوزير « اقبال » ابتاع من حمير سمّاً قتل به مولاه فاتك بن منصور سنة ٥٣١هـ ثم روى هذا الخبر الظريف :

« قالت وردة جارية الوزير مفلح : ولما مات مولاي في الجبال ، خطبني الوزير « إقبال » ، والقائد سرور ، والقائد اسحاق بن مرزوق والقائد علي بن مسعود صاحب حيس ، فوعدت رسول كل واحد منهم وعداً جميلا ، وشاورت مولاي منصور بن مولاي مفلح في رسائل القوم ، فأشار

علي بسرور وقال استظهري بمشورة الشيخ حمير بن أسعد ، فاستدعيته من تهامة ، فقال : أما علي بن مسعود فعنده تسعون سرية ، وأربع زوجات ، وأما إقبال فعنده عشرون مغنية ثم عنده ناجية ، وهو من تربية التجّار وبخلهم مصوّرٌ بين عينيه إلى هذه الغاية ، وأما القائد اسحاق ابن مرزوق فعنده إبنة « عويد » أم ولده فرج ، وعنده ابنة عمه أحمد ، ولا والله ما تمشي بأرض تهامة مثلها ، ولكن أشير عليك بالقائد أبي محمد سرور الفاتكي فانه واسع الهمة والنعمة ، ثم هو تربية الملك منصور بن فاتك وتربية مولاتنا أم فاتك بن منصور ، قالت فتزوجني القائد أبو محمد سرور الفاتكي ، فوجدت رجلا مشغولا عن الدنيا وعن النساء ، وعن التنعم بالنظر في معالى الأمور ؛ فلم أزل به حتى ملكته ، ثم تدرجت في عشرته فكان على خشونته وهيبته وانقباض جواريه منه لا يخالفني فيما أراه ، وإذا غضبت عليه كاد ان يفارق الحياة » ثم قال : « ودليل ذلك ـ أي صدق رواية وردة ـ ما حدثني به الشيخ مسلم بن يشجب وزير الأمير الشريف غانم بن يحيى قال : قدمت من بلادي رسولا الى القائد سرور الفاتكي في عقد هدنة بيننا وبينه ، فقال لي وزيره عبيد بن بحر ليت قدومك تقدم أو تأخر فانك صادفت القائد مشغولا خاطره ؛ فأقمت يومين أو ثلاثة أيام ولم اجتمع بالقائد ثم قدم علينا حمير بن أسعد فقال لي عبيد بن بحر وزير القائد الآن انحلّت عقدتك بعد قدوم حمير ، قلت وكيف ذلك ؟ قال : ان ام عمرو وردة ساخطة عليه وأقسمتْ لا تكلّمه ولا تأذن له في الدخول حتى يأتي أبوها [تعني معلّمها ومربّيها ودلّالها] وهو الشيخ حمير بن أسعد .

قال مسلم ولما كان في تلك الليلة دعينا إلى مجلس فيه شراب وغناء وطيب فجلسنا واذا القائد قد طلع علينا فسلمنا عليه ثم سمعنا من خلف الستارة جلبة وجرس حَلْي لم يكن من قبل ، وإذا هي وردة قد أصلح حمير بينها وبين القائد فجاءت لتغني له فوقع في نفسي من تعجيز القائد سرور ، وضعف عزيمته بعض ما وقع ، وكأنه توخّى ما في نفسي فاقترح عليها ان تغنّى بقول الشاعر

نحن قومٌ تذيبنا الحدق النجل   على أننا نذيب الحديدا

[ص ١١٤ ـ ١١٥ ـ عمارة] .

فاذا كانت هذه هي حالة القائد سرور الذي اثنى عليه وعلى مروته وعدله وكرمه وهيبته عمارة ثناءاً عاطراً فما بالك بالغوغاء والهمج وبقية الغز والمماليك ؟!

عموم الفوضى والفساد ؟

ولم تكن « زبيد » وحدها مرتعاً للفساد والفوضى فقد عم ذلك كل « مدن » اليمن إلّا أن « زبيداً » قاست ما لم تقاسه مدينة أخرى وحسبك انها وسائر « تهامة » ظلت كالسلعة يتبادلها الصليحيون والنجاحيون شتاءً وصيفاً . فاذا أقبل الشتاء هبط بنو الصليحي إلى تهامة ، وتوجّه بنو نجاح الى « دَهْلك » فيقبض الصليحيون خراج تهامة ولا يزالون فيها يعيثون ويسرحون ويمرحون إلى ان يقبل الصيف فيرتفعون عنها إلى الجبال ، ويعود « النجاحيون » إليها ليقبضوا خراجها ؛ ومع ما في ذلك من الفوضى والعنت على المواطنين فالأعجب منه ان « الصليحيين » كانوا يسقطون عن الرعية ما قد سلموه الى بني « نجاح » في أيام الصيف والخريف ، وكان « بنو نجاح » يسقطون عن أهلها ما سلموه الى بني الصليحي في أيام « الشتاء » ! في مهزلةٍ لا نكاد نجد لها مثيلاً في تاريخ الأمم [غاية جـ ـ ١ ـ ص ٢٧٥] .

من هابط ! :

وفشى أدب المجون في هذه الفترة وانتشر وبلغ الفحش بالشاعر نزار بن الفقيه زيد الأحاظي ان يقول في سلطان شاحط :

قالوا لنا السلطان في شاحط — يأتي الزنا من موضع الغائط !
قلت : هل السلطان أعلاهما ؟ — قالوا : بل السلطان من هابطٍ !!

***

وفي الشعر اليمني من هذا السّفه والفحش والهجو المقذع الكثير سواء في هذه الفترة أو في غيرها ، وبالطريقة « الحِكَميّة » أو « الحُمَيْنية » وقد جمعنا ما تيسّر لنا الاطلاع عليه في كتابنا « نوادر الهزل والمجون في الأدب العربي » .

٧ - ٨ - علي بن مهدي الحميري وشاعره الهُبَيْني [٥٠٥/ ٥٥٤هـ]

ومادمنا نتحدّث عن أبرز الشخصيات التي حكمت في اليمن وكان لها حظّ أو نصيب من العلم والأدب واشتهرت بالفقه والمعرفة والبلاغة إلى جانب الامارة والسلطان والسياسة ؛ فلا يمكن ان نهمل الملك الذي تلقب بألقاب الخلفاء علي بن مهدي الحميري الرُّعَيْني والذي اشتهر بالزهد والورع ، وكان عالماً خطيباً وحجّ وزار مراراً ، وتفقه على الأفذاذ من علماء العراق الذين كان يتعرّف عليهم في الحرمين الشريفين ، قبل وأثناء ما كان يعانيه من همّ وهو يرى اليمن ممزّقة يعبث بمقدّراتها « الغزّ » و « الأحباش » والسلاطين والوزراء في الفترة ما بين عام ٥٢٠هـ وسنة ٥٥٤هـ كما عرف القارىء من الفصول السابقة .

وقد كانت بداية أمره عام ٥٣١هـ واعظاً ومرشدا يطوف القرى في « تهامة » ، ويعرّف الناس بأمور دينهم ، ويبالغ في تحذيرهم من مخالطة السلاطين والوزراء في زبيد وغيرها منددا بأعمالهم ومظالمهم ، ويحرضهم على الاتحاد والتآخي ، وقد أحبه اليمنيون ، وانضم إليه مريدون ، ولا سيما من الشباب والفقهاء والأدباء ومنهم عمارة الشاعر المؤرّخ المشهور . .

واستمر يجاهد بالخطابة والبيان حتى سنة ٥٣٨هـ ثم جنّد الجنود والجيوش ، وأعلن دعوته ولجأ إلى السيف ، وخاض عدّة معارك حتى احتل زبيد سنة ٥٥٤هـ واستأصل دولة الأحباش ، وبسط نفوذه على تهامة اليمن كلها ، وعلى الجبال المطلة عليها وأراد الزحف شرقاً وشمالاً وجنوبا ، لولا ان المنية وافته في نفس العام شهر شوال سنة ٥٥٤هـ .

وقد تحدّث عنه تلميذه عمارة في كتابه المفيد ، فقال انه ولد ونشأ في « العنبرة » من قرى ساحل زبيد وكان أبوه فقيها صالحاً سليم القلب فنشأ ابنه « عليّ » على طريقته ، يميل إلى « العزلة » ، ويتمسّك بالصلاح والعبادة وقال : إنه حج وزار « ولقى حاج العراق وعلماءها ، وتضلّع من معارفهم ، وعاد إلى اليمن » فاعتزل الدولة ورجالها ، وثابر على الوعظ والدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

صفاته :

قال عمارة : « وكان فصيحاً صبيحا ، حسن الصوت ، طيّب النغمة حلو الايراد ، غزير المحفوظات ، أخضر اللون ، ملوّح الخدّين ، ألحى طويل القامة ، مخروط الجسم ، بين عينيه سجدة ، قائما بالوعظ والتفسير وطريقة الصوفية أتم قيام ، وكان يتحدّث بشيء من أحوال المستقبل فتصدق فراسته . . فكان ذلك من أقوى عدده في استمالة القلوب » .

انقطاع عمارة إليه :

وقال عمارة : « كانت عَبرته لا ترقأ على ممر الأوقات ، وكنت يومئذٍ منقطعاً إليه ، ملازماً له في أكثر الأوقات مدّة سنة ، ثم علم والدي اني تركت التفقّه ولزمت طريقة النسك فجاء من بلاده مسافراً حتى أخذني من عنده ، وأعادني إلى المدرسة بزبيد ، وكنت أزوره في كل شهر زورة ، فلما استفحل أمره انقطعت عنه خوفاً من أهل زبيد ، ولم يزل من سنة ٥٣١هـ يعظ الناس في البوادي فاذا دنا موسم الحج خرج حاجاً على نجيب له إلى سنة ٥٣٦هـ ، ثم أطلقت الحرّة أم فاتك ابن منصور [الجارية عَلَم] له ولأخوته ولأصهاره ، ومن يلوذ به خراج أملاكهم ، فلم يمض بهم هُنَيْهَة حتى أثروا ، واتسعت بهم الحال وركبوا الخيل [ومرنوا على الفروسية] فكانوا كما قال المتنبي :

فكأنما نتجت قياماً تحتهم وكأنما ولدوا على صهواتها »

وبعد أن اشار عمارة إلى استفحال أمره ، وكيف اتى بقوم من أهل الجبال ، وجمع جموعاً بلغت أربعين ألفاً وغزا بهم مدينة « الكدراء » فلقيه القائد اسحاق بن مرزوق فانهزم الحميري ، وقتل الكثير من جموعه ، وعاد إلى الجبال لاجئا إلى سنة ٥٤١هـ وقال ان « ابن مهدي » كاتب الحرّة « عَلَم » وطلب منها الأمان له ولمن يلوذ به ويعود إلى وطنه ، ففعلت على كره من أهل دولتها ومن فقهاء عصرها ، « ليقضي الله أمراً كان مفعولا » ؛ وقال انه « أقام يشتغل في أملاكه سنين عديدة وهي مطلقة من الخراج فاجتمع له من ذلك مال جزيل » وكان يقول في وعظه : « أيها الناس دنا الوقت ، وأزف الأمر وكأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عيانا ، فما هو الاّ أن ماتت الحرّة سنة ٥٤٥هـ حتى أصبح في الجبال ثائراً » وقال : انه كوّن له جيشاً وسمّى من كان منهم من الجبال « الأنصار » ، ومن كان قد صعد معه من تهامة

« المهاجرين » ، وساء ظنه بكل أحد فأقام على « الأنصار » رجلاً من « خولان » وكنّاه بشيخ الاسلام ، ورأس على « المهاجرين » رجلا من « العمرانيين » نعته أيضا بشيخ الاسلام ، وجعلهما نقيبين فلا يخاطبه ولا يصل إليه سواهما . وبعد أن وصف غزواته وحروبه قال عمارة :

« ثم لقيت علي بن مهدي هذا عند الدّاعي محمد بن سبأ صاحب عدن بمدينة « ذي جبلة سنة ٥٤٩هـ يستنجده على أهل زبيد فلم يجبه الداعي إلى ذلك ، وعرض عليّ صحبته ، وعقد لي ان يقدّمني على كل أحد من أصحابه ، ولما عاد إلى « حصن الشرف » دبّر اغتيال القائد سرور الفاتكي فقتل في رجب سنة ٥٥١هـ وفتح على أهل الدولة بعده أبواب الشر المسدود ، وانحل عقدها المشدود ، ونفرت الرعايا إلى ابن مهدي ، وهُمْ عرب البلاد وكان الرجل من أصحاب ابن مهدي يلقي أخاه وقريبه وهو مع الحبشة إما مزارع أو جمال أو راعي ماشية لهم ، أو حارس ضيعة فيفسده » !

ووصف حصاره لزبيد وأهلها وما نالوا من جهد وبلاء واستنجادهم بالامام أحمد بن سليمان وقتلهم للسلطان فاتك بن محمد ثم قال انه فتح زبيد يوم الجمعة الرابع عشر من رجب سنة ٥٥٤هـ وأقام بقية رجب وشعبان ورمضان ومات في شوال من السنة فكانت مدة ملكه شهرين واحدى وعشرين يوماً .

وقال « عمارة » ـ وكان يومئذٍ في مصر : « ثم انتقل الأمر إلى ولده « المهدي » ثم إلى عبد النبي والأمر اليوم في اليمن بأسره إليه ماعدا « عدن » فان أهلها هادنوه عليها بمال في كل سنة ، واجتمع لعبد النبي هذا ملك الجبال والتهائم وانتقل إليه ملك جميع ملوك اليمن وذخائرها » [ص ١٢٠ ـ ١٢٤ عمارة] .

مولده وخطبته يوم مبايعته :

لم يذكر عمارة ولا غيره سنة مولد علي بن مهدي ، لكن عمارة يقول انه انقطع إليه عاما وان مبدأ ظهوره مرشداً وواعظاً سنة ٥٣١هـ وهي نفس السنة التي هاجر فيها عمارة إلى زبيد للدراسة وهو في حوالي السادسة عشرة من عمره ؛ ولا شك ان علي بن مهدي كان أكبر سناً من عمارة تلميذه

ومريده ؛ وعلى أحصف التقادير بعشر سنوات ؛ وإذا كان « عمارة » قد ولد سنة ٥١٥هـ فيكون مولد « ابن مهدي » حوالي سنة ٥٠٥هـ .

وقد أورد الجندي في كتابه « العسجد المسبوك » شيئاً من خطبته التي ألقاها على أتباعه حين تمت مبايعتهم له سنة ٥٤٦هـ وقال فيها : « والله ما جعل الله فناء الحبشة إلا بي وبكم ، وعما قليل إن شاء الله سوف تعلمون ، والله العظيم رب موسى وهارون أني عليهم ريح عاد وصيحة ثمود ، واني أحدثكم فلا أكذبكم ، وأعدكم فلا أخلفكم ، ولئن كنتم أصبحتم اليوم قليلاً لتكثرنّ ، أو وضعاء لتشرفنّ ، أو اذلاء لتعزنّ ، حتى تصيروا مثلاً في العرب والعجم « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذي أحسنوا بالحسنى » ، فالأناة الأناة ، فوحق الله العظيم على كل مؤمن موحّد لآخد منكم بنات الحبشة واخواتهم ، ولأخولنّكم أموالهم وأولادهم ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا**﴾ [ص ١٣٠] .

عقيدته ومذهبه :

لو ان الشاعر والمؤرّخ عمارة لاحظ أيّ فسادٍ في عقيدة أستاذه ابن مهدي ، وقد لازمه وانقطع إليه عاماً ثم كان يزوره كل شهر زورة حتى استفحل أمره فانقطع عنه خوفاً من أمراء ووزراء وحكام « زبيد » لحدثنا عنه ، ولما بخل به علينا ، ولا سيما وقد رآه أيضاً سنة ٥٤٩هـ عند الداعي محمد بن سبأ ، وقد أمر أمر « ابن مهدي » ولم يسمع ما قيل عنه الآ وقد ملك ومات وخلفه أولاده ، وعمارة في مصر يتسقّط أخبارهم ويكتب تاريخه المفيد ؛ ولذلك فقد اثنى على صفاته التي عرفها فيه أثناء ملازمته له والتي تفيد انه كان عابداً زاهداً ناسكاً لا ترقأ له دمعة ، وانه كان عالما مفسّراً فصيحاً كثير الحفظ ، ولكنه قد سمع عنه وهو في مصر بعد ان أمر أمره ، وأصبح أميراً للمؤمنين ما قرأناه أيضاً في ما كتبه غير عمارة ، ولكن عمارة كان حصيفاً في نقل ما نقل من الأخبار التي وصلته وهو في مصر وعندما حكاها قال والعهدة على الراوي كأنه ليس متأكداً من صحتها وصدقها وقد افتتح كلامه عن « عقيدة ابن مهدي » بقوله : « فأما المذهب الذي كان عليه « ابن مهدي » وما

يعتقـده فكان حنفيّ الفروع ، ثم أضاف الى عقيدته في الأصول التكفير بالمعاصي ، والقتل بها ، وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة واستباحة الـوطء لسبـاياهم ، واسترقاق ذراريهم وجَعْل دارهم دار حرب » إلى آخر ما قال [ص ١٢٦ ـ ١٢٧] .

وقال المؤرّخ يحيى بن الحسين في غاية الأماني :
« وأما مذهبهم ـ يقصد علي بن مهدي وأولاده ـ فقيل كانوا على مذهب أبي حنيفة في الفروع ، وعلى رأي الخوارج في الأصول » وساق ما ذكره عمارة ثم قال : « وكان لأصحابهم فيهم عقيدة أكيدة حتى بلغ الحال انهم كانوا إذا غضبوا على أحد من أصحابهم حبس نفسه ، ولا يأكل ولا يشرب ، ولا يشفع فيه أحد حتى يرضوا عليه ، وكانوا يقتلون المهزوم من عسكرهم في حروبهم ، ويقتلون من زنا ، ومن تأخر عن صلاة الجماعة ، وعن مجالس وعظهم ، وهذه الرسوم انما هي على عسكرهم وأما الرعية فالأمر في حقهم الطف » [ج ـ ١ ـ ص ـ ٣٢٢] وهذا مما قال عمارة انه قد بلغه .

والذي نلاحظه انهم عندما يتحدّثون عن عقيدة علي بن مهدي الذي نتحدث عنه يخلطون بين عمله كمؤسّس وبين ما مارسه خلفاؤه من أعمال وهم في حروبهم مع الصليحيين ، والزريعيين ، وبني حاتم ، وغيرهم من السلطنات التي أبادوها وأخضعوها لسلطانهم حتى غزا « تورنشاه الأيوبي » اليمن واعدم عبد النبي ابن مهدي واخوانه سنة ٥٦٩هـ .

ولا شك لديّ أن ما كان يشـاهـده العـالم النـاسـك الـورع في علي ابن مهدي ، من فساد آل نجاح وعبيدهم وامراءهم ووزرائهم ومن انحلال وفسوق وعبث قد دفعه الى الاغراق والتطرّف في محاربة ذلك ، واندفع في قسوة وعنف يشبه ردّة فِعْل رهيبة ، لما كان يراه ويفزع منه وينكره ، ثم ان اعداءه قد بالغوا في تصويره بل وحمّلوه وزر أولاده من بعده ، وقد كان مهدي وعبـد النبي من القساة غلاظ الأكباد وللمؤرخ عبد الله الشماحي حديث بارع لخص فيه حركة ابن مهدي تلخيصاً موفقاً أدبياً وسياسيا بما لا يمكن الزيادة عليه قال :

الملك الامام علي بن مهدي الحميري الرعيني كان أبوه من أعيان محل

العنبرة أسفل وادي زبيد فكان على جانب من الصلاح وفي كنفه نشأ علي ودرس العلوم وأجاد الأدب والخطابة والمناظرة وأخذ بالفقه الحنفي ، إلا أنه كان متحرراً ينزع إلى المعتزلة ونظرياتهم ويرى وجوب الثورة على الظلمة وأن الامامة غير محصورة في قريش ولذا نسبه المؤرخ الدَّيبع إلى الأخذ في الأصول بنظريات الخوارج ، وقد عرف في صباه وريعان شبابه بالفضل ومكارم الأخلاق وقد عظم عليه تحكم الأجانب كالأحباش في جانب من اليمن ، كما عظم عليه تسلط النظرية الزيدية والشافعية في الامامة ، وأقض مضجعه ما عليه اليمن من انقسام وتناحر وقد سلبه تحكم الأحباش في بلده وقرابته وأبيه وأسرته كل راحة مما جعله ـ وهو القوي في العلم والجسم ـ يتابع الحج على ذلول بازل عليه يحج ويطوف ليلتقي بالمفكرين والعلماء وانتهى به تجواله وتفكيره إلى الاقتناع بتطهير اليمن من حكم الدخلاء الأحباش وغيرهم ، ولهذا الغرض اتصل بالسلطان حاتم بن أحمد والقيل الداعي سبأ بن أبي السعود وغيرهما ، فقد أفاد عمارة اليمني أنه وجده بجبلة يستمد المساعدة من الداعي والمصاحبة من عمارة . وأخيرا اعتمد على نفسه القوية في تنفيذ خطته الثورية التي بدأ في إعلانها عام (٥٣٨) ثمانية وثلاثين وخمسمائة فخاض حروباً مضنية في الكدرى مع قائد آل نجاح اسحاق بن مرزوق انتهت بتغلب إسحاق ، ولكن فشل علي الثائر لم يزده إلا تصميماً وإحكاماً جعلاه أولا يدرب أتباعه عسكرياً وعقائدياً فأفرغ في مشاعرهم روحه الثائرة ونظرياته العقائدية ، ثم هاجر إلى حصن الشرف من أصاب البطن من خولان مع أتباعه الذين سماهم المهاجرين وسمى بطن خولان الأنصار مما يوحي إلينا عمق تفكيره وقوة اقتفائه لسيد الوجود « محمد » « ﷺ » وبأصحابه المؤمنين بدعوته راح يشن الغارات على بني نجاح مقلصا نفوذهم الحبشي حتى أطبق على زبيد ، وقد استصرخ الأحباش بالامام أحمد بن سليمان فأجابهم بنفسه في جيش جرار من قبائل الشمال وعند وصول الامام إلى زبيد ضيق عليها ابن مهدي الخناق ورأى أنها فرصة لضرب عدوين في آن واحد ، ولكن الامام تمكن من الفرار تاركا حلفاءه الأحباش لابن مهدي الذي تمكن أخيراً من احتلال زبيد عام (٥٥٤) هجريا وبسط نفوذه على تهامة حتى حرض والمخا والجبال المطلة على زبيد وما جاورها واستأصل الأحباش بصفة لم يقم لهم بعدها باليمن قائمة حتى اليوم ، ولكنه

لم يمهل حتى ينفذ خططه ويجمع شمل اليمنيين ويحقق الوحدة اليمنية فقد مات بشهر شوال سنة (٥٥٤) فخلفه ابنه مهدي بن علي بن مهدي يشاركه أخوه عبد النبي في تدبير المملكة بينما تفرغ مهدي للغزو والفتح فوسع المملكة حتى شملت مخلاف الجند وتعز ومخلاف جعفر إلى نقيل صيد (سمارة) وقد مات مهدي بذي الحجة سنة (٥٥٨هـ) فاستقل أخوه عبد النبي فاتجه بموجة الفتح إلى شمال تهامة وشرقها هادفاً إلى إزالة حكم الرسيين والسليمانيين من اليمن وقد تمكن من الاستيلاء على المخلاف السليماني من حرض إلى عسير والقنفذة وقتل الشريف وهاس بن غانم السليماني واجتاز جبال حراز والسهل إلى جبال الحيمة وهناك وقف بالسهل الذي يحمل اسمه « حجرة ابن مهدي » وتتبع الأشراف ولم ينج إلا من فر ، ومن الفارين الشريف قاسم ابن غانم بن يحيى بن حمزة بن وهاس وكان في مقدور عبد النبي بمساعدة السلطان علي بن حاتم أن يتغلبا على جميع الامارات والعلويين من مخلاف صعدة وجميع الشمال ، ولكن فجأة تحول عبد النبي من الشمال لمنازلة الداعي عمران بن أحمد بن سبأ الزريعي الهمداني فأخذ معظم بلاده حتى حضرموت وأطبق عليه في عدن بحصار كاد يخنقه مما دفع الداعي أن يستصرخ السلطان علي بن حاتم بصنعاء فينجده بفتيان همدان حاشد وبكيل وفتيان جنب وبني شهاب وسنحان وخولان رجالا وفرساناً ويقود تلك الجيوش الجرارة علي ابن حاتم بنفسه وفي مخلاف جبلة واب وسهول سحولها السندسية ووديان جبالها وقمم أطوادها الخضراء يلتقي عام (٥٦٩) ويالـلأسف الجيشان جيش علي بن حاتم الكهلاني وجيش عبد النبي بن علي بن مهدي الحميري يلتقيان للفناء لا للبقاء ، للموت لا للحياة ، وعلى هذه السهول والجبال ابتدأت المعارك التي أفنت الأبطال والفرسان وختمت بمعركة تعز التي أكلت الأخضر واليابس وانتهت بتغلب السلطان علي بن حاتم وفك الحصار عن عدن وعود الداعي عمران بن أحمد إلى عدن وفرار ابن مهدي من تعز إلى زبيد ، وكأنَّ علي بن حاتم أراد أن يتبعه ثم بدت له العودة إلى صنعاء بجميع من بقي من جيوشه فعاد ابن مهدي إلى تعز ، وقد جنت هذه المعارك على اليمن والعروبة جناية بعيدة الأثر فإن كلا الغالب والمغلوب لم يخرج منها إلا منهوكاً وهذه الحرب الخاسرة هي التي فرشت الطريق ومهدتها لاستعادة الرسيين مكانتهم ، ونفوذ توران شاه لابتلاع اليمن ، ومضى ابن مهدي ومضت مملكته إلى الموت تحت

سنابك توران شاه بشوال عام ٥٦٩هـ .

هل كان « ابن مهدي » شاعراً ؟

لعلّي قد تنكبت نهجي الذي سلكته في هذه الأبحاث والتراجم ، وخالفت أسلوب منهجي في كتابة تاريخ اليمن الفكري ان كان فيما أكتبه التزام بمنهج علمي ، وبالمعنى الذي يفهمه الاكاديميّون المحدثون ؛ أو بعضهم أولئك الذين يهتمون بالشكل والترتيب والتبويب واثبات المراجع والمصادر والنصوص المختلفة حتى ولو كانت تحريفا وتصحيفا ! أكثر مما كان العلماء يهتمون بالاستيعاب وإتقان مادة ما يتحدثون عنه ، أو يؤرخون له ، واحصاء عناصرها والاحاطة بتفاصيلها ، وبالضبط والفحص والتثبت ؛ روايةً « ودرايةً » ورعاية ، واهمال ما قِيل وَهْماً أو غفولاً أو سهوا أو تصحيفا ، أو التنبيه إليه ان كان قد تمادى الناس في الأخذ به .

نعم لعلي قد تنكّبت « المنهج الاكاديمي الحديث » عندما جمعت بين الحاكم أو الأمير ، وبين شاعره في هذه الفصل الذي اتحدث فيه عن ملك خطيب فقيه نسب إليه بعض المؤرخين شعراً جزلا فخما ، وهو الملك علي ابن مهدي الحميري ، وجاء آخرون فقالوا ان ذلك الشعر انما هو من تأليف الشاعر « إبن الهبَيْني » وجعلت عنوان الفصل . . « ٧ ـ ٨ ـ علي بن مهدي وشاعره الهبيني » مع اني انما اتحدّث عن الحكام الفقهاء والمؤلفين ، أو السلاطين الذين قالوا شعرا أمثال « جيّاش » و« الصليحي » وبعض « الأئمة » وسأفرد لشعرائهم فصلا مستقلا ، واترجم للأفذاذ منهم في ذلك الفصل ، كما فعلت عندما تحدثت عن الفترة السابقة . . . فهل كان « ابن مهدي » شاعراً ، أم أن ما نُسِب إليه من نظم شاعره « ابن الهُبيني » ؟

وعلى كل ؛ وسواء رضى « المنهجيّون الأكاديميون » عن هذا الأسلوب أو انكروه ، فقد لجأت إليه اضطرارا ، ولم اتعمده مختارا . . فقد قال المؤرّخ « يحيى بن الحسين » ان ابن مهدي لما استولى على زبيد عام ٥٥٤هـ قال أبياتا منها :

عناق العتاق الصافنات النّواتق ... ألـذّ وأشهى من عناق العواتق
وسهرتنا في اللّيل فوق ظهورها ... ألـذّ إلينا من رقاد النمارِقِ

[جـ ـ ١ ـ ص ٣١٣ غاية الأماني]

كما أن المؤرخ الحافظ عبد الرحمن بن علي الديبع المتوفي عام ٩٤٣هـ قد ذكر قبل يحيى بن الحسين القصيدة كاملة في كتابه « قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون » ونسبها إلى علي بن مهدي وابدل « النواتق » جمع « ناتق » وهو من الخيل الذي ينفض راكبه ويزعزعه بلفظة « السوابق » والبقية كما يلي :

وما العزّ إلّا في صُهَا كل صاهل … من الخيل لا في صهوتيْ كلِّ ناهق
وفي الذابلات العاسلات من القنا … وفي المشرفيات العتاق الفواتق
تمزق شمل الكل في جمع هذه … إذا ما زلفنا مأزقا بعد مأزق
إذا ضحكت في حافتيهم سيوفنا … بكين العوالي من دماء هوارق
وما طلعت أسيافنا من غمودها … فتغرب إلا في الطلا والمفارق
أدرنا على درب الحصيْب صواعقا … يحاكي صداها موبقات الصواعق
بجيش كجيّاش العبيرَ عرموم ، … يعم إكام الأرض مثل السمالق
صدمنا بجرد الخيل باب « سهامها » … ودارت على درب الحصيب « الغلافق »
وسالت نواصيها على باب « قرتبِ » … ولم تأل أن جالت بباب « الشبارق »
على بابها الغربي كان حصادهم … وأسيافنا فيها حصاد المنافق
تركنا عليهم في زبيد بوائقا … بها نسبوا ما استنسبوا من بوائق
تركنا رؤوس الحبش فيها مفالقا … بعيد الضحى من بعد تلك المفالق
وسرنا على كدرى سهام عشية … نجوب الفلا في جحفل متضائق
كأن بجَنبي كل طرف إذا جرى … جناحي عقاب كاسر غير خافق
طرقناهم والليل مرخ سدوله … وقد غفلت عنا عيون الطوارق
طحناهم بالخيل والرجل طحنة … ببحر حديد يوم ذلك دافق
أحاطوا عليهم دافعين بخندقٍ ؛ … أيَدْفَعُ أمرَ الله حفر الخنادق ؟
سلوا ؛ هل فزعنا يا بني حام منكم … وهل تفزع الآساد صوت الفُرانق

***

ثم ها هو يصرّح باسمه مفاخراً بحكمه ، وصورته التي كان قد أطراها عمارة الشاعر وبحكمته وبلاغته وبجبروته وملكه مغرقاً مبالغاً متعجرفاً فيقول :

أنا السّيد المهدي والفيلق الذي … يمزّق يوم الروع شمل الفيالقِ
له حكم داوودٍ ، وصورة يوسفٍ ، … وحكمة لقمان ، وملك العمالقِ

[ص : ٣٦٤ - ٣٦٥ قرّة]

فهل نقول أيضاً ان هذه القصيدة من صنع شاعره « ابن الهبيني » لأنه أيضا قد صنع أشعاراً على ألسنة أولاده الذي كان أحدهم وهو عبد النبي يقول الشعر الجيّد ؟ ذلك هو ما جعلني ألزُّ الأمير والسلطان الذي كان يُخطَبُ له كما قال ابن خلدون « بالامام المهدي ، أمير المؤمنين ، وقاطع الكفرة والمعتدين » ، في قرن مع شاعره المبدع « ابن الهُبَيْني » !؟ وإذا كنّا قد عرفنا شيئا من أخبار الأمير والملك وكان قد شغل المؤرخين واختلفوا في عقيدته ومذهبه كما أسلفنا فماذا نعرف عن هذا « ابن الهبّى » كما يسميه البعض و« ابن الهُبَيْني » كما يسميه آخرون ؟ ما إسمه وما إسم أبيه ؟ وأين ولد وفي أيّ عام ؟ وأين مات ومتى ؟ وما كان مصيره بعد هلاك آخر أولاد « ابن مهدي » بسيف « توران شاه » وهل نستطيع ان نجد جواباً على هذه الاسئلة أو بعضها من كتب التاريخ التي بين أيدينا ؟

ابن الهُبَيْني المجهول اسماً ومولداً ومصيرا

لم يحدثنا أحد عن اسمه واسم والده ، ولا أين ولد ونشأ ، وهل كان من « أنصار » إبن مهدي أولئك الذين استقدمهم من جبال اليمن وبايعوه إماماً ؟ أم كان من « المهاجرين » الذين خرجوا من قرى سواحل « زبيد » مع ابن مهدي ثوّاراً ؟ لم يحدثنا أحد عن ذلك ، ولا قالوا شيئا عن وفاته أو استشهاده مع عبد النبي ، أو انه قد عاش بعده مشرّدا !

وأقدم المصادر التي تحدثت عنه ، أو على الأصحّ ذكرته ، كتاب عمارة « المفيد » ولم يزد فيه على ما يلي : « ومن شعراء تهامة ابن الهُبَيْني » وهو شاعر علي بن مهدي صاحب زبيد وأولاده من بعده ، وهو أمتن كلاماً وأقوى نظاماً من كثير ممن سمعت بهم من شعرائهم وهو القائل على لسان ابن مهدي

أبلغ قرى « تعكر » ولا جرما	ان الذي تكرهون قد دهما
وقل لجنّاتها ؛ سأبدلها	سيلاً كأيام « مارب » عرما
أتشرب الخمر في رُبا عدنٍ	والسمر والبيض في « الحُصَيْب » ظما
ويلجم الدين في محافلها	والخيل حوليّ تعلك للجما
لست من « القطب » أو اسيّرها	شعواء تطوى الوهاد والاكما

***

أخطاء النسّاخ والمؤرّخين :

ولا شك عندي أن نساخ كتاب عمارة ـ ولا سيما من غير اليمنيين ـ قد اخطأوا في ضبط ورسم أسماء الرجال والمدن والأماكن ، ونحن نعرف انّ عمارة كتب « المفيد » وهو في مصر ليعرّف أهلها بأخبار اليمن ثم حين انتقل الكتاب إلى اليمن زاده النسّاخ اخطاءً ، وربما حرّفوا عبارات الأصل ، وزادوا ونقّصوا ، ولهذا اختلفت النُّسخ ، وتعدّدتْ مختلفةً النقولات عنه في كتب المؤلفين والمؤرخين الذين رجعوا إليه كمصدر تاريخي ؛ ومنهم العماد الأصفهاني الذي شهد مصرع عمارة سنة ٥٦٩هـ وعاش بعده ثمانية وعشرين سنة ، وابن خلكان المتوفي سنة : ٦٠٨هـ .

فعندما يقرأ القارىء العادي قول عمارة : « وهو القائل على لسان « ابن مهدي » ينصرف ذهنه بداهة الى « علي بن مهدي » . . الذي نعلم أن ملكه لم يستمر الاّ حوالي ثلاثة أشهر كما قال عمارة نفسه ، ونعلم انه لم يملك وقتاً بعد فتحه لزبيد يمكنّه من تهديد حكام « التعكر » و« عدن » وغيرهما ، وأن الذي تمكن من ذلك وغزا « التعكر » و« لحج » وعدن هو خلفه الملك « مهدي بن علي بن مهدي » والأبيات الخمسة التي أوردها عمارة هي من قصيدة نسبها العماد الأصفهاني في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » إلى « مهدي بن علي بن مهدي » وستأتي في ترجمته .

ثم تابع « عمارة » كلامه فقال :

وله ـ أي لأبن الهبيني ـ على لسان « ابن مهدي » ونظنه يقصد هنا الملك علي بن مهدي لأنه الذي كان يلقب « أبا حسن »

ما بال خولان لا توفي بما تعد ... يدنو أبو حسن منها وتبتعدُ
وما لجنبٍ وسنحان واختها ... همدان تلك الاعاريب التي حشدوا

وقال : يمدح الأخوين :

العزّ في صهوات خيل الأجبهِ ... وطرادها من مهمهٍ في مهمهِ
من كل صهصلق الوغا متوقد ... وتراه عند قياده كالأبلهِ
وبهانس تحت العجاج فريقها ... شعث الوجوه مكلّمات الأوجه
اسدٌ إذاً ما أبصرت أسْد الشرى ... ورأت حياض الموت لم تتجهجهِ
تعدو أمام متوجٍ متبلجٍ ... متيقّظٍ ، متوقّد ، متنبّهِ

متفقّهٍ في الدين ؛ لكن لم يكن من عند غير الله بالمتفقّهِ
ملكٌ إذا اشتبه الملوك فما له في ملكه وصلاحه بالمشبهِ
جبَّاهُ حقٍ من بني هودٍ متى تسألْهُ يصدع بالبيان وبجبه
ومنزّه الدين الحنيفيّ الذي لولا الامام القطب لم يتنزّه
بصوارم ولها ذمٍ وضراغمٍ وملاحم بلغت به ما يشتهي
ومقانب ، وكتائب ، كالعارض المتراكم ، المتألق المتقهقهِ
هلاّ سألت الأعجمَين كلاهما من آل « حام » به ، وآل « منبهِ »
ولرب يوم بالحصيب ودربها بالقطب كان على الأعاجم أكره
وعواصف بحُصَيْبهِ عصفت على حبْشَانها وعلى الدعيّ الوَهْوَهِ
أخبار أيام الامام فواكِهٌ فأصغ بسمعك نحوها وتفكّه
سير الامام قديمها وحديثها فرح القلوب وروضة المتنّزهِ
أشهى من الماء الزلال على الظّما والذّ من عصر الشباب الأمْوهِ
فاليوم بخبخ للخليفة بعده بالقائمين الهادِيَيْن بهديهِ
سبطيه ، « قطبيه » الذين إليهما شرف الخلافة والامامة تنتهي
ويقول : من كالاجبَهَيْن مخبّر فيقول سائله : ومن كالأجبهِ ؟
يُسْتثقل الشيء المعاد وذكره تصبى إعادته الحليم وتزدهي
أجشميها كل ليل حندس شعثاً تنفّس كل مرتٍ أجلَه
عرضت بعارضة « ابن اعرج » فاغتدت عرجاء ناظرة بعينيْ أكمه
ولوت « بمكرشةٍ » فعضت أهلها انياب نازلة الخطوب العُضّهِ
ورمت بسجّيل العذاب عبيدها تركتهم عصفاً بيوم أتْوهِ
اشبهتما قطب الملوك أباكما قولاً وفعلاً منه غير مشبّه
تالله انكما لأكرم معشرٍ جذبت لهم خوص الرقاب التيه
ويعيد شعري شعر رؤبة فيكم وابيه عجّاح ، وشعر الأفوهِ
وأنا المفوّه لا المفهّه فيكم كم بين قول مفهّهٍ ومفوّهِ

***

وهو يمدح بهذه القصيدة ابني « علي بن مهدي » الذين وليا السلطة بعد وفاة أبيهما مهدي بن علي ، وعبد النبي بن علي إذ قد قال فيها « سبطيه بل قطبيه » وقد كان من ألقاب علي بن مهدي أبيهما « القطب » و « الأَجْبَه » و « عارضة » في البيت اسم مكانٍ كان من حصون « ابن أعرج » الحبشي ، وكذلك « مكرشة » .

وقد ترجم العماد الاصفهاني للشاعر « ابن الهبيني » ولم يزد شيئاً على ما ذكره « عمارة » فهل يمكن ان نقول بأنه قد قتل مع « عبد النبي » ضمن من اعدمهم صبراً السلطان الأيوبي « توران شاه » سنة ٥٦٩هـ ؟

٩ ـ مهدي بن علي بن مهدي
[ت ٥٥٨هـ / ١١٦٣ م]

الملك الغشوم ، الأجبّهُ بن الأجبه ، والقطب بن القطب ، مهدي بن علي بن مهدي الذي تولّى الحكم ، وقبض على زمام السلطة مع أخيه عبد النبي اثر وفاة والده ، والذي وبمشاورة أخيه وربّما عن نصح من والدهما فرض أوّل « قوانين » عسكرية في اليمن استطاعا بها أن يسيطرا على الفوضى العارمة ، والقضاء على السلطنات والمشيخات والدويلات التي كانت تعبث وتعيث نهبا وغصباً واستهتارا ؛ وان كانت قد بلغت من العنف والقسوة مبلغاً لم يُعرف له نظير في تاريخ الشعوب .

وكان أهم تلك القوانين التي اشترعها « ابن مهدي » : وقد أطلق هذا الاسم في كتاب التاريخ والأدب التي بين أيدينا على « الأب علي » والأخوين « مهدي » و« عبد النبي » وأظن ان « الولدين » هما اللذان نفّذاها ؛ لأنّ سلطان والدهما لم يتجاوز تهامة ولم يطل كما ذكرنا

١ ـ قتل الجندي المنهزم .
٢ ـ قتل الزاني وشارب الخمر .
٣ ـ تكفير صاحب المعصية واباحة دمه .
٤ ـ قتل من خالف مذهبهم واستباحة وطء نسائه واسترقاق ذريته .
٥ ـ قتل من تأخر من الجند عن صلاة الجمعة أو عن مجلسي الوعظ يومي الخميس والأثنين .

وقد نفذّت هذه القوانين بصرامة على « العسكريّين » من جند « ابن مهدي » وقد ذكر عمارة انه قد بلغه حين كان يؤلف كتابه « المفيد » سنة ٥٦٣هـ أي في زمن وعهد « عبد النبي بن علي بن مهدي » بأن الأمر قد هان على ما كان عليه من الشدّة وحصل تخفيف وتعديل في تلك القوانين .

وأنا لا أذكر هذا إلّا استطراداً ، لأدلّل على ما سبق الادلاء به من ان

المؤرخين قد خلطوا بين أعمال وأفكار الأب وولديه ، وان الولدين الغشومين قد جنيا على والدهما تاريخيا فنُسِبَتْ كلُّ أعمالهما إليه ؛ وان كان هو نفسه جباراً عنيداً ؛ وارتكس واقعهم جميعاً في ردّة الفعل التي حدتهم ودفعت أباهم الى الثــورة بسبب طغيان وفســاد عبيد آل نجــاح أو كما قال المؤرخ « يحيى بن الحسين » عندما سرد تلك القوانين والتعاليم : « قابل المنكر بالمنكر ، ونهى عنه بما هو أنكر » !

نعم لقد فرض الأخوان ونفّذا تلك القوانين « العسكرية » ويقول المؤرّخ الديبع نقلاً عن مؤلّف « العقد الثمين » قال : « تولّى بعد علي بن مهدي ولداه عبد النبي وأخوه مهدي فكان الى عبد النبي تدبير المملكة ، وكان أخوه مهـدي متـولياً أمـور الجيوش والسرايا فاستباح بلاداً كثيرة وأغار إلى لحج مرتين ، وقتل من أهلها عدداً كثيراً ، وسبى الحريم والأموال الجزيلة وقيل في ذلك أشعار منها قول « الهبيني » الشاعر :

أتشرب الخـمـر فـي ربـا عـدن ... والـبيض والسمـر في الحُصيْبِ ظما

وقال آخر في ذلك :

لِمَنْ عسكـر كالليـل يعـدو بدُهْمِهِ ، ... ويـزهـو بميمـون الـزمـان وشهمـه
بأبلج إمــاجــا دلـوا فمحمّـدٌ . ... بيـانـاً ؛ وإماجا لدوا « فابن عمّه »

***

بشبهّه فصاحةً بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وشجاعة وفروسيةً بابن عم الرسول « عليّ » كرم الله وجهه ! وهيهات واين الثرى من « الثريّا »؟!

ويتابع « الدّيبع كلامه فيقول : « ثم حاصر أهل الجند فدخلها سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فقتل أكثر من فيها من صغير وكبير ورماهم في البير التي في المسجد ، وحرق المسجد بمن فيه من الضعفاء والعجائز والعواكف والودائع والمصاحف ثم عاد إلى زبيد وقد اصابته « طائرة » تفطّر منها جسمه بعد أن ظهر فيه شبه احراق نار فتوفى أول ذي الحجة سنة ٥٥٨هـ فاستقل بالأمر بعـده أخـوه عبد النبي » [ص ٣١٦ ـ قرة] والمؤرخ الجندي في « العسجد المسبوك » قد نقل عن « العقد » نفس الكلام الاّ انه ذكر ان وفاته كانت في أول المحرّم عام ٥٥٩هـ .

وتناقل ذلك من اتى بعدهم من المؤرخين ولسنا نؤرّخ لليمن سياسياً فندافع عن « ابن مهدي » هذا ولكنا نعلم ان مؤلف العقد الثمين الأمير الأديب محمد بن حاتم قد أرخ بكتابه للأيوبيين والرسوليين واسم كتابه المطبوع « السّمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغزّ باليمن » ولا يخفى أنّهم قد قضوا على آل مهدي وغيرهم من ملوك وسلاطين اليمن واغرقوا وبالغوا في تشويه وتصوير أخبارهم وأحوالهم حين سارت بها الركبان إلى القاهرة والشام وبغداد .

وأما العماد الأصفهاني الذي عاصر عمارة فقد ترجمه في كتابه « الخريدة » ضمن من ترجم لهم من شعراء اليمن فقال : « المهدي بن علي بن مهدي ؛ ملك اليمن في زماننا هذا ، وسفك الدماء وسبى المسلمين ، وقتل على شرب الخمر والغناء ، ودعا إلى نفسه وكان يحدثها بالمسير إلى مكة فمات سنة ٥٦٠هـ وتولّى بعده أخوه ، وله شعر حسن يدل على علوّ همته وما كان في نفسه من مضاء العزيمة ، وبعد الهمة في طلب الملك والفتنة ، وقد كثر بالعراق من أجفل [وفر] من اليمن خوفاً مما بها من الفتن ، وقد أنشدني له الشاعر الذي كان مقيماً بالعراق أبو محمد بن عتيق المصري ابن الرفّا يهدّد قوماً من اليمن :

ابلغ قرى « تعكر » ولا جرما ... ان الذي تكرهون قد دهما
وقل لجنّاتها سأبدلها ... سيلاً كأيام « مارب » عرما
ظنّت « خُويلان » أن ستشغلني ؛ ... عمىً ، لما ظنّت اللئام عمى !
هل تنقص البحر كفّ غارفةٍ ؟ ... أو يخمد النّار قابسٌ ضرما ؟
تعساً لخولان ؛ لا أبا لهم ... أمسوا وجوداً ، وأصبحوا عدما !
إذ نفخوا من صوارمي ضرما ، ... واستسمنوا من ظنونهم ورما ،
وقل « لسامٍ » اليكمُ عجلا ... فوارساً لم تدع « لحام » حمى
هيهات قامت لكم على قدم ... شعواء ترمى برأسها القدما
وشمّرت ساقها الحروب وما ... ألفّها اللّيل سائقاً حطما
سل يوم « ملحان » قوم « قاسمها » ... من كان غيري نفوسها اقتسما ؟
أنا ابن من أسأم الملوك وما ... ونى على حاله ولا سئما !
أبلغ « أبا كلبةٍ » وان رغمت ... أنوف أشياعه وإن رغما
ان نسور الوغا اذا وقعت ... بأرض قوم اطارت الرخما

سوف يراهـا تؤج في عدن صبحاً ويمسى شرارهـا الحرما !
أيشرب الخـمـر في ذرى عدن والمشرفـيّـات بالحـصـيـب ظما
ويـلـجـم الـديـن في محافـلهـا والخيـل حوليّ تعلك اللجما ؟!

***

ويتابع العماد الأصفهاني كلامه فيقول : وأنشدني محمد بن عتيق الشاعر وكتب لي بخطه ما كتب إليه من اليمن من شعر « ابن مهدي » هذا ثم أورد قصيدة في حوالي ثلاثين بيتاً مملوءة بالأخطاء والتصحيفات منها :

[حلفت] بسامى المجد يدرك بالجد وحـدّ اعـتـزام لم يقـف بي على حد
وعـزّة نفس لم تكـن مذ صحبتـهـا تنـافس الاّ في الـرفـيـع من المجـد
وصـحـبـة آسـادٍ تهزّ أسـاوداً ، فمـن فتـيـة مردٍ على قرّح جرد
تخوض خضمّ البحـر عبَّ عُبـابُـه كصمّ صخـور في غديـر من السردِ
تطيح بتيـجـان الملوك سيـوفـهـا وتـبـدلهـا من عزهـا صعـر الخـدِّ
لأعتنقن البيض ؛ لا البيض كالدمى ؛ وأرغـب عن نهدٍ إلى سابـحٍ نهدِ
حنيني إلى سمـراء تهوى إلى الطلا . . كزهـدي في سمـراء مايسـةً الـقـدّ
أأصبـو إلى الحـور الحسـان وهمّتي تهيـم بضرب الهـام قاهـرة ضدي
وقـد قالت العليـاء عدّ عن الصبـا ، وسلّم هوى سلمى ، ودع من منى دعدِ
قسمت الردى والجود قسمين في الورى فللمعتـدي حدّى ، وللمجتـدي رفدي
ومـالي من مالي الـذي كسبـت يدي تراث أبـقيـه سوى الشكـر والحمـد
تخوفـني « جنب » بكـثـر عديـدهـا ومـا لجنـود الـلـه حولي من عدِّ
تقعقـع نحـوي بالشنـان وهـل ترى عُوا الكلب يخفى زأرة الأسـد الـوردِ
ويـرهبني زيـد بن عمـرو بجنـده ونجـدتـه يا بئس ما حاز من جند !
اذا قال لم يصـدق مقـالا ، ومـا الصّبا تزحـزح ان هبّت ذرى الجبـل الصلدِ
واني ونصر الـلـه رايـد خيـلنـا وقـائـدهـا بين الـتـهـايم والنجـدِ
وأسـيـافـنـا الحـمـر الـنـواصـع من دم « الأحابيش » مازالَتْ على صِبْغَةِ الورد
ومـا للّدان السمهـريّـة إن شكت إلينا الظما ، الا الوريدين من وردِ
وكم رأس جبّار « كوهّاس » أصبحت لـبـابـده فيـهـا من الـقـصـب الملد
لأن كان بدٌّ عنـدكـم من لقـائنـا فليس لنـا مما تخافـون من بدّ

وإن تخلفوا إيعادكم لي فإنّني مدى الدهر لم أخلف وعيدي ولا وعدي
سأبعثها مثل السعالي مغيرة إلى نجدكم ترمى بكلّ فتى نجد
عليها قرى وحش الفلا منكمُ فكم لأجسامكم في جسمها شقّ من لحدِ
سنغشى بها في أرضكم فنعيدها يباباً ؛ بلا شخص معيدٍ ، ولا مبدي
وتضحى سباياكم مسخرةً لنا تباع بفلس مالها منكم مفدي
لئن كنتمو في الغيّ تمضون ؛ إننا هداة الورى من ظلمة الغيّ للرشد
وان كنتمو حزب الضلال فإننا الهداة لنهج الحق بالسيد المهدي
لنا النخوات اليعربيّة دونكم فلسنا إلى هزلٍ نميل عن الجد

***

ولقد بذلت جهدي في تصحيح ما حرّفه وصحفة النسّاخ من ألفاظ هذه القصيدة ولا يزال فيها ما لو وجدنا الأصل لأمكن الاستفادة منه وبعد وفاة « مهدي » بن علي خلفه مستبداً بالأمر أخوه عبد النبي الذي قضى على بقيّة « السلاطين » وقتل الشريف وهّاس بن غانم صاحب « المخلاف السليماني » وبعد ذلك غزا اليمن « توران شاه » عام ٥٦٩هـ وقضى له دولة « آل مهدي » .

١٠ ـ عبد النبي بن علي بن مهدي
[٥٥٩ ـ ٥٦٩هـ]

أمّا التنّين الذي ظل عشر سنوات مستقلا بالسلطة يلتهم المشيخات والسلطنات اليمنية فهو عاشر من نتحدث عنهم من الحكام والملوك والأمراء الذي كانوا مؤلفين أو شعراء . . الفارس الشجاع الشاعر عبد النبي بن علي بن مهدي الذي كان مسؤولاً منذ وفاة أبيه عن الشؤون المدنية مع أخيه مهدي بن علي ، وهو الذي طار صيته وتجاوز الجزيرة الى بغداد والشام ومصر والمغرب العربي وتآمر الخليفة العباسي في العراق مع السلطان صلاح الدين

الأيّوبي في مصر على القضاء عليه قبل أن يستفحل أمره في غير اليمن كما استفحل فيها !، وهو الذي قصده عمارة بقوله وهو يؤلّف كتابه المفيد سنة ٥٦٣هـ « والأمر اليوم في اليمن بأسره اليه ماعدا « عدن » فان أهلها هادنوه عليها بمال في كل سنة واجتمع له ملك الجبال والتهائم وانتقل اليه ملك جميع ملوك اليمن وذخائرها وحصل في خزائنه مخلفات خمس وعشرين دولة من أموال ومصوغات اللؤلؤ والجوهر واليواقيت الفاخرة » . وقد ذكر الشاعر عمارة أسماء بعض من استولى عبد النبي على حصونهم وقصورهم أمثال « بني وائل » و« الصليحيين » وسلاطين « وحاظة » و« بني المفضل » و« بني الزر » و« الداعي عمران » و« أشراف المخلاف » . . وبعد أن عدد دولاً أخرى قال : « وهذا الذي سميته نقطة من بحر ما ملك بن مهدي هذا ، ولم أذكر بني المظفر ، ولا أقاليم حراز ، وبرع ، وبلاد بكيل وحاشد ، وجبلة وحصونها وأعمالها ووادي عِنَهْ وزبيد ورمع وريمة والأشاعر وحصونها ومعاقلها ومذيخرة وأعمالها [ص ١٢٦] .

وهو الذي نفذ تهديد أخيه مهدي وقتل الشريف وهاس ابن غانم ، واستولى على أموال الأشراف وسبى نسائهم ، وكان ذلك من الأسباب التي دفعت السلطان الملك صلاح الدين الى تجهيز الحملة المصرية الى اليمن . ويحدثنا المؤرخ يحيى بن الحسين عن أحداث سنة ٥٦٩هـ فيقول : « وفيها جاء الخبر بقدوم الملك المعظم شمس الدولة « توران شاه بن أيوب الكردي الغزّي » من الديار المصرية الى الجزيرة اليمنية في ثلاثة آلاف فارس فنزل « صَبْيا » من بلاد الشريف قاسم بن غانم ثم نهض الى زبيد ، فقاتل بني مهدي حتى أخذ زبيد قهراً بالسيف وقتل عبد النبي بن علي بن مهدي وأسر جميع أخوته ثم قتلهم بعد أيام وزالت دولة بني مهدي » . ثم قال : « ان المؤرخين اختلفوا في الأسباب الموجبة لخروج الدولة الأيّوبية الى اليمن وقد قيل أن السلطان صلاح الدين لما بلغه ان « ابن مهدي » أوغل في سفك الدماء ونهب الأموال ، وزعم ان ملكه سيطبق الأرض ، ويسير فيها مسير الشمس ، غضب وبعث أخاه « توران شاه » وقيل أن أهل تهامة رفعوا أمر عبد النبي الى صلاح الدين وشكوا اليه ما نالهم ، وقيل ان الشريف قاسم بن غانم السليماني شكا الى الخليفة العباسي ما فعله عبد النبي من قتل أخيه

الشريف وهاس وطلب منه النصرة فأمر صلاح الدين بالتجهيز عليه » [ص ٣٢٢ ـ غاية جـ ـ ١ ـ].

والظاهر أن كل تلك الأسباب قد حصلت ؛ وكانت كل القوى في اليمن قد انهارت ولذلك استطاع « توران شاه » القضاء عليها جميعاً وأن يسيطر على كل أصقاعها .

كان شاعراً مجيدا :

يقول الخزرجي في « العسجد المسبوك » نقلاً عن عمارة ـ وكأنه كان يملك نسخة من « مفيده » فيها إضافات لا توجد في النسخ التي كان اعتمادها عند نشر الكتاب إذ لا يوجد فيها هذا الذي نقله الخزرجي وهو « قال عمارة وكان السيد عبد النبي بن علي بن مهدي شاعراً فصيحاً بليغاً وله ديوان شعر جيّد ومن مستحسنات شعره القصيدة المسمّطة التي احتوت على معان كثيرة ، ورثى فيها والده ، وشهدت بمعرفته التّامة وفضله الكامل » ثم أثبت القصيدة كاملة غير انها لا تكاد تُقْرَأ لما فيها من الأخطاء والتصحيفات ومطلعها :

لِمَنْ طلولٌ بالحما ؛ كَأنْ كُسِينَ معلما ؛ تلقى بها المصلّما
والأحقبَ المكدّما .

ومنها :

وقد عبرتُ مذ زمنْ ؛ أبكي الديار والدمنْ ؛ فما وجدت من ثمنْ
أبكي لوحدي مغرما !

ولو علمت منصبي   ومن أنا ومن أبي   لَطُفْتَ حولَ مذهبي
مصلياً مسلّما ! ،

أنا ابن من جرّ القنا   والخيل تجري سننا   يلقي الخميس الأرعنا
والقيروان الأدهما .

أمامها المرجّبا   ودرها المحجّبا   الحوَّليّ القُلّبا
المصقع المعظما

أنت المجلّى « يا علي »   وصاحب التبتّل   لله أنت من ولي
وقائدٍ عرمرما

أعزز علي أن ترى   مغيبا تحت الثرى   فلو نبذت بالعرا
ملأت قطريْها دما !

وقوله : انت المجلّى « يا علي » يقصد أباه « علي بن مهدي » ومما قاله في قتله للشريف وهاس :

لوت بوهّاسٍ ضحى فابتدرته مرحا فظل من تحت الرحا
مضرجاً مرغّما
أتته شعثاً ضمّرا وهي تجرّ العثيرا « تجتاح ما فوق الثرى »
وفوقها الصيد الكما . . (أي « الكماة » على طريقة الاكتفاء) ؛

***

وهي سبعة وأربعون بيتاً لكنها في العسجد المسبوك لا تكاد تقرأ قراءة صحيحة لكثرة الأخطاء والتصحيفات ، وقد استخرجت منها ما أثبته بصعوبة ولو وجد ديوان شعره لعلمنا ما أهمله المؤرخون عنه وعن أخيه وأبيه . ومن الصدف أن عمارة الشاعر قد قتل بأمر صلاح الدين الأيّوبي في مصر في نفس العام الذي قُتِل فيه عبد النبي وأخيه أحمد ، وأولادهم بأمر توران شاه في اليمن » .

تشويش أخبار اليمن في مصر والعراق :

وممّا يؤكد أن أنباء عبد النبي بن علي بن مهدي كانت قد تناقلتها الروايات المختلفة ، واهتم بها خلفاء بني العباس في العراق ، والفاطميون ومن بعدهم الأيّوبيون في مصر ما ذكره ابن خلّكان في « وفيات الأعيان » . . في ترجمته للسلطان صلاح الدين ابن أيّوب قال : « ولمّا وصل الخبر الى الامام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن الامام المستنجد وهو والد الامام الناصر لدين الله بما تجدّد من أمر مصر وعود الخطبة والسكة بها باسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدّة الطويلة نظم أبو الفتح محمد سبط ابن التعاويذي المقدم ذكره قصيدة طنانة مدح بها الامام المستضيء وذكر هذا الفتوح المتجدّد له ، وفتوح بلاد اليمن أيضاً وهلاك الخارجي بها الذي سمى نفسه « المهدي » وذلك في سنة احدى وسبعين وخمسمائة وكان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر وأسلاب المصريين شيئاً كثيرا وأوّلها :

قل للسحاب إذا مَرَتْه . . . يدُ الجنائب فارجحَنْ
عجْ باللوى فامسع بدمعك للمعاهد والدمنْ

وهي قصيدة بديعة ؛ ومما قاله فيها عن اليمن وهلاك عبد النبي بن مهدي :

دانت لهيبتك الممالك والمعاقل والمدنْ
بالمشرفيّات الصوارم والمثقّفة اللدن
وأتتك أسلاب الملوك من الصعيد إلى عدنْ
سلبُ الدعيّ بأرض مصر، والمضلّل في اليمن
مما اقتناه « ذورعين » في القديم و« ذو يزن »
وشفيت منهم بالظبا تلك الضغَائن والأحنْ
لم تغن عنهم حين رعتهم الحصون ولا الجنن

***

فنفائس الذخائر التي وصفها عمارة وقال انها آلت إلى ملك عبد النبي وهي كنوز خمسة وعشرين ملكاً وسلطانا قضى عليهم عبد النبي قد استولى عليها « توران شاه بن أيوب » وبعث بها مع السبايا الى اخيه السلطان صلاح الدين ووصلته في سنة ٥٧١هـ والسلطان صلاح الدين قد بشر الخليفة في بغداد بذلك النصر، وأرسل إليه من تلك الاسلاب والسبايا اليمنية ما سجله الشاعر أبو الفتح في طويلته الرائعة [وفيات ج ـ٧ـ ص ١٥٩] .

ومما يدلّ على أن أخبار [آل مهدي] هؤلاء قد شوشت وتناقلتها الألسن محّرفة ان ابن خلكان نفسه قد ظن ان عبد النبي بن علي بن مهدي قد أدعى « المهدوية » ، وتلقّب بالمهدي مع ان ذلك لم يكن ، وقد سموهم آل مهدي بلا ألف ولام ؛ لأنّ جدهم كان اسمه « مهدي » كما ان « علياً » ابن مهدي ، قد سمى أحد أولاده باسم أبيه ! ولكنّها السياسة تحّرف وتختلق وتدمغ وتجحد من تشاء كما تشاء وفي كل زمان ومكان !

ابن النسّاخ يغري الخليفة العباسي بابن مهدي

ونقل « الخزرجي » في كتابه « العسجد المسبوك » وهو يذكر الأسباب التي دفعت السلطان « توران شاه الأيوبي » لغزو اليمنِ خبراً طريفا قال : « وقال الجندي في تاريخه : السبب في ذلك أن رجلاً من أهل اليمن يقال له

« إبن النسّاخ » وكان فقيها فاضلاً كتب رسالة بليغة إلى الخليفة ببغداد يشكو فيها من ابن مهدي ويذكر قبح سيرته ، وسوء عقيدته ، وكتب مع الرسالة قصيدة طويلة يقول فيها :

فيا غادياً نحو العراق مخْثِثاً ... رحيل زكاة والزكاة نصابُ
الى أن يرى بغداد والمنزل الذي ... به نسبٌ للهاشمي قرابُ
ألمّ بأبراج الخليفة لاثماً ... عراصاً ؛ وما كل التراب ترابُ
ثريً مسه العباس ثم رجاله ... هو المسك والكافور طاب وطابوا
مقام بني العباس كرسيّ ملكهم ... فلله برج في العراق وغاب
وقل لأمام العصر يا بن خلائفٍ ... هم حجج محجوبة وكعابُ
غدت ملّة الاسلام مفصومة العرى، ... وعامر دين الله وهو خرابُ؛
يذبّح أبناءٌ ، وتسبى عقائل ، ... ضلال يرى في أرضنا وتبابُ
بنات رسول الله بين بيوتهم ... سبايا من الستر الجميل سلابُ
فدع عنك ملك الروم وانهض لمكّةٍ ... فسيفك فيها مضرب وذباب
فما في قتال الروم فخرٌ وهذه ... بأظهركم ؛ ما في الكلام كذابُ

***

قال فلما بلغت الرسالة إلى الخليفة كتب الى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأمره أن يجهّز عسكراً إلى اليمن فوجه أخاه » [ص ١٤٦ ـ ١٤٧] . ولم يورد الرسالة ولو فعل لاستفدنا منها فابن النسّاخ هذا عالم مطرفي كاتب شاعر وله وقفة أخرى مع الامام عبد الله بن حمزة والخليفة العباسي سنذكرها في الفصل القادم ان شاء الله .

١١ ـ الامام أحمد بن سليمان
[٥٠٠ ـ ٥٦٦هـ / ١١٠٧ ـ ١١٧١ م]

من أعلام أئمّة اليمن الذين اشتهروا بالبلاغة والفصاحة نثراً ونظماً ، وألّفوا الكتب المفيدة في شتى العلوم الدينية ؛ من فقه وأصول وفروع وحديث وتفسير ، وحاضرَ وناظرَ ، وعقد المجالس العلمية ، الامام المتوكل على الله أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهّر الحسني .

وقد ترجمه زبارة في كتابه أئمة اليمن وقال انه برز في شتى ميادين وأنواع العلوم « وكان ذكيّاً ألمعياً شاعرا بليغا زاهداً مجاهدا » وانه ولد في « حوث » سنة ٥٠٠هـ ونشأ وتفقه بها ومن أساتذته ومشايخه العلامة زيد بن الحسن بن علي البيهقي ، والسيد الحسن بن محمد الهادوي والفقيه عبد الله بن علي العنسي ، والشيخ اسحاق بن أحمد بن عبد الباعث وغيرهم ، وله عدّة مصنفات يعتمد عليها فقهاء وعلماء اليمن ومنها :

١ ـ أصول الأحكام في الحلال والحرام ٢ ـ حقائق المعرفة ، في معرفة النظر ووجوبه ، ٣ ـ الحكمة الدرية والدلالة النبوية ٤ ـ الرسالة الصادقة في بيان ارتداد الفرقة المارقة ٥ ـ الرسالة الهاشمة لأنف الضلال من مذهب المطرفية الجهال ٦ ـ الزاهر في أصول الفقه ٧ ـ ديوان شعر ٨ ـ المدخل في أصول الفقه ٩ ـ المطاعن ١٠ ـ العمدة شرح الرسالة الهاشمة ، وغيرها وانظر تفاصيل أين توجد هذه الكتب والرسائل ، الجزء الأول من أئمة اليمن ص ـ ٩٥ ـ ١٠٨ ـ حكام اليمن المؤلفون ص ٧٥ ـ ٧٩ وأخباره مجموعة في سيرة مشهورة للعلامة سليمان بن يحيى الثقفي ، وفي الحدائق الوردية ، وطبقات الزيدية تأليف ابراهيم بن القاسم وغاية الأماني ص ٢٩٥ ـ ٣١٨ ـ ج ـ ١ ـ وبلوغ المرام ص ـ ٢٥ ـ والتحف ص ـ ٩٩ ـ ١٠٣ ـ وقد ترجمه الزركلي في الاعلام ج : ١ ـ ص ١٢٩ .

ولا حاجة بنا لتكرار ما سبق ذكره من وصف الفوضى العارمة فكرياً وسياسياً في الفترة التي عاشها ونتحدّث عنها ، والتي مهّدت للحملة الأيوبيّة بعد وفاة الامام أحمد بن سليمان بثلاث سنوات .

حفيد شعراء وأئمّة :

وقد سبق ذكر جده المطهّر ابن علي بن الامام الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم . وما دار بينه وبين الشاعر محمد بن الحسن الكلاعي من مساجلة شعرية ظريفة فهو من سلالة علم وأدب وشعر وجهاد ، وحفيد شعراء وأئمة .

وقد روى العلامة المؤرخ حميد المحلّي ان الامام أحمد بن سليمان مارس صناعة النظم ، وقال الشعر الجيد قبل البلوغ ، وأنشد وهو لم يكمل حفظ

القرآن في الكتّاب لنفسه أبياتاً منها :

إذا أُعطِيتْ نفس الفتى قوتُها الذي حباها به رب العباد اطمأنّتِ
وماتت ولم تغلبه إن كان عاقلا وعادت الى التقوى وصامت وصلّتِ
وان هي لم تعط الذي حبيتْ به من الرزق أمست في الهموم وظلّتِ
وكان قصارى أمرها ان تردّها الى جهلها قسراً ، وخابتْ وضلّتِ
وما تعبت نفسٌ وهانت وانصبت وذلت لرب الناس إلا وعزّتِ
فيا رب فارزقني اليقين فانه وتقواك رأس الدين ، واجعلْه عدتي
وأخِرّ مماتي رب ؛ حتى تميتني وقد كملتْ منّي الفروض وتمتِ

وهذه الأبيات من شاب لمّا يدركه البلوغ ، تُشْعِر بألمعيّته وحدّة ذكائه ، وتصوّر البيئة الصالحة التي كان يحياها في « حوث » ، وفي نفس الوقت الذي كانت زبيد تسبح فيما تسبح فيه من مجون وخلاعة حتى كان ما كان وثار « علي بن مهدي » .

ابتداء دعوته والصدف التاريخية

« كان ابتداء دعوته » ـ وهو في الواحدة والثلاثين ـ « في بلاد الجوف ونزح منها ومعه رجلان الى جبل « برط » فبايعه بعض أهلها ، ثم سار الى « أمْلَح » ثم الى « نجران » في أوّل المحرم سنة ٥٣٢هـ فبايعه أهلها وظل يدعو الناس الى الرشاد وينهي عما كان قد ظهر من الفواحش ، ثم انتقل الى صعدة ، وبعث رسله وعمّاله الى بلاد وادعة وسنحان وخولان الشام ، ثم الى « صنعاء » وأعمالها ، واشتهر أمره وذاع صيته وكان من أقوى الأصوات التي أيّدته ، مؤلّفُ « شمس العلوم » الشيخ العلامة الشاعر نشوان بن سعيد الحميري ، وقد كان يحضّه على النهوض من « صعدة » الى البلاد الجنوبيّة التي يسمونها « اليمن » وهي الأصقاع الجنوبية من صنعاء مثلما يسمّون ما شاملها « الشام » ، ومما قاله « نشوان » في ذلك :

دع « يرسماً » و المساني » واقصد « اليمنا » فافقر الناس من يا بْن الكرام سنى
فأنت تصلح للرايات تعقدها وللمواكب تحيي الدين والسننا
وللمنابر تنشى فوقها خطباً . . تُعْيي اللبيب النَجيب العالم الفطنا ،
ما كان جدّك حرّاثاً فتلحقه ، بل مَرسَل قد أتى بالوحي مؤتمنا
ما زال في عمره مستفتحاً بلدا ، أو قاسماً مغنماً ، أو مالكا مدنا

وكم هي عجيبة بعض الصدف التاريخيّة التي يرتّبها القدر وكأنّه يوقّعها لحنا سماويا نغماته تسبي العقول ، وتهزّ المشاعر ؛ فقد قدّر أن تموت الملكة السيّدة بنت أحمد الصليحية في مدينتها « ذي جبلة » سنة ٥٣٢هـ وهي تناهز الثامنة والثمانين ، وانتهى بموتها ملك آل الصليحي ، كما أن الداعي سبأ ابن أبي السعود صاحب « عدن » مات في نفس العام ، وتمزّقت أصقاع اليمن شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغربا شذر مذر ؛ وقُدِّرَ لهذا الشاب التقي الشاعر حفيد الأئمة والشعراء أحمد بن سليمان أن يصغى الى صوت الواجب في ضميره ووجدانه وان يستجيب لدعوة الحجّة التي تلهج بها ألسنة علماء « الزيدية » وفقهائها ، وفي مقدمتهم العلامة القاضى نشوان بن سعيد الحميري ، فأعلن الدعوة لنفسه وقد عاش بعد إعلانها ، ومبايعة أهل الحل والعقد له إماما ، أربعة وثلاثين عاما ، كلها جهاد وصراع وكفاح ، وعرق ودموع ، وشعر وتأليف ، ومناظرات ومحاورات ، وصداقات وخصومات ، وأخيرا أسرٌ وسجنٌ ، ثم عزْلةٌ وعَمَى ! لم يختزن مالا ، ولا بنى قصرا ، ولم يخلّف غير كتبه وأشعاره .

صوت اليمن والاسلام

لقد كان صوت أحمد بن سليمان يمثل بحق « صوت اليمن » العربي المسلم بين ضجيج شظايا « آل نجاح » ، وحشرجات المماليك والعبيد ، تحاصرهم وتطاردهم صرخات « ابن مهدي » الجبار الغشوم في « زبيد » وتمتمات وزمزمات آل « زريع » في « عدن » ، و « زوامل » مشايخ « جَنْب » ترعب « ذمار » ومخاليفها ، وأشعار وأراجيف « آل حاتم » تقلق « صنعاء » وأعمالها ، حتى حدود بلاد الأهنوم ، حيث « أولاد القاسم العياني وأحفاده » يتخطّرون في عناد ، ما بين « شهارة » و « الشرفين » ، و « مسور » ، ويتقارعون مع آل « أبي الحفاظ » سلاطين « حجور » ، و « أحفاد الهادي » في « صعدة » يتنابزون ، و « الأشراف » في « المخلاف » يتشاجرون مع الجميع .

وصوت هذا الشاب العالم الشاعر الزاهد الشجاع يدوّي بين كل تلك « التشويشات » في صفاء ويقين وعزم وتصميم .

لقد كان بحق « صوت اليمن » العربية المسلمة .

منشور شعري :

ولما كان يعلم أن « ورثة السلاطين » و« المماليك » بل « وورثة النظرية الزيدية » من « القاسميين » و« الهادويين » هم بأطماعهم وتناحرهم وتمزّقهم سبب البلاء الذي طمّ اليمن ، بعث إلى الجميع بهذا « المنشور الشعري » البليغ الحجة ، الناصع البيان :

ما إن بكيت على رسم ولا دمن ... ولا لطلعة ظبي أغيدٍ حسن
لكن بكيت على الاسلام حيث ذوى ... مخضرّه ، وثوى في اللحد والكفنَ
لما رأيت الهدى قد مات واندرست ... أعلامه وسبيل الحق لم يبنَ
نهضت أدعو عباد الله مجتهداً ... الى الهدى وفروض الدين والسُّننَ
لم لا أبيع من الرحمان خالقنا ... نفسي الذميمة بالوافي من الثمنَ ؟
لم لا أقوم بنصر الله مجتهداً ... وعزّه ، ورسول الله انجبنيَ ؟
ولي قبيل « معين » ليس يخذلني ... من اخوتي وبني عمي بني حسنَ ،
وهم جناحي وهم حصني وهم عضدي ، ... وهم سناني ، وهم سيفي ، وهم جنني ،
قوموا جميعاً بني الزهراء وانتصروا ... مما أضرّ بكم في سالف الزمن ،
وجاهدوا في سبيل الله وانتقموا ... للحقّ ، واستيقظوا من غرةِ الوسن ،
اني نهضت للمّ الشمل شملكم .. ... وما لويت على أهلٍ ولا وطن ،
فان تجيبوا أملِّكمْ بلا كذب ... على الشريعة . أرض الشام واليَمنِ

***

المنشور النشواني :

ويضم الشاعر العالم نشوان الحميري صوته الى صوت الامام ويرسل « منشورا شعريا » على وزن ورويّ « الدوامغ » الى السادة العلويين باليمن يحضّهم على مبايعة ونصرة أحمد بن سليمان وقد جاء فيه :

سلام الله كل صباح يوم ... على خير البرية أجمعينا ،
على الغرّ الجحاجح من قريش ... أئمتنا الذين بهم هُدينا
بني بنت الرسول إلام كُلّ ... يظن بكم من الناس الظنونا ؟
لماذا أنتم حمقاً وطيشاً ... بلا سبب يُرى تتشاجرونا ؟
أما تخشون ربّكم اذا ما ... أتيتم في القيامة مهطعينا ؟

***

فابلغ ساكن الأمصار أنّا بأحمد ذي المكارم قد رضينا
باكرم ناشىءٍ أصلاً وفرعاً ، وأعلا قائمٍ حسباً ودينا ،
رضينا بالامام وذاك فرض نقول به ونعلن ما بقينا

المعارك الكلامية والحربية مع آل حاتم اليامي

بعد أن قويت شوكة الامام أحمد وتوطد نفوذه في معظم شمال اليمن قرّر النهوض الى « صنعاء » ثم الى الجنوب ، وأثناء حصاره لصنعاء خيّم في قرية « بيت بَوس » ، وجرت بينه وبين السلطان حاتم بن أحمد اليامي الذي كانت صنعاء وأعمالها تحت سيطرته عدّة معارك بالكلام والشعر ، والسيف والرمح ، وقد كان السلطان حاتم أديباً وشاعرا وفارساً كريما ، والمعارك الحربية مفصّلة في كتب التاريخ والسّير ، ونحن انما نؤرخ للأدب ، ونتعرض للأحداث اذا كان لها علاقة ثقافية ومن ذلك ان الامام احتاج إلى ورق وصابون فأرسل أحد أصحابه متنكّراً الى « صنعاء » ليشتري ذلك وعلم به السلطان حاتم فاستدعاه وأكرمه وكتب معه إلى الامام :

أبا لورقِ الطلحيّ تأخذ أرضنا ولم تشتجرْ تحتَ العجاج رماح ؟
وتأخذ صنعاء وهي كرسيّ ملكنا ونحن بأطراف البلاد شحاح ؟

***

فلما قرأها الامام قال : « نأخذها ان شاء الله تعالى » ، وأطبق حصاره لها فلما عرف السلطان حاتم أن معظم القبل المحيطة بصنعاء قد مالت عنه إلى الامام ورأى عجزه عن الدفاع طلب الأمان من الامام له ولأصحابه ثم وصل الى بيت بَوس وأنشد عند مقابلته للامام قول كعب بن زهير :

انبئتُ أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمولُ

فعفا عنه الامام وطلب منه ومن أصحابه البيعة فبايعوه ، ودخل الامام صنعاء دخولا معظماً ، واستعمل على القضاء بها القاضى العلامة الحافظ جعفر بن أحمد ابن عبد السلام وخرج السلطان حاتم الى « المنظر » بمدينة « الروضة » وأرسل الى الامام قصيدة منها :

رأيت إماماً لم ير الناس مثله أبر وأوفى للطريد المشرّدِ
عفا ووفى حتى كأني عنده أخ أو حميم لست عنه بمبعدِ

ولبث الوئام بينهما مدّة ، ثم وقع الاختلاف ، وزحف السلطان بقومه « همدان » على صنعاء ودارت عدّة معارك مفصلة في كتب التاريخ في أحداث عامي ٥٤٥ و٥٤٦هـ وما بعدهما وقد جرت بين السلطان والامام ملاحاة بيانية من ذلك ما ذكره المؤرخ حُمَيْد المحلّي في « الحدائق الوردية » قال وهو يتحدّث عن الامام أحمد بن سليمان : « وكان عليه السلام حلو المراجعة ، حسن المخاطبة والمكاتبة ، ومن محاسن كلامه مخاطبة دارت بينه وبين السلطان حاتم بن أحمد اليامي ؛ وذلك ان حاتم بن أحمد طلب الدخول في طاعة الامام والاقبال اليه ، فلما يقبل منه الامام لأمورٍ قد كان عرفها منه ، فردّ حاتم بن أحمد كلاماً جافيا فردّ عليه الامام في كلام له يقول : « انه طبيب ولم ينتفع بطبّه ، وعاقل لم ينتفع بعقله ، ومعه داء لا دواء له » فردّ عليه بكلام وتمثل فيه بقول المتنبّي :

كدعواك كل يدّعي صحة العقلِ ، ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل ؟

فأجاب عليه الامام :

اذا كنت لا تدري بما فيك من جهل فذاك اذاً جهلٌ مضاف الى جهل
ولم انتحلْ ما ليس فيّ ، وإنّما مقالي حق قد يصدّقه فعلي ،
ومن جحد الرحمنَ والرسلَ لم يكن بمعترف يوماً بحق بني الرسلِ
وكل عباد الله غيرك عارف بما فيّ من أصل شريف ومن فضلِ

***

فرد السلطان كلاماً فيه بيتا شعر وهما :

لنا النهي فيما حرم الله والزجر وليس لكم نهيٌ هناك ولا أمر
فلا زال ذا فينا وذلك فيكم ، مدا الدهر حتى يأتي الحشر والنشر

***

ولا شك ان رسالة السلطان قد تضمّنت ما أزعج الامام وكأنّ المؤرخ حميد المحلّي قد تحاشى ذكرها ، واكتفى بالبيتين ، نفهم ذلك من رسالة الامام الجوابية وهي كما يلي :

لا افتخارُ إلّا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينامُ

حمدتُ من أنطق الفيلسوف بذكره وحمده ، وإن كان مبطناً من ذلك بخلافه وضدّه ، لأنه سلك في مبتداء كتابه طريقة محمودة ، لو أتمها ولم يعدْ الى الجفا والمشاتمة فيتعدّى الحدود المضروبة » .

جرى ما جرى حتى إذا قيل سابق يلاحقه عرق الحران ؛ تبلّدا

فرجع الى عادته من سلاطة اللسان ، والسلاطة آفة الانسان ، فكان مثله كمثل صاحب « المارستان » ، ولا لوم لأنه مضى يوم دخلنا عليه صنعاء بعض لبّ فؤاده ، ومضى بعضه يوم « الشرَزَة » فبقى بلا لب إلّا ما يتكلفه .

وأما ما ذكره في الذين قال انهم قد كفوه مونة الهجاء ، فقد هُجي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ هجاه ابن عمه ابو سفيان بن الحَارث فرد عليه حسان بن ثابت بقوله :

هجوت محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفوءٍ فشركما لخيركما الفداء

وما مثله هو وهم الاّ مثل البعوضة لا يدري الانسان منها الا طنينها ، فاذا طلبها لم يجدها ، وقد بلغت مكروهَهُ ومكروهَ غيره بحمد الله .

إذا شئت أرغمت العدوّ ولم أبت أقلّب فكري في وجوه النوائب

وقد هجانا أخوه الذي مات طريداً فناب عنا بعض شيعتنا فقال :

لو سار ألف مدجّج ليحلّ في عمران غير إمامنا لم يقدر
تلك الشجاعة ؛ لا شجاعة معشرٍ مثل العجائز في ظلال « المنظر »

وأما قوله : « لهم النهي فيها حرم الله والزجر » ؛ فلعل ذلك النهي والزجر عن الكلاب ، والله ما عرفتْ لهم سابقة في الجاهلية ولا في الاسلام ؛ كان أول من تسَلْطن منهم حاتم بن الغشم ؛ وذلك أنه سرق « السلطنة » من آل الصليحي إذ أنّه أسلفهم مالاً جمعه معهم فأعطاه المكرم حلقته فسرق بسبب الحلقة « عدن » ، فتبعه المكرم الى عدن فخالفه الى صنعاء فتبعه فهرب الى « براش » كما فعل هو ؛ وكذلك كانت صنعاء لآل « القُبَيْب » ، وهو مشتغلٌ في « المنظر » بالطبّ والتنجيم واللعب بالكلاب ؛ ثم افترق « آل القُبيب » ، وقتلَ بعضُهم بعضاً فخالفهم عليها ، ولم يكن لأبيه ولا

لجدّه ؛ وأما قوله : انه لا يحسن للرجل ان يمدح نفسه ، وان أحسن المدح ما يُقرّبه الضدُّ لضدّه ؛ فلا نعلم اليوم أكثر عداوة منه لنا ، فقد شهد لنا بالامامة والوفاء والزعامة فقال فينا :

رأيت إماماً لم ير الناس مثله ... أبر وأوفى للطريد المشرّد
عفا ووفى ، حتى كأنّي عنده ... أخ ، أو حميم لست عنه بمبعد

وقال أخوه أسعد في شعره :

ملكت فأسجح منعماً يا بن فاطم ... وشيّد مباني هاشم ذي المكارم
فان كنت قد بلّغت عني مقالة ... فقد تبت يا مولاي توبة نادم

وعما قليل يقول كما قال أخوه ، ويفرح ان يرجع الى ما كان عليه أبوه ؛ وقوله لا يحسن للرجل العاقل ان يمدح نفسه ؛ فقد حكى الله عن يوسف عليه السلام انه قال : « إجعَلْني على خزائن الأرض إِني حفيظٌ عليم » وقال عز وجل : ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق**﴾ (الآية) ، وقوله : اني طالب دنيا ، فلذّتي في دنياي قتاله ، وقتال أمثاله في كل ناحية ، ولي اليوم نيفٌ وعشرين سنة كلما فرغت من حرب قوم ظالمين ، قمت في حرب آخرين ، من أعداء الله رب العالمين ، ولن أبرح كذلك حتى أموت ؛ وأما قوله : فاني كفيتُه دم نفسي بأني له داء لا دواء له ، ويعلم ان الداء الذي لا دواء له هو الموت وأنا له كذلك ان شاء الله تعالى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (نحن السمّ فمن شاء فَلْيشْتَم ونحن الشم فمن شاء فليشتم) ، وأنا له داء ولضدّه دواء فليعلم ذلك والسلام وصلى الله على محمد وآله وسلم » .

ولو أنّ « المحلّى » أثبت رسالة السلطان حاتم لاستفدنا منها تاريخياً وأدبياً ، واشارة الامام الى « حلقة المكرم » وسرقة عدن بها ، لم أتفهّمها ولعل هناك تصحيف أو سقط ، ويستدل من بعض ما ورد في الرسالة انه كتبها الى « حاتم » بعد سنة ٥٥٢هـ لأنه ذكّره بوقعة « الشرَزَة » التي وقعت بينهما في شعبان سنة ٥٥٢هـ والتي انتصر فيها الامام نصراً مؤزرا .

قصيدة الحميري في وقعة « الشرَزَة »

وتعدّ وقعة « الشرزة » من الوقعات الحاسمة ، فقد تقوّى فيها مركز الامام أحمد بن سليمان ولولا ما طرأ بعدها من مؤامرة أولاد عمه « ورثة النظرية » لما تمكّن مشايخ وسلاطين الطوائف من استعادة مراكزهم وقد قيل في تلك الوقعة الكثير من القصائد ، ومن ذلك ما أنشده شاعره القاضي محمد بن عبد الله الحميري يوم عيد الفطر سنة ٥٥٢هـ .

نهنّي بك الأعياد إذ أنت عيدُها ... وإذ أنت منها بدرها وسعودُها
سبقت الى غايات كل فضيلةٍ ... بعلياء تبديها لنا وتعيدها
أقمت منار الدين يا بن محمدٍ ... وصرت كمثل الشمس بادٍ عمودُها
فأشرقت الآفاق منك بغرّةٍ ... كثيرٌ لرب العالمين سجودُها
ألستَ الذي أحييت دين محمدٍ ... وأسيافه مذ كلَّ منها حديدُها!؟
ألستَ الذي ذكرّتنا وقعاته ... وبيض الليالي قد محتهنّ سودها؟
بنجران والغيل الشهير و «صعدةٍ» ... وصنعاء والجوفين بادٍ شهودُها
ويوم نهضنا من ذمار بخيلنا ... وزيد بن عمرو يوم ذاك عميدُها
كتائب من جنب بن سعدٍ ومذحج ... تهادى بهم خيلٌ خفاف لبودُها
يهزّون أطراف الوَشيجِ كأنّما ... عليها سيوف فارقتْها غمودُها!
فلما وصلنا نجد شيعانَ أقبلت ... علينا الأعادي كهلها ووليدها
وظنوا ظنونا في الجلا كذبتهم ... أليس عن الأخياس تحمي أسودُها؟
ولما أطلّ الموت واشتجر القنا ... ودارت رحاها ثم شُبت وقودها
ركزت لهم صدر القناة كأنّما ... جبال ثبير ثَمَّ راسٍ ركودُها!
وقلت لمرّ النفس صبراً فهذه ... حياض الردى حقّاً؛ وانّي وَرُودُها
فان لم يكن نصرٌ وإلّا منيةٌ ... تكون خلاصاً لي فاني أريدها
وواساك من أهل الديانة عصبةٌ ... كثير إذا اشتدتْ، قليل عديدُها
فليت قبوراً بالمدينة بشّرتْ ... بما فعلت من بعد حين جنودُها!
صعقنا عليهم صعقةً مذحجيّة ... فكادت لها تلك الجبال تميدها
فيا للأكام السود لولا صعودها ... لقد كادت الأبطال جمعا تبيدُها؛
فخمس مئينٍ حُزَّ منها وريدها، ... وخمس مئين أثقلتها قيودُها!
وطاروا الى روس الجبال شلايلاً ... من الخوف فيها خافقات كبودُها
وسرنا لغمدان المنيف فأصبحت ... ذوائبه في الترب ثاوٍ مشيدها
وأضحى «ابن عمران» المتوّج «حاتم» ... يقول: ألا عفوا فلست أعودها

وأنت بنفس لا تزال نفيسُها   الى كل مجد أو طعان يقودُها

***

فيا بن أمير المؤمنين، ومن له   سوابق مجدٍ ليس يحصى عديدها
اذا طلبت همدان منك إقالةً   وسنحان يوما ، واستقام أويدُها
فعدْ لهم بالصفح منك وبالرضى،   فلن يبلغ الغايات إلا معيدُها
وحاشاك أن تنسى السوابق منهم   وما فعلته في القديم جدودُها!
أتعلم ان الحق قام بنصره   الى الآن قحطان بن هود وهودها؟
وتعلم قحطان وهمدان إن عَصَتْ   مقالك ان الله وهنا يريدها
أعِدْ جمعها يا بن النبيّ على الهدى   فليس يقود القوم إلّا رشيدُها
فما اجتمعت خيل الطعان بمشهدٍ   تكون به إلّا وأنت وحيدُها
ولا اجتمعت يوماً نزار ويعرب   بمجتمع إلّا وأنت تسودُها!
وكل أناس اعرضوا عنك وامتروا   فما هم من الاسلام إلّا يهودُها
وانك للمنصور من آل هاشم   وما بعدها من غاية تستزيدها
فدمت مدى الدنيا لأمة أحمدٍ   تشد لها أركانها وتشيدُها

***

ونفس محمد الحميري في القصيدة نفَسٌ بدويّ شارك برمحه وسيفه في المعارك وانظر الى البون الشاسع بين شاعر الامام أحمد بن سليمان ، وشاعر الملك سعيد الأحول اثر انتصاره على الملك الصليحي ، وقد سبق ايراد أبياته أما الحميري فانه يعرف ان نفس الامام لا تحمل الحقد ، وانه يحب العفو ويحلم عند المقدرة ، ولذلك ذكّره بما ذكر به المتنبي صاحبه سيف الدولة يوم قال :

ترفقْ أيّها المولى عليهم   فان الرفق بالجاني عتابُ ،
وما جهلت اياديك البوادي   ولكن ربما خفي الصوابُ !

وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح ، ولكلٍّ وجهة ونحيزة .

أهمّ آثاره ومؤلفاته :

سبق أن أشرت الى بعض مؤلّفات الامام أحمد بن سليمان ومن أهمّها وأكثرها انتشاراً كتابه « أصول الأحكام في الحلال والحرام » جمع فيه ما يزيد

على ثلاثة آلاف حديث وهو مرتب على أبواب الفقه ويعد من المراجع المعتمدة عند علماء اليمن وتوجد منه عدّة نسخ بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، ودار الكتب المصرية ، ومكتبة الامبروزيانا ، والمكاتب الخاصة ، ومن أشهر كتبه « حقائق المعرفة في معرفة النظر ووجوبه » قال في ديباجته : « أما بعد فقد رأيت أن انشىء هذا الكتاب وأبين فيه الحق الصواب ، وأذكر طرفاً من علم الكلام والأصول والفروع ، والمعقول والمسموع ، وأذكر تفاصيل المعارف وهي ثلاثة عشر معرفة ؛ معرفة طريق النظر ووجوبه ، ومعرفة الصنع ، ومعرفة الصانع ، ومعرفة العدل ، ومعرفة النعمة ، ومعرفة شكر المنعم ، ومعرفة البلاء ، ومعرفة الجزاء ومعرفة الكتاب ، ومعرفة الرسول ، ومعرفة الامام ، ومعرفة الاختلاف » .

ومنه عدة نسخ في مكتبة الجامع بصنعاء ومكتبة الامبروزيانا ، والمكتبة التيمورية .

كما ان كتابه « الحكمة الدرية » من أهم المراجع الزيدية وقد ألفه من مقدّمة وثمانية فصول : الأول في بلايا الأنبياء عليهم السلام ، الثاني في المضادة بين الأشياء ، الثالث في ذكر التكليف ، الرابع في فضائل واعجاز القرآن الخامس في فضائل الرسول ﷺ ، السادس في فضائل الامام علي رضى الله عنه ، السابع في فضائل أهل البيت ، والفصل الثامن في ذكر الفرقة الناجية « الزيدية » ، ومنه عدّة نسخ في مكتبة الجامع بصنعاء ونسخة بمكتبة الامبروزيانا .

وتوجد نبذة من أشعاره ضمن مجموعة بمكتبة الجامع « الكتب المصادرة » برقم ـ ٦١ ـ وكذلك قصيدته الى نشوان الحميري ذكر ذلك الأستاذ عبد الله الحبشي في كتابه « حكام اليمن المؤلفون » ص ـ ٧٩ ـ

وقد جعله الأستاذ الدكتور أحمد محمود صبحي الامام الواحد بعد الأربعين في سلسلة أئمة الزيدية ؛ وقال في ترجمته : « المتوكل على الله أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهّر ابن علي بن الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين (ت ٥٦٦هـ) ؛ امتدّ نفوذه من اليمن إلى الحجاز ، وكذلك في الديلم ، حارب القرامطة ، ومن أعوانه القاضي جعفر ابن عبد السلام (٥٠٠ ـ ٥٧٣) الذي له الفضل في نقل تراث المعتزله من العراق الى اليمن

ولولاه لاندثر » وبعد أن ذكر بعض مؤلفاته التي سبق ذكرها قال : « ويعد مع القاضي جعفر من أكبر علماء الزيدية في القرن السادس ومن أهم تلاميذه الـذين رووا عنه كتاب الأحكام الحسن بن محمد الرصّاص (ت ٦٨٤هـ) صاحب كتاب مصباح العلوم في معرفة الحيّ القيوم وعليه عدّة شروح أهمها شرح ابن حابس » ص : ٧٤٨ .

داعية عدلٍ وتوحيد .

ولقد كان الامام أحمد بن سليمان من دعاة بث العدالة الاجتماعية ونشرها ومحـاربة الأثراء الفاحش القائم على الاحتكار ، واستغلال الجاه والمنصب وإقامة مجتمع اسلامي فاضل تسوده المساواة وحريّة التفكير والتعبير في اطار مكارم الأخلاق ؛ يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر فيه العلماء وأهل الحل والعقد ، وكان يكلّف العلماء والمفكرين بوعظ الناس وارشادهم ، ومناظرة وحوار من يخرجون عمّا يراه صواباً ، وكان من أكابر من يعتمد عليه في ذلك القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام ومناظراته مع علماء المطرفية بتوجيه من الامام مشهوره ، وكذلك مع علماء الأشاعرة ، ولكنه كان شديد الوطأة على « الباطنية » ، والفجار والفسّاق ، لا يحابي في ذلك ولا يجامل ، وكان أحياناً ينكمش في هجرته على ضفاف « الخارد » ويشتغل بالزراعة ، ولما ظهر الفساد في صعدة ولم يتمكن الاشراف بنو الهادي من إقامة الشريعة وتنفيذ أحكامها وطلبوا منه النهوض الى صعدة أجابهم وبعد أن أدّى رسالته عاد الى الجوف ، ولمّا حصلت بينه وبين السلطان حاتم المراسلة وجنحا الى المصالحة والتقيا في بيت « الجـالـد » ، كانت شروط الامـام عليه هي منـع الخطبة للباطنية في صنعاء ، واظهار مذهب الهادي ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وعاد السلطان حاتم الى « صنعاء » والامام الى « الجوف » سعيداً راضياً بأن « حاتم » قد نفـذ الكثـير مما تعاقدا عليه ، والتفت الى محاربة القرامطة والباطنية في « وادعة » وغيرها .

وكان يريد أن يوحّد اليمن ويقضي على الدويلات الطفيلية والمشيخات الجائرة ، والسلطنات الطائفية ولكن صرامته فيما يعتقده حقاً وصواباً وواجباً دينياً ، قد حرّمت عليه التـلاعب السياسيّ ، والمبررات الماكرة ، التي ربما تمكن بها من الوصول الى تحقيق ما يريده ويهواه ، لو كان ما يريده ويهواه الجاه

والسلطان وحطام الدنيا من مال وخول ؛ فقد أبى أن يولّي سلاطين الجور على بلدانهم ليضمن طاعتهم وخضوعهم له ، وبذل الأتاواة والخراج ، وكان يتشدّد في إجبارهم عن التخلّي ، أو تنفيذ الحدود الشرعية فيهم إذا قارفوا إثماً ، أو انتهكوا حرمة دينية كما صنع مع « فاتك » الزبيدي وبعض السلاطين والأشراف .

ولما أراد في سنة ٥٤٧هـ أن يزحف على « عدن » بقبائل جنب ومذحج وغيرهما بهدف توحيد اليمن شمالاً وجنوباً تآزر السلطانان في « صنعاء » و« عدن » من آل حاتم وبني زُريع ، ضدّ الامام ، وبذلا أموالا واسعة لتلك القبائل ، وخذّلا عن مناصرة الامام وفشلت خطته كما فشل بعده الملك عبد النبي بن مهدي ، عندما حاول القضاء على « بني زريع » في عدن عام ٥٦٨هـ وقد استنجدوا بالسلطان علي بن حاتم ونشبت بين الجميع حروب دامية مدمّرة طاحنة سبق ان أشرنا اليها وقلنا انها مهدت السبيل للسلطان ابن أيوب « توران شاه » ، وسهلت له . . الاستيلاء على معظم اليمن في وقت قصير .

شعره سجلٌ تاريخي :

ولقد كان « إبن سليمان » يسجل معظم ما يجري له ، أو يفكّر فيه ، أو يمارسه من أحداث في نظم نجد في بعضه الكثير من الابداع الفني ، والتصوير البياني ومن ذلك قوله لما عزم على القضاء على مشيخات « وادعة » و« مسور » ، وبعض أصقاع الجنوب سنة ٥٤٧هـ من قصيدة طويلة :

لأحكمنّ صوارماً ورماحا ... ولأبذلنّ مع السماح سماحا ،
ولأقتلنّ قبيلةً بقبيلةٍ ... ولأسلبنّ من العِدى أرواحا ،
ولأجلونّ الافق عن ديجوره ... حتى يعود دجى الظلام صباحا ،
ولأجلبنّ الخيل من أقصى المدى ... لا ينثنين ، ولا يردن مراحا ،
ولأرمين بها « الخصيب» وأهله ... ولانجحنّ ملوكهم إنجاحا . . !
ولأرمين « الواديين » بصيلم ، ... و «المشرقين» وانثني صرواحا
ولأوقعن بحييّ «يام» وقعةً ... تدع الحمى للمسلمين مباحا !
يا آل مذحج انني أعددتكم ... لي في الحوادث جُنةً وسلاحا
قوم فتحت بهم «أزال» ولم أزل ... لجميع أمصار الملا فتّاحا

قودوا الينـا مقنبـاً يغشى الـربـا جيشـاً أجش عرمـرمـاً نطاحـا
لست ابن أحمد ان تركت زعـانفاً يتبخـترون وينكحـون سفـاحـا
يتـواعـدون لكـلّ ليـلة جمعـةٍ فاذا توافـوا أطـفـأوا المصبـاحـا

***

وهـو يشـير بالبيتـين الأخـيرين الى ما يروى عن « الباطنية » من ليالي الافاضة ، وهو بهذه الأبيات يظهر خطته ، ويعبر عن عزمه على توحيد اليمن والقضاء على « سلطناتها » وذلك ما أرعب آل « حاتم اليامي » بصنعاء ، وصـاحب « عدن » ، فبعثـا كما يقـول مؤلف غاية الأماني « لقبائل جنب ومذحج بدراهم واسعة » فقالوا للامام : « قد أخذنا بسببك دراهم كثيرة ، ونحبّ أن تسوّغها لنا ؛ وتترك « صنعاء » و « عدن » وتخرج الى حيث تريد إما الى بيحان أو حضرموت أو نجران أو صعدة أو الجوف » فقال الامام : « أما صعدة والجوف فهي اليّ وأما غيرهما فأخاف أن يحصل لكم فيها مثل ما قد حصل لكم في غيرها فتأخذوه » يعيّرهم بأخذ الرشوة وكان يعلم انه من دون توحيد « عدن » و « صنعـاء » لن تكمـل وحدة اليمن ؛ ثم غاضب « الامـام » تلك القبـائل ، وعاد الى هجرته قرب نهر الخارد لاقامة زراعة أطيانه ولبث على ذلك أياما ص ٣٠٧ ـ غاية الاماني . ج ـ ١ ـ

وقعة غيل جلاجل :

أراد الفـارس المجـاهد أن يستريح فلجأ الى « هجرته » يشتغل بحراثة أطيانـه في أحـدى منعـطفـات « نهر الخـارد » كما يفعل الأفذاذ في فترات « الانتظار » ؛ ولكن كيف له بالراحة والاطمئنان وأنّا له ذلك ؟ وإذا كان قد ذهب مغـاضبـاً وسـاءه أن يبيع جنوده وأنصاره أنفسهم لأهواء السلاطين ودراهمهم ودنانيرهم ، ويحولون بينه وبين توحيد « صنعاء » و « عدن » ، وهما كالقلب والبصر لأرض اليمن . . فقد كان مطمئن الضمير ـ نوعاً ما ـ لأن « آل سبـأ » في عدن لا يجاهرون بالفساد وفيهم العالم والشاعر ومن يكرم العلماء والشعراء ، وكان « آل حاتم » في صنعاء كذلك وما منهم إلا فارس شاعر وفيلسوف . ولكن ها هُم « القرامطة » وفلول « الباطنية » قد بدأوا يستعيدون أنفـاسهم في « وادعـة » ونـواحي « صعـدة » و « نجـران » ، ويحـاولـون إحياء مبـادئهم وتعاليمهم واستئناف سلطانهم ؛ بل ويجاهرون

بحفـلات لليالي إفـاضـاتهم ؛ وورثـة النـظرية « الـزيدية » من الأمـراء « الهـادويين » و « القـواسم » في « صعـدة » و « الأهنـوم » و « الشرفين » يتنـازعـون على الألقـاب والحـطام ، وإذن فلابـد للفـارس المجـاهـد « ابن سليمان » ان يعود الى حسامه وترسه ، والى رمحه ودرقته ، والى لامته وحصانه ، ويرفع صوته ، ويشهر سيفه ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر .

يقول المؤرخ السيد محمد بن محمد زبارة في كتابه « أئمة اليمن » :

« في رجب سنـة ٥٤٩هـ تسـع وأربعـين وخمسمائـة ، كانت وقعـة « غيل جلاجل » بالخانق من بلاد « وادعة » الشام ، وكان قد تظاهر قوم منهم ومن يام بمذهب الباطنية ، وأحيوا بدعة ليلة الافاضة التي يجتمع فيها الرجال والنساء منهم ، ويفضي بعضهم الى بعض بعد إطفاء مصابيحهم وربما وقع الرجل منهم على ابنته أو أخته أو أمّه « ولما بلغ الامام ذلك » غضب وسار الى بلاد الشام من جهات صعدة ، فوصل الى بلاد « بني شريف » و « سنحان الشام » ودعاهم الى جهاد أهل « وادعة » و « يام » ثم أقبلت اليه قبـائـل نهد وجنب وخثعم وقصـد بهم وادعة ويام ووقع القتال الشديد ، والمعـارك العظيمة التي انجلت بانهزام « الباطنية » وفرار من نجا منهم الى نجران وقال الامام في ذلك قصيدته التي منها :

الله أكـبر ، أيّ نصر عاجـلِ ... من ذي الجلال بفتح « غيل جلاجل »
كم منـةٍ منـه عليّ ونـعـمـةٍ ... وسعـادة تترى ، وفضـلٍ فاضلَ ،
كفـرت به «يـام» و«وادعـة» معـاً ... وتجـبّروا ، وتمسّكـوا بالبـاطـل ،
وأتـوا من الـفحشـاء كلّ كبـيرةٍ ... فعـلاً وقـولاً ؛ فوق قول القـائـلِ
دانـوا بدين البـاطنيـة وهـو من ... دين المجـوس وفوق جهل الجاهلِ

***

ومنها :

اني لحرب « الـبـاطـنيـة » قائـمٌ ... وأنـا لهم ضدٌّ ، ولست بغـافـل ؛
كم قد ظفرت بهم فلم أظلم ، وكم ... جاشت بحـرب الكـافـرين مراجلي
إنّي دمـار الـفـاسقـين ، وإنّـي ... للظالمـين كمـثـل سم قاتـل . .
وعـلى يديّ هلاكـهم ، ودمـارهم ... آتي عليـهـم بالـقـضـاء الـنـازلِ
يرجـون ان حصـونهم تنجيهم ، ... وحـصـونهم لهمُ كَكـفّـة حابـلِ

ولسوف أنفيهم بعون إلهنا حقاً، والحقهم وراء الساحلِ
يا قوم فاعتبروا بذاك وأبشروا فلقد ظفرتم بالامام العادلِ
ما بعدما عاينتموه شبيهةٌ لمميّزٍ في أمره أو عاقلِ

ص : ١٠١ - ١٠٢ -

***

زهدية :

ومن شعره السائر ما قاله وهو مقيم في بلاد « جنب » :

دعيني أطفّي عبرتي ما بدا ليا وأبكي ذنوبي اليوم إن كنت باكيا
لعلّ البكا يشفي من الوجد بعضه إذا لم يكن من ذاك للكلّ شافيا ؛
وأشفي غليلاً في فؤادي بالبكا ؛ وإن قال - حُباً لي - من الناس ما ليا؟!
وليس عجيباً ان بكيت ولو دماً ، وأذهب دمعي من بكاي المآقيا ؛
وقدماً بكى قبلي رجالٌ تذكروا رسوماً عفت عن أهلها، ومغانيا
وقد مات « همامٌ » لوعظ إمامه وصادف قلباً للمواعظ واعيا ؛
فلِمْ لَا إذاً أبكي على ما جنت يدي، من الذنب لمّا أن تحقّقت دائيا !
فهل من مداوٍ للذنوب من الملا؟ فلم ألق للذنب العظيم مداويا؛؟!
وهل لقروح في فؤادي مرهمٌ تداوي غليلاً كامنا في فؤاديا؟
وليس لذنبي من دواءٍ سوى البكا، وتوبة ذي صدقٍ، وعفو إلاهيا،
هبيني نسيت الموت والبعث فينَةً وما كان من علم الغيوب ورائيا
ألم أعتبر نفسي، ونقصان قوّتي، ولم أك للموت المشاهد ناسيا؟!
وكنتُ امرءاً ذا قوةٍ في شبيبتي فأصبح مخضر الشبيبة ذاويا!
وبدلت نقصاناً بدا في جوارحي وجاء نذير الشيب للنفس ناعيا،
فيا عجباً من غافل غير عاقل يجدّد من دنياه ما صار باليا !
ويعمر ما قد خربّ الدهر قبله يجدّد تسويفاً له وأمانيا
ومن هرم يزداد ضعفاً وقِلةً وآماله يرمي بهنّ المراميا

***

رأيت «معين» الملك قد صار خاليا فأورثني سقماً، وأوهى عظاميا
و «بينون» و «البيضاء» بادت وهكذا «براقشها»، والقصر قد كان عاليا
و « عمران » و «السوداء» و «البون» عطّلت منازلها ، والكل قد صار خاليا

وفي «هرم» ما يهرم الطفل ذكره . . وفي «كمنا» ما كان للناس ناديا
و «صُرواح» أو «غمدان» للناس عبرةٌ أباد الردى أسفاله والاعاليا
وفي كل أرض مثلهنّ مآثرٌ تزهّد في الدنيا ، وتنفي الدواعيا ؛
فيارُبّ قيْلٍ كان فيهنّ مترف وذي نخوةٍ قد كان في النّاس ساميا ؛
مضى ومضت أمواله ورجالُه وقد كان موجوداً فأصبح خاليا ،
فكيف يطيب العيش للمرء بعدهم ويصبح جوّ الدهر للمرء صافيا ؟

***

فيا أيّها المغرور؛ أقصر عن الهوى، وأقبل الى التقوى، ولا تك لاهيا
وكن جاهداً في طاعة الله ربنا ، تفزْ بالذي تهوى ، ولا تك عاصيا ؛
كفى بالبلا والموت للناس زاجراً ، وبالشيب عن فعل المظالم ناهيا!
فطوبى لمن يعطى الشهادة تحفة ، ومن كان مهدياً ، ومن كان هاديا ،
ولولا الترجّي للشهادة والهدى وأضحي الى الرحمن والدين داعيا
واعزاز دين الله بعد خموله لأشبع غرثاناً ، وأكسو عاريا ؛
وأنصر مظلوماً ، وأقمع ظالماً ، وأنقذ ملهوفاً ، وأفني معاديا ؛
لما كنتُ بين الناس أنظر فعلهم وما كنت للجهّال يوماً مدانيا ؛
وأغدو لمن عادى الإله معاديا ، واضحى لمن والى الإله مواليا ،
لَما سرتُ إلا في طريق «ابن أدهم» وكنت «لعمرو بن العُبيد» مواسيا
وكابن «حثيم» و «الجنيد» أخي التقي وما كان منهم واحدٌ متوانيا
ويمّمت أرضاً لا أرى الناس عندها وكنت لأصناف الوحوش مواخيا!
وقلت لأولادي وأهلي واخوتي وأها ودادي اليوم: ان لا تلاقيا

***

وهذه القصيدة تصوّر نفسيّة قائلها وتبرز شخصيّته التي تقمّصها مظهره كإمام فارس عالم يناضل بالسيف والقلم ؛ ومثلما مثّلَتْهُ الأبيات التائيةِ وهو شاب لما يبلغ الحلم وهو يطلب من الله أن يرزقه اليقين وان يزيده علما وان يطيل عمره حتى تكمل فروضه وتتم ؛ فها هو وقد أصبح إمام جهاد واجتهاد يقول انه لولا رجاءه في ان يخرّ شهيداً في سبيل الله واعزاز دينه ، ليشبع الغرثان ، ويكسو العاري ، وينصر المظلوم ، ويقمع الظالم ، ويوالي ويعادي في الله لاختار طريق « السالكين » والزهّاد كعمرو بن عبيد الذي

قال فيه « المنصور العباسي » ، « كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد » و« ابن أدهم » و« الجنيد » بل ولتـأبّد وآخى الوحوش سائحاً في البراري والقفار وأدغال الجبال

سجنه ، وعماه وحقد ورثة النظريّة!

ولم يتسنّ له هدف الشهادة في « الميدان » رغم خوضه لمئات المعارك الدامية ، وتعرضه للمنون مرارا ، وكانت نهايته مأساة أجرها أجر شهادة ففي سنة ٥٦٥هـ أراد القضاء على مهازل الأشراف من أحفاد الامام القاسم العياني في بعض نواحي وادعة والأهنوم ونشبت الحرب بينه وبينهم وحدث أثناء ذلك أن خرج في نفر قليل من عساكره يطوف بعض النواحي وعرف « القاسميون » ذلك فترصدوه ، ووثبوا عليه فأسروه وسجنوه في مصنعة « أثافت » بالقرب من مدينة « خمر » ؛ ومن المفارقات العجيبة التي تثير العبرة ، أن نبأ أسره وسجنه ما كاد ينتشر حتى فزع الناس لذلك « وغضبت همدان عاصيها ومطيعها حتى قرامطتها لحبسه ، وأنفوا أشد الأنفة ونزلوا على الأمير فليته القاسمي ـ الذي سجنه ـ متشفعين في أمره وقصدوه بشعر يقولون فيه :

نحن ؛ بني هاشم لكم خدمُ ... بحبلكم نلتوي ، ونلتزمُ
أنتم لنا كعبة نلوذ بها ، ... وسوحكم في جهاتها حرم
فلا تردّ الوجوه عابسةً ... عنك ؛ وقد قابلتك تبتَسمُ

فنزل اليهم فليته ، فأقسموا لا برح حتى يخرج الامام عليه السلام فأخرجه على كره منه » وهذا ما أثبته المؤرخ حميد المحلّي في « الحدائق الوردية » ص ١٣٢ ـ ج ـ ٢ ـ

أما المؤرخ يحيى بن الحسين فيقول في غاية الأماني انه بعد أن أسره الأشراف « سار أولاد الامام الى السلطان علي بن حاتم يستنجدونه على الأشراف فكتب اليهم في اطلاق الامام فأطلقه وسار الامام الى « حوث » فأقام فيه مدة ، ويقال إنه وافق السلطان علي بن حاتم في « كوكبان » وشكر له ما أسداه اليه من السعي في تخليصه من أيدي الأشراف » ص : ٣١٨ ج ـ ١ ـ

وانـه لمن سخـرية الـزمن وتصرفاته الغريبة أن تكون نهاية هذا الامام « الزيدي » على أيدي أحفاد « إمام زيدي » ! وليس ذلك فحسب بل وأن يستنجد أولاد الامام بالسلطان علي بن حاتم خصم أبيهم وابن خصمه ، وان تغضب « همدان » وحتى قرامـطتهـا الـذين أفنى عمـره في محاربتهم لحبسـه ، ويقصدون سجّانه الشريف متشفعين بشعر حزين ! . وانه لمثلٌ بشع تخزى له وجوه الطامعين .

ولا شك ان الامـام قد لسعه الأسى ، وكوى قلبه الحزن حتى أصابه العمى ، ولم تطل مدته فقد قضى نحبه في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ ست وستين وخمسمائة عن ست وستين سنة من مولده وعن أربعة وثلاثين سنة من دعوته وقبره في مدينة « حيدان » غربي « صعدة » مشهور مزور .

ظهور آراء المعتزلة في اليمن :

في أيام الامـام أحمـد بن سليمان ظهـرت آراء وأفكـار أئمـة الاعتـزال وأفذاذهم في اليمن أولاً بواسطة العلامة زيد بن أحمد بن الحسن البيهقي الذي وصل الى اليمن « زائرا » من العراق ، وأخذ عنه الامام وكان يلقي دروسـاً في جامـع الهـادي ثم بعث الامـام معه الى العراق القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، ولكن البيهقي توفّي في الطريق ، وواصل القاضي جعفـر رحلته ووصل « بغداد » وأخذ عن علمائها وابتاع ونَسَخ الكثير من كتب مشايخ وعلماء وأئمة المعتزلة الكثير ورجع بها الى اليمن وقد كان ذلك من أسباب حفظ امهات مؤلفات المعتزلة من الضياع والتلف لما اجتاح بغداد التتار .

كما أن دولـة العبيديين الفاطميين قد زالت من مصر وخطب السلطان صلاح الدين الأيوبي للخليفة العباسي في نفس العام الذي توفى فيه الامام أحمد بن سليمان .

١٢ ـ السلطان حاتم بن أحمد بن عمران اليامي [ت ٥٥٦هـ / ١١٦٢ م]

ومن إمام الجهاد والاجتهاد ، العالم الزاهد ننتقل الى السلطان الفيلسوف الطبيب الفلكي المكلِّب الشّاعر حاتم بنِ أحمد بن عمران اليامي الذي تولّى السلطة في صنعاء ونصّبته همدان سلطاناً لها سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩ م .

ولا شك ان القارىء ينتظر ويتوقّع منا ذلك بعد أن دار اسم السلطان حاتم مراراً ، ونحن نتحدث عن الامام أحمد بن سليمان وأوردنا شيئاً من أشعاره وأخباره وموالاته وملاحاته وانتصاراته وهزائمه ، وما دار بينه وبين الامام من صراع بالسنان وجدلٍ باللسان .

وأوّل من تحدّث عنه معاصره عمارة اليمني في كتابه المفيد فقال وهو يتحدّث عن شعراء اليمن وسلاطينها :

« ومنهم السلطان حاتم بن أحمد بن عمران صاحب صنعاء ، وكان القاضي الرشيد بن الزبير ـ وقد جاوره بصنعاء ـ يذكر من سؤدده ونبله ، وفواضله وفضله ، ورياسته وسياسته ، وزعامته وشهامته ، ما يقف الوصف عنده ، ولا يجاوز حدّه ، ومن شعره :

تركتُ أناساً في غضارة عيشهم ... وأمّنتهم من طارق الحدثان
وكنت لهم حصناً حصيناً وموئلاً ، ... وأصلتّ سيفي دونهم ولساني
وعلمتهم رمي العدوّ ؛ فكلّهم ... تعمّدني دون العدى فرماني

ص : ٣٢٠ ـ ٣٢١ عمارة .

***

وهذه شكوى مريرة تنفث بها ألسنة الأوفياء في كل زمان عندما يُجازى وفاؤهم واحسانهم بالغدر والخيانة ، ولا ينبئُك مثل خبير .

أسرة زعامة وشعر : وجده عمران الاسماعيلي

وبالرغم من أن السلطنة لم تكن في آل عمران اليامي بل اختارت همدان حاتم بن أحمد هذا سلطاناً بعد اختلاف بني « القُبيب » عام ٥٣٣هـ إلاّ أن جدّه عمران بن الفضل كان قاضي همدان وكبيرها ترجع اليه عند كل خلاف

وهو الذي كان يرجّح اختيار من يريدونه سلطانا يتولّى أمورهم . كما انّه كان من أوّل المؤيدين للملك علي محمد الصليحي ، وأحد أركان دولته ودعوته الاسماعيلية وكان سفيره الى الخليفة الفاطمي بالقاهرة « المستنصر » في صفر سنة ٤٥٨هـ وقد كان من رفقائه لما عزم على الحج ، واغتيل في تهامة كما تقدم ؛ ولكنه في حادثة الصليحي نجا من الموت وعاد إلى المكرم وكان أحد قوّاد جيشه الذي غزا به « زبيد » واستنقذ أمّه من أسر « سعيد الأحول » ، وعندما غادر المكرم صنعاء وقرّر أن يتخذ « جبلة » قاعدة لمملكته ولّاه على « صنعاء » وأعمالها وبعد وفاة « المكرم » واستبداد الملكة السيدة بنت أحمد بالأمر كان القاضي عمران بن الفضل من أكبر أعوانها وقوّادها ومستشاريها . وقد قُتِل على يد الشريف يحيى بن حمزة في وقعة الكظائم سنة ٤٧٩هـ /١٠٨٧ م وقيلت في ذلك أشعار أشرنا اليها في ترجمة السلطان عبد الله بن يعلي الصليحي ، وقد ثأر له ابنه أحمد بن عمران وأخوه الحسين اذ قد نزلا الى « تهامة » وتعرفا على الشريف وقتلاه انتقاما .

وكان القاضي عمران عالماً حكيماً شاعراً فصيحاً ويعتنق باخلاص « المذهب الاسماعيلي » ، ومن شعره يرثي الأمير محمد بن الملك علي الصليحي سنة ٤٥٨هـ :

غال صبري فراقُ ذي المجديْن وجفاني الكرى وأسهد عيني ،
صاح ان الندى ونجل عليّ سكنا في ضريحه لحَدَيْن !
ما رأينا ولا سمعنا بقبرٍ . . قبل هذا مضمّنا شخصيْنِ ؛

***

عتابه للمكرم لما عزله من ولاية صنعاء .

يقول الدكتور الهمداني في كتابه « الصليحيون » :

« وكان الملك المكرم قد ولّى على « صنعاء » القاضي عمران بن الفضل اليامي الهمداني أحد أقطاب الدولة الصليحية أيام سكون المكرم بذي جبلة ثم عزله عنها ، وكان ذلك من الأسباب التي كانت بها المباعدة بينه وبين القاضي عمران وفي ذلك يقول يخاطب المكرم والأمير سبأ بن أحمد الصليحي :

ولا تجرحـا بالعـزل اكبـاد معشرٍ اذا غضبـوا علّ الـقنـا وتكسّرا ؛
فلو أن مولانـا «مـعـدًّا» أتـاكـما بعـزلٍ تولّى الكـلّ منّـا وأدبـرا ؛
فلا تفـرقـا من لقّـهُ والـداكـما ، وعُـودا إلى عقليكـما ، وتـدبّـرا!
فان انـتـما انـكـرتما ما نظمـتـه فصـدقي غداً من طلعة الشمس أزهرا

***

وفي أثناء مرض المكرّم ، وصل الى باب « التّعْكَر » المسمّى بباب كُلَيْب القاضي عمران وجماعة كبيرة من الناس يريدون مقابلة الملك فمنعه القائمون على خدمة المكرّم من دخول الحصن ، لما به من مرض ، وصرفوا أمره الى الملكة الحرة بذي جبلة فأغضب هذا التصرف « عمران » وقال في ذلك قصيدة جاء فيها :

أبـابَ كُلَيـبٍ إنّـني لك هاجـرُ على أنّـني داع لمولاكَ شاكـرُ

وهي قصيدة طويلة كما حكاه صاحب العيون ذكر فيها أفعاله وسوابقه ، مع الملك علي محمد الصليحي ، وقد ظنّ أن سبب ردّه يرجع الى سوء تصرف « ابن هَبَالة » و« نجم بن بشار » وكانا يتولّيان خدمة المكرم ، وذكرهما في قصيدته هذه :

فأمّـا بديـن بابُـهُ ابـنُ هَبَـالـةٍ ومـأذونـه نجمٌ فعمـران كافـر!

ص : ١٣٧ ـ ١٣٨ » وياليت صاحب العيون أثبت القصيدة الطويلة كاملةً لا لأنها من النفس العالي والشعر النفيس ، بل ولأنّها ستصوّر حالة ذلك القاضى الاسماعيلي الهمداني في فورة إنفعاله وغضبه ، كما انّ أبياته : « ولا تَجْرَحا بالعزل الخ » نفثة لا تصدر إلّا عن زعيم ذي نفس كبيرة يعرف كيف يتوعّد ! ولقد كان ذا منزلة عالية عند الملك علي محمد ، بل وعند المكرم نفسه فقد كان إذا دخل عمران عليه ينزل عن السرير ، ويأخذ بيده فيصعده الى السرير ، وقد روى مؤلف النزهة و« العيون » انه دخل إليه ذات يوم ومعه عمران ابن الشاعر العثماني الذي شمت بأبيه الملك علي بن محمد لما أتى سعيد الأحول برأسه منصوبا على الراية الى « زبيد » ، وكان المكرم يطلبه لينتقم منه ، فلما قام المكرم لاستقباله قال القاضى عمران : « لا أصعد السرير حتّى تقضي لي حاجتي ، فقال المكرم : هي مقضية ولو كانت في أمان

العثماني . فقال عمران : ذلك أريد ، وهذا الغلام ولده وقام الغلام وأنشد قصيدة لأبيه مطلعها :

ماذا تردّ على الـركـبـان عدنـانُ ... إن لم تجُدْ بجميل الصفح قحطان ؟

قالوا : ان المكرم قال بعد تمام انشاد القصيدة : ان صدقني ظني فانك تجد أباك قد هلك ؛ إني أجد في هذا الشعر آخر أنفاسه ، ويروى ان الشاعر قد مات قبل وصول ابنه اليه ! .

ومـرة أخـرى نأسف أن « صاحب العيون » لم يثبت من القصيدة إلّا مطلعها ، ولو أنّه أوردها كاملةً مع قصيدة القاضى عمران « أبابَ كُلَيْبٍ » الخ لظفرنا بمثَلٍ من « الشعر السياسي » ، يساهم في تبصير تطلّعات من يريد معرفة المزيدً من آداب الفترة التي نؤرخ لها . ونتحدّث عنها .

أبوه أحمد بن عمران

ذلك هو جد السلطان حاتم بن أحمد القاضى عمران بن الفضل ؛ أما أبوه أحمد بن عمران فلم يصلنا من أخباره ما يدل على أنه كان كأبيه إسماعيلياً باطنيا ؛ ولم يتعرّض لذكره مؤرخ « الصليحيين » الدكتور حسين الهمداني إلّا في هامش صفحة ١٥٣ بما نقله عن ادريس عماد الدين مؤلف « النزهة » و « العيون » لما ذكر ان أحمد بن عمران قد قام مع أخيه الحسين بقتل قاتل أبيهما وأخذا بثاره ، ولو كان له أيّ نشاط سياسي أو أدبي في بث وتأييد الدعوة الاسماعيلية مثل أبيه عمران لما أهمله الدكتور الهمداني .

ومـا ذكـره الامام أحمد بن سليمان في رسالته التي أجاب بها على رسالة السلطان حاتم وسبق ايرادها ، والتي يقول فيها : إنه لم تُعْرَف لآلِ حاتم سابقة لا في جاهلية ولا في اسلام ، وإن أول من تسلطن من همدان حاتم بن الغشم ثم انتقلت السلطنة على « صنعاء » لآل « القُبَيْب » حتى إذا قتل بعضهم بعضا تسلّل حاتم اليامي الطبيب المكلِّب الى حكم « صنعاء » الخ قد دفعني الى البحث والتنقيب في كتب التاريخ ؛ ما طبع منها وما لايزال مخطوطاً واستخلصت ما يلي :

قاتل الجواري والزوجات ودولة بني القُبَيْب ! .

لمّا ضعفت دولـة الصليحيين بعـد وفـاة الـداعي « سبأ » سنة ٤٩٢هـ

استولى على صنعاء وأعمالها السلطان حاتم بن الغشم المغلّسي وأطاعته قبائل همدان وكان له من الولد ثلاثة أحدهم محمد بن حاتم وكان شجاعاً وله فتكات مشهورة وقد ساعد أباه في ضبط الأمور وقام بكثير من أعمال السلطنة ، حتى حدثت منه أمور دلّت على شذوذه واختلال عقله منها انه إذا عشق جارية قتلها ، وإذا تزوج امرأة وأحبّها ذبحها أو أحرقها ، وطرح ذات يوم جاريةً له كان يحبّها وعليها حلي في قُبّة لليهود أوقدوها للفخار فاحترقت ، وندم وأراد أن يحرق نفسه فلزمه أصحابه ومنعوه ، وقد شاع أمره فامتنع الناس من تزويجه ؛ ثم خطب فتاة من بني الصليحي أهل « قَيْظَان » فأبى أهلها تزويجه بها خوفاً عليها ، وبعد الحاح أجابوه شريطة أن يكفل أبوه السلطان حاتم عليه ان لا يقتلها ، ولم يزل يلّح على أبيه حتى استجاب وكفل عليه وقال له في محفل من المشايخ والزعماء : « إن قتلتَها قتلتك بها » ، فتزوّجها وبعد مدّة قتلها ولحق بحصن « براش » خوفاً من أبيه الذي ما برح يراسله ويخادعه حتى نزل من الحصن الى سفح جبل « نقم » ، فقتله واجتز رأسه ورفعه على رأس رمح ودخل به « صنعاء » ؛ قال يحيى بن الحسين « وكانت له بنت قد اشتاقت اليه فلما سمعت بخروج جدها الى أبيها انتظرت وصوله ففوجئت برأسه فماتت ، وقيل بل جنت » [ص ٢٨٠ ـ غاية] .

وقد حزن السلطان حاتم بن الغشم على ابنه حزنا عظيما وقال :

وأرْتُعْتَ رأسَ الأريحيّ محمداً	**من البيض مشحوذ الغِرارين صارما**
وقلت له : هذا قصاص بما جنت	**يداك ، وكان الله روحك راحما !**
وقد كنتُ ان جشمته لملمّةٍ	**رأيت فتى للمعضل الخطب حاسما**
وإن كشّر اليوم العبوس رأيته	**إذا طاشت الأحلام أروع باسما**

***

وتوفي حاتم هذا سنة ٥٠٢هـ فوليّ الأمر بعده ابنه عبد الله الملقب « العادل » وقتل بالسمّ فولى الأمر سنة ٥٠٤هـ أخوه « معن » فحصل في دولته تشويش على همدان وانكرت عليه تخبّطه لا سيما القاضى أحمد بن عمران « وكان يومئذٍ عالم همدان والمستضاء برأيه والمرجوع الى اختياره فجمع رؤساء همدان وخلع « معنا » عن الأمر سنة ٥٠٥هـ وقدم عليهم السلطانين الأجلّين هشاماً وحماسا إبني « القُبيْب » بن ربيح ، فقبلوا ذلك

واشترطوا عليهما حسن السيرة والعدل في الرعية ، واجتمعت قبائل همدان ، ودخلوا بهما صنعاء ، وحصروا السلطان معن بن حاتم في الدرب ، فخرج على يد القاضي أحمد بن عمران واستقرّ في حصن براش ؛ واستقام الأمر « بالقُبَيْبيّين » وكان منوطاً بأكبرهما هشام إلى ان توفي وانفرد بالأمر أخوه الحماس » هذا ما ذكره الخزرجي [ت ٨١٢هـ] في كتابه العسجد المسبوك ؛ وهو كل ما نعرفه عن القاضي أحمد بن عمران والد السّلطان حاتم ؛ ولكن قول الخزرجي انه « كان يومئذٍ عالم همدان والمستضاء برأيه والمرجوع إلى اختياره » ، وخلعه للسلّطان « معن » بن حاتم بن الغشم ، ونقل السلطنة الى « إبني القُبَيْب » يدلّ على انه احتل مكانة أبيه عمران ، وكان له شأن في « همدان » ، كما اننا نعلم أن « روضة » صنعاء تنسب اليه فيقال « روضة أحمد » . وما كان لي أن أستطرد فأذكر ما هو الى التاريخ السياسي أقرب ، لولا أن فيما استخلصته ما له علاقة بالأدب ، وسجل الشعر فيه مأساة تكاد أن تكون خيالية بل هي أغرب من الخيال .

كيف انتُخب حاتم بن أحمد سلطانا ؟

ولعل مكانة القاضي أحمد بن عمران اليامي لدن قبيلة همدان وقيامه بعزل « ابن الغشم » ، وتنصيب « ابني القُبَيْب » قد مهد لوصول شاعرنا الفيلسوف حاتم بن أحمد الى كرسي السلطة ، أما كيف كان ذلك ؛ فيحكي المؤرخون أن آخر سلطان من « بني القُبَيْب » لما حضرته الوفاة جمع اخوته وهم : ابو الغارات ، وعامر ، وأبو الفتح ، ومحمد وهو أصغرهم ، فحضّهم على الألفة والتساند وأن يجعلوا رئيسهم أبا الغارات ، وأن يحلفوا له ، فلم يفعلوا ، وقالوا : لا نحلف لأحد ، ولا تقدّم علينا إلّا محمداً فلما رأى ما هم فيه بكى ، فقالوا ما يبكيك ؟ فأنشد متمثِّلاً :

فما الموت أبكاني ، ولا القبر راعني ... ولا من حذار الموت يا صاح اجزعُ
ولكن أقواماً أخاف عليهم ، ... وأخشى بأن يعطوا الذي كنت أمنع
وتصبح آراء الرجال عليهم ... تجوز ، واصلاح الدنية توضع

***

ومات من ساعته ، فاختلف اخوته ، وتفرّقت آراءهم ، فاعتزلهم أهل صنعاء ، فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة : ٥٣٣هـ اجتمعت همدان

كافة ، وقصدت السلطان حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي فحملته على القيام بالأمر والاضطلاع به ، فقام به أتم قيام ، ودخل صنعاء في تسعمائة فارس من همدان .

صفاته وشعره :

سبق أن ذكرت ما قاله معاصره المؤرّخ عمارة اليمني عن سؤدده ونبله وكياسته وزعامته ، وكل المؤرخين يجمعون على انه كان عالماً أديبا شاعراً له معرفة تامة بالطب والفلك ، وحتى خصمه الامام أحمد بن سليمان لم يستطع وهو في مجال الملاحاة إلاّ أن يصفه بالفيلسوف و « الاشتغال بالطب والتنجيم واللعب بالكلاب » ! وقد ترجمه الخزرجي في « العسجد المسبوك » وسماه « حميد الدولة » و « كريم همدان » وقال : « كان له من المفاخر ما لم يكن لأحد قبله ، من الفصاحة والرجاحة ، ولم يجتمع لأحد من عتاق الخيل وجيادها مثلما اجتمع له » ، وبعد ان ذكر ما سبق ايراده من محاربته للامام أحمد بن سليمان ، وما دار بينهما من أشعار ، قال : ان السلطان حاتم بعد انهزامه في وقعة « الشرزة » واجتماعه بالامام ، ومبايعته وقول الامام له : « قد عفونا عنك يا سلطان العرب » قال لما رأى الناس قد اجتمعوا على حربه مع الامام :

غلبنا بني حوّاء شرقاً ومغربا ... ولكننا لم نستطع غلب الدهر ،
فلا لوم فيما لا يُطاق ؛ وإنما ... يلام الفتى فيما يطاق من الأمر ،

ومادار بينه وبين الامام من معارك مذكور في كتب التاريخ ؛ غاية الأماني ، والعسجد المسبوك ، وطراز أعلام الزمن وقرّة العيون وغيرها .

ومن مواقف السلطان حاتم الحاسمة والتي تدل على كياسته وحسن تدبيره ، ولباقة سياسته ، وعلى جوده وكرمه ما وصفه « الخزرجي » ورواه عنه بعد أن فسد ما بينه وبين الامام أحمد بن سليمان ونشبت الحرب من جديد قال :

« ثم أن السلطان حاتم جمع جموعه من همدان وقصد بهم صنعاء فلما علم بهم الامام خرج من صنعاء إلى موضع يقال له شعب الجن ـ من ظاهر نقم ـ لأنه قد تفرقت عنه أعوانه فتحصن فيه واستنجد بقبيلة جنب (التي كانت تسكن هرّان ذمار) فقصده السلطان حاتم إلى محطته فقتل من عسكر الامام

طائفة وتبع رجل من همدان رجلين قد ركبا ناقة وهربا في ذلك اليوم فطعنهما طعنة واحدة نظمهما بالرمح فسمى النظام من ذلك اليوم ورجع السلطان الى صنعاء واستمر في حكم البلاد ثم سار الامام إلى جنب القبيلة المذكورة يستنجد بهم وكان بين جنب قتلى كثيرة فيما بينهم فأراد الامام أن يصلح بينهم ويجمع كلمتهم فلما علم السلطان بذلك ركب في أفراس من همدان لا ثقل معهم ولا رجالة فوصل قريبا من ذمار وجنب مجتمعة بأسرها فلما أقبل السلطان حاتم ومن معه أنكرتهم جنب وقالوا نرى أفراسا وهي لا شك همدانية فعرفوا السطان حاتم فرحبوا به ودخل منفرداً وسط الحلقة على حصانه معتقلا رمحه فقال حياكم الله يا وجوه العرب لا يعيب عليّ من خلفي فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، ولا وجهين في رأسه ، ثم قال وصلناكم يا وجوه العرب لأمر لكم فيه شرف ، ولنا فيه عز الى حين يعني ان لكم شرف وصولنا اليكم ولنا فيه عز بكم لسلامة بلادنا من العدو فعرفت جنب مقصوده فقال لما علمت انكم في طلب اصلاح وأخذ ذمم بينكم ، وهدم قتول من عشائركم رأيت أن ألمّ شملكم وأقطع ما تحاذرون ، وأتحمل من مالي ديات قتلاكم فحمدتْه على ذلك جنب ومن حضره من قبائل العرب ثم افترق ذلك الجمع وسار معهم الى ذمار وكتب الى أهله بصنعاء :

مملوك بعضِهمُ ، ووالد بعضهمْ وشقيق بعضهمُ ، وهذا جامعُ !
ينبيهموا حملي ديات عدة ان المكارم في الرقاب ودائع
فليسرعوا من فورهم تصديرها متعمدين نفاذ ما أنا صانع

***

ونفذ بالكتاب رسول على الفور فما لبث أن عاد الرسول بالمال وكانت ديات جمة دفعها إلى جنب وعاد الى صنعاء . وكان السلطان حاتم شاعرا فصيحا لبيبا ومن شعره قوله :

ارقت وطال الليل والعقل نائمه وقد أَفَلَتْ اشراطه ونعائمه
وأورى زناد الهم في القلب جذوة إذا جاش من تياره متلاطمه
يطفئها العزمُ الذي عُرِفَتْ به إذا لم يطفئها من الدمع ساجمه
وما ذاك من شوق ولا نأيِ معهد ولا فقْد رسمٍ دراسات معالمه
ولكن إذا خان الصديق صديقه وصارم بالأوهام من لا يصارمه

ونكب عنا من نريد وداده ... وسالمنا من لا نريد نسالمه
تعذر غمض العين وانتزح الكرا ... وباح من الأسرار ما أنا كاتمه
غدا مايلا عنا خليلٌ نوده ... على غير جرم بل علينا جرائمه
ولائم قوما غيرنا متكتما ... وجاهرنا باللوم فيمن نلائمه
ونجَّم فينا بل تنجم عازما ... وسلمنا البادي وضاعت عزائمه
وسامحته كي يرعوي فارعوا سوى ... مقالته لا أستطيع أخاصمه
ولو أنني حاكمته لحجته ... ولكنني من حشمة لا أحاكمه
فيا صحبتي لينوا له وارفقوا به ... ليستل منه حقده وسخائمه
اقلوا عليه العتب يصفو وداده ... وما كان في الحوباء فالله عالمه
ولا تيئسوا منه ولو ان عوده ... عسى فهو لدن العودو الود سالمه
سعى جاهداً في خدمتي غير هائب ... ملاما ولم يردعه عنها لوائمه
فلما بلغنا غاية ليس بعدها ... مرام رأيت الود مالت دعائمه
وعاد إلى ضد الذي كان فاعلا ... وعاوده وسواسه وهماهمه
ودمت على ودي له حين لم يدم ... وخير وداد المرء ما هو دائمه
وضاعت على قرب العهود عهوده ... وما نفعت ايمانه ولوازمه
أعاتبه حينا وحينا أصونه ... وطورا أناديه وطورا أكاتمه
وأرجو رجوعاً منه وهو مصمم ... على غيه حتى كأني ظالمه
وما لامني الا ملوم مفند ... ولا لامه الا على النكث لائمه
وما أنا من اخلاصه الود آيسُ ... وان لج في اغرائه من ينادمه
دليل صفاء الود في المرأ بشره ... وشر خليل عابس الوجه واجمه
وللود ما بين الأخلّاء شاهدٌ ... أحاديثهم عند المغيب تراجمه
أبا منذر ؛ إن كان عندي عُتَيْبَةٌ ... وخبّ ، فأعلمني بما أنت عالمه
ولا تَذْرِ قولاً كالرياح مبدّداً ، ... وكفّ جماح الشعر إذ أنا لازمه
وان كنتَ ذا عجب بما قد نظمتَه ... فلست بذي عجب بما أنا ناظمه

***

ولا شك ان السلطان حاتماً كان يخاطب بهذه القصيدة صديقاً عزيزاً شاعراً ، كان قد أفسد بينهما الوشاة وان « أبا منذر » هذا ، قد أفرط في لوم السلطان ونظم أشعاراً فيها شيء من اللّومِ والمنّ ، ثم يواصل السلطان نظامه ناصحاً متوخياً إعادة الصفاء معرّضاً بوصف أحد خيوله العتاق ؛ وان

صحبته له قد تغنيه عن المتلونين من الأصدقاء فيقول :

دعِ المن أما كنت أسديت صالحا … فمن الفتى ما كان أسداهُ لائمه
وتمِّمْ على ما قد تقدم بيننا … فافضل فعل العالمين خواتمه
ورم صالحا في كل سعي سعيته … ليبلغك الرحمن ما أنت رائمه
واقدر سام مخفر الجنب طامح … بعينيه نهر واضح الوجه ساهمه
صبيح محياه طويل عنانه … لبان مثانيه حداد مناجمه
قصار شواسيه ، طوال ضلوعه ، … عراض حواميه ، لطاف شكائمه
شديد صفاق البطن أعيط شوذب ، … صلاب على طول المغازي قوائمه
سليم الشظا عبل الشوى سنح النسى … شديد القصيرى سالمات مقادمه
وفي بها سارَرْتَه وعهدته … إليه ، إذا أودت بخل نمائمه
غنيت به عن صاحب متلون … كحرباء قَيْضٍ لوحته سمائمه
فدونكها كالبدر ليلة تمه … وكالعنبر الشحري فضت لطائمه
يهذبها فكر تحضر بعد ما … بدا فهو صمصام الكلام وصارمه
خبير بأبكار المعاني وعونها … وبالشعر نيطت عليه تمائمه

***

وقد حرف الناسخ الكثير من ألفاظها وبذلت الجهد في ضبطها وتصحيحها .

وكان للسلطان حاتم مهر يحبّه سماه « الرَّازقي » وكان يصلّي الظهر بالمنظر (الروضة) فيركبه فيصلي العصر في « شبام حمير » تحت حصن « كوكبان » وبينهما مسافة ثمان ساعات كان يفعل ذلك عدة مرات وهو القائل فيه .

ليس للرازقي فيما علمنا الآن … ذنب نعده في الذنوب
غير صبرٍ وحدّةٍ ووقار … ونشاط مع الوقار وطيب

***

ومن شعره :

ولي قائد نحو المنايا وسائق … يسوق إليها أو إليّ يسوقها
وهن المنايا أي واد سلكته … طريقي عليها أو عليّ طريقها !

***

وله بعد أن انتخب سلطانا :

يقولون لي قد حزت مملكة الدرب … فأدمنْ على اللذات واللّهو والشرب ،
ولا تهجر الصهباء فهي لذيذة … مسهّلة ما كان من خلق صعب
فقلت اذْهَبُوا عنّي فلست ببارح … على مذهبي ؛ حسبي به مذهبا حسبي
صبا القوم فانصبّوا الى أم ذفرهم … ولست بمنصبٍ اليها ولا صبِّ

***

وختم الخزرجي حديثه عنه بقوله :

« وتوفي السلطان حاتم بن أحمد يوم الجمعة العاشر من شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة ٥٥٦هـ /١١٦٢ م وكانت وفاته بدرب صنعاء ، ولما رأى الشيخ الأديب عبد الله بن علي جنازة السلطان حاتم بين أعناق الرجال من همدان وقد حملوه من درب صنعاء الى « المنظر » قال :

حقّا أحاتم ما تنفك منصلتا … حياً وميتاً أمام الجحفل اللّجب
ما إن رأينا وهذى عادةً خرقت … طوداً يسير على الأعناق في خبب !

***

مذهب السلطان حاتم :

بقي أن نتساءل هل كان السلطان حاتم بن أحمد « اسماعيلي » المذهب ، باطنيّ العقيدة ؟ أم كان « زيدياً » صحيح العقيدة ؟ أم كان فيلسوفاً ألمعياً خرّاجاً ولآجاً يظنه البعض اسماعيلياً كجدّه « عمران » ويُبرّؤه آخرون ؟

أما جدّه عمران فلاشك في انه كان اسماعيلياً بل من أقطاب الدولة الصليحية ومؤسّسيها . وأما السلطان حاتم فقد ترجمه العلامة المؤرّخ أحمد بن صالح ابن أبي الرجال في كتابه « مطلع البدور » وهو لا يترجم إلاّ لأعلام الزيدية والمحتهدين منهم ولذلك لم يترجم لجده عمران ولا للشاعر عمارة اليمني أو السلطانين الخطّاب وسليمان وابن ابي عقامة ، وابن القم ، وأضرابهم وقد قال في ترجمته :

« كان عالماً باللغة ، محقّقاً حافظاً لأيام العرب وأمثالها وأشعارها ؛ متكلّما في كل نوع من أنواع الكلام بعبارات ملوك العلماء ، والمشهور انه من غير طائفة « الزيدية » كثّرهم الله وقوّى أعضادهم ، ويفهم ذلك من قول الامام

المتوكل على الله أحمد بن سليمان مجيبا عليه في كتاب وجهه السلطان إليه ؛ لأنه أراد الدخول في طاعة الامام فلم يقبله لأمور عرفها عنه ، فتكلّم السلطان بكلام جاف وتمثّل بقول أبي الطيّب :

كدعواك كل يدعي صحة العقل ... ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

فأجابه الامام عليه السلام :

اذا كنت لا تدري بما فيك من جهل ... فذاك إذاً جهل مضاف إلى جهل
ولم أنتحل ما ليسَ فيّ ، وإنّما ... مقالي حقّ قد يصدّقه فعلي
ومن جهل الرحمن والرسل لم يكن ... بمعترف يوماً بحق بني الرسل
وكل عباد الله غيرك عارف ... بما فيّ من أصل شريف ومن فضل !

***

فهذا من كلام الامام وفيه التلميح بقوله : « ومن جهل الرحمن » إلى آخره ان المذكور كما يقال « باطني » ، ولكن الأمير الحسين مؤلف الشفا [ت ٦٦٢هـ] ذكر ان الأمير « فليته » اعترض على الامام أحمد بن سليمان بالاستعانة بالسلطان حاتم وولده علي فردّ عليه الامام بكلام قال فيه : « فأما السلطان الأجل علي بن حاتم فانّه مباين للباطنية بالقول والفعل محارب لهم على ذلك هو وأبوه وجدّه ؛ أما هو فحربه لهم مشهور ظاهر ، وأما أبوه حاتم فكان يمقت الباطنية ويتبرّأ منهم وله شعر يقول فيه :

برئتُ من « الذؤيب ومن عليٍّ » ... ومن « مأذون » همدانٍ بريتُ
« مواذينٌ » عموا ، وغووا هداهم ... فان شايعتُهم فلقد عميت ،
ظموا ، ورويت من ماءٍ معين ، ... ولو اني صحبتهمُ ظميتُ !
شقوا بخلافهم للدين حقاً ـ ... وخالفتُ الغواة فما شقيتُ ،
ولو اني أشاء شهرت منهم ... فضائح لا تواريها البيوتُ
أأخشى الناس في ديني وأغضي ... كأني بعد ذلك لا أموتُ ؟
وقومي « مذْكرٌ » وشبا حسامي ... لساني مثله لولا الصموتُ
فان ترني وإيّاهم جميعاً ... فقل : كيف التقى ضبٌّ وحوت ؟
ولو وردوا الفرات لنجسوه ... ولم يك طاهراً حتى يموتوا

***

والذؤيب المذكور في الشعر هو الذؤيب بن موسى « المأذون » الوادعي كان في عصر الامام أحمد بن سليمان والسلطان حاتم وكان « مأذوناً له » ، وهيَ مرتبة من مراتب أهل الباطن ، وقبره بحوث وكان « باطنيا » إلى أن قال : « وعليّ المذكور في شعر حاتم هو علي الشاكري ومثلما نقل الأمير الحسين نقل السيد صارم الدين ابراهيم بن محمد الوزير [ت : ٨٤٠هـ] قال : قال الامام : علي بن حاتم مباين للباطنية وأبوه حاتم » ثم قال ابن ابي الرجال : « وأما عداوته للامام ونكثه وبغيه فأمر لا يخرجه عن الانتماء الى غير « الباطنيّة » فكثير من « الزيدية » المائلين الى « الرئاسة » قد فعل وأضّله الله على علم » . ثم أورد شعر السلطان في الامام أحمد بن سليمان الذي سبق ذكره في ترجمة الامام . وقال : « وكان السلطان المذكور مع ما وصفناه من معارفه له معرفة بالطب والنجوم وغيرها وله أشعارٌ وأخبار ، وفي أولاده من يتظاهر « بالتزيّد » والمحبة كعلي بن سعد بن علي ابن حاتم كان محبّاً مخلصاً ، وعلي بن حاتم المذكور الذي استعان به الامام أحمد بن سليمان جليل القدر وكانت صنعاء بيده بعد أبيه فلما خرج سيف الاسلام [توران شاه] تحصنّ بأهله « بذي مَرمر » وأما محمد بن حاتم العالم الشاعر فهو مصنف كتاب « الصريح » وعقبه على ما يقال قضاة غولة سعوان » ثم تكلّم عن حاتم ابن الغشم ، وحاتم بن القبيب وان أخبارهم قد تلتبس بأخبار السلطان حاتم اليامي بجامع الاسم وقال « وقد نسبهم بعض السادة من آل الوزير جميعاً إلى « الحجازيين » القادمين لنصرة الصليحي » [ص ٤١١ ـ ٤١٥ ـ مطلع البدور] .

رأي مؤرخ الصليحيين

والدكتور حسين الهمداني مؤرخ الصليحيين قد ذكر ان القاضى عمران كان من أقطاب الدعوة الاسماعيلية وقال : « ولما توفيّ الذؤيب [عام ٥٣٦هـ] خلفه السلطان ابراهيم بن الحسين بن أبي السعود الحامدي الهمداني في سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان مقرّه صنعاء وذلك لأن رياسة الدعوة لم تجد بعد وفاة الملكة الحرّة حلفاء أقوياء يحمونها من اعتداء المعتدين إلا الدولة الهمدانية بصنعاء يرأسها الملك حاتم بن أحمد الهمداني اليامي حفيد القاضى عمران بن الفضل اليامي وكان للقاضى سوابق حميدة وجهاد في تأييد الملك علي بن محمد الصليحي والملكة الحرّة كما ذكرنا سابقاً » [ص ٢٧٠] وإذا

فالسلطان حاتم بن أحمد كان حليفاً وحامياً للدعوة الاسماعيلية وليس مؤيداً ومجاهداً في سبيلها ، وقطباً من أقطابها ، كما كان جدّه عمران في نظر الدكتور الهمداني وثمة فرق بين « المؤيد المجاهد » ، و « الحليف الحامي » ، ويؤكد ذلك الدكتور بقوله : « وكان الكفاح مريراً منذ سقوط الدولة الصليحية ولم تجد الدعوة [يعني الاسماعيلية] معيناً ولا ناصراً من سلاطين اليمن يحميها من وطأة الحروب القائمة بين ملوك الغز [الأيوبيين] والسادة الأشراف . فتمسك « الداعي » بسلاطين آل حاتم اليامين الهمدانيين الذين كانوا يعطفون على أهل الدعوة [الاسماعيلية] لا من أجل عقيدتهم بل احتراماً لاتصال جدّهم القاضى عمران بن الفضل اليامي بالصليحيين وبالدعوة واحتراماً لحقوق الجوار » [ص : ٢٨٨ ـ الصليحيون] .

دفاع ابن ابي الرجال عن السلطان حاتم

وهذا البيان يؤيّد ما نقل عن الامام أحمد بن سليمان ومال اليه المؤرّخ ابن ابي الرجال من أن السلطان حاتم وأباه وابنه لم يكونوا مذهباً وعقيدة إسماعيليّين أو باطنيّين ، بل حموا فلولهم بعد أن تلاشت دولتهم الصليحية ، احتراماً لجدهم الاسماعيلي القاضى عمران ، ومراعاةً لحقوق الجوار ، بعد التجاء رؤساء الاسماعيليّين وأتباعهم الى التستر وتحصنّهم بالمعاقل والحصون .

ودفاع « ابن ابي الرجال » عن السلطان حاتم وميله الى تبرئته من عقيدة الباطنية بقوله : « وأما عداوته للامام ونكثه وبغيه فأمر لا يخرجه عن الانتماء » الى آخر ما قال جدير بالتأمل ولا سيما من قبل من يتشبثون بالإمامة الزيدية دون تمييز بين اعتناق مبادئها نظريّاً أو تقليدياً ، وبين تطبيقها سياسةً وسلوكاً واجتهاداً ؛ ولم يقل « ابن ابي الرجال » ما قاله وهو : « وكثير من « الزيدية » المائلين الى الرئاسة قد فعل » [أي عادى الامام ونكث وبغى] وأضلّه الله على علم » أي ولم يخرجه ذلك عن الانتماء الى « الزيدية » إلّا وقد استوعب ما قرأه وعرفه بل وشاهده خلال ثمانمائة عام منذ قام الامام الهادي عام ٢٨٤هـ والى قبيل وفاة « ابن أبي الرجال سنة ١٠٩٣هـ وهو ما سبق أن بيّناه في فصل « الامامة الزيدية نظرياً وتطبيقا ؛ وما آمل أن يستوعبه الألباء ممّن يرجون « المودّة » أو أجرها ، وأن ينفضوا أيديهم من « الشرط الرابع

عشر » ، الذي يخصّهم بالسلطة بدلاً عن المودّة ، وليتذكّروا قول الشاعر :
نصف أهل الأرض أعداء لِمَنْ ولي السلطةَ ؛ هذا إن عدل .
وأجرُ « المودّة » خيرٌ وأبقى .

١٣ ـ جوهر بن عبد الله المعظّمي الزريعي [ت حوالي ٥٩٤هـ]

من سلاطين اليمن الذين اشتهروا بالعلم والتأليف في هذه الفترة السلطان جوهر وقد ترجمه ابو محمد عبد الله الطيب بامخرمة في كتابه تاريخ « ثغرعدن » فقال : « ابو الدرّ جوهر بن عبد الله المعظّمي نسبة الى سيّده الداعي المعظم محمد بن سبأ بن أبي السُعود ، كان والياً في حصن الدُمْلُوة من قِبَل سيّده محمد ابن سبأ فلما توفي محمد بن سبأ خلَفه ابنُه المكرّم عِمْران بن محمد بن سبأ فأبقى جوهراً على نِيابته في الدملوة فلمّا دنتْ وفاة المكرّم جعل جوهراً المذكور وصيًّا على أولاده الصغار كلّهم فنقلهم جوهر إلى الدملوة وأكرمهم وقام بكفايتهم أحسنَ قيامٍ وعضده على ذلك الشيخ ياسرُ بن بِلال بن جَريرٍ المحمّديّ .

وكان ياسرٌ وزيرا لِعمْرانَ ومُدبرا في الدولة كما كان مع ابيه ولم يزل جوهر قائماً بكفاية أولاد سيده وحافظاً لحصن الدملوة وأمرُه نافذٌ في عدن ونواحيها وهو مصالحٌ لبني مَهديٍ بمال يحمله إليهم كلَّ سنة حتى قدم السلطان المعظّم توران شاه بن أيوب فأخذ عدن ولزم ياسرَ بن بلال ولزم معه عبده مِصْباحاً المسمى بالسُداسيّ فوسطهما وقيل شنقهما بذي عُدَينة ، ثم رجع توران شاه الى مصر كما تقدم والأستاذ جوهر على حاله من العزم والحزم مقيماً بحصن الدملوة الى ان قدم سيف الاسلام طُغْتكين بن أيوب في تاريخه الآتي ذكره واستولى على جُلِّ مملكة اليمن وغلب على كثير من حصونها ومدنها فرأى جوهرٌ أنّ لا طاقةَ له به إنْ قصده فباع عليه حصن الدملوة في سنة ٥٨٤هـ واشترط ان لا يَنزل من الحصن ولا يطلع لهم نائبٌ حتى يكون عيالُ سيده كلُّهم خلف البحر من ناحية برّ العجم واشترط انّهم يركبون من أي ساحلٍ من البحر أرادوا فأجابه سيف الاسلام الى ما سأل لِما علم من صُعوبة الحصن وأنّه لا يُؤخَذُ قهراً فلمّا توثّق جوهر وقبض المالَ الذي اتّفق عليه الحال

جهّز أولاد سيده من البنين والبنات الى ساحل المَخا وسار معهم في زيّ امرأة منهم وأخذ مضنونهم فنزل به صُحبتَه إلى ساحل المَخا وكان قد أرسل من هيأ له سُفُناً هنالك فلمّا وصل الساحل ركب مَواليه وركب معهم وسار إلى برّ العجم وترك نائباً له في الحصن يجهّز بقيّة أموالهم وما يَحتاجون له وكتب له عِدّةَ أوراقٍ في كل واحـدة منها علامة بخطّه فكان النائب إذا احتاج إلى كتاب الى سيف الاسلام أو الى بعض آمرائه كتب اليهم في تلك الأوراق التي فيها علامةُ جوهر فلا يَشُكّون انّه واقفٌ في الحصن وكان سيف الاسلام قد أضْمَرَ له إذا نزل لَزمه واسترجع ما أعطاه من المال وما أراد أيضا فلمّا فرغ ما في الحصن من نَاطقٍ وصـامت نزل النائبُ وقد صار الطَواشِي وما معه خلف البحـر فسُئـل النَـائب عن الطواشي فقال إنّه أولُ من نزل فعجب سيف الاسـلام منـه وقال ينبغي استخلافه علي الحصن يقلّ وجودُ مثلِه في دينه وحزْمِه وعزْمِه ، كان جوهرٌ المذكور خادماً تقياً عاقلا ذكيّا عاملا عالما حافظا كاملاً فقيها مقْرئَا أجمعَ فقهاء عصره على تسميته بالحافظ لأنه كان لا يحفظ شيئاً فيَنسـاه ، له مصنَّفـات كثيرة في القراءات والحديث والوعظ ، ومن مصنّفاته في الوعظ كتاب تذكرة الأخيار وذخيرة الأسرار وما أحسنَ قولَه في خطبتـه : « لما علمت ان الموت موردي ، والقبر مشهدي ، جعلته تنبيها لنفسي من الغفلة ، وتذكرة لي قبل يوم الرحلة ، لعل الله يتغمدني بالعفو عن قبيح ما أسـديته ، ويتجاوز عن شنيع ما جنيته » ، وأفهَمَ في خطبة هذا الكتـاب انـه قد صنف كتـابين سمى أحدهما كتاب المناجاة والدعوات ، وسمى الآخـر كتـاب الـرسـائـل وشريف الـوسـائـل ، ولـه كتـاب سماه « اللؤلؤيات » جعله فصولاً في المواعظ ، واستفتح كل فصلٍ بحديث أسنده عن رسول الله ﷺ ، وكان يحب الفقهاء من أهل السنة ويجلّهم ويحترمهم ، ويكـره مذهب مواليه [أي الاسـماعيليين] ولـه خطٌّ حسن نسخ بيده عدّة مقـدّمـات ووقفها في أماكن متفرقة ، قال الجندي وهو الذي ابتنى جامع « عُمَق » وأوقف عليه وقفاً جيداً ، وبنى جامعاً آخر في « مَغْبرة » بفتح الميم وسكـون الغـين المعجمة وفتح الموحدة والراء ثم هاء تأنيث قرية من بلاد الأشعـوب وابتنى جامعـاً بالخَناخِنِ بخاءين معجمتين » ، « وببركته صار الامام بطّال ابن احمد الرّكبي اماماً مقصوداً وذلك ان أهله تركوه رهينة عند الطواشي جوهر فأشفق عليه فعلّمه القرآن ثم أشغله بطلب العلم حتى صار

الى ما صار اليه ، وتوفي جوهر المذكور بأرض الحبشة لبضع وتسعين وخمسمائة » [ثغر عدن ج ـ ٢ ـ ص ٤١ ـ ٤٣] .

وقوله ونسخ بيده عدّة « مقدمات » المقدمةُ في عرف فقهاء اليمن أجزاء القرآن الثلاثون تنسخ مفرقةً وتوقف على المساجد .

وفي « العسجد المسبوك » للخزرجي ان ثمن « الدملوة » الذي أخذه « جوهر » عشرة آلاف دينار ملكية وأنه هو الذي كتب من الحبشة كتاباً وفي طيه كتاب الى نائبه في الدملوة بتسليم الحصن « إلى السلطان الملك العزيز سيف الاسلام » وهو بخط جوهر نفسه وان « طغتكين » قال للرسول : أليس جوهر في الدملوة فقال له : انه أوّل من نزل منها ، وان نائبه لما تسلم كتاب جوهر بتسليم الدملوة امتنع عليها لنفسه ولم يبذلها الّا بعد تسليم عشرة آلاف دينار ملكية أخرى وعلى يد وبكفالة السلطان بشر بن حاتم الذي كان قد عقد صلحاً مع طغتكين كما اشترط حمله ومن كان معه الى صنعاء سالماً وتم له ذلك [ص ١٦٢ ـ ١٦٤] .

وكُتُبُ الأستاذ الطواشي السلطان جوهر التي ذكرها « بامخرمة » لا تزال من جملة المخطوطات اليمنية المفقودة .

أعلام الفكر والأدب
في الفترة الثالثة

لن نستطيع الوقوف طويلاً مع كلّ أو جلّ علماء وأدباء هذه الفترة ، من « سنّيين » و « شيعة » و « أشعريين » و « معتزلة » و « روافض » و « اسماعيليين » و « شوافع » و « زيود » و « مجتهدين » ، وقد نبغ خلالها المئات من المنظّرين الفطاحل ، والمؤرخين والفقهاء والمؤرّخين ، ولا تزال كتبهم ومؤلّفاتهم هي المراجع والمصادر المعتمدة لدى الدّارسين والباحثين . . فلو عملنا ذلك ذاكرين كل أثارهم وأخبارهم وتحدّثنا عن جميع العلماء والكتاب والشعراء ، وأهل اللغة والتصوف والفلك والطب والمحدثين والمفسرين لاستغرقنا عدّة أسفار ؛ ولذلك فسأحاول الايجاز جهدي ؛ ولن أقف الاّ مع الأفذاذ النوابغ ، واكتفي بتسجيل أسماء بعض الاعلام المذكورين في كتب التاريخ والسّير والتراجم والطبقات سواء ما طبع منها مثل « المفيد » لعمارة و « الحور العين » لنشوان و « السمط الغالي الثمن » لابن حاتم و « أئمة اليمن » لزبارة و « الصليحيون » للدكتور الهمداني و « مصادر » العمري ، و « مصادر » الحبشي ، أو ما لا يزال مخطوطا « كطبقات الزيدية » ليحيى بن الحسين و « مطلع البدور » لابن أبي الرجال و « العسجد المسبوك » للخزرجي ، و « الحدائق الوردية » للمحلّي ؛ وما جمعته أثناء دراستي ومطالعاتي وسجّلته في كتبي « معجم شعراء اليمن » و « قصة الأدب في اليمن » إلى مصادر أخرى سوف أذكرها في سجل المراجع التي أعتمدت عليها أثناء كتابة هذا الفصل .

١ ـ المؤرخون

١ ـ الرازي
[ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٨ م]

من اعلام المؤرخين في هذه الفترة العلامة المحدّث أحمد بن عبد الله الرازي الصنعاني وقد ترجمه الجندي في كتابه السلوك في طبقات العلماء والملوك . فقال : « ومن أهل صنعاء أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الرازي صاحب التاريخ المذكور في الخطبة [تاريخ مدينة صنعاء] كان إماماً عارفاً بالفقه والحديث مولده « صنعاء » لكني أظن أهله من الريّ فنسب إليها . وكان فقيهاً سنياً ، وكتابه يدل على ذلك ، وعلى سعة نقله ، وكمال عقله » وقد علّق الدكتور حسين العمري الذي قام بطبع وتحقيق كتاب الرازي « تاريخ مدينة صنعاء مع الدكتور عبد الجبار زكار على كلام الجندي بقوله : عن اسرة الرازي : « فنحن نعتقد انها قدمت [إلى اليمن] مع الطبرانيين الذين قدموا مع الامام الهادي يحيى بن الحسين « ٢٨٤هـ » وحاربت معه ثم استوطن بعضها صنعاء وحضرموت » « وقد كان من هؤلاء جماعة من العلماء والفقهاء والمحدثين » وقرّر أنّه « ولد في الربع الأخير من القرن الرابع وتوفي في حدود عام ٤٦٠هـ /١٠٦٨ م » .

انظر تاريخ مدينة صنعاء ص ٢٣ ـ ٢٤ مقدمة ومصادر الفكر ص ٤٠٥ .

٢ ـ مُسَلّم بن محمد اللحجي
[٥٤٥هـ / ١١٥١ م

مسلّم بن محمد بن جعفر اللحجي الشطبي ترجمه العلامة يحيى بن الحسين في طبقاته فقال : « من علماء الهدوية في الفروع ، ومن المطرفيّة في الاعتقاد قال في الفضايل وكان من المبرزين ممن يُعدّ في درجة القاضى جعفر [ابن أحمد بن عبد السلام] وله ردّ على من يرجّح تقليد المؤيّد بالله وتفضيله على الهادي ، وانتصر لترجيح مذهب الهادي وأقواله ومن جملة كلامه في حقّ المؤيّد بالله انه قال بيتاً في قصيدة مدح بها الصاحب الكافي لا يصلح ان يقال في غير الله تعالى وهو قوله :

لأَغْنَيْتَ حتى ليس في الأرض معدم وأعطيتَ حتى ليس في الأرض سائل

في كلام طويل . وكان جامعاً لفنون العلم لم يفته شيء » .

طبقات مسلّم اللحجي :

وله تاريخ اعتنى فيه بأخبار اعلام المذهب المطرفي يقول البّحاثة الحبشي في « مصادره » ص : ٤٠٦ - ان منه نسخة بمكتبة خاصة عند أحد أهالي اليمن ؛ هكذا دون أن يذكر اسم مالك هذا التاريخ الذي يعدّ من أهم مصادر تاريخ الأدب اليمني والذي اعتمد عليه يحيى بن الحسين في كتابه « المستطاب » ؛ أو الطبقات ؛ وقال الحبشي ان الجزء الرابع منه يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس رقم : ٥٩٨٢ - نقلاً عن بروكلمان . ولدّي صورة فوتوغرافية نقلتها عن مكتبة جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض اسمها : « الجزء الرابع من كتاب أخبار الزيدية من أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم باليمن » جمعه وألّفه الشيخ الفاضل أبو الغمر مُسلّم بن محمد بن جعفر اللحجي .

وهو بخط ضعيف وفيه أخطاء إملائية كثيرة وقال في آخره « تم الكتاب وكمل والحمد لله أولا وآخرا وظاهراً وباطنا في يوم الأربعاء آخر شهر ذي القعدة من شهور سنة ٥٦٦هـ » وهو في المكتبة المذكورة برقم ٢٤٤٩ .

وقد أحسن إلى التاريخ العلامة يحيى بن الحسين ؛ أوّلا بكثرة نقولاته عنه وثانيا بشرحه لفصول الكتاب لما قال : « وله تاريخ جعله طبقات وأكثره في ذكر حال المطرفية من أصحابه وذكر أولاد الهادي المرتضى والناصر ، وهو أربعة أجزاء لطاف يأتي جميع الكتاب في مجلدين متوسطين ، وجعله خمس طبقات ؛ الطبقة الأولى في أحوال ابني الهادي ، استوفى ذكر الحروب بين الناصر وبين القرامطة وغيرهم ، والطبقة الثانية في ذكر أحوال المختار وأولاده وبني الضحّاك وذكر فيها ترجمة وافية للشيخ أحمد بن موسى الطبري ، والطبقة الثالثة من أخذ عن الطبري مثل مطرف بن شهاب ، وابن أبي الفوارس ، والامام القاسم العياني وسائر العلماء ممن أخذ عن أهل الطبقة الثانية ، واختلاف الزيدية ، والرابعة من أخذ على مطرف بن شهاب مثل نهد بن الصباح ، وابن صعتر ، وغيرهم وقد ذكرنا تراجمهم فيما سبق ،

والطبقة الخامسة من في عصر مُسَلّم من العلماء المطرّفية ، وأول من ابتدأ به في تاريخه المرتضى محمد بن الهادي قال : ولم يذكر الهادي ومن تقدمه اكتفاءً بالسيرة له وبالمصابيح لأبي العباس الحسني والافادة وغيرها من التواريخ » ص ـ ١١٣ ـ ١١٤ .

ويظهر من هذا الوصف انّ العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم قد اطلع على تاريخ اللحجي كاملاً وانه كان في أيامه أواخر القرن الحادي عشر لا يزال معروفاً ومتداولا فوفاة السيد يحيى بن الحسين كانت عام ١٠٩٩هـ وقد اضطربت أقوال العلماء في « المطرفية » ولا سيما بعد ان كفّرهم وأبادهم الامام المنصور عبد الله ابن حمزة الآتي ذكره ولذلك فان السيد يحيى ـ مع انه لا يقول بتكفيرهم في غالب ظني ـ قد اضطّر الى الاعتذار فقال في كتابه بعد ان وصف تاريخ اللحجي : « واعلم اني ما ذكرت « المطرفية » في هذا الكتاب إلا لأجل ان منهم من رجع عن اعتقاداتهم فيكون من جملة الهدويّة المخترعة الخلّص ، ومن لم يكن رجع منهم فذكره لأجل معرفة أصولهم الفاسدة ، وأقوالهم المبتدعة ، واستشهد من أقوالهم لئلّا يغتر مغتر والعياذ بالله بقول أحدٍ منهم والله أعلم » ورقة : ١١٤ ـ المستطاب .

وقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان مادة لحج مسلّم بن محمد اللحجي وقال : « وكان أديب اليمن وله كتاب سمّاه « الأترجّة » في شعراء اليمن أجاد فيه وكان حياً سنة ٥٣٠هـ » كما ان القفطي قد ذكره في أنباء الرواة وذكر كتابه « الأترجّة » وهو أيضاً من الكتب القيّمة المفقودة وكان في الامكان أن نتحدّث عن « المطرفية » وعقائدهم التي خالفوا بها « المخترعة » من « الزيدية » وعن شيخهم الذي ينتسبون اليه « مطرف بن شهاب الشهابي » بمناسبة ذكر مؤرخهم وحافظ ما تبقى من أخبارهم « مسلم اللحجي » ، ولكني رجحت تأخير ذلك الى ان نتحدث عن « الفترة الرابعة » والأخيرة في هذا الكتاب ونذكر مأساتهم الأليمة الدامية والضربة القاضية التي أنزلها بهم الامام عبد الله بن حمزة سنة ٦١١هـ ان شاء الله . ونحن انما نتحدّث عمّن ألّف أو أنشأ شعراً أو نثرا فنياً من العلماء والأدباء فقط وأمّا لو أردنا احصاء العلماء والأدباء والاعلام من كل الفرق لاستغرقنا عدة أسفار ومعظمهم مذكورون في كتب السير والتراجم مثل « طبقات

مسلم اللحجي » و« طبقات يحيى بن الحسين » و« مطلع البدور » و« طبقات الزيدية الكبرى » و« طبقات الشافعية » لابن سمرة و« طبقات الخواص » للشرجي و« طراز أعلام الزمن » للخزرجي و« السلوك » للجندي و« الأعلام » للزركلي و« معجم الأدباء » لياقوت الحموي و« تاريخ الشعراء الحضرميين » للسقاف و« تاريخ الأدب العربي » لبروكلمان وغيرها .

وتوفّي مسلم اللحجي عام ٥٤٥هـ /١١٥١ م تقريباً .

٣ ـ علي بن أبي بكر العرشاني
[٤٩٤ ـ ٥٥٧هـ]

كان من أكابر العلماء نشأ بأحاظة ، ثم رحل إلى إب ، وأخذ عليه جمع كبير من طلبة العلم ورحل إلى عدن واجتمع فيها بأبي الخير العمراني وروى عنه « صحيح البخاري » و « سننٍ أبي داود » قال ابن سمرة : « وكان إماماً في الحديث ، متقنا للرواة ، عالماً بصحيحه ومعلوله ، وعنه أخذ شيخي القاضي طاهر بن يحيى ، وقاضي عدن أحمد بن عبد الله القريظي وله تصنيف مليح محقّق يعرف بكتاب « الزلازل والاشراط » وقال فيه الامام يحيى ابن أبي الخير : « ما رأيت أحفظ من هذا الشيخ في الحديث ولا أعرف منه قيل له : ولا في العراق ؟ قال ما سمعت » . وقد ذكر في كتابه « الزلازل » ما حدث في اليمن منها .

وقد ترجمه « أبو مخرمة » في ثغر عدن ص ١٣٦ ـ ج ـ ٢ ـ وزاد على ما قاله « ابن سمرة » قوله : « وقصده أهل الحديث من أنحاء اليمن رغبة في علمه ودينه وأمانته وعلو إسناده ، ومعرفته وتواضعه وكان يكره الخوض في علم الكلام » .

وكانت ولادته سنة ٤٩٤هـ وتوفي لعشرٍ بقين من ذي القعدة سنة ٥٥٧هـ .

٤ ـ أحمد بن محمد الأشعري

الفقيه المؤرّخ الأديب أدركه الشاعر عمارة اليمني وروى عنه ووصفه في كتابه « المفيد » بأنه كان عارفاً بأيام الناس وأنسابهم وأشعارهم [ص ٣٨]

ومن مؤلفاته « اللباب في علم الانساب » يقول الخزرجي في وصفه : « مختصر مفيد » عليه اعتماد الناس في وقتنا هذا واختصره من كتابه الضخم « التعريف بالأنساب » ويقول الحبشي ان نسخة منه بدار الكتب المصرية ٩٤٥ تاريخ وأخرى بالامبروزيانا H١٧١ وانه طبع في جدّة سنة ١٩٥٠ م كما أن له كتاب « نزهة الأحباب في الآداب » رتبه على عشرة فصول في الكرم والعلم ، والخلاعة ، والفصاحة والتلطف ، وفصل في حكايات الشعراء ، وآخر في حكايات العشاق ، وفصل في أخبار النساء ، والتاسع في أخبار مشهورة والعاشر في حكايات الصالحين ومنه نسخة في دار الكتب المصرية ٢٣٧٢ أدب وتوفّي في أواخر القرن السادس الهجري . وفي « فهرس مخطوطات المكتبة الغربية » ص : ٧٧٦ ـ انّ له في المجموع رقم ١٣٥ ـ كتاب « النسب » من ص ١١٠ إلى ص ١٢١ .

٥ ـ عمارة اليمني
[ت ٥٦٩هـ]

الشاعر المشهور له في التاريخ كتاب « المفيد في أخبار صنعاء وزبيد » وسنخصّه بترجمةٍ تليق به بين شعراء هذه الفترة ان شاء الله ومن مؤلفاته النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ترجم فيه لنفسه وذكر علاقاته بالوزراء أيام الفاطميين والأيوبيين وطبع في المانيا سنة ١٨٩٧ م .

٦ ـ نشوان الحميري
[ت ٥٧٣هـ]

اللغوي المؤرخ الكاتب الشاعر سنفرد له ترجمة فيها مختارات من شعره ونبذة من أخباره حين نتحدث عن شعراء اليمن في هذه الفترة ومن مؤلفاته التاريخية « خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة طبع القاهرة سنة ١٣٧٨هـ بتحقيق السيد علي المؤيد والقاضي إسماعيل الجرافي ،

ـ «أحكام صنعاء وزبيد » والموجود منه نسخة من الجزء الثاني بمكتبة الامبروزيانا G ٩ .

ـ « الخلاصة » مختصر كتاب الاكليل للهمداني ذكره الخزرجي في طراز اعلام الزمن .

٧ ـ ابن سمرة
[٥٤٧ ـ ٥٨٦هـ / ١١٥٣ ـ ١١٩١ م]

العلامة الفقيه المؤرخ عمر بن علي بن سمرة الجعدي مؤلف كتاب طبقات فقهاء اليمن الذي هو كما يقول الخزرجي : « أول كتاب ألّف في طبقات فقهاء اليمن من الشافعية على وجه الخصوص واعتمده كل من أتى بعده » وقد طبع بتحقيق البحاثة الاستاذ فؤاد سيد عام ١٣٧٧هـ /١٩٥٧ م وقال في ترجمته له : « ولد سنة ٥٤٧هـ في قرية أُثامر من بلاد العوادر » وبعد ان ذكر أساتذته قال : « وقد ترجم المؤلف لنفسه في مقدمة الكتاب وذكر شيوخه وما تلقاه عليهم من الكتب فأغنانا بذلك عن البحث عن ترجمته فان جميع ما ورد في الكتب التي ترجمت له نقلت عنه ما ذكره هو عن نفسه ولم تزد شيئا عن ذلك ، ويمكننا أن نضيف إلى ما أورده بعض البيانات المفيدة عن حياته استخلاصاً من ثنايا كتابه » .

ثم ذكر المحقق بعض ما استخلصه من أن والده انتقل بأولاده إلى اكمة زبران سنة ٥٦٣هـ وان والده توفي سنة ٥٧٤هـ وانه تولّى القضاء في « أبين » سنة ٥٨٠هـ ودخل عدن عام ٥٨١هـ وحج مبحراً وزار جزيرة كمران . وقال ان سنة وفاته غير معروفة على وجه التحقيق الّا ان الجندي يظن انه توفي في أبين سنة ٥٨٦هـ . وان صاحب كشف الظنون يقول « انه فرغ من كتابه طبقات فقهاء اليمن سنة ٥٨٦هـ » وهو لم يذكر في كتابه أي فقيه بعد ذلك العام . وقد ترجمه « أبو مخرمة » في تاريخ ثغر عدن ج ٢ ـ ص ١٧٩ .

٢ ـ علماء اللغة والبيان :
تعدد جوانب النبوغ

كان اهتمام أهل اليمن باللغة العربية وعلومها فى فترتنا التي نتحدث عنها اهتماماً كبيراً كما كان في الفترة التي سبقتها والتي تليها بل وفي سائر حِقَب تاريخ الأدب العربي في اليمن ؛ ومن الكتب التي انتجتها هذه الفترة والتي اشتهرت وانتشرت في العالم الاسلامي كتاب « نظام الغريب » للامام الربعي ، وكتاب « شمس العلوم » لنشوان الحميري ، ونودّ قبل ان نورد أسماء بعض المشهورين أن لا يستغرب ورود بعض الأسماء مكرّرة إذ انه

يوجـد بين اعـلام أدبـاء وعلماء اليمن افـذاذ تتعـدّد جوانب نبـوغهم ، وشخصياتهم الثقافية ؛ فهو شاعر بين العلماء ، وعالم بين الشعراء ، ومن أهـل اللغـة والنحو والصرف والبيان ولكنه فقيه حاذق ، وهو من الفقهاء المبرزين وفي نفس الوقت لغوي مبين ، وتراه إماماً أو ملكاً أو فارساً ولكنه من الأدبـاء والشعراء والزهّاد ومن هؤلاء نشوان الحميري وجعفر بن أحمد بن عبـد السـلام وعـمارة اليمني والامـام أحمد بن سليمان والمظفر الرسولي وعبـد الله بن حمزة ؛ وقبلهم الهـادي وأولاده ، والهمـداني وأسـاتـذتـه ، وبعدهم من لا يحصون عداً فلا غرابة اذا لاحظ القرّاء تكرار ذكر بعض الأسماء لكنّنا لن نقف طويلا ـ إذا لزم الأمر ـ الّا مع الفن الذي اشتهر من نتحدث عنه به وغلب على سائر مواهبه .

١ ـ الربعي
[ت ٤٨٠هـ / ١٠٨٨ م]

العـالم الفذّ أبو علي عيسى بن ابراهيم الربعي كان أكبر علماء اللغة في القرن الخامس الهجري يرحل إليه الطلبة من كل أصقاع اليمن وانتشر ذكره في الآفـاق وتـرجمه السيوطي في بغية الوعاة ، وياقوت في معجم الأدباء ، والجندي في « السلوك » والخزرجي في « طراز اعلام الزمن » وقال ابن سمرة في « طبقـات فقهـاء اليمن » أثنـاء ترجمته للامام زيد بن الحسن الفايشي « وأخذ اللغة أيضاً عن عيسى بن ابراهيم الربعي مصنف النظام بأحاظة وكـان هذا عيسى بن ابـراهيم وأخـوه اسـماعيل من علماء اللغة وأئمتها » ص : ١٥٦ ـ وقـال « الجنـدي » في السلوك : « رأسُ الـطبقـة في اللغـة والمحقق لمسالكها ، وكتابه الموسوم « بنظام الغريب » يدل على ذلك لانه مجود في النقل ، كامل في الفضل ، وعليه يعول كثير من أهل اليمن من وقت وجوده إلى هذا الزمن [٨٢٨هـ] ، ومن لم يقرأه ، ولم يبرز فيه لا يعدّه كثير من الناس لغوياً » .

كتاب « نظام الغريب »

وكتاب الربعي « نظام الغريب » سلك فيه طريقة لم يسلكها أحد من قبله فيما أعلم ؛ فقد اقتصر فيه على المستعمل من غريب اللغة وما ورد في كلام العرب واشعارهم وقد جعله في مائة باب وأربعة أبواب ؛ الباب الأوّل في

ما جاء من الغريب في خلق الانسان والباب الأخير سماه « من المجموع واجابات عن سؤال يعن » . ولما كنت في معتقل قاهرة حجّة سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١ م عثرت على نسخة من النظام بحوزة السيد العلامة الحسين بن أحمد الحوثي وهي نسخة قديمة مضبوطة مصححة قرأ فيها فخر الدين عثمان بن الأمير شجاع الدين يكثم الجاولي على علي بن محمد بن الرضى الموسوي ، وقرأ فيها وصححها أيضا أحمد بن مكتوم القيسي على الشيخ أبي حيّان سنة ٧٣١هـ ، وقد نقلت منها نسخة بخطّي عكفت على ذلك عشرة أيام وقلت عند الفراغ :

بعشر ليالٍ وأيامها نسخت كتاب « نظام الغريب »
فجاء بآدابه مونقاً فما هو الاّ رياض الأديب

وقد كان املاء نسختيّ على الأصل وقابلتها وضبطتها مع السيد الأديب محمد بن علي الغفاري وكنت أنوي شرح ما جاء في الكتاب غريبا وتكملة الناقص ، وإيضاح المبهم والترجمة للمؤلف ولغير المعروفين المشهورين من الشعراء والاعلام الذين استشهد بكلامهم ، وكنت قد شرعت في ذلك وأنا في المعتقل فلما حصل الفرج وذهبت إلى قاهرة المعز بمصر سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ م عرفت أن الكتاب قد طبع بتحقيق الدكتور بولس برونلي الألماني بالقاهرة سنة ١٩١٢ م ، وقد تتقوى العزيمة على تنفيذ ما نويته ان شاء الله ، فالكتاب نفيس ومفيد . وأسلوبه مبين وقد قال المؤلف في مقدمته :

« مقدمة كتاب نظام الغريب »

« الحمد لله مخرج الأشياء من العدم إلى الوجود ، وجاعلها في الاختلاف والتغاير جارية إلى أجل محدود ، ومفضّل الانسان على سائر المخلوقات ، من الحيوان والجمادات ، بما خصّه به من الفكر العقليّة ، والفطَن الفهميّة ، المميزة بين رتباتها ، الناظرة في بدائع تصويراتها ، وما فضله به من النطق المعبّر عن الحقائق ، وإبانة رتبة الخالق ، اظهاراً للحكمة واللسان أداة اظهارها ، ونشراً لفضيلة الربوبية والبيان آلة انتشارها ؛ وإذ جعل تعالى جَدُّه العلم من صفاته الذاتية ، وأسمائه الأزلية ، واحلاله أيّاه المنزلة الرفيعة التي لا خُلْفَ عند سائر المختلفين في تفضيلها واجلالها ، وتشريفها وإعظامها ، وإيّاه أسأل دوام صلواته ، واتصال تحياته ، على الذي أحلّه من

هذه الفضيلة أرفع منازلها ، وألبسه أسنى فضائلها ، محمد المختار من بريّته ، المبعوث إلى الكافة من خليقته ، صلى الله عليه وآله صلاة مشاكلة لفخره ، باقية في الانام بقاء شريف ذكره » .

« هذا كتاب مختصر اقتصرت فيه على المستعمل من غريب اللغة وما قالته العرب وتداولته في أشعارها وخطبها ، وتجاذبته في أمثالها ومقاماتها ومخاطبتها ، وجعلته له كالأصل للشيء ، والقاعدة للبنيان ، وسميته « نظام الغريب » وبالله استعين وعليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل » .

هذه هي مقدمة الكتاب وقد صاغها دونما تكلّف أو تقعّر موجزا ما يريد تبيينه دون مباهاة أو اسهاب أو تطويل فيما لا طائل تحته ؛ ولكي يأخذ القراء صورة واضحة عن أسلوب الامام الربعي في كتابه وهو فريد نفيس محكم سأنقل فصولا منه فيما يلي :

نماذج من كتاب النظام « الباب الثاني والثلاثون في أسماء اللبن »

يقال لبنٌ أُمْهُجانٌ وأُمْهَجٌ بالفتح للخالص ، وأُمْهوجٌ ، واللبن الماضِرُ : الحامض ومنه سُمّيت المضيرة ، ومثله الخاثِرُ ، والضيَاح : اللبن الممزوج قال :

يَارُبَّ شَيْخٍ مِنْ بَني رِياحِ إذا مَلاَ الْبَطْنَ مِنَ الضيّاحِ
صَاحَ بلَيْلَي أنْكَرَ الصُياح

والرِسْلُ : اللبن الحليب نفسه ، والمذيق : اللبن المَمْزوج بالماء والمَحْضُ : الخالص والرَّغوة ما يعلوه من الزبد والعُجَلط والعُجالط الرائب الغَليظ قال :

إن اصطبحْتُ رَائباً عُجَالطا مِنْ لبنِ الضَّأنِ فَلَسْتُ ساخِطا

والرُّوبة بغير همْزٍ : اللبن الحامض الذي رُوِّب به الحليب ، والزَغْبَدُ : الزُبد ، والطفاحات : ما يَطْفح من الزُبْد إذا سُخِن قال :

لَعْقُ الطُّفَاحَاتِ وشُرْبُ الرَّائِبِ أَهْوَنُ مِنْ تَعَاقُبِ الرَّكَائِبِ

والعُلبة : إناء من أدم يُشرب به اللبن وجمعه عُلبٌ قال :

لَمْ تَتَلفَّعْ بِفَضْلِ مِئْزَرِها دَعْدٌ وَلَمْ تُغْذَ دَعْدُ بِالْعُلَبِ

والعكّي بتشديد الياء : اللبن الحامض فإذا تَقَطع ناحيةً والماء ناحيةً فهو ضيح مُمْذَقِر فإن تلبّد بعضه فوق بعض فلم يَتَقَطَّع فهو إدْل ، يقال : جاءنا بإدلةٍ ما تُطاقُ حُمضاً ، والعُثَلط والهُدَبدُ ما خثُر منه وتلبَّد ، والصقر أَحْمَضُ ما يكون من اللبن ، فإذا صُبّ عليه حَليبٌ فهو الرثيثة ، والمرضَّة قال ابن أحْمر :

إذا شَربَ المُـرضَّـةَ قال أَوْكـي عَلَى ما في سِقـائِـكَ قَدْ رَوِيـنـا

والعكيس : اللبن الحليب يُصبّ على مَرَقٍ كائناً ما كان قال الراعي :

فلَمّا سَقَيْنـاهـا العكيس تَمَذّحَتْ خَواصِرُها وازْدَادَ رشْحاً ورِيدُهَا

والنَخْيسة : لبن الضأن يُصَبّ على لبنِ الماعز ، والصحيرة : اللبن الحليب المُسخَّنُ حتى يحترق ، ويقال : صحرتُه أصحَرُه صحراً ، والسمهج والسَمْلج : اللبن إذا كان حُلواً دسماً ، والمِلعاز والملهاز : اللبن يختلط بعضه ببعضٍ عند المخض ، والصرب أحمضُ ما يكون من اللبن قال :

سَيكْفيكَ صَرْبَ القَوْمِ لَحْمٌ مُغرَّضٌ وَمَـاءُ قُدُورٍ في القِصَـاعِ مَشُـوبُ

والكُثبة من اللبن قليلٌ منه وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ قال : « يأتي أحدكم إلى المرأة المغيبة فيخدعها بالكثبة من اللبن » والسجاج : أرقُّ ما يكون من اللبن قال :

فَيشْرَبُـهُ مَذقـاً ويسقي عِيَـالَـهُ سَجَـاجَـاً كأقْرابِ الثَّعالبِ أَوْرقـا

والمَهو والمَسْجور مثله ، والنسء : اللبن الحليب إذا مزج بالماء قال عروة بن الورد :

سَقَـوني الـنَّسءَ ثُمَّ تكـنَّفُـوني عُداةَ الله مِنْ كذِبٌ وزُورِ

والنسيءُ مثله ، قال :

يَقُـولـونَ لا تَشرَبْ نَسيئـاً فإنَّـهُ عَلَيْـكَ وإنْ أَحْـيَـيْـتَـهُ لَوَخِـيـمُ
لَئِنْ لبنُ المِعْـزَى بماءِ مُوَيْسـلٍ بَغـاني سُقـاً إنِّـي لسـقـيـمُ

والنخيسة : اللبن الحليب يُغلى على النار يُجعل فيه الدقيق ويُحاس وهو طعام النفساء ، والمجيع : اللبن يُؤكل بالتمر قال الشاعر :

إنَّ في دَارِنـا ثلاثَ حَبـالى فَوَدِدنَـا أَنْ لو وَضَـعْـنَ جميعـا
جَارتي ثُمَّ هِرَّتي ثُمَّ شَاتي فَإذا ما وَضَـعْـنَ كُنَّ رَبـيـعَـا
جَارتي للْخـبـيص والهـرُّ لِلْفـأ رِ وشـاتي إذا اشـتـهـينـا مُجيعَـا

والحَيس الحليب يُحاس بالـدقيق ويُزاد فيه التمرُ والسمن على النار وهو أطيبُ الطعام عندَ العرب قال :

وَإذا تَكُـونُ كَريهَـةٌ أُدعـى لها وَإذا يُحَاسُ الحَيْسُ يُدْعى جُنْـدُبُ

الباب الثامن والعشرون في الشِبَع والجُوع

الشبعانُ والبطينُ بمعنى ، والبطنة : الشبع ، قالت أعرابية بعث إليها زوجها بكتاب من الحضر :

أَتَبْعَثُ لي القِـرْطاسَ والخُبْزُ حاجتي وأَنـتَ عَلى بابِ الأمـيرِ بَطِينُ

وجمعُ بطينٍ بطانٌ قال الأعشى [يهجو قوماً] :

يبيـتُـونَ في المشتى بطانـاً بُطونُهُم وجـاراتُهـم غَرثـى يبـتنَ خَمائِصـا

الغرثى : الجياعُ للمذكر والمؤنثُ ، وواحدة المؤنث غرثى وواحد المذكر غرثان ، والخميص الجائع قال :

يطوى إذا ما الـشـحُّ أَقفَـل بابـهُ بَطنـاً عن الـزَّادِ الخـبيثِ خَميصـا

والطوى : الجوع والطاوي : الجائع ، قال الشنفرى

غدا طاويـاً يستعـرض الريح هافياً يخُوتُ بأذنـابِ الشّعـابِ ويَعسِـلُ

والمخمصـة والمسغبة الجوع ، قال الله تعالى : ﴿**أو إطعَامٌ في يومٍ ذي مسغبة**﴾ ، والساغب : الجائع ، ويقال : جائع نائعٌ فالنائعُ إتباعٌ له ولا معنى له ، والخصاصة : الجُوعُ ، قال حُجيَّةُ بنُ المُضرَّب :

بنيَّ أحقُّ أن ينـالـوا خَصـاصـةً وإن يشربُـوا رنقـاً لدى كلِّ مَشْرَبِ

والقرمُ : الجائع المشتهي للحم ، والضرم : الجائع المشتهي للأكل ، والهقم مثله والطلنفح : الخالي الجوف من الطعام قال :

ونـصـبـحُ بالـغـداةِ أَتـرَّ شيء ونُـمسي بالـعشي طَلَنْـفَـحـينـا

واليرقُوع : الجوع الشديد ، والجود : الجوع ، قال أبو خراش .

تكـادُ يداهُ تُسلِمانِ رِداءَهُ مِنَ الجـودِ لمَّا استقبلتـهُ الشَّمائِلُ

ويقال لمن أكثر من الطعام فوق الحاجة تخم واتخم ، وجفس جفساً مثله ، فإن غلب الدسم على قلبه قيل : طسيء طسأً وطنخ طنخاً وغمت غمتاً ، فإن انتفخ بطنه قيل اضرورى اضريراء وحبط حبطـا ، فإن وقع عليه مشي البطن قيل أصابه الجُحافُ فهو مجحوفٌ ، فإن أكل لحم ضأنٍ فثقل على قلبه فألمه فهو نعجٌ قال :

كأنَّ الـقـومَ عُشُّـوا لحمَ ضأنٍ فَهُـمْ نَعِـجُـونَ قَدْ مَالـتْ طلاهُـمْ

والسنِقُ : الشبعانُ الذي قد كره الطعام وملَّه قال الأعشى :

ويــأمُــرُ لليـحـمُـومِ في كُلِّ ليلةٍ بقـتٍّ وتـعـليـقٍ فَقَـدْ كَادَ يَسْـنَـقُ

الباب الثاني عشر في الحب

الـدَّنف والصب والمتيَّم من أسماء المحب الـذي قد أضرَّ به الحب ، والدنف : الذي قد أشرف على الهلاك ، يقال : مريض دنَف ، ومحب دنَف لا يثنى ولا يجمع ، فإن كسرت النون ثنيت وجمعت ، والصب والمولع والمغرم كله المحب ، والمتيم الذي قد ذلله الحب واستعبده ، والتيم : العبد ، ومنه سمي تيم الله وتيم الـلات ، والـلات : صنم كان يعبـد في الجاهلية ، والوجد : ما يجده الانسان من ألم الحب ، ومثله اللاعج ، والغرام والجوى والضنى والنحول والسقم والضؤولة بمعنى ورجل نضو وضيئل وسقيم وخَل وخِلال بمعنى قال ابن أخت تأبط شراً في الخل :

فاسـقـنيـهـا يا سَوادَ بنَ عمـرو إنَّ جسـمـي بَعْـدَ خَالي لَخَلُّ

والخلُّ : الطريق في الرمل والخل معروف في غير هذا والمقة الود والوداد : الحب ، والبرحاء : شدة الوجد من الحب ، والتبريح مثله ، ورجل مُدلَّه : إذا بقي متحيراً ذاهب العقل من الحب .

ولا نعلم مولـده متى كان ، وقـد توفي ببلدتـه « أحـاظـة » عام : ٤٨٠هـ /١٠٨٨ م وقـال المؤرخ يحيى بن الحسين في « المستطاب » ان الشاعر محمد بن عبد الله شرف الدين نظم كتاب « نظام الغريب » كما ان

للعلامة « ابن عجيل » له شرح عليه [الحبشي ص : ٣٧٢] .

٢ ـ اسماعيل الربعي
[ت ٤٨٥هـ]

الشاعر الأديب اسماعيل بن ابراهيم بن محمد الربعي صنو عيسى وضريبه في اللغة وآدابها ، الاّ ان اسماعيل اشتهر بقول الشعر وهو ما لم يؤثر عن أخيه عيسى وقد سبق أن نقلنا ما قاله « ابن سمرة » عنهما وانهما كانا من « علماء اللغة وأئمتها » وقد ذكر أيضاً ان عيسى « مات في أحاظة سنة ثمانين وأربعمائة وأما أخوه اسماعيل فمات بعده بقليل » وقال : « وهو صاحب « قيد الأوابد » القصيدة المشهورة في اللغة والنحو ، وله رسائل مليحة ، وأبيات مستحسنة تجمع معاني من أبواب اللغة والنحو » [ص ١٥٧] .

وقد نقل محقق « طبقات ابن سمرة » الاستاذ فؤاد سيد عن « انباه الرواة » و « بغية الوعاة » و « سلم الوصول » و « تلخيص ابن مكتوم » ان اسماعيل توفي بعد أخيه بأيام سنة ٤٨٠هـ غير ان المحقق العلامة القاضي محمد بن أحمد الحجري قال في كتابه « مجموع بلدان اليمن وقبائلها » وهو يتحدث عن « أحاظة » أن عيسى بن ابراهيم توفي سنة ٤٨٥هـ وكذلك أخوه ونسب ذلك إلى « تاريخ الأهدل » ص : ٥٢ ـ مجموع الحجري ج ـ ١ ـ ولم يذكر أحد تاريخ مولد أي منهما وأيهما كان الأكبر سنا .

وقال محقق « طبقات ابن سمرة » ان اسماعيل « رتب قصيدته قيد الأوابد » على ترتيب كتاب العين للخليل بن أحمد وأورد فيها خلال التفسير نوادر من محاسن الأخبار والأشعار ، واشتملت على أكثر كتاب العين وأولها :

أجيبوا يا ذوي التحصيل للآداب من يسأل
عن العيهق والعوهق والعنجة والعَيهَلْ

نقل ذلك عن « الأنباه ج ١ : ١٩٢ » ثم قال : « ومنها نسخة خطية في مكتبة القاضي محمد العمري باليمن وقد شرحها أبو بكر ابن علي الحدادي المصري المتوفي نحو سنة ٨٠٠هـ (كشف الظنون ٢ : ٣٦٨) .

والقصيدة خليقة بالعناية والنشر والتحقيق وليست في متناول اليد الآن ، ولمّا أطّلع على شيء من أشعاره ورسائله التي ذكرها « ابن سمرة » .

٣ ـ الحسن بن أبي عبّاد
[حوالي ٤٤٠هـ] أو بعدها

الشيخ العلامة الحسن بن اسحاق بن أبي عبّاد كان امام النحاة باليمن في عصره وعليه تخرج أكثر أهل اليمن في هذا الفن وألّف كتابا يعرف بمختصر الحسن يدل على فضله ومعرفته وقال الجندي ان « عليه يأخذ الطلبة في النحو فلا يستفتحون إلّا به » وقال في هامش « طبقات فقهاء اليمن » انه كان موجوداً في أوائل المائة الخامسة كما يقول السيوطي في « البغية ص ٢١٨ ويقول ياقوت والقفطي انه الف كتابه سنة تسعين وخمسمائة ولعلها واربعمائة لأن مؤلفنا ابن سمرة توفي سنة ٥٨٦هـ ويبدو ان القفطي وياقوت نقلا خطأ عن مصدر واحد (الانباه للقفطي ١ : ٢٩٠ ومعجم الأدباء ٨ : ٥٣ والبغية : ٢١٨) [طبقات بن سمرة ص : ١١٤] - [ولعل وفاته عام ٤٤٠هـ] أو بعدها .

وقد تعرض لذكر الحسن بن أبي عباد المؤرخ يحيى بن الحسين بن القاسم في كتابه المستطاب أو « طبقات الزيدية الصغرى » وهو يترجم للشيخ أبي السعود ابن فتح النحوي فقال : « وله مصنفات مفيدة في كل فن ومنها شرح على مختصر ابن أبي عباد في النحو، وينبغي أن نذكر ابن أبي عباد هنا لتقدم تاريخه وقد قيل انه شافعي ؛ فهو الحسن بن أبي عبّاد النحوي أبو محمد امام النحاة في قطر اليمن وإليه وإلى ابن أخيه كانت الرحلة في طلب النحو ، والمختصر الذي صنّفه في النحو يدل على فضله ومعرفته ، وفيه بركة ظاهرة ، ويقال انه الّفه في الحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة ، وكان كلما فرغ من تأليف باب طاف وسعى ، ودعا لقارئه ، وكان عامة فقهاء اليمن يستفتحون القراءة به لسهولة ألفاظه وقرب عبارته ، وكان الحسن إذا تكلم بين العامة لا يتكلّف الاعراب فاذا سمعه من لا يعرفه يقول : لا يعرف هذا من النحو شيئاً ، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك فقال :

لعمرك ما اللحن من شيمتي ولا أنا من خطأ ألحنُ
ولكن عرفتُ لغات الرجال ؛ فخاطبت كلاًّ بما يحسنُ

***

٤ ـ ابراهيم بن محمد بن أبي عبّاد
[ت حوالي ٤٦٠هـ]

أبـو اسحـاق وابن أخ الحسن السابق ذكره ابن سمرة مع عمه فقال : « ومن أئمة العربية الشيخان المشهوران الحسن بن أبي عبّاد وابن أخيه من بعده ابراهيم بن محمد بن أبي عبّاد يدل على فضلهما مختصرهما » وقال المحقق فؤاد سيد : « هو الأديب النحوي صنف في النحو مختصرين احدهما إسمه « تلقـين المتعلم » والآخـر يعرف « بمختصر ابراهيم » اختصر فيه كتاب سيبـويه وكـان موجـوداً في أوائل المائة الخامسة (معجم الأدباء ١ : ١٦٤ والـبـغـية ـ ١٨٦ ـ وقـد ترجـم له الجنـدي في السلوك لوحـة ٨٣ [طبقـات ص ١١٤] وقـد استـطرد ذكره يحيى بن الحسين عند ذكره لعمه فقال : « وابن اخيه ابراهيم بن محمد بن أبي عبّاد الأديب الفاضل النحوي كان إماماً بارعاً في النحو ارتحل الناس إليه وإلى عمه الحسن للاشتغال بالنحو فاستفاد الناس منهما وله مؤلفات حسنة منها « تلقين المتعلم » ؛ كتاب مفيد والمختصر المعـروف بمختصر ابراهيم يقال انه اختصره من كتاب سيبويه [لوحة : ٥٤ نسخة السيد المنصور] . وفي تحديد وفاة الشيخين الحسن وابن أخيه ابراهيم لبسٌ وخلط فقول محقق « طبقات بن سمرة انهما كانا موجودين في أوائـل المائة الخامسة يوحي بأنّهما أقدم من العالِمَيْنِ عيسى ، واسماعيل الرّبعي ، ويؤيد ذلك أن السيد يحيى بن الحسين تعرضَ لذكر الشيخين وهو يتحدث عن العلماء المعـاصرين لأولاد الهادي ولذلك قال : « انتهى بنا الكلام في ذكر العلماء المعاصرين للهادي وأولاده ومن تقدمهم من الأئمة ومن كان على مذهبهم في الأعتزاء كالقاسمية » [لوحة : ٥٤] .

وحاولت الاستنارة بمراجعة ترجمة الشيخ أبو السعود بن فتح شارح مختصر ابن أبي عبّـاد في « مطلع البـدور » للمؤرخ ابن أبي الـرجـال فعـرفت ان للمختصر المذكور عدة شروح ، ولكنه لم يحدد العام الذي توفي فيه الحسن بن أبي عباد أو أبن أخيه الذي قال نقلا عن ياقوت انه مات متأخراً بعد الخمسمائة .

وكـان الامام الشوكاني قد تذمّر من بعض المؤرخين اليمنيين ، بل من معظمهم لعدم اهتمامهم بتسجيل سنوات الولادة والوفاة لمن يترجمون لهم ؛

وحقاً ان الباحث يلاقي من جرّاء ذلك الاهمال عناءا شديدا .

ولذلك فضّلت القول بأنهما توفّيا في منتصف القرن الخامس الهجري .

٥ ـ الزبيدي
[٤٦٠ ـ ٥٥٥]

العلامة العروضى النحوي محمد بن يحيى بن علي القرشي الزبيدي كان من علماء الحنفية وفقهائها المبرزين ولد في مدينة زبيد سنة ٤٦٠هـ وأخذ على علمائها في شتى الفنون وبرز في علوم اللغة العربية نحواً وصرفا وعروضاً وألّف في كل ذلك كتبا نفيسة منها « الرد على ابن الخشاب » وكتاب « العروض » ، وكتاب « القوافي » و« مقدمة النحو » و« منار الاقتضاب ومنهاج الاقتفاء » في النحو ، وذكر ابن خلّكان [٦٠٨ ـ ٦٨١] ان الوزير ابن هبيرة قد صحب وهو تلميذ في بغداد « الشيخ أبا عبد الله محمد بن يحيى بن علي الزبيدي الواعظ » [ص : ٢٣١ ـ ج : ٦ ـ] ثم ترجم له ترجمة موجزة في ص : ٢٤٣ ـ من وفياته فقال :

« كان كبير القدر يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، وما انتفع الوزير الا بصحبته » « وكان دخوله بغداد في سنة ٥٠٩هـ تسع وخمسمائة ، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ خمس وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى وقال أبو عبد الله بن النجار في « تاريخ بغداد » : كان مولده بزبيد في ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من المحرم سنة ستين وأربعمائة وتوفي ليلة الأثنين مستهلّ شهر ربيع الآخر سنة ٥٥٥هـ ودفن بمقبرة جامع المنصور ببغداد » .

وقبل رحلته إلى بغداد كان قد هاجر إلى دمشق سنة ٥٠٦هـ ولم يحتمله ولاة الأمور بها لصراحته فقصد بغداد فانتفع به الوزير ابن هبيرة .

٦ ـ نشوان بن سعيد الحميري
[ت ٥٧٣هـ]

وكما ذكرنا القاضي نشوان بين المؤرخين فكيف لا نذكره بين علماء اللغة والبيان ، وموسوعته الكبرى « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم »

معجم فريد ولا سيما وقد اعتنى فيه باللهجات والكلمات اليمنية التي أهملتها معظم المعاجم العربية ، وقد سبق أن قلت إني سأفرد له ترجمة وافية ضمن شعراء هذه الفترة ان شاء الله . وقد أجاد القاضي الدكتور حسين العمري الحديث عن كتاب « شمس العلوم » في كتابه « مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني » فقال :

شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم

يُعَدّ معجم العلامة نشوان بن سعيد الحميري « شمس العلوم » أعظم كتبه كما أنه من أعظم كتب المكتبة العربية على الاطلاق ، ويقع هذا السفر العظيم في ثمانية مجلدات طبع منها بالقاهرة جزءان بمطبعة عيسى الحلبي باشراف العلامة المرحوم القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليمني (ت ١٩٧٨) .

كما نشر(K.V.Zettersteen) في ليدن جزءين سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٣ (من أول الكتاب حتى باب الجيم) .

وكان عظيم الدين أحمد خان قد نشر ضمن سلسلة « جب Gibb » التذكارية سنة ١٩١٦ بلندن « منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم » .

أما مخطوطات المتحف لهذا السفر الجليل الذي لم تنشر بقية مجلداته فقد حوته كاملا في أربعة مجلدات (863-858) أرقامها وتواريخ نساختها كما يلي :

١ ـ **الأول Or.2904** كتب في ٣٠ ربيع الأول ١١٣٦هـ /١٧٢٣ م ويقع في ٢٥٠ ورقة . وهو من أول الكتاب الذي يبدأ بـ : « الحمد لله الواحد القديم القادر العظيم العزيز العليم الصانع الحكيم ، اما بعد فإن أفضل اللغات واحكم منطق الألسن المختلفات ما نزل به القرآن المجيد . . . » .
ويضم هذا الجزء حتى الحرف (خ) .

الناسخ : صالح بن عبد الله بن محمد بن مسعود المعمري

ومنه نسخة ثانية برقم Or.2905 متأخرة عن سابقتها فقد كتبت سنة ١٢١١هـ وتقع في (١٢٤ ق) إلّا أنها أقل اخطاء وقد أحضرها من مسقط بعمان Col. S.B. Miles وهو الذي أحضر بقية الأجزاء كذلك وأهداها

للمتحف (راجع المقدمة) .

٢ ـ **الجزء الثاني** : (ومعه الأول أيضاً) ورقمه Or.2906 . يقع في ٢٢١ ق ١٣×١١ . ٣٧ سطراً ، ط : ٩هـ .

كتب بخط نسخ واضح وتم نسخه في شوال سنة ١٠٨٣هـ /١٦٧٣ م .
ـ ينتهي الأول بالحرف (خ) أيضاً في الورقة (١٢١ ب) حيث يبدأ الثاني الذي ينتهي بحرف (ش) .

وهذه النسخة أفضل من السابقة ، وقد كتب على وجه الورقة الأولى منها أنه تم الحصول عليها من « مسقط » بعمان .

نسخة ثانية من (الجزء الثاني) رقمها Or.2907 تقع في ١٧٤ ق ١٠×٨,٥ . ٢٢ سطراً ، ط : ٦,٥هـ .

خطها نسخ معتاد وتم نسخها يوم الأربعاء ليال بقيت من محرم ١٠٨٠هـ /١٦٦٩ م .

وتضم هذه النسخة من الكتاب من الحرف « د » إلى حرف « ش » وتتفق مع النصف الأخير من المخطوط السابق إلا أنها كتبت بعناية أكثر واسم ناسخها :
سالم بن ربيعة بن راشد بن سالم بن عمر النهلوي

وذكر بآخرها أنها نسخت بحصن (سمدان) زمن الامام سلطان بن سيف بن مالك بن أبي العرب (الذي توفي في ١٦ ذي القعدة سنة ١٠٩٠هـ كما سجل ذلك المقدم مايلز بخطه) .

وكتب على أولها انه تم شراؤها من الشيخ غازي بمسقط سنة ١٨٨٠ اشتراها منه « الشيخ أحمد التيواني » الذي لا بد أنه باعها بدوره للمقدم مايلز .

٣ ـ **الجزء الثالث** : رقمه Or.2908 يقع في ٣٨٤ ق $^{1}/_{4}$٩×٨ . ١٦ سطرا نحو ٥هـ .

كتب هذا الجزء بخط نسخي واضح وتم في يوم السبت ٢ ذي الحجة سنة

١٠٢٤هـ /١٦١٥م ويضم من أول الحرف « ص » إلى نهاية الحرف « ق » .

الناسخ : عبد الله بن مبارك بن عمر . . . الأزدي . وكتبها برسم الشيخ أحمد بن رشيد بن سلمان .

٤ ـ الجزء الرابع : رقمه Or.2909 ويقع في ٣٠٩ ق ٥ ,٩×٤/١ ٨ . ١٧ سطراً ، ط : ٢/١ ٥هـ .

كتبها ناسخ الجزء الثالث السابق برسم الشيخ أحمد بن رشيد نفسه وفرغ من نسخها في يوم الجمعة ٤ ربيع الأول سنة (١٠٠٤هـ ؟) لعلها سنة ١٠٢٤ وكتبت سهواً .

وهذا هو المجلد الرابع والأخير ويضم من حرف (ف) حتى آخر الحرف (ي) ، حيث ينتهي الكتاب .

ـ منه نسخة بمكتبة الجامع الغربية (١٦ ـ لغة)

للوقوف ـ على نسخ أخرى في المكتبات الأوروبية والعربية انظر مقدمة عظيم الدين أحمد خان لمنتخباته المشار إليها في ترجمتنا لنشوان Azim. Ahmed, Gibb Mem. XXIV بروكلمان (الأصل الألماني) : GAL. 1,300, S. 1, 527 والترجمة العربية ٥/٢٩٨ .

جرجي زيدان ٣/٥٧ ـ ٥٨ .

وقد قام إبن القاضي نشوان « علي بن نشوان » باختصار سفر أبيه هذا في مختصر سماه « ضياء الحلوم » منه نسخة في أيا صوفيا بتركية وغيرها « راجع ما سبق » .

النشوانية :

ومن آثار « نشوان » التي تجمع بين التاريخ والأساطير واللغة قصيدته النشوانية والتي تسمّى أيضاً القصيدة « الحميرية » وسنتحدث عنها في ترجمته وله كتاب « القوافي » لا يزال مخطوطاً وقد حرّر فصلاً بديعاً عن العروض والقوافي في شرح رسالته المسمّاة « الحور العين » طبعت عام ١٣٦٧هـ /١٩٤٨م بالقاهرة .

٣ ـ علماء التفسير

سبق أن تكلمت عن السجل اليمني المجيد في خدمة القرآن الكريم والسنة الشريفة وذكرت اعلام المفسرين والمحدثين ومؤلفاتهم من مطلع العهد العباسي إلى بداية الفترة الثالثة التي خصصت لها هذا السفر من كتابي وقد اشتهر أثناءها علماء أفذاذ اشتغلوا بعلوم القرآن ومنهم :

١ ـ العالم الفقيه علي بن موسى الرسي المتوفي عام ٥٠٠هـ وله :

١ ـ كتاب « تفسير القرآن » وصفه ابن أبي الرجال في كتابه مطلع البدور بأنه « جليل القدر » ولا يزال مخطوطا .

٢ ـ السلطان الشاعر الخطاب بن الحسن الحجوري المتوفي عام ٥٣٣هـ وقد سبقت أخباره وأشعاره ضمن حديثنا عن الحكام والسلاطين وأئمة هذه الفترة ومن مؤلفاته في علوم القرآن :

٢ ـ رسالة في بيان « اعجاز القرآن » .

٣ ـ برهان الأنوار في اعجاز سورة الكوثر .

٣ ـ الامام أحمد بن سليمان [ت ٥٦٦هـ] .

وقد سبقت ترجمة هذا الامام الجليل ومؤلفاته في شتى الفنون ومنها :

٤ ـ فضائل القرآن واعجازه وهو فصل من كتابه النفيس « الحكمة الدرية » وتوجد منه نسخة في مكتبة الجامع الكبير برقم : ١٠٢ ـ علم كلام .

٤ ـ نشوان الحميري [ت ٥٧٣هـ] .

ومن مؤلفاته :

٥ ـ التبيان في تفسير القرآن منه نسخة « الجزء الثاني » بالامبروزيانا ١٨ [ق] .

٦ ـ « العدل والميزان » ذكره في كتابه شمس العلوم .

٤ ـ السنة النبوية

أما في علم السنة والحديث فلم تقل عناية علماء هذه الفترة بهما عن أعلام الفترتين السابقتين وقد برز خلالها محدثان فقيهان مشهوران :

١ ـ الأول . العالم الأصولي المتكلم القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام [ت ٥٧٣هـ] الذي سنقف معه وقفة طويلة عندما نتحدث عن مؤلفاته في « علم الكلام » .

ومن مؤلفاته في علم الحديث : تيسير المطالب من أمالي أبي طالب ، جمع فيه أمالي الامام أبو طالب يحيى بن الحسين الهاروني المتوفي سنة ٤٢٤هـ ، ومنه نسخة في مكتبة جامع صنعاء : ٤٦١ حديث وأخرى برقم : ٤٥٩ حديث ونسخ أخرى ، وله كتاب « الأربعون الحديث العلويّة » وشرحها ، ومنه نسخة بمكتبة المؤرخ زبارة ، ومنه نسخة في المتحف البريطاني بلندن وصفها الدكتور العمري في « مصادره » فقال « المخطوط ذو الرقم Or.3919 مجموع يقع في ١٨٥ ق ، ٣/٤ ٦ × ٣/٤ . ١٨ سطرا ، ط : ٤هـ خطه نسخ واضح ويرجح انه يعود الى القرن الثالث عشر » .

ويشتمل على الأحاديث الأربعين المسندة إلى الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قام بجمعها وتخريج أسانيدها القاضي جعفر بن أحمد . ومطلع الحديث الأول منها « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » .

وفي نهاية الورقة ٣٨ ب حتى ـ ق ٤٠ فصل للقاضي جعفر أودعه بعض المواعظ والخطب وجعل له العنوان التالي : « فصل في معرض الوعظ والخطابة من كلام القاضي شمس الدين جعفر » [ص : ١٤٨ ـ ١٤٩ مصادر التراث] .

٢ ـ والعلَم الثاني المحدث الصالح محمد بن سعيد بن معن القُريضي المولود سنة ٤٩٩هـ والمتوفي سنة ٥٧٦هـ وقد ترجمه ابن سمرة في طبقاته فقال : « ومن أهل لحج : القاضي الأجل محمد بن سعيد القُريضي ، وكان زاهداً ورعاً عالماً مجتهداً له منصفات مليحة منها « المستصفى في سنن المصطفى ﷺ » ، و« مختصر الأحياء » قيل إنه رأى النبي ﷺ فدعا له بالتثبت ثم لقيته بعدن ومات رحمه الله سنة ٥٧٦هـ » [ص ٢٢٥] .

وقد ذكره ياقوت الحموي في مادة لحج من معجمه فقال : « وسكن لحجاً الفقيه محمد بن سعيد بن معن القُريضي صنف كتاباً في الحديث سماه المستصفى في سنن المصطفى محذوف الأسانيد جمعه من الكتب الصحاح »

وقد فرغ من تأليفه سنة ٥٢٥هـ . وقال الجندي : « وهو من الكتب المباركة المتداولة في اليمن يعتمده الفقهاء والمحدثون ويتبرك به الفقهاء والاميّون » ، ومنه نسخة كتبت سنة ٧١٩ في ١٣٠ صفحة الجزء الأول بمكتبة جامع « الروضة » ، ومصور بمعهد المخطوطات . [حبشي ص ٤٠] .

٥ ـ الفقه والفرائض

وممن برز في الفقه في هذه الفترة :

١ ـ الفقيه الزاهد جعفر بن عبد الرحيم المخائي [ت ٤٦٠هـ]

وقد ترجمه « ابن سمرة » وقال إنه طلب للفتوى والتدريس بالجند في عهد ولاية « الكرندي » فساعد بشرطين : احداهما اعفاؤه عن الحُكْم ، والثاني اعفاؤه عن أن يأكل طعام الوالي ، أو من مال السلطان .

قال : « ثم أقام على بليغ الورع والزهد الى أن استولى الملك علي بن محمد الصليحي على « الجند » فسأله أن يلي القضاء له فقال : لست أصلح للقضاء فأعرض عنه « الصليحي » مغضبا ثم أمر بضربه » في قصة عجيبة !

ثم قال : « وكانت حوائجه من « الصليحي » مقضية ، يصون له أصحابه ، ويشفّعه فيهم ، ويسقط الخراج عن أراضيهم ، وكان مع ذلك يتقي من الصليحي هو وشيوخ أهل السنة ، وله كتاب صنفه في الخلاف سماه « الجامع » [ص : ٩٤ ـ ٩٥] » .

وترجمه « الجندي » لوحة : ٧٦ ـ وتوفي سنة : ٤٦٠هـ ، وهو والد العالم المناظر الفقيه أبو بكر بن جعفر شيخ الامام زيد بن الحسن الآتي ذكره [وانظر ابن سمرة في طبقاته ص : ١٠٣ ـ ١٠٦] .

٢ ـ زيد بن الحسن الفايشي [٤٥٨ ـ ٥٢٨هـ]

الامام زيد بن الحسن بن محمد بن الحسن الفايشي ترجم له « ابن سمرة » في طبقاته فقال : « كان عالماً بعلوم كثيرة منها : علم القراءات

بطريقه إلى أبي معشر الطبري [شيخ أهل مكة في عصره] قرأ عليه بمكة ، ومنها : التفسير ، والحديث ، ومنها : اللغة والنحو ، ومنها : الفقه ، والخلاف ، وأصول الفقه « وعلم الكلام في التوحيد ، ومنها الدور والحساب ، وكان كثير الحجّ ، وربما جاور بمكة » ، وذكر أنه تفقه في « المُشَيرق » وعدّد مشايخه في اليمن ومكة المكرمة ومنهم خير بن يحيى بن ملامس ، وابراهيم بن أبي عباد النحوي وقال : وهو القائل لابراهيم بن أبي عباد وقد راجع ابنه سعيداً في قول الشاعر :

يقولون لي دار الأحبة قد دنت ... وأنت كئيبٌ ؛ إنّ ذا لعجيب !؟
فقلت : وما نفعى بدارٍ قريبةٍ ... اذا لم يكن بين القلوب قريبُ ؟

فقال : رَحَل من « المشراح » الى « السحول » . ! ما هذا يا مولاي ؟ فقال : « هذا عمل من حب لمن طبّ » ؛ وقيل إن هذا [الحوار] كان يوم خروجهم من « ذي اشرق » خائفين من الأمير مفضل بن أبي البركات فافترقا في « السحول » . . هرباً من الأمراء الصليحيين !

وأما شيخه في اللغة فهو مؤلف « نظام الغريب » عيسى بن ابراهيم الربعي ثم قال : « وكان ـ أي الامام زيد ـ رحّالاً في طلب العلم ، فبذلك كثرت علومه ، وظهرت فضائله ، وجمعتْ خزانته من هذه العلوم ما يزيد على خمسمائة كتاب ، وكان قوّاماً بالليل يصلّي بالسُّبع من القرآن كل ليلة في غالب أحواله ، وأكثر زمانه ، وصنف في مذهب الشافعي مختصراً لطيفاً سماه « التهذيب » وتفقّه بهذا الامام خلق كثير من بلاد شتى كيحيى بن أبي الخير العمراني وعمر بن اسماعيل بن علقمة وغيرهم ، وكان موالفاً للأصحاب لحسن خلقه وغزارة علمه ، وصلاح سلطان بلده » ومات في رجب سنة ٥٢٨هـ .

أُحَاظة في عهد بني وائل

والسلطان الذي أشار إليه « ابن سمرة » هو « أسعد بن وائل بن عيسى صاحب « أحاظة » وكان كما قال عمارة في « المفيد » : صاحب الكرم العريض والثناء المستفيض » [ت : ٥١٥هـ ص : ٩٣] وقال عنه « ابن سمرة » : « وكان هذا السلطان هو وأباؤه سالمين من البدع ، يؤثرون مذهب السنة ، وعمارة المساجد ، ومحبة العلماء والقراء والعُبّاد ، ويعظمون

السلف الصالح ، ويتبركون بذكرهم ، ويقتدون بأقوالهم وأفعالهم ، وكانت أحاظة ببركات عبّادها وفقهائها ، وعدل سلاطينها ، واسعة الأرزاق نضيرة البساتين والأسواق ، عامرة المساجد ، كاملة المحارث والموارد وقد قُتل السلطان أسعد بن وائل في جمادى الأولى سنة خمس عشرة وخمسمائة وقبره في جامع الجعَامي » ثم قال : « وكانت مدرسة هذا الامام في الجعَامي [وهي قرية من أحاظة] مدّة حياته ومات بها وعنه أخذ أولاده » [ص : ١٥٥ ـ ١٥٩] وتلك كانت « أحاظة » في القرن الخامس والسادس الهجريين ؛ مدينة عامرة بالحدائق والبساتين والمساجد والمدارس والأدباء والعلماء وكان موقعها في اعلا جبل حبيش من بلاد « السحول » ويقال فيها أيضا « وحاظة » وهي الآن قرية خاوية على عروشها .

« عمارة » وحماقة بني وائل !

وقد تعرض « عمارة اليمني » وهو يتحدث عن بني وائل ونسبهم الى « ذي الكلاع » الحميري لذكر قصة ظريفة قال : « ولهم رئاسة متأثّلة وفيهم حماقة يرون أنهم أشرف ولد آدم على الاطلاق ؛ ولقد اذكر أني خرجت من سوق « الجبجب » وهو أكبر أسواقهم في يوم صائف حتى إذا بعدت عن السوق لحقني منهم فارسان يركضان وقد سدّدا أسنّة الرمحين إليّ ؛ فنزلت عن الدابة وصعدت إلى الجبل فلما انتهيا إليّ قالا : إنا اختلفنا في أفضل ولد آدم ، وقد رضينا بحكمك وكان أحدهما قال : بنو وائل أفضل على الاطلاق . وقال الثاني : بل هم وقريش على السواء في الشرف . فقلت لهما : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل البشر ، وبنو وائل أفضل من قريش ومن سائر الخلق ـ تفادياً منهما ـ قال احدهما : والله لو قلت غير هذا ما سلمت منا ثم فارقاني » [ص : ٩٢] .

وكان الامام الفايشي شاعراً

وقد ذكر الامام زيداً هذا ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان مادة « وحاظة » فقال : وينسب إليها الفقيه زيد بن الحسن الفايشي الوحاظي صنف كتاباً وسماه « التهذيب » ومنها عيسى بن ابراهيم الربعي صاحب كتاب « نظام الغريب » . كما أن « الجندي » والسبكي والخزرجي والأهدل وغيرهم قد ترجموا له وأثنوا عليه ؛ ومن أخباره أن السلطان أسعد بن وائل

أسند إليه منصب القضاء لِمِخْلافِ « وحاظة » فامتنع الفقيه زيد واصر السلطان أسعد وقال له أنت أفقه الناس ، والقضاء متعيّن عليك ولكن الفقيه زيداً أصر على الامتناع ، فغضب أسعد وعتب عليه في غيابه ، ولما بلغ الفقيه عتب السلطان ، فارق بلد السلطان إلى بلده القديم « الأفيوش » وكتب إلى السلطان شعراً قال فيه :

ألا إن لي مولىً وقد خلت انّني ... أفارق طيبَ العيش حين أفارقُهْ
جفاني ، فأقصاني بعيداً جفاؤه ... وصرت بلحظي من بعيد اسارقُهْ
وأرقب عقبي للوداد جميلة ... وصبراً إلى أن يرقع الخرق فاتقُهْ
وما كان سيري لاختيار فراقه ... ولكنه ميلٌ إلى من يوافقُه

ولما وقف السلطان على الشعر تأثر وطلب من الفقيه العودة ووقف له أرضاً رغيبةً تسمى « الموهار » . ويقول عمارة إن البيتين اللذين سبق ذكرهما في هجو سلطان « شاحط » من شعر نزار بن أخت زيد بن الحسن الأحاظي [المفيد ص ـ ٩١ ـ] .

٣ ـ الحربي
[٤٨٣ ـ ٥٤٧هـ]

ومن فقهاء اليمن المؤلفين أبو محمد عبد الله بن علي بن ابراهيم الحربي ولد سنة ٤٨٣هـ وتوفي عام ٥٤٧هـ ترجم له ابن سمرة فقال : « كان عالماً مجوّداً وله تصنيف مليح سماه « الشروط » ، وقال : إن الامام يحيى بن أبي الخير لما اشتغل بجمع « البيان » واعتذر عن أكثر أصحابه وعن التدريس قال لصهره عثمان بن أحمد عندما استشاره بالقراءة والدرس : عليك بعبد الله بن علي الحربي فارتحل إليه ، وقد ترجم له الجندي في السلوك لوحة ١١٣ وقال في وصف كتاب « الشروط » أنه أحسن ما وضع في ذلك ويوجد في اليمن كثيراً » . [ص ١٦٤ ـ طبقات ابن سمرة] .

٤ ـ عبد الله الصّعبي
[٤٧٥ ـ ٥٥٣هـ]

الفقيه العالم عبد الله بن يحيى بن ابراهيم بن أبي الهيثم الصّعبي قال « ابن سمرة » : « الامام الأوحد العالم الأمجد ولد سنة ٤٧٥هـ ومات

بسَهْفَنة سنة ٥٥٣هـ وهو ابن ثمان وسبعين سنة وكان يقول لأصحابه لئن بلغت « الثمانين» لأصنعنّ لكم ضيافة ، وكانت مدرسته في سَهْفَنَة » .

قال : « واخبرني الفقيه سليمان بن فتح بن مفتاح أن الامام يحيى بن أبي الخير كان يقول : عبد الله بن يحيى شيخ الشيوخ ؛ وكانا متحابيّن في الله يتزاوران ، وحضر الفقيه يحيى جنازته وشهد دفنه هو وأصحابه من ذي أشرق وهو يومئذٍ فيها » ثم قال : « ولهذا الفقيه مصنفات مليحة كثيرة منها كتاب « التعريف » في الفقه و« احتراز المهذب » ، وله عقيدة حسنة على مذهب الامام أحمد بن حنبل نسختها من خطّه ؛ وذكر له كرامات ودلائل على فضله وزهده وورعه » . [ص ١٦١ ـ ١٦٣ طبقات] وقد ترجمه الجندي لوحة ١٠٦ والشرجي ص : ٧٧ وقال ياقوت الحموي في مادة « سهفنة » :

سهْفَنَة بلدة باليمن منها عبد الله بن يحيى الصّعبي مات بها وكان من الصالحين الأبرار ، وصنف كتابا سماه « التعريف » حدثني القاضى المفضل قال : حدثني أبو الربيع سليمان الحلّي التميمي أن جماعة من طلبة الصّعبي خرجوا إلى ظاهر البلد فوجدوا شاة وذئباً مجتمعين فتعجبوا من ذلك ؛ فوجدوا في رقبة الشاة كتاباً ففتحوه فاذا فيه « ولا يؤده حفظُهما وهو العلي العظيم » « إنا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون » « وحفظناها من كل شيطانٍ رجيم » « وحفظاً من كلِ شيطانٍ مارد » « بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم مُحيط بل هو قرآنٌ مجيد في لوح محفوظ » .

وصنف أيضاً كتاباً في احتراز المذهب صغير .

ولقد كانت « سهْفَنَة » مركزاً من مراكز الفقه والعلم وقد خربت وتلاشت وهي الآن قريةٌ صغيرة تسمى « سفنة » في شمال « القاعدة » ؛ طريق « ذي السّفال » .

٥ ـ ابن عبد الباعث
[ت ٥٥٥هـ]

العالم الخطيب إسحاق بن أحمد بن عبد الباعث ؛ كان أحد الأعلام المعاصرين للامام أحمد بن سليمان وكان خطيبه وقد ترجمه ابن أبي الرجال في مطلع البدور لوحة ٣١٥ ج ـ ١ ـ وذكر أن له تصانيف جمّة ورسائل كثيرة أكثرها في الامامة واحكامها وله رواية واسعة عن أكابر العترة ، وكانت زيديته

خالصة ، وترجم له أيضا العلامة يحيى بن الحسين في « المستطاب » لوحة - ٦٤ - ونقل عن صاحب الترجمان أنه قال : « القاضي إسحاق صنو القاضي جعفر في العلم والبراعة » وهو الذي أشار إليه وإلى القاضي جعفر السيد ابراهيم الوزير في بسامته بقوله :

وجــعـفــرٌ ثم إسحــاقٌ له نصراً في عصبةٍ ؛ وزرٌ ، ناهيك من وَزَرِ

وله تعليق على « الافادة في فقه الأئمة السادة » تأليف الهوسمي ، وشرح البالغ المدرك للامام الهادي ، وتوفي سنة ٥٥٥هـ بصعدة وكان إمام جامعها وخطيب جمعتها .

٦ - إبن أبي الخير العمراني
[٤٨٩ - ٥٥٨هـ]

ستتحدث الآن عن عالِمَيْن كبيرين لم يشتهر أحدٌ قبلهما كما اشتهرا ، ولا ظهر كما ظهرا ، ولا أثر في مجتمعه العلمي كما أثرا وكانت وظلت ومازالت مؤلّفاته مرجعاً ومصدرا للفقهاء والعلماء والمتكلمين : أما الأوّل فهو الامام الجليل يحيى بن أبي الخـير بن سالم العمـراني مؤلف « البيان » في الفقـه و « الانتصـار » في علم « الكلام » وأصول الدين وهما مرجع أتباع الامام « الشافعي » والامام أحمد بن حنبل في البابين . ولا أظنّ فقيهاً بين فقهاء الشافعية نال ما ناله « ابن أبي الخير » من الشهرة والحظ والتقدير في اليمن منذ وفاته حتى عصرنا الحاضر في القرن الخامس عشر الهجري .

وأمـا الثـاني فهـو معـاصره ونـدّه ومقـارعـه القـاضي جعفـر بن أحمـد بن عبـد السلام الذي رفع راية الاعتزال والعقل في اليمن . وفتح الباب لعبـاقرة أفذاذ ظهروا بين علماء الزيدية منذ مطلع القرن السابع حتى يوم النـاس هذا وسنتحـدث عنـه بعد أن نفرغ من الحديث عن الامام يحيى العمراني وتلامذته .

ولقد عقد « ابن سمرة » في كتابه « طبقات فقهاء اليمن » فصلين تحدّث في الأول عن « ابن أبي الخـير » ونشـأتـه وحياته وقراءاته ومشايخه ومؤلفاته وبعض أخباره ومروياته ، وتحدّث في الثاني عن تلاميذه ومن أخذ عنه ، وعن ابنـه العـلامـة طاهـر بن أبي الخير الذي كان شيخاً وأستاذاً للعلامة عمر

بن سمرة مؤلف الطبقات فجاء حديثه في الفصلين حديث العارف الخبير والشاهد الحيّ المعاين الثبت الثقة ، وقد رجعت إلى من ترجم لابن أبي الخير من العلماء والمؤرخين فوجدتهم جميعاً عالةً على إبن سمرة ، وكان في الوسع تلخيص ما ذكره وايجازه ، لكني رأيته ـ وبأسلوب جيّد ـ قد تعرّض لذكر أحداث وقضايا سبق الاشارة إليها ، وفيما أورده تبيين وإيضاح لها ، لمن أراد أن يعرف الأسباب والمسببات لبعضها ، ويزداد معرفة بخلفيات المجتمع الثقافي بل والسياسي للفترة التي نتحدث عنها ؛ ثم أن في الترجمة صورة للأسلوب الكتابي الذي كان يتبعه كتاب وعلماء اليمن في القرن السادس الهجري ؛ وإبن سمرة أحد أعلامه بل هو من أوائل من اعتنى بكتابة التراجم في اليمن بدقة تحرص على ذكر تواريخ الميلاد والوفاة ؛ بل وعلى تحديد زمن تأليف المترجم له لمصنّفِه ، ويكاد أن يتفرّد بهذه الميزة بين كافة المؤرخين اليمنيين ؛ ولذلك كله رأيت أن انقل ترجمة إبن سمرة لأستاذ أساتذته يحيى بن أبي الخير العمراني العدناني كما وردت في كتاب « طبقات فقهاء اليمن » وهي :

فصل
في ذكر الشيخ الامام أبي الحسين

الذي انتشر عنه الفقه في البلدان ، وجاوز علمه البحر مع السودان ، وسارت بتصانيفه الركبان ، في اليمن والشام ، وهو الفقيه الامام جمال الاسلام شمس الشريعة يحيى بن أبي الخير بن سالم بن أسعد بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عمران العمراني ، المنتسب إلى عمران بن ربيعة بن عبس بن زهرة بن غالب بن عبد الله بن عك بن عدنان بن أدد بن يجثوم بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام بن تارخ ـ وهو آزر ـ بن ناحور بن ساروح بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام بن لَمَك بن مَتُوشَلَخ بن أدريس عليه السلام بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

ولد رحمه الله في مَصنُعة سير ، سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، ومات رحمه الله في ذي السفال في ربيع الآخر لست وعشرين ليلة خلت منه سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وهو ابن تسع وستين سنة . تفقه بجماعة :

أولهم : خاله أبو الفتوح بن عثمان بن أسعد بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عمران ، تفقه به « بكافي الفرائض » في المواريث للصَّردفي لا غير ، بروايتها له عن مصنفه الشيخ إسحاق بن يوسف بن يعقوب الصردفي ؛ وبموسى بن علي الصَّعبي في ذي الحفر في نعيمة ، « بالتنبيه » ،

ثم يسّر الله سبحانه استدعاء الفقيه العالم الحافظ لمذهب الشافعي ، عبد الله بن أحمد بن محمد بن أبي عبد الله الهمداني من زبران ـ بادية الجند ـ إلى سير ، فحفظ عنه « المهذب » و« اللمع » لأبي إسحاق و« الملخص » و« إرشاد بن عبد ربه » و« كافي الفرائض » للصردفي . ثم ارتحل الى الامام زيد بن الحسن الفايشي بأحاظة ، وأعاد عنده « المهذب » وأخذ عنه « تعليق » الشيخ أبي إسحاق في أصول الفقه ، مع « ملخصه » أيضا ، وفي اللغة « غريب الحديث » لأبي عبيد ، و« مختصر العين » للخوافي و« نظام الغريب » للرَّبعي ، وغير ذلك من مسائل الدور والخلاف .

ومن شيوخه في الدور ، خاصة الفقيه عمر بن بيش ، قدم من الحج سنة ثلاثين وخمسمائة . وكان تِربه وخبيره في هذه الرحلة المباركة ، الفقيه الزاهد عمر بن إسماعيل بن علقمة ، فعادا جميعا وتدارسا في ذي السفال ، فأخذ الامام يحيى عن هذا الفقيه عمر « كافي النحو » لأبي جعفر الصفار ، و« الجُمل » للزجاجي . وبعد هذا وصل الفقيه الامام زيد بن عبد الله اليفاعي ، فارتحل إليه هو وأكثر أصحابه والفقهاء من المخلاف واليمن ، وقد كان صحبه جماعة يقرأون عليه الفقه ، فانتقلوا معه إلى الجند ، وسمع « النكت » ، وكان يناظر بين يدي هذا الفقيه كثيرا من جلّة الفقهاء المدرّسة ، ثم انتقل الى سهفنة بعد موت الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي ، فقرأ عند القاضى مسلم بن أبي بكر بن أحمد الصعبي ، كتاب « الحروف السبعة » في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين ، تأليف الشيخ الحسين بن جعفر المراغي ، ونقله من خط تلميذه الامام القاسم بن محمد القرشي .

ثم انتقل إلى ذي أشرق ، في سنة سبع عشرة وخمسمائة ، فسمع « الجامع للسنن » تصنيف الترمذي ، على الشيخ سالم بن عبد الله بن محمد بن سالم بن عبد الله بن يزيد ، وتزوج في هذه السنة أم القاضى طاهر ، وكان قد تسرى قبلها جارية حبشية .

وفيها ابتدأ مطالعة شروح المزني وكتب أخرى « كالمجموع » للمحاملي و« الشامل » لابن الصباغ ، وكتاب « الفروع » لسليم و« شرح المولّدات » للقاضى أبي الطيب ، و« العدّة » للقاضى حسين بن علي الطبري ،

و « الابانة » و « شرح التلخيص » لأبي علي السنجي ، وقد كان يقرأ بعضها في مدرسة الامام اليفاعي ، فسمع فيها ما يزيد على « المهذب » ، فاستشار فيها شيخه هذا ، زيد بن عبد الله في أنها تكون أجمع لما شذّ عن « المهذب » لينسخه ، فأشار عليه بجمعها كلها ، ومطالعتها وتعليق ما زاد على « المهذب » منها ، فابتدأ بتعليق كتاب « الزوائد » سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وولد ابنه طاهر في سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، وهو مستقيم على المطالعة والتعليق ، وكمل كتاب « الزوائد » في آخر سنة عشرين وخمسمائة ، وحج وزار قبر النبي ﷺ ، في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . ولقي الفقيه الامام الواعظ الشريف محمد بن أحمد العثماني الديباجي في مكة ، فتناظرا وتذاكرا في مسائل الفقه والأصول ، وكان الامام يحيى قد سمع في مدرستي الشيخين الامامين : زيد بن الحسن الفايشي وزيد اليفاعي ، كتاب « التبصرة » في علم الكلام في أصول الدين ، تصنيف أبي الفتوح ، على مذهب السلف الصالح ، وهما ينقلانها جميعاً عن الشيخ أبي نصر البندنيجي ، مصنف « المعتمد » في الخلاف ، فإنهما صحباه جميعا في مكة .

وعن الامام يحيى ، أخذ مشايخنا « التبصرة » في أصول الدين ، ورويناها عنهم . وكان رحمه الله يسمعها في مدرسته ، ويُعلمها من طلبها ، فناظر الشريف العثماني ، وهو أشعري ، ونصر مذهب الحنابلة أهل السنة ، في أن القراءة هي المقروء ، واحتج على الشريف بقوله تعالى ﴿**إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ الآية . وأن الاشارة بهذا إلى المتلوّ المقروء ، إلى أن سكب الشريف العرق عن وجهه ، ثم راح رحمه الله ، فاستخرج كتابه المؤلف في الدور ، من كتاب ابن اللبان وغيره ، ثم نظر في كتابه « الزوائد » فإذا هو قد رتبه على ترتيب شروح « مختصر المزني » وأغفل الدور وأقوال الأئمة فيه ، وابتدأ رحمه الله بتصنيف كتابه « البيان » من سنة ثماني وعشرين وخمسمائة ، وفرغ منه سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، فرتبه على ترتيب محفوظة ، وهو « المهذب » فجمعُ « البيان » في ست سنين غير قليل ، وجمع « الزوائد » في أربع سنين إلا قليلا .

وذكر في « البيان » عن الشريف العثماني مسائل ، تدل على علمه وفضله ، وجواز الأخذ باجتهاده ونقله .

قال القاضي طاهر بن يحيى : قال له والده رحمه الله : إنه لم يعلق « الزوائد » إلا بعد حفظه « للمهذّب » ونقله غيبا ، في إبتداء درسه له ، على الامام الفقيه عبد الله بن أحمد ، ثم أعاده في أحاظة ، ثم طالعه بعد ذلك كله قبل التصنيف ، أربعين مرة أو أكثر .

وكان رحمه الله يطالع الجزء من تجزئة أحد وأربعين من « المهذب » في اليوم والليلة ، أربع عشرة مرة ، لكل فصل منه .

وكان رحمه الله إذا درس من يعلم فهمه ، فإنه بعد فراغ القارىء من الفصل يعيده هو بنفسه عليه حفظا ، مع تنبيه له على خلاف الامام مالك وأبي حنيفة خاصة ، وقد يذكر معهما غيرهما في بعض المسائل ، ثم يذاكره باحتراز الأقيسة والوجوه في أصولها ، لم خُصت بجعلها أصولا ؟ وذلك إما من جهة النص عليها في الكتاب والسنة ، أو تسليم المخالف في حكم المسألة المقيسة ، وإن كان في عبارة الكتاب استغلاق ، أو قصر فهم القارىء أبدلها له بعبارة أخرى ، إلى أن يتصور القارىء الفصل ويفهمه . ومن كان من الطلبة غير فاهم ، لم يسلك به هذا المسلك ، بل يجيبه عما سأل عنه لا غير ، مع ردّه عليه التصحيف .

ولما فرغ رحمه الله من تأليف « البيان » سأله الفقيه محمد بن مفلح الحضرمي استخراج المسائل المشكلة في « المهذب » ، وكان هذا الفقيه من جلَّة أصحابه ، فصنّفه له ، ثم انتسخ منه . وأقام رحمه الله في سير ، على التدريس بعد ذلك ، إلى آخر سنة تسع وأربعين وخمسمائة . ثم تعذّر سُكنى سير على أهلها ، لحروب جرت بينهم وفتن ، فخربت بعد خروجهم منها ثم انتقل إلى ذي السفال ، ثم إلى ذي أشرق ، فأقام بذي أشرق سبع سنين وكسراً يدرس ويقرىء ، فجرت فتنٌ في السنة الرابعة من هذه السبع بين الفقهاء ، تباغض وتحاسد وتكفير ، من فقهاء ذي أشرق لفقهاء زبيد ، بعد خروجهم من تهامة ، وقت فتح ابن مهدي لها ، وكان فتح ابن مهدي لزبيد ، آخر ساعة من يوم الجمعة ، آخر يوم من رجب ، سنة أربع وخمسين وخمسمائة . ثم قويت شوكة ولده مهدي بن علي ، بعد موت أبيه ، فأغار على الجند وبواديها ، وقتل أهل الذَّنَبَتَيْن ، ثم قتل أهل العربة ، في شوال سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، فجعل الامام يحيى بن أبي الخير رحمه الله ، خوف

ابن مهدي سبيلا إلى خروجه من ذي أشرق ، فخرج عنها إلى ضراس ، ثم إلى ذي السفال ، وفيها مات رحمة الله عليه مبطونا شهيدا ، في ربيع الآخر قبيل الفجر من ليلة الأحد من سنة ثماني وخمسين وخمسمائة ، ما ترك صلاة في مرض موته ، وكان نزعه في مرضه ليلتين ويوما بينهما ، يسأل عن وقت كل صلاة بالايماء ، لأنه اعتقل لسانه ، وكان كثير التهليل ، يعرف منه بالاشارة بالمسبحة .

وكان ورده أكثر زمانه في صلاة الليل بسُبع القرآن ، وكان رحمه الله يحب طلبة العلم والفقه واجتماعهم ، ويكره لهم الخوض في علم الكلام .

ثم صنّف رحمه الله في خلال هذه المدة ، كتاب « الانتصار في الرد على القدرية الأشرار » . . وذلك سبب فتنة أثارها قاضي الزيدية ، هو جعفر بن أحمد بن عبد السلام بن أبي يحيى المعتزلي ، في مدينة إب ، ويقال إنه سأل المناظرة ، فبعث إليه الامام يحيى بن أبي الخير ، الفقيه الفاضل المشهور علي بن عبد الله بن عيسى بن أيمن البرمي ، فاجتمعوا في حصن شواحط ، حماه الله وعمره بالصالحين من عباده ، وكان لهم فيه محفل عظيم مشهور ، سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وأضاف رحمه الله إلى ما ذكره في « الانتصار » من مسائل القدرية ، مذهب الأشعرية والرد عليهم ، فأجحف فيه على الأشعرية ، وقطع حلوقهم ، وأفحمهم ، خصوصا بذلك من يقول ﴿**ما أنزل الله على بشر من شيء**﴾ ففرح الفقهاء بكتاب « الانتصار » وانتسخوه ، ودانوا الله به واعتقدوه ، وصنف بذي أشرق ، كتابه المشهور « بغرائب الوسيط » ، « ومختصراً من إحياء علوم الدين » للامام الغزالي رحمه الله ، وسمع هو وأصحابه « صحيح البخاري » و « سنن أبي داود » بذي أشرق ، سنة خمس وخمسين وخمسمائة على الشيخ الحافظ علي بن أبي بكر بن حمير بن تبع بن فضل الهمداني ، بقراءة ولده القاضي الأجل طاهر بن يحيى ، والفقهاء الفضلاء : أحمد بن إسماعيل بن حسين المأربي ، وعبد الله بن عمر التباعي ، وسليمان بن فتح بن مفتاح .

وفي الامام يحيى بن أبي الخير يقول الشاعر :

لله شيخ من بني عمران	مذ كان شاد العلم بالأركان
يحيى لقد أحيا الشريعة هاديا	« بزوائد » و « غرائب » و « بيان »
هو درة اليمن الذي ما مثله	من أولٍ في عصرنا . . أو ثانِ

***

فأيّد الله سبحانه وتعالى بهذا الشيخ الامام يحيى بن أبي الخير الاسلام والدين ونفع الله تعالى به المسلمين ، فكان كتابه « البيان » كاسمه بيانا ، وللعلماء هدى وتبيانا ، وأنبأ به رحمه الله البُعداء ، وانتشر علمه في الأجانب والقُرباء ، وأجاب عن المعضلات ، وأوضح المشكلات ، وقسم الأوصاف والاحترازات ، وطبق الأرض بالأصحاب ، فما أعلم في أكثر هذا المخلاف فقيها مجودا ومناظرا مجتهدا ، إلا من أصحابه وأصحاب أصحابه ، لأنه رحمه الله انتحل الشروح الكثيرة ، والدلائل المشهورة ، والمسائل المفيدة والأقيسة السديدة إلى بيانه ، وضمّنه النكت الحسنة ، والمعاني المتقنة ، جمع فيه بين تحقيق البغداديين ، وتدقيق الخراسانيين ، فإذا تأمله الحاذق الناظر ، وكدّ في جواهره الخاطر ، إلى أن يستدر الناظر ، وسعه وكفاه ، واستغنى به عما سواه ، فرحم الله مثواه وبل ثراه ، وجعل الجنة محله ومأواه ، ونفع به وبعلومه المسلمين آمين .

وفي شهر شوال من السنة التي مات فيها الامام يحيى بن أبي الخير ، أخذ ابن مهدي الجند ، فقتل فيها قتلاً ذريعاً ، وحرق مسجدها في يوم الأثنين الثامن من شهر شوال ، واستولى على حصون السلطان علي بن أبي الفتوح الوليدي ، وهي الحريم وحلمه وريشان ، سنة ست وخمسين وخمسمائة ، ثم رجع إلى زبيد ، ومات بها وقبر مع أبيه ، في مشهدهم المشهور في أيامهم ، ثم ولى أخوه عبد النبي بن علي بن مهدي يعرف بالسيد والامام ، على ألسنة العوام ، فنهض لحصار المخلاف ، وحصار المجمعة ، وأسر أبا النور بن أبي الفتوح ، فمات في أسره في زبيد ، ولزمه من الشماحي يوم الأحد بربيع ، ففي سنة اثنتين وستين أخذ المجمعة ، ونبش قبر ابن أبي النهى ، وقتل القاضي الشاعر يحيى بن أبي يحيى أخو القاضي جعفر المعتزلي واستولى على مخلاف التعكر ، وزالت على يديه دولة آل زريع من المخلاف ، وكانت

قتلة بني الهيثم بالجند يوم السبت الثاني عشر من ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وكانت لبني مهدي وقائع مشهورة في لحج ، وأبين ، ومخلاف الساعد ، في بني سليمان الشرفاء ، وسبا ذراري العرب ، وسفك دماء المسلمين ، وكانت دولة بني مهدي في زبيد خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام ، إلى أن قدم السلطان شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، فأزال الله به دولة بني مهدي ، وأهل عدن وبني الزر من التعكر ، وكان قدومه باليمن في شوال ، من سنة تسع وستين وخمسمائة .

وأما بنو الزّر فإنهم أخذوا حصن خدد في سنة أربع عشرة ، وأخذوا التعكر من فتح بن مفتاح خديعة في نكاح بناته ، سنة خمس عشرة وخمسمائة ، واستقاموا في خدد إلى شوال من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وأخرجهم السلطان سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، ثم حج مكة .

ويقال : إن الامام يحيى بن أبي الخير ، قدم وافداً على الحرة السيدة بنت أحمد الصليحي في شأن أيتام كانوا تحت يده من أصحابه ، وعلى أراضيهم خراج ، فأسقطته بجاه الامام يحيى ، واعتذر الوزراء إليه . وكان له في اليمن جاه كبير . [ص : ١٧٤ - ١٨٤] وكان الشيخ يحيى ينظم الشعر ومن ذلك قوله :

كم حاجةٍ بمحل النجم قرّبها — طول التعرض والروحاتُ والبكرُ
فاشدُدْ يديك بحبل الدرس مجتهداً — وان أمضك طول الليل والسهر
ان التجار إذا جاءوا وقد ربحوا — أنساهم الربح ما عنّاهم السفر

[ص ١٦٥ صلحاء اليمن]

ازدهار المخلاف الأخضر :

ولقد تحدث « ابن سمرة » عن شيخ مشايخه ، وأستاذ أساتذته باعجاب وتقدير كبيرين ، فعنه انتشر الفقه ، وجاوز علمه البحر ، وسارت بتصانيفه الركبان ، ولم يكتف بايراد سلسلة نسبه الى عدنان بل سَلْسَلهُ إلى أبينا ابراهيم عليه السلام ثم الى شيث بن آدم ﷺ في نسب قصير عجيب !! وبعد أن ذكر أسماء مشايخه والكتب التي قرأها وتخرج بها على أيديهم في شتى أنواع المعارف ذكر أنه تزوّج في سنة ٥١٧هـ بأم إبنه القاضي طاهر ، ونعلم من هذا انه قد ظل بلا زواج إلى أن بلغ الثامنة والعشرين ولكنه كما يقول

« كان قد تسرّى قبلها جارية حبشية » ولم يذكر هل أنجبت له تلك الجارية أم لا !

ومن وصف ابن سمرة وتسجيله لأسماء العلماء والفقهاء والكتب النفيسة وقُرى « سَيْر » و« ذي السُّفال » و« ذي الحفر » و« زبران » و« أحاظة » و« الجند » و« سَهْفَنَة » و« ذي أشرق » حيث تزوج بها ولم يمض عام الاّ وقد رزق بابنه العلامة طاهر بن يحيى وهو يؤلف كتابه « الزوائد » من كل ذلك نفهم أن « المخلاف الأخضر » ما بين « سمارة » و« الجند » و« حُبيش » و« العدين » كان زاخراً بالعلم ، وكانت قراه التي أصبح بعضها اليوم أطلالاً ، حيَّة بالمعاهد والمدارس ، والعلماء والشعراء خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

وقال إنه عندما حجّ سنة ٥٢١هـ لقي كثيراً من علماء العالم الاسلامي وناقشهم وناظرهم في مسائل الفقه والأصول ، وذكر نصرته لمذهب الحنابلة أهل السنة في أن القراءة هي المقروء ، ثم قال إنه ابتدأ بتصنيف كتابه « البيان » سنة ٥٢٨هـ وهو يومئذٍ في قمة شبابه يزحف نحو الأربعين وقال إنه فرغ من تأليفه سنة ٥٣٣هـ أي أنه أمضى في تأليفه ست سنوات لا عمل له سواه .

كتاب « البيان »

وكتاب « البيان » من أهم كتب « الشافعية » وأكثرها شهرة قال « الجندي » في وصفه : « انتفع به الانس والجان ، ولما قدم بغداد جعل في أطباق الذهب وطيف به مرفوعا ، وقد أجاب فيه عن المعضلات ، وأوضح به المشكلات ، وقسم به الأوصاف والاحترازات ، وجمع فيه بين تحقيق أهل العراق ، وتدقيق الخراسانيين » .

وكان « ابن سمرة » قد نقل عن الامام زيد بن الحسن الفايشي [٤٥٨ - ٥٢٨هـ] انه كان يقول « يحيى ابن أبي الخير فقيه يصلح للفتوى وانه أمر بعض أصحابه بالدرس عليه » ثم علق قائلاً : « وقلتُ : وكان هذا لا شك في أول أمر يحيى ابن أبي الخير فلو عاش الى تصنيفه « البيان » لرأى عجبا ! » [ص - ١٥٩ -] .

ويقول الحبشي في مصادره « ان نسخة من البيان كتبت سنة ٨١٠هـ وسنة ٧٠٧هـ في ستة مجلدات توجد في مكتبة جامع صنعاء برقم ٤٧٩ وأخرى في جامع المظفر بتعز ونسخة في أربعة مجلدات في جامع تريم بحضرموت [ص ١٧٣] وأما المحقق فؤاد سيد فيقول ان البيان « يقع في حوالي أحد عشر مجلداً ويوجد منه أجزاء متفرقة في دار الكتب المصرية ومكتبات استانبول [ص ١٥١ ـ هامش الطبقات] .

طريقته في التدريس

وليس أدل على المعية « ابن أبي الخير » وفطنته ؛ ومبلغ إخلاصه للعلم والتدريس من ذلك النهج الذي كان يتبعه في « التدريس » وتفريقه بين من يَعلم فهمه وجدّه واجتهاده من تلاميذه ، وبين من يدرك انه « غير فاهم » فقد كان يسلك مع الأوّل طريقةً لا يكلّف نفسه بها مع الثاني ؛ فانه كان مع من يعلم فهمه يعيد هو بنفسه عليه الدرس حفظاً ، مع التنبيه الى خلافات وجهات أنظار الفقهاء ، ويذاكره بالأقيسة ، ويورد له ما يعلمه من نصوص الكتاب والسنة ، ويفسّر له ما صعب واستغلق من عبارات الدرس حتى « يتصور القارىء » الفاهم « الدرس ويفهمه » ؛ وأما « غير الفاهم » فانه لا يتعب نفسه معه ولا يسلك به هذا المسلك ، بل يكتفي بالرد على استفساره إذا استفسر ، ويصحّح اغلاطه وأخطاءه وتصحيفاته إذا وقع في شيء من ذلك .

وكان كما حكى ابنه « طاهر » لا يقدم على كتابة فصل من فصول كتبه ولا يتولّى التدريس الاّ بعد تدقيق وفحص ودراسة للمادة التي يريد أن يؤلف فيها أو يدرسها ، أو يتحدّث عنها .

وفاته بعد الفتن والمحن

وأشار « ابن سمرة » إلى الفتن والمحن التي اجتاحت اليمن في أواخر عهد « السيدة » وبعد ثورة « ابن مهدي » ، والتي جعلت من المتعذّر على الشيخ السكنى في « سَيْر » ومواصلة التدريس ، فانتقل الى « ذي السفال » ، ونشبت الصراعات بين الفقهاء كل يكفّر الآخر ويحسده ويبغضه ، ولمح إلى غارة ابن مهدي على الجند وقتله لأهل « الذّنَبَتَيْن » و« العَربة » ؛ كل ذلك

والشيخ يتنقّل خائفاً يترقب ، من قرية إلى أخرى ، حتى مات في ذي السفال « مبطونا » شهيداً في ربيع الآخر سنة ٥٥٨هـ وقد اعتُقِل لسانه ، ولم يعد يطيق التهليل وآداء الصلاة ، إلّا بالايماء مع انه لم يتجاوز السبعين .

« الانتصار » وقاضي الزيدية

أما كتابه « الانتصار في الرد على القدرية الاشرار » فسنتحدث عنه حين نذكر مؤلفات المشاهير من علماء « الكلام » وأصول الدين في هذه الفترة ولقد كان خصم الشيخ « ابن أبي الخير » وندّه في هذا المجال هو العلامة الامام القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام الذي سماه « ابن سمرة » قاضي الزيدية ! وقد روى أخبار المناظرات والمناقشات التي جرت بين القاضي جعفر وابن أبي الخير وأصحابه بأسلوب ينمّ ان هواه مع أبناء نحلته وأساتذته ، ويويّد ابن أبي الخير وكتابه الانتصار ويخطّىء « قاضي الزيدية » ؛ وبالرجوع الى مؤلفات علماء ومؤرخي الزيدية نرى صورة أخرى فهم يقولون ان « الشيخ ابن أبي الخير» قد « نكص » عن المناظرة ، ولم يستطع صديقه علي بن عبد الله الثبات أمام القاضي جعفر العالم بفنون الجدل والمناظرات ، بل لجأ إلى السباب والشتائم كما سنرى في ترجمة القاضي جعفر ان شاء الله .

تناقضات كتب تاريخ اليمن

ومن يطالع كتب التاريخ والسِّير والتراجم والطبقات ، التي الّفها علماء اليمن عبر العصور يرى التناقضات الغريبة ، والصور المختلفة للحادثة الواحدة قدحاً ومدحاً ، وتأييداً وتفنيدا ؛ ونحن نعلم ان اليمن منذ مطلع القرن الثالث الهجري وحتى بداية القرن الحادي عشر قد قامت فيها أكثر من عشرين دولة وسلطنة كل واحدة لا تقوم الّا على أنقاض أخرى وكلما جاءت دولةٌ لعنتْ سابقتها ، ولكلٍّ أنصار واتباع وشعراء ومؤرخون ، وكلٌّ يمدح دولته ويمجد أبناء نحلته وطائفته ، ويُطري سلاطينها وحكامها ، ولا يكتفي بذلك بل يضلّل ويسفّه ويذم رجال وعلماء الطائفة أو الفئة الأخرى ؛ ولذلك فلا يليق بمن يريد معرفة الحقيقة التي هي ذات وجه واحد ، ومن همّه الانصاف لا التعصب ، الاعتماد على ما يقوله مؤرّخ طائفةٍ ما

« كالـزياديين » أو « الصليحيين » أو « الطاهريين » مثلا في حكام وعلماء « الهادويين » أو « النجاحيين » أو « الرسوليين » والعكس وارد أيضاً .

وعلى المنصف طالب الحقيقـة أن يقـرأ كل تلك الكتب ويقـارن بينها ويصطفي ويختار ما هو أقرب للمنطق والعقل وطبيعة العصر الذي يؤرخ له ، ومعرفة جبلّة « اليمنيين » واختلافها باختلاف المناخات الجغرافية سهلا وجبلا ، وشمالًا وجنوبا ، وشرقا ومغربا ، وذلك ما أحاول تحرّيه عندما أكتب عن تاريخ اليمن الأدبي أو السياسي وقد جرّني إلى هذا الايضاح ما لمستُه من تبـاين في وصف « ابن سمرة » لحادثة الحوار بين « القاضى جعفر الزيدي المعتزلي » ، وبين الشيخ الحنبلي أصولاً الشافعي فقهاً ابن أبي الخير وتلميذه الفقيه علي بن عبـد الله الـبرمي عن وصف المؤرخ ابن أبي الرجال لنفس الحادثة كـلّ يمجّد صاحبه فاذا رجعنا الى المؤرّخ يحيى بن الحسين بن الامام القاسم وجدنا الاعتدال والانصاف والابتعاد عن التحامل بالرغم من انه « زيدي » الهوى والرأي والمذهب وحفيد امام كبير من ائمتهم ولكنه كان منصفاً ، وقد أشاد بانصافه الامام الشوكاني في البدر الطالع .

أصحاب وتلاميذ الامام يحيى بن أبي الخير

وقد عقد « ابن سمرة » فصلًا ـ كما ذكرنا سلفاً ـ ترجم فيه للمشهورين من أصحاب « ابن أبي الخير » ومن تفقّه عليه أو سمع منهم وأطنب في ذكر قراءتهم ، وأورد بعض أخبارهم وبينهم الكثير من مشايخه ومنهم :

١ ـ محمد بن موسى بن الحسين العمراني [٤٩٩ ـ ٥٦٨هـ]

٢ ـ عثمان بن أسعد بن عثمان العمراني [٤٩٩ ـ ٥٧٧هـ] وهو صهر الشيخ وخال ولده طاهر .

٣ ـ مسلم بن أسعد العمراني وقد ترجمه الجندي في السلوك لوحة ١٣٦ .

٤ ـ الفقيه عبد الله بن عمر التباعي [ت ٥٩٤هـ]

٥ ـ الفقيه على بن عمر التّباعي [ت ٥٩٤هـ]

٦ ـ علي بن أبي بكر بن سالم [٥٢٦ ـ ٥٧٤هـ]

٧ ـ سيف السنة زين الحنبلية أحمد بن محمد بن عبد الله البُريهي وقد أطنب

« ابن سمرة » في وصف « البريهي » وذكر انه سكن إب ، وأفضت اليه الرياسة فيها ، وجمع بين الزهد والورع والعلم والحديث ، ثم قال : « ويقال انه وردت عليه مسألة نازلة فيمن حلف على مال امرىء مسلم فاقتطعه متعمداً ، أو على أمر لم يكن ، وقد كان متعمداً لذلك . فأجاب فيها : ان ليس عليه الاّ كفارة اليمين فقط ، وخالفه فيها الفقيه محمد بن أحمد بن عمر فتنازعا في ذلك » فيقال ان الفقيه أحمد أجاز أصحابه كلهم دونه وله في الزهد والشيب :

ألا ؛ لصٌ عقلي في التشاغل سارقٌ ... وقد جاءني بالنعي في النوم طارقُ
أتى منذراً لي ، بارق الموت موهنا ... وكل سحاب ممطر فيه بارق

وله أيضاً

اترجو وقد جاوزت ستين حجةً ... لذاذة عيشٍ ان ذاك من الجهل
يريك الهوى أن القُوي فيك كالقوى ... بمقتبلٍ غضّ الشبيبة ، أو كهلِ

وله أيضا أيام هدمت « إب » :

خليليّ من ذاقي الدّنا عيشه طابا ... فلا تحزنا إن ناب « إبّ » الذي نابا
فآدم في الفردوس ما طاب عيشه ، ... ولا طاب في الدنيا ، وان كان قد تابا

وكان موجوداً في « الجند » يدرّس « صحيح مسلم » سنة ٥٨١هـ وقد ترجم له « الجندي » لوحة ١٢٤ .

٨ ـ عبدالله بن سالم الاصبحي [٥٠٥هـ ـ ٥٧٣هـ] .
٩ ـ محمد بن عمر بن محمد العمراني [٥٢٥ ـ ٥٧٢هـ] وكان ورعاً وشاعراً مفلقاً وله قصيدة في مدح عبد النبي بن مهدي منها :

وضحتْ شموس الحقّ بعد أفوله ... ورست هنالك قاعدات اصوله
وتألّقت منه الرياض ، وفتحتْ ... اكمامها بالنّور بعد ذبوله
واختال ثاني عطفه متسربلاً ... حلل البهاء يجرّ فضل ذيولهِ
أحيا الامامُ ذماءه بسيوفه ... ورماحه ، وبرَجْله وخيوله

واكتفى « ابن سمرة » بهذا الأبيات الأربعة وياليته أورد القصيدة كاملة فنفسُها عالٍ ، ورصفها بديع ، وقد ضاع معظم شعر هذا الفقيه وقال : « إنه لما أراد نساخة « احياء علوم الدين » للغزالي ، وعزّ عليه « العفص »

مدح شجر « الكلبْلاب » حين صنع منه مدادا فقال :

قولا لأبٍّ ولذي جبلةٍ إن منعا الحِبرَ وشَحّا . . به
فان في وادي شواحيطنا بحراً غزيراً من « كلبْلابه »

وهذان بيتان لطيفان يدلان على براعة فقيهنا الزاهد الورع الشاعر المفلق كما يقول « ابن سمرة » وهو بهما يؤنب « المدينتين » الكبيرَتين « اب » و « جبلة » لأنهما قد بخلا بالحبر ومنعاه عن شاعرنا في قريته الصغيرة ، أو على الاصح في حصنه « شواحط » وهما في نفس الوقت يدلّان على علوّ همة صاحبهما وفطنته وانه ولكي ينسخ بقلمه كتاب « الاحياء » للامام الغزالي ؛ ورغم عوزه ، وشُحّ « المدينة » على « الريف » حتى بالحبر . . قد اخترع صُنْعَ « المداد » من مادة شجرة « ريفية » تسمى « الكلبلاب » ، واستغنى به عن « العفص » الذي لا يوجد الاّ في « المدينة » وقد ترجم للفقيه الشاعر محمد بن عمر العمراني هذا « الجندي » في « سلوكه » لوحة ١٣٧ .

١٠ ـ الفقيه عمرو بن عبد الله السري المُناخي [٥٠٣ ـ ٥٥٥هـ] وهو زوج ابنته .

١١ ـ علي بن أحمد بن زيد المساني الحميري وكان أديباً شاعراً وهو القائل :
أستودع الله في « نخلان » لي قمرا [وتوفي سنة ٥٢٠هـ] .
وترجم له الجندي لوحة ١٤٤

١٢ ـ شاعر الفقهاء العبسي .

وقد ترجم « ابن سمرة » لعشرات من تلاميذ وأصحاب الامام « ابن أبي الخير » من ص ١٨٥ الى ص ٢١٠ من طبقاته ولست ملزماً بذكرهم جميعاً ، وفي ذكر البعض ما يكفي برهاناً على انه قد أوجد في « المخلاف الأخضر » مدرسة فقه كان لخرّيجيها أكبر الأثر في توجيه المجتمع فكرياً وأدبياً بل وسياسياً في ذلك المخلاف . ولكن لا بدّ أن نذكر منهم الفقيه الأديب الشاعر أبو بكر ابن محمد العبسي لأنه قد أثار مسائل فقهية خالفه فيها بعض فقهاء عصره وفي مقدمتهم العلامة الطاهر بن يحيى بن أبي الخير الذي سنترجم له ترجمة مستقلة لأنه من الفقهاء المؤلفين كما انه من أكبر تلاميذ والده . وشيخ مؤلف الطبقات .

أما شاعر الفقهاء ، وفقيه الشعراء أبو بكر ابن محمد العبسي والذي نشب بينه وبين فقهاء عصره خلاف سجله نظماً في شعر رائق ؛ فقد ذكر « ابن سمرة » انه كان « لا يرى جواز طلاق التنافي ، ولا يفتي بصحّته ، ولا يقول بصحة بيع ثوبه إلى آخر بطعام مسمّى ، ثم ردّ الثوب ، وأخذ منه ما اتفقا عليه من الطعام » وقال في هاتين المسألتين قصيدتين طويلتين ؛ فمن قصيدته في بطلان طلاق التنافي قوله :

طلاق التنافي قد نفى الحق ظاهراً ... وأنِّي له ولله يشهد لي أنفا
إذا طلق الزوج المكلفُ زوجه ... وليس بمجبور ثلاثاً فقد أوفى
وليست حلالا دون تنكِحُ غيره ... بشرط كتاب الله ما قلته حَيفا
نصحّح شرط الله دون اشتراطكم ... وننفيه نفياً ثم نصرفه صرفا
فكل اشتراط ليس في الشرع باطل ... وشرط كتاب الله حق فلا يخفى
ولا ينتفي حكم الطلاق بحيلة ... وحيلتكم فيه أحق بأن تُنفى
فأقسم ما تحليلها بطلاقها ... هو الحق إلا باطلٌ قسما حلفا
تحلّونها فيه وتحريمها به ... فصارت بها بانت محبسة وقفا
فأين يقول الله وقفُ نسائكم ... وتصحيح ما قلتم فنعرفه عُرفا
فإن لحكم الحق فيه أدلة ... وكل ابتداع محدث فيه لا يخفى
لئن كان للتدقيق هذا فتركه ... من الفرق والتحقيق والأوضح الأصفى
فكم من أناس دققوا فتزندقوا ... وصاروا به عن عِلْمٍ فَهْمٍ على الاشفى
فوا عُمراً لو قلتموها بوقته ... لأثخن فيكم ثم جاهدكم زحفا
أعوذ بربي من تكلّف حيلة ... وترك كتاب نوره الدهر لا يطفا
أأطلب تُرْباً للتيمم عامداً ... وعندي ماء البحر أغرفه غرفا
فأبطل بها من حيلة مستحيلة ... وأعظِم بحكم صار من أجلكم حيفا
وأعظم بها من فتنة ومصيبة ... لها تذرُف الأعيان في دمعها ذرفا
نصحّحُ فرعا وهو تعليق طلقة ... ونُسقط اصلا وهو شرط لها حتفا
أنطلق حكما واحداً بوقوعه ... فإن لم يعد إثنين أسقطه عسفا
فإن طلاقي بعده غير واقعٍ ... ولو أنني طلقتها عدداً ألفا
فيامن له إيقاعها دون رفعها ... فكفّوا عن الأحداث في أمره كفّا
فليس لزوجٍ أن يعلقها بها ... فيبطلها أو أن يريد بها ضُعفا
كتعليق تطليقٍ بفسخٍ لردةٍ ... وما كان ينفي الشرطُ فهو الذي يُنفى

نقــول بإيـقــاع الـطلاق مُنجـزاً   وإيقـاعـه من قبـلُ نحـذفـه حذفـا
وتعليق عِتق العبــد فالحكم جائــز   على عتقـه أيضـاً فلا تَحرفـوا حرفـا

***

قال ابن سمرة « والشعر طويل » ص : ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

وأما قصيدته ببطلان حيلة الربا فهي طويلة أيضا ومنها قوله :

يابــائـعــاً ثوبــه حتى يُعــادلــه   أليس يعلم هذا الــواحـد الصمـد
سبحـــانــه من حليم بعــد قدرتـه   وعــالم ما أرادوه ومــا قصــدوا
هل قال هذا رســول الله ويحـكـم   أو قال ذلــك من أصحــابـه أحـد
أم غاب عنهـم دقيق العلم دونكم   أم باكتساب حلال الربح قد زهدوا
فالعلم يورث عن رُسْلِ الآلـه كما   يحوز بالارث مال الــوالــد الـولـد
عَمن ورثتَ التنـافي والـربـا وهمـا   لكــل مَهـلكــةٍ أو باطــل عضـد
من أجــل أنهما أقصى المُحــال فإن   جازا فلا باطــل من بعــد ينتقــد
الحـق أضحى غريبـا ليس يفتقـد   فكـل من قالـه في النـاس يضـطهدُ
لا يقبـل الناس قول الحق من أحد   حتى يمـوت ويفنى الكـبر والحسد
ما كل قول لأهــل العلم منتفــعٌ   به ولا كل قول منهــم زبــد
همُ همُ خير من فيهــا إذا صلحـوا   وشرّ داء من الأدوا إذا فســدوا
فمنهـم كل معــروف وصــالحــة   ومنهـمُ تفســد الأقـطار والـبلـد
فما شَقَــت أمّــة إلا بشـــقــوتهـم   يومــا ولا سعــدت إلا إذا سعــدوا
أضحى الربا قد فشا من أجل حيلتهم   في كل أرض سوى أرض بها فُقــدوا
والله حرّم معـنــاه وبــاطـنــه   ومــا لهم فيــه برهــان ولا سنـد

***

قال « ابن سمرة » : « وقد أجابه القاضي الطاهر بن يحيى بن أبي الخير عن القصيدتين بتصنيف له سمّاه « الاحتجاج الشافي ، على المعاند في طلاق التنــافي » وذلـك بأمـر الشيخـين الامـامـين عبـد الله بن يحيى ، ويحيى بن أبي الخير لمّا أغضبهما كلامه الخارج عن ميدان الفقه إلى الأذى بمخالفة الكتاب والسنة » وقال أن شاعر الفقهاء حج سنة ٥٦٦هـ وتوفي سنة ٥٦٧هـ وكان له إبن فقيه عارف شاعر [اسمه علي] مات سنة ٥٨١هـ .

٧ ـ ١٣ ـ أبو الطيب طاهر بن يحيى بن أبي الخير
[٥١٨ ـ ٥٨٧هـ]

وسنختتم حديثنا عن ابن أبي الخير وتلاميذه بذكر ابنه وتلميذه العالم المناظر المؤلف في الفقه وعلم الكلام ؛ قال « ابن سمرة » وهو يتحدث عن أصحاب وتلاميذ « ابن ابي الخير » : « ومنهم شيخي القاضي الأجل العلّامة أبي الطيب طاهربن الامام يحيى بن أبي الخير العِمراني ولد في ذي الحجة لست عشرة ليلة خلَت منه سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، وتفقّه بأبيه الامام يحيى ، وخلفه في حلقة مجلسه ، وأجاب على المشكلات في حياته » [ص ١٨٧] .

وقال انّه جالس العلماء وروى عنهم وأخذ عن غير واحد وعندما عمّت فتنة ابن مهدي ولاحق الفقهاء والعلماء ، وبعد أن توفى والده كما ذكرنا فرّ طاهر بأولاده وجميع أهله الى الحجاز وجاور بمكة سبع سنين فروى عن كبار المحدثين في الحرم كالشيخ الامام الحسين بن علي الانصاري ، والشيخ ابوحفص الميانشي ، وعبد الدائم العسقلاني ، ومقرىء الحرمين الشريفين محمد بن ابراهيم بن أبي مُشَيرح الحضرمي ، ووصلَتْ إليه وهو مجاور بمكة إجازات من كبار علماء العراق .

ثم لما جرى بين أمراء مكّة الخلاف على السلطة والتنازع على الامارة أعجزته الاقامة لضعفه وخوفه على أولاده فقرّر العودة الى وطنه اليمن سنة ٥٦٦هـ فظفر به « ابن مهدي » قبل دخوله زبيد فأمر من ساعته من أحضره إلى مجلسه ، وأحضر القاضي محمد بن أبي بكر المُدَحْدح وتناظرا بين يديه فقطعه القاضي طاهر واستظهر عليه ، وسأله ابن مهدي ان يخطب على منبر زبيد فحّدث بعد رواحه من زبيد انه نظّم الخطبة على المنبر ؛ وولاه « ابن مهدي » قضاء اب وذي جبلة من سنة ٥٦٧هـ الى بعض أيام شمس الدولة توران شاه وله مصنفات مليحة منها : « مقاصد اللمع » وكتاب « جلاء الفِكَر في الرد على نفاة القَدَر » و« كسر قناة القدرية » و« مناقب الامامين محمد بن أدريس الشافعي وأحمد بن حنبل » و« معونة الطلّاب بفقه معاني كلم الشهاب » وغير ذلك وجمع بين علوم كثيرة « وغلب عليه علم الكلام » ثم قال ابن سمرة : « وكان أبوه يقول : والله لو يقدّر الله لولدي

طاهر الخروج الى البلاد التي شرف بها العلم ليعلونّ درجة الامامة ، وكان يقول أيضاً : طاهرٍ فقيه سامي الذكر وانما أمات ذكره بلد السوء » ثم قال : « مع ما تقـدّم من جمع أبيه لأحبابه وأصحابه في « ذي أشرق » سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، فأمره ان يصعد المنبر وسأله عن اعتقاده فأجابه ولده بما كَذّب كلّ حاسد ، وأدحض تلبيس كل بغيض معاند ، ثم التقاه والده الى سفْل المنبر وقال : هل انكر الاخوان من هذا شيء ؟ وقال : والله ان ولدي هذا لَعالِمُ زمانه ولكن اخمله زمان السوء » . هكذا النص مع انه لم يتقدّم شيء عن جمع أبيه لأصحـابـه ! والـذي يظهر ان تحريفاً أو شطباً قد حدث في النسخة التي اعتمد عليها المحقق عندما طبع ونشر « الطبقات » وقد تنبه لذلك وقال في هامش ص ١٨٧ ـ ان نصوص النسخ التي كانت بين يديه عند تحقيق الكتاب مختلفة كل الاختلاف مع الأصل وفي بعضها زيادات هامة واختلاف في العبارات وردت عند السبكي أيضا ولذلك اسْتَحْسَنَ أن يقدّم عبارة النسخة الحضرمية كاملة ، والتي تقول في نهايتها « ولما غلب عليه علم الكلام جمع أبوه أصحابه » الخ . وقد حاولت « التلفيق » في تلخيصي لترجمته والجمع بين عبارات الأصل وما نقله المحقّق عن السبكي والنسخة الحضرمية ومع ذلك فقد ظل الكلام غير متناسق وفيه فجوات تدل على أن عبارات قد أزيلت حتى من النسخة الحضرمية وكأن هناك كلام قد شطب أو غيرّ وبدّل . فيما يتعلّق بميل طاهر الى « علم الكلام » الذي كان والده يكـرهـه ويحـذّر منـه ، وينهي عن الخـوض في بحـار مشاكله ، وقواميس مسائله ؛ وابن سمرة يقول في الأصل « وغلب عليه علم الكلام » أو : « ولمّا غلب عليه علم الكلام جمع أبوه أصحابه الخ » كما في النسخة الحضرمية ، ولا بد أن خلافاً بين الأب والابن أو بين الابن ومشايخ عصره قد حصل فابن ابي الخـير وجميع تلامـذتـه يتبعـون نهج الامـام أحمـد بن حنبل في أصول العقائد ، ويخطئون كلّا من « المعتزلة » و« الأشاعرة » وكأن الابن الشيخ طاهر كان قد مال الى مقالات « الأشعري » وحصل لغط وخصام بينه وبين أبيه وتلامذة أبيه ؛ وقد رجعت الى « مطلع البدور » لابن ابي الرجال فوجدته قد أشار الى ذلك الخلاف في ترجمته للقاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام ونقل عن ابن سمرة نفسه ان خلافاً حاداً قد حصل بين الشيخ يحيى وابنه طاهر ويلغ ذلك الخلاف الى حد تكفير كل منهما للآخر قال [لوحة رقم ٣٨٠

جـ ـ ٣ نسختنا] « وكان الفقيه المذكور [يعني علي بن عبد الله البرمي الذي ناظر القاضي جعفر] حنبلياً رأيه ورأي صاحب البيان المعروف بالعِمراني من شافعيّة الفروع وهما حنبليّان يكفّران الأشاعرة ؛ وكانت طائفة اليمن تكفّر الأشاعرة واختلف العِمراني وهو يحيى بن ابي الخير بن سالم وولده طاهر المعروف بأبي الطيب فكان يحيى يكفّر طاهراً ولده لأنه أشعري وطاهر يكفّر يحيى لأنه حنبلي ؛ وتاب طاهر من مذهب الأشاعرة وقام خطيباً بذلك ثم رجع بعد موت أبيه » .

وبهذا النص يزول اللبس ونعلم لماذا فرح الشيخ بابنه ، وقال فيه ما قال تمجيداً وثناءا ، وجمع الناس من أصحابه وأحبابه « وأمر ابنه بالصعود على المنبر وسأله عن اعتقاده فأجابه بها كذّب كل حاسد ، وأدحض تلبيس كل بغيض معاند » ونفهم السبب وراء ذلك كله وان كلاماً قد شطب من بعض نسخ « طبقات الشافعية » لابن سمرة . كما حصل لكتب الهمداني .

وأخيراً قال : ومات رحمه الله ليلة الأربعاء من شهر ربيع سنة ٥٨٧هـ وبه تفقّه ولداه محمد وأسعد وغيرهما . [طبقات ص ١٨٦ ـ ١٨٩] .

٨ ـ القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام
[ت ٥٧٣هـ]

مِدْرَهُ الزيدية وعالمها المجتهد المطلق الفقيه الاصولي الفروعي المتكلّم المحدث القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام ؛ وقد عرفناه محدثاً بين المحدّثين وعلماء السنة ، وتردّد اسمه كثيراً ونحن نتحدث عن الشيخ يحيى بن أبي الخير الذي حصل بينه وبين القاضي جعفر النقاش الحاد والجدل العنيف وكما غلب على « ابن ابي الخير » الفقه ولكنه ألّف في علم الكلام مع انه يكرهه وينهي عنه ، كذلك ألّف « ابن عبد السلام » في الفقه . . ولكن علم الكلام كان هو مضماره الذي جلّى فيه ؛ ومع ذلك فان كتابه في الفقه « نكت العبادات » وشرحه من مراجع علماء الزيدية وقد رتبه على أبواب الفقه مع ايراد الأدلة من القرآن والسنة أو ما يرويه الأئمة عن الامام علي عليه السلام وهو متداول معروف لدى علماء اليمن ومنه عدّة نسخ في مكتبة جامع صنعاء [أنظر الفهرست ص ٣١٥] وقد تكفّلت بطبعه ونشره « دار الندوة »

في بيروت وكلّفت بضبط نصوصه وقرائته وتحقيقه والتقديم له . . وعسى أن لا ينشر هذا الكتـاب إلاّ وهو في أيدي القرّاء فانه من احسن كتب الفقه وأنفسها وأجدرها بالاعتهاد .

وقد كان القاضي جعفر من أكبر أنصار الامام أحمد بن سليهان وكان في الأصـل « مطرِّفيا » ثم تحوّل فكـان من أكـبر خصـومهم ، وكان أبوه عالم الاسماعيلية وخطيبها والذي اليه يصدرون ، وعلى رأيه يعتمدون كما يقول ابن ابي الرجال وأما أخوه الشاعر يحيى بن أحمد الذي كان شاعر الاسماعيلية ولسانهم فقد قتله عبد النبي بن مهدي ضمن من أعدمهم من الفقهاء والشعراء .

وكان الامام المنصور عبد الله بن حمزة إذا أراد الاحتجاج أو الاستشهاد بكـلام الامـام أحمـد بن سليهان أو القـاضي جعفـر يقول : « قال الامام والعالم ، أو ذكر الامام والعالم ، أو أفتى بذلك الامام والعالم فيعلم السامع أو القـارىء انهما المقصـودان وقد قيل على أهل اليمن نعمتان في الاسلام الأولى الهـادي ، والثانية القاضي جعفر » [مطلع لوحة ـ ٣٧٧ قسم ـ ٣ ـ نسختنا] وسنؤجل الحديث عنه الى ان نتحدّث عن علماء الكلام وأصول الدين فنورد أسماء كتبه وأسماء تلاميذه وبعض مناظراته ان شاء الله .

٩ ـ ١٠ الفقيهان السحاميّان

وليس في الامكان الاحاطة بكلّ من ألّف في الفقه خلال فترتنا التاريخية التي نؤرخ لآدابها [٤٣٩ ـ ٥٦٩هـ] ولكننا لا يمكن ان نغفل ذكر الفقيه سليهان بن ناصر السحـامي أحـد تلاميذ الامـام أحمـد بن سليهان وكتابه « شمس الشريعة » في ثلاثة مجلدات وله أيضاً « الروضة » و« النظام » وقد ترجمه ابن ابي الرجال في مطلع البدور [٢٩٧ قسم ـ ٦ ـ نسختنا] وذكر أخاه علي بن ناصر السحامي صاحب « البيان » المعروف عند فقهاء اليمن ببيان السحامي ومنه نسخة في مكتبة جامع صنعاء وكذلك من كتاب أخيه ، ولم يذكـر مؤلّف مطلع البـدور سنة وفاة أي منهما لكنهما عاشا الى أيام الامام عبد الله بن حمزة .

١١ ـ ابن سراقة أول من ألّف في علم الفرائض .
[ت ٤١٠هـ]

عنوان هذا الفصل الرابع هو « الفقه والفرائض » ؛ ولعلّ القرّاء قد لاحظوا اني حتى الآن لم أذكر اسم أيّ كتاب لفقيه من فقهاء هذه الفترة ألّفه في علم الفرائض والمواريث ؛ ولم أتحدّث عن أيّ « فقيه فرضى » ، وأعني صنَّفَ في ذلك العلم ، إذ أنّ من المفروض أن الفقيه لا يسمى فقيها الاّ إذا كان ذا معرفة حسنة بعلم الفرايض وفنون المواريث وقسمة التركات .

والواقع ان أحداً لم يشتهر بالتصنيف في علم المواريث خلال الثلاثة القرون الأولى للهجرة من فقهاء اليمن ، وكانوا ـ وحتى أواخر القرن الرابع ـ عالةً على مؤلفات غيرهم من علماء وفقهاء العالم الاسلامي ، أو على ما في أمهات كتب الفقه العامة لأئمتهم ؛ ولم يظهر مؤلّف مستقل ـ فيما نعلم ـ إلاّ والقرن الرابع الهجري يلفظ أنفاسه الأخيرة ؛ إلاّ إذا كان هناك من كتب الفرايض ما لايزال مفقوداً أو مجهولاً ، أو أن المتخصصين في هذا الفن كانوا يحتفظون بمسائله وافتراضاته لأنفسهم وذويهم لأنه علمٌ يدرّ مالا !

وعلى كلّ فالأمر متروك للبحث وانما أتحدّث في حدود معلوماتي وهي متواضعة ولا سيما في هذا الباب ، وقد سبق أن وصفت الفقيه العلامة ابن سراقة محمد بن يحيى العامري المتوفي عام ٤١٠هـ بأنه كان « فرضياً » وذلك لأنه تفقه وهو بالبصرة على الفقيه المشهور « ابن اللّبان » إمام عصره في علم « الفرائض » والذي كان يقول : « ليس في الأرض فرضيّ إلا من أصحابي أو أصحاب أصحابي أو لا يحسن شيئا » .

وللفقيه ابن سراقة مؤلف في الفرائض اسمه « كفاية المبتدي » ذكره ابن سمرة في طبقاته ص ١٠٧ ـ وهو يتحدّث عن الفقيه الفرضى اسحاق بن يوسف الصردفي الآتي ذكره وإذن فابن سراقة العامري هو أول من ألف كتاباً خاصاً في علم الفرائض من فقهاء اليمن .

١٢ ـ الحسن بن عقامة
[ت ٤٨٠هـ]

وذكر البحاثة الحبشي ان للأديب الشاعر القاضى الحسن بن محمد

بن عقامة مختصر في « علم المواريث » نقلاً عن كتاب « السلوك » للجندي .

١٣ ـ اسحاق الصرّدفي
[ت حوالي ٥٠٠هـ]

وقد اشتهر في اليمن بعد ابن سراقة الشيخ الفقيه الفرضيّ اسحاق بن يوسف بن يعقوب الصّردفي قال ابن سمرة « تفقّه باسحاق العشاري وكان علامة في علم المواريث والحساب والفرائض و « كافيه » دالٌ على علمه » وقال انّه ألف كتابه « الكافي في الفرائض » وهو هارب مستخف في قرية « سَيْر » ، وان أهل اليمن في عصره استغنوا عن الكتب القديمة في المواريث بكتابه « الكافي » وكانوا قبله يتفقهون في الفرائض بكتاب ابي بقية بن محمد بن أحمد الفرضى وبكفاية المبتدي لمحمد بن يحيى بن سراقة العامري » ، وذكر المحقق فؤاد سيد في هامش الطبقات ان صاحب كشف الظنون ٢ : ١٣٧٧ ذكر كتاب « الصّردفيّ » بعنوان : « كافي الحساب » وان له شرحاً من تأليف صالح بن عمر السكسكي المتوفي سنة ٧١٤هـ وآخر لفخر الدين ابي بكر محمد بن الحسن الكرجي الحاسب وزير بهاء الدولة . [ص ١٠٦ ـ ١٠٧ طبقات] وقد ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان مادة « صردف » ج ٣ ص : ٤٠١ .

وقال العلاّمة القاضى محمد الحجري في كتابه « بلدان اليمن وقبائلها » نقلاً عن ابن مخرمة : « الصّردف بالفتح وسكون الرّاء المهملة وفتح الدال المهملة ثم فاء قرية مباركة شرقيِ الجند تحت الجبل الذي يقال له « سورق » اليها ينسب الامام ابو يعقوب اسحاق بن يوسف بن يعقوب بن ابراهيم بن عبد الصمد الصردفي مؤلف « الكافي في الفرائض » الكتاب المشهور الذي لم يتفقّه أحدٌ من أهل اليمن في الفرائض إلاّ منه ؛ وهو يدل على سعة علم مؤلفه ، ودقّة فهمه ومعرفته . [ص ٤٦٥ ج ٣ ـ] وقال انه توفي بمحله على رأس الخمسمائة سنة . ومن كتاب الكافي عدّة نسخ في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء .

١٤ ـ عمارة الفقيه الفرضي
[ت ٥٦٩هـ]

وأخيراً هل لنا أن نذكر عمارة اليمني بين أعلام الفقهاء والفرضيين لهذه الفترة التي تنتهي باستشهاده سنة ٥٦٩هـ كما ذكرناه فيها مؤرّخاً وكما سنذكره من فحول شعرائها ؟ .

لقد التزمت ان لا أتحدّث عن شخص مّا برّز في فنّ من الفنون العلمية والأدبيّة إلّا إذا كان قد ألّف وصنف في ذلك الفنّ ، أو أثرَ عنه شيء فيه من منظوم أو منثور .

وقد اشتهر اسم « عمارة الفقيه » في « زبيد » و« عدن » و« ذي جبلة » قبل أن يقول « شعرا » ، وقصّته التي تخبرنا كيف أصبح « شاعراً » سنرويها عندما نتحدث عن « عمارة الشاعر » ؛ أما لقب « الفرضي » فقد ناله صدفةً ، ودونما تعمّد ؛ أي دون أن يبذل جهدا لكي يبرّز في هذا الفن ، ويتخصّص في وظيفة قسمة التركات كما يفعل من يريد ذلك ويصبو اليه من الفقهاء .

وقد حدثنا حديثاً عجيبا عن تلك الصدفة التي استحق بها أن يحشر بين « الفقهاء الفرضيين » في هذه الفترة من فترات تاريخ اليمن الثقافي ، وعرّفنا على فرضي عبقري مجهول لم يؤلف في هذا الفن كتابا مع انه كان من أساطينه وهو أحمد بن محمد الحاسب الحضرمي يقول عمارة في كتابه « المفيد » وهو يتحدّث عن الوزير رزيق الفاتكي : « وأمّا كرمه فكان أكثره على الشعراء ، ولم يكن في زمانه من يقدر على ما يقدر عليه من الأكل حتى كان يضرب به المثل ، وكان له بنين ذكور واناث ثلاثون ولداً وتناسخت فريضته وفريضة من مات من أولاده وأولادهم قبل القسمة ؛ فانتشرت واتسعتْ حتى لم يقدر أحد من العلماء على قسمتها ؛ وكان الوزير مفلح ، والوزير اقبال ، والوزير مسعود الفاتكيّون قد أراد كلٌّ منهم أن يبتاع من ورثة الوزير رزيق أراضي ورباعا فلم يصلوا الى ذلك لعدم القدرة على معرفة صحة سهام كل وارث .

ولما كان في سنة ٥٣٩هـ وجدتُ في « عدن » شيخاً من أهل حضرموت يسمّى أحمد بن محمد الحاسب ؛ وكان حاسباً فرضيا [حجة في احكام

الميراث] قد جاوز الثمانين وهو يريد الحج وكان صَرُورة [لم يحج بعد] ، ولم يملك مذ خلقه الله تعالى عشرة دنانير ولا يصدّق من يقول له : رأيت ألف دينار ! لأنه كان فتىً ناشئا في بلاد كندة مما يلي الرمل ؛ فانكسر مركب في ساحل البحر المجاور لهم فوقع منهم الى رمل كندة رجل عالم زاهد ، وهو شيخ هذا أحمد الفرضي ؛ فأخذت هذا الفقيه الى منزلي بعدن وكسوته وأمرت من كان معي باكرامه وإطعامه وتنظيفه من فضلات البدن ، وخضاب لحيته وأطرافه بالحناء ؛ فلما حسنت حالته عادَلني في محمل من عدن الى زبيد ووعدته أن أحجٍ به معي ، وأكفيه كل مؤونته ففرح بذلك ووثق به وسكن اليه ؛ وذاكرته ليلةً ونحن على الجمل فريضة بني رُزَيق وهي احدى وخمسون بطناً فاندفع فيها كأنّه يحفظها غيباً حتى طلع الفجر ولم يأخذني نوم لفرط المسرة بعلمه ؛ ثم قال : ان شئت ان نترك السفر هذا اليوم ونقيم على هذه البئر . . ولن نصلي صلاة الظهر حتى أكون قد صحّحت الفريضة ، وعرفتك سهام كل وارث على الانفراد ؛ ففعلت ذلك ، فناولني الفريضة مكتوبة بخطه عند الغداة ؛ ووالله لقد طالما اجتمع عليها عثمان بن الصفّار ، ومحمد بن علي السّهامي ، ونظراؤهما من الفرضيين وما منهم الاّ من يرى ان « ابن اللبان » من أتباعه في علم الفرايض والوصايا والدور والجبر والمقابلة ، وفي الزمان المتطاول كانت تصنع الوزراء لهم الولائم ، ويخلون لهم المنازل ، ويوسعون لهم في الصّلات ثم يفترقون فيها على غير شيء .

ولما وصلت الى زبيد اسكنت الفقيه في آخرة الدار بحيث لا يراه أحد غيري ، وكنت باللّيل أقرأ عليه الفرائض ؛ وبالنهار أقرأ عليه حرف ابي عمرو بن العلاء في القرآن العظيم ، وكان فيما يقرئه القراءات السبع ، ثم أخذت أكرّر المسألة التي لورثة رزيق ، إلى ان صرت أتحدّث بها مع نفسي غيبا ؛ ثم تقدّمت الى القائد سرور الفاتكي فادعيت عنده معرفتها ، وهو من أشد الناس حرصاً على الابتياع من آل رزيق ؛ فقال : إن صحّت دعواك دفعت لك كذا وكذا مبلغاً قد أنسيته ، فلما صحّت أحضر المال فدفعه الى الفقيه أبي عبد الله محمد بن القاسم الأبار ، وهو رأس الشافعية يومئذٍ بزبيد بل باليمن وعليه قرأت المذهب الشافعي ، ثم جمع الفقهاء الى قاعات أرضية مفروشة بحرّ الرمل ، وحبس كل قوم يضربون في الرمل ناحية

عن غيرهم فاذا صح لهم بطن نقلوه من الرمل إلى الأوراق إلى ان صحت لهم الفريضة جميعها ؛ ولم يبرح من هنالك حتى قسم المال بين الفقهاء وأجزل نصيبي منه ، ورجعت الى منزلي فأحضرت المال الى الفقيه الحضرمي فقال : استغفر الله يا ولدي فقد كنت أكذّب من يقول انه رأى مائة دينار ! ثم دفع المال إليّ وقال : لا حاجة لي به وأنت تكفيني ؛ فحججت به ومات رحمة الله عليه بعد قضاء الحج » .

ولمّا همّت الحبشة أهل زبيد بقتلي في سنة خمسين وخمسمائة قال لهم القائد سرور : « أليس هو صاحب مسألة « رزيق » لا والله لا يُقتل » ! [ص ١٠٥ ـ ١٠٦ تحقيق حسن سليمان] .

تلك هي قصة « عمارة الفرضى » ؛ وبها نختتم الفصل الذي ربما كان قد سبّب لبعض القراء السأم والملل . ولعلهم قد بدّدوه بهذه الخاتمة الظريفة ، وأكبروا الشيخ الحاسب الزاهد المقرىء الفرضى أحمد بن محمد الحاسب الحضرمي الذي لم يترجم له أحد من المؤرّخين . وعرفناه أستاذاً للشاعر المؤرخ عمارة اليمني في علميّ الفرائض والقراءات .

٦ ـ علم الكلام ومحاذيره

لا بدّ من الاشارة الى ان الايغال في المسائل « الكلامية » ، وفلسفة ما وراء الغيب قد يوّرط في محاذير ، ويوقع من ليس ذا فطنة وألمعيةٍ وايمان راسخ وعقل سليم في وساوس وأوهام تشذ بصاحبها عن طريق الهدى ؛ فيشطح ويضلّ عن معرفة أسرار الحكمة الالهية ؛ وما أشبه من يتوغّل في تلك المواضيع براكب الصّعبة « إن أشنق لها خرم ، وان أسلس لها تقحّم » كما يقول الامام عليّ رضى الله عنه ؛ وهو نفسه لما سئل عن القدَر قال : « طريق مظلم فلا تسلكوه ، وبحرٌ عميقٌ فلا تلجوه ، وسرّ الله فلا تتكلّفوه » وذلك هو الذي جعل علماء السلف الصالح وأئمة أهل السنة يكرَهون ، ويكرّهون الخوض في علم الكلام حمايةً للعقائد من الضلال والعقول من الزيغ .

وقد وجد بين تلاميذ أساتذة هذا الفن وأعلامه من تأثّر ببعض ما حاوله أقطاب المتكلّمين من المعتزلة والزيدية من دحض وتفنيد لآراء وأفكار الفلاسفة والطّبيعيين وكان تأثّرهم معاكساً لما قصده أساتذتهم ! . وتورّطوا في أوهام رجعوا بها الى افتراضات سفسطائية انتقلوا بها من مجرّد الخلاف حول « الامامة » وبعض المسائل الفقهيّة إلى نقاش سخيف حول « الطبائع » ، بعيد كل البعد عن القصد الأساسي والهدف الرئيسي لعلم الكلام وهو تحصيل عقائد صحيحة تترتب صحة الشرائع عليها وبيان معرفة ثابت الوجود سبحانه وتعالى وحكمته وعدله واستثارة دفائن العقول لترسيخ الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر . مما أدى الى صراع دام سنتعرض له عند الكلام عن « المطرفية » في الفصل القادم ان شاء الله . ونذكر أيضاً المؤلفين في هذا الفن من تلاميذ القاضي جعفر وتلاميذهم . وقد سبق أن استعرضنا أعلام علم الكلام وذكرنا بعض مؤلفاتهم الى بداية العهد الصليحي .

علم الكلام في العهد الصليحي

أما في « العهد الصّليحي » الذي « اصطلحنا » على أن يكون عنوانا لهذه الفترة التاريخية من سنة ٤٣٩هـ الى عام ٥٦٩هـ فقد حَمِيَ فيه واستعر وطيسُ حرب « علم الكلام » بضراوة لا ترحم ؛ اذ قد استعادت فلول « الباطنية » أنفاسها ، واستطاعت تحت شعار « محبة أهل البيت » ، والنقمة على استهتار « العباسيين » و « عُمّالهم » في اليمن ، أن تستجمع قواها ، وتعيد تنظيمها بأساليب جديدة ، منتميةً الى أعظم قوة شرعية تعارض الخلافة العباسية المهترئة في بغداد ، وهي الدولة « الفاطمية » في مصر ؛ ومستعينة بقواها المعنوية ، أكثر من قواها المادية .

وكانت الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، بل وشخصية « علي بن محمد الصليحي » ، والأفذاذ من الرجال الذين ناصروه ، وتعاونوا معه ، قد ساعدت « النظام الباطني » برئاسة الصليحي ؛ على ان يسحقَ ويقهرَ كلَّ من كان يلعب في مسرح السلطة من ملوك ، وسلاطين ، ومشايخ ، وأمراء ، وأئمة !

ولم يتمكن من ذلك ، ولم يتحقق دون جهد وعناء ، ولا كان سهلاً ولا

ميسوراً بل قد أريقَتْ في سبيله الدماء الغزيرة ، وقطعت الرؤوس الكثيرة ، وازهقت آلاف النفـوس والأرواح ، وسُملتِ الأعـين ، وهُتِكت الحـرم والأعراض ، ونُهبت كرائم الأموال . . وليس ذلك فحسب بل وزامل تلك الحرب الضروس في السهـول والجبـال صراعٌ بياني بالأشعـار والـرسـائل والخـطب ، وجـدال فكـري بالكتب والمنـاظـرات ، وصـال وجـال علماء الكـلام ، ومنـظّرو العقائد ، وأصحاب المبادىء ، وكل يدّعي أنّه يمثّل « الفرقة الناجية » ، والفئة التي تريد أن تنقذ الأمة من الضلال ، وتهديها الى سبيل الرشاد ، وتضمن لها الرخاء والاستقرار والعدل وسعادة الدارين .

ومـا لا ينتهي العجبُ منـه ، بل وما يبينّ المدى السَّحيق من الشتات والتمزّق الذي ارتكست فيه اليمن إجتماعياً وعقائدياً وسياسيا . . أن ذلك الصراع بالسيف أو بالقلم ، بالسنـــان أو باللســـان ، لم يكن ينشب بين الطوائف المتباينة والمختلفة عقيدةً أو عنصرا أو مذهبا فقط ؛ بل ويحدث بين المتنافسين من أبناء الطائفة الواحدة ؛ ولم يكن ـ مثلاً ـ يقتصر على الفئتين « الاســماعـيلية » و« الــزيدية » ، أو بين « الحنــابلة » وأهــل السنــة و« البـاطنية » ؛ أو بين أيّ طائفتـين منهـما ، وبـين « الشيعة » الهادويين فقط . . بل ويحدث أيضاً بين المختلفين رأياً أو سياسةً أو حمقاً ، من أتباع الطائفة أيّ طائفة ، فينشب الصراع والجدل بين من يخرج على طائفته ويرى الانضـام الى أخرى ، أو يدّعي الاستقلال والرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ، أو بين من يدّعي انه الأفضل والأحقّ ، وبين من توصل الى السلطة بالسعي أو بالوراثة من أبناء وأتباع طائفته ومذهبه ! .

ولقد كان صوت « الحمّادي » الاسماعيلي الباطني الذي خرج على طائفته تائبـاً ، وفضح أسرارها أشد وقْعاً ، وأنكى وجَعاً عند « الصّليحيين » من أصـوات خصـومهم « الزيود » و« الشوافع » ، وقد سمعنا ما حدث بين الشيخ يحيى بن أبي الخير وابنه طاهر ؛ وكيف كفّر كلّ واحد منهما الآخر ؛ وليس لأنه « رافضي » أو « باطني » لا يؤمن بالله وشرعة الاسلام ، بل لأن الشيخ كان سلفياً كالامام « ابن حنبل » ، وكان الابن « أشعَريّاً » ! ورأينا كيف اشتد الصراع بين ورثة « النظرية الزيدية » من أحفاد الهادي ، وأبناء « المهدي العياني » ، وانه كان أشدّ ضراوة مما كان يجري بين أي فريق منهم

وبين « الباطنية » والسلاطين المتغلّبين ؛ وسنرى ما دار بين آخر أئمة العصر العباسي في اليمن أحمد بن الحسين ، وبين أبناء الامام المنصور عبد الله بن حمزة حتى قدّموا رأسه هديةً الى الملك المظفر الرسولي ! وقد نستعرض قبل ذلك المعارك « الكلامية » بين « المطرفية » و « المخترعة » وكلاهما فرقة « زيدية » « هادوية » ، وكيف انتهى ذلك الجدل والنقاش بالمأساة الدامية التي باء بثقل تبعاتها كاهل إمام كبير من أئمة الزيدية المنصور عبد الله بن حمزة . فليست عنا ببعيد ، وسبيل بحثنا سيُفضي بنا اليها قريبا .

ولن نعلّق على أيّ شيء من كل ذلك برأي شخصي ، كما اننا سنكتفي بذكر مؤلفات علماء الكلام من كل فرقة ؛ أو على الأصحّ ممّا يتيسّر لنا الاطلاع عليه أو معرفته من مصنفات كل فرقة ؛ فليس الى الاحاطة من سبيل ، وما غاب عنّا وفات هو الجمّ الكثير ، وسألتزم ـ كالعادة ـ وقدر المستطاع التّسلسُلَ التاريخي ، معتذراً من القصور والتقصير ؛ فانّي أقرع باباً مجهول المفاتيح ، وأسلك وادياً مُشْتَبه الأعلام ، وأتحدث عن موضوع بكر ـ وأعني تاريخ اليمن الثقافي في العصر العباسي ـ وشواهده وأمثاله وعناصره منثورة مشتّتة في ألف كتاب وكتاب .

أعلام « المتكلّمين » وكتبهم

١ ـ **الامام ابو الفتح الدّيلمي** الذي سبق ذكره وانه استشهد على يد الملك علي محمد الصّليحي سنة ٤٤٤هـ له مؤلف في علم الكلام اسمه « الرسالة المبهجة في الردّ على فرقة الضلال المتلجلجة » يردّ بها على المطرفية وقد ذكرها المؤرّخ زبارة في أئمة اليمن ج ـ ١ ـ ص ٩٠ .

٢ ـ **محمد بن مالك بن ابي الفضائل الحمّادي** المتوفي حوالي عام ٤٧٣هـ وقد عاصر الملك علي محمد الصليحي وله كتاب « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » نشره العطّار سنة/ ١٩٥٥ م .

٣ ـ **الفقيه المقري عبد الله بن يزيد اللُّعْفيّ الحرازي** المتوفي حوالي ٥١٠هـ ترجمه « ابن سمرة » فقال : « كان فقيهاً عارفاً حافظا خطّاطا مجوّدا له تصنيفٌ في أصول الدين وعلم الكلام يسمى : « السبع الوظائف ، على مذهب السلف الصالح » ، وله تصانيف في القراءات مليحة » ؛ ثم ذكر انه

كان ذا دعابة وانه دخل يوماً المسجد بذي جبلة فوجد فيه جماعة من الأمراء والسلاطين والمشايخ يتحدّثون فسلم عليهم وحيّاهم فتجاهلوه واحتقروا مظهره ، وما لبث ان جاء رسول الأمير مفضّل بن أبي البركات يستعجل الشيخ عبد الله بالدخول عليه ، بينما قد أمضى أولئك السلاطين وقتاً ينتظرون اذن الأمير مفضّل بالدخول عليه ، فعندما سمعوا استعجال الأمير مفضّل للشيخ رفعوا أعينهم اليه وقالوا : هل أنت فقيه ؟ فضحك وقال : مجازاً لا حقيقة . قالوا : كيف ؟ فقال : مثل السلاطين الحقيقة الذين منهم « المفضل » و« أسعد بن وائل » والسلاطين « المجاز » الذين أنتم منهم » . ثم قال : « مات رحمه الله بعد الخمسمائة » [ص ١١٢] وقد ترجمه الجندي في السلوك لوحة : ٨٤ وذكر السبكي ان اسم كتابه في أصول الدين « السبع الوظائف في أصول الدين على مذهب السلف » وفي نسخه : « السبع الوضائح على مذهب السلف الصالح » . وبذلك تستقيم السجعة .

٤ ـ الداعي الذؤيب بن موسى الوادعي
[٥٢٠ ـ ٥٣٦هـ]

يقول الدكتور الهمداني انه بعد وفاة يحيى بن لمك سنة ٥٢٠هـ أقامت الملكة السيدة بنت أحمد في رئاسة الدعوة بعده الشيخ الذؤيب بن موسى الوادعي وقرّرت « اعلان استقلال اليمن من سيطرة مصر ، وانفصال هيئة الدعوة من مركزها بالقاهرة » « كما فصلت الدعوة عن شئون ملكها وعيّنت « الذؤيب » داعياً مطلقاً للامام المستور لأسباب فصلها الدكتور الهمداني ولذلك فالداعي ذؤيب يعتبر أوّل الدعاة المطلقين « في دور الستر » الذي ابتدأ باختفاء الامام الطيب بن الآمر » ونظنه لا يزال !

وقال د . الهمداني : « وكان الذؤيب علماً من أعلام اليمن وسمي « فُراص الكتب » لاستخراجه دفائنها وفكّه رموزها » « وله رسالة تسمى « برسالة النفس » وتتضمّن بعض آراء إسكندر الافروديسي التي تتفق مع مسائل الدعوة الحقيقية » [الصليحيون ص : ٢٦٩] ولم يذكر الهمداني سنة ولادته ولكنه ذكر سنة وفاته عند ترجمته لخلفَه السلطان ابراهيم الحامدي وذلك عام ٥٣٦هـ .

٥ ـ السلطان الخطاب بن الحسن الحجوري
[ت ٥٣٣هـ]

قد سبقت ترجمته ضمن من تحدثنا عنهم من شعراء ومؤلّفي السلاطين وحكام اليمن في هذه الفترة ، وكان الكلام عن عقيدته وخلافه مع أخيه سليمان وعلمه ومؤلفاته وأشعاره ؛ وقد كان تلميذاً للداعي ذؤيب ومؤازراً له في اقامة الدعوة الاسماعيلية كما يقول « الهمداني » وتوفي قبل أستاذه « الذؤيب » بثلاث سنوات أي عام ٥٣٣هـ .

ومن كتب الخطاب في علم الكلام : « رسالة النفس » وكتاب « منيرة البصائر » و « رسالة النعيم » و « غاية المواليد » .

٦ ـ السلطان الحامدي
[٥٣٦ ـ ٥٥٧هـ]

لما توفى الداعي « الذؤيب » بن موسى سنة ٥٣٦هـ وكان تلميذه وناصره السلطان الخـطّاب الحجوري قد توفي قام بأمر الدعوة الاسماعيلية للامام المستور في اليمن وما يتبعها مذهباً واعتقاداً في « الهند » و « السند » . وكان يطلق على كل تلك المناطق في مصطلح الدعوة الباطنية : « جزيرة اليمن » السلطان ابراهيم بن الحسين الحامدي الهمداني ؛ وكان مقرّه صنعاء واستمر في منصبه أكثر من عشرين عاماً ، ونظراً للظروف وتضعضع الدولة الصليحية والدعوة الاسماعيلية بعد وفاة الملكة السيدة وتمزقها الى فئات وأحزاب ما بين « عدن » و « صنعاء » و « نجران » وتخلّص معظم مشايخ وسلاطين همدان من جميع المذاهب فقد اتبع الشيخ « ابراهيم الحامدي » سياسة الانزواء والمواظبة على دراسة علوم الدعوة ونشرها » كما يقول الدكتور الهمداني [ص : ٢٧١] وقد اتخذ له أعوانا و « مأذونين » أمثال علي بن الحسين الأنف ، ثم حاتم ابنه ومحمد بن طاهر الحارثي الشاعر الذي يقول في احدى قصائده الى المأذون » علي بن الحسين الأنف :

أبا حسن أنقذت بالعلم أنفساً ... وأمّنتها من طارق الحدثان
فجوزيت بالحسنى ، وكوفيت بالمنى ... ودمت سعيداً في أعزّ مكان
عمرت بصنعا « دعوة طِيبيّةً » ... جعلت لها أسّاً ، وشدت مباني

***

ومن مؤلفات السلطان ابراهيم الحامدي كتاب « كنز الوالد » ذكر فيه آداب دعوتهم ورسائل « اخوان الصفا » والرسالة الأخيرة الجامعة منها وأشار الى نظرية الشخص الذي ألّف الرسائل ويقول الحبشي انه قد طبع سنة ١٩٧١ م [ص : ٩٦ مصادر] وله كتاب « الابتداء والانتهاء » وكتاب « تسع وتسعين مسألة في الحقائق » و « الرسالة الشريفة في المعاني الطاهرة الظريفة » حول الامامة ومنها نسخة في جامع صنعاء وسنتحدث عن مؤلفات أعوانه « الأنف القُرشي » و « الحارثي » وحاتم بن ابراهيم الحامدي وغيرهم في الفصل القادم والأخير عندما نؤرخ لآداب الفترة الرابعة من فترات تاريخ اليمن الأدبي إن شاء الله .

وكانت وفاة الحامدي هذا سنة ٥٥٧هـ [الصليحيون ص : ٢٧٠ - ٢٧٢] .

٧ - يحيى بن أبي الخير
[ت ٥٥٦هـ]

سبق الكلام عليه والتحدث عنه وعن حياته ومؤلفاته وتلاميذه باسهاب عندما تحدثنا عن كتب الفقه والفرائض ، وذكرنا اسم كتابه « الانتصار في الردّ على القدرية الأشرار » ، ومن اسمه يستطيع القارىء ان يتصوّر طريقته واسلوبه . وقد أجاب الشيخ يحيى بكتابه هذا على العلامة جعفر بن أحمد بن عبد السلام الذي وصل الى ابّ وتناظر مع بعض فقهائها في علم الكلام ومسائل « أصول الدين » وطلب مناظرة امامهم « ابن أبي الخير » ، فامتنع ، وبعث اليه بأحد تلاميذه كما تقدم ثم ألف كتابه « الانتصار » يرد به على ما أطلع عليه من مؤلفات القاضي جعفر وعلى معاصريه من فقهاء « الأشاعرة » .

ويقول محقق كتاب طبقات فقهاء اليمن الأستاذ فؤاد سيد انه يوجد من كتاب « الانتصار » نسختان بدار الكتب المصرية احداهما برقم : ٨١٨ علم الكلام كتبت سنة ٧٠٧هـ والأخرى برقم : ٨٣٥ علم الكلام وقال : « جاء في مقدمته أنه ألّفه عندما علم أن قاضياً زيدياً معتزلياً لقبه شمس الدين قدم الى « إب » وأظهر القول فيها : بأن العباد يخلقون أفعالهم وان القرآن مخلوق وغير ذلك من مذاهبه » ودعا الناس الى ذلك وسأل الناس المناظرة من أهل

السنة فأجاب عليه « العِمراني » برسالة ذكر فيها الأخبار المروية عن النبي ﷺ بالتحذير من القدرية فلما رأى القاضي شمس الدين هذه الرسالة ، صنّف في الردّ عليها كتابا وسماه : « الدامغ للباطل من مذاهب الحنابل » فلما اطلع عليه العِمراني صنّف في الردّ عليه هذا الكتاب « الانتصار » [ص - ١٨ هامش] .

٨ - الامام أحمد بن سليمان

[٥٠٠ - ٥٦٦هـ]

سبق الحديث عن الامام المتوكل أحمد بن سليمان ودعوته ومعاركه البيانية والحربية وأهم آثاره ومؤلفاته وأخباره وأشعاره ومن مؤلفاته في علم الكلام :
١ - الحكمة الدرية ، والدلالة النبوية ، ومنه عدة نسخ في مكتبة الجامع .
٢ - الرسالة الصادقة في بيان ارتداد الفرقة المارقة (في الرد على المطرفية) . ٣ - الرسالة الهاشمة لأنف الضلال من مذهب المطرفية الجهال .

٩ - ابراهيم بن محمد بن قاسم

[ت ٥٦٥هـ]

ترجم له ترجمة موجزة مؤلف « المستطاب » لوحة : ٦٤ فقال : « السيد العلامة صارم الدين ابراهيم بن محمد بن قاسم من ولد الامام يوسف الداعي ؛ كان من العلماء الفضلاء ، قال في الترجمان وله مؤلف في أصول الدين موسوم بالعقد الثمين في معرفة رب العالمين ؛ قال : « لكنه لم يكمله بل بلغ الى مسألة الارادة فأتمه السيد الحسن بن أحمد بن المهدي الآتي ذكره » ولم يذكر سنة ولادته ، ولا عام وفاته ، ولكنه ذكره ضمن العلماء المعاصرين للامام أحمد بن سليمان المتوفي سنة ٥٥٦هـ وقد ترجمه ابن أبي الرجال في « مطلع البدور » وذكر له شعرا ؛ وترجمت له في كتابي « شعراء اليمن في الجاهلية والاسلام » السفر الأول .

١٠ - نشوان الحميري

[ت ٥٧٣هـ / ١١٧٨ م]

ومن الذين اشتغلوا بعلم الكلام في هذه الفترة ، وخاضوا معاركه الفكرية ، وجادلوا وناظروا فيه القاضي نشوان بن سعيد الحميري ، الفقيه

اللغوي الأديب الشاعر وله في ذلك عدة رسائل وكتب ومنها :

١ ـ التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض .

٢ ـ صحيح الاعتقاد ، وصريح الانتقاد .

٣ ـ التبصير في الدين .

[مصادر الحبشي ص ـ ٩٦ ـ]

١١ ـ القاضي جعفر
[ت ٥٧٣هـ]

وسنقف الآن عند علم شامخ من أعلام « المتكلّمين » في اليمن وهو القاضي جعفر بن أحمد بن يحيى بن عبد السلام شيخ الزيدية ومِدْرَهُها الفذ ، والذي سبق أن وقفنا معه « محدّثاً » و« فقيها » ، ودار ذكره في عدّة مناسبات ولا سيما ونحن نتحدّث عن خصوماته الفكرية ، ومعاركه « الكلامية » مع الشيخ يحيى بن أبي الخير العِمراني وتلامذته الحنابلة والأشاعرة منهم على السّواء .

واذا كان علماء الزيدية ومؤرخوا رجالها وعلومها وآدابها قد قالوا : إن للّه على أهل اليمن نعمتان ؛ الأولى الامام الهادي يحيى بن الحسين فقد أنقذهم بجهاده ومؤلفاته من الباطنية وطاغوت الجاهلية الجهلاء ؛ والثانية القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام فهو الذي وطّد أركان الزيدية الهادوية بالمنطق ، وثبّت قواعدها ، وأرفد أصولها بانظار واجتهادات وأفكار علماء أهل البيت وفطاحل المعتزلة في العراقين . . إذا كانوا قد قالوا ذلك قديما : فأنّ من يرصد حركة التطوّر الثقافي والفكري بل والسياسي في اليمن يؤيّد ذلك ؛ بل ويقول ان للقاضي الفضل على الفكر الاسلامي أيضاً ؛ فقد كادت أن تتلف مصنّفات المعتزلة في العراق خلال القرنين الخامس والسادس إحراقاً وتغريقا ؛ فلما سافر القاضي جعفر الى العراق سنة ٥٤٤هـ عاد حاملا معه الكثير من كتب المعتزلة ، ولما رحل رحلته الثانية الى العراق استصحب عند عودته أمهات الكتب في الأصول والفروع والمعقول والمسموع وعلوم القرآن العظيم كما ان تلميذه الامام عبد الله بن حمزة أرسل بعد ذلك دعاته الى العراق وغيرها لاستنساخ مؤلفات المعتزلة وكان ذلك سبب حفظها . وهو فضل للزيدية وشيخها القاضي جعفر على المعتزلة والتراث الاسلامي لا يُنْكر ، ولولاه لضاع منه الجم الكثير .

وقد ترجم للقاضي جعفر العلامة أحمد بن صالح ابو الرجال في « مطلع البدور » فقال : « القاضي الحجّة شيخ الاسلام ناصر الملّة شمس الدين ، وارث علوم الأئمة الأطهرين جعفر بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد السلام رحمه الله ، شيخ الزيدية ومتكلّمهم ، ومحدثهم ، قال ابن فند الصّعدي ما لفظه : « عالم الزيدية المخترعة وإمامها ، وكان أبوه عالم الباطنية وحاكمها وخطيبها ، والذي اليه يصدرون ، وعلى رأيه يعتمدون ، وأخوه شاعرهم ولسانهم وقتله عبد النبّي بن مهدي ؛ فهَدَى اللهُ القاضي جعفر فانقطع الى الزيدية ورحل الى العراق » . وقال السيد الهادي في كتاب كاشف الغمة : « ان القاضي جعفر كان من أعظم أعضاد الامام أحمد بن سليمان وأنصاره » قال : « وطالما ذكرهما الامام المنصور بالله [عبد الله بن حمزة] واحتجّ بكلامهما فيقول : قال الامام والعالم ، ذكر الامام والعالم ، أفتى بذلك الامام والعالم ، وقد قيل : على أهل اليمن نعمتان في الاسلام الاولى الهادي والثانية القاضي جعفر » [لوحة ٣٧٧ قسم ٣] ثم ذكر أول اتفاقه مع الامام أحمد بن سليمان بذمار في مخرجه الى « زبيد » وأنه كان « مطرفياً » ، فلما وصل الى العراق تبيّن له انه على غير شيء وقد سأله الامام : « هل علمتَ أحداً ممن لقيته بالعراق يقول شيئا مما تقوله « المطرفية » أو تعتقده أو تعمل به ، أو وجدت ذلك في كتاب ؟ فقال القاضي : لا فقال الامام : فانه يجب عليك ان تردّهم عن جهلهم ، وتنكر بدعهم فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إذا ظهرت البدع من بعدي فليُظهر العالم علمَه فإنْ لم يفعل فعليه لعنة الله » . ومن ردّ القاضي على الامام نعلم ان شوكة « المطرفية » في ذلك الحين كانت قد قويت ، وانتشر مذهبهم في اليمن إذ قد أجاب على الامام بقوله : « قد عرفتُ ما تقول ولكن القوم كثير ، وقد صاروا ملء يمننا هذا ، ولو انكرت عليهم لرموني عن قوس واحدة وأنت يا مولانا تقرب وتبعد ، وإني أخافهم ، ولا طاقة لي بهم » ، ولكن كلام الامام كان قد أثّر في القاضي وهو ممن يرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأظهر كتبه التي وصل بها من العراق وتعرّض للتدريس والتعليم في « سناع » فلما تسامع به الناس وصلوا اليه من قريب وبعيد قال ابن أبي الرجال : « فعند ذلك وقع مع أهل « وقش » من الغم ما لا مزيد عليه لِوجهين : أما أحدهما فغاروا منه ، وعلموا أنّه يستميل الناس عنهم ، ويأخذ ما يعتادونه منهم ،

والثاني انه يتبيّن للناس ما يكتمونه من مساويهم ، وقبح اعتقادهم » ، ثم ذكر اجتماعات مشايخ وزعماء « المطرفية » وتألّبهم على القاضي وأنهم هجوه وكانوا يقولون للناس لتنفيرهم عنه : « هو باطنيّ ابن باطني » ! ولمّا دعاهم للمناظرة العلنية قالوا له ومن الحاكم ؟ قال : إمام الزمان يقصد أحمد بن سليمان فأبوا ذلك . فقال : هلموا نتناقش عند العامة وضرب لهم الأمثال فلم يسمعوا ؛ وقصدهم إلى مركزهم « وَقَش » وقال تعالوا نستعرض كتب الائمة ونتدبرها لنعرف الذي خالفها منا ومنكم فلم يسمعوا ، وقام في وجهه رجلان منهم يقال لأحدهما مُسّلم اللحجي من أهل « شطب » ، والآخر يحيى الفقيه فآذياه وسبّاه فعاد الى « سناع » ومعه جماعة من الأشراف ذكر بعض أسمائهم .

نُصرة الامام ابن سليمان له :

وكان القاضي جعفر قد أسّس مدرسة بجانب مسجد « سناع » وبدأ يلقي فيها دروسه ، وقصده الناس أفواجا فعارضه « المطرفية » بعمارة مدرسة أخرى في الجانب المقابل من المسجد ، وزاد النزاع بين أتباع الطّرفين ، وارتفع القاضي الى بيته فرجموه ليلاً بالحجارة فلمّا بلغ الامام أحمد بن سليمان ما يلاقي القاضي من « المطرفيّة » قال : قد وجبت علينا نصرته فلم يزل يطوف البلاد ينهي الناس عن مذهب التطريف ويحذرهم من دعاته حتى أثر ذلك مع أكثر الناس ونفروا منهم إلاّ القليل كما هو مذكور في سيرة الامام . [مطلع لوحة ٣٧٩ قسم ـ ٣ ـ نسختنا] .

أعلم الناس في زمنه :

ثم ذكر رحلته الى العراق وأخذه عن علمائها قال وكان يقال : سار وهو أعلم أهل اليمن ورجع وهو أعلم أهل العراق ! .

قصة المناظرة واختلاف رواياتها :

وقد ذكر المؤرخون ذهاب القاضي جعفر الى « إب » بقصد مناظرة الشيخ يحيى بن ابي الخير العمراني في مسائل أصوليّة وسبق أن أوردنا ما قاله « ابن سمرة » وزعمه ان علي بن عبد الله البرمي كان رسول بن أبي الخير الى القاضي ليقوم بمناظرته ، وأنه قد أفحم القاضي ؛ وقال أحد المؤرّخين من

أتباع مذهب « ابن أبي الخير » ان صاحبه قد أفحم القاضي جعفر حين استشهد بقوله تعالى ﴿والله خَلَقَكُم وما تعملون﴾ (آية ـ ٩٦ ـ الصافات) .

وأن القاضي لم يدر بماذا يجيب عليه ؛ وذلك بعيد لان سياق الآيات الكريمة تدل على ان المراد الأصنام التي كانوا يعبدونها وقبلها : « قال أتعبدونَ ما تَنْحِتون » ؛ والقاضي أجل من ان يخفي عليه ان معناها خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ؛ وكيف لا وهو القاضي البهلولي جُذَيل الجدل المُحكّك ؛ وعُذيق المناظرات المرجّب ، وهذا الإيراد من المسائل البدائية عند طلبة المعتزلة ؛ وكما يقَال : عمل النجّارُ الباب والكرسي وعمل الصائغ السّوار والخلخال ، والمراد عمل أشكالها وصورَها دون جواهرها ، والأصنام جواهر وأشكال وخالق جواهرها هو الله سبحانه ؛ وعلى كل فالمسألة خلافية ، والجدل والنقاش طويلان ، ولا نريد ان ننتصر لفئة أو مذهب ولكنّا نستبعد أن يحجم أويفحم القاضي بمثل هذا الاحتجاج ، أو لايدري كيف يناقش خصمه فيه ، وقد أورد ابن أبي الرجال قصة المناظرة مؤيداً للقاضي جعفر فقال : انّه قصد « إب » لمناظرة العِمراني فحاصَ ابن ابي الخير عن المناظَرة ؛ ثم ذكر انه التقى بعلي بن عبد الله البرمي المرسل من « العِمراني » وان هذا قد حزّب الفقهاء معه ، وأرادوا البطش بالقاضي كما يفعل العاجز عن الحجة مما جعل القاضي جعفر يلجأ الى الشيخ محمد بن أحمد صاحب « شواحط » فآواه وأمّنه ، وطلب القوم للمناظرة وقال ان البرمي وصل « فأفحش على القاضي وتسفّه وأضحك نفسه والحاضرين بحماقات لا تليق بالعلماء [لوحة ٣٨١] وقال ان مراسلة قد دارت بين القاضي والعِمراني . وقد سبق القول بأن أخبار وروايات تلك المناظرة وما دار من مراسلة بين العالمين الجليلين متناقضة في كتب ومؤلفات اليمنيين ؛ كلّ يرويها حسب هواه ، وطبقاً للمذهب الذي يقتفيه وينتسب الى طائفته . وكان أقرب المؤرخين الى الإنصاف هو العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم في كتابه « المستطاب » ؛ فبعد أن أثنى على القاضي وذكر رحلته الى العراق ونزاعه وخصوماته مع المطرفية ، قال : « وادّعى بعض مؤرخي اليمن من « الأشاعرة » ان القاضي جعفر لما نزل الى جهة اب تناظر هو وسيف السنة . . فقطعه سيف السنة بحضرة السطان وذكر قصة المناظرة ؛ « نعم المناظرة وقعت بين القاضي جعفر وبين سيف السنة تلميذ العِمراني ، وكأن

العمراني لما بلغه ذلك عمل رسالة الى القاضى جعفر فردّ عليها القاضى جعفر بكتاب سماه « الدامغ للباطل في الرد على الحنابل » لأن الشيخ يحيى العِمراني وهو صاحب البيان في فقه الشافعية كان على رأي الحنابلة في الأصول فلمّا وصل الكتاب الى العِمراني أجاب عليه بكتاب بسيط سماه « الانتصار » ؛ وتبرّى العمراني مما نسبه اليه من الجبر وقال : المجبرة هم أصحاب « جَهْم » وليس أهل السنة كذلك ، وقد رأيت الكتابين كتاب « الانتصار » جواب العمراني على القاضى جعفر وكتاب القاضى « إنارة السراج » وما حكاه عن صاحبه من الايراد وذكر التبّري من مقالة « الجبرية » لكن القاضى لم يسلّم له ذلك ؛ وصار يجيبه بما يعود عليه بالنقض في أصوله ؛ والله يُحبّ الانصاف !

نعم قد سلم القاضى جعفر في كتابه هذا « إنارة السراج » بما تبرى منه صاحبه من « الجبر » وانهم غير قائلين به وانما يقول به « الجهميّة » ولكنّه انتقل بعد التسليم الى إلزامهم الجبر بطريق اثباتهم بخلق الأفعال من الله تعالى ، وهو لا يَلزمهم ذلك لأن المعتزلة لا ينكرون ان الخلق لله تعالى في جميع الأشياء بالنظر الى الشرع ، وانما خلاف المعتزلة بالنظر الى اللغة ، كما صرح به « النّجري » في شرح القلائد ؛ مع ان بعض المعتزلة وهو أبو القاسم البلخي لا يفرّق بين اللغة والشرع ، فان الخلق لا يجوز نسبته الى غير الله تعالى كما يقول أهل السنة » . [لوحة ٦٥ مستطاب] .

مؤلفات ورسائل القاضي جعفر في علم الكلام :

للقاضى جعفر عشرات الرسائل والكتب في علم الكلام ؛ وجلّها معروف متداول ، وتوجد منها نسخ في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ودار الكتب المصرية ومنها :

١ ـ المسائل العشر التي فيها الخلاف بين الشيعة ، وما شاع لأجلها من الخلاف والقطيعة .

٢ ـ نظام الفوائد وتقريب المراد للرائد .

٣ ـ الصراط المستقيم ، في تمييز الصحيح من السقيم .

٤ ـ خلاصة الفوائد .

٥ ـ الدلائل الباهرة .

٦ ـ رسالة في الردّ على المطرفية .
٧ ـ النقض على صاحب المجموع المحيط .
٨ ـ الفاصل بالدلائل بين أنوار الحق وظلمات الباطل .
٩ ـ إبانة المناهج في نصيحة الخوارج .
١٠ ـ المسائل القاسمية .
١١ ـ الاحياء على شهادة الاجماع .
١٢ ـ المسائل الهادوية .
١٣ ـ شهادة الاجماع .
١٤ ـ ايضاح المنهاج في فوائد المعراج .
١٥ ـ تقويم السائل وتعليم الجاهل .
١٦ ـ أركان القواعد .
١٧ ـ كتاب العمدة .
١٨ ـ منهاج السلامة .
١٩ ـ الرسالة الرافعة بالتنبيه على شبهات التمويه .
٢٠ ـ كتاب : المسائل : الكوفية ، العقلية ، الألاهية ، النّبوية المرتضاويّة ، المهديّة ، المسكتة ، الشافعية ، الوافية ، القاطعة ، الرافعة ، المطرفية .
٢١ ـ كتاب الرسائل : الرسالة الناصحة ، الفاتحة ، القاهرة ، الجامعة ، المطيعة السامعة ، المواخاة ، المضاهاة ،
٢٢ ـ الاصدار والايراد والتنبيه على مسالك الرشاد .
٢٣ ـ الدامغ للباطل من الحنابل .
٢٤ ـ شرح قصيدة الصَّاحب بن عباد في عقائد المعتزلة .
٢٥ ـ النصرة لمذاهب العترة .

كل هذه الكتب والرسائل ذكرها البحاثة عبد الله الحبشي ، وبينّ في أيّ مكان توجد نسخها . [انظر المصادر ص : ٩٧ ـ ٩٨] وقد سبق ذكر مؤلفاته في الفقه والحديث .

وقد ترجم له الدكتور حسين العمري في كتابه مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني ص : ١٤٨ ـ ١٥٠ وجعل وفاته عام ٥٧٦هـ مع ان المعروف المشهور انها كانت سنة ٥٧٣هـ ؛ وقبره في هجرة « سناع » وعليه قبّه .

مدرسة القاضي جعفر وتلاميذه :

لقد كان القاضي جعفر مؤسّس وصاحب مدرسة ؛ وكان ركن الجدل وعلم الكلام واجهتها ؛ ومن هذه المدرسة تخرّج عشرات التلاميذ الافذاذ في عصر القاضي ، والمئات من نوابغ علماء اليمن عبر العصور ، ومنهم من الّف في علم الكلام وعقائد الزيدية ومسائل أصول الدين المصنّفات المشهورة ، وسنتعرض لذكرهم في هذا الفصل ، ونذكر من جاء بعدهم بين من سنؤرّخ لآثارهم في الفترة الرابعة والأخيرة من فترات العصر العباسي .

وقد نوّه كلٌّ من أبن أبي الرجال ، ويحيى بن الحسين ببعض تلاميذ القاضي جعفر إجمالا وتفصيلا .

وكما قلت ، إن للبعض منهم مؤلّفات في الفقه والحديث وعلم الكلام ؛ ولابدّ أن نتحدث عنهم وعن مؤلفاتهم ـ إن كان ثمة ـ في الفصول القادمة ؛ غير اني كنت قد تحدّثت عن ثلاثة عشر فقيها من تلاميذ الامام يحيى بن أبي الخير العمراني ؛ ووعدت باني سأتحدّث عن بعض تلاميذ القاضي جعفر ممن تأثر به وكان له شأن في تاريخ اليمن الثقافي والسياسي حتى ولو لم يشتهر بالتأليف .

وبالطبع لن نذكر الآن الاّ من عاصر القاضي أو من كان من اعلام الفترة التي تليه ؛ علما بأنه قد جاء ممن تأثر بكتبه ودرسها من علماء اليمن أئمة وأعلام كان منهم من خالف القاضي أو ناقشه ، وربما فاقه علماً وفكراً وأدبا وشهرة ؛ وهو ما سوف نتحدث عنه عندما نؤرخ لآداب اليمن بعد العصر العباسي إذا نَسَأَالله الأجل ؛ وأسأله تعالى التوفيق .

الأميران الكبيران

قال ابن أبي الرجال : « ومن تلامذته السيّد حمزة بن سليمان والد المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، وابراهيم بن محمد بن الحسين ، وعبد الله بن الحسين والأميران الكبيران بدر الدين وشمس الدين ، والسيد يحيى بن عمارة السليماني ، والأمير قاسم بن غانم السليماني ، والشيخ الحسن بن محمد الرصّاص ، والشيخ محي الدين محمد بن أحمد القرشي ، وسليمان بن ناصر ، وأحمد بن مسعود ، والقاضي ابراهيم بن أحمد القهمي ، وسليمان

بن محمد بن أحمد بن علي بن أبي الرجال واخوانه الحسن وأحمد وعلي ، وعبد الله ومحمد ابنا حمزة بن أبي النجم وجماعة كثيرة من أهل صنعاء [لوحة ٣٨٢] .

وإذا اطلق ذكر أو لفظ « الأميرين » في كتب الفقه والتاريخ والأدب اليمنية فالمراد بهما الأخوان العالمان الشريفان الأمير يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى القطابري وصنوه الأمير محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى وهما من « آل يحيى بن يحيى » الذي ينتسب إليه أيضاً العلامة الشاعر الامام الداعي يحيى بن المحسّن بن محفوظ بن محمد الآتي ذكره في الفصل القادم وهو جدّ آل الشامي في اليمن(١) .

١ ـ الأمير شمس الدين
[ت ٦٠٦هـ]

وقد ترجم ابن ابي الرجال للأمير شمس الدين فقال : « الأمير شمس الدين شيبة الحمد الداعي إلى الله يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى ؛ هو شيخ آل الرسول ، وإمام فروعهم والأصول ، وشمس فضلهم الذي ليس لهم قفول ولا أفول ، علمه أشهر من الشمس في ضحاها ، والقمر إذا تلاها ، له فواضل وفضائل ومحامد توفي بهجرة « قطابر » فقال بعضهم :

الا إن شمس الدين يحيى بن أحمدٍ تقضّت لياليه بشهر المحرّمِ
لست مئينٍ قد تقضى عديدها وست سنين بعد ذلك فاعلم
وعاش من الدنيا ثمانين حجةً سوى حجة ؛ والمرء غير مْسلّم

***

ورثاه المنصور بالله بقصائد رائية قال في بعضها :

عهدنا مغيب الشمس في الغرب دائما فغابت ضحىً « شاميةً » في قطابر !

وقال في أخرى :

فلو كان يُفدى بالنفيس فديته بنفسي وما أحوي من المال والوفر

---

(١) وهو الجدّ التاسع عشر للمؤلف وتوفي سنة ٦٣٦هـ

وفضائل هذا الأمير لا يطاق لها حصر ، ولا يحيط بها سفر [لوحة : ٤٤٥ - ٤] .

وأورد زبارة بيتاً للامام المنصور عبد الله بن حمزة من قصيدة فيه وهو : أخو العلم شمس الدين يحيى بن أحمد بن يحيى حميد الفضل شيخ الفواطم ولم يذكر أيٌّ منهما سنة ولادته ولكنا نستنتج من الشعر انها كانت سنة ٥٢٧هـ [وانظر أئمة اليمن ج ١ ص ١٣٣] .

وأما العلامة « يحيى بن الحسين » الذي ترجم له ضمن من ترجم لهم من تلاميذ القاضي جعفر فقد قال انه مات عن تسع وتسعين عاما سنة ٦٠٥هـ وجعل الشعر هكذا .

لست مئين قد تقضت عدتها   وخمس سنين بعد ذلك فاعلم

نقلاً عن صاحب الترجمات وأضاف الى ما ذكره ابن أبي الرجال زيادات مفيدة منها سلسلة نسبه فقال : « يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى القطابري [نسبة إلى قُطابر] بن الناصر بن الحسن بن الامام العالم المعتضد بالله بن الامام المنتصر بالله محمد بن الامام المختار لدين الله القاسم بن الامام الناصر أحمد بن الامام الهادي يحيى بن الحسين » ثم قال هو : « أحد تلامذة القاضي جعفر ، وفضله أشهر من نار على علم ، وكان اسنّ من المنصور بالله عبد الله ابن حمزة ، وهو أكبر من أخيه الآتي ذكره ، وكان الامام المنصور قبل قيامه محبّاً لأن يلي الخلافة أحدهما يحيى أو محمد صنوه ويكون له من أكبر الأعوان » ، وأورد له بيتاً من قصيدة يناشده فيها النهوض وهو :

يا بن علي بن أبي طالب   قم فانصر الحق على الباطل

ثم قال : « وله فيه وفي أخيه بدر الدين قصائد كثيرة ومراثي بليغة دالة على تعظيمه لهما » .

ترشيح ابن سليمان له :

ونقل عن صاحب « الترجمان » « ابن مظفر ان الامام أحمد بن سليمان سئل عمّن يصلح للامامة فقال : « لا يأتيكم الخير الاّ من هذا » وأشار بيده إلى « شمس الدين » وقال في بعض الروايات : لا يأتيكم الخير الا من هذا أو على يديه » .

ثم قال : وللامام المنصور عبد الله بن حمزة في الأمير شمس الدين وصنوه قوله :

ما خير عيش به التكدير معتلجٌ ... وغايتا منتهاه : الموت والهرم
شيخان من آل طه كلما نطقا ... تساقط الدر والامثال والحكم
بحرا نوالٍ وعلمٍ ؛ كلما وهبا ... مواهباً خجلت من وقعها الديم
ليثا نزالٍ ، وسيفا كل ملحمةٍ ... [وفارسا حومةٍ] والخيل تصددم

في قصيدة طويلة [لوحة ٥٥ ـ ٦٦ المستطاب]

تحقيق سنة مولده :

وعلى قول « ابن مظفر » في « الترجمان » انه مات سنة ٦٠٥هـ عن تسع وتسعين عاماً يكون قد ولد عام ٥٠٦هـ أيام الملكة السيدة بنت أحمد الصليحية ، وزامل في الدراسة الامام أحمد بن سليمان المولد سنة ٥٠٠هـ ولكني استبعد ذلك أوّلا لأن النصّ الشعري صريح بأنه توفي عن تسعة وسبعين عاماً ؛ وثانياً انه رافق أخاه بدر الدين محمد في التلمذة على القاضي جعفر ونحن نعلم انه ولد سنة ٥٢٩هـ وأنه كان يكبر أخاه بحوالي عامين ولذلك فمن المرجح انه ولد سنة ٥٢٧هـ . وعلى كلّ فقد عاش كل من الاخوين الكبيرين أواخر فترة الملكة وتدهور الدولة الصليحية ، وتمزقها إلى مشيخات وسلطنات متهافتة ، وعرفا خلفاء آل مهدي ، ودويلات المماليك في زبيد ، وخاضا النضال المرير مع الامام أحمد بن سليمان ثم مع الامام عبد الله بن حمزة ضد الايوبيين و« الغُزّ » ، وكانا مثلين صالحين للزهد والعفة والجهاد ؛ في عهدٍ يعدّ من أسوأ العهود في تاريخ اليمن سياسياً واجتماعيا .

٢ ـ الأمير بدر الدين
[٥٢٩ ـ ٦١٤هـ]

أما التلميذ الثاني من تلاميذ القاضي جعفر فهو صنوه وقد ترجمه السيد يحيى بن الحسين في المستطاب فقال : « الأمير الكبير محمد بن أحمد بن يحيى على نسب أخيه المتصل الى الهادي ، وكان أصغر من أخيه ، وقد أشرنا الى بعض أحواله في ترجمة أخيه ، وللامام المنصور عبد الله بن حمزة في هذا

الأمير قصيدة منها قوله :

سلالـة أحمـدٍ مولى البرايـا ... وقـائـدهـا وهـاديهـا الـرشيدُ
وأعـظمهـا على الأعـداء ركنـا ... وأصـبرهـا اذا قرع الحـديدُ

إلى ان قال :

كفـى حزنـاً لذي لب بهذا ؛ ... يجولُ على منـابـرنـا الـعبيـدُ !
وعـطّلتِ المسـاجـد للبغـايـا ... وبـالـت في جوانبـهـا اليهـود ،
وأنـت عمـود هذا الـدين فانهض ... وشمس نهارهـا الهـادي الـرشيـد
فقـد فعـل الاعـاجم بالـبرايـا ... فعـالاً تقـشـعـر لها الجـلود
ومـثـلك لا ينـام عن المـعـالي ... ولا يُثـني عزائـمـه الـوعـيـد

***

ثم قال السيد يحيى : « وعلى الجملة فان هذين السيدين من خيرة أهل زمـانهما فضـلا وعلما وعمـلا ، رُوي أنّ المنصـور بالله قال لهما : اعْمـرا « تلْمُصـا » لكسبكما وأولادكما قالا : نستنظر الجواب إلى الغد ، فلما كان الغد أتياه فقالا له : ما نلقى الله بعمارة قلعة يُصبح أولادنا يظلمون الناس [متحصنين بها ويسوقونهم] إليها ! فقال لهما : اعمرا فيه ، ولكما قصدكما ، وعليهم فعلهم ؛ فلم يقبلا منه فعمره الامام المنصور بالله ؛ ومات الأمير بدر الدين يوم الخميس في نصف رجب سنة ٦١٤هـ بهجرة « قطابر » أيضا وقبره مشهور مزور وعمره خمسة وثمانون سنة الاّ شهرا ، وقال الفقيه يوسف في « الثمـرات » وطُلب هذان السيدان للامامة فاختارا الترك ؛ قلت واذا أطلق ذكر « الأميرين » في كتب الفقه فهما هذان » [لوحة : ٦٦] .

وأمـا المؤرّخ ابن أبي الـرجـال فقد قال بعد أن أورد نسبه وسَلْسَلَهُ إلى الهادي : « هذا الأمير الذي خضعت له العلوم ، ونُشر على رأسه المظنون منها والمعلوم ، وعكفت العلماء على بابه ، وتشرفت بلثم اعتابه ، ومضت به كلمة الشريعة في البلاد ، وانخرطت الأمة سلسة القياد ، رجع الناس إليه مراراً للامـامة العظمى فما طاوع لشيء من ذلك ، مع أهليته وكماله ، وقبول كلمته ونفوذها ووجد العذر هو وأخوه الأمير شمس الدين رحمهما الله بوجود الامـام المنصـور بالله [عبـد الله بن حمزة] ، واستمرت الشريعة بالجميع

واستقامت القناة أحسن استقامة ، وشهر سيفيهما الأميران ، وانفذا الكلمة على كل قاص ودان ، ولهما عجائب وغرائب ، وفيهما ممادح غرّاء للعلماء والأئمة ؛ وبالجملة فنظير الاميرين قليل ، ولو أسعد الزمان لكانت هذه الترجمة حافلة بفوائد ودرر ، فقد كنت اطلعت على هذا ولكنه تراخى الزمان عن الكتابة فذهبت عن الذهن فالله المستعان .

ثم ذكر سنة وفاته بما ذكره السيد يحيى بن الحسين [مطلع ص ٢٨٨ جـ ـ ٤ ـ] ووالد الأميرين هو الأمير أحمد بن يحيى بن يحيى كان من أكابر العلماء ترجمه ابن المظفر وقال كان عابداً ورعا زاهدا .

تعزية الأمام له باستشهاد ابنه :

وقد ابتلي الأمير بدر الدين وهو في قمة الثمانين باستشهاد أكبر أولاده الأمير مجد الدين يحيى بن محمد بن أحمد وكان من أكبر قوّاد الامام عبد الله بن حمزة وأعيان رجاله وأعوانه ويقول زبارة في أئمة اليمن ، وفي صفر من عام ٦٠٨هـ سار الأمير الحسن بن حمزة والامير مجد الدين يحيى بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى وغيرهما من أصحاب الامام الى « المهْجَم » و « المحالب » بتهامة فكانت بينهم وبين عسكر « الغُزّ » ملحمة عظيمة انجلت عن قتل الأمير مجد الدين يحيى تحت « دبابيس » الغُزّ ، وجرح فيها الأمير الحسن بن حمزة فكان حملهما إلى هجرة « الحموس » في « حاشد » ودفن الأمير مجد الدين فيها ورثاه الامام بقصيدة منها :

أمرّ الوجدِ ما أَجْرى الدّموعا ... وأَضْلَعَ من فضاضته الضَّليعا
أيحيى ؛ ليتَ عينك أبصرتْنا ، ... ـ لفقدك ليس عن ذل ـ خضوعا
فقدنا منك بحر هدى ، وعلماً ، ... وليثَ شجاعةٍ ، وندى ربيعا

***

وكان مجد الدين هذا كما يقول ابن أبي الرجال : « اجلّ الرجال محلاً ؛ من آيات الله البينات اتّفقت الكلمة على فضله ، وكان أهلاً للامامة ، واستشهد وهو قائد جيوش المنصور بالله وعمره سبعة وستون سنة » [مطلع : ص ٤٥٤ ـ ٤]

ولا شك ان والده قد حزن عليه حزناً بالغاً ، وارتاح لمواساة الامام والتي

يقول فيها :

مصاب الطالبي أبي حسين حمى أجفان أعيننا الهجوعا
فقدناه حساماً مشرفياً ، وبحراً زاخراً ، وحياً مريعا
إمام أئمةٍ ، وشحاك ضدٍّ ، وليثاً خادراً ، وحمى منيعا
لعالَك مِن فقيدٍ أورثتنا رزيته الكآبة والخشوعا
وهوَّن ما ألاقيه بأن الذين سطوا به قتلوا جميعا !
وان أخي سخا بالنفس فيه مواساة فصار له ضجيعا
وان بني أبي ، وسراة قومي ، وغُرّ صحابتي خاضوا النجيعا ،
فردّوا السيف مثلوماً خضيباً ، وردّوا الرمح مقصوداً صديعا
« أبدر الدين » ؛ صبراً واحتساباً فما كان الذي وافى بديعا
وقْل لِسُراةِ قومكم اندبوه وهزّوا البيض والأسل الشروعا
أبوكم اربط الثقلين جأشاً ؛ وكم في معرك هزموا الجموعا !

***

٣ ـ حمزة بن سليمان
[ت حوالي سنة ٥٨٠هـ]

ومن تلاميذ القاضي جعفر الذين كان لهم دور فعّال في حياة اليمن سياسياً واجتماعياً في تلك الفترة السيد حمزة بن سليمان بن علي ؛ وكان من فضلاء أهل عصره وعيونهم ؛ له ـ كما يقول المحلّى في الحدائق الوردية ـ « معرفة بأنواع العلوم ، وكان قد لازم القاضي جعفر وأخذ عنه في شتى أنواع المعرفة وكان القاضي جعفر نفسه يرشحه للامامة ويقول : « لو دعا لأجبنا دعوته » ، كما كان معروفاً بالسخاء والمروة والشجاعة ، ومن سخائه انه لقيه ضيف ولم يكن معه شيء ، فعمد الى ردائه فشقّه واشترى له بثمنه طعاما ، وفي ذلك يقول ابنه الامام المنصور عبد الله بن حمزة في كلمةٍ لمّا لامتْه امرأته على سماحته :

فإن أبي أوصى بنيه بخطّةٍ ولست بناس للوصية من أبي
وباع تراثاً من أبيه لضيفه وشق فصول البرد غير مكذب

وقال يحيى بن الحسين في ترجمته :

«له حفظ في أصول الفقه وبراعة في الفرائض وعلم الكلام والنحو

والطب والنجوم ؛ يعرف علومها ولا يقضي بأحكامها ، وكان ممن يشار اليه لنصرة الدين ، والقيام لجهاد الظالمين ، وكان كثير البركة أينما توجه أصلح ؛ وقد انتقل من « ذي بين » وهي وطن آبائه وقرار أهله ، فحل « مَبْين » من نواحي « حَجّـة » فرجع كثير من أهل « الجبر » ومذهب « الاباضية » من الخـوارج ، الى مذهب العدل والتوحيد » وذكر انه كتب الى الأمير شمس الدين يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى يستنهضه للقيام فعاد جوابه : « إنّا في هذا الأمر على سوا . . فان قمت أجبناك واتّبعناك » . قال : « ومات حمزة بن سليمان المذكور في جهة حجة بمبين وقبره خارج « مبين » مشهور مزور ، ولم يذكر سنة وفاته وكذلك عمل القاضى ابن ابي الرجال في « مطلع البدور » ولم يزد على ما سبق الاّ « إنه كان يقول الشعر الحسن » ، والمرجّح انه توفي قبل دعوة ابنه الامام عبد الله بن حمزة سنة ٥٨٣هـ [المستطاب لوحة ٦٥] .

٤ ـ مجد الدين الحسيني

وذكر السيد يحيى بن الحسين أن من تلاميذ القاضى الشريف العلامة مجد الدين يحيى بنِ اسماعيل بن علي الحسيني وقال نقلا عن « الحدائق الوردية » انه كان متبحراً في العلم يلقّب باستاذ الطوائف ، والمخالف والموالف لتوسعه في كل فن ومعرفته فقه كل فقيه من فقهاء الأمة ، وانه كان رسول المنصور عبد الله بن حمزة إلى ملك العجم ، ولم يذكر سنة وفاته .

التصوف

قلنا ونحن نتكلم عن الفترة الهادوية أن التصوف بطقوسه المعروفة عند أرباب الطرق والزوايا ، وبالأذكار والشطحات البيانية شعرا ونثرا . . لم يعرف في اليمن الاّ بعد القرن السادس الهجري ، وان ما كان معروفاً ومشهوراً قبل ذلك لا يعدوا ما يدل على الزهد والورع والتقشف والتقوى ومحبة الخير والحق . وقلت أن أوّل من الف في ذلك ـ فيما اعلم ـ هو العالم الشاعر علي بن أحمد بن ابي حريصة المتوفي حوالي عام ٣٢٥هـ وكتابه في « الزهد والارشاد » من الكتب المحببة للقلوب المذكرة بالله .

أما في الفترة التي نتحدث عنها [٤٣٩ ـ ٥٦٩هـ] فقد اشتهر اثنائها اعلام من النساك والزهاد ذكرهم مؤلفو الطبقات وعلماء التاريخ وممن ألف في الزهد وطرق العبادة والخشوع .

١ ـ ابن خمرطاش
[ت حوالي ٥٥٤هـ]

وهو أبو العباس أحمد بن خمرطاش وله كتاب « المقالات » في طرق أهل التصوف ، وكان فقيها فاضلا وله شعر حسن ؛ وعندما ظهر ابن مهدي سنة ٥٥٣هـ واعمل سيفه في قتل الفقهاء والشعراء الذين ليسوا من طائفته فر « ابن خمرطاش » إلى « الجبال » وتوفي ولما يتجاوز الثامنة والعشرين في تلك الأجواء [الحبشي ص : ٢٧٢] .

٢ ـ يحيى بن أبي الخير
[ت ٥٥٨هـ]

الامام الفقيه يحيى بن أبي الخير العمراني وقد تقدمت ترجمته وله في هذا الباب عدة رسائل و « مختصر احياء علوم الدين » للامام الغزالي .

٣ ـ محمد بن سعيد القريظي
[٤٩٩ ـ ٥٧٦هـ]

وقد سبق الحديث عنه ضمن علماء السنة والحديث وله في التصوف مختصر احياء علوم الدين للامام الغزالي [طبقات فقهاء اليمن ص ٢٢٥] .

٤ ـ الصيّاد
[ت ٥٧٩هـ]

أحمد بن أبي الخير الصيّاد أحد اعلام الصوفية بزبيد يقول في طبقات الخواص انه كان في بداية أمره من أحد العوام ثم سلك طريق التصوف وترقّى في المقامات حتى أصبح « أحد الاعلام » وله كتاب « تكملة مقالات ابن خمرطاش » وقد نقل الحبشي عن الخزرجي ان الشيخ الصياد لما اطلع على مقالات بن خمرطاش في طرائق الصوفية « زاد فيها خمساً أو سبعا وشحنها بالأشعار وزاد أخباراً وحكايات حتى كملت كتابا » [مصادر ص : ٢٧٢] وتوفي سنة ٥٧٩هـ .

٥ ـ حامد بن ابراهيم الحامدي
[ت ٥٩٦هـ]

وللداعي الاسماعيلي حاتم بن ابراهيم الحامدي العالم الفقيه الشاعر كتاب اسمه « تنبيه الغافلين ، وإيقاظ النائمين » يقول الحبشي ان منه نسخة في مكتبة الجامع الغربية : ٧٨ تصوف ، وسوف نتحدث عن كتب الحامدي هذا عندما نذكر « المتكلمين » من اعلام الفترة الأخيرة ان شاء الله .

التصوف بعد القرن السابع الهجري

هذا وما إن أطلّ القرن السابع حتى نشأت للتصوف في اليمن طرق وزوايا ،

وتوسع انتاج الصوفية وظهر منهم عدة علماء وشعراء ولا سيما في حضرموت وعدن وزبيد وسوف نأتي على ذكر بعضهم ومن اشتهر منهم في العهد الايوبي ومطلع عهد الرسوليين .

المجلس الهدي الإسلامي

خاتمة السفر الأول

ما كنت أحسب عندما عزمت على شرح المقال الذي كتبته لجامعة « كمبردج » البريطانية عن الأدب اليمني في العصر العباسي ، ثم القيته محاضرة في النادي الثقافي بجدة كما أوضحت في المقدمة أن القلم سينطلق كالجواد الجامح ، ويخوض بي في مواضيع إذا كنت قد تصورتها وأنا أجهد نفسي في ايجاز الحديث عنها فلم أكن أتصوّر اني سأضطر الى الاسهاب في شرحها وسرد تفاصيلها .

وانتبهت وإذا بي قد استغرقت في شرح متن أربعة وعشرين صفحة من أصل المقال أو المحاضرة أكثر من خمسمائة وستين صفحة ؛ ولما أشرع في الحديث عن شعر وشعراء الحقبة الثالثة ؛ ونظرت وإذا أمامي أكثر من ستين شاعراً من شعرائها عليّ أن أتحدّث عنهم ، بل وأن أطيل الوقوف مع الأفذاذ منهم كأبن القمّ ، والعَنـدي ، واليافعي ، ونشوان الحميري ، وعمارة الحكمي ، وغيرهم . . علماً بأنه لا يزال أمامنا « الحقبة الرابعة » والأخيرة ، وهي عهد « الأيوبيين » ومطلع « العهد الرسولي » ، والكلام عن ملوكها وأئمتها وسلاطينها وعلمائها وفقهائها ومؤرّخيها ومتصوّفيها وأدبائها وشعرائها سيطول ويتشعّب ولا سيما ونحن سنضطر للوقوف ولأوّل مرة في تاريخ الأدب العربي والفكر الاسلامي مع « المطرّفية » ومأساتهم الرهيبة في اليمن .

ولذلك رأيت الوقوف ، والاكتفاء بما سبق كسفر أول للكتاب ، وتأجيل الحديث عن شعر وشعراء « الحقبة الثالثة » ، ونشره في سفر مستقل .

يكون الثاني من كتاب تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ؛ ثم نتبعه بالسفر الثالث عن الحقبة الرابعة والأخيرة إن شاء الله .

جمادى الأولى عام ١٤٠٦ هـ
يناير ١٩٨٦ م

المؤلف
أحمد محمد الشامي

فهرست السفر الأول من كتاب

« تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي »

رقم الصفحة	العنــــوان
٩	المقدمة : تاريخ آداب العرب ونصيب اليمن منه . .
١٩	أدوار تاريخ الأدب العربي في اليمن .
٢١	حكام اليمن في العصر العباسي
٢٣	الفترة الأولى ؛ فتن وثورات :
٢٤	١ ـ المؤلفون والكتاب
٢٤	١ ـ معمر بن راشد ٢ ـ عبد الرزاق ابن همام الصنعاني
٢٥	٣ ـ بشر البلوي
٢٧	حياة البلوي من رسائله .
٢٨	ولادته ونشأته
٣٣	أطوار حياة البلوي
٣٦	لماذا تحول من المنابذة الى المشاركة ؟
٣٧	دور التشبث والصراع .
٤٠	نهاية عبد الله بن مصعب .
٤١	الخصال التي لا تجتمع في مسلم .
٤٢	خصال عبد الله بن مصعب .
٤٤	المرحلة الرابعة والأخيرة .
٤٦	خصومته مع الفقيه المتآمر .
٤٩	مع ابراهيم الحجبي ، ويحيى البرمكي .
٥١	مواصفات الحاكم المسلم .
٥٤	ما عدا مما بدا ؟
٥٧	رسالة خلع العذار .
٥٩	ثقيل دمٍ .
٥٩	وأخيراً .
٦١	الشعر والشعراء :
٦٢	١ ـ عمرو بن زيد الغالبي
٦٣	تشرده
٦٥	٢ ـ محمد بن ابان الخنفري
٦٦	٣ ـ أحمد بن يزيد القُشيبي الكبير

رقم الصفحة	العنـــوان
٦٨	٤ ـ أحمد بن يزيد القشيبي الثاني
٧١	٥ ـ عبد الخالق الشهابي
٧٤	٦ ـ عبد الله بن محمد بن عباد
٧٥	٧ ـ بكر بن مرداس
٧٧	٨ ـ أحمد بن عيسى الرداعي
٨٢	٩ ـ ابراهيم بن محمد الحوالي
٨٥	أدب المهاجرين
٨٩	موقف الهمداني ومقلديه
٩٠	المزايدات التاريخية
٩٣	من شعراء المهاجر :
٩٤	١ ـ محمد بن مناذر العدني
٩٩	٢ ـ محمد بن عبد الله العرزمي
٩٩	٣ ـ محمد بن زياد الحارثي
١٠١	٤ ـ محمد بن يسير الحميري
١٠٣	٥ ـ محمد بن وهيب الحميري
١٠٤	تعليق وتعقيب
١٠٧	الحقبة الثانية الامامة الهادوية
١٠٨	١ ـ الامام الهادي :
١١٠	صفات الهادي ومذهبه ، الامامة الهادوية
١١١	ونقد الشماحي
١١٤	نظرية الحكم في الاسلام
١١٧	الامامة الزيدية بين النظرية والتطبيق
١٢١	وجهة نظر ،
١٢٢	موقف الحسن بن علي ،
١٢٣	حظ المودة في القربى آثار الهادي
١٢٧	٢ ـ مؤلف سيرة الهادي : علي بن محمد بن عبيد الله العباسي
١٢٨	محمد بن سليمان الكوفي
١٣٠	ترجمة علي بن محمد العباسي

رقم الصفحة	العنــــوان
١٣٣	من هو علي ابن أبي جعفر ؟
١٣٤	١ ـ ولادة علي بن محمد ونشأته
١٣٥	٢ ـ التحاقه بالهادي ٣ ـ نبوغ مبكر ومزاج علمي
١٣٦	٤ ـ أول ظهوره على المسرح
١٣٧	٥ ـ نهاية والده
١٣٨	٦ ـ هل ندم الهادي ؟
١٤١	٧ ـ مرثاته لأبيه
١٤٢	٨ ـ لم يعش بعد الهادي
١٤٣	٣ ـ المرتضى بن الهادي
١٤٧	٤ ـ عبد الله بن الحسين بن القاسم
١٤٨	أخباره في سيرة الهادي
١٥٧	٥ ـ الناصر أحمد بن الهادي
١٥٨	٦ ـ ابن أبي عمر العدني ٧ ـ المراغي
١٥٩	٨ ـ أبو الحسين الطبري
١٦٢	١ ـ ريق الانسان طاهر ٢ ـ زكاة البر بالشعير !
١٦٣	٣ ـ اصلاح جار عربيد !
١٦٣	٤ ـ مع قطاع الطريق
١٦٤	١ ـ التأويل والايمان الصحيح .
١٦٥	٢ ـ علم النبي وعلم المهدي . هل كان مطرفياً ؟
١٦٦	وفاته . دور الطبريين في اليمن
١٦٧	٩ ـ الهمداني
١٦٨	نشأته ومذهبه
١٧٠	العمود الفقري لحياة الهمداني
١٧٦	شهادة قصيدة الجار
١٧٨	أهم أسباب حبس الهمداني
١٨٢	جواره لابن الضحاك في ريدة
١٨٢	ابراز صورته الحقيقية
١٨٤	اعادة النظر في كتبه

رقم الصفحة	العنـــوان
١٨٤	شيخ الهمداني أبو نصر الحنبصي
١٨٧	مختارات من شعر الهمداني
١٩٤	واضرب لهم مثلا
١٩٧	من هو ابن الضحاك ؟
٢٠١	من هو قاتل المختار ؟
٢٠٤	الهمداني بين خصومه وناقديه
٢٠٦	موقف النقاد المعاصرين : ١ ـ محب الدين الخطيب
٢٠٨	٢ ـ الاستاذ الجاسر
٢١٠	٣ ـ الاستاذ بامطرف
٢٢٣	من أقوال العلماء في الهمداني
٢٢٤	الهمداني وخط المسند
٢٣٣	١٠ ـ الكشوري
٢٣٣	١١ ـ الامام القاسم العياني
٢٣٧	١٢ ـ الامام المهدي العياني
٢٤٤	نقد الدراية
٢٤٦	نكبة اليمن وتمزقها
٢٤٧	الاسماعيلية أو « القرامطة » في اليمن
٢٤٩	أقوال المؤرخين ورواية المعري
٢٥٣	نهاية « ابن الفضل » وقسوة الحوالي
٢٥٥	نهاية منصور اليمن واسرته ودعوته
٢٥٦	محاولة ضد حركة التاريخ
٢٥٩	عُقدة ذي يزن
٢٦١	علماء التفسير والحديث ، سجل يمني مجيد في خدمة القرآن والسنة
٢٦٢	١ ـ الاسرائيليات لوهب بن منبه ٢ ـ زبور داوود لوهب بن منبه ٣ ـ قصص الأنبياء لوهب بن منبه ٤ ـ الزهر الأنيق ٥ ـ تفسير القرآن لمعمر بن راشد ٦ ـ التفسير لمحمد بن موسى الصنعاني

رقم الصفحة	العنـــــوان
	٧ ـ التفسير لعبد الرزاق الصنعاني ٨ ـ الناسخ والمنسوخ لعبد الله بن الحسين ٩ ـ تفسير القرآن الكريم للهادي يحيى بن الحسين ١٠ ـ تفسير القرآن له أيضا
٢٦٣	١١ ـ تفسير آية الكرسي للهادي ١٢ ـ تفسير القرآن للهادي ١٣ ـ رد للهادي ١٤ ـ تفسير القرآن للمرتضى بن الهادي ١٥ ـ علوم القرآن للناصر بن الهادي ١٦ ـ الأدلة من القرآن على توحيد الله للقاسم العياني ١٧ ـ تفسير الغريب من كتاب الله للحسين العياني ١٨ ـ البرهان لأبي الفتح الديلمي ١٩ ـ العهد الأكيد له أيضا
٢٦٤	السنة النبوية وعلم الحديث
٢٦٤	١ ـ همام بن منبه ٢ ـ معمر بن راشد
٢٦٥	٣ ـ أبو قرة ٤ ـ عبد الرزاق ٥ ـ أبو هاشم الذماري
٢٦٦	٦ ـ ابن أبي عمرو العدني
٢٦٦	الفقه والفرائض : ١ ـ الهادي
٢٦٧	٢ ـ المرتضى
٢٦٨	٣ ـ ابن سراقة ٤ ـ ابن ملامس
٢٦٩	علم الكلام
٢٦٩	حروب طوائف « علم الكلام » وحظ اليمن منها
٢٧١	الزيدية والصراع الفكري في اليمن
٢٧٣	حركة التأليف في علم الكلام
٢٧٤	١ ـ مؤلفات الهادي ٢ ـ مؤلفات المرتضى ٣ ـ المراغي
٢٧٥	٤ ـ الطبري
٢٧٥	٥ ـ القاسم العياني
٢٧٦	٦ ـ المهدي العياني
٢٧٦	التصوف
٢٧٧	مؤلفات اليمنيين في التصوف
٢٧٨	عبد الله الخراساني
٢٨٠	موقف غريب

رقم الصفحة	العنـــوان
٢٨١	الشعر والشعراء ١ ـ ابن جبران ٢ ـ ابن أبي البلس
٢٨٢	٣ ـ علي بن أحمد بن أبي حريصة
٢٨٤	٤ ـ الحسين بن علي الرسي ٥ ـ أيوب اليرسمي ٦ ـ ابن أبي الأسد
٢٨٥	٧ ـ محمد العوسجي ٨ ـ ابن افنونة
٢٨٧	٩ ـ أحمد بن عباد ١ ـ بداية أمره
٢٨٩	٢ ـ التمرد ٣ ـ وكان زير نساء
٢٩٠	٤ ـ نزوحه الى العراق
٢٩١	٥ ـ عودته وتأمين الهادي
٢٩٢	٦ ـ وفاته وشعره
٢٩٧	١٠ ـ ابراهيم بن الحدوبة
٣٠٠	١١ ـ ابراهيم التميمي
٣٠٣	١٢ ـ محمد الظّليمي
٣٠٤	١٣ ـ عبد الله التميمي
٣٠٥	١٤ ـ الأوساني
٣٠٦	١٥ ـ سلام بن الحداد الصنعاني
٣٠٨	١٦ ـ محمد بن الحسن الكلاعي
٣١٣	الكلاعي والعدوي والوقار ؛ والملاحاة
٣١٧	شهرة الكلاعي ، ومؤلفاته . وفاته .
٣١٨	قصيدة ذات الفنون
٣١٩	١٧ ـ المطهّر بن علي
٣٢٠	١٨ ـ الحسين بن أحمد بن يعقوب
٣٢١	١٩ ـ أحمد القاعي
٣٢٢	الدوامغ في تاريخ الشعر اليمني
٣٢٥	تاريخ وخصائص وزن الدوامغ !
٣٢٧	بحر الدوامغ ،
٣٢٨	الوزن ، القافية
٣٢٩	خصائص الوافر
٣٣٠	موضوع بكر

رقم الصفحة	العنـــوان
٣٣١	دامغة مجهولة
٣٣٥	أدب الاباضية في اليمن .
٣٣٦	خطبة طالب الحق . من هم الأباضية ؟
٣٣٧	الأباضية في حضرموت
٣٣٩	جناية الأباضية على حضرموت
٣٤٠	من هو المهاجر ؟
٣٤١	درس تاريخي وعبرة
٣٤٢	تعليق وتعقيب
٣٤٥	الحقبة الثالثة « فترة الصليحيين » !
٣٤٧	أصل الدعوة وتطورها
٣٤٨	شخصية الصليحي وتوحيده لليمن
٣٤٩	سبّوحان قدّوسان ! زواج الصليحي بالسيدة أسماء
٣٥٠	أهداف الدعوة الصليحية
٣٥٢	سياسة التعايش
٣٥٣	دخول الصليحي مكة وموقفه من الأشراف
٣٥٥	وجهة النظر المعاكسة
٣٥٨	كشف أسرار الباطنية للحمادي
٣٦١	دفاع الدكتور الهمداني
٣٦٤	تعقيب
٣٦٧	الخطأ في الوقف أهون من الخطأ في التكفير !
٣٦٧	نهاية الصليحي
٣٧١	سخرية الشاعرِ العثماني
٣٧٢	هل كان شاعراً ؟
٣٧٣	المكرم وانقاذ أمه من الأسر
٣٧٨	ازدهار الثقافة والتأليف ١ ـ ابن أبي هاشم
٣٧٩	٢ ـ جيّاش
٣٨٠	لا حبشية ولا قرشية في الاسلام
٣٨٣	٣ ـ السلطان سبأ بن أحمد

العنـــوان	رقم الصفحة
زواجه بالسيدة أروى	٣٨٥
٤ ـ عبد الله بن يعلي الصليحي	٣٨٦
٥ ـ ٦ ـ السلطانان الشاعران : الخطّاب وسليمان	٣٨٩
أحرب على السلطة أم على العقيدة ؟	٣٩٠
مصير الخطاب	٣٩٥
عقيدة الخطاب	٣٩٥
عقيدة السلطان سليمان وشعره	٤٠١
السبب المفرق في كل زمان ومكان	٤٠٤
أسرار الصراع	٤٠٧
هل كانوا « عيانيّون » و « تصيلحوا » سياسياً	٤٠٨
الدليل الشعري	٤١٣
اخلاص الخطاب واستقامته	٤١٦
الخطاب العالم	٤١٨
رأي الخطاب في إعجاز القرآن . مناجاة	٤١٩
سليمان الشاعر الغزل	٤١٩
دولة بني زياد وعبيدهم	٤٢٢
البيئة والحياة الاجتماعية . نهاية عبث مَنّ الله بالقيان	٤٢٥
عالم مؤامرات وسموم وقيان : مفلح الفاتكي	٤٢٧
القائد سرور ووردة المغنية	٤٣٠
عموم الفوضى والفساد ، من هابط !	٤٣٢
٧ ـ ٨ ـ علي بن مهدي ؛ وشاعره الهبيني	٤٣٣
صفاته . انقطاع عمارة إليه	٤٣٤
مولده ، وخطبته يوم مبايعته ،	٤٣٥
عقيدته ومذهبه ،	٤٣٦
هل كان شاعراً ؟	٤٤٠
ابن الهبيني المجهول !	٤٤٢
اخطاء النسّاخ والمؤرخين	٤٤٣
٩ ـ مهدي بن علي بن مهدي	٤٤٥

رقم الصفحة	العنـــوان
٤٤٩	١٠ ـ عبد النبي بن علي
٤٥١	كان شاعراً مجيداً
٤٥٢	تشويش أخبار اليمن في مصر والعراق
٤٥٣	ابن النسّاخ يغرى الخليفة
٤٥٤	١١ ـ الامام أحمد بن سليمان .
٤٥٥	حفيد شعراء وأئمة
٤٥٦	ابتداء دعوته والصدف التاريخية
٤٥٧	صوت اليمن والاسلام . .
٤٥٨	منشور شعري ، المنشور النشواني
٤٥٩	المعارك الكلامية والحربية مع آل حاتم
٤٦٣	قصيدة الحميري في وقعة الشرزة
٤٦٤	أهم آثاره ومؤلفاته
٤٦٦	داعية عدل وتوحيد
٤٦٧	شعره سجل تاريخي
٤٦٨	وقعة غيل جلاجل
٤٧٠	زهدية
٤٧٢	سجنه وعماه
٤٧٣	ظهور آراء المعتزلة في اليمن
٤٧٤	١٢ ـ السلطان حاتم اليامي أسره زعامة وشعر : وجده عمران
٤٧٥	عتابه للمكرم
٤٧٧	أبوه أحمد بن عمران . . قاتل الجواري والزوجات
٤٧٩	كيف انتخب حاتم سلطانا ؟
٤٨٠	صفاته وشعره
٤٨٤	مذهب السلطان حاتم
٤٨٦	رأي مؤرخ الصليحيين
٤٨٧	دفاع ابن أبي الرجال
٤٨٨	١٣ ـ السلطان جوهر المعظمي
٤٩١	أعلام الفكر والأدب في الفترة الثالثة

رقم الصفحة	العنـــــوان
٤٩٢	١ ـ المؤرخون ١ ـ الرازي ٢ ـ مسلَّم اللحجي .
٤٩٣	طبقات مسلم
٤٩٥	٣ ـ علي بن أبي بكر العرشاني ٤ ـ أحمد الأشعري
٤٩٦	٥ ـ عمارة اليمني ٦ ـ نشوان الحميري
٤٩٧	٧ ـ ابن سمرة الجعدي
٤٩٧	٢ ـ علماء اللغة والبيان ـ تعدد جوانب النبوغ
٤٩٨	١ ـ الربعي ـ كتاب نظام الغريب
٤٩٩	مقدمة كتاب النظام
٥٠٠	نماذج من كتاب النظام :
٥٠٠	الباب الثاني والثلاثون في أسماء اللبن
٥٠٢	الباب الثامن والعشرون في الشبع والجوع
٥٠٣	الباب الثاني عشر في الحب
٥٠٤	٢ ـ اسماعيل الربعي
٥٠٥	٣ ـ الحسن بن أبي عباد
٥٠٦	٤ ـ ابراهيم بن أبي عباد
٥٠٧	٥ ـ الزبيدي ٦ ـ نشوان الحميري
٥٠٨	شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم
٥٠٩	سالم بن ربيعة بن راشد بن سالم بن عمر النهلوي
٥١٠	النشوانية
٥١١	٣ ـ علماء التفسير
٥١١	١ ـ علي بن موسى الرسي ٢ ـ السلطان الخطاب
٥١١	٣ ـ الامام أحمد بن سليمان ٤ ـ نشوان الحميري
٥١١	٤ ـ السنة النبوية
٥١٢	١ ـ القاضي جعفر ٢ ـ محمد بن سعيد القريضي
٥١٣	٥ ـ الفقه والفرايض
٥١٣	١ ـ جعفر المخائي ٢ ـ زيد الفايشي
٥١٤	أحاظة في عهد بني وائل
٥١٥	عمارة وحماقة بني وائل . وكان الفايشي شاعرا

رقم الصفحة	العنـــوان
٥١٦	٣ ـ الحربي ٤ ـ عبد الله الصعبي
٥١٧	٥ ـ ابن عبد الباعث
٥١٨	٦ ـ ابن أبي الخير العمراني
٥٢١	فصل في ذكر الامام أبي الحسين « ابن أبي الخير »
٥٢٨	كتاب البيان
٥٢٩	طريقته في التدريس . وفاته بعد الفتن والمحن .
٥٣٠	الانتصار وقاضي الزيدية . تناقضات كتب تاريخ اليمن
٥٣١	أصحاب وتلاميذ ابن أبي الخير
٥٣١	١ ـ محمد بن موسى ٢ ـ عثمان العمراني ٣ ـ مسلم بن أسعد
	٤ ـ عبد الله التباعي ٥ ـ علي التباعي ٦ ـ علي بن أبي بكر
٥٣١	٧ ـ أحمد البريهي
٥٣٢	٨ ـ عبد الله بن سالم ٩ ـ محمد بن عمر العمراني
٥٣٣	١٠ ـ عمرو المناخي ١١ ـ علي المساني
٥٣٣	١٢ ـ شاعر الفقهاء العبسي
٥٣٦	٧ ـ ١٣ ـ طاهر بن يحيى بن أبي الخير
٥٣٨	٨ ـ القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام
٥٣٩	٩ ـ ١٠ ـ الفقيهان السحاميان
٥٤٠	١١ ـ ابن سراقة ١٢ ـ الحسن بن عقامة
٥٤١	١٣ ـ اسحاق الصردفي
٥٤٢	١٤ ـ عمارة الفقيه الفرضي
٥٤٤	٦ ـ علم الكلام ومحاذيره
٥٤٥	علم الكلام في العهد الصليحي
٥٤٧	اعلام المتكلمين وكتبهم :
٥٤٧	١ ـ الامام أبو الفتح الديلمي ٢ ـ محمد بن مالك الحمادي
٥٤٧	٣ ـ عبد الله اللّعفي
٥٤٨	٤ ـ الداعي الذوّيب الوادعي
٥٤٩	٥ ـ السلطان الخطّاب ٦ ـ السلطان ابراهيم الحامدي
٥٥٠	٧ ـ يحيى بن أبي الخير

رقم الصفحة	العنـــوان
٥٥١	٨ ـ الامام أحمد بن سليمان ٩ ـ ابراهيم بن محمد بن قاسم
٥٥١	١٠ ـ نشوان الحميري
٥٥٢	١١ ـ القاضي جعفر بن عبد السلام
٥٥٤	نصرة ابن سليمان له . قصة المناظرة
٥٥٦	مؤلفات ورسائل القاضي جعفر
٥٥٨	مدرسة القاضي جعفر وتلاميذه
٥٥٨	الأميران الكبيران
٥٥٩	١ ـ الأمير شمس الدين يحيى بن أحمد
٥٦٠	ترشيح ابن سليمان له .
٥٦٢	تحقيق سنة مولده ٢ ـ الأمير بدر الدين محمد بن أحمد
٥٦٣	تعزية الامام باستشهاد ابنه
٥٦٤	٣ ـ حمزة بن سليمان
٥٦٥	٤ ـ مجد الدين الحسني
٥٦٧	٧ ـ التصوف
٥٦٧	١ ـ ابن خمرطاش
٥٦٨	٢ ـ ابن أبي الخير ٣ ـ محمد القريظي
٥٦٨	٤ ـ الصياد ٥ ـ حامد الحامدي
٥٦٨	التصوف بعد القرن السابع
٥٧١	خاتمة السفر الأول
٥٧٣	الفهرست